ماريو بارغاس يوسا

الفردوس على الناصية الأخرى

رواية

ترجمة : صالح علماني

الفردوس على الناصية الأخرى

العنوان الأصلي للكتاب
Mario Vargas Llosa
El Paraíso en la otra esquina

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية-اللاذقية- ص.ب ١٠١٨
هاتف وفاكس: ٤٢٢٣٣٩ ٤١ ٠٠٩٦٣
البريد الإلكتروني: soleman@scs-net.org

ماريو بارغاس يوسا

الفردوس على الناصية الأخرى

روايـــة

ترجمة: صالح علماني

I. فلورا في أوكزير

نيسان ١٨٤٤

فتحت عينيها في الرابعة فجراً، وفكرت: «اليوم ستبدئين بتغيير العالم يا فلوريتا». لم تُثقل عليها فكرةُ إطلاقِ الآلية التي ستؤدي، بعد بضع سنوات، إلى تحوّل البشرية، واختفاء الجور. كانت تشعر بالطمأنينة، وبالقدرة على مواجهة العقبات التي ستعترض سبيلها. مثلما في ذلك المساء، في سان جيرمان، قبل عشر سنوات، في الاجتماع الأول للسان-سيمونيين؛ عندما كانت تستمع إلى بروسبير أنفانتان، وهو يصف الثنائي-المسيح الذي سيفتدي العالم، وعاهدت عندئذ نفسها، بقوة: «أنتِ ستكونين المرأة المسيح». يا للسان-سيمونيين المساكين، بسلّم مَراتبهم الباعثة على الجنون، وحبهم المتعصب للعلم، وفكرتهم عن أنه يكفي وضع الصناعيين في الحكم، وإدارة المجتمع كشركة، من أجل بلوغ التقدم! لقد خلّفتِهم وراءك أيتها الأندلسيّة.

نهضت، واغتسلت، وارتدت ملابسها، دون تسرع. في الليلة الفائتة، بعد أن زارها الرسام جول لور، ليتمنى لها حظاً موفقاً في جولتها، أنهت إعداد أمتعتها، وأنزلتها إلى أسفل السلّم، بمساعدة الخادمة ماري مادلين، والسقاء نويل تافانيل. هي نفسها تولت حمل الحقيبة التي تضم نسخ ***الاتحاد العمالي***، كتابها الذي طُبع حديثاً. وكانت تضطر إلى التوقف لتلتقط أنفاسها، كل بضع درجات، لأن الحقيبة ثقيلة جداً. عندما وصلت العربة إلى البيت، في شارع دوباك، كي تحملها إلى المرسى، كانت فلورا مستيقظة منذ عدة ساعات.

كان ظلام الليل لا يزال قاتماً. فقد أُطفئت مصابيح الغاز عند

النواصي. وكان الحوذي المتلفع بعباءة لا تكشف إلا عن عينيه، يحث الجياد بسوط صافر. سمعت قرع نواقيس سان سولبيس. بدت لها الشوارع المقفرة والمظلمة، شبحية. ولكن المرسى، على ضفة السين، كان يعج بالمسافرين والبحارة والحمالين، استعداداً لانطلاق الرحلة. سمعت أوامر وصيحات. وعندما أبحرت السفينة، مخلّفة أثراً من الزبد في مياه النهر الداكنة، كانت الشمس تلمع في سماء ربيعية، وكانت فلورا تتناول شاياً ساخناً في الكابينة. ودون إضاعة للوقت، دونت في دفتر يومياتها: ١٢ نيسان ١٨٤٤. وراحت، على الفور، تتأمل رفاقها في الرحلة. سيصلون إلى أوكزير عند الغروب. اثنتا عشرة ساعة لإغناء معارفك عن الفقراء والأغنياء، في هذه التشكيلة من النماذج النهرية، يا فلوريتا.

كان بين المسافرين، قلة من البرجوازيين. وعدد كبير من بحارة المراكب التي تحمل إلى باريس، منتجات زراعية من جوانيي وأوكزير، عائدين إلى المكان الذي جاؤوا منه، يحيطون برب عملهم، وهو شخص ذو شعر أحمر غزير، متجهم وخمسيني، كانت فلورا قد تبادلت معه حواراً ودياً. وبينما هو يجلس على سطح المركب، وسط رجاله، وزع عليهم، بتحفظ، في التاسعة صباحاً، خبزاً. سبع أو ثماني شرحات من الخبز، وقليلاً من الملح، وبيضتين مسلوقتين، لكل واحد منهم. ثم رشفة من نبيذ البلاد، في كأس صفيحية، تنتقل من يد إلى يد. هؤلاء البحارة يكسبون فرنكاً ونصف فرنك عن كل يوم عمل. وفي شهور الشتاء الطويلة، يعانون البؤس والعوز، من أجل البقاء على قيد الحياة. عملهم في العراء قاس، في موسم الأمطار. ولكن فلورا لم تلمح، في علاقة هؤلاء الرجال برب عملهم، ذل عبودية أولئك البحارة الإنكليز الذين يكادون لا يجرؤون على النظر إلى أعين رؤسائهم. في الساعة الثالثة بعد الظهر، قدم إليهم رب العمل وجبة اليوم الأخيرة: شرائح من لحم الخنزير المقدد، وجبناً وخبزاً، أكلوها بصمت، وهم يجلسون في دائرة.

في مرفأ أوكزير، تطلب منها إنزال الأمتعة وقتاً جهنمياً. كان صانع الأقفال بيير مورو قد حجز لها، في نزل صغير وقديم، في وسط المدينة، وصلت إليه عند الفجر. وبينما هي تفتح أمتعتها، بزغت أول الأنوار. دست نفسها في السرير، وهي تعرف أنها لن تغمض عينيها. ولكنها، للمرة الأولى، منذ زمن طويل، وخلال الساعات القليلة التي استلقت فيها، وهي ترى تنامي النهار، من خلال ستائر الكريتون، لم تكن تخيلاتها عن نفسها بالذات، ولا عن الإنسانية المعذبة، ولا العمال الذين ستضمهم إلى **الاتحاد العمالي**.
لقد فكرت في البيت الذي ولدت فيه، في فوجيرار، في محيط باريس، أحد تلك الأحياء البرجوزاية التي تمقتها الآن. أتتذكرين ذلك البيت الفسيح، المريح، بحدائقه المشذبة، وخادماته الدؤوبات؟ أم أنك تتذكرين البيت، من خلال وصف أمك له، عندما لم تعودا ثريتين، بل فقيرتين معدمتين، وصارت السيدة البائسة، أمك، تسلّي نفسها، بتلك الذكريات الخادعة، لتنسى المزاريب، والاختلاط، والازدحام، وقبح الحجرتين الصغيرتين في شارع دو فوار؟ لقد اضطرتا إلى اللجوء هناك، بعد أن طردتهما السلطات من بيت فوجيرار، بحجة عدم شرعية زواج أبويكِ الذي عقده، في مدينة بلباو الإسبانية، كاهنٌ فرنسي مغترب، وبحجة أن دون مريانو تريستان، الإسباني من البيرو، هو مواطن بلاد في حالة حرب مع فرنسا.

من المحتمل، يا فلوريتا، أن ذاكرتك لم تحتفظ، من تلك السنوات الأولى، إلا بما روته لك أمك. لقد كنتِ صغيرة جداً، بحيث لا يمكن لك أن تتذكري البستانيين، والخادمات، والأثاث المغلف بالحرير والمخمل، والستائر السميكة، والأواني الفضية والذهبية، والكريستال، والخزف الملون، يدوياً، الذي كان يزين الصالة، وغرفة الطعام. وكانت مدام تريستان تهرب إلى بهاء الماضي في فوجيرار، كي لا ترى عوز وبؤس ساحة موبير النتنة التي تعج بالمتسولين، والمتشردين،

وأناس الحياة الخبيثة، ولا شارع دوفوار ذاك، المليء بالحانات، حيث أمضيتِ بعض سنوات الطفولة، وأنت - وهذا مؤكد - تتذكرينه جيداً. الصعود والنزول بطسوت الماء، الصعود والنزول بأكياس القمامة. خائفة من أن تلتقي، على الدرج المنتصب، ذي الدرجات المنخورة التي تئن، بذلك العجوز السكير، ذي الوجه الداكن والأنف المنتفخ، العم جوسيب، طويل اليد الذي يوسخك بنظرته، ويقرصك أحياناً. سنوات شحّ، سنوات خوف وجوع وحزن. ولا سيما عندما تغرق أمك في ذهول كامل، وتعجز عن تقبل نكبتها، بعد أن كانت تعيش كملكة، مع زوجها - زوجها الشرعي أمام الرب، بالرغم ممن يقول غير ذلك - دون مريانو تريستان آي موسكوسو، الكولونيل في جيوش ملك إسبانيا، والذي مات مبكراً بسكتة مفاجئة صاعقة، يوم الرابع من حزيران، سنة ١٨٠٧، عندما كان عمرك أربع سنوات وشهرين.

ومن غير المحتمل كذلك، أن تتذكري أباك. فوجه دون مريانو الممتلئ، وحاجباه الكثيفان، وشاربه المعقوف، وسحنته خفيفة الوردية، ويداه مع الخواتم، وسالفاه الطويلان الرماديان، لا تأتيك من الذاكرة، وليست ملامح الأب الذي من لحم وعظم، والذي كان يحملك بين ذراعيه، كي تري تَنَقُّلَ الفراشات بين أزهار الحديقة في فورجيرار، ويتجرأ أحياناً، على إعطائك الرضاعة؛ ذلك السيد الذي كان يقضي ساعات في مكتبه، يقرأ كتابات رحالة فرنسيين عن البيرو، ذلك الدون ماريانو الذي كان يأتي لزيارته، الشاب سيمون بوليفار، المُحرر المستقبلي لفنزويلا، وكولومبيا، والإكوادور، وبوليفيا، والبيرو. إنها ذاكرة الصورة التي كانت أمك تضعها على المنضدة الصغيرة، في شقة شارع دوفوار الضيقة. إنها صور دون مريانو الزيتية التي تملكها أسرة تريستان، في بيت شارع سانتو دومنغو، في أريكيبا، وقد أمضيتِ ساعات في تأملها، إلى أن أقنعتِ نفسكِ بأن ذلك السيد الوسيم، المتأنق، والثري، هو أبوكِ.

سمعت ضجة الصباح الأولى في شوارع أوكزير. وكانت فلورا تعلم أنها لن تنام لمزيد من الوقت. فمواعيدها تبدأ في الساعة التاسعة. وكانت قد رتبت عدة مواعيد، بفضل صانع الأقفال مورو، ورسائل توصية أغريكول بيرديغيي الطيب، لأصدقائه في جمعيات المساعدة المشتركة العمالية، في المنطقة. لديك بعض الوقت. فبرهة إضافية في الفراش، ستمنحك القوة لتكوني على مستوى الظروف، يا أندلسية.

ما الذي كان سيحدث، لو أن الكولونيل مريانو تريستان، عاش سنوات عديدة أخرى؟ ما كنتِ ستعرفين الفقر عندئذ، يا فلوريتا. ولكنتِ، بفضل دوطة جيدة، قد تزوجت من برجوازي. وربما كنت تعيشين الآن، في بيت جميل، تحيط به الحدائق، في فوجيرار. ولكنتِ تجهلين ما يعنيه الذهاب إلى الفراش، بأحشاء تتلوى جوعاً. وما كنتِ عرفتِ ما الذي تعنيه مصطلحات مثل التمييز والاستغلال. ولكانت كلمة «ظلم» في نظرك، كلمة مجردة. وربما كان أبواك قد وفرا لك تعليماً: مدارس، أساتذة، وصياً. وإن يكن ذلك غير مؤكد؛ فابنة أي أسرة محترمة، تُربى فقط لتصطاد زوجاً، ولتكون أماً وربة بيت طيبة. كنت ستجهلين كل الأشياء التي دفعتك الحاجة إلى تعلمها. وما كنت - هذا صحيح - لتقترفي هذه الأخطاء الإملائية التي أخجلتك، طوال حياتك، ولكنتِ قرأتِ، دون شك، كتباً أكثر من التي قرأتِها. وقضيتِ السنوات مشغولة بخزانة ملابسك، والعناية بيديك، بعينيك، بشعرك، بخصرك. ولكنت عشت حياة دنيوية من السهرات، وحفلات الرقص، والمسارح، والمآدب، والرحلات، والتكلف. ولكنت دودة طفيلية جميلة، منغلقة في شرنقة حياتك الزوجية المريحة. ولما راودكِ الفضول قط، لمعرفة كيف هو العالم وراء أسوار حصنك الذي تعيشين فيه مُبعدة، في ظل أبيك، أمك، زوجك، أبنائك. آلة تفريخ، عبدة سعيدة، تذهبين إلى القداس، أيام الآحاد، وتتناولين القربان في أيام الجمعة الأولى. ولتحولتِ في سنوات

عمرك الإحدى والأربعين الحالية، إلى سيدة بدينة، ذات شغف لا يقاوم بالشوكولاته، وبصلوات التاسوع. ولما كنتِ سافرتِ إلى البيرو، ولا تعرفت على إنكلترا، ولا اكتشفت متعة ذراعي أولمبيا. ولما كنتِ كتبتِ، بالرغم من أخطائك الإملائية، الكتب التي كتبتها. ولا كنتِ توصلتِ، بالطبع، إلى وعي عبودية النساء، ولما خطر ببالكِ أنه لا بدَ لهن، من أجل التحرر، من أن يتحدن مع المستَغَلين الآخرين، من أجل تحقيق الثورة السلمية. وهي لا تقل أهمية، لمستقبل البشرية، عن ظهور المسيحية، قبل ١٨٤٤ سنة. «لقد أحسنتَ صنعاً، بموتك، يا أبي العزيز». وضحكت وهي تقفز من السرير. لم تكن متعبة. فخلال أربع وعشرين ساعة، لم تشعر بآلام في ظهرها، ولا في رحمها، ولا بنزيل البرد في صدرها. إنكِ في مزاج رائع، يا فلوريتا.

الاجتماع الأول، في الساعة التاسعة صباحاً، عُقد في ورشة. وكان صانع الأقفال مورو الذي عليه أن يرافقها، قد اضطر إلى مغادرة أوكزير، بصورة مستعجلة، بسبب موت قريب له. فلترقصي وحدك إذن، يا أندلسية. وحسب ما هو متفق عليه، كان بانتظارها ثلاثون شخصاً، من أعضاء الجمعيات التي تَفتّتت إليها جمعية المساعدة المشتركة في أوكزير. وكان لها اسم جميل: جمعية **واجب التحرر**. كانوا جميعهم تقريباً من الحذائين. نظرات مرتابة، قلقة. وواحدة منها، أو أكثر، ساخرة، لأن الزائرة امرأة. لقد كانت معتادة على مثل هذه الاستقبالات، منذ أن بدأت تعرض أفكارها، حول **الاتحاد العمالي**، قبل شهور، على جماعات صغيرة في باريس وبوردو. تكلمت إليهم دون أن يرتعش صوتها، مبدية ثقة أكبر مما لديها. وبدأ انعدام ثقة مستمعيها بالتلاشي، وهي تتقدم في شرحها لهم، كيف يمكن للعمال أن يتوصلوا، باتحادهم، إلى ما يصبون إليه - حق العمل، والتعلم، والصحة، وظروف حياة لائقة -، أما بقاؤهم متفرقين، فسيبقيهم ممتهنين على الدوام، من قبل الأغنياء والسلطات. وقد أبدى الجميع موافقتهم، عندما عززت أفكارها،

باقتباسات من كتاب مثير للجدل، أصدره بيير جوزيف برودون، بعنوان ***ما هي الملكية؟*** وأثار منذ ظهوره، قبل أربع سنوات، لغطاً كبيراً في باريس، لتأكيده الجازم: «الملكية هي السرقة». اثنان من الحاضرين، بدوا لها من أنصار فورييه، جاءا مستعدين لمهاجمتها؛ وكانت فلورا قد سمعت أغريكول بيرديغيي يقول، بحق: إذا كان العمال سيخصصون بضعة فرنكات من أجورهم، ليدفعوا الاشتراكات للاتحاد العمالي، فكيف سيتمكنون من شراء رغيف خبز لأبنائهم؟ ردت على كل انتقاداتهما بصبر. واعتقدت أنهما اقتنعا، في مسألة الاشتراكات على الأقل. غير أن مقاومتهما كانت عنيدة في ما يتعلق بالزواج.

– حضرتك تهاجمين الأسرة، وتريدين لها أن تختفي من الوجود. هذا ليس مسيحياً يا سيدتي.

– بل هو كذلك، إنه كذلك – ردت، وهي على وشك الغضب. ولكنها صبت عذوبة في صوتها، مضيفة:– ما ليس من المسيحية، أن يقوم رجل، باسم قدسية الأسرة، بشراء امرأة، وتحويلها إلى مفرخة أبناء، وإلى بهيمة حمولة، ثم يهشمها فوق ذلك، بالضرب، كلما زاد العيار في الشراب.

ومثلما أدركت مسبقاً، فقد فتح الحاضرون عيونهم على اتساعها، مرتبكين مما يسمعونه، فاقترحت عليهم ترك هذا الموضوع جانباً، وتَخيُّلَ الفوائد التي سيجلبها **الاتحاد العمالي** للفلاحين، والحرفيين، وللعمال من أمثالهم. ليتخيلوا **القصور العمالية**، على سبيل المثال. ففي هذه المقرات الحديثة، جيدة التهوية والنظيفة، سيتلقى أبناؤهم التعليم، وستتمكن أسرهم من الاستشفاء على يد أطباء وممرضين جيدين، إذا احتاجوا إلى ذلك، أو أصيبوا في حوادث العمل. وفي مراكز الإقامة المضيافة تلك، سيتقاعدون، ليستريحوا، عندما يفقدون قواهم، أو عندما يتقدمون في السن، ويكبرون على العمل في الورشة.

أخذت العيون الكئيبة والمتعبة التي تنظر إليها، تكتسب حيوية،

وبدأت تلمع. أبدى البعض موافقتهم؛ أفلا يستحق الحصول على أشياء كهذه، عناء التضحية بمبلغ صغير من الأجر؟

كم هناك بينهم من الجهلة، وكم من الحمقى والأنانيين. لقد اكتشفت ذلك عندما بدأت باستجوابهم، بعد أن ردّت على أسئلتهم. إنهم لا يعرفون شيئاً. يفتقرون إلى الفضول، ويعيشون قانعين بالحياة البهيمية. وتكريس جزء من وقتهم ونشاطهم للنضال من أجل أخواتهم واخوتهم، يرفع من معنوياتهم. لقد أتلفهم الاستغلال والبؤس. إنك تشعرين بالرغبة أحياناً، في اعتبار سان سيمون محقاً يا فلوريتا: الشعب غير قادر على إنقاذ نفسه بنفسه. ولا يمكن أن يحقق ذلك إلا النخبة. بل إن عدوى الأحكام البرجوازية المسبقة، قد انتقلت إليهم! فهم يجدون صعوبة في تَقبُّلِ أن تكون امرأة - امرأة! - هي من تحرضهم على التحرك. أكثرهم وعياً وطلاقة لسان، كانوا متعجرفين جداً - يضفون على أنفسهم مظهر الأرستقراطيين - وكان على فلورا أن تبذل جهداً كي لا تنفجر غضباً. فقد أقسمت على أنها، خلال السنة التي ستستغرقها هذه الجولة في فرنسا، لن تفسح المجال، ولو مرة واحدة، لأن تستحق لقب «**المدام غضب**» الذي يناديها به أحياناً، بسبب نوبات غضبها، جول لور، وأصدقاء آخرون.

وأخيراً، وعدها الثلاثون حذَّاء بأن ينضموا إلى **الاتحاد العمالي**؛ وأن يخبروا، بما سمعوه هذا الصباح، أصدقاءهم النجارين، وصانعي الأقفال، ونحاتي الأحجار، في جمعية **واجب التحرر**.

بينما هي عائدة إلى النزل، عبر شوارع أوكزير المتعرجة والمبلطة، رأت جماعة أطفال يلعبون، في ساحة صغيرة، فيها أربع شجرات حور ذات أوراق شديدة البياض. كان الأطفال يشكلون هيئات، يركّبها ركضهم ويعيد تفريقها. توقفت للتفرج عليهم. إنهم يلعبون لعبة الفردوس، تلك اللعبة التي كانت أمك، كما أخبرتك، تلعبها في حدائق فوجيرار، مع صديقاتها الصغيرات، تحت نظرات دون مريانو الحالمة. أتتذكرين يا فلوريتا؟ «هل الفردوس هنا؟» «لا يا آنسة. إنه

على الناصية الأخرى.» وبينما الطفلة تمضي من ناصية إلى أخرى، سائلة عن الفردوس المتهرب، تستمتع الأخريات بتبديل أماكنهن، من وراء ظهرها. تذكرت بتأثر ذلك اليوم في أريكيبا، سنة ١٨٣٣، بالقرب من كنسية الشكر، عندما وجدت نفسها، فجأة، بين جماعة صبيان وبنات، يتراكضون في دهليز بيت عميق. «هل الفردوس هنا؟». «إنه على الناصية الأخرى يا سيدي». هذه اللعبة التي كنتِ تظنين أنها فرنسية، هي بيروية أيضاً. حسن، ما الغريب في ذلك، ألم يكن بلوغ الفردوس حلماً كونياً؟ وقد علّمت، هي نفسها، اللعبة لابنيها، ألين وارنست-كاميل.

كانت قد رتبت، لكل قرية ومدينة، برنامجاً دقيقاً: اجتماعات مع العمال، والصحف، ومع الملاكين المتنفذين، وكذلك مع السلطات الكنسية بالطبع، لكي توضح للبرجوازيين، أن مشروعها، على عكس ما يقال عنه، لا يدعو إلى حرب أهلية. وإنما إلى ثورة بلا دماء، ذات جذور مسيحية، مستوحاة من الحب والأخوة. وأن **الاتحاد العمالي**، عندما يأتي بالعدالة والحرية، للفقراء والنساء، إنما يسعى، تحديداً، إلى الحيلولة دون اندلاع أعمال عنف، لن يكون تجنبها في فرنسا ممكناً، إذا ما استمرت الحال على ما هي عليه. إلى متى سيستمر تسمين حفنة من ذوي الامتيازات، على حساب بؤس الأغلبية الساحقة؟ إلى متى ستستمر العبودية التي ألغيت عن الرجال، تُثقل بوطأتها على النساء؟ وهي تعرف كيف تستطيع الإقناع؛ وكيف تقنع بحججها الكثير من البرجوازيين والكهنة.

ولكنها لم تستطع زيارة أي صحيفة في أوكزير، لأنه لا وجود فيها للصحف أصلاً. مدينة من اثنتي عشرة ألف نفس، وليس فيها جريدة واحدة. البرجوازيون هنا جهلة مغلقون.

وفي الكاتدرائية، أجرت حديثاً. انتهى بمشاجرة، مع الكاهن، الأب فورتين، وهو رجل بدين ونصف أصلع، له عينان مذعورتان، وأنفاس قوية، ورداء كهنوتي مزيّت، أخرجها ضيق أفقه عن طورها. («لا يمكنكِ التحكم بمزاجكِ، يا فلوريتا.»)

ذهبت للقاء الأب فورتين في بيته. وهو مجاور للكاتدرائية. وأذهلها اتساع البيت وفخامته. قادتها الخادمة التي تعرج، وهي عجوز تضع عمامة ومريلة، إلى مكتب الكاهن. وتأخر هو، ربع ساعة، قبل أن يستقبلها. وعندما ظهر، بعث فيها جسده المترهل، ونظرته المتهربة، وسوء هندامه ونظافته، إحساساً مسبقاً ضده. استمع إليها الأب فورتين بصمت، باذلاً جهده في أن يبدو لطيفاً. وأوضحت له فلورا سبب مجيئها إلى أوكزير، وما هو مضمون مشروعها في **الاتحاد العمالي**، وأنه تحالف للطبقة العاملة بأسرها، أولاً في فرنسا، وبعد ذلك في أوروبا، ثم في العالم بأسره فيما بعد، سيؤدي إلى صياغة إنسانية مسيحية حقيقية، مطبوعة بمحبة الآخر. كان ينظر إليها نظرة غير مصدق، راحت تتحول إلى نظرة ارتياب، ثم إلى رعب، في نهاية المطاف، عندما أكدت فلورا أنه، بعد تشكيل **الاتحاد العمالي**، سيتقدم مندوبوه إلى السلطات - بمن في ذلك، الملك لويس فيليب نفسه - بمطالبهم في الإصلاح الاجتماعي، بدءاً بالمساواة المطلقة، في الحقوق، بين الرجال والنساء.

فغمغم الكاهن، وهو يطلق مطراً خفيفاً من اللعاب:

- ولكن ذلك سيكون ثورة.

- بالعكس - أوضحت له فلورا - فالاتحاد العمالي يولد لتجنب الثورة؛ من أجل أن تنتصر العدالة دون أي سفك للدماء.

أما بغير ذلك، فربما سيسقط موتى أكثر ممن سقطوا سنة ١٧٨٩. ألا يعرف الكاهن، من خلال الاعترافات، تعاسة الفقراء وبؤسهم؟ ألم يلاحظ أن هناك مئات الآلاف، بل ملايين الكائنات البشرية، ممن يعملون خمس عشرة، وثماني عشرة ساعة في اليوم، كالحيوانات. ومع ذلك، لا تكفي أجورهم لإطعام أبنائهم؟ ألا يلاحظ، وهو الذي يسمعهن ويراهن، كل يوم في الكنيسة، كيف أن النساء مهانات، ممتهنات، مستغَلات من قبل آبائهم، وأزواجهم، وأبنائهم؟ إن قدرهن أسوأ حالاً من قدر العمال. فإذا لم يتغير ذلك، سيحدث في

المجتمع انفجار حقد. **الاتحاد العمالي** سيولد للحيلولة دون ذلك. وعلى الكنيسة الكاثوليكية، أن تساعده في حربه الصليبية. ألا يريد الكاثوليكيون السلام، والرحمة، والوفاق الاجتماعي؟ في هذه الأمور، هناك توافق تام بين الكنيسة **والاتحاد العمالي**. وأكدت له:

- ومع أنني لست كاثوليكية، فإن الفلسفة والأخلاق المسيحية، هي التي توجه كل أعمالي، يا أبتاه.

عندما سمعها الأب فورتين، تقول إنها غير كاثوليكية، وإن كانت مسيحية، شحب وجهه المدور. فقام بقفزة صغيرة، راغباً في أن يعرف إذا ما كان ذلك يعني أن السيدة بروتستانتية. فأوضحت له فلورا أن لا: إنها تؤمن بيسوع، ولكنها لا تؤمن بالكنيسة، لأن الديانة الكاثوليكية، في نظرها، تُقيّد الحرية الإنسانية، بسبب نظامها الرأسي. ومعتقداتها الدوغمائية تخنق الحياة الفكرية، والمشيئة الحرة، والمبادرة العلمية. كما أن تعاليم الكنيسة حول العفة، باعتبارها رمزاً للطهارة الروحية، تحفز الأحكام المسبقة التي جعلت المرأة أقل قليلاً من الجارية.

كان الكاهن قد تحول من الشحوب إلى الاحتقان. وكان يرمش مشوشاً ومصعوقاً. صمتت فلورا عندما رأته يستند إلى منضدة عمله، مرتجفاً. بدا كما لو أنه سيصاب بالدوار. وتلعثم:

- أتدرين ما الذي تقولينه أيتها السيدة؟ أتأتين لطلب مساعدة الكنيسة، من أجل **هذه** الأفكار؟

أجل، من أجلها. ألا تسعى الكنيسة الكاثوليكية لأن تكون كنيسة الفقراء؟ ألم تكن ضد الظلم والجور، وضد روح الربح، واستغلال الكائن البشري، والجشع؟ إذا كان كل هذا صحيحاً، فإن الكنيسة الكاثوليكية مجبرة على تقديم الحماية لمشروع يهدف إلى جلب العدالة، إلى هذا العالم، باسم الحب والأخوة.

كانت، كما لو أنها تتكلم إلى جدار أو إلى بغل. بذلت فلورا لبعض الوقت جهداً، في محاولة جعله يفهم. لا جدوى. فالكاهن لم يكن

يتنازل حتى لمقارعة حججها. كان ينظر إليها باشمئزاز وخوف، دون أن يخفي نفاد صبره. وأخيراً، علك قائلاً، إنه لا يستطيع أن يعدها بمساعدة، لأن هذا يعتمد على مطران الأبرشية. فلتذهب لتشرح له اقتراحها، مع أنه ينبهها إلى أنه من غير المحتمل، أن يوافق أي مطران على رعاية عمل اجتماعي ذي مظهر مناهض للكاثوليكية بصورة سافرة. وإذا حظر المطران ذلك، فلن تجد مؤمناً واحداً يساعدها، لأن الرعية الكاثوليكية تطيع راعيها. وفكرت فلورا، وهي تستمع إليه: «ولا بد، حسب رأي السانسيمونية، من تعزيز مبدأ السلطة، من أجل تسيير شؤون المجتمع. يا لهذا الاحترام للسلطة الذي يجعل من الكاثوليكيين، رجالاً آليين، مثل هذا التعس.»

حاولت أن تودع الأب فورتين بصورة طيبة، مقدمة إليه نسخة من كتاب ***الاتحاد العمالي***.

- اقرأه على الأقل، يا أبتاه. وسترى أن مشروعي مشرّب بالمشاعر المسيحية.

- لن أقرأه - قال الأب فورتين، وهو يهز رأسه بقوة، دون أن يأخذ الكتاب - يكفيني ما قلته لي، كي أعرف أن هذا الكتاب غير صحي، وأن من أوحى به، ربما دون أن تدري، هو الشيطان نفسه.

انفجرت فلورا بالضحك، بينما هي تعيد الكتاب الصغير إلى حقيبتها. وقالت له، على سبيل الوداع:

- أنت واحد من هؤلاء الكهنة الذين سيعيدون ملء الساحات بالمحارق، لإحراق كل الكائنات الحرة والذكية، في هذا العالم، يا أبتاه.

في غرفة النزل، بعد أن تناولت حساء ساخناً، قامت بجردة حساب ليومها في أوكزير. لم تشعر بالتشاؤم. لا بد من مواجهة الأوقات الصعبة بوجه بشوش، يا فلوريتا. لم تسر أمورك على أحسن ما يرام، ولكنها لم تكن سيئة كذلك. فالتصدي لخدمة البشرية، مهمة شاقة، يا أندلسية.

II. شيطان يحرس الطفلة

ماتايّا، نيسان ١٨٩٢.

إنه مدين بلقب «كوكي» لتيهامانا، امرأته الأولى في الجزيرة، لأن المرأة السابقة، تيتي بتشيتوس، تلك الببغاء النيوزلندية-الماوورية التي عاش معها في بابيتي، خلال شهوره الأولى في تاهيتي، ثم في بايا، وأخيراً في ماتايّا، لم تكن امرأته بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما عشيقة فقط. وكان الجميع، في ذلك العهد، يسمونه بول.

كان قد وصل إلى بابيتي في فجر التاسع من حزيران ١٨٩١، بعد رحلة بحرية استمرت شهرين ونصف الشّهر، منذ أن أبحر من مرسيليا، مع وقفة في عدن، وأخرى في نوميا، حيث كان عليه أن يبدل السفينة. وعندما وطأت قدماه أرض تاهيتي، أخيراً، كان قد أكمل لتوه، ثلاثاً وأربعين سنة من عمره. وكان يحمل معه كل ممتلكاته، كما لو أنه أراد أن يبين بوضوح، أنه قد انتهى، إلى الأبد، من أوروبا وباريس: مئة ياردة من قماش الرسم، ألواناً، زيوتاً، وفراشي رسم، قرن صيد، ومندولينين اثنين، وجيتاراً، وعدة غلايين بريتانية، ومسدساً قديماً، وحفنة من الملابس المستعملة. كان يبدو رجلاً قوياً - لكن صحتكَ كانت ملغومة بصورة سرية يا بول - له عينان زرقاوان، زائغتان قليلاً ودائمتا الحركة، وفم بشفتين مستقيمتين، تتجعدان في الغالب، بتقطيبة استخفاف، وأنف معقوف، أنف فرخ نسر. وكان يطلق لحية قصيرة وكثة، وشعراً طويلاً كستنائياً، يميل إلى الحمرة، عمد إلى قصه، بعد قليل من وصوله إلى هذه المدينة التي لا تتجاوز ثلاثة آلاف وخمسمئة نفس (خمسمئة منهم «بوبا» أو أوروبيون). وقد قص شعره، لأن الملازم جينو، من

البحرية الفرنسية، وأحد أول أصدقائه في بابيتي، قال له إن الماووريين سيحسبونه «ماهو» *Mahu* ، أي رجل-امرأة، بسبب ذلك الشعر الطويل والقبعة التي يعتمرها، على طريقة بوفالو بيل.

لقد جاء بكثير من الأوهام. وما كاد يتنفس هواء بابيتي الساخن، ويبهر عينيه الضوء المتوهج النازل من السماء شديدة الزرقة، ويحس في ما حوله، بحضور الطبيعة، في تدفق الثمار التي تنبثق أينما كان، وتملأ بعبقها أزقة المدينة المعفرة - أشجار برتقال، ليمون، تفاح، جوز هند، مانجا، والجوافة الوفيرة، وأشجار الخبز الكثيفة - حتى راودته رغبة في البدء بالعمل، لم يشعر بمثلها منذ زمن طويل. ولكنه لم يستطع عمل ذلك فوراً، لأنه لم يدخل هذه الأرض المشتهاة، بقدمه اليمنى؛ فبعد أيام قليلة من وصوله، دفنت عاصمة بولينيزيا الفرنسية، الملك الماووري الأخير، بومار الخامس، في طقس مهيب تابعه بول، بقلم رصاص ودفتر رسم صغير، ملأه بكروكيات ورسوم تخطيطية. وبعد أيام قليلة، ظن أنه هو نفسه سيموت أيضاً. لأنه في الأيام الأولى من شهر آب ١٨٩١، عندما بدأ بالتأقلم مع الحر، ومع عبق روائح بابيتي النفاذة، أصيب بنزيف حاد، رافقته نوبات قلبية كانت تنفخ صدره وتفرغه من الهواء مثل كير، وتُفقده القدرة على التنفس. حمله جينو الخدوم إلى مستشفى فيامي، المسمى بهذا الاسم نسبة إلى النهر الذي يمر بجانبه، في طريقه إلى البحر. إنه مكان فسيح، فيه أجنحة نوافذها محمية من الحشرات بشباك معدنية، وشرفات أنيقة من الخشب؛ تفصل بينها حدائق مترعة بأشجار المانجا، وشجر الخبز، والنخيل الملكي ذي السعف المنتصبة، حيث تتجمع العصافير المغردة. وصف له الأطباء دواء، قوامه سمّ زهرة الكشاتبين، لمعالجة ضعف قلبه، ولزقات الخردل لعلاج قروح ساقيه، ومحاجم في الصدر. وأكدوا له أن هذه الأزمة هي عارض آخر للمرض الذي لا يسمى، والذي شخصوه له، قبل شهور، في باريس. وقد وبخته، بين المزاح والجدّ، راهبات سان خوسيه دي

كلونـي، المكلفـات بمستشـفى فيـامي، لأنـه يتلفـظ ببـذاءات البحـارة («هذا هو ما كنته، طوال عدة سنوات، يا أختاه»)، ولأنه لا يتوقف، بـالرغم مـن مرضـه، عـن تدخـين غليونـه، ويطلـب منـهن، بإيمـاءات متعجرفة، أن يعمّدن فناجين قهوته، بجرعات من البراندي.

ما كاد يخرج من المستشفى – وكان الأطباء يريدون استبقاءه، لكنه رفض، لأن الاثني عشر فرنكاً التي يتقاضونها يومياً، تُحدث خللاً في ميزانيته – حتى انتقل إلى أحد أرخص البنسيونات التي وجدها في بابيتي، في حي الصينيين، وراء كاتدرائية كونسبسيون الطاهرة، ببنائها القبيح، المشيد من الحجر، على بعد أمتار قليلة من البحر، والتي يظهر برجها الخشبي الصغير، وسطحها المائل إلى الحمرة، من بنسيونه.

كان يتجمع، في ذلك الحي، في أكواخ خشبية مزينة بمصابيح حمراء، وكتابات بلغة المندرين، عدد كبير من الصينيين الثلاثمئة الذين قدموا إلى تاهيتي، كأيد عاملة في الريف؛ ولكنهم، بسبب سوء المحاصيل، وإفلاس بعض المستوطنين، هاجروا إلى بابيتي، حيث يعيشون، منصرفين إلى تجارة التجزئة. كان العمدة فرانسوا كارديلا قد سمح بفتح محلات لتدخين الأفيون، في الحي، لا يُسمح بارتيادها لغير الصينيين. غير أن بول تدبر الأمر، بعد وقت قصير من استقراره هناك، لينسل خلسة، إلى أحد تلك المحلات، ويدخن غليوناً من الأفيون. لم تغوِه التجربة؛ فمتعة الغياب عن الوعي، كانت سلبيةً جداً بالنسبة له، هو الممسوس بشيطان الحركة.

عاش في بنسيون الحي الصيني، بقليل من النقود. ولكن في ضيق ونتانة – كانت هناك حظائر في محيط المكان، وبالقرب منه، مسلخ تذبح فيه كل أنواع الحيوانات – يجردانه من الرغبة في الرسم، ويدفعانه للخروج إلى الشارع. كان يذهب للجلوس في أحد بارات الميناء، قبالة البحر. واعتاد أن يُمضي هناك ساعات، يتناول كأس أفسنتين محلي، ويلعب أدوار دومينو. أخبره الملازم جينو – وهو

شخص نحيل، أنيق، مثقف، بالغ الرقة - أن عيشه بين صينيِّي بابيتي، سيسيء إلى سمعته، في نظر المستوطنين، وهو أمر فتن بول إلى حد ما. فما الذي يريده أكثر من بلوغ وضع المتوحش الذي يحلم به، وأن ينال ازدراء «البوبا»، أي أوروبيي تاهيتي؟

لم يتعرف على تيتي بتشيتوس، في أحد بارات ميناء بابيتي السبعة، حيث يذهب البحارة العابرون ليسكروا، ويبحثوا عن نساء؛ وإنما في ساحة السوق الكبيرة، ذلك الميدان المحيط بنافورة مربعة، يحيط بها سياج صغير، وتنبثق منها دفقة ماء نحيلة. وساحة السوق التي يحدها شارع بونارد، وشارع الفنون الجميلة، وتجاور حدائق البلدية، هي قلب تجارة الأغذية، والأواني المنزلية وترهات أخرى، منذ الفجر حتى المساء. تتحول في الليل، إلى سوق اللحم. ولدى أوربيّي بابيتي، رؤى جهنمية حول هذا المكان، كلها مرتبطة بالدعارة والجنس. فالساحة التي تعج بباعة متجولين، يبيعون البرتقال، والبطيخ، وجوز الهند، والأناناس، والكستناء، وحلويات القطر، وأزهاراً وأشياء رخيصة أخرى؛ تدوي فيها الطبول مع حلول الظلام، وتقام على أضواء المشاعل الباهتة، حفلات رقص تنتهي بمجون جماعي، لا يشارك فيها الوطنيون وحدهم، وإنما كذلك، بعض الأوروبيين ذوي المكانة الضئيلة: جنود، بحارة، تجار عابرون، كسالى؛ مراهقون عصبيون. وقد تحمس بول للحرية التي تجري بها هناك المساومة، على الحب وممارسته، في مشاهد اختلاط جماعية حقيقية. وعندما شاع أنه زائر مواظب لسوق اللحم، فضلاً عن إقامته بين الصينيين، وصلت سُمعة الرسام الباريسي، القادم حديثاً إلى بابيتي، إلى الحضيض أمام أسر المجتمع الاستعماري. فلم يعد يُدعى أبداً، إلى النادي العسكري، حيث كان جينو قد أخذه، بعد قليل من مجيئه، ولا إلى أي احتفال يرأسه العمدة كارديلا أو الحاكم لاكسكاد اللذان كانا قد استقبلاه بمودة، عند وصوله.

كانت تيتي بتشيتوس تقدم خدماتها، تلك الليلة، في سوق اللحم.

إنها خلاسية لأب نيوزلندي وأم ماوورية. لا بد أنها كانت جميلة، في شباب احترق سريعاً، بسبب الحياة السيئة؛ ولطيفة وثرثارة. اتفق معها بول على مبلغ متواضع، وأخذها إلى بنسيونه. لكن الليلة التي أمضياها معاً كانت بهيجة، حتى إن تيتي بيتشيتوس رفضت أخذ النقود. ولشدة تعلقها به، قررت البقاء للعيش معه. فكانت مصدر متعة لا ينضب، على الرغم من هرمها المبكر. وقد ساعدته، في تلك الشهور الأولى، في تاهيتي، على التأقلم مع حياته الجديدة، وعلى مقارعة الوحدة.

بعد قليل من عيشهما معاً، وافقت على مرافقته إلى داخل الجزيرة، بعيداً عن بابيتي. أوضح لها بول أنّه جاء إلى بولينيزيا ليعيش حياة الوطنيّين، وليس حياة الأوروبيين. ولهذا، لا بد له من الخروج من العاصمة المتشبهة بالحياة الغربية. عاشا بضعة أسابيع في بايا، حيث لم يشعر بول بالراحة، ثم انتقلا بعد ذلك إلى ماتايّا، على بعد حوالي أربعين كيلومتراً من بابيتي. وهناك استأجر كوخاً قبالة الخليج، يمكنه أن يخرج منه مباشرة، ليغطس في البحر. وكانت في مواجهته جزيرة صغيرة، وراءها حاجز جبال مرتفعة، ذات قمم شديدة الانحدار، مثقلة بالخضرة. وما إن استقرا في ماتايّا، حتى باشر الرسم، بفورة إبداع حقيقية. ومع قضائه الساعات في تدخين غليونه، ووضعه رسوماً تخطيطية، أو وقوفه قبالة منصب الرسم، راح يفقد اهتمامه بتيتي بيتشيتوس؛ فقد كانت ثرثرتها تلهيه عن عمله. وكي لا يضطر إلى التحدث معها، بعد أن يرسم، كان يقضي الوقت في مداعبة أوتار جيتاره، أو الترنم بأغنيات شعبية، بمرافقة ماندولينه. «متى ستغادر؟» كان يتساءل بفضول، مراقباً ضجر تيتي بتشيتوس الذي لا يمكنها إخفاؤه. لم تتأخر في عمل ذلك؛ فعندما كان هو قد انتهى من رسم حوالي ثلاثين لوحة، وأكمل بالضبط ثمانية شهور في تاهيتي، وجد في صباح أحد الأيام، لدى استيقاظه، ملاحظة وداع، كانت نوعاً من التطهر: «وداعاً، وبلا

أحقاد، يا عزيزي بول».

أحزنه ذهابها قليلاً. والحقيقة أن النيوزيلندية-الماوورية، وقد انهمك الآن في الرسم، صارت عقبة بدل أن تكون مرافقة. فقد كانت تضايقه بأحاديثها. ولو أنها لم تذهب، فربما كان سينتهي به الأمر إلى طردها. لقد استطاع أخيراً التركيز والعمل بهدوء كامل. وبدأ يشعر، بعد مصاعب وأمراض وعراقيل، بأن مجيئه إلى **بحار الجنوب**، بحثاً عن العالم البدائي، لم يكن دون طائل. لا، يا بول. منذ أن دفنتَ نفسك في ماتايا، رسمتَ حوالي ثلاثين لوحة، وحتى لو لم يكن بينها، عمل عبقري بارز، فإن رسمك، بفضل العالم الجامح الذي يحيط بك، صار أكثر حرية، أكثر جرأة. ألم تكن سعيداً؟ لا، لم تكن سعيداً.

بعد أسابيع قليلة من مغادرة تيتي بيتشيتوس، بدأ يشعر بجوع إلى المرأة. أهالي ماتايّا، وهم جميعهم تقريباً من الماووري، وعلاقته بهم جيدة، ويدعوهم أحياناً إلى كوخه لتناول كأس من الروم، نصحوه بأن يبحث عن رفيقة في قرى الشاطئ الشرقي، حيث توجد فتيات يتلهفن للزواج. وتبين له أن الأمر أسهل بكثير مما كان يتوقعه. ذهب، على صهوة حصان، في حملة عمّدها باسم «بحثاً عن السابينية» وفي قرية فاون الصغيرة، في دكان إلى جانب الطريق، حيث توقف للاستراحة، سألته السيدة التي تدير المحل، عما يبحث عنه، في تلك الأنحاء.

- امرأة تقبل العيش معي - أجابها مازحاً.

استغرقت السيدة، ذات الوركين العريضين، والتي لا تزال بها مسحة من الجمال، في تأمله برهة، قبل أن تعود إلى الكلام. كانت تتفحصه، كأنها تريد أن تقرأ روحه. وأخيراً، اقترحت عليه بجدية:

- ربما تناسبك ابنتي. هل تريد رؤيتها؟

أومأ كوكي موافقاً، وقد أصابه الارتباك. وبعد لحظات، رجعت السيدة، ومعها تيهامانا. قالت إن عمرها ثلاثة عشر عاماً فقط،

بالرغم من تطور جسدها، ومن صلابة نهديها وفخذيها، ومن شفتيها الممتلئتين اللتين تنفرجان عن أسنان ناصعة البياض. دنا بول منها، وهو مضطرب قليلاً. هل تريد أن تكون امرأته؟ فأومأت البنت بالإيجاب، ضاحكة.

- ألا تخافين مني، مع أنك لا تعرفينني؟

نفت تيهامانا برأسها.

- هل أُصبتِ بأمراض؟

- لا.

- أتتقنين الطهو؟

بعد نصف ساعة من ذلك، انطلق في رحلة العودة إلى ماتايّا، تتبعه، مشياً على الأقدام، بضاعته الجديدة؛ وطنية جميلة، تتكلم فرنسية عذبة، وتحمل على كتفها، كل ممتلكاتها. عرض عليها أن تركب خلفه على الحصان، لكن الفتاة رفضت، كما لو أنه يطلب منها تدنيساً لمقدسات. منذ ذلك اليوم الأول، أسمته كوكي. وسينتشر الاسم مثل البارود. وبعد وقت قصير، سيبدأ جميع أهالي ماتايّا، ثم جميع التاهيتيين بعد ذلك، وحتى بعض الأوروبيين، بمناداته بهذا الاسم.

سيتذكر، في مرات كثيرة، تلك الشهور الأولى من الحياة الزوجية، في أواخر العام ١٨٩٢ وأوائل العام ١٨٩٣، مع تيهامانا، في كوخ قرية ماتايّا، على أنها أفضل شهور أمضاها في تاهيتي، وربما في العالم. لقد كانت امرأته الصغيرة ينبوع متعة لا ينضب. مستعدة لأن تسلّم له نفسها عندما يطلبها، تفعل ذلك دون تكلف، مستمتعة كذلك بمرح وسعادة محفزة. وكانت فوق ذلك، مُجِدّة - يا لاختلافها عن تيتي بتشيتوس! -، فهي تغسل الثياب، وتنظف الكوخ، وتطهو الطعام، بالحماسة نفسها التي تمارس بها الحب. وعندما تستحم في البحر أو في البحيرة، تمتلئ بشرتها الزرقاء بانعكاسات تحرك عواطفه. وبدل الأصابع الخمس في قدمها اليسرى، كانت هناك سبع أصابع؛

اثنتان منها زوائد لحمية تُخجل الفتاة. لكن كوكي كان معجباً بهما، ويداعبهما.

ولم تكن تستاء، إلا عندما يطلب منها أن تجلس في وضعية ثابتة، ليرسمها. فقد كانت تيهامانا تملّ البقاء دون حراك، بالوضع نفسه، لوقت طويل. وتعمد أحياناً، بتقطيبة ضيق وتبرم، إلى الانصراف، دون أن تقدم أي تفسير. ولولا مشاكل النقود المزمنة التي لم تكن تصل في الوقت المناسب قط، وعندما تصله تحويلات يبعث بها إليه صديقه دانييل دو مونفريد، من بيع لوحة ما في أوروبا، كانت النقود تتسرب من بين أصابعه؛ لولا تلك المشاكل لكان بإمكان كوكي أن يقول، في تلك الشهور، إنه يمضي، أخيراً، وراء عقبي السعادة. ولكن، متى ستنجز عملك العظيم يا كوكي؟

سيقول في ما بعد، بميله في تحويل صغائر الحياة إلى أساطير، إن شياطين التوبا- باو قد أطاحت بإحساسه الحالم في أنه يكاد يكون في جنة عدن التي آوته، في الشهور الأولى، مع تيهامانا. ولكنكَ مدين لهم أيضاً، لشياطين آلهة الماووري أولئك، بعملك التاهيتي البارع الأول؛ فلا تتحسر يا كوكي. كان قد أمضى هناك حوالي السنة، دون أن يعرف بوجود تلك الأرواح الخبيثة التي تنفصل عن جثث الموتى لتفسد حياة الأحياء. عرف بأمرهم من كتاب أعاره إياه أغنى مستوطن في الجزيرة، أوغوست غوبيل. ويا للمصادفة! ففي الوقت نفسه تقريباً، جاءه دليل يثبت وجودهم.

كان قد ذهب إلى بابيتي، كالعادة، ليستعلم إذا ما كانت قد وصلته حوالة من باريس. وقد كانت رحلة يسعى إلى تجنبها، فالعربة العامة تتقاضى تسعة فرنكات للذهاب، وتسعة أخرى للإياب، فضلاً عن تلك الخضخضة، وذلك الاهتزاز في الطريق السيئ، ولا سيما حين يكون موحلاً. انطلق عند الفجر، كي يعود في المساء، لكن فيضاناً قطع الطريق. ولم توصله العربة إلى ماتايّا، إلا بعد منتصف الليل. كان الكوخ غارقاً في الظلام. وهذا أمر غريب. فتيهامانا لا تنام أبداً

دون أن تترك قنديلاً صغيراً مضاء. انقبض صدره: أتكون قد ذهبت؟ فالنساء هنا يتزوجن ويفسخن الزواج، مثل من يبدل قميصه. في هذا الأمر، على الأقل، كانت مساعي المبشرين والرهبان لجعل الماووريين يتبنون نموذج الزواج المسيحي الصارم، غير مجدية. ولم يفقد الوطنيون، في الشؤون المنزلية، روح أسلافهم بالكامل؛ إذ يمكن أن يرحل الرجل أو المرأة، في أحد الأيام، دون أن يفاجَأ أحد بذلك. الأسر تتشكل وتنفرط بسهولة لا يستطيع الأوروبيون تصورها. إذا ما كانت قد غادرت الكوخ، فسوف تشتاقُ إليها كثيراً. أجل، ستشتاقُ إلى تيهامانا.

دخل إلى الكوخ. وفور اجتيازه العتبة، بحث في جيبه عن علبة الثقاب. أشعل عوداً منها. وعلى اللهب الضئيل الأصفر المختلط بالزرقة الذي يتلاعب بين أصابعه، رأى تلك الصورة التي لن ينساها أبداً، والتي حاول في الأيام والأسابيع التالية، أن ينقذها ويستعيدها، مشتغلاً بذلك الانهماك المحموم، المأزوم، الذي رسم به دوماً أفضل لوحاته. وهي صورة ستظل في ذاكرته، مع مرور الزمن، كواحدة من تلك اللحظات المتميزة، الرؤيوية، من حياته في تاهيتي، عندما ظن أنه قد لامس، عاش، ولو للحظات قصيرة، ما جاء يبحث عنه في بحار الجنوب؛ ذاك الذي لم يعد بإمكانه العثور عليه أبداً، في أوروبا، لأن الحضارة قضت عليه.

على الفراش، فوق الأرض، عارية، منبطحة على بطنها، بإليتيها المكورتين الناهضتين، وظهرها المنحني قليلاً، ونصف وجهها متجه نحوه، كانت تيهامانا تنظر إليه بملامح رعب لا حدود لها. عيناها، وفمها، وأنفها مجعدة في تكشيرة رعب حيواني. كانت يداها مضمختين بالخوف أيضاً، وقلبها يخفق، جامحاً. اضطر إلى أن يفلت عود الثقاب الذي بدأ يحرق رؤوس أصابعه. وعندما أشعل عوداً آخر، كانت الصبية لا تزال في الوضع نفسه، وبالملامح نفسها، متيبسة من الخوف.

- إنني أنا، إنني أنا، كوكي - طمأنها، مقترباً منها -. لا تخافي يا تيهامانا.

انفجرت البنت بالبكاء، باجهاشات هستيرية. وفي تلعثمها غير المتماسك، ميّز كلمة **توباباو، توباباو**، تتردد عدة مرات. كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع بها الكلمة، ولكنه كان قد قرأها من قبل. رجع بذاكرته على الفور، بينما هو يضم تيهامانا إلى صدره، ويُجلسها على ركبتيه، وراح يتذكر أنه في كتاب **رحلات إلى جزر المحيط العظيم** (باريس ١٨٣٧)، الذي كتبه قنصل فرنسي قديم في تلك الجزر، يدعى أنطوان مورنو، ترد الكلمة التي ترددها تيهامانا الآن بصورة متقطعة، مؤنبة إياه لأنه تركها، في الظلام، دون زيت في القنديل، وهو يعرف خوفها من الظلام، لأن الشياطين (**التوباباو**) تظهر في العتمة. هذا هو الأمر يا كوكي: عندما دخلتَ أنت إلى الحجرة المظلمة، وأشعلتَ عود الثقاب، رأت فيك تيهامانا شبحاً.

هكذا، إذن، ثمة وجود لأرواح الموتى الخبيثة تلك، ذات الأظفار المقوسة، وأنياب الذئاب، تسكن في الجروف، في المغاور، وفي مخابئ الشر، والجذوع المنخورة. وتخرج من مخابئها لتُفزع الأحياء وتعذبهم. هذا ما يقوله مورنو، في ذلك الكتاب الذي أعارك إياه غوبيل، المتتبع الدقيق لشؤون آلهة وشياطين شعب الماووري المندثرين، قبل أن يصل الأوروبيون إلى هنا، ويقتلوا معتقدات هذا الشعب وعاداته. بل ربما تتحدث عنهم كذلك، رواية لوت، تلك التي بعثت الحماسة في فينسنت، وغرست في رأسك فكرة تاهيتي، أول مرة. لم يستطيعوا القضاء عليهم تماماً، في نهاية المطاف. شيء من ذلك الماضي البديع ما زال يخفق تحت الرداء المسيحي الذي فرضه عليهم المبشرون والكهنة. لا يتحدثون عنهم أبداً، وكلما حاول كوكي جر الوطنيين للحديث عن معتقداتهم القديمة، عن الزمن الذي كانوا فيه أحراراً، مثلما يمكن أن يكون المتوحشون وحدهم، ينظرون إليه دون أن يفهموا. يضحكون منه. عمَّ يتحدث؟، كما لو أن ما كان يفعله

أسلافهم، ويعبدونه ويخافونه، قد انخسف من حيواتهم. ليس صحيحاً؛ فهذه الأسطورة على الأقل، لا تزال حية؛ يثبت ذلك الهمس المتذمر الذي تطلقه الفتاة التي بين ذراعيك: **توباباو، توباباو.**

أحس بقضيبه ينتصب. كان يرتعش من الإثارة. والفتاة التي شعرت بذلك، استلقت على الفراش، بذلك الاسترخاء الإيقاعي المستسلم، الهرّيّ إلى حد ما، والذي كان يغويه ويفتته في الوطنيات، منتظرة أن يتعرى هو أيضاً. وبحمى في الجسد المتوقد، استلقى إلى جانبها. ولكنه، بدل أن يمتطيها، جعلها تتقلب وتتبطح على بطنها، في الوضع الذي فاجأها فيه. كان لا يزال يحتفظ، في عينيه، بذلك المشهد الذي لا يمحى: الإليتين المشدودتين والناهدتين في الوسط. تكلف مشقة في الإيلاج فيها - سمعها تخرخر، تئن، تتكمش، ثم تصرخ أخيراً -، وما إن أحس بعضوه هناك، في الداخل، محشوراً وموجوعاً، حتى قذف، مطلقاً أنيناً كالنباح. أحس للحظة، وهو يلوط بتيهامانا، بأنه متوحش.

في صباح اليوم التالي، مع أول الأنوار، بدأ العمل. كان النهار جافاً، وكانت هناك غيوم خفيفة في السماء؛ عما قريب سينفجر في ما حوله، احتفال ألوان. ذهب وغطس في مياه الشلال، عارياً، متذكراً أن دركياً كريهاً، يدعى كلافير، رآه بعد قليل من وصوله إلى المكان، يستحم دون ملابس، فسجل في حقه غرامة، بتهمة «خدش الحياء العام». أول لقاء لك مع واقع يخالف أحلامك، يا كوكي. نهض متعثراً، وأعدّ فنجان شاي. كان يفور جزعاً. وعندما استيقظت تيهامانا، بعد نصف ساعة، كان هو مستغرقاً تماماً في رسومه التخطيطية وملاحظاته، يهيئ للوحة، حتى إنه لم يسمع «صباح الخير» التي قالتها له.

بقي معتكفاً لأسبوع، يعمل دون راحة. كان يغادر المرسم عند الظهيرة فقط، كي يأكل بعض الفاكهة، في ظل شجرة المانجا الوارفة التي بجانب الكوخ، أو ليفتح علبة أطعمة محفوظة، ثم يواصل العمل

حتى انحدار الضوء. في اليوم التالي، استدعى تيهامانا، عراها وجعلها تنبطح على الفراش، بالوضع الذي رآها فيه، عندما ظنته **توباباو**. وعلى الفور، أدرك أن ذلك عبث. فالفتاة لا يمكن لها أبداً، أن تعيد تمثيل ما يرغب هو في سكبه في اللوحة: رهبة دينية آتية من الماضي السحيق، جعلتها ترى ذلك الشيطان، وخوف شديد التسلط، استطاع أن يجسد لها **توباباو**. إن الصبية تضحك الآن، أو تكبح ضحكها، محاولة أن تعيد إلى وجهها، ملامح الخوف، مثلما كان يتوسل إليها أن تفعل. لم يكن بإمكان جسدها أيضاً، أن يعيد إنتاج ذلك التوتر، ذلك التقوس في العمود الفقري الذي صلب إليتيها بأشد صورة شبقية رآها كوكي على الإطلاق. كان من الغباء، الطلب منها أن تتخذ ذلك الوضع. ولكن عناصر اللوحة موجودة في ذاكرته، تلك الصورة التي سيعود لرؤيتها، كلما أغمض عينيه، وتلك الرغبة التي حملته، في تلك الأيام، بينما هو يرسم لوحة ***ماناو توباباو***، ويضيف إليها اللمسات، إلى مضاجعة امرأته كل ليلة، وفي النهار، في بعض الأيام، في المرسم. وبينما هو يرسم، أحس، كما في مرات قليلة سابقة، أنه كان على صواب، عندما أكد لشبان بنسيون غلونيك الذين كانوا يصغون إليه باهتمام، ويقولون إنهم تلاميذه، هناك في بريتاني: «لكي نرسم حقاً، لا بد أن ننفض عنا المتحضر الذي نحمله على كاهلنا، ونُخرج المتوحش الذي في داخلنا».

أجل: هذه لوحة متوحش حقيقي. تأملها راضياً، عندما بدت له منتهية. كان الواقع والخيال فيها، كما في أذهان المتوحشين، يشكلان حقيقة واحدة. حقيقة قاتمة، كئيبة بعض الشيء، ومشربة بالتدين والشهوة، بالحياة والموت. كان النصف السفلي موضوعياً، واقعياً؛ والعلوي ذاتياً، غير واقعي. ولكنه لا يقل حقيقية عن الأول. الطفلة العارية ستبدو داعرة دون الخوف في عينيها، ودون ذلك الفم الآخذ بالتشوه في تكشيرة. ولكن الخوف لا يقلل من جمالها، بل يزيد منه، محدثاً في إليتيها انكماشاً بالغ الإيحاء. مذبح من لحم بشري يُقَدَّم

فوقه قداس طقس بربري، تكريماً لإله وثني وقاس. وفي الجزء العلوي، هناك الشبح، وهو من اختلاقك، في الحقيقة، يا كوكي، أكثر مما هو تاهيتي. إنه لا يشبه تلك الشياطين التي يصفها مورنو بأن لها مخالب التنانين وأنيابها. بل هو عجوز بقلنسوة، مثل عجائز بريتاني. إنكَ تعيش في ذكرياتك على الدوام، نساء لا زمانيات، كنت تلتقي بهن، وأنت تعيش في بون-آفين أو في لِبولدو، في دروب منطقة فينستير،. يعطين الانطباع بأنهن نصف ميتات، متحولات إلى أشباح في الحياة. إنهن ينتمين إلى العالم الموضوعي، إذا كان لا بد من التصنيف. الفراش الأسود، مثل شعر الطفلة، والزهور الصفراء، والملاءات المائلة إلى خضرة لحاء مجعدة، والوسادة الخضراء الشاحبة، والوسادة الوردية الأخرى التي يبدو كما لو أن عدوى لونها قد انتقلت إلى شفة الصبية العليا. هذا الترتيب للواقع، له معادله في الجزء العلوي: الأزهار الجوية هناك، هي شرارات، ومضاتَ، نيازك فوسفورية منفلتة من الجاذبية، تطفو في السماء الخبازية المائلة إلى الزرقة، حيث ضربات اللون توحي بشلال رُمحيّ.

المرأة الشبح ساكنة جداً، في وضعها الجانبي، تسند ظهرها إلى عمود أسطواني، طوطم مزين بأشكال تجريدية، ملونة بنعومة، بتدرجات ذات حمرة وزرقة مزججة، لا سبيل إلى التثبت منها. ويمكن القول إنها قد تتلاشى في أي لحظة. وعن قرب، تبدو المرأة الشبح مزدهية بأنف مستقيم، وشفتين متورمتين، وعينها الكبيرة هي عين ببغاء. لقد توصلتَ إلى جعل المجموع ينسجم دون انقطاعات، يا كوكي. تفوح منه موسيقى لحن استيقاظ الموتى. الضوء يشف من أصفر الملاءة المخضوضر، ومن أصفر الأزهار الذي تتخلله لمسات برتقالية.

- أي اسم أُطلقُه عليها - سألَ تيهامانا، بعد أن قلّب أسماء كثيرة، واستبعدها كلها.

فكرت الصبية، بوقار. وبعد ذلك، هزت رأسها، موافقة على ما

فكرت فيه: «*ماناو توباباو*». وقد وجد صعوبة، من خلال شروحات تيهامانا، في إدراك إذا ما كانت الترجمة الصحيحة تعني: «هي تفكر في روح الميت»، أم أنها «روح الميت تتذكر». ولكنه أحب هذا الالتباس.

بعد أسبوع من إنهاء عمله البارع، كان لا يزال يضيف لمسات إليه، ويقضي ساعات بكاملها، قبالة اللوحة، متمعناً فيها. لقد توصلتَ إلى ما تريده يا كوكي. أليس كذلك؟ فاللوحة لا تشي بأن يداً متحضرة، أوروبية، مسيحية، هي التي رسمتها. إنها أقرب إلى صنعة يد أوروبية سابقاً، متحضرة سابقاً، ومسيحية سابقاً. يد تخلصت، بقوة الإرادة، والمغامرات، والمعاناة، من تكلف الباريسيين المنحدر، المبتذل، وعادت إلى الأصول، إلى ذلك الماضي المشرق، حيث الدين والفن، هذه الحياة والحياة الأخرى، تشكّلان واقعاً واحداً. الأسابيع التي تلت رسم *ماناو توباباو*، كانت سكينة روح لم يستمتع بول بمثلها، منذ زمن. وبالطريقة الغامضة نفسها التي كانت تذهب وتجيء بها، اختفت تلك القروح التي ظهرت على ساقيه، قبل قليل من مغادرته أوربا، منذ سنتين. ولكنه، احتياطاً، يواصل وضع كمادات الخردل، وتضميد ربلتي ساقيه، مثلما وصف له الدكتور فرنويل، في باريس، ونصحه أطباء مستشفى فيامي. منذ زمن لم يأتِه ذلك النزيف الفموي الذي عانى منه، بعد قليل من مجيئه إلى تاَهيتي. ما زال ينحت منحوتات صغيرة من الخشب، مخترعاً آلهة بولينيزيين، انطلاقاً من الآلهة الوثنيين في مجموعته من الصور الفوتوغرافية. يجلس في ظل شجرة المانجا الضخمة، يغطس في البحر، ويبدأ برسم لوحات جديدة لا يلبث أن يهجرها بعد قليل. كيف يمكن رسم شيء بعد *ماناو توباباو*؟ كنتَ محقاً يا كوكي، عندما كنت تتكلم بإسهاب، هناك في لِبولدو، في بون-أفين، في مقهى فولتير في باريس، أو عندما كنت تناقش الهولندي المجنون في آرل، بأن الرسم ليس مسألة صنعة، وإنما محصلة ظروف؛ ليس مسألة مهارة وإنما

تخيل وطاقة حيوية. «مثل الدخول إلى الدير، والعيش من أجل الرب فقط، يا اخوتي». وكنتَ تقول لنفسك، إن ليلة رعب تيهامانا، مزقت حجاب ما هو يومي، وأبرزت واقعاً عميقاً، حيث يمكنك الانتقال إلى فجر الإنسانية، والاختلاط بالأسلاف الذين يخطون خطواتهم الأولى في التاريخ، في عالم لا يزال سحرياً، عالم آلهة وشياطين مختلطين بالبشر.

هل يمكن القيام بفبركة اصطناعية لهذه الظروف التي تتكسر فيها حواجز الزمن، مثلما في ليلة الـ *توباباو*؟ وفي محاولة منه لتقصي ذلك، هيأ تلك «التامارا» التي أنفق عليها، في واحد من تلك التصرفات غير المتروية الكثيرة في حياته، جزءاً كبيراً من المبلغ المهم (ثمانمئة فرنك) الذي أرسله إليه دانييل دو مونفريد، حصيلة بيع اثنتين من لوحاته، من مرحلة بريتاني، لمقتن من روتيردام. ما إن صار المال في يده، حتى أخبر تيهامانا بخططه: سيدعوان عدداً كبيراً من الأصدقاء. وسيغنون، ويأكلون، ويرقصون، ويسكرون طوال أسبوع بكامله.

ذهبا إلى بقّال ماتايّا، الصيني آوني، لتصفية الديون المتراكمة. كان آوني، وهو شرقي سمين، له جفنا سلحفاة متهدلان، يهوّي بقطعة كرتون. نظر مذهولاً إلى النقود التي كان قد فقد الأمل بالحصول عليها. وقام كوكي، في فورة سخاء، بشراء مؤونة هائلة من المعلبات، ولحم البقر، والجبن، والسكر، والرز، والفاصولياء، والمشروبات: ليترات من النبيذ الأبيض، وزجاجات من الأفسنتين، دمجانات نبيذ وروم مصنّع في معاصر قصب الجزيرة.

دعوا حوالي اثني عشر زوجاً من الوطنيين المقيمين في محيط ماتايّا، وبعض الأصدقاء من بابيتي، مثل الملازم جينو، والزوجين درولیه، والزوجين سوها، الموظفين في الإدارة الاستعمارية. جاء جينو المتكتم واللطيف، محملاً كعادته، بمأكولات ومشروبات، يحصل عليها بسعر الكلفة من المتجر العسكري. كانت التامارا لذيذة جداً.

وهي أكلة محلية أساسها السمك، والبطاطا والخضار المطهوة في الأرض، حيث تُطمر ملفوفة بأوراق موز، وسط أحجار متوقدة. عندما انتهوا من تناول الطعام، كان الغروب قد حلّ، وبدت الشمس نيزكاً نارياً يغرق في الأرصفة المرجانية المتلألئة. ودعهم الفرنسيون، جينو، ودروليه وسوها وزوجتاهما للانصراف؛ فهم يريدون العودة إلى بابيتي في اليوم نفسه. أنزل كوكي جيتاريه ومندولينه، وأمتع ضيوفه بأغنيات بريتانية، وبعض الأغنيات الرائجة في باريس. من الأفضل البقاء محاطاً بوطنيين. فحضور الأوربيين يشكل كابحاً على الدوام، يمنع التاهيتيين من الانطلاق على سجيتهم والابتهاج حقاً. لقد تأكد من ذلك، منذ أيامه الأولى في تاهيتي، في حفلات رقص أيام الجمعة، في ساحة السوق. فالبهجة لا تبدأ بعمق، إلا عندما يضطر البحارة إلى العودة إلى سفنهم، والجنود إلى ثكنتهم، ويبقى في المكان، حشد لا وجود فيه تقريباً، للبوبا. كان أصدقاؤه من ماتايّا، نساء ورجالاً، مخمورين إلى حد كبير. يشربون الروم مع البيرة أو مع عصير الفواكه. بعضهم يرقصون، وآخرون يغنون أغنيات محلية، في كورال، وبطريقة إيقاعية. ساعد كوكي في إشعال النار، ليس بعيداً عن شجرة المانجا الضخمة، ومن خلال فروعها الأخطبوطية، المحملة بالخضرة، بدت النجوم متلألئة في سماء نيلية. كان قد صار يفهم ما يكفي، من لغة الماووري التاهيتية، ولكن ليس عندما يغنون. في مكان قريب جداً من النار، كان يقف توتسيتيل، مالك الأرض التي شيد عليها كوخه، يتراقص في مكانه، مع امرأته، يهزان مؤخرتيهما، وتلمع بشرتاهما بانعكاسات اللهب. كانت امرأته ماوريانا، لا تزال شابة، ملتفة اللحم بعض الشيء، فخذاها المرنان يطلان من خلال التنورة التاهيتية المزينة بأزهار. إنها الأرجل التاهيتية التقليدية، المدورة، المستندة إلى تلك الأقدام الكبيرة المسطحة التي تختلط بالأرض. اشتهاها بول. ذهب، وأحضر بيرة ممزوجة بالروم. قدمها إليهما ليشربا. شرب معهما، ورفع نخباً،

وعانقـهما، وتـابع معـهما، دمدمـة الأغنيـة التـي يدندنـان بـها. كـان الوطنيون مخمورين.

- فلنتعرَّ - قال كوكي - وهل يوجد بعوض؟

خلع «الباريو» الذي يغطي الجزء السفلي من جسده، وصار عارياً. عضوه نصف المنتصب مرئي تماماً، على وميض النار الخافت. لم يجـارِه أحـد. كـانوا ينظـرون إليـه دون مبـالاة، أو بفضـول، دون أن يشعروا بأنهم معنيون. ممَّ تخافون، أيها الحمقى؟ لم يرد عليه أحد. واصلوا الرقص، والغناء، والشرب، كما لو أنه غير موجود. رقص مع جيرانه، محاولاً تقليد حركاتهم - ذلك الهز للمؤخرة، وتلك الطفرة الخفيفة الإيقاعية للقدمين، مع ضرب الركبتين ببعضهما - دون أن يتوصل إلـى ذلـك، بـالرغم مـن امتلائـه بالحماسـة والتفـاؤل. كـان قـد دخل بين توتسيتيل وماوريانا، مثل إسفين، وراح يلتصق بـالمرأة، أكثر فأكثر، ملامساً إياهـا. أمسكها مـن خصرهـا، دفعها بجسـده، برفق، مبعداً إياها عن الدائرة التي يضيئها الموقد. لم تُظهر أي تمنع، ولم تتبدل ملامحها. بدت كما لو أنها لا تلحظ وجود كوكي، كما لو أنها ترقص مع الهواء أو مع شبح. وبقليل من الضغط، جعلها تنزلق حتى الأرض، دون أن ينطق أي منهما بكلمة واحدة. تركته ماوريانا يقبلها، ولكنها لم تقبله؛ كانت تدندن من بين أسنانها، بينما هو يفتح فمها بفمه. أحبها بأعصاب متوترة من ذلك الغناء الجماعي الرتيب الذي يرتله الضيوف الآن، وهم لا يزالون واقفين، متحلقين حول النار.

عندما استيقظ، بعد يوم أو يومين - من المستحيل تذكر ذلك - وسهام الشمس في عينيه، كانت هناك لسعات في جسمه. وخامره الشك في أن يكون قد وصل، بوسائله الخاصة، إلى فراشه. كانت تيهامانا تشخر، ونصف جسدها خارج الملاءة. أحس بأنفاسه الكثيفة والحريفة، بسبب مزيج الكحول والتوعك الشامل. وفكر: «أيتوجب عليّ، أن أبقى أم أن أعود إلى فرنسا؟». لقد مضت عليكَ سنة في تاهيتي، ولديك حوالي ستين لوحة مرسومة، إضافة إلى عدد كبير

من الكروكيات والرسوم التخطيطية، وحوالي اثنتي عشرة منحوتة خشبية، يا كوكي. العودة إلى باريس، وإقامة معرض بما هو منتقى بعناية، من سنة العمل هذه، في بولينيزيا. أليس ذلك مغرياً؟ سيقف الباريسيون فاغري الأفواه، أمام انفجار الضوء هذا، أمام المناظر الإكزوتيكية، وعالم الرجال والنساء الذين يعيشون على سجيتهم، الفخورين بأجسادهم وحواسهم، المحملين بهذه الأشكال الجريئة، وتوافقات الألوان المجازفة التي تحوّل الألعاب الانطباعية، إلى ولدنات صبيانية. أتتحمس، يا كوكي؟

عندما استيقظت تيهامانا، وذهبت لتعدّ فنجان شاي، كان هو غارقاً في حلم يقظة. عيناه مفتوحتان على اتساعهما، مستمتعاً بانتصاراته: مقالات المديح في الصحف والمجلات، أصحاب صالات العرض يتقافزون بهجة، للطريقة التي يتنافس بها المقتنون على لوحاته، عارضين أسعاراً جنونية لم يحصل قط، على مثلها، مانيه، ولا ديغاس، ولا سيزان، ولا الهولندي المجنون، ولا بوفي دي شافان. بول يستمتع، بلباقة ودون زهو، بالمجد والثروة اللذين تقدمهما فرنسا للمشهورين. ولسوف ينعش ذاكرة الزملاء الذين شككوا في قدراته: «لقد قلت لكم ما هو المنهج. ألا تتذكرون يا أصدقاء؟». وسيساعد الشباب بتوصياته ونصائحه.

- إنني حامل - قالت له تيهامانا، عندما رجعت حاملة فنجاني شاي، يتصاعد منهما البخار. وأضافت:- لقد جاء توتسيتيل وماوريانا، ليسألا إذا ما كنت سترد إليهما ديونهما الآن، بعد أن تلقيت نقوداً.

دفع لهما، ولجيران آخرين، ما هو مدين به إليهم. وعندئذ اكتشف أن كل ما تبقى معه من النقود التي أرسلها دانييل دو مونفريد هو مئة فرنك. كم من الوقت ستكفيه للطعام؟ ولم تعد لديه أقمشة للوحات، ولا إطارات يشدها عليها، والكرتون نفد، بل لم يبق لديه، إلا عدد قليل من أنابيب الألوان. أترجع إلى فرنسا يا بول؟ في

الحالة التي أنت فيها، ومع هذا المستقبل المظلم، هل يمكنك استخلاص مزيد من المنافع في تاهيتي؟ ولكن، إذا كنت تريد العودة إلى أوروبا، فلا بد من التصرف فوراً. ليس هناك أدنى شك في عدم قدرتك على دفع ثمن بطاقة السفر. الطريقة الوحيدة، أن تطلب إعادتك إلى الوطن. لك الحق بذلك، حسب القانون الفرنسي. ولكن، ما بين الحق والممارسة، هناك مسافة كبيرة. يجب على مونفريد وشوفينكير، هناك في باريس، أن يقوما بإجراءات مستعجلة في الوزارة. وريثما يتحركان، ويأتيك الجواب الرسمي، ستتقضي ستة أشهر أو ثمانية، على الأقل. إلى العمل فوراً، دون إضاعة الوقت.

في ذلك اليوم بالذات، وجسده لا يزال مضعضعاً، بسبب ما شربه في حفلة **التامارا**، كتب إلى صديقيه، يستعجلهما في بدء الإجراءات في الوزارة، كي يوافق مدير الفنون الجميلة (أما زال هو نفسه، المسيو هنري روجون، الذي قدم له رسائل توصية، عندما جاء إلى تاهيتي؟) على إعادته إلى الوطن. وكتب إليه أيضاً رسالة طويلة، مبرراً طلبه بأسباب صحية، وبعدم قدرته الكاملة على دفع النفقات. وكتب أخيراً، رسالة إلى زوجته الشرعية، «مِت»، في كوبنهاجن، يخبرها بأنهما سيلتقيان خلال بضعة شهور؛ فقد قرر العودة إلى فرنسا، ليعرض حصيلة عمله في بحار الجنوب. ودون أن يخبر تيهامانا بخططه، ارتدى ملابسه، وانطلق إلى بابيتي كي يبعث الرسائل. كان مكتب البريد يوشك أن يغلق أبوابه، في الشارع الرئيسي، في العاصمة، شارع ريفولي الذي تحف به أشجار مثمرة سامقة، وبيوت كبيرة للأعيان. أخبره أكبر الموظفين سناً (أيدعى فونشيفال أم فونتيفال؟) بأن البريد سيُرسل بعد وقت قصير، عبر طريق استراليا. فالسفينة «**كيريغان**» تستعد للإقلاع. ومع أن الطريق أطول، إلا أنه أكثر أمناً من الطريق عبر سان فرانسيسكو، لأنه لا وجود فيه لمحطات كثيرة، حيث تضيع الرسائل، عادة.

ذهب لتناول كأس في أحد بارات المرفأ. لقد اتخذ قرار العودة

إلى باريس، ولم يكد يمضي على وصوله سنة. وهو لن يتراجع عن قراره، ولكنه لا يشعر بالراحة في قرارة نفسه. فالمسألة، بكلام صريح، هي هروب، نتيجة هزيمة. في الأحاديث مع الهولندي المجنون، هناك في آرل؛ وفي بريتاني وباريس، مع برنار، ومع موريس، ومع شوف الطيب؛ في جميع تلك الأحاديث والأحلام، حول ضرورة الرحيل، بحثاً عن عالم لا يزال بكراً، لم يقيده الفن الأوروبي بعد. كان هناك اعتبار مركزي آخر أيضاً، الهروب من الأوديسة اليومية اللعينة في السعي للحصول على نقود، والغم اليومي من أجل البقاء على قيد الحياة. لقد كان العيش على السجية والفطرة، مما تقدمه الأرض، مثل البدائيين - الشعوب الصحية - هو الدافع لمغامرتكَ في بنما والمارتينيك، وقيامك، في ما بعد، بتحريات عن مدغشقر وتونكين، قبل أن يستقر قرارك على تاهيتي. ولكن، خلافاً لأحلامك، لا يمكن العيش هنا أيضاً «على الطبيعة»، يا كوكي. لا يمكن العيش فقط على جوز الهند، والمانجا، والموز، وهي الأشياء الوحيدة التي تقدمها أغصان الأشجار بسخاء. ومع ذلك، فإن الموز الأحمر لا ينمو إلا في الجبال. ولا بد من تسلق جبال وعرة للحصول عليه. أنت لن تتعلم قط، زراعة الأرض، لأن من يفعلون ذلك، يكرسون لهذا العمل وقتاً سيحرمك من الرسم. وهكذا، فإن المال، هنا أيضاً، هو ما يتحكم بحياة الناس وموتهم، بالرغم من منظر المكان الطبيعي ووطنييه، الانعكاس الشاحب لما كانت عليه حضارة الماووري الخصيبة. المال هو من يقود حياة الأشخاص وموتهم، ويحكم على الفنانين، بالعبودية للإله مامون. إذا كنت لا تريد الموت جوعاً، فعليك أن تشتري مأكولات معلبة من التجار الصينيين، وأن تنفق، أن تنفق نقوداً لن تملكها قط، أنتَ من لا يفهمك، ويرفضك، الأكابر التافهون الذين يتحكمون بسوق الفن. ولكنك ظللت على قيد الحياة، مع ذلك، يا كوكي، ورسمت، وأغنيت مزّاجتك بهذه الألوان، وفق شعارك - «الحق بالتجرؤ على كل شيء» - وتعرضت لكل

الأخطار، مثل كبار المبدعين.

ستعترف لتيهامانا بخططك في العودة إلى فرنسا، في اللحظة الأخيرة فقط. هذا أمر يجب أن ينتهي أيضاً. عليك أن تكون شاكراً لهذه الصبية. لقد أمتعتك بجسدها الصغير الفتي، ووهنها، وروحها المتيقظة. أعادت إليك الشباب، وجعلتك تشعر أحياناً بأنك بدائي. حيويتها الطبيعية، دأبها، وداعتها، رفقتها، كل ذلك جعل حياتك محتملة. ولكن الحب كان مستبعداً من وجودك. إنه عائق لا يمكن تجاوزه في مهمتك الفنية. إنه يبرجز البشر. والآن، بهذه البذرة منك، في أحشائها، ستبدأ الفتاة بالانتفاخ، وستتحول إلى واحدة من أولئك الوطنيات الشحميات، المسُوخ المشوهات، وستشعر تجاهها بالاشمئزاز، بدل العاطفة والرغبة. من الأفضل قطع هذه العلاقة، قبل أن تنتهي بصورة سيئة. وماذا عن الابن أو الابنة؟ حسن، سيكون ابناً غير شرعي آخر، في عالم الأبناء غير الشرعيين هذا. لقد كنتَ مقتنعاً، عقلانياً، بأنك تُحسن التصرف، برجوعك إلى فرنسا. ولكن شيئاً فيك لم يكن يصدق ذلك، إلى أن أبحرتَ، في حزيران ١٨٩٣، في السفينة *دوتشفولت*، باتجاه نوميا، المرحلة الأولى من عودتك إلى أوروبا؛ فأحسست بالجزع، بالاستياء، بالخوف من ارتكاب خطأ جسيم.

لقد حقق أشياء كثيرة، خلال تلك الشهور الثمانية التي سبقت سفره. ولكنه أخطأ في واحدة من المرات، عندما ظن أنه قادر على رسم عمل بارع تاهيتي ثان. ذهب من ماتايا إلى بابيتي، ليرى إذا ما وصلته رسائل وحوالة ما، وفي المدينة، كانت هناك صدمة مؤثرة في بيت صديقه أرسيتد سوها، لأن ابنه، وعمره سنة واحدة وثمانية أشهر، كان يموت. وصل إليهم عندما كان الطفل قد فارق الحياة، بسبب التهاب معوي. ما إن رأى الطفل الميت، بوجهه المستطيل، وبشرته التي بلون الزرقة السماوية، حتى أحس بالدغدغة المهيجة. ودون تردد، أظهر حزناً لم يكن يشعر به، وعانق أرستيد ومدام

سوها، واقترح عليهما رسم صورة للطفل المتوفى، وتقديمها إليهما. تبادل الزوج والمرأة النظرات، بعيونهما الممتلئة بالدموع، ووافقا: ستكون طريقة أخرى لإبقائه إلى جانبهما.

قام على الفور، برسم اسكتشات، وواصل تلك الرسوم التخطيطية، خلال السهر على الميت، ثم رسمه أخيراً على واحدة من آخر قماشاته المشدودة، بحذر وتفصيل. تفحص كثيراً وجه ذلك الطفل ذي العينين المغمضتين واليدين المضمومتين، الممسكتين بمسبحة، والذي يعبر عن لحظة الانتقال بالذات. ولكنه، عندما حمل إليهما اللوحة، وبدلاً أن تشكره مدام سوها، على الهدية، أبدت غضباً شديداً؛ فلن تسمح مطلقاً بوجود تلك الصورة في بيتها.

– ولكن، ما الذي يثير غضبك فيها؟ – تساءل كوكي، وهو غير منزعج تماماً من رد فعل زوجة المستوطن.

– هذا ليس طفلي. إنه طفل صيني، واحد من الصفر الذين بدؤوا يغزوننا. ما الذي فعلناه لك، لتسخر من ألمنا، وتضع لملاكنا، وجهاً صينياً؟

ولأنه لم يستطع كبح ضحكته، فقد طرده الزوجان سوها من بيتهما. وفي طريق عودته إلى ماتايّا، تأمل اللوحة بعينين جديدتين. أجل، دون أن تنتبه، جعلته شرقياً. عندئذ أعاد تعميد عمله الإبداعي الباهر، باسمٍ ماووري أسطوري: **صورة الأمير أتيتي**.

بعد زمن من ذلك، وعندما لاحظ أن بطن تيهامانا لا يكبر، بالرغم من مرور أربعة أشهر على اليوم الذي أخبرته فيه بحملها، استفسر عن ذلك.

– لقد أُصبت بنزيف وفقدته – قالت، دون أن تتوقف عن الرفو – نسيتُ أن أخبرك بالأمر.

III. ابنة غير شرعية وزوجة هاربة

ديجون، نيسان ١٨٤٤

بالرغم من أن ذلك لم يكن ضمن مخطط جولتها، فقد قررت فلورا، بدل الذهاب من أوكزير إلى ديجون مباشرة، أن تتوقف في محطتين اثنتين، ليوم واحد، في كل منهما: أفالون وسيمور. وتركت في مكتبات، في القريتين كلتيهما، نسخاً من ***الاتحاد العمالي*** وملصقات. وقد ذهبت، في القريتين، للبحث عن العمال في البارات، لافتقارها إلى رسائل توصية ومرجعيات.

كانت هناك، في أفالون، حانتان اثنتان، في ساحة الكنيسة الصغيرة، حيث ذكّرتها تماثيل القديسين والعذراء غير المتقنة، بكنائس السكان الأصليين في البيرو. دخلت عند الغروب، إلى حانة **نجمة النهار**. كانت نار المكان تصبغ وجوه الزبائن بالحمرة، وتملأ الحجرة المزدحمة بالدخان. وكانت هي المرأة الوحيدة. تلت الأصوات الصارخة، همهمات وضحكات. ووسط سحب دخان الغلايين البيضاء، ميزت عيوناً ترمش، وملامح تنضح بالشهوة. حفيف أفعواني كان يرصدها، بينما هي تشق طريقها، وسط الحشد المتعرق الذي يسمح لها بالمرور، وينغلق وراءها.

لم تشعر بالانزعاج. وتوجهت إلى صاحب المحل، وهو رجل قصير، لزج التصرفات، اقترب ليسألها عمن تبحث، فردت عليه بحزم: لا أحد.

- لماذا تسألني - استفسرت بدورها، بحيث يسمعها الجميع، وأضافت:- ألا يُسمح بدخول النساء هنا؟

فهتف صوت مخمور من منضدة الكونتوار:

- النساء المحترمات، بلى. أما العاهرات، فلا.

وفكرت فلورا: «إنه شاعر المحل».

ثم أوضحت، دون أن تغضب، فارضة الصمت:

- لستُ قحبة أيها السادة. إنني صديقة للعمال. جئت لمساعدتكم في تحطيم قيود الاستغلال.

وعندئذ، أدركت من خلال ملامحهم، أنهم ما عادوا يعتبرونها عاهرة، وإنما مخبولة. لم تستسلم، وراحت تتحدث إليهم. استمعوا إليها بدافع الفضول، مثلما يُصغى لتغريد طائر مجهول، دون أن يولوا ما تقوله كبير اهتمام. وكانوا ينظرون إلى تنورتها، يديها، فمها، خصرها، نهديها، باهتمام أكبر من اهتمامهم بكلماتها. كانوا رجالاً متعبين، ذوي وجوه مهزومة، لا يرغبون في شيء سوى نسيان الحياة التي يعيشونها. وبعد قليل، عندما أشبعوا فضولهم، عاد بعضهم إلى أحاديثهم، متجاهلين وجودها. في حانة أفالون الثانية، **حانة الفرح**. وهي حيز ضيق بين جدران سودّتها مدخنة مدفأة، تحتضر فيها آخر الجمرات، كان الزبائن الستة أو السبعة مخمورين إلى حدّ لا يمكن معه إضاعة الوقت في التحدث إليهم.

رجعت إلى النزل، وبين أسنانها ذلك المذاق الحامض الذي يداهمها بين حين وآخر. لماذا يا فلوريتا؟ أبسبب الوقت الضائع في قرية الفلاحين الجهلة التي هي أفالون هذه؟ لا. بل لأن زيارة هاتين الحانتين حركت ذاكرتك، وأنت تجدين أمام أنفك الآن، روائح خمرِ كهوفٍ تغص بالسكارى والمقامرين، وأناس الحياة الخبيثة في ساحة موبيه ومحيطها، ممن أمضيتِ بينهم طفولتك ومراهقتك، وسنوات زواجك الأربع، يا فلوريتا. يا لخوفك من السكارى! كانوا يعجون في جوار شارع دوفوار، عند أبواب الحانات وعلى النواصي، مطروحين في مداخل الأبنية وعلى الأرصفة، نائمين، متجشئين، متقيئين، متلفظين ببذاءات في أحلامهم. واقشعر بدنها وهي تتذكر عودتها إلى بيتها، في الظلام، من ورشة الحفر والطباعة الحجرية التي

يملكها المعلم أندريه شازال، حيث تمكنت أمك، بعد قليل من إكمالك السادسة عشرة، من جعلهم يقبلونك كعاملة تلوين متدربة. لقد أفادك في شيء، ميلك المسبق للرسم. لو كانت الظروف مختلفة، فربما كنت ستصيرين رسامة، أيتها الأندلسية. ولكنها ليست نادمة لأنها كانت عاملة في شبابها. لقد بدا لها ذلك عظيماً في أول الأمر، فلديها الحرية، وعدم البقاء، طوال اليوم، حبيسة المغارة القذرة في شارع دوفوار، والخروج من البيت في وقت مبكر جداً، والعمل اثنتي عشرة ساعة، في مشغل المعلم شازال للحفر والطباعة الحجرية، مع حوالي عشرين عاملة أخرى. الورشة هي جامعة حقيقية، حول ما يعنيه أن تكون عاملة في فرنسا. وعن المعلم، أخبرتها فتيات الورشة بأن له أخاً مشهوراً، يدعى أنطوان، وهو رسام أزهار وحيوانات في حديقة النباتات. أما أندريه شازال نفسه، فيحب الشرب، واللعب، وإضاعة الوقت في الحانات. ومن عادته، عندما يكون مخموراً، ودون أن يكون مخموراً في بعض الأحيان، أن يتجاوز الحد مع العاملات. وما قيل لها حدث. ففي اليوم الذي قابلك فيه ليرى إن كان سيقبلك كمتدربة، تفحصك من أعلى إلى أسفل، مركزاً نظرته المبتذلة، بوقاحة، على نهديك وردفيك.

أندريه شازال! يا للشيطان البائس الذي خصك به القدر، أو الرب، لكي تقدمي إليه عذريتك، يا فلوريتا. رجل طويل، منحن بعض الشيء، ذو شعر قشيّ، وجبهة عريضة جداً، وعينين وقحتين وخسيستين، وأنف ناشز في ترصد دائم للروائح المحيطة. لقد أغويته من النظرة الأولى، بعينيك الكبيرتين والعميقتين، وبشعرك الأسود المجعد، أيتها الأندلسية. (أكان أندريه شازال هو أول من استرعيت اهتمامه هكذا؟) كان يكبرك باثنتي عشرة سنة. ولا بد أن فمه سال لعاباً وهو يحلم بثمرة هذه الآنسة المحرمة. وبحجة تعليمك المهنة، كان يلتصق بك، يمسك يدك، يطوق خصرك. هكذا تُمزج الأحماض، تتبدل الألوان، حذار أن تضعي إصبعك هنا، فسوف

تحرقينه، وفجأة، تجدينه يمد يده، يدعك ساقك، ذراعك، كتفيك، ظهرك. وكانت زميلاتك يمازحنك، «لقد أوقعتِ رب العمل في حبك، يا فلوريتا». وقد تنبأت لك آماندين، صديقتك المفضلة: «إذا أنت لم تستسلمي له، وإذا ما صمدتِ، فسوف يتزوجك. لأنه مجنون بك. أقسم لك».

أجل، كان أندريه شازال مجنوناً بكِ، شازال الطبّاع-الحجري، مرتاد الحانات، المقامر والسكير. كان مجنوناً إلى حدّ أنه في أحد الأيام، وكان يعبق برائحة النبيذ الرخيص، وكانت عيناه زائغتين، تجرأ على لمس نهديكِ بيديه الكبيرتين. لقد جعلتهُ صفعتكِ يتعثر. أصابه الشحوب. نظر إليكِ مذهولاً. وبدلاً من أن يطردها، مثلما كانت تخشى فلورا، ظهر حزيناً في مغارة شارع دوفوار، حاملاً في يده، باقة أزهار سوسن، ليقدم اعتذاراً لمدام تريستان: «سيدتي، نواياي تجاه ابنتك جدّيّة». سبب ذلك لمدام آلين، سعادة كبيرة، انفجرت معها في الضحك، وعانقت فلورا. المرة الوحيدة التي رأيتِ فيها أمك، بتلك الحماسة والسعادة. وكانت تردد، وهي تنظر إليكِ بعذوبة: «يا لحسن حظك. احمدي الله يا بنتي».

-محظوظة لأن المسيو شازال يريد الزواج مني؟

- محظوظة لأنه مستعد للزواج منك، بالرغم من أنك ابنة غير شرعية، يا بنتي. أتظنين أن هناك كثيرين يقدمون على مثل هذا؟ احمدي الله جاثية، يا فلوريتا.

ذلك الزواج كان يعني بداية النهاية لعلاقتها بأمها؛ منذ ذلك الحين بدأت فلورتا تتخلى عن حبها لها. كانت تعرف أنها ابنة غير شرعية، لأن زواج أبويها الذي عقده ذلك الكاهن الفرنسي، في مدينة بلباو الإسبانية، لم يكن معترفاً به، في القانون المدني. ولكنها الآن فقط، أدركت ووعت أن كونها **ابنة غير شرعية**، يلقي عليها مسؤولية خطيئة ولادتها التي لا تقل فظاعة عن الخطيئة الأصلية. وكون أندريه شازال، المالك شبه البرجوازي، مستعداً لمنحها اسمه،

هـي بركـة، صدفـة سـعيدة، يجـب أن تحمـد الله عليـها مـن أعمـاق روحها. ولكن ذلك كله، بدل أن يملأك بالأوهام، يا فلوريتا، خلّف لديك الطعم الكريه نفسه الذي تحاولين الآن انتزاعه من فمك، بالغرغرة بالماء والنعناع، قبل أن تأوي إلى الفراش في، نزل بلدة أفالون.

إذا كان ما شعرتِ به نحو مسيو شازال، هو الحب، فإن الحب كذبة إذن. لم تكن له أي علاقة بالروايات، بتلك المشاعر المرهفة، بذلك الاندفاع الشعري، بتلك الرغبات الملتهبة. فحين كان أندريه شازال، رب عملك، وهو لم يصر زوجك بعد، يمارس الحب معك، على تلك الأريكة ذات النوابض التي تئز، في مكتبه، في المشغل، بعد مغادرة زميلاتك، لم يكن يبدو لك رومانسياً، ولا جميلاً، ولا عاطفياً. بل هو أقرب إلى القذارة المؤلمة. الجسد العابق برائحة العرق الذي كان يهصرها، وذلك اللسان اللزج ذو الأنفاس التبغية والكحولية، وإحساسها بأن شيئاً يتمزق بين ساقيها وفي بطنها، سببت لها الغثيان. ومع ذلك، فأنت يا فلوريتا البلهاء، أيتها الأندلسية الساذجة، من كتبت، بعد ذلك الاغتصاب المقزز - لقد كان اغتصاباً، أليس كذلك؟ - تلك الرسالة إلى أندريه شازال. الرسالة التي سينشرها التعس على الملأ، بعد سبعة عشر عاماً، أمام محكمة باريس. رسالة كاذبة، حمقاء، تتضمن كل العبارات المبتذلة التي يجب أن تقولها أي فتاة عاشقة لحبيبها، بعد أن تقدم إليه بكارتها. وبكل ذلك القدر من الأخطاء الإملائية والنحوية! يا للعار الذي شعرتِ به، وأنت تستمعين إلى تلاوتها، مصغية إلى ضحكات القضاة، والمحامين، والجمهور. لماذا كتبتِها، إذا كنت قد نهضت ميتة من القرف عن تلك الأريكة؟ لأن هذا ما تفعله البطلات المفتضات في الروايات الوردية.

تزوجا بعد شهر من ذلك، في الثالث من شباط ١٨٢١، في بلدية القطاع الحادي عشر. ومنذ ذلك الحين، أقاما في شقة صغيرة، في شارع فورسيه سان جيرمان دي بري. وبينما فلورا متكورة على

نفسها في نزل أفالون، انتبهت إلى أن عينيها مبللتان، وهي تبذل جهداً لتبعد عن رأسها، هذه الذكريات البغيضة. المهم هو أن المصاعب وخيبات الأمل، زادتكِ قوة بدل أن تحطمك، أيتها الأندلسية.

الوضع في سيمور كان أفضل من أفالون. فعلى بعد خطوات قليلة من أبراج دوق بورغونيا الشهيرة، التي لم تُثر فيها أدنى قدر من الإعجاب، كانت هناك حانة، هي في النهار مطعم صغير. وكان نحو عشرة مزارعين يحتفلون بعيد ميلاد، وكان هناك أيضاً بعض صانعي البراميل. لم تجد صعوبة في فتح حديث مع الجماعتين. ثم اجتمعوا معاً، وأوضحت لهم هي، سبب جولتها في مناطق فرنسا الداخلية. كانوا ينظرون إليها باحترام وقلق، مع أنهم - فكرت فلورا - لم يفهموا الكثير مما كانت تقوله لهم.

- ولكننا مزارعون، ولسنا عمالاً - قال أحدهم، كأنه يعتذر.

- المزارعون هم عمال أيضاً - أوضحت لهم - والحرفيون كذلك، وخدم البيوت. من ليس رب عمل، فهو عامل. جميع من يستغلهم البرجوازيون. ولأنكم الأكثر عدداً، والأشد معاناة، فإنكم ستنقذون البشرية.

تبادلوا النظرات، فزعين من هذه النبوءة. وأخيراً، تشجعوا على توجيه الأسئلة إليها. اثنان منهم وعدا بأن يشتريا ***الاتحاد العمالي***، وأن ينضما إلى المنظمة، عندما تتشكل. ولكيلا تُشعرهم بالإهانة، بللت شفتيها، قبل أن تنصرف، بكأس من النبيذ.

وصلت إلى مدينة ديجون، فجر الثامن عشر من نيسان ١٨٤٤، وهي تعاني آلاماً مبرحة في الرحم والمثانة، بدأت تشعر بها، وهي في عربة السفر، ربما بسبب الاهتزاز، وبسبب التخرشات التي أحدثها، في داخلها، الغبار الذي ابتلعته. أمضت كل الأسبوع الديجوني، متضايقة من آلام في أسفل بطنها، تسبب لها ظمأ حارقاً - كانت تكافحه برشفات من الماء المحلى بالسكر - ولكن معنوياتها

كانت مرتفعة، لأنها في هذه المدينة اللطيفة، الجميلة، المضيافة. ذات الثلاثين ألف نفس، لم تُضع لحظة واحدة دون القيام بأعمال. فصحف ديجون الثلاث، أعلنت عن زيارتها. وكانت لديها لقاءات كثيرة، مرتبة مسبقاً، بفضل أصدقائها السان-سيمونيين وأتباع فورييه، في باريس.

كانت تعلل نفسها بالتعرف على المدموزيل أنطوانيت كوار، الخياطة والشاعرة الديوجونية التي اعتبرها لامارتين، في إحدى قصائده «نموذجاً للنساء»، لموهبتها الفنية، وقدرتها على تجاوز المحن، وروحها المحبة للعدالة. ولكنها، بعد قليل من التحادث معها، في مكاتب تحرير جريدة «**الساحل الذهبي**»، أدركت أنها ليست سوى مغرورة وبلهاء. كانت محدودبة الظهر والصدر، وهي فوق ذلك، بدينة بدانة هائلة، وتكاد تكون قزمة. ولدت في أسرة بائسة جداً، لكن انتصاراتها الأدبية تدفعها الآن، إلى الشعور بأنها برجوازية.

- لا أظن أنني قادرة على مساعدتك أيتها السيدة - قالت لها باستياء، بعد أن استمعت إليها، متململة، وهي تهز كف طفلة، وأضافت:- ما قلته للتو، يشير إلى أن وعظك موجه إلى العمال. وأنا لا أتردد على مجالس الناس العاديين.

«لن تذهبي إليهم بالطبع، لأنك ستخيفينهم» فكرت **السيدة غضب**. ثم ودّعتها بجفاء، دون أن تقدم إليها نسخة ***الاتحاد العمالي*** التي أحضرتها لها، كهدية.

كان السان-سيمونيون يتمتعون بقوة راسخة في ديجون. لديهم مقرهم الخاص. ولأن بروسبير أنفانتان أخبرهم مسبقاً، بقدومها، فقد استقبلوها مساء يوم وصولها في جلسة رسمية. من بوابة المقر المجاور للمتحف، رأتهم فلورا، شمتهم، وصنفتهم في ثوان قليلة. ها هم هناك، هؤلاء البرجوازيون الاشتراكيون التقليديون، الحالمون غير العمليين، هؤلاء السان-سيمونيون اللطفاء والاحتفاليون، مقدسو النخبة والمقتنعون بأنهم، بتحكمهم بميزانية الدولة، سيثوّرون المجتمع.

إنهم مشابهون تماماً لأمثالهم في باريس، في بوردو، وفي أي مكان آخر. مهنيون أو موظفون، أصحاب ملكيات أو مداخيل ثابتة، جيدو التعليم، وحسنو الهندام، مؤمنون بالعلم والتقدم، منتقدون للبرجوازيين، إلا أنهم هم أنفسهم، برجوازيون، وقليلو الثقة بالعمال.

وهنا أيضاً، كما في اجتماعات باريس، وضعوا في مقدمة المنصة، كرسياً فارغاً، رمزاً لانتظارهم قدوم **الأم**، المرأة-المسيح، الأنثى السامية التي ستشكل، بتزاوجها المقدس مع **الأب** (الأب بروسبير أنفانتان، لأن المؤسس، الأب كلود هنري دي روفروي، كونت سان-سيمون، قد مات منذ سنة ١٨٢٥)، الثنائي السامي، الثنائي الذي سيقود تحول الإنسانية لتحرير المرأة والعمال من عبوديتهم الحالية، وافتتاح عصر العدالة. ما الذي تنتظرينه يا فلوريتا، لتفاجئيهم بالذهاب والجلوس على ذلك المقعد الخاوي، ولتعلني لهم، بدراماتيكية الممثلة راشيل، أن الانتظار قد انتهى، وأن المرأة-المسيح صارت أمام أعينهم؟ لقد راودتها نفسها، عمل ذلك في باريس. لكن ما منعها هو اختلافاتها المتزايدة معهم، حول تقديس السان-سيمونية للأقلية المختارة التي يريدون تسليمها السلطة. أضف إلى ذلك، أنه سيكون عليها، إذا ما قبلوا بها **أماً**، أن تتزاوج مع الأب أنفانتان. لم تكوني مستعدة لعمل ذلك، ولو كان ذلك هو الثمن لتحطيم قيود الإنسانية، بالرغم من سمعة بروسبير أنفانتان، كسيد أنيق، ومن أن نساء كثيرات يتنهدن من أجله.

التزاوج. ليس ممارسة الحب، وإنما التزاوج، مثل الخنازير والخيول. هذا هو ما يفعله الرجال بالنساء. الانقضاض عليهن، فتح سيقانهن، ودس قضيبهم الذي يقطر، فيهن، تحبيلهن، وتركهن بأرحام معطوبة إلى الأبد، مثلما فعل بك أندريه شازال. لأن هذه الآلام التي تشعرين بها هنا، في أسفل البطن، أصبت بها منذ زواجك المنكود. «ممارسة الحب»، هذا الطقس الحساس، العذب، الذي يتدخل فيه القلب والمشاعر، الحساسية والغرائز، والذي

يستمتع به الحبيبان بالتساوي، ما هو إلا بدعة شعراء وروائيين. شبح لا يُشَرعِن الواقع المبتذل. لا وجود له بين الرجال والنساء على أي حال. أنتِ، على الأقل، لم تمارسي الحب، ولو مرة واحدة، خلال تلك السنوات الأربع المرعبة، مع زوجك، في تلك الشقة، في شارع فوسيه سان جيرمان دي بري. أنتِ تناكحت، أو نُكحتِ بكلمة أدق، في كل ليلة، من قبل ذلك الوحش الشبق، النتن بالكحول، والذي كان يخنقك بثقله، يداعب جسدك ويبوسه، إلى أن يهوي منهاراً إلى جانبك، مثل حيوان متخم. كم بكيت، يا فلوريتا، قرفاً وخجلاً، بعد تلك الاغتصابات الليلية التي كان يُخضعك لها الطاغية، سالب حريتك. دون أن يستفسر أبداً، إذا ما كنت ترغبين في ممارسة الحب، ودون أدنى فضول في معرفة إذا ما كنتِ تستمتعين بمداعباته - أيتوجب إطلاق هذه التسمية على ذلك اللهاث المقرف، على ذلك اللحس والعض؟ - أو إذا ما كانت تسبب لك ألماً، حزناً، يأساً، قرفاً. يا لبؤس الفكرة التي كنتِ ستحتفظين بها عن الحب، لولا الرقيقة أوليمبيا، أيتها الأندلسية.

لكن الأسوأ من خضوعك للنكاح، هو خروجك حبلى، بفعل تلك الامتهانات الليلية. الأسوأ هو إحساسك بأنك تنتفخين، تتشوهين، وأن جسدك وروحك يختلان. ظمأ، دوار، تثاقل، أدنى حركة تتطلب منك جهداً مضاعفاً، أو ثلاثة أضعاف الجهد العادي. أهذه هي بركات الأمومة؟ أهذا هو ما تتلهف إليه النساء، ويستكملن به ميلهن الحميم؟ الانتفاخ، الإنجاب، واستعباد الأبناء لهن، كما لو أن استعباد الأب غير كاف؟

الشقة في شارع فوسيه سان جيرمان دي بري، كانت ضيقة، وإن كانت أنظف وأفضل تهوية، من شقة شارع دوفوار. لكن فلورا مقتتها أكثر من تلك. أحست أنها سجينة، وأنها كائن مجرد مما تعلمت، منذ ذلك الحين، تثمينه أكثر من أي شيء في العالم: الحرية. سنوات العبودية الزوجية الأربع. فتحت عينيكِ على ما هو صحيح، وما هو

زائف في العلاقة بين الرجال والنساء، حول ما تريدينه وما لا تريدينه في الحياة. وما كنتِ تريدين، بكل تأكيد، أن تكوني مجرد بطن، يمنح المتعة والأبناء، للسيد أندريه شازال.

بدأت تختلق الذرائع، للتهرب من ذراعي زوجها، بعد ولادة ابنها الأول، ألكسندر، سنة ١٨٢٢: التهاب اللوزتين، حمى، صداع، تقيؤات، أوجاع، تصنع النوم. وعندما لا يكفي كل ذلك، تتمردين رافضة القيام بواجباتك الزوجية، حتى لو أدى ذلك إلى هياج سيدك ومولاك، وإهانته لك. في المرة الأولى التي حاول أن يرفع فيها يده عليكِ، قفزتِ من السرير، وأشهرت في وجهه، المقص الذي على الكوميدينو:

– إذا ما لمستني، فسأقتلك. الآن، غداً، بعد غد. سأنتظر أن تكون نائماً، أو ساهياً، وأقتلك. لن أسمح لك، ولا لأي شخص آخر، بأن يمد يده إليّ. أبداً!

رآها مصممة، خارجة عن طورها، فأحس أندريه شازال بالخوف. حسن يا فلوريتا، لم تقتليه في النهاية. والأصح هو أن ذلك الأحمق التعس، كاد يقتلك، لولا قليل. وبعد أن واصل نكحك، وتحبيلك، وجعلك تلدين ابناً ثانياً (إرنست كاميل، في حزيران ١٨٢٤)، حبَّلك مرة ثالثة أيضاً. ولكنك كنتِ قد كسرتِ قيودك، عندما ولدت آلين.

استمع إليها سان-سيمونيّو ديجون بانتباه. وبعد ذلك، وجهوا إليها أسئلة. وألح أحدهم على أن فكرتها عن القصور العمالية، تستند كثيراً إلى النموذج الاشتراكي الذي تصوره أتباع سان سيمون. لم يجانبه الصواب يا فلوريتا. فقد كنتِ تلميذة نجيبة لتعاليمه، وفي إحدى الفترات، فتنك هوس سان سيمون المائي – كان يرى أنه لا بد من أن تكون المعرفة والمال والاحترام والسلطة، متداولة بحرية، للجميع، مثل الأنهار والشلالات، من أجل إنتاج التقدم – مثلما فتنتك شخصيته، ولفتات العظمة التي تزين سيرته؛ رفضه أن يكون كونتاً، على سبيل المثال، لأنه يعتبر ذلك، كما قال «أدنى بكثير من لقب

مواطن». لكن السان-سيمونيين ظلوا في منتصف الطريق؛ فعلى الرغم من دفاعهم عن المرأة، إلا أنهم لا يُقرّون العدالة للعامل. إنهم أشخاص جيدو التعليم ولطفاء، هذا لا ريب فيه. جميع الحاضرين وعدوها بالانضمام إلى **الاتحاد العمالي**، وقراءة كتابها. وإن كنتِ، وهذا واضح، لم تقنعيهم تماماً. ففكرة أن اتحاد جميع الشغيلة، هو وحده القادر على تحقيق الانعتاق النسائي والعدالة، كانت تُبقيهم متشككين. فهم لا يؤمنون بإصلاح يأتي من أسفل، بأذرع الرعاع. وينظرون إلى العمال، بترفع كبير، وبريبة غريزية متأصلة في الملاكين، والموظفين، وذوي المداخيل الريعية. وهم ساذجون إلى حد الاعتقاد بأنه يمكن لحفنة من المصرفيين والصناعيين، أن يضعوا علاجاً لكل أمراض المجتمع، بإعدادهم **الميزانية**، بحكمة علمية. ولكن مسألة تحرير المرأة من كافة أشكال العبودية، على الأقل، وإقرار الطلاق، يحتلان في مذهبهم مكانة أولية جداً، في نهاية المطاف. ولو كان هذا هو كل ما لديهم، فأنت تشكرينهم عليه.

أكثر أهمية من اللقاء مع السانسيمونيين، كانت الاجتماعات مع النجارين، والحذائين، والنساجين في ديجون. اجتمعت بهم منفصلين، لأن النقابات الرفاقية، شديدة الغيرة على استقلالها الذاتي، ومتحفظة إزاء الاختلاط بعمال من اختصاصات أخرى. إنها أحكام مسبقة، حاولت فلورا أن تنتزعها من رؤوسهم، دون أن تحقق نجاحاً يذكر. أفضل الاجتماعات هو الذي عقدته مع النساجين. نحو اثني عشر رجلاً محشورين في مشغل خارج المدينة، أمضت معهم عدة ساعات، منذ بدء المساء حتى ذروة الليل. رجال بائسون، يرتدون قمصاناً بسيطة من نسيج سميك، وأحذية مهترئة، بعضهم حفاة، أصغوا إليها باهتمام، وكانوا يهزون رؤوسهم موافقين، وهم جامدون في أماكنهم. رأت فلورا تلك الوجوه المتعبة، تشرق، وهي تسمعها تقول إن **الاتحاد العمالي**، بعد تأسيسه، في كل أنحاء فرنسا، ثم في أوروبا بأسرها بعد ذلك، سيمتلك قوة كبيرة، تفرض على الحكومات

والبرلمانات، تحويل حق العمل إلى قانون. قانون سيحميهم من البطالة، إلى الأبد.

– ولكنك تنوين ضم النساء أيضاً، إلى التمتع بهذا الحق – قال لها أحدهم لائماً، عندما فتحت الباب لتوجيه الأسئلة.

فردت فلورا متهجية الكلمات، كما لو أنها تلقي قصيدة:

– ألا تأكل النساء؟ ألا يلبسن؟ ألسن بحاجة كذلك، إلى عمل كي يعشن؟

لم يكن من السهل إقناعهم، لأنهم يخشون، إذا ما امتد حق العمل ليطول النساء، أن يزداد تفشي البطالة، لأنه لن تتوفر أبداً وظائف لكل الناس. ولم تستطع كذلك، إقناعهم بوجوب منع عمل الأطفال، دون العاشرة، في المصانع والورش، كي يتمكن أولئك الأطفال من الذهاب إلى المدارس، وتعلم القراءة والكتابة. فقد كانوا يرتعبون، يغضبون، يقولون إن دخل الأسر الهزيل، سيتقلص بذريعة تعليم الأطفال. كانت فلورا تتفهم مخاوفهم، وتسيطر على نفاد صبرها. إنهم يعملون خمس عشرة ساعة أو أكثر، من الأربع والعشرين ساعة، وسبعة أيام في الأسبوع، ويبدون سيئي التغذية، هزيلين، معلولين، هرمين من هذه الحياة الحيوانية. ما الذي يمكن أن تطلبيه منهم يا فلوريتا؟ خرجت من الورشة موقنة من أن هذا الحوار كان مثمراً. وعلى الرغم من الإنهاك، أنجزت في اليوم التالي، واجبها بالقيام بجولة سياحية.

عذراء ديجون الشهيرة، سيدتنا شفيعة الرجاء الطيب، بدت لها ضفدعاً قبيحاً، منحوتة غير جديرة بأن تشغل ذلك الموقع الامتيازي، على المذبح الكبير في الكاتدرائية. هذا ما قالته لفتاتين من أخوية العذراء، كانتا تزينان الصنم بعباءات وطرحة من الحرير، والشفّ، والأورغنزة، وبأساور وأكاليل.

– تقديس السيدة العذراء من خلال هذا الطوطم، هو شعوذة. إنكما تذكراني بعبدة الأوثان الذين رأيتهم في كنائس البيرو. أيسمح

الكهنة بذلك؟ لو أنني كنت أعيش في ديجون، لوضعت حداً، خلال ثلاثة شهور، لمظهر الوثنية الظلامية هذا.

رسمت الفتاتان إشارة الصليب. تلعثمت إحداهما بأن دوق بورغونيا هو من أحضر هذا التمثال، من رحلة حج إلى الشرق. ومنذ مئات السنين، كانت العذراء السوداء، هي أكثر رموز التقوى شعبية في المنطقة، وصاحبة أكبر عدد من المعجزات.

وكان لا بد لفلورا من أن تخرج من هناك مسرعة - متحسرة، لأنها ترغب في مواصلة النقاش مع المتدينتين - كي لا تصل متأخرة إلى موعدها مع أربع سيدات راقيات، ينظمن جمع تبرعات خيرية، ويرعين ملجأ المسنين. استقبلتها السيدات مأخوذات. كن يتفحصنها من أعلى إلى أسفل، يسيطر عليهن الفضول لمعرفة كيف هي هذه الباريسية الغريبة التي تؤلف كتباً، هذه القديسة العلمانية التي تعلن، دون خجل، عن نيتها في افتداء الإنسانية. كن قد أعددن لها مائدة شاي، ومرطبات، وحلوى لم تتذوق منها فلورا شيئاً.

- جئت أطلب دعمكن لعمل عميق المسيحية، يا سيداتي.

- ولكن، ما الذي تظنين أننا نفعله يا مدام - قالت أكبرهن سناً، وهي عجوز ذات عينين زرقاوين وإيماءات نشطة - إننا نكرس حياتنا لممارسة الإحسان.

- لا. أنتن لا تمارسن الإحسان - صححت لها فلورا - إنكن توزعن الصدقات، وهو أمر مختلف جداً.

استغلت مفاجأتهن، وحاولت إفهامهن. الصدقات تفيد من يقدمونها فقط، تسلحهم براحة الضمير، والاعتقاد بأنهم عادلون. ولكن الهبات لا تساعد الفقراء على الخروج من الفقر. بدلاً من الصدقات، عليهن استخدام أموالهن ونفوذهن لمصلحة **الاتحاد العمالي**، تمويل جريدته، وفتح مكاتبه. فالاتحاد العمالي سيوفر العدالة للإنسانية المعذبة. إحدى السيدات، وكانت تحرك الهواء بمروحة يدوية، وهي تشعر بالاختناق، دمدمت بأنه لا يمكن لأحد أن

يعطيها دروساً في الإحسان، وهي التي تهمل أسرتها، كي تكرس أربع مساءات كل أسبوع، لأعمال البر. وأقل من ذلك، أن يأتي ذلك من امرأة متعجرفة، يغطي الوحل حذاءها المثقوب، وتسمح لنفسها مع ذلك بازدرائهن! «إنك مخطئة يا مدام»؛ ففلورا تؤمن بطيب نواياهن، وتسعى فقط إلى توجيهها في وجهة فعالة. خف التوتر قليلاً، ولكنها لم تحصل على أدنى وعد بالدعم. ودّعتهن ضاحكة؛ فهؤلاء العمياوات الأربع لن ينسينكِ أبداً. لقد فتحتِ عيونهن، وكشفتِ دودة الرياء فيهن.

إنك تشعرين بالثقة الآن يا أندلسية، بأنك قادرة على مواجهة كل برجوازيات وبرجوازيي العالم، بأفكارك الرائعة، لأن لديك فكرة واضحة جداً عن الخير والشر، عن الجلادين والضحايا، وتعرفين الوصفة لعلاج آفات المجتمع. كم تبدلت منذ ذلك الزمن الرهيب، عندما اكتشفت أن أندريه شازال قد حبَّلك للمرة الثالثة، وقررتِ، سراً، أن تهجري زوجكِ، دون أن تخبري حتى أمك. «لا مزيد.» ونفذت ذلك.

كانت في الثانية والعشرين من عمرها. لديها ابنان، وابنة تنمو في أحشائها. لا تملك نقوداً، ولا أصدقاء، ولا أسرة تدعمها. وبالرغم من ذلك، قررت الإقدام على ذلك الانتحار بالنسبة لأي امرأة يهمها الأمان والسمعة الحسنة. أما أنت، فلم يكن يهمك أي شيء يكون ثمنه مواصلتك حياة العبودية تلك. لا تريدين إلا الهرب من ذلك القفص الحديدي المسمى زواجاً. أكنتَ تعرفين ما الذي تعرضين نفسك له؟ لا، بكل تأكيد. لم تتصور قط أن أشد نتائج ذلك الهروب دراماتيكية، ستكون رصاصة مغروسة في الصدر، تشعر ببرود حديدها فجأة، مع كل نوبة سعال، وفي لحظات الضيق واليأس. لست آسفة على ذلك. وستعودين إلى فعله، مثلما فعلته بالضبط، لأنكَ الآن، بعد عشرين سنة، تشعرين بقشعريرة في جلدك، وأنت تتصورين حياتك، لو أنك ما زلت مدام أندريه شازال.

لقد جاءت نكبة لتسهل هروبها: حالة الوهن المزمن، وتواصل أمراض ابنها الأكبر، ألكسندر، الذي سيموت في الثامنة من عمره، سنة ١٨٣٠. لقد أصر الطبيب: يجب إخراجه إلى الريف كي يتنفس هواء نقياً، بعيداً عن عفونة باريس. ووافق أندريه شازال. استأجر غرفة صغيرة بالقرب من فرساي، في بيت المرضع التي كانت تُرضع إرنست-كاميل، وسمح لفلورا بأن تذهب للعيش هناك، إلى أن تضع مولودها. يا للإحساس بالحرية الذي شعرت به عندما ودّعها أندريه شازال في محطة عربات السفر. ولدت آلين بعد شهرين من ذلك، في السادس عشر من تشرين الأول ١٨٢٥، في الريف، على يد قابلة جعلت فلورا تدفع وتئن قرابة ثلاث ساعات. هكذا انتهى زواجكِ. وستنقضي سنوات طويلة، قبل أن تعودي لرؤية زوجك.

بعد أن ألحت ثلاث مرات، وأرسلت إليه نسخة مع عبارة إهداء من **الاتحاد العمالي**، تنازل صاحب النيافة، مطران ديجون، على استقبالها. كان عجوزاً ذا مظهر سام وكلمة مثقفة، أمضت معه فلورا لحظات مناظرة مبهجة. كان قد قرأ الكتيب، وقبل أن تفتح فلورا فمها، أغرقها بالمديح. بنيتي.. نواياك طاهرة، نبيلة. فيها فهم واضح للألم البشري، وإرادة متوقدة للتخفيف منه. ولكن، ولكن، دائماً هناك «لكن» في هذه الحياة البعيدة عن الكمال. وهي في حالة فلورا، عدم كونها كاثوليكية. وهل يمكن القيام بمثل هذا العمل العظيم، الأخلاقي، المفيد للروح، بعيداً عن الكاثوليكية؟ نواياها السوية ستبدو معوجة. وبدل أن يؤدي مشروعها إلى ما تأمل به، ستكون له عواقب جانبية مؤذية. ولهذا - وكان المطران يقول لها ذلك وفي قلبه ألم - لن أساعدك. بل أكثر من ذلك. من واجبه أن يحذرها. إذا ما تشكل **الاتحاد العمالي** - ومن الممكن أن تتوصل فلورا إلى تشكيله، بما تبديه من حماسة وإرادة - فإنه سيقاومه. لأن منظمة غير كاثوليكية بهذا الاتساع، ستعني انقلاباً في المجتمع. تناقشا مطولاً. وسرعان ما أدركت فلورا أن مسوغاتها لن تترك أبداً

أي أثر في المنسنيور فرانسوا-فكتور ريفه. ولكنها فتنت بثقافة المطران الذي حدثها كذلك عن الفن، والأدب، والموسيقى، والتاريخ، برهافة وتضلع. عندما تسمع أحداً يتكلم هكذا، لا تستطيع تجنب الإحساس بالحنين إلى الكثير الذي لا تعرفه، إلى كل ما لم تقرأه، ولن تقرأه، لأن الوقت قد فات على ملء فجوات تعلمها. لهذا السبب تزدريكِ جورج ساند يا فلوريتا، ولهذا السبب تشعرين دائماً، في مواجهة سيدة الآداب الفرنسية الكبيرة تلك، بدونية تشلّك. «أنت أهم منها أيتها البلهاء»، هكذا كانت أولمبيا تشجعها.

كون المرأة غير مثقفة، فضلاً عن كونها فقيرة، يعني أنها فقيرة مرتين يا فلوريتا. لقد قالت هذه العبارة لنفسها مرات كثيرة، في تلك السنة التي تحررت فيها من أندريه شازال - ١٨٢٥ -، عندما واجهت، مع ابنها البكر المريض، والثاني لدى مرضعة في الريف، وآلين حديثة الولادة، وضعاً لم تكن قد وضعته مسبقاً في اعتبارها، حين كانت تتسلط على عقلها، فكرة التحرر من النير الأسري. فهؤلاء الأطفال يجب توفير الطعام لهم. كيف، إذا كنتِ لا تملكين سنتاً واحداً؟ ذهبت إلى أمها، وكانت تعيش آنذاك، في حي أقل قذارة، في شارع نوف دي سين. لم تستطع مدام تريستان أن تتفهم مشيئتكِ في عدم العودة إلى بيتك، حيث زوجك، أبو أبنائك. فلورا! فلورا! ما هذا الجنون؟ تهجرين أندريه شازال؟ لقد كان الرجل المسكين محقاً في شكواه بأنه لا يتلقى أخباراً منكِ. يظن أن امرأته في الريف، تُعنى بالأطفال. كان أندريه قد تعرضَ، في الشهور الأخيرة، إلى خسائر اقتصادية مفاجئة: الدائنون يحاصرونه، وقد اضطر إلى مغادرة الشقة، في شارع فوسيه سان جيرمان دي بري، وحجز القاضي مشغله. والآن بالذات، عندما يحتاج زوجكِ إليك أكثر من أي وقت مضى، تريدين هجره؟ كانت عينا أمها تفيضانِ بالدموع، وفمها يرتعش.

- لقد فعلتُ ذلك - قالت فلورا - لن أعود أبداً إليه. لن أفقد

حريتي أبداً.

- المرأة التي تهجر بيتها، تهوي إلى ما هو أدنى من العاهرة - أنبتها أمها، مرتعبة - إنها جريمة يعاقب عليها القانون. إذا ما قدم أندريه شكوى ضدك، فسوف تلاحقك الشرطة، وستذهبين إلى السجن كمجرمة. لا يمكنك الإقدام على مثل هذا الجنون!

لقد أقدمت عليه يا فلوريتا، دون أن تعبئي بالمخاطر. صحيح، لقد صار العالم عدائياً، والحياة شاقة جداً. وفجأة، كان عليك إقناع تلك المرضع من أرباجون، بأن تُبقي الأطفال الثلاثة عندها، بينما أنت تبحثين عن عمل، كي تتمكني من دفع أجرها، وتكاليف إعالة أبنائك. وفي أي شيء يمكنك أن تعملي، أيتها المخلوقة العاجزة عن كتابة جملة سليمة؟

ولكي تتجنب عثور أندريه شازال عليها، ابتعدت عن ورشات الطباعة الحجرية، حيث يمكن أن يُقدّموا لها عمل. خرجت من باريس، لتختفي في الأقاليم. كان عليها أن تبدأ من أدنى مستوى: بائعة إبر وخيطان ومواد تطريز، في دكان صغير في رون. وخلال الوقت الذي لا يكون هناك زبائن، عليها أن تجلي، وتكنس، وتنظف، مقابل أجر تافه، ترسله كاملاً إلى المرضع في أرباجون. ثم عملت، بعد ذلك، مربية ابنين توءمين لزوجة كولونيل تعيش في الريف، بالقرب من فرساي، بينما زوجها يقوم بالحرب أو يدير ثكنة عسكرية. لم يكن عملاً سيئ الأجر - لم تكن تنفق شيئاً، ولديها غرفة محترمة - وكان يمكن لها أن تبقى هناك لوقت أطول، لو أن طبعها سمح لها بتحمل التوءمين، وهما خنزيران سمينان، عندما لا يصرخان ليثقبا طبلتي أذنيها، يتقيأان ويبولان في الملابس التي بدلتها لهما للتو، لأنهما تبرزا وبالا في الملابس السابقة. وقد طردتها الكولونيلة في اليوم الذي اكتشفت فيه أن «**مدام غضب**»، الخارجة عن طورها، بسبب صراخ التوءمين، راحت تقرصهما لترى إذا كانا يصمتان.

على الرغم من أن فلورا حاولت، منذ صباها، وبكل الوسائل المتاحة لها، أن تملأ ثغرات القصور في تعليمها، فقد كانت تثقل عليها دوماً، فكرة أنها غير مثقفة، جاهلة، عندما ظهر في طريقها شخص واسع المعارف، يتكلم فرنسية متقنة، مثل مطران ديجون. ومع ذلك، لم تخرج قانطة من قصر المطرانية؛ بل كانت أقرب إلى الحماسة. لم تستطع الامتناع عن التفكير، بعد أن سمعته، بمدى بهجة الحياة عندما سيتمكن جميع أطفال العالم، بفضل الثورة السلمية التي تسعى إليها، من أن يتلقوا، في **القصور العمالية**، تعليماً رفيعاً، مثل الذي حصل عليه المونسنيور فرانسوا-فكتور ريفه.

بعد لقاء مع جماعة من أتباع فورييه، ذهبت فلورا، عشية مغادرتها ديجون، إلى الريف لزيارة غابرييل كابتي، الإنساني العجوز. لقد كان ثورياً ناشطاً - يعقوبياً - خلال الثورة الكبرى، وهو الآن ثري وأرمل، يؤلف كتباً فلسفية حول العدالة والحق. كان يقال إنه مناصر لأفكار شارل فورييه. لكن فلورا أصيبت بخيبة أمل كبيرة أخرى. لم تحصل من السيد غابرييل كابتي على أدنى وعد بمساعدة **الاتحاد العمالي**، لأنه مشروع استبعده تلميذ روبسبير السابق، باعتباره «وهماً هذيانياً». وكان على فلورا أن تتحمل منولوجاً، استمر حوالي الساعة، من الثمانيني شديد التأثر بالبرودة - ففضلاً عن الرداء الصوفي واللفاع، كان يضع طاقية نوم - حول أبحاثه في تتبع الآثار الرومانية في المنطقة. فهو لم يكتف بالقانون، والأخلاق، والفلسفة، والسياسة، بل كان، في أوقات فراغه، أركيولوجياً هاوياً. وبينما العجوز يرتل مونولوجه، كانت فلورا تتابع ذهاب وإياب خادمة السيد كابتي. إنها فتية، رشيقة، حالمة، لا تهدأ ثانية واحدة: تمر بالمكنسة على بلاط الردهة المائل إلى الحمرة، تنفض الغبار عن أواني الخزف في المطبخ، أو تأتيهما بالليمونادة التي يأمرها المفكر الإنساني بإحضارها، في وقفة عابرة لخطبته المسهبة المملة. هذا ما كنته أنت، يا فلوريتا، قبل سنوات. كنتِ مثلها، كرستِ أيامك ولياليك، طوال

ثلاث سنوات، للجلي، والتنظيف، والكنس، والغسيل، والكي والخدمة. إلى أن حصلت على عمل أفضل. شغّالة، مدبرة منزل، خادمة، لدى تلك الأسرة التي انتقلت إليكِ بسببها عدوى كراهيتك الكبيرة لإنكلترا، مثلما تنتقل عدوى الحمى الصفراء أو الكوليرا. ومع ذلك، لولا تلك السنوات في خدمة أسرة سبنس، لما كنت مدركة بوضوح الآن، ما يتوجب عليكِ عمله من أجل تحويل وادي الدموع هذا، إلى مكان لائق وإنساني.

عند عودتها إلى النزل، بعد الرحلة غير المجدية إلى بيت غابرييل كابتي الريفي، تلقت فلورا مفاجأة سارة؛ فإحدى عاملات الخدمة، وهي يافعة وخجولة، جاءت تقرع باب حجرتها. كانت تحمل فرنكاً في يدها، وتلعثمت:

– هل يكفي هذا، يا سيدتي، من أجل شراء كتابك؟

لقد حدثوها عن ***الاتحاد العمالي***، وهي راغبة في قراءته. لأنها تعرف القراءة وتحب ممارستها، في أوقات فراغها.

عانقتها فلورا، وكتبت لها إهداء على نسخة من الكتاب، ولم تأخذ النقود.

IV. أمـواه سـرية

ماتايّا، شباط ١٨٩٣

فـي الشـهور الثمانيـة التـي تأخرهـا تجسـيد قـراره بـالعودة إلـى فرنسـا، منـذ وليمـة التامـارا، تلـك التـي انتهـى إلـى التمـرغ فـيها علـى الأرض، مـع ماوريانـا، زوجـة توتسـيتيل، إلـى أن وافقـت الحكومـة الفرنسـية، بفضـل مسـاعي مونفريد وشوفـينكير فـي بـاريس، علـى إعادته إلى الوطن؛ وإبحاره في السفينة دوتشفولت، يوم الرابع من حزيران ١٨٩٣، رسم كوكي لوحـات كثـيرة، ودوّن ملاحظـات كثـيرة، وأنجز العديد من المنحوتات أيضاً، وإن لم يتوصل قط، إلى إنجاز العمل البارع، مثلما جرى له عندما رسم ***ماناو توباباو***. إخفاقه فـي صورة طفل الزوجين سوها الميت (وقد تمكن جينو من مصالحته معهما بعد بعض الوقت)، أغراه بأن يحاول كسب معيشته من رسم المستوطنين فـي تـاهيتي، والذيـن كـانوا يعتبرونـه شـاذاً، حسـب قـول أصدقائه الأوروبيين القليلين.

لم يكن قد أخبر تيهامانا بأي شيء عن مساعيه للعودة إلى الوطن، خوفاً من أن تستبق امرأته الأحـداث، وتـهجره، إذا مـا عرفـت أنـه سيهجرها بعد قليل. كان مولعاً بها. فمع تيهامانا، يمكنه الحديث عن أي شيء، لأن الصبية، على الرغم من جهلها بموضوعات كثيرة مهمة في نظره، مثل الجمال، والفن، والحضارات القديمة، إلا أنها تملك ذهناً متيقظاً جداً، وتغطي الفجوات الثقافية بذكائـها: لقد كـانت تفاجئه فـي كل لحظة، بمبـادرة مـا، أو بدعابـة أو مفاجـأة. أتراهـا تحبك يا كوكي؟ لم تستطع معرفة ذلك. إنها رهن إشارتك دوماً، كلما أردتها. وفـي ساعة الحب، تكون مندفعة فـي مشاعرها، وبارعة مثل أوسع المومسات خبرة. ولكنها تختفـي من ماتايّا، أحياناً، ليومين أو

ثلاثة أيام. وحين ترجع لا تقدم لك أدنى تفسير. وعندما تلح عليها لتعرف أين كانت، تفقد صبرها، ولا تخرج عن القول: «لقد ذهبت، لقد ذهبت، ها قد أخبرتك». لم تكن تبدي أدنى مظهر من مظاهر الغيرة. وكوكي يتذكر أنه، بينما كان يعانق ماوريانا على الأرض، في ليلة التامارا، رأى كما في حلم، على وميض لهب الموقد، وجه تيهامانا، تنظر إليه ساخرة، بعينيها اللتين بلون الكهرمان الأسود. أتكون هذه اللامبالاة الكاملة، هي الطريقة الطبيعية للحب في التقاليد الماوورية، وعلامة حريتهم؟ لا شك في ذلك، على الرغم من أنه، كلما استفسر من جيرانه في ماتايّا عن ذلك، يكون جوابهم ضحكات متهربة. لم تبدِ تيهامانا كذلك، أدنى قدر من العدائية، تجاه الجارات في القرية ومُحيطها، ممن كان كوكي يدعوهن ليكن موديلات له، بل كانت تساعده أحياناً في تعريتهن، وهو ما كن شديدات التحفظ فيه.

كيف سيكون رد فعل امرأتك بقصة جوتيفا، يا كوكي؟ لن تعرف ذلك أبداً، لأنك لن تتجرأ على إخبارها بها. لماذا؟ أما زالت تتنفس فيك الأحكام المسبقة لأخلاق الحضارة الأوروبية؟ أم لأنك، ببساطة، مغرم بتيهامانا أكثر مما يمكنك تقبله، وتخشى إذا ما هي عرفت بما جرى، في تلك الرحلة، أن تغضب وتهجرك؟ ما هذا يا كوكي! أولستَ تفكر في هجرها أنت، دون أي وازع من ضمير، فور حصولك على الموافقة بإعادتك إلى الوطن، كفنان عاجز عن دفع نفقات السفر؟ أجل، هذا صحيح. ولكنك، ريثما يحدث ذلك، تريد مواصلة العيش - حتى اليوم الأخير - مع امرأتك الجميلة.

حياته في هذه الشهور، ستبدو له في ما بعد، عندما تشتد وطأة النكبة عليه، سعيدة، ومنتجة قبل كل شيء. وكان يمكن لها أن تكون أكثر إنتاجية، بكل تأكيد، لولا الضائقات المالية. فالتحويلات المالية المتباعدة من مونفريد أو من شوف الطيب، لم تكن تكفي لتغطية نفقاته. وكان يعيش مديناً أبدياً لأوني، صاحب المتجر الصيني في ماتايّا.

كان ينهض باكراً، مع أول أنوار الصباح، فيستحم في النهر المجاور، ويتناول فطوراً بسيطاً - فنجان الشاي الدائم، وشريحة من المانجا أو الأناناس - ويبدأ العمل، بحماسة لا تتحدر أبداً. كان يشعر بأنه على ما يرام، في هذا المحيط من الضياء شديد الحيوية، ومن الألوان بالغة الصفاء والتناقض، من الحر والأصوات المتنامية، أصوات حيوانية، نباتية، بشرية، ورتابة البحر الأبدية. وبدلاً من الرسم، في اليوم الذي تعرف فيه على جوتيفا، كان يعكف على شغل منحوتات صغيرة، استناداً إلى رسوم أولية يعدها بسرعة، محاولاً أن يلتقط، في بضعة خطوط، وجوه تاهيتيي الجوار ذات التقاطيع الثابتة، أنوفهم الفطساء، أفواههم العريضة، شفاههم الغليظة، وأجسادهم المتينة. أو ينحت آلهة من اختراعه؛ إذ لم يبق في الجزيرة، لسوء حظه، أي أثر لتماثيل وطوطمات آلهة الماووري القدماء.

الشاب الذي يقطع الأشجار في محيط كوخه، كان أقل خجلاً، أو أكثر فضولاً، من الجيران الآخرين في ماتايّا، ممن لا يبادرون إلى زيارته، إلا في حالات نادرة، ما لم يذهب كوكي في طلبهم. لم يكن الحطاب من القرية نفسها، وإنما من قرية صغيرة أخرى، داخل الجزيرة. وقد اقترب في أحد الأيام، حاملاً فأسه على كتفه، ووجهه وجسده مبلّلان بعرق التعب، من مظلة القصب التي كان كوكي يشذب تحتها صدر نحت لفتاة. وراح يتأمله، مقرفصاً، بفضول طفولي في نظرته. أربككَ حضوره، وكنتَ على وشك أن تطرده. ولكن شيئاً ما كبحكَ. أيكون السبب هو جمال الفتى يا بول؟ أجل، هذا سبب أيضاً. إضافة إلى شيء أكثر من ذلك، شيء كنت تحدسه بصورة غائمة، بينما أنت تتوقف عن العمل، بين حين وآخر، وتراقبه بطرف عينك. لقد كان ذكراً، قريباً من ذلك الحد الملتبس الذي يتحول فيه التاهيتيون إلى **تاتا فاهيني**، أي ذكر-أنثى، أو خنثى، ذلك الجنس الثالث الوسيط الذي كان الماووريون، على خلاف الأوروبيين

المتحاملين، وخفية عن المبشرين والرهبان، لا يزالون يتقبلونه بينهم، بتلقائية الحضارات الوثنية الكبرى. لقد حاول، في مرات كثيرة، أن يتحدث عنهم مع تيهامانا. ولكن وجود أولئك ***الماهو mahus*** كان يبدو للفتاة، أمراً مفروغاً منه، وعادياً تماماً، إلى حد لا يتمكن معه من دفعها إلى الحديث عنه، إلا بعبارات قصيرة تافهة أو هز كتفيها. أجل، بالطبع، هناك رجال-نساء، وماذا في ذلك؟

كانت بشرة الفتى النحاسية الرمادية، تكشف عن عضلات مشدودة، كلما ضرب بفأسه جذعاً، أو رفعه إلى كتفه، ليحمله على ظهره ويمشي به حتى الدرب، حيث تأتي عربة المشتري لنقله إلى بابيتي أو إلى قرية مجاورة. ولكنه، عندما يجلس القرفصاء، بجانبه، ليراقبه وهو ينحت، يمد وجهه الأمرد، ويفتح عينيه السوداوين العميقتين، برموشهما الطويلة، على اتساعهما. كما لو أنه يبحث، في أعماق، ووراء ما يراه، عن سبب سري للعمل الذي ينهمك فيه بول. كان وضعه، ملامحه، التكشيرة التي تباعد بين شفتيه، وتُظهر بياض أسنانه، تمنحه لمسة من العذوبة والأنوثة. كان اسمه جوتيفا. وكان يتكلم الفرنسية بما يكفي لتبادل حوار. فكانا يتبادلان الحديث كلما توقف بول عن العمل. وكان الفتي الذي يشد قطعة قماش صغيرة حول خصره، تكاد لا تغطي مؤخرته وعضوه، يأكله بالأسئلة عن تلك المنحوتات الخشبية التي يستنسخ بها بول، شخوصاً محليين، ويختلق من مخيلته آلهة وشياطين تاهيتيين. ما الذي يجتذبك، بهذه الطريقة، إلى جوتيفا، يا بول؟ لماذا يشع منه هذا الجو الأليف، كما لو أنه كان يشكل، في زمن مضى، جزءاً من ذاكرتك؟

كان الحطاب يبقى هناك أحياناً، بعد انتهاء عمله، للتحدث معه. فتقدم تيهامانا عندئذ، لجوتيفا فنجاناً من الشاي، وشيئاً من الطعام. وذات مساء، بعد أن انصرف الفتى، تذكر كوكي أمراً. هرع إلى الكوخ ليفتح الصندوق الذي يحتفظ فيه، بمجموعته من الصور الفوتوغرافية، والكليشيهات، وقصاصات المجلات التي تضم صوراً

مستنسخة، لمعابد كلاسيكية، ولتماثيل ولوحات، وصوراً كانت قد أثرت فيه، وهي مجموعة يعود إليها مرة بعد أخرى، مثلما يعود البعض إلى ذكريات الأسرة. وبينما هو يجوب ذلك الخليط، يقلّبه، يداعبه، ظلت إحدى الصور ملتصقة بأصابعه. هذا هو التفسير! هذه هي الصورة التي كان وعيك، حدسك، يطابق بصورة غامضة، بينها وبين الحطاب الشاب، صديقك الباهر في ماتايّا.

تلك الصورة الفوتوغرافية التي التقطها شارل سبيتز، مصور مجلة *L'Illustration*، رآها بول أول مرة، في معرض باريس الدولي، سنة ١٨٨٩، في الجناح المخصص لبحار الجنوب الذي شارك سبيتز في تنظيمه. وقد أذهلته الصورة، لدرجة أنه ظل يتأملها لوقت طويل. ورجع لرؤيتها في اليوم التالي. وأخيراً، رجا المصور الذي كان يعرفه منذ سنوات، أن يبيعه نسخة منها. أهداه شارل واحدة. وكان عنوانها مخادعاً: «**نباتات في بحار الجنوب**». لأن المهم فيها، لم يكن نباتات السرخس الضخمة، ولا عرائش النباتات المتسلقة والأوراق المتشابكة في خاصرة الجبل، تلك التي ينساب منها شلال نحيل، بل صورة جانبية لشخص، يتشبث بالأوراق المتساقطة على الأرض، وينحني ليشرب، أو ربما لتأمل ذلك الينبوع. أهو شاب؟ أم أنه شابة؟ الصورة توحي بالاحتمالين كليهما، وبالزخم نفسه، دون استبعاد احتمال ثالث: أن يكون الأمرين كليهما معاً، بالتناوب أو بالتزامن. لقد كان يراود بول، في بعض الأيام، شعور يقيني بأنها صورة جانبية لامرأة؛ وفي مرات أخرى، لرجل. فَتنته الصورة، وحملته إلى التخيل، واستثارته. لم يعد لديه الآن، أدنى شك، فهناك علاقة سرية ما، بين تلك الصورة وجوتيفا، حطاب ماتايّا. وبعث فيه ذلك الاكتشاف نفحة من المتعة. لقد بدأت الأرواح التاهيتية تُطلعك على أسرارها يا بول. في ذلك اليوم بالذات، عرض صورة شارل سبيتز على تيهامانا.

- أهو رجل أم امرأة؟

ظلت الفتاة تتفحص قطعة الكرتون قليلاً، ثم هزت رأسها أخيراً،

مترددة. لم تستطع هي أيضاً، تحديد ذلك.

كانت له أحاديث مطولة مع جوتيفا، بينما هو ينحت ألهته، والفتى يراقبه. لقد كان مهذباً؛ فعندما لا يتوجه إليه بول بالكلام، يظل ساكناً وصامتاً، خشية أن يسبب إزعاجاً. ولكن حين يبدأ بول الحوار، لا تعود هناك طريقة لوقفه عن الكلام. لقد كان فضوله كبيراً، طفولياً؛ يريد أن يعرف عن الرسوم، وعن المنحوتات، أشياء أكثر مما يمكن لبول، أن يقوله. ويريد أن يعرف الكثير أيضاً، عن عادات الأوروبيين الجنسية. تساؤلات فضولية، لو لم يصغها بشفافية البراءة، لبدت بذيئة وبلهاء. هل لقضيب الأوروبيين، حجم وشكل قضيب التاهيتيين؟ وهل أعضاء الأوروبيات الجنسية مثل أعضاء النساء هنا؟ هل لهن شعر خفيف بين أفخاذهن؟ وعندما يوجه هذه التساؤلات، بفرنسيته المتعثرة، المختلطة بكلمات وعبارات تاهيتية، وإيماءات تعبيرية، لا يبدو عليه أنه يريد إشباع ميل مرضي، وإنما تلهف لزيادة معارفه، لتقصي ما يقرّب أو يفرق بين الأوروبيين والتاهيتيين، في ذلك الموضوع المستبعد، عموماً، من الأحاديث بين الفرنسيين. فكان بول يقول في نفسه: «إنه بدائي حقيقي، وثني حقيقي. وعلى الرغم من تعميده، وإهانته، باسم غير تاهيتي ولا مسيحي، فإنه لا يزال جامحاً دون ترويض.» كانت تيهامانا تقترب أحياناً لتستمع إليهما، غير أن جوتيفا كان يمتنع عن الكلام، بحضورها، ويبقى صامتاً.

من أجل المنحوتات ذات الحجم العادي أو الكبير، كان كوكي يفضل خشب شجرة الخبز، وأشجار النخيل أو جوز الهند. أما المنحوتات الصغيرة، فيفضل لها دوماً خشب الشجرة المسماة عود الطوف. ومنها يصنع التاهيتيون قواربهم. إنه خشب طري ومطاوع، يكاد يكون كالصلصال. ليس فيه عقد ولا عروق. ويبعث ملمسه في النفس، إحساساً لحمياً. غير أنه من الصعب العثور على عود الطوف في محيط ماتايّا. طلب منه الحطاب ألا يقلق. أيريد مؤونة جيدة من

هذا الخشب؟ جذعاً كاملاً؟ هو يعرف غابة صغيرة من أشجار خشب الطوف. وأشار له إلى خاصرة الجبل القريب الوعرة. سيأخذه إلى هناك.

انطلقا عند الفجر، وكل منهما يحمل صرة مؤونة على كتفه، ولا يلبسان سوى ما يستر أعضاءهما. كان بول قد اعتاد على المشي حافياً، مثل الوطنيين. وهو أمر فعله كذلك، في شهور الصيف، في بريتاني. وقبل ذلك في المارتينيك. ومع أنه تنقل كثيراً، خلال الشهور التي أمضاها في الجزيرة، إلا أنه كان يمضي دوماً، على الدروب الساحلية. هذه هي المرة الأولى التي يتوغل فيها عبر الغابة، ويدخل أعماقها مثل تاهيتي حقيقي، غارقاً في خضرة كثيفة، خضرة أشجار، وشجيرات، ونباتات تتشابك فوق رأسيهما، لتحجب الشمس، عبر دروب لا تراها العيون، لكن جوتيفا يميزها بسهولة مع ذلك. في ظلال الخضرة المزركشة بانعكاسات متلألئة، والضاجة بتغريد طيور لم يعرفها بعد، ومستنشقاً ذلك الشذا الرطب، الزيتي، النباتي، الذي ينفذ من كل مسامات جسمه، أحس بول بانتشاء كامل، مهيج، كما لو أنه نتاج إكسير سحري.

أمامه، على بُعد متر أو اثنين، يمضي الفتى في طريقه، دون تردد، محركاً يديه على إيقاع خطواته. ومع كل خطوة، تبرز عضلات كتفيه وظهره وساقيه، وتتحرك، مع بريق حبيبات العرق، موحية له بفكرة محارب، صياد من الأزمنة الغابرة، يتوغل في الأدغال الكثيفة بحثاً عن العدو، ليقطع رأسه ويحمله على كاهله، عائداً به إلى بيته، ليقدمه إلى إلهه القاسي. كانت دماء كوكي تغلي، وكانت خصيتاه وقضيبه في حالة هياج وفوران؛ لقد كان يختنق بالشهوة. ولكن - بول، بول! - لم تكن الشهوة المعهودة بالضبط، شهوة الانقضاض على ذلك الجسد الرشيق لامتلاكه، وإنما الاستسلام له، تمكينه منكَ، من مضاجعتك، مثلما يضاجع الرجل امرأة. التفت جوتيفا وابتسم له، كما لو أنه قد حدس أفكاره. احمر وجه بول بعنف: أيكون الفتى قد

انتبه إلى عضوك المنتصب، البارز من بين طيات وزرتك؟ يبدو أن ذلك لم يثير فيه أدنى اهتمام.

– هنا ينتهي الطريق – قال الفتى ذلك، ثم أشار:– ويتواصل في الضفة الأخرى. لا مفر من البلل يا كوكي.

غاص في ألجدول، وتبعه بول. بعث فيه الماء البارد إحساساً مهدئاً. حرره من التوتر الذي لا يطاق. وعندما انتبه الحطاب إلى أن بول قد ظل في النهر، محتمياً من التيار، بصخرة كبيرة، ترك على الضفة الأخرى جراب مونته ووزرته، وعاد يغطس ضاحكاً. كان الماء يزغرد، مشكلاً تموجات وزيداً لدى اصطدامه بجسده المتناسق. «المياه باردة جداً»، قال وهو يدنو من بول، إلى أن لامسه. كان الفضاء أخضر أزرق، لا تُسمع فيه زقزقة أي عصفور. وباستثناء صخب التيار، في ارتطامه بالصخور، كان هناك صمت طمأنينة وحرية؛ وفكر بول: لا بد أنها طمأنينة وحرية الفردوس الأرضي. كان عضوه قد انتصب من جديد، وأحس بأنه يتلاشى في تلك الشهوة غير المسبوقة. أن يستسلم، يسترخي، أن يُحبه الحطاب، ويعامله بوحشية كما لو أنه أنثى. تغلب على خجله، وهو يدير ظهره لجوتيفا، وراح يقترب منه، إلى أن أسند رأسه إلى صدر الشاب. وبضحكة باردة، لم يلمس فيها أي أثر من السخرية، أحاط الشابُ كتفيه بذراعيه، وجذبه إلى أن ثبته جيداً بملاصقة جسده. أحس به يتخذ الوضع المناسب، وضع الجماع. أغمض عينيه، فريسة دوار. أحس بعضو الفتى في ظهره، كان صلباً أيضاً، يحتك به، وبدلاً من أن يبعده عنه أو يضربه، مثلما فعل مرات كثيرة، حين كان بحاراً في السفينة **لوزيازنو**، ثم في **شيلي**، وفي **جيروم-نابليون**، عندما كان زملاؤه يحاولون استعماله كامرأة. ترك الحطاب يفعل، دون قرف، بامتنان و – بول، بول! – باستمتاع أيضاً. أحس بإحدى يدي جوتيفا تبحث، تحت الماء، إلى أن أمسكت بعضوه. وما إن أحس بأنه يداعبه، حتى قذف، مطلقاً أنّة قوية. وفعل مثله جوتيفا بعد قليل، وهو مستند

إلى ظهره، دون أن يتوقف عن الضحك.

خرجا من الجدول، وراحا ينفضان، بقماش وزرتيهما، الماء الذي يقطر من جسديهما. بعد ذلك أكلا الفواكه التي أحضراها معهما. لم يشر جوتيفا بأدنى تلميح إلى ما حصل، كما لو أنه أمر بلا أهمية، أو أنه نسيه تماماً. يا للروعة، أليس كذلك يا بول؟ لقد مارس معك شيئاً يستثير، في أوروبا المسيحية، الغم وتأنيب الضمير، وإحساساً بالذنب والعار. أما بالنسبة إلى الحطاب، فالحرية هي طريقة في التسلية، في اللهو. أي دليل أفضل من هذا، على أن ما يسمى الحضارة الأوروبية، قد دمرت الحرية والسعادة، بحرمانها الكائنات البشرية من متع الجسد؟ غداً بالذات، ستبدأ في رسم لوحة عن الجنس الثالث، جنس التاهيتيين والوثنيين الذين لم يفسدهم خصي الأخلاق المسيحية. لوحة حول غموض وإبهام ذلك الجنس الذي كشف لك، وأنت في الرابعة والأربعين، وتظن أنك تعرف كل شيء عن نفسك، أن هناك في أعماق قلبك، في الرجل الضخم الذي أنت عليه، تقبع امرأة متخفية. وكل ذلك بفضل جنة عدن هذه، وبفضل جوتيفا.

وصلا إلى غابة أشجار خشب الطوف الصغيرة. قطعا بفأسيهما، غصناً طويلاً، اسطوانياً، يمكن لبول أن ينحت منه **حواء التاهيتية** التي كانت ضمن مشاريعه. وقفلا من فورهما، راجعين إلى ماتايّا، يحملان الغصن، متعاونين، على كتفيهما. دخلا القرية عند الغروب. وكانت تيهامانا قد نامت. في اليوم التالي، أهدى بول إلى جوتيفا، إحدى منحوتات آلهته الصغيرة. رفض الفتى قبولها، كما لو أنه بقبولها، سيفسد لفتته الكريمة، بمرافقة صديقه، للبحث عن الخشب الذي يحتاجه. وأخيراً، حيال إصرار بول، تقبلها.

- كيف يقال بالتاهيتية: «أمواه سرية»، يا جوتيفا؟

- *پاپي موي*.

هكذا سيسمي اللوحة. بدأ الرسم في الصباح التالي، باكراً، بعد

أن حضّر فنجان الشاي المعهود. كانت صورة شارل سبيتز الفوتوغرافية في متناول يده. ولكنه لم يكد ينظر إليها، لأنه يحفظها في ذاكرته، ولأن أفضل موديل للوحته الجديدة، هو ظهر الحطاب العاري، سائراً أمامه في الأجمة الكثيفة، وسط جو سحري. وهو يحتفظ به بدقة، في شبكية عينيه.

عمل أسبوعاً في *بابي موي*. وكان، معظم الوقت، في تلك الحالة النادرة من الغبطة والقلق، التي لم يعد إلى الشعور بها منذ أن رسم *الشيطان يحرس الطفلة*. بعض الأرواح المختارة فقط، ستتمكن من التنبه إلى الموضوع الحقيقي في *بابي موي*. هو لا يفكر في كشفه أبداً، ولا حتى لتيهامانا التي لم يعتد التعليق معها على لوحاته. ولن يكشفه أيضاً في رسائله إلى دانييل، وإلى شوفينكير، وإلى الفايكنغة، أو أصحاب صالات العرض في باريس. سيرون في وسط غابة الأزهار، والأوراق، والمياه، والأحجار الشبقية، كائناً يستند إلى الصخور، منحنياً بجسده الجميل الغائم على مياه شلال خفيف، كي يروي ظمأه أو كي يصلي لآلهة المكان الخفية. قلة هم الذين سيكتشفون اللغز، القلق الجنسي في ذلك الشخص الذي يجسد جنساً مختلفاً، خياراً قاومته الأخلاق والدين، ولاحقته، وأنكرته، وأبادته إلى أن اعتقدت أنه تلاشى وانتهى. ولكنهم مخطئون في ظنهم! و*بابي موي* هي الدليل. في تلك «**الأمواة السرية**» التي ينحني عليها كائن اللوحة الخنثى، تطفو أنتَ أيضاً يا بول. لقد انتهيتَ إلى اكتشاف الأمر، بعد سيرورة طويلة، بدأت مع افتتانك بصورة شارل سبيتز الضوئية، في المعرض الدولي سنة ١٨٨٩، وانتهت في ذلك الجدول، وأنت تشعر بعضو جوتيفا في ظهرك، وتتقبل أن تكون الذكر-الأنثى في تلك العزلات التي بلا زمن ولا تاريخ. لن يعرف أحد أن *بابي موي* هي صورة ذاتية لك، يا كوكي.

بالرغم من أن ذلك، جعله يشعر أنه أقرب إلى المتوحش الذي يصبو، منذ سنوات، إلى أن يكونه، فإن ما حدث سبب له بعض

القلق. أنت منيوك، يا بول؟ لو أن أحداً قال لك ذلك، قبل سنوات، لكنت هشمت وجهه. لقد تباهى، على الدوام، منذ الطفولة، برجولته، ودافع عنها بقبضتيه. فعل ذلك مرات كثيرة، في شبابه البعيد، في عرض البحر، خلال سنواته كبحار، في عنابر وقمرات **لوزيازنو وشيلي**، هاتين السفينتين التجاريتين اللتين أمضى فيهما ثلاث سنوات، وفي السفينة الحربية **جيروم-نابليون**، حيث خدم سنتين أخريين، أثناء الحرب مع البروسيين. من كان يقول في ذلك الحين، إنك ستنتهي إلى الرسم والنحت يا بول. لم يخطر ببالك مرة واحدة، أن تكون فناناً. كنت تحلم آنذاك بحياة مهنية عظيمة كذئب بحر، تجوب محيطات العالم وموانئه، عبر كل البلدان، والأعراق، والمناظر الطبيعية، وتترقى إلى أن تصير قبطاناً. وتكون سفينة بكاملها، مع طاقمها الكبير، تحت أمرتك.. عوليس.

منذ البدء، في **لوزيازنو**، السفينة ذات الصواري الثلاثة، حيث قبلوه كمتدرب في كانون الأول ١٨٦٥، لأنه تجاوز سن القبول في الأكاديمية البحرية، كان لا بد له من استخدام قبضتيه وقدميه، ومن العض وإشهار السكين، كي يحافظ على طيزه سليمة. بعضهم لم يكن يهمهم ذلك. فكثيرون من زملائه، عندما يتجاوزون الحد في الشراب، يتبجحون بأنهم مروا بطقس البحارة التقليدي ذاك. أما أنت فكان الأمر يهمك. لن تكون منيوكاً لأحد أبداً؛ فأنت ذكر فحل. في رحلته الأولى كمتدرب، من فرنسا إلى ريو دي جانيرو، ثلاثة شهور وواحداً وعشرين يوماً في عرض البحر، اغتصبَ ثلاثةُ وقادين المتدرب الآخر جونو، وهو بريتاني ذو شعر أحمر. وقد ساعده مغتصبوه في مسح دموعه، بعد ذلك، مؤكدين له أنه ليس هناك ما يدعوه إلى الخجل، وأن ما فعلوه هو ممارسة كونية في عالم البحارة، تعميد لا يفلت منه أحد؛ وهو لهذا، ليس مهيناً، بل إنه ينمي روح الأخوة بين طاقم البحارة. أما بول فأفلت. ومن أجل ذلك، كان عليه أن يثبت لذئاب البحر الهائجين أولئك، بأن من يريد مواقعة أوجين

هنري بول غوغان، عليه أن يكون مستعداً لأن يَقتل أو يموت. لقد حمته قوته البدنية غير العادية، وقبل ذلك، تصميمه وشراسته. وعندما أنهى، في الثالث والعشرين من نيسان ١٨٧١، خدمته العسكرية في السفينة جيروم-نابليون، وجرى تسريحه، كانت مؤخرته لا تزال سليمة، مثلما كانت قبل ست سنوات من ذلك، حين بدأ مسيرته البحرية التي يضع لها حداً الآن. كم سيضحك منكَ زملاؤك البحارة في **لوزيانو وشيلي**، وفي **جيروم-نابليون** لو أنهم رأوك في جدول ذلك الدغل، وقد صرت عجوزاً، وذكراً-أنثى يستخدمكَ فتى مووري!

لم يكن للجنس أهمية في حياته، في المرحلة التي يكون فيها مهماً للبشر الفانين العاديين، مرحلة الشباب، مرحلة الشبق والحمى. في سنوات الإبحار الست تلك، كان يزور مواخير كل ميناء يصله - ريو دي جانيرو، بالبارايسو، نابولي، تريست، فينسيا، كوبنهاجن، برغن وموانئ أخرى يكاد لا يتذكرها - وكان يفعل ذلك، مجاراة لزملائه، وكيلا يبدو غير طبيعي، وليس بدافع المتعة. كنت تجد صعوبة في الإحساس بالمتعة في تلك الكهوف القذرة، النتنة، المزدحمة بالسكارى؛ ومضاجعة نساء محطمات، يكن أحياناً بلا أسنان، وبأثداء متهدلة، يتثاءبن أو يغفون من الإنهاك، بينما أنت تمطيهن. كان لا بد لك من بضع كؤوس من الخمر، من أجل اقتراف تلك المضاجعات الكئيبة والسريعة، والتي تخلّف مذاق الرماد في فمك، وغماً مأتمياً. لقد كان الاستمناء، في الفراش، على إيقاع اهتزاز الموج، أفضل من تلك المضاجعات.

لا وهو بحار، ولا بعد ذلك، عندما بدأ، بتوصية من الوصي عليه، غوستاف أروزا، العمل كوكيل بورصة، في مكاتب بول برتان، في شارع لافيت، مصمماً على تأمين مستقبل برجوزاي في بورصة باريس، كان الجنس يعني لبول، ذلك الهاجس المقلق الذي يتحول الجنس إليه، في السن التي يكون المرء فيها عادة، قد خطط

مستقبله. فقد بدأ يبدل حياته، يحول حياته المزدهرة، المنضبطة، الروتينية، حياة الزوج الصالح، ورب الأسرة الطيب، إلى هذه الحياة الأخرى، المتقلبة، المغامرة، حياة الفقر والأحلام التي أوصلته إلى هنا.

لقد بدأ الجنس يصير مهماً بالنسبة له، بالقدر نفسه الذي راح الرسم يصير مهماً. فذلك التوجه إلى الرسم الذي بدا، في أول الأمر، مجرد تزجية للوقت، أثاره فيه آنياً إميل شوفينكير، زميله في العمل، في وكالة بول برتان، حين عرض عليه في أحد الأيام، دفتر رسومه بالفحم، وبالألوان المائية، واعترف له بأن حلمه السري هو أن يصير فناناً. كان «شوف» الطيب يرسم في كل أوقات فراغه، عندما لا يكون، مثل بول، يسعى لاصطياد أسر ثرية، كي تودع استثماراتها في بورصة باريس، مع العلم أن رب عمله بول برتان، شجعه على اتباع دورة ليلية في الرسم والتصميم، في أكاديمية كولاروسي. وكان شوف الطيب يتبع تلك الدورة. وكانت مسلية جداً، أكثر من لعب الورق أو قضاء الليل في مقاهي الرصيف، في ساحة كليشي، مرتشفاً، بتمهل، كأساً من شراب الأفسنتين، ومقلباً الفرضيات حول ارتفاع أو هبوط الأسعار. هكذا بدأت المغامرة التي أوصلتك إلى تاهيتي، يا كوكي. ألِى الأفضل؟ أم الأسوأ؟ مرات كثيرة، في فترات الجوع، والخذلان، كما في تلك الأيام في باريس، وأنت تحمل الصغير كلوفيس على كاهلك، في فترات تساؤلك إلى متى ستعيش دون سقف، تتسول طبق حساء في ملاجئ الراهبات، لعنت شوف الطيب على تلك النصيحة، متخيلاً كيف كانت أمورك ستمضي على ما يرام، وكيف كنت ستمتلك بيتاً في نويي، في سان جيرمان، في فَنسن، لو أنك واصلت عملك كمستشار مالي في بورصة باريس. ربما كنت قد تحولت إلى غني مثل غوستاف أروزا، وكنت في وضع يتيح لك، مثل الوصي عليك، اقتناء مجموعة رائعة من أعمال الرسم الحديث.

في تلك الأثناء، كان قد تعرف على مِت غاد، الفايكنغة. وهي

دنمراكية طويلة القامة وذات تقاطيع ذكورية خفيفة - بول! بول! -، وتزوج منها، في شهر تشرين الثاني ١٨٧٣، في السجل المدني للقطاع التاسع، وفي كنيسة ريدنسيون اللوترية. وبدأ معها حياة شديدة البرجوازية، في قطاع شديد البرجوازية، وفي حي هو ذروة البرجوازية: ساحة سان جورج. كان الجنس لا يزال ضئيل الأهمية بالنسبة إلى بول، في تلك المرحلة. ولم يجد مانعاً، في أزمنة زواجه الأولى تلك، من الامتثال لاحتشام زوجته وممارسة الحب معها، بالطريقة التي تنصح بها الأخلاق اللوثرية، مت محشورة في قمصان نومها الطويلة المغلقة، وفي وضع سلبي تماماً، دون أن تسمح لنفسها بأي حركة جريئة، أي جهد، أية ظرافة، كما لو أن ممارستها الحب مع زوجها، هو واجب عليها الانصياع له، مثلما يتوجب على المريض، تناول زيت الخروع، عندما تتحجر معدته من الإمساك.

بعد ذلك بوقت لا بأس به فقط، عندما صار بول، ودون أن يهمل عمله بعد، في وكالة بول برتان، يكرس لياليه لرسم كل شيء، وبأي شيء - قلم رصاص، فحم، ألوان مائية، زيتية - فجأة، في الوقت الذي كانت مخيلته تبدع، وتعيد خلق صور تبعث الرغبة في رسمها، بدأت لياليه تلتهب بالشهوات. عندئذ، صار يتوسل إلى مِت أو يطالبها، في الفراش، بحريات تستثير استنكارها: أن تتعرى، أن تتخذ وضعية ليرسمها، أن تسمح له بمداعبة وتقبيل ذلك الموضع الحميم المتهرب. فكان ذلك مصدر مجادلات زوجية مريرة، هي أول الظلال في حياة تلك الأسرة المنسجمة التي تنجب ابناً كل سنة. وبالرغم من معارضة الفايكنغة، ومن الشهوة الجنسية التي صارت تتملكه، لم يكن يخون زوجته. لم تكن له عشيقات، ولم يتردد على بيوت المتعة، ولم تكن له مغامرات عابرة، مثل أصدقائه وزملائه. لم يبحث خارج الفراش الزوجي عن المتع التي تحظرها عليه الفايكنغة. وحتى في أواخر العام ١٨٨٤، وهو في السادسة والثلاثين، عندما حدث في حياته انعطاف كوبرنيكي، وصار مصمماً على أن يكون

رساماً، ورساماً فقط، وألا يرجع قط إلى الأعمال التجارية، وبدأ إفلاسه البطيء الذي سيوصله إلى البؤس، كان لا يزال وفياً لمِت غاد. في تلك الأثناء، كان الجنس قد تحول إلى قلق مركزي، إلى جوع دائم، ومصدر تخيلات جريئة، مبالغاً في باروكيتها. فمع تخليه عن كونه برجوازياً، وبدء عيشه حياة فنان - شُح، لا رسمية، مجازفة، إبداع، فوضى - راح الجنس يسيطر على حياته، كمصدر للمتعة، ولكن. كقطيعة مع الروابط القديمة أيضاً، واقتحام لحرية جديدة. التخلي عن الأمان البرجوازي، جعلك تمر بلحظات عصيبة جداً يا بول. لكنه فرض عليك حياة أشد زخماً، أشد ثراء ورفاهاً للأحاسيس والروح.

كنتَ قد قمت بخطوة أخرى نحو الحرية. من حياة البوهيمي والفنان، إلى حياة البدائي، الوثني والمتوحش. إنه تقدم كبير يا بول. لم يعد الجنس بالنسبة لك الآن، طريقة مرهفة للانحدار الروحي، كما هو في نظر كثير من الفنانين الأوروبيين، وإنما مصدر طاقة وصحة، طريقة للتجدد، لشحن الحماسة، والاندفاع. والإرادة، من أجل إبداع أفضل، من أجل حياة أفضل. لأن العيش، في العالم الذي ولجتَه أخيراً، هو إبداع متواصل.

لهذا كله، كان عليه أن يتبدل، كي يتمكن من وضع تصور للوحة مثل ***بابي موي***. لم تكن اللوحة بحاجة إلى لمسات إضافية. ففيها تسطع صورة شارل سبيتز الضوئية وتنبض؛ الخنثى والطبيعة غير مستقلين أحدهما عن الآخر، إنهما يتكاملان في طريقة جديدة لوحدة الوجود؛ الأمواه، الأوراق، الأزهار، الأغصان، الصخور تتلألأ؛ والشخص يمتلك جمود العناصر الطبيعية. البشرة، العضلات، الشعر الأسود، القدمان القويتان الراسختان على الصخور المغطاة بالطحالب القاتمة، تنم عن احترام، توقير، وحب تجاه ذلك الكائن من حضارة أخرى، حضارة تحافظ، في أعماق الغابة السرية، رغم كونها مستعمرة من قبل الأوروبيين، على نقاء الأسلاف. أحزنك

الانتهاء من *بابي موي*. مثلما يحدث لك دائماً، وأنت تضع لمستك الأخيرة على عمل جيد، ويجول في ذهنك السؤال عما إذا كنتَ، بعد هذا العمل، تمضي إلى الأسوأ، كفنان.

بعد ليلتين أو ثلاث ليال، كان القمر بدراً. فنزل إلى الفسحة المنخفضة، قرب المسكن، مفتوناً بالضياء العذب المنحدر من السماء، والمنسكب على جسد تيهامانا - كانت تتنفس بعمق، بشخير ناعم وإيقاعي - وهو يحمل *بابي موي* بين ذراعيه. راح يتأملها، مستحماً بذلك الضياء الأصفر الزرقاوي الذي يطبع بلون زنجاري ملتبس، تلك البحيرة، حيث تعشش نباتات مائية يمكن لها أن تكون أنواراً، انعكاسات. **الطبيعة** أيضاً هي خنثى في اللوحة. لم تكن ميالاً إلى العاطفية، لأنها مناقضة لما عليك أن تحصن به نفسك، لتتجاوز حدود هذه الحضارة التي جُردت من مكانتها، وتختلط بالتقاليد القديمة، ولكنك أحسست بعينيك تدمعان. إنها إحدى أفضل اللوحات التي رسمتها، مثل *مانا و توباباو*، وإن كانت لا تصل إلى مستواها. ذاك الكلام الذي كان يردده الهولندي المجنون، هناك في آرل، في تلك الأيام الأخيرة من خريف ١٨٨٨، قبل أن يخالط علاقته بك، ذلك المزيج من الحب والهتسيريا، حين كان يقول إن الثورة الحقيقية في الرسم، لن تحدث في أوروبا، وإنما بعيداً، في المناطق المدارية، حيث تجري أحداث تلك الرواية التي أذهلتكما - «*راراهو، زواج لوتي*» لبيير لوتي - أليس واقعاً ساحقاً في *بابي موي*؟ ثمة في هذه الصورة، قوة، طاقة روحية تأتي من البراءة والحرية اللتين يرى بهما العالمَ بدائيٌ غير مكبل الأذنين عن الثقافة الغربية.

الليلة التي تعرف فيها بول على الهولندي المجنون، في صيف عام ١٨٨٧، في غران بويان، رستيوران دو شاليه، في كليشي، لم يسمح فينسنت لبول بأن يهنئه على اللوحات التي يعرضها. «أنا من يتوجب عليه أن يهنئك» قال له، وهو يشد على يده بقوة. «لقد رأيت في بيت دانييل دو مونفريد، لوحاتك عن المارتينيك. رائعة! إنها لم تُرسم

بريشة، وإنما بقضيب ذكري. تلك اللوحات هي خطايا، فضلاً عن كونها فناً». بعد يومين من ذلك، ذهب فينسنت وأخوه ثيو إلى بيت شوفينكير، حيث كان يقيم بول، منذ عودته من مغامرة بنما والمارتينيك، مع صديقه لافال. تأمل الهولندي المجنون اللوحات من كل الزوايا، وأصدر حكمه: «هذا هو الرسم العظيم، يخرج من الأعماق، من الدم، مثل مني الجنس». عانق بول، ورجاه: «أنا أيضاً أريد أن أرسم لوحاتي بقضيبي. علِّمني يا أخي». هكذا بدأت تلك الصداقة التي انتهت بصورة بالغة السوء.

في إحدى لحظات حدسه العبقرية، أصاب الهولندي المجنون الهدف، قبلك يا بول. لقد كان محقاً. ففي فترة المعاناة القاسية تلك، في بنما أولاً، ثم في سان بيير، في المارتينيك بعد ذلك، من آيار حتى تشرين الأول ١٨٨٧، تحوّلتَ إلى فنان يا بول. وقد كان فينسنت أول من اكتشف ذلك. وما الأهمية، مقابل هذه النتيجة، أنك أمضيت فترة قاسية، تشتغل كعامل حفر بالمعول، في قنال المسيو ديلسبس، يلسعك البعوض، وتوشك أن تموت بالزحار والملاريا المارتينكية؟ ما قاله صحيح: في رسوم سان بيير تلك، المضاءة بنور الكاريبي الباهر، حيث الألوان تنفجر مثل ثمار ناضجة، والعيون، الزرق، الصفر، الخضر، السود، يواجه بعضها بعضاً بشراسة مصارعين رومان، متنازعة الهيمنة على اللوحة، وتندلع الحياة أخيراً، مثل حريق، في لوحاتك، مطهرة إياها، مفتدية إياها من ذلك الموقف الجبان الذي كان عليه، في نظرك، الرسم والنحت، حتى ذلك الحين. في تلك الرحلة، على الرغم من أنك كنت على وشك الموت، جوعاً ومرضاً - تقذف رئتيك في كوخ يتسرب المطر من سقفه المصنوع من سعف النخيل - بدأت تمسح الغمص عن عينيك، بالفعل، وترى بوضوح: صحة الرسم تعتمد على الهرب من باريس، بحثاً عن حياة جديدة، تحت سماوات أخرى.

كان الجنس قد برز في حياته أيضاً، كما الضوء في لوحاته، في

اندفاع جامح، يعصف بكل التكلف والأحكام المسبقة التي كانت تبقيه خامداً حتى ذلك الحين. مثل زملائه عمال المعاول، حيث كانت تُشق قناة المستقبل، ذهب بحثاً عن الخلاسيات والزنجيات اللواتي يطفن في المعسكرات البنمية. لم يكن بالإمكان مضاجعتهن مقابل مبلغ متواضع فقط، بل والإساءة إليهن أيضاً في أثناء المضاجعة. ويا للمتعة إذا ما بكين، مرتعبات، وأردن الهرب، يا للمتعة المحتدة بالانقضاض عليهن وكبح جماحهن، وجعلهن يعرفن من هو الذكر. لم تضاجع الفايكنغة هكذا قط يا بول، مثلما ضاجعت أولئك الزنجيات ذوات الأثداء الضخمة، والأشداق الحيوانية، والأعضاء الجنسية النهمة التي تحرق كالجمر. لهذا، كانت رسومك من قبل، باهتة، متيبسة، شديدة التقليدية، وخجولة. فهكذا كانت روحك، حساسيتك، حياتك الجنسية. لقد عاهدت نفسك - ولم تفِ بالعهد يا بول - هناك في ليالي سان بيير، عندما كنت تطرح واحدة من أولئك الزنجيات ذوات المؤخرات الضخمة اللواتي يتكلمن لهجة كريولي ملتهبة، بأنك عندما تلتقي الفايكنغة، ستلقنها درساً بأثر رجعي. لقد قلت ذلك لشارل لافال، في ليلة سكر بالروم الرخيص:

- أول مرة نكون فيها معاً، سأنزع عن الفايكنغة كل برودتها الجنسية الشمالية التي تحملها معها من المهد. سأعريها بعنف، بتمزيق ثيابها. وبالعض والعناق، سأجعلها تتلوى وتصرخ، تتقلب وتصارع لتبقى على قيد الحياة. مثل زنجية. هي عارية وأنا عارٍ، في صراع غرامي ستتعلم تلك البرجوازية المتمنعة المتصنعة كيف تأثم، وكيف تستمتع وتُمتّع، وكيف تكون حارة، خاضعة، ولعوباً مثل أنثى من سان بيير.

كان شارل لافال ينظر إليك مخبولاً، دون أن يدري ما يقول. انفجر كوكي في قهقهة مدوية، وبصره مسمر على ***بابي موي***، مضاءة بنور القمر الفوسفوري. لا، لا. الفايكنغة لن تمارس الحب أبداً، مثل مارتينيكية أو تاهيتية، دينها وثقافتها يمنعانها من ذلك. ستبقى على

الدوام، نصف كائن، امرأة ذبلت أعضاؤها الجنسية، قبل أن تولد.

لقد فهم الهولندي المجنون الأمر على أحسن وجه، منذ اللحظة الأولى. لوحات المارتينيك تلك لم تُرسم هكذا، بفضل حدّة ألوان المنطقة المدارية وشططها، وإنما بفضل الحرية الذهنية، وحرية العادات التي اكتسبها متوحش مستجد، رسام كان يتعلم ممارسة الحب، في الوقت نفسه الذي يتعلم الرسم، واحترام الغريزة، وتقبل ما فيها من طبيعة وشيطان، وإشباع شهواته مثل الرجال الذين على سجيتهم.

أكنتَ متوحشاً عندما رجعت إلى باريس، من تلك الرحلة المنكودة إلى المارتينيك، وأنت لمّا تزل ناقهاً بعد، من تلك الملاريا التي امتصت لحمك، وسممت دمك، وانتزعت عشرة كيلوغرامات من وزنك؟ كنت قد بدأت تصير متوحشاً يا بول. سلوكك لم يعد، على أي حال، هو سلوك البرجوازي المتحضر. وكيف سيكون كذلك، بعد تعرقه تحت الشمس الحارقة، وهو يمسك المعول في أدغال بنما، ويحب خلاسيات وزنجيات في طين الكاريبي، وعلى ترابه الأمغر، ورماله القذرة؟ وكنت تحمل المرض الذي لا يسمى أيضاً، يا بول. علامة مشينة، ولكنها بطاقة اعتمادك كرجل بلا كوابح. أنت لم تكن تعرف، ولن تعرف، لوقت طويل، أنك موبوء. ولكنك كنت قد صرت رجلاً حراً من التكلف، من الاحترام، من المحرمات، من التقاليد، فخوراً باندفاعاتك وعواطفك. وإلا كيف كنت ستتجرأ، لولا ذلك، على مدّ يديك ولمس نهدي زوجة أفضل أصدقائك الرقيقة، زوجة شوف الطيب الذي كان يؤويك في بيته، ويُطعمك، بل ويقدم إليك بعض الفرنكات لتشرب كأساً من الأفسنتين في المقاهي؟ مدام شوفينكير التي شحب لونها، احمر وجهها خجلاً، هربت وهي تدمدم باحتجاج. لكن حياءها وخجلها كانا كبيرين، حتى إنها لم تتجرأ قط، على إخبار شوف الطيب بوقاحات رفيقه الذي يقدم له المساعدة. أم أنها فعلت؟ مداعبة مدام شوفينكير، عندما تتيح لك الظروف الانفراد بها،

تحولت إلى لعبة خطرة. كانت تجعلك تمر بلحظات طيبة، وتدفعك إلى الرسم، أليس كذلك يا كوكي؟

حجبت غيمة صغيرة نور القمر، فرجع بول إلى الكوخ، حاملاً *بابي موي* بمنتهى الحذر، كما لو أنها قد تنكسر. مؤسف أن الهولندي المجنون لن يستطيع رؤية هذه القماشة. كان سيثقبها بنظره ذي اللوثة التي يبديها في المناسبات الكبيرة. وكان بعد ذلك، سيعانقك ويقبلك، صارخاً بصوته المختلج: «لقد ضاجعتَ الشيطان يا أخي!».

وأخيراً، في أواسط أيار ١٨٩٣، وصل أمر الإعادة إلى الوطن الذي أرسلته حكومة فرنسا إلى هيئة الحكم في بولينيزيا الفرنسية. وقد أخبره الحاكم لاكاسكاد شخصياً بأنه، حسب التعليمات التي تم تلقيها - قرأ عليه القرار الوزاري - تمت الموافقة، نظراً لعدم قدرته على الدفع، على أن تُدفع له قيمة تذكرة سفر في السفينة، في الدرجة الثانية، بابيتي-مرسيليا. في ذلك اليوم بالذات، بعد خمس ساعات ونصف الساعة، من الاهتزاز في العربة العامة، رجع إلى ماتايا، وأخبر تيهامانا بأنه سيغادر. تحدث لها مطولاً، موضحاً لها مع إفراط في التفاصيل، الأسباب التي تدفعه للرجوع إلى فرنسا. ظلت الصبية الجالسة على أحد المقاعد، تحت شجرة المانجا، تستمع إليه دون النطق بكلمة واحدة، ودون أن تذرف دمعة، ودون أن تبدي إيماءة تأنيب واحدة. كانت تداعب بيدها اليمنى، بحركة آلية، قدمها اليسرى، ذات الأصابع السبع. ولم تقل شيئاً كذلك، عندما صمت بول. صعد لينام بعد أن دخن غليوناً أخيراً، ووجد تيهامانا قد نامت. في صباح اليوم التالي، حين فتح كوكي عينيه، كانت امرأته قد حزمت كل أشيائها في صرة، وغادرت.

عندما أبحر بول نحو فرنسا، في أوائل حزيران ١٨٩٣، في السفينة دوتشفولت، لم يأت لوداعه في المرفأ، سوى صديقه جينو. وكان قد ترفع حديثاً إلى رتبة ملازم ثان.

٧. ظل شارل فورييه

ليون، أيار وحزيران ١٨٤٤

سواء في شالون سور سون، كما في ماكون، حيث كانت جولة فلورا، في الأيام الأخيرة من نيسان، والأيام الأولى من أيار ١٨٤٤، تعتمد بكاملها تقريباً، على مساعدة أصدقائها الخصوم، الفالانستريين من أتباع فورييه. كانوا يقدمون لها المساعدة بسخاء جعل فلورا تشعر بنزاع ضميري. كيف يمكن لها أن توضح اختلافها لأتباع المتوفى شارل فورييه هؤلاء، دون أن تغضبهم، وهم الذين يودّعونها ويستقبلونها في محطات عربات السفر، أو في المرافئ النهرية، ويبذلون قُصَاراهم، كي يرتبوا لها الاجتماعات والمواعيد؟ ومع ذلك، وإن كان يحزنها أن تخيب أمل الفورييهيين، فإنها لم تُخفِ انتقادها لنظرياتهم وممارساتهم التي تبدو لها غير منسجمة مع المهمة التي تشغلها: افتداء الإنسانية.

في شالون سور سون، نظم الفالانستريون، في اليوم التالي لوصولها، اجتماعاً في مقر محفل «المساواة الكاملة» الذكوري الفسيح. وكانت نظرة واحدة منها إلى المكان المزدحم، حيث يتكدس مئتا شخص، كافية لأن تجعل روحها تهوي حتى قدميها. ألم تكتب إليهم بأن الاجتماعات يجب أن تكون محدودة العدد دوماً، من ثلاثين أو أربعين عاملاً على الأكثر؟ فالعدد الصغير يتيح الحوار، والعلاقة الشخصية. أما جمهور كهذا، فهو ناء، بارد، غير قادر على المشاركة، ومجبر على الاستماع فقط:

– هناك، يا مدام، فضول كبير للاستماع إليك. فأنت تأتين مسبوقة بسمعة كبيرة! – اعتذر لاغرانج، زعيم أتباع فورييه في شالون سور سون.

- لا تهمني الشهرة في شيء، يا مسيو لاغرانج. إنني أسعى إلى الفعالية. ولا يمكنني أن أكون فعالة إذا ما توجهت إلى جمهور مجهول، غير مرئي. أحب أن أتحدث إلى كائنات بشرية. ومن أجل هذا، أحتاج إلى رؤية وجوههم، وجعلهم يشعرون بأنني أرغب في تبادل الحديث معهم، وليس فرض أفكاري عليهم، مثلما يفعل البابا بقطيع الرعية الكاثوليكية.

وأشد خطورة من عدد المستمعين، كانت تشكيلتهم الاجتماعية. فمن المنصة، المزينة بمزهرية ضخمة، وجدار يغص بالرموز الماسونية، وبينما لاغرانج يقدمها، اكتشفت فلورا أن ثلاثة أرباع الحاضرين هم أرباب عمل، والثلث فقط عمال. أتراني جئتُ إلى شالون سور سون لأبشر، المستَغلين بالاتحاد العمالي! هؤلاء الفالانستريون لا شفاء لهم، على الرغم من ذكاء ونزاهة المدعو فيكتور كونسيدران الذي يتزعم الحركة الفورييهية، منذ وفاة المعلم فورييه، سنة ١٨٣٧. خطيئتهم الأصلية، التي تفتح فجوة لا يمكن ردمها بينكِ وبينهم، هي نفسها خطيئة السان-سيمونيين: عدم الإيمان بثورة يصنعها ضحايا النظام. فالفريقان كلاهما لا يثقان بهذه الحشود الجاهلة والبائسة، ويؤكدان، ببراءة ملائكية، بأنه يمكن للإصلاح الاجتماعي، أن يتحقق، بطيب نوايا وأموال البرجوازيين، المتنورين بنظرياتهم.

والمذهل هو أن فيكتور كونسيدران وجماعته، لا يزالون حتى الآن، في العام ١٨٤٤، مقتنعين بأنهم يكسبون، إلى جانب قضيتهم، هذه الحفنة من الأغنياء الذين سيمولون «الثورة الاشتراكية»، بتحولهم إلى الفالانستيرية. في سنة ١٨٢٦، أعلن قائدهم شارل فورييه، في باريس، عبر إعلانات في الصحف، أنه سيكون يومياً، في بيته، في سان بيير مونتمارت، من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الثانية بعد الظهر، كي يشرح مشروعاته في الإصلاح الاجتماعي، لأحد الصناعيين أو المتمولين من ذوي الأرواح النبيلة والمحبة للعدالة،

الراغبين في تمويلها. وبعد إحدى عشرة سنة، في يوم موته، سنة ١٨٣٧، كان ذلك العجوز اللطيف، ذو السترة السوداء الطويلة الأبدية، وربطة العنق البيضاء، والعينين الزرقاوين الطيبتين - يحزنك تذكر ذلك يا أندلسية - لا يزال ينتظر، في الموعد الدقيق، من الثانية عشرة حتى الثانية، الزيارة التي لم تأت قط. - قط! - ولا غني واحد، ولا برجوازي واحد، أزعج نفسه بالذهاب لتوجيه سؤال إليه أو لسماع مشاريعه للقضاء على البؤس البشري. ولا أي شخصية ممن كتب إليهم، طالباً الدعم لخططه - بوليفار، شاتوبريان، لورد بايرون، الدكتور فرانثيا في الباراغواي، وجميع وزراء حركة **الإصلاح**، ومعهم الملك لويس فيليب - تنازل بالرد عليه. ومع ذلك، ما زال أتباعه، العميان والصم، يثقون بالبرجوازيين ويرتابون بالعمال!

فريسة إحساس مفاجئ بحنق استردادي بالغ، وهي تتخيل شارل فورييه المسكين، جالساً دون طائل، بعد ظهر كل يوم، في مسكنه المتواضع، طوال خريف حياته. غيّرت فلورا موضوع حديثها فجأة. كانت تصف كيفية عمل **قصور العمال** المستقبلية، فتحولت إلى رسم صورة سيكولوجية للبرجوازي المعاصر. وبينما هي تؤكد أن رب العمل يفتقر، عموماً، إلى السماحة، وأنه ضيق الروح، خسيس، رعديد، عديم المصداقية وخبيث؛ كانت تلحظ بابتهاج، كيف كان مستمعوها يتململون في مقاعدهم، كما لو أن أسراباً من البراغيث تهاجمهم. وعندما حان موعد الأسئلة، ساد صمت مثقل بالشوك. وأخيراً، نهض المسيو روجون، صاحب مصنع مفروشات، لا يزال شاباً، غير أن له، مع ذلك، كرشَ ناجح، منتفخاً، وقال إن مدام تريستان، لم توضح، ما دام هذا هو رأيها بأرباب العمل، سبب سعيها جاهدة، إلى دعوتهم للانضمام إلى **الاتحاد العمالي**.

- السبب بسيط جداً يا مسيو. البرجوازيون يملكون المال. والعمال لا يملكونه. ومن أجل أن يحقق الاتحاد برنامجه، يحتاج إلى موارد. ما نريده من البرجوازيين هو المال، وليس أشخاصهم.

احمرّ وجه المسيو روجون. كان الحنق ينفخ عروق جبهته.

- هل عليّ أن أفهم، يا سيدتي، أنني إذا انضممت إلى الاتحاد، ودفعت اشتراكاتي، لن يكون لي الحق مع ذلك، بالدخول إلى **القصور العمالية**، ولا الاستفادة من خدماتها؟

- بالضبط يا مسيو روجون. أنت لا تحتاج إلى تلك الخدمات، لأنك قادر على أن تدفع، من جيبك، تكاليف تعليم أبنائك، ونفقات الأطباء، وتكاليف شيخوخة دون غمّ. ولكن الأمر ليس كذلك، بالنسبة للعمال، أليس كذلك؟

- ولماذا عليّ أن أدفع نقودي إذن، دون أن أتلقى شيئاً بالمقابل؟ هل بدافع الحماقة؟

- بدافع الكرم، بدافع الإيثار، بروح التضامن مع المحرومين. وهذه مشاعر تجد حضرتك، كما أرى، صعوبة في استيعابها.

غادر المسيو روجون المحفل، بتكبر، وهو يدمدم بأن مثل هذه المنظمة، لن تحظى بمساعدته أبداً. ثم لحق به أشخاص آخرون، تضامناً مع حنقه. وعلق أحدهم، عند الباب، قائلاً: «صحيح أن مدام تريستان امرأة هدّامة».

بعد ذلك، خلال عشاء قدمه أتباع فورييه، حين رأت الألم وخيبة الأمل على وجوههم، قامت فلورا بلفتة، كي تُهدئ خواطرهم. قالت إنه على الرغم من اختلافاتها مع أتباع شارل فورييه، إلا أنها تكن احتراماً كبيراً لثقافة، وذكاء، ونزاهة فكتور كونسيدران، وإنها لن تتردد، بعد تأسيس **الاتحاد العمالي**، في اقتراح اسمه للقب **المدافع عن الشعب**، أول ممثل منتخب للطبقة العاملة، اختير للدفاع عن حقوق الشغيلة في الجمعية الوطنية. وهي واثقة من أن فكتور سيكون محامياً شعبياً جيداً، مثلما كان الإيرلندي أوكونيل في البرلمان الإنكليزي. وقد رفعت تحية الاحترام هذه لزعيمهم ومرشدهم، من معنوياتهم. وعندما ودّعوها في النزل، كانوا قد توصلوا إلى المصالحة. وقال لها أحدهم، بنبرة بشوشة، إنه عرف أخيراً، حين سمعها تتكلم الليلة، لماذا يطلقون عليها لقب «**المدام غضب**».

لم تستطع النوم جيداً. كانت تشعر بخيبة أمل مما حدث في المحفل الماسوني، وبالندم لأنها انساقت لدافع إهانة البرجوازيين، بدلاً من أن تركز على التبشير بين العمال. إن لكِ طبعَ من به مس شيطاني، يا فلوريتا؛ ما زلتِ غير قادرة، وأنت في الحادية والأربعين، على التحكم بنوبات غضبكِ. ومع ذلك، وبفضل روح التمرد هذه، انفجارات سوء المزاج هذه، استطعتِ البقاء حرة، واستعادة حريتك كلما فقدتِها. مثلما جرى عندما كنتِ جارية للمسيو أندريه شازال، أو عندما تحولتِ إلى ما أقل من إنسان آلي، إلى بهيمة عتالة، عند أسرة سبنس. تلك الحقبة التي لم تكوني تعرفين فيها ما هي السان-سيمونية، ولا الفورييهية، ولا الشيوعية الإيكارية. ولم تكوني تعرفين أعمال روبيرت ووين، في نيو لانرك، في اسكتلندا.

في الأيام الأربعة التي أمضتها في ماكون، مسقط رأس الشاعر والدبلوماسي الشهير لامارتين، عادت آلام الجسد لتثقل عليها، كما لو أنها تريد اختبار صمودها. فإلى آلام الرحم والمعدة التي تجعلها تتلوى، أضيف الإنهاك، وإغواء التخلي عن المواعيد.. عن زيارة الصحف، والسعي في إثر العمال، وهم هنا أكثر تفلتاً من الأماكن الأخرى، لتذهب وتستلقي في الفراش المزركش، في حجرتها، في فندق دوسوفاج البديع. كانت تقاوم هذا الإغراء، باذلة جهداً بطولياً. وفي الليل، كان الإرهاق وتوتر الأعصاب يبقيانها مستيقظة، تتذكر - أحد هذه الأفكار التي كانت تحب أن تعذب نفسها بها أحياناً، كتكفير عن عدم إحرازها مزيداً من النجاح في نضالها - سنوات العذاب الثلاث التي أمضتها في خدمة آل سبنس. لا بد أن تلك الأسرة الإنكليزية كانت ثرية ومزدهرة. ولكنها، باستثناء الرحلات، لم تكن تكاد تستمتع بازدهارها، بسبب روحها التوفيرية، وتزمتها، وافتقارها إلى المخيلة. كان الزوجان، مستر مارك ومسز كاثرين، في حوالي الخمسين، ومس آن، شقيقة السيد الصغرى، في الخامسة والأربعين. وكان الثلاثة نحيلين، متثاقلين، على شيء من الكآبة،

ودائماً بملابس سوداء وخالية من أي فضول. تعاقدوا معها كسيدة مرافقة، كي تذهب معهم إلى جبال سويسرا، لتتنفس الهواء النقي، وتطهير رئاتهم من هباب مصانع لندن. كان الراتب جيداً؛ يتيح لها دفع أجر المرضع التي ترعى أطفالها، ويُبقي لها فائضاً لضرورياتها الشخصية. ما قيل لها عن أنها ستكون «سيدة مرافقة»، لم يكن سوى تلطيف في التسمية؛ إذ كانت، في الحقيقة، خادمة للثلاثي. تقدم لهم الفطور في الفراش، مع الثريد الذي لا يُبتلع، والخبز المحمص وفنجان الشاي عديم الطعم الذي يتناولونه ثلاث أو أربع مرات في اليوم. تغسل ملابسهم وتكويها، وتساعد الزوجة وأخت الزوج، مسز سبنس ومس آن، الرهيبتين في ارتداء ملابسهما، بعد طقوس الاغتسال الصباحية. تنفذ طلباتهم، تحمل رسائلهم إلى البريد، وتذهب إلى المتاجر لتشتري لهم البسكويت عديم الطعم الذي يتناولونه مع فناجين شايهم. ولكنها تنفض غبار الغرف أيضاً، وترتب الأسرة، وتُفرغ المباول، وتعاني الإذلال اليومي، في مواعيد الطعام، برؤية أن آل سبيس يقلصون وجبتي غدائها وعشائها إلى نصف ما يتناولونه. كانت محرومة، دوماً، من بعض عناصر الوجبة الأسرية، مثل اللحم والحليب.

ولكن، لم يكن هذا العمل الغبي، الروتينيّ الباعث على الخبل، والذي يبقيها في حركة دائمة، منذ الفجر حتى الغروب، هو أسوأ ما في تُلك السنوات الثلاث في خدمة آل سبنس. وإنما إحساسها، بعد وقت قصير من العمل لديهم، بأن الزوجين والعانس، يتمادون في طمس شخصيتها، في حرمانها من شرطها كامرأة، ككائن بشري، وتحويلها إلى أداة مهملة، دون مشاعر ولا كرامة، وربما دون روح. لا يمنحونها حق الوجود إلا خلال لحظات قصيرة، يوجهون خلالها الأوامر إليها. كانت تفضل لو أنهم يسيئون معاملتها، يحطمون أطباقاً على رأسها. لأن ذلك سيجعلها، على الأقل، تشعر بأنها حية. اللامبالاة التي يعاملونها بها - لا تتذكر أنهم سألوها إذا ما كانت

تشعر بأنها على ما يرام، أو لاطفوها بعبارة ما، أو بلفتة مودة - كانت تجرح مشاعرها، وتهينها حتى الروح. كان دورها، في العلاقة مع أسيادها، هو العمل كبهيمة، والقيام طوال اليوم، بأعمال غبية. والاستسلام لفقدان الكرامة، والكبرياء، والمشاعر، وحتى الإحساس بأنها حية. ومع ذلك، عندما انتهت مرحلة سويسرا، واقترح آل سبنس أخذها معهم إلى إنكلترا، وافقت. لماذا يا فلوريتا؟ أجل، بالطبع، وأي شيء آخر كان بإمكانك عمله، من أجل مواصلة إعالة أبنائك، وقد كانوا ثلاثتهم أحياء آنذاك. وكان صعباً، من جهة أخرى، على أندريه شازال، أن يعثر عليكِ في لندن، وآن يشكوك للشرطة هناك، بتهمة هربك من المنزل. فقد كان الخوف من الذهاب إلى السجن هو ظلك، طوال تلك السنوات.

ذكريات كئيبةَ يا فلوريتا. لقد كانت تشعر بالعار من سنوات العبودية الثلاث تلك، حتى إنها محتها من سيرتها، إلى أن جاء يوم، بعد سنوات طويلة، أخرجها فيه إلى العلن محامي أندريه شازال، في المحاكمة المشؤومة. وهي ذكريات تحاصرها الآن في ماكون، بسبب ما تشعر به من استياء، وبسبب خيبة أملها من هذه المدينة القبيحة، ذات العشرة آلاف نسمة، عشرة آلاف نفس لا تقل، جميعها، قبحاً عن البيوت والشوارع التي تسكنها. وبالرغم من أنها جالت على الجمعيات النقابية الأربع، تاركة في كل واحدة منها، عنوانها ونشرة عن **الاتحاد العمالي**، لم يأت لزيارتها سوى شخصين اثنين فقط: صانع براميل، وحداد. ولم يبد أي منهما، اهتمامه بالاتحاد العمالي. وأكد كلاهما بأن الجمعيات النقابية في ماكون، ماضية على طريق الانقراض؛ فقد وجدت الورش الآن، طريقة لمزيد من التخفيض في الأجور، بالتعاقد مع فلاحين عابرين، عمال موسميين مهاجرين، في مواسم العمل المكثف، بدلاً من استخدام أطقم عمال دائمة. وقد رحل العمال زرافات، للبحث عن عمل في مصانع ليون. الفلاحون- العمال لا يرغبون في الاهتمام بالمسائل النقابية، فهم لا يعتبرون أنفسهم بروليتاريا، وإنما رجال ريف، يعملون مؤقتاً في الورش

لتأمين دخل إضافي.

الشيء الممتع الوحيد في ماكون، كان المسيو شاميفان، المسؤول عن جريدة «**النفع العام**» التي يوجهها بالمراسلة، من باريس، الشخصية المشهورة لامارتين. إنه برجوازي متميز، مثقف، عاملها بلباقة وتهذب فُتنت بهما، على الرغم من تحفظاتها السياسية والأخلاقية ضد البرجوازيين. لقد دارى المسيو شاميفان تثاؤباته بتأدب، عندما راحت تحدثه عن **الاتحاد العمالي**، وتشرح له كيف سيتولى تحويل المجتمع البشري. ولكنه دعاها إلى غداء فاخر في أهم مطعم في ماكون، وأخذها إلى الريف لتزور إقطاعية لامارتين، المسماة: «**المونسو**». بدت لها قلعة ذلك الفنان والديمقراطي العظيم، نوعاً من المباهاة المثيرة للحنق، ونموذجاً للذوق القبيح. وكانت قد بدأت تضجر من الزيارة، عندما ظهرت، لترافقها كدليلة، مدام بيركلو، أرملة الابن الطبيعي للشاعر، الذي مات في الثامنة والعشرين، بعد قليل من زواجه. تحدثت الأرملة الشابة والتعسة، وتكاد تكون طفلة، إلى فلورا، عن حبها المأساوي، وعن الكآبة التي تعيشها منذ موت زوجها، مصممة على ألا تعود إلى التمتع بأي نوع من اللهو، وأن تعيش حياة عزلة وتحصن، إلى أن يحررها الموت من محنتها.

سماع تلك الشابة الجميلة تتكلم هكذا، بعينين ممتلئتين بالدموع، استثار في فلورا غضباً كبيراً. ودون أن تضيع الوقت، بينما هما تسيران بين المساكب المترعة بالزهور في **المونسو**، لقنتها درساً.

- أشعر بالحزن، ولكنني أشعر بالغضب أيضاً، وأنا أسمعك تتكلمين هكذا، أيتها السيدة. أنتِ لست ضحية سوء الطالع، وإنما مسخ من مسوخ الأنانية. اعذريني لصراحتي، ولكنك سترين كيف أنني على حق. أنت شابة، جميلة، غنية، وبدل أن تشكري السماء على هذه الامتيازات، وتستفيدي منها، تدفنين نفسك في الحياة، لأن ظرفاً مواتياً أنقذك من الزواج، أسوأ عبودية يمكن للمرأة أن تعانيها. هناك آلاف، وملايين الناس، يترملون، بينما أنت تنظرين إلى

ترملك، على أنه كارثة إنسانية.

كانت الشابة قد توقفت، وقد أصابها شحوب الموت. وراحت تنظر إليها غير مصدقة، متسائلة إذا ما كانت فلورا مجنونة أصلاً، أم أن مساً من الجنون أصابها في تلك اللحظة. وتمتمت:

- أأنا أنانية لأنني وفية لحب حياتي الكبير؟

- ليس لأحد، الحقُ بإضاعة مثل هذه الفرصة وعدم انتهازها - أكدت فلورا -. انسي حدادك، اخرجي من هذا الناووس. ابدئي الحياة. ادرسي، قدمي الجميل، ساعدي ملايين البشر ممن يعانون، حقاً، مشكلات حقيقية ومحددة: الجوع، المرض، البطالة، الجهل، ولا يستطيعون مواجهتها. ما أنت فيه ليس مشكلة، بل هو حل. لقد أنقذك الترمل من اكتشاف العبودية التي يعنيها الزواج للمرأة. لا تلعبي لعبة الإحساس بأنك بطلة رواية رومانسية. اتبعي نصيحتي. عودي إلى الحياة واهتمي بأمور أكثر فائدة من تنمية حزنك. وأخيراً، إذا كنت لا تريدين تكريس وقتك لصنع المعروف، فاستمتعي بحياتك، سافري، ابحثي عن عشيق. هذا هو ما كان سيفعله زوجك، لو أنك أنتِ التي مت بالسل.

ومن الشحوب الجثثي، تحولت مدام بيركلو إلى الاحمرار مثل ثمرة فريز. وفجأة، أطلقت ضحكة هستيرية، تأخرت هنيهات في كبحها. كانت فلورا تتأملها، مستمتعة. وعند الوداع، تلعثمت الأرملة المفزعة، بأن كلمات فلورا، وإن كانت لا تعرف إذا ما قالتها بجد أم مزاح، ستدفعها إلى التفكير في الأمر.

عندما ركبت السفينة المتوجهة إلى ليون، أحست فلورا بأنها تتحرر من حمل ثقيل. فقد كانت ضجرة من القرى والضياع، ومتلهفة للعودة إلى التجول في مدينة كبيرة.

صورة ليون الأولى، ببيوتها الكئيبة الشبيهة بالثكنات، المكرورة كالكوابيس، وشوارعها المغطاة بحصى حاد الأطراف، يؤذي باطن الأقدام، سببت لها انطباعاً بالغ السوء. لقد ذكّرتها بلندن آل سبنس، برماديتها، وتبايناتها بين الأغنياء واسعي الثراء والفقراء مدقعي

الفقر، وطابعها كمدينة-نصب مكرسة لاستغلال العمال. هذا الإحساس المُحبِط في اليوم الأول، سيتلاشى مع تزايد لقاءاتها، ومواعيدها، واجتماعاتها، وبعد أن وجدت نفسها، للمرة الأولى في حياتها، معرضة لمضايقة الشرطة ومطاردتها. لقد توصلت هنا، أخيراً، إلى لقاءات كثيرة، مع عمال من كل القطاعات؛ مع نساجين، وحذائين، ونحاتي أحجار، وحدادين، ونجارين، وصانعي مخمل وغيرهم. كانت سمعتها قد سبقتها؛ فكان أناس كثيرون يعرفونها وينظرون إليها، في الشارع، بتقدير أو استنكار، وآخرون ينظرون إليها كما لو أنها كائن غريب. غير أن السبب في أنها ستتذكر، طوال الشهور المتبقية من جولتها - أكملت في ليون شهرين منذ مغادرتها باريس - مدة الشهر ونصف الشهر التي قضتها في ليون، هو أنها، في أجندتها المزدحمة خلال تلك الأسابيع، تأكدت بصورة قاطعة، من الاستغلال المفرط الذي يعاني منه الفقراء، كما تأكدت من احتياطي الوقار، والنقاء الأخلاقي، والبطولة التي تتمتع بها الطبقة العاملة، بالرغم من عيشها في حرمان مطلق. وقد دونت في يومياتها: «لقد تعلمت عن المجتمع، خلال ستة أسابيع في ليون، أكثر مما تعلمته طوال حياتي السابقة».

في الأسبوع الأول، عقدت حوالي عشرين جلسة حوار، في ورش حائكي الحرير، في حي كروا-روس، مع أولئك «الكانوت»[1] المشهورين، الذين قادوا قبل سنوات - ١٨٣١ و١٨٣٤ - ثورتين عماليتين أخمدتهما البرجوازية بسفك رهيب للدماء. في الورش الضيقة، القذرة، المظلمة، المتسلقة على جبل كروا-روس، حيث كانت الأدراج اللانهائية تقطع أنفاسها، وجدت فلورا صعوبة في التآلف مع أولئك العمال شبه المطموسين في الظلمة الخفيفة، يكاد لا يضيئهم القنديل - فالاجتماعات تعقد ليلاً، بعد انتهاء العمل - الخجولين،

---

(١) التسمية من الفرنسية (canut)، ويراد بها نساجو الحرير اليدوي، في مدينة ليون، تحديداً.

سيئي الملابس، الحفاة، ذوي الأسمال، والوجوه شبه المتبلدة من الإنهاك - فهم يعملون منذ الخامسة فجراً حتى الثامنة ليلاً، مع استراحة قصيرة في الظهيرة - مع المناضلين الذين واجهوا بالحجارة والعصي، حراب الجنود ورصاصهم ومدافعهم. كثيرون منهم كانوا يشككون أن تكون هي من كتبت ***الاتحاد العمالي***. فالأحكام المسبقة ضد المرأة، كانت عميقة الجذور لدى كل الطبقات الاجتماعية. وهم يعتقدون، لأنها ترتدي تنورة، بأنها غير قادرة على تطوير تلك الأفكار، من أجل خلاص العامل. بعد بعض الضيق - فكونها امرأة كان يربكهم - يوجهون إليها عادة أسئلة كثيرة. وعندما تستجوبهم هي حول مشاكلهم، يتوسعون، عموماً، بطلاقة. كان هناك أشخاص كثيرون محدودو الثقافة بينهم، ولكنهم في الوقت نفسه، أذكياء في حالة خام، يحول المجتمع دون صقلهم. كانت تخرج من تلك الاجتماعات، متهالكة من التعب، ولكن في حالة من التوهج الروحي. أفكارك تشيع يا فلوريتا. العمال يتبنونها، و**الاتحاد العمالي** بدأ يتحول إلى واقع.

في اليوم التاسع لوجودها، حضر أربعة رجال شرطة ومفوض ليون، المسيو باردوز، إلى فندق ميلان، ومعهم أمر بالتفتيش. وبعد أن قلبوا كل شيء خلال ساعتين، أخذوا أوراقها، ودفاتر ملاحظاتها، ورسائلها الحميمة - بينها رسالة مؤثرة، من أوليمبيا - ونسخ ***الاتحاد العمالي*** التي لم تتمكن من توزيعها بعد، على المكتبات. وغادروا، بعد أن سلموها تبليغاً بالمثول أمام المدعي الملكي، المسيو آ. جيرالدان. وكان هذا رجلاً نحيلاً مثل سكين، يرتدي بدلة تبدو أشبه بمسوح رجل دين. لم ينهض لمصافحتها، عندما دخلت إلى مكتبه.

- العمل الذي تقومين به في ليون، هو عمل هدام - قال لها بنبرة جليدية - لقد فُتح تحقيق في الأمر. ويمكن أن تحاكمي كمحرضة. ولهذا، بانتظار نتيجة التحقيق، أمنعك من مواصلة الاجتماعات مع العمال الكانوت في كروا-روس.

تفحصته فلورا من أعلى إلى أسفل، بازدراء بطيء. وكانت تبذل

جهداً كبيراً كيلا تنفجر.

- أتعتبر تبادل الأفكار مع الأشخاص الذين يحيكون أقمشة البدلات الأنيقة التي ترتديها، عملاً هداماً؟ أرغب في معرفة السبب.

- تلك الكهوف ليست أماكن مناسبة للآخرين. كما أن الذهاب للتحدث مع العمال، مسألة خطرة، خاصة لمن يملكون أفكاراً تزعزع النظام الاجتماعي - أجابها فم المدعي الملكي الذي بلا شفتين، دون أن يتحرك، وأضاف:- عليّ أن أحذرك: ستكونين خلال فترة التحقيق خاضعة للمراقبة. غير أنه بإمكانك مغادرة ليون فوراً، إذا كنت ترغبين في ذلك.

- لن أغادر إلا مرغمة. فهذه المدينة تعجبني كثيراً. وأنا أيضاً أريد أن أنبهك إلى أمر: سوف أحرك السماء والأرض، لجعل الصحافة هنا وفي باريس، تُطلع الرأي العام على المخالفة التي أنا ضحيتها.

غادرت مكتب المدعي الملكي دون كلمة وداع. صحف المعارضة الثلاث - **لِسينسور، والديمقراطيه، والنفع العام** - نشرت أخبار التفتيش، ومصادرة أوراقها. ولكن أياً منها لم تتجرأ على انتقاد الإجراء. وابتداء من ذلك اليوم، صار لدى فلورا، شرطيان يقفان عند باب فندق ميلان، يسجلان أسماء من يزورونها، ويسيران وراءها في الشارع. ولكنهما كانا كسولين وأخرقين، بحيث كان تضليلهما سهلاً، بفضل تواطؤ نادلات الفندق اللواتي كن يخرجنها من نافذة في المطبخ، إلى زقاق خفي، وراء الفندق. أي أنها، على الرغم من الحظر، واصلت عقد اجتماعات يومية مع العمال، متخذة أقصى الاحتياطات، وخائفة من ظهور الشرطة، بدعوة من خائن ما، في أحد تلك الاجتماعات. ولكن ذلك لم يحدث.

وفي الوقت نفسه، قامت بعملية استطلاع اجتماعية مكثفة. فجالت على ورش، ومستشفيات، وبيوت خيرية، ودور مجانين،

ومآوي أيتام، وكنائس، ومدارس. وذهبت أخيراً، إلى حي المومسات، في «غويوتير». ورافقها في هذه الحملة الأخيرة، اثنان من أتباع فورييه - وكان هؤلاء قد تصرفوا على احسن وجه، فأوكلوا لها محامياً، ليدافع عن قضيتها أمام المدعي الملكي - ولم تتنكر كرجل، مثلما فعلت في لندن، وإنما اتشحت بعباءة، واعتمرت قبعة مضحكة بعض الشيء، تغطي نصف وجهها. ومع أن الحي لم يكن كبيراً جداً ولا دانتياً، مثل ستيبني غرين اللندني، إلا أن مشهد المومسات المكدسات عند النواصي، وأمام أبواب الحانات، والمواخير ذات الأسماء الحالمة - بيت العروس، الأذرع الدافئة - ضايقها. سألت كثيرات منهن، ولا سيما أصغرهن، عن أعمارهن: اثنتا عشرة سنة، ثلاث عشرة، أربع عشرة سنة. طفلات غير مكتملات، يتحولن إلى نساء. كيف يمكن للرجال، أن يستمتعوا مع تلك المخلوقات التي ليست سوى جلد وعظم، واللواتي لم يخرجن من الطفولة، ويحوم حولهن السل والسفلس، إذا كن لم يصبن بهما بعد؟ انقبض قلبها، وأصابها الغضب والحزن بالبكم. فهنا أيضاً، مثلما في لندن، ثمة شيء يجمع بين الفظاعة والهزل: وسط ذلك الانحطاط والفساد، يزحف، ويلعب، على أرض بيوت المتعة الترابية، بين المومسات وزبائنهن - بينهم كثير من العمال - أطفال في السنة الثانية أو الثالثة أو الرابعة من عمرهم، تتركهم أمهاتهم هناك، بينما هن يقمن بعملهن.

لقد كانت تقوم بهذه الزيارات، كواجب أخلاقي - لأنه لا يمكن إصلاح ما نجهله - وباستياء عنيى. منذ الأزمنة الأولى لزواجها من أندريه شازال، أثار الجنس نفورها. وقد حدست، حتى قبل أن تكتسب الثقافة السياسية، والحساسية الاجتماعية، أن الجنس هو أحد أول وسائل استغلال المرأة والهيمنة عليها. ولهذا، دون أن تدعو إلى العفة أو الانقطاع الرهباني، كانت ترتاب دوماً بالنظريات التي تشيد بالحياة الجنسية، ومتع الجسد، باعتبارها من أهداف المجتمع

المستقبلي. وكان هذا أحد الموضوعات التي دفعتها إلى الابتعاد عن شارل فوربيه الذي تكنُّ له، مع ذلك، التقدير والاحترام. لقد كانت حالة ذلك المعلم مثيرة للفضول؛ فقد عاش على الدوام، في الظاهر على الأقل، حياة تقشف كامل. وكان يُعتبر كارهاً للنساء. ولكنه، في وصفه لمجتمع المستقبل، للعصر الآتي، **عصر الرفاه** الذي سيتلو **عصر الحضارة**، يُبرز الجنس كعامل رئيسي. وكانت فلورا تجد مشقة في تقبل ذلك. لأن الأمر قد ينتهي إلى اجتماع سحرة وشياطين حقيقي، على الرغم من نوايا المعلم الطيبة. فمن غير الضروري، بل من العبث، والمستحيل، تنظيم المجتمع وفقاً لعامل الجنس، مثلما يدعو بعض أتباع فوربيه؛ حيث ستكون هناك في «الفالانستيرات»، مثلما وصفها فوربيه، شابات عذراوات، يتخلين تماماً عن ممارسة الجنس. و فيستاليات[1]، يمارسنه بصورة معتدلة مع الفيستاليين أو التروبادور، ونساء أكثر حرية، الخليلات، يمارسن الحب مع الحرفيين الصناعيين. وهكذا على التوالي، وفق نظام متزايد الحرية والشطط - فهناك النساء الأوداليك[2]، والفقيرات[3]، والباخوسيات -، حتى البايّادرات[4] اللواتي يمارسن حب الإحسان الرحيم، بمضاجعتهن المسنين، والمشلولين، والمسافرين، وعموماً كل أولئك الأشخاص الذين يحكم عليهم المجتمع الحالي، بسبب السن، أو سوء الصحة، أو القبح، بممارسة العادة السرية أو الانقطاع عن الجنس. ومع أن كل شيء في هذا النظام حر وطوعي - كل شخص يختار، إلى أي فريق جنسي في الفالانستير، يريد الانضمام، ويمكنه

---

[1] الفيستاليات vestales: كاهنات معبد الإلهة فيستا، إلهة النار عند الرومان. والملاحظ أن كل التصنيفات الاجتماعية، في فالانستيرات (كومونات) فوربيه اليوتوبية، مأخوذة من الثقافات القديمة، الإغريقية والرومانية والشرقية.

[2] الأوداليك odaliscas: الحريم في القصور التركية العثمانية.

[3] الفقيرات faquiresas: ناسكات هنديات.

[4] البايّادرات *bayaderas*: راقصات ومغنيات في الهند.

مغادرته على هواه - فقد بدا هذا النظام لفلورا غير ملائم، فهو يجعلها تخشى من أن تبرز، في كنفه، مظاهر ظلم وجور جديدة. أما في مشروعها للاتحاد العمالي، فلا وجود لوصفات جنسية. وباستثناء المساواة المطلقة بين الرجال والنساء، وحق الطلاق، هناك تجنب لموضوع الجنس.

أكثر ما فاجأها في مذهب فورييه هو قوله إن «كل تخيل في موضوع الحب يكون جيداً». و«الجميع محقون في نزواتهم الغرامية، لأن الحب في جوهره، هو عاطفة الجور». وكان يسبب لها الدوار، دفاعه عن «المجون النبيل»، وعمليات الجماع الجماعية، وأنه لن يكون هناك، في مجتمع المستقبل، أي قمع لذوق الأقليات - أو من يدعوهم هو الـ unisexuales - من ساديين، وفتشيين، بل سيجري تشجيعهم، كي يجد كل واحد شريكه المناسب، ويتمكن من الحصول على السعادة، وفق نقطة ضعفه أو نزوته؛ ولكن دون إلحاق ضرر بالغير، لأن كل شيء سيتم بالاختيار والقبول الحر. أفكار فورييه هذه، أثارت استنكارها، إلى حد أنها أعطت الحق، في سرها، للمصلح برودون، المتزمت الذي اتهم الفالانستيريين، قبل وقت غير بعيد، في سنة ١٨٤٢، في مؤلفه «***تحذير إلى أرباب العمل***» بـ «انعدام الأخلاق واللواطة». وقد حملت الفضيحة كونسيدران إلى التخفيف، في الأزمنة الأخيرة، من نظريات المؤسس الجنسية.

ومع أنها تعترف بجرأة فورييه الثورية، وتقدرها، إلا أن تسامحه مطلق الحرية في موضوع الجنس، كان يخيف فلورا، وكان يضحكها، أحياناً. فقد ضحكت هي وأولمبيا حتى البكاء في مساء أحد الأيام، وسط لقاء غرامي، وهما تتذكران اعتراف المعلم بأن لديه «ميلاً لا يُكبح إلى السحاقيات»، وتأكيده بأن حساباته وأبحاثه تتيح له أن يؤكد، بأن هناك في العالم، عشرين ألف زميل لهم الميل نفسه، يمكنه أن يشكل معهم جمعية أو «فريقاً» في **مجتمع الرفاه** المستقبلي، حيث يستطيع هو وشركاؤه الاستمتاع، دون عقبات أو

خجل، باستعراضات سحاقية. والسحاقيات اللواتي سيستعرضن أنفسهن أمام البصاصين السعداء، سيفعلن ذلك باختيارهن الحر، ولأنهن بعمل ذلك، يمارسن ميلهن الاستعراضي. وكانت أولمبيا تقول لها ضاحكة: «ما رأيك أن ندعوه، يا مليكتي؟».

نزوة شارل فورييه التصنيفية لا تستحق منكِ الآن، سوى السخرية، يا فلوريتا، ولكن قبل عشر سنوات، لدى عودتك من البيرو، كم كنت سعيدة باكتشافك هذه العقيدة التي تعترف بالوضع الجائر الذي تعاني منه المرأة والفقير، وتقترح إصلاحه بإقامة مجتمع جديد، سيبرز مع تكاثر الفالانستيرات. فالإنسانية قد خلّفت وراءها مراحل **البدائية**، **والوحشية**، **والبربرية**، **والحضارة**. وهي ستدخل عما قريب، بفضل الأفكار الجديدة، المرحلة النهائية: **الوئام**. حيث سيمثل الفالانستير مجتمع الكمال، بأسره الأربعمئة. وكل أسرة منها من أربعة أفراد. وسيشكل فردوساً صغيراً منظماً، بطريقة تختفي فيها كل مصادر التعاسة. فالعدالة لا نفع منها، اللهم إلا إذا جلبت السعادة للكائنات البشرية. لقد استبق المعلم فورييه كل شيء، ووصف كل شيء. ففي كل فالانستير، ستكون الأجور أعلى، مقابل الأعمال المملة، والسخيفة، والتي تتطلب تضحية. بينما ستكون الأجور أدنى في الأعمال الممتعة والإبداعية، لأن ممارسة هذه الأعمال الأخيرة تشكل متعة بحد ذاتها. وبالتالي، فإن فحاماً أو سمكرياً سيكون أفضل أجراً، من الطبيب أو المهندس. وسيجري استغلال كل قصور أو عيب لمصلحة المجتمع؛ فبما أن الأطفال يحبون تلطيخ أنفسهم بالوحل والقذارة، فسوف يتولون جمع القمامة في الفالانستيرات. لقد بدا هذا لفلورا، في أول الأمر، ذروة الحكمة. مثلما رأت كذلك، في معادلة فورييه للحيلولة دون وقوع الرجال والنساء في الابتذال، حين يمارسون العمل نفسه على الدوام: يجب الانتقال من عمل إلى عمل، خلال اليوم نفسه أحياناً، كي لا ينخرهم الروتين. فالتحول من بستاني إلى أستاذ، من بنّاء إلى محام، من

غسالة إلى ممثلة، لا يتيح لأحد أن يضجر أبداً.

ومع ذلك، فقد أثار استنكارها الكثير من تأكيدات فورييه اللطيف والرؤوف القاطعة. فتأكيده: «لقد توصلتُ فقط إلى خلط عشرين قرناً من البلاهة السياسية» هو مبالغة. فالمعلم يقدم تأكيدات غير قابلة للإثبات، على أنها حقائق علمية، كقوله: إن العالم سيدوم ثمانين ألف سنة بالضبط، وكل روح إنسانية، خلال هذا الزمن، ستنتقل ثمانمئة وعشر مرات، بين الأرض وكواكب أخرى، وستعيش ألفاً وستمئة وعشرين حياة مختلفة. أهذا علم أم شعوذة؟ ألا يبدو مستهجناً؟ ولهذا السبب، وبالرغم من أنها تعرف أن معارفها لا ترقى، ولو من بعيد، إلى معارف مؤسس العقيدة الفوريبهية، فقد كانت تقول لنفسها إن طرحها للاتحاد العمالي، وبسبب تواضعه بالضبط، هو أكثر واقعية من الفالانستيرية.

بعد الزيارة إلى حي المومسات، كان الأسوأ منها هو التجول في **انتيغالا**، مستشفى المجانين والعاهرات حاملات الأمراض المشينة. وكان هؤلاء وأولئك يمضون مختلطين بالمراقبين المخبولين والأفظاظ الذين يهشمون المجانين بالضرب، إذا ما أكثروا الصراخ، وهم يتمشون شبه عراة ومقيدين، في فناء يغص بالقذارة، وسط سحب من الذباب. كان هناك، في الأركان، حطام نساء يبصقن دماً، ويكشفن عن بثور السفلس، بينما هن يحاولن الترنم بأناشيد دينية، تحت إشراف راهبات الإحسان، المسؤولات عن العيادة. وقد اعترف مدير المستشفى لفلورا، وهو رجل طيب، ذو أفكار حديثة، بأن البؤس هو السبب، في معظم الحالات، في استلاب أولئك التعساء وجنونهم.

- هذا منطقي يا دكتور. هل تعرف ما الذي تكسبه العاملة في ليون، مقابل أربع عشرة أو خمس عشرة ساعة عمل، في الورشة؟ خمسون سنتيماً. أي ثلث أو ربع ما يتقاضاه العامل، مقابل العمل نفسه. ومن يمكنه العيش بهذا المبلغ، إذا كان لديه أبناء عليه أن

يطعمهم؟ ولهذا تلجأ الكثيرات إلى الدعارة، وينتهين إلى الجنون.

- حذارِ أن تسمعكِ الراهبات - أخفض الدكتور صوته - فالجنون في نظرهم، هو عقابٌ إلهي على الرذيلة. ونظريتك ستبدو لهم قليلة المسيحية.

لم تجد فلورا قسساً وراهبات في **أنتيغالا** فقط، وإنما في كل مكان. فليون، مدينة العمال الثوريين، هي مدينة كهنوتية أيضاً، تعبق بالبخور والقداسة. لقد ارتادت كنائس كثيرة، تغص بأناس فقراء متعصبين، يجثون، مصلين أو مصغين، بخشوع، إلى الحماقات الظلامية التي يصبها عليهم خوارنة واعظون، يدعون إلى الاستسلام والعبودية لكلي القدرة. كان من المحزن التأكد من أن الفقراء هم الأغلبية الساحقة من المؤمنين. ولكي تدرس تلك الصنمية، صعدت، وهي تكاد تختنق من الجهد، إلى أعلى قمة في ليون، حيث يجري، في كنيسة صغيرة، تقديس سيدتنا عذراء فورفير. قباحة التمثال كانت أقل وقعاً عليها، من مشهد الوثنية الذليلة التي صعد بها حشد المؤمنين، مثلما صعدت هي، وتدافعهم بالمناكب ليقتربوا، ويلمسوا بأطراف أصابعهم، وهم جاثون، رفات العذراء. إنه العصر الوسيط في قلب إحدى أكثر المدن تصنيعاً وحداثة، في العالم!

لدى عودتها إلى مركز ليون، وهي في منتصف الطريق الجبلي، حاولت أن تزور مأوى للمتسولين، يمكن للمسنين الفقراء، ممن لا بيت لهم ولا عمل، اللجوء إليه والحصول على سقف، وطبق حساء، ودفن مسيحي. لم تتمكن من الدخول. كان يحرس المكان، رجال درك مسلحون بالبنادق. ولمحت من خلال القضبان الحديدية، راهبات الإحسان، وهن اللواتي يشرفن أيضاً، في المدينة، على إدارة مدارس للفقراء. متى لم يكن الأمر كذلك! الرهبان والحراس يداً بيد، لإبقاء الفقراء ممسوكين، منذ الطفولة حتى الشيخوخة، لتعليمهم الخضوع بالصلوات والتراتيل، أو فرضه عليهم بالقوة.

كم كانت مختلفة، بالمقارنة مع زيارات الدراسة هذه، الاجتماعات مع جماعات صغيرة من العمال الكانوت، في معامل نسج الحرير،

وغيرهم من العمال الليونيين. في بعض الأحيان، يكون الجدال عنيفاً. وتخرج منه فلورا أشد تمسكاً بقناعاتها، وكمن كوفئت على جهودها. وذات ليلة، في اجتماع مع عمال إيكاريين، من أتباع إتيين كابيه الذي كانت روايته «*رحلة إلى إيكاريا*» قد جندت في المنطقة أتباعاً كثيرين للعقائد المسماة شيوعية، وخلال مناظرة حامية، أغمي على فلورا. وعندما فتحت عينيها، كان الوقت فجراً. لقد أمضت الليل في ورشة نساجين، مطروحة على الأرض. وكان العمال الذين ينامون هناك، يتناوبون العناية بها، بتدليك يديها وتبليل جبهتها. وكانت قد رأت، في اجتماعات سابقة أخرى، واحدة من العاملات، تدعى إلينور بلان، لمحت فيها فلورا، فضلاً عن ورعها في الاستماع إليها، ذهناً متيقظاً. وقال لها خافق إنه يمكن لهذه المرأة التي لا تزال شابة، أن تكون واحدة من قياديي **الاتحاد العمالي** في ليون. دعتها إلى فندق ميلان، لشرب الشاي. تبادلتا الحديث عدة ساعات، تحت النظرات الهادئة لرجال الشرطة المكلفين بمراقبتها. أجل، لقد كانت إلينور بلان امرأة استثنائية. وستشكل جزءاً من اللجنة التنظيمية للاتحاد العمالي في ليون.

عندما استدعاها قاضي التحقيق، كانت شعبيتها في ليون، قد تعاظمت أكثر مما كانت عليه. فكان الناس يحيطون بها في الشارع. وبالرغم من أن بعض البرجوازيين كانوا يحولون بصرهم عنها، وبعض البرجوازيين الآخرين يتجرؤون على القول لها «انصرفي من هنا، ودعينا بسلام»، فإن الأغلبية كانوا يحيونها بكلمات لطيفة. وربما جعلت هذه الشعبية قاضي التحقيق، المسيو فرنسوا، يقرر، بعد أن استجوبها لساعتين - محادثة لطيفة - أنه لن تكون هناك محاكمة، وأن الشرطة ستعيد إليها أوراقها المصادرة.

«لقد كنتِ، ببساطة، رائعة في هذه الأسابيع الأخيرة»، قالت فلورا ذلك، حين تذكرت دفاترها، ورسائلها، ومفكراتها التي سلّمها إليها، مستاءً، المفتش باردوز نفسه. أجل، أجل يا فلوريتا. لقد قمتِ في

هذه الأسابيع الخمسة، في ليون، بمهمة رسولية أمام مئات العمال، وأغنيت دراساتك الاجتماعية حول الظلم، وأسست لجنة من خمسة عشر شخصاً. وباقتراح من العمال أنفسهم، بدأت تُطبع طبعة ثالثة من **الاتحاد العمالي**، ستباع بسعر منخفض جداً، بحيث تكون في متناول أشد الجيوب بؤساً.

بل إن كلمتها وصلت إلى قلب العدو: الكنيسة. فالاجتماع الأخير الذي عقدته في المنطقة، كان مفاجئاً. فقد دعاها، بسرية بالغة، بعض الخوارنة الذين يعيشون معاً في جماعة، في أولان، تحت إدارة الأباتي غيومين دي بوردو، لزيارتهم، لأنهم «يشاطرونها الكثير من أفكارها». ذهبت بدافع الفضول، دون أن تأمل الكثير من ذلك اللقاء. ولكنها فوجئت، في قلعة بيرون، في أولان، بوجود جماعة من المتدينين الثوريين في استقبالها. كانوا يسمون أنفسهم «الخوارنة المتمردين». وكانوا قد قرؤوا وناقشوا أعمال برودون، وسان سيمون، وفورييه. غير أن مرشدهم وموجههم هو الأب لامينه عصره، الأسقف المدان من جانب الفاتيكان، ونصير الجمهورية، خصم الملكية والبرجوازية ومنتقدهما، والمدافع عن حرية العبادة والإصلاحات الاجتماعية. ومثل سان سيمون، ومثل فلورا، كان أولئك «الرهبان المتمردون» يعتقدون بأنه لا بد للثورة من أن تحافظ على المسيح، وعلى مسيحية لا يفسدها تسلط الكنيسة ووظائف السلطة. كانت السهرة ممتعة، وقد ودعت فلورا الرهبان المتمردين بالقول إن هناك مكاناً لهم أيضاً في **الاتحاد العمالي**. ونصحتهم، بين الجد والمزاح، بأن يقوموا بخطوة أخرى، ولا سيما أنهم قد خطوا خطوات كثيرة جيدة، ويتمردوا على العزوبية الكنسية.

الانفصال عن إلينور بلان، في يوم رحيلها، كان مؤلماً جداً. فقد انفجرت الفتاة بالبكاء. عانقتها فلورا، وهمست في أذنها، شيئاً أرعبها وهي تقوله لها: «إلينور، إني أحبك أكثر مما أحب ابنتي».

VI. آنا، الجـاويـة

باريس، تشرين الأول ١٨٩٣.

فـي ذلك الصباح من خريف عام ١٨٩٣، عندما طُرق باب مرسمه الباريسـي، فـي الرقم ٦، شـارع فرِسـان جيتوركس، وقـف بـول فـاغراً فمه: فالطفلة-المرأة التي وجدهـا فـي مواجهته، الضئيلة جداً، ذات البشرة القاتمة، والمتشحة بثوب يشبه مسوح راهبات الإحسان، كانت تحمل قردة صغيرة بين ذراعيها، وتضع زهرة فـي شعرهـا، وتتدلى من رقبتها، لوحة تقول: «أنا آنا، الجاوية. هدية إلى بول، من صديقه أمبراوس فولار».

مـا إن رآهـا، وقبل أن يستعيد السيطرة على نفسـه مـن الحيرة، حيال تلك الهدية، من صاحب دار العرض الشاب، حتى أحس غوغان بالرغبة فـي الرسم. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يحدث له ذلك، منذ عودته إلى فرنسا، فـي الثلاثين من آب، بعد تلك الرحلة المنكودة التي استمرت ثلاثة أشـهر، قادماً مـن تـاهيتي. كل شـيء كـان سيئاً. فقـد نـزل مـن السفينة فـي مرسيليا، وليس فـي جيبه سـوى أربعـة فرنكات. ووصل وهـو يكـاد يمـوت، مـن الجـوع والغـم، إلـى بـاريس ملتهبة، هجرهـا أصدقاؤه. فقد صارت المدينة، خلال السـنتين اللتـين قضاهما فـي بولينيزيا، غريبة ومعادية. وكـان معـرض لوحاتـه «**رسوم تاهيتية**» الاثنتين والأربعين، إخفاقاً ذريعاً. فهو لـم يبـع سـوى إحدى عشـرة لوحـة، أي مـا لا يغطـي مـا أنفقـه، مسـتديناً مـرة أخـرى، علـى الإطـارات، والملصقـات والإعلانـات. وبـالرغم مـن ظهـور بعـض النقـد المرحب، إلا أنه أحس، منذ تلك الأيام، بـأن الوسـط الفنـي الباريسـي يعزله، أو يعامله بتفضُّل استخفافـي.

لم يثبّط عزيمتكَ فـي المعرض، شيء أكثر من الطريقة الجافة التي

صفى بها معلمك وصديقك القديم، كاميل بيسارو، نظرياتك ولوحات تاهيتي: «هذا الفن ليس فنك يا بول. ارجع إلى ما كنت عليه. فأنت متحضر. وواجبك هو رسم أشياء متناسقة، وليس محاكاة فن أكلة لحوم البشر الهمجي. اسمع نصيحتي. تراجع عن طريق الضلال. وتوقف عن سلب ما لدى متوحشي أقيانوسيا، وعد لتكون أنت نفسك». لم تناقشه. اكتفيتَ بوداعه بتحية عسكرية. وحتى لفتة ديغاس الودودة، بشرائه اثنتين من لوحاتك، لم ترفع معنوياتك. لقد كان عدد كبير من الفنانين، والنقاد، ومقتني اللوحات، يشاطرون بيسارو آراءه الصارمة: ما رسمته هناك، في بحار الجنوب، هو معالجة لخرافات ووثنيات بعض الكائنات البدائية، على بعد سنوات ضوئية من الحضارة. أهذا ما يجب أن يكون عليه الفن؟ أهو عودة إلى الأخشاب المنحوتة، وخيالات الأشباح، وسحر الكهوف؟ لكن ذلك لم يكن رفضاً لموضوعات رسمك، وتقنياته الجديدة التي اكتسبتها، بتضحيات كبيرة، خلال السنتين الأخيرتين في تاهيتي وحسب؛ بل كان كذلك، رفضاً أصم، عكراً، مواربا لشخصك. ولماذا؟ من أجل الهولندي المجنون، ولا شيء سواه. منذ مأساة آرل، وإدخاله مصحة المجانين في سان ريمي، وانتحاره، وخاصة بعد موت أخيه ثيو فان جوخ، منتحراً أيضاً، صارت رسوم فينسنت (التي لم تكن تهم أحداً وهو حي) موضوع الأحاديث، والبيع، وارتفاع سعرها. لقد ولدت موضة فان جوخ الوبيلة، وبدأ معها الوسط الفني كله يلومك، بمفعول رجعي، لأنك عجزت عن فهم الهولندي ومساعدته. أوغاد! ويضيف بعضهم بأنك، لافتقارك الشهير إلى الكياسة، ربما كنت السبب في صلم أذنه، في آرل. لستَ بحاجة لسماعهم، كي تعرف أنهم يتهامسون بهذا وبأشياء أسوأ منه، من وراء ظهرك، مشيرين إليك في صالات العرض، في المقاهي، في الصالونات، في الحفلات، في اللقاءات الاجتماعية، في مراسم الفنانين. تشويه السمعة يتسرب إلى المجلات، إلى الصحف، بالطريقة المواربة التي تتناول بها

الصحافة الفرنسية الأمور الراهنة عادة. وحتى ما وفرته لك العناية الإلهية، بموت عمك زيزي، العازب الثمانيني، في أورليان، والذي خلّف لك بضعة آلاف من الفرنكات، جاءت لتُخرجك، لبعض الوقت، من البؤس والديون، لم يُعد إليك الحماسة. إلى متى ستظل على هذه الحال يا بول؟

حتى ذلك الصباح الذي دخلت فيه آنا الجاوية مختالة، مثل نخلة، بتلك اليافطة الطريفة المعلقة بعنقها، ومعها تاوا، قردتها النطاطة، ذات العينين الساخرتين، والتي كانت تربطها بحبل من الجلد، لتشاطره ذلك المحبس، المفعم بالضوء والغرابة الذي حوّل بول إليه المرسم المستأجر، في هذا الركن من مونبارناس، في الطابق الثاني من بناء قديم. لقد أرسلها أمبراوس فولار لتكون خادمته. وهذا ما كانته آنا، حتى ذلك الحين، في بيت مغنية أوبرا. ولكن بول جعل منها، في تلك الليلة بالذات، عشيقته. ثم جعل منها، بعد ذلك، رفيقته في اللعب، والتخيلات والتغنج. وأخيراً، موديله. من أين جاءت؟ من المستحيل معرفة ذلك. عندما سألها بول، روت له آنا قصة محشوة بالكثير من التناقضات الجغرافية، لا بد أنها مجرد خرافة. ربما لا تعرف المسكينة من أين هي، وتحاول اختلاق ماض لها، في أثناء تكلمها، فاضحة جهلها العجيب ببلدان الكوكب الأرضي وحدوده. كم عمرها؟ هي قالت له إن عمرها سبع عشرة، أما هو فقدر أنه أقل، ربما ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة فقط، مثل تيهامانا، هذه السن التي تستثيرك، والتي تدخل فيها فتيات البلدان المتوحشة سن البلوغ. كان نهداها مكتملين، وفخذاها متينين، ولم تكن عذراء. ولكن، لم يكن جسدها الضئيل وحسن التشكيل – قزمة، جوهرة، إلى جوار الرجل الضخم ذي السبع والأربعين سنة الذي كانه بول – هو ما فتنه، فوراً، في هذه الرفيقة التي أمدته بها باريس الجاحدة.

كان لها وجه خلاسية، رمادي القاتم، وتقاطيع دقيقة وبارزة –

الأنف الحرن، الشفتان المتلئتان المورثتان من أسلافها الزنوج - وحيوية وقحة في عينيها اللتين تنظران بقلق، بفضول، بسخرية من كل ما تراه. وكانت تتكلم فرنسية أجنبية، بأخطاء عذبة، وبمفردات وصور عامية بذيئة، تُذَكِّر بول بمواخير الموانئ، في شبابه كبحار. وبالرغم من أنها لا تملك مكاناً تموت فيه، ولا تعرف القراءة ولا الكتابة، ولا تملك شيئاً سوى قردتها تاوا، والملابس التي ترتديها، إلا أنها تتباهى بعجرفة ملكة، في انطلاقها المرح، وفي اتخاذها أوضاعاً لرسمها، وفي التهكمات التي تبيحها لنفسها، من كل شيء ومن الجميع؛ كما لو أنه ليس هناك ما يستحق احترامها، ولا تنطبق عليها تقاليد التعامل السائدة. عندما تستاء من شيء، أو من أحد، تمد له لسانها، وتوجه إليه سخرية، تحاكيها قردتها تاوا، زاعقة.

كان من الصعب، في الفراش، معرفة إذا ما كانت الجاوية تستمتع، أم تتصنع الاستمتاع. ولكنها كانت تمتعكَ أنت، وفي الوقت نفسه، تسليك. لقد أعادت إليكَ آنا ما كنتَ تظن، منذ رجوعك إلى فرنسا، أنك فقدته: الرغبة في الرسم، وطيب المزاج، والرغبة في العيش.

في اليوم التالي لظهور آنا في مرسمه، أخذها بول إلى متجر في جادة الأوبرا، واشترى لها ملابس، ساعدها في اختيارها. واشترى لها، إضافة إلى الحذاء، نصف دزينة من القبعات التي تهواها. فقد كانت تعتمرها، حتى وهي في البيت، وأول ما ترتديه عندما تستيقظ. لقد كان بول يهتز مقهقهاً، عندما يرى الصبية عارية، وعلى رأسها قبعة قاسية، وهي تتهادى متراقصة، باتجاه المطبخ أو الحمام.

بفضل مرح الجاوية، ومبادراتها المبتكرة، تحول المرسم في شارع فرسان جيتوركس، في أمسيات أيام الخميس، إلى مكان لقاء واحتفال. كان بول يعزف الأكورديون، ويرتدي أحياناً الوزرة التاهيتية التقليدية، ويغطي جسده بوشم متصنع. وكان يأتي إلى تلك اللقاءات المسائية، الأصدقاء الأوفياء القدماء، مع زوجاتهم أو عشيقاتهم -

دانييل دو مونفريد مع آني، وشارل موريس مع كونتيسة طائشة تشاطره بؤسه، والزوجان شوفينكير، والنحات الإسباني باكو دوريو الذي كان يغني ويعزف الجيتار، وزوجان من الجيران، سويديان منفيان، هما آل مولار، إيدا النحاتة، ووليم المؤلف الموسيقي. وكانا يأتيان معهما، أحياناً، بمواطن لهما، مسرحي ومخترع نصف مجنون، يدعى أوغست ستريندبرغ - وكانت للزوجين مولار، ابنة مراهقة، جوديت، صبية قلقة ورومانسية، مبهورة بمحترف الرسام الذي غطى بول جدرانه بورق أصفر، ونوافذه بتلونات عنبرية، وملأه بمنحوتاته ولوحاته التاهيتية. كان يبدو كما لو أن هناك لهباً نباتياً يخرج من الجدران، وسماء شديدة الزرقة، وبحاراً وبحيرات زمردية، وأجساداً حسية بعريها الطبيعي. قبل أن تظهر آنا، كان بول يحافظ على مسافة تفصله عن ابنة جاريه السويديين، مستمتعاً بالافتتان الذي تبديه الصبية، دون أن يلمسها. ولكنه، منذ مجيء الجاوية، تلك الإكزوتيكية التي تستثير أحاسيسه وتخيلاته، بدأ مدعباته لجوديت أيضاً، عندما لا يكون أبواها قريبين. يمسكها من خصرها، يلامس شفتيها، ويضغط نهديها الصغيرين، وهو يهمس لها: «كل هذا سيكون لي، أليس كذلك يا آنسة؟» فتوافقه الصغيرة بذعر وسعادة: «أجل، أجل، لكَ».

وهكذا، أدخل في رأس ابنة الزوجين مولار، فكرة رسمها عارية. اقترح ذلك، ولم تدر جوديت البيضاء مثل شمعة، ماذا تقول. عارية، عارية تماماً؟ أجل، بالطبع. أليس من الشائع، أن يرسم الفنانون وينحتوا موديلاتهم عاريات؟ لن يعرف أحد بذلك، لأن بول، بعد أن يرسمها، سيخبئ اللوحة إلى أن تكبر جوديت. لن يعرضها إلا بعد أن تصبح امرأة كاملة تماماً. هل ستوافق؟ انتهى الأمر بالصغيرة إلى الموافقة. لم يتوصلا إلا إلى ثلاث جلسات، وكادت المغامرة أن تنتهي بمأساة. كانت جوديت تصعد إلى المحترف، عندما تخرج أمها إيدا، مدفوعة بعاطفة إحسان على الحيوانات، في حملات، في شوارع

مونبارناس، ترافقها آنا، بحثاً عن كلاب وقطط ضالة، أو مريضة، أو جريحة، فتحملها إلى بيتها، ترعاها وتعالجها، ثم تبحث لها عن آباء يتبنونها. كانت الصغيرة العارية على شرشف بوليـنيزي متعدد الألوان، لا ترفع بصرها عن الأرض. تتكمش على نفسها، وتستغرق في أفكارها، محاولة أن تكون غير مرئية، قدر الإمكان، للعينين المدققتين في مواضع أسرارها.

في الجلسة الثالثة، عندما كان بول قد انتهى من رسم مخطط لشكلها العام، ولوجهها البيضوي ذي العينين الواسعتين المذعورتين، اقتحمت إيدا مولار المرسم بحركات مأساة إغريقية. لقد تكلفتَ جهداً كبيراً في تهدئتها، في إقناعها بأن اهتمامك بالطفلة كان جمالياً (أكان كذلك حقاً، يا بول؟)، وأنك احترمتها، وأن سعيك إلى رسمها عارية، لا يشوبه أي هدف خبيث. ولم تهدأ إيدا، إلا بعد أن أقسمتَ لها بأنك قد تخليت عن المشروع. ولطختَ قماش اللوحة غير المنتهية، أمام إيدا، بالتربنتين، وجرحتها بمالج مزج الألوان، دافناً صورة جوديت. عندئذ وافقت إيدا على المصالحة، وشربتما الشاي معاً. كانت الطفلة المستاءة والمذعورة، تستمع إلى أحاديثكما، صامتة، دون أن تتدخل في حواركما.

عندما قرر بول، بعد بعض الوقت، أن يرسم آنا عارية، خطرت له فكرة، في لحظة إلهام: سيضع وجه عشيقته الجاوية على رسم جوديت في اللوحة الملغاة. وهذا ما فعله. وقد تطلب منه رسم اللوحة جهداً كبيراً، بسبب الجاوية التي لا يمكن التحكم بها. إنها أشد موديلاتكَ قلقاً وبعداً عن السيطرة عليها، على الإطلاق، يا بول. فهي تتحرك، تبدل وضعها، أو أنها تبدأ، لمقارعة الضجر، بتصنع حركات، بهدف استثارة ضحكه - اللعبة المفضلة، إلى جانب استحضار الأرواح، في سهرات أيام الخميس - أو أنها بكل بساطة، ودون أن تقول كلمة، تمل من الوضعية الثابتة، فتنهض واقفة، وتلقي على نفسها أية ملابس، وتخرج إلى الشارع، مثلما يمكن لتيهامانا أن

تفعل، لو كانت مكانها. لا مفر إذن من ترك الريشة، وتأجيل العمل إلى اليوم التالي.

رسم هذه اللوحة، كان ردكَ على تلك الانتقادات والتعليقات المهاجمة التي تسمعها، منذ المعرض في دوران-رويل، وتقرؤها من الجميع، حول رسومك التاهيتية. فهذه اللوحة لم يرسمها متحضر، وإنما متوحش. ذئب بقائمتين، ودون طوق عنق، مجرد عابر فقط، في سجن الإسمنت والأسفلت والأحكام المسبقة الذي تشكله باريس، قبل أن تعود إلى وطنك الحقيقي، إلى بحار الجنوب. الفنانون الباريسيون المرهفون، ونقادكَ المتكلفون، وجامعو لوحاتك المهذبون، سيشعرون بالإهانة، في حساسيتهم، في أخلاقهم، في ذوقهم، بهذا العري الجبهي لصبية - وهي ليست فرنسية فوق ذلك، ولا أوربية ولا بيضاء - تتجرأ على عرض نهديها، سرتها، أسفل بطنها، وشعر عانتها، وكأنها تتحدى الكائنات البشرية أن يأتوا ليُقارَنوا بها، ليروا إذا كان هناك، من يستطيع مواجهتها بقوة حيوية، بفيضِ طاقة وحسية تقارن بما لديها. كانت آنا تريد أن تكون ما هي عليه، حتى إنها لم تكن تلتفت إلى القوة المتأججة التي تأتيها من أصولها، من دمائها، من الغابات الجامحة التي ولدت فيها. مثل فهدة وآكلة لحم بشري. يا لتفوقكِ على الباريسيات المتيبسات، أيتها الصبية!

ليس الجسد وحده الآخذ بالظهور على اللوحة القماشية - الرأس الأكثر قتامة من اللون الأمغر المتوهج، مع انعكاسات مذهبة، في صدرها وفخذيها وقدميها الكبيرتين بأظفارهما التي هي أشبه بمخالب حيوان ضار - هو ما يشكل استفزازاً؛ وإنما محيطه كذلك، الأقل تناسقاً من كل ما يمكن تصوره، بذلك المقعد الصيني المخملي الأزرق الذي أجلست آنا عليه، في وضع تدنيسي وفاجر. ومن ذراعي المقعد الخشبيتين، ينبثق إلهان تاهيتيان من اختراعك، عند خاصرتي الجاوية، كإنكار معلن، باسم الوثنية الصلبة، للغرب وديانته المسيحية المتكلفة. وذلك الحضور الغريب، على الوسادة الخضراء التي تستريح

عليها قدما آنا، لتلك الزهور الصغيرة المضيئة التي تجوب لوحاتكَ دوماً، منذ أن اكتشفتَ أعمال الحفر اليابانية، عندما بدأتَ الرسم. وفي دراستكَ لرمزية تلك الرسوم ودقتها، توصلتَ للمرة الأولى، إلى أنك ترى الآَن، أخيراً، بوضوح تام، أن الفن الأوربي عليل، ومصاب هو أيضاً، بالسل الرئوي الذي يفتك بفنانين كثيرين، وأنه لا يمكن أن يخرجه من الانحطاط، إلا حمام إنعاش، آت من تلك الثقافات البدائية التي لم تسحقها أوروبا بعد، حيث **الفردوس** لا يزال دنيوياً. وحضور تاوا، القردة الطريفة، في اللوحة، عند قدمي آنا، في وضع بين المتأمل والساهي، يعزز الحالة الجنسية غير التقليدية والخفية التي تسود اللوحة بكاملها. حتى هذه التفاحات الهوائية، المحلِّقة فوق رأس الجاوية، على الجدار الوردي في العمق، تكسر التناسق، والمنطق، والتقاليد المعهودة التي يقدسها الفنانون الباريسيون بورع. برافو يا بول!

العمل البطيء جداً، بسبب ميل آنا إلى الحركة، كان مشجعاً. وكان من الجيد، العودة إلى الرسم بقناعة، وأنت تعرف أنك لا ترسم بيديك فقط، بل بذكرياتك أيضاً، لمناظر تاهيتي وأناسها - كنت تشعر بحنين جارف إليهم يا بول - بخيالاتك، وكذلك، مثلما كان يحب الهولندي المجنون أن يقول، بقضيبك الذي يتوقد أحياناً، وأنت في أوج جلسة العمل، لمرأى الصبية عارية، ويدفعك إلى حملها بين ذراعيك، وأخذها إلى الفراش. وكان الرسم، بعد ممارسة الحب، وسط رائحة المني التي تعبق في الجو، يعيد إليك الشباب.

منذ عودته من تاهيتي، كتب إلى الفايكنغة بأنه سوف يذهب إلى كوبنهاجن، ما إن يبيع بعض اللوحات، وتتوفر لديه أجور السفر، لكي يراها هي والأولاد. ردّت عليه مت برسالة طويلة، مستغربة ومتألمة لأنه لم يطر، منذ وطأت قدماه أوروبا، لرؤية أسرته. لقد كان الجمود يسيطر عليه، كلما وردت إلى ذهنه، صورة زوجته وأبنائه. الأمر نفسه مرة أخرى يا بول؟ أأنت ستكون رب أسرة من جديد؟ الإجراءات

القانونية لقبض الميراث الضئيل الذي خلّفه له العم زيزي، وظهور آنا في حياته، والرغبة في العودة إلى الرسم التي أيقظتها فيه، راحت تؤخر اللقاء الأسري. ومع حلول الربيع، قرر بصورة غير متوقعة، أن يأخذ آنا إلى بريتاني، إلى النزل القديم في بون آفين، حيث أمضى عدة مواسم، وبدأ هناك بالتحول إلى رسام. لم تكن عودة إلى الينابيع وحسب. بل أراد أن يسترد اللوحات التي رسمها هناك في ١٨٨٨ و١٨٩٠، وتركها لدى ماري-هنري، في لِيبولدو، كرهن عن أجور البنسيون التي كان يدفعها بصورة سيئة، أو لا يدفعها على الإطلاق، بسبب عجزه المزمن عن الدفع. أما الآن، وبفضل الفرنكات التي أورثه إياها العم زيزي، فيمكنه تصفية ذلك الدين. إنكَ تذكر تلك اللوحات بتوجس، فأنت الآن رسام أكثر تماسكاً من ذلك الساذج الذي كنتَ عليه في بون آفين، معتقداً أنك، في بريتاني العميقةِ، الغامضة، المؤمنة، والتقليدية تلك، ستجد جذور العالم البدائي الذي جففته الحضارة الباريسية.

وصوله إلى بون آفين أحدث تأثراً حقيقياً. ليس بسببه، بقدر ما كانت آنا هي السبب، وحركات القردة ياورا وصرخاتها، بعد أن تعلمت القفز عن رأس صاحبتها إلى كتفي بول والعكس، وهي تلوح بيديها. ما كاد يصل، حتى علم بأن شارل لافال، صديقه الذي شاطره مغامرة بنما والمارتينيك، قد مات في مصر، وأن زوجته، الجميلة مادلين برنار، مريضة جداً. ضايقه هذا الخبر كثيراً، كتأثره لتذكر أصدقائه الفنانين القدامى الذين عاش معهم، قبل سنوات خلت، أوهام بريتاني: ماير ـي هان، الذي جُند في هولندا، والمستسلم للصوفية؛ وإميل برنار الذي انسحب أيضاً من العالم، منقلباً إلى التدين، وهو يتكلم ويكتب الآن ضدك. وشوف الطيب الذي بدل أن يرسم، يقضي أيامه، هناك في باريس، في مشاجرات منزلية مع امرأته.

ولكنه وجد في بون أفين، أصدقاء آخرين، رسامين شباباً يعرفونه

ويقدرونه، للوحاته وأسطورته، كمرتاد لأجواء الغرابة، ولأنه هجر باريس، بحثاً عن الإلهام في بحار بولينيزيا البعيدة، منهم: الايرلندي رودريك أوكونور، وأرماند سيغوين، وإميل جوردان الذين استقبلوه مع عشيقاتهم أو زوجاتهم، بأذرع مفتوحة. كانوا يتنافسون في تملقه، وأفرطوا في التودد إلى آنا، بقدر توددهم إليه. أما ماري-هنري بالمقابل، ماري الدمية، صاحبة نزل لِبولدو، فبالرغم من أنها حيته بمودة، إلا أنها كانت حاسمة: اللوحات ليست معارة ولا مرهونة لديها. بل هي أجر الغرفة والإقامة. ولن تعيدها إليه. لأنها إن لم تكن ذات قيمة كبيرة الآن، مثلما يقولون، فربما ستصبح ذات قيمة في المستقبل. ولم يكن هناك ما يمكن عمله.

غير أن الاستقبال الحميم الذي قوبل به بول وآنا، من أهالي بون آفين، تحول، مع مرور الأيام إلى سلوك مختلف. وكان السبب هو التصرفات الصبيانية التي يلهو بها أوكونور، وسيغوين، وجودان، وفضائحهم، ومزاحهم المزعج أحياناً، والذي كانت تستثيره آنا، السعيدة بتجاوزات أولئك البوهيميين. كانوا يسكرون ويخرجون إلى الشارع لمضايقة نساء الجوار، ويرتجلون مشاهد تهريجية تكون الجاوية هي البطلة فيها. وكانت عبارات آنا وحركاتها المستهترة، وضحكتها المتدفقة، تذهل الجيران، وتسبب لهم الارتباك؛ فيؤنبونهم من نوافذ بيوتهم، في الليل، على سلوكهم، ويطلبون منهم الصمت. وكان بول يشارك من بعيد، كمتفرج سلبي، في ذلك التهريج. لكن حضوره كان صمتاً ضامناً لحماقات تلاميذه. فكان أهالي بون آفين يحملونه المسؤولية، بسبب سنه وسلطته.

الفضيحة التي دارت حولها أكثر التعليقات، هي فضيحة الدجاجات التي تفتقت عنها مخيلة الجاوية المتمادية. فقد أقنعت تلاميذ بول الشباب - هكذا كانوا يعتبرون أنفسهم - بأن يتسللوا إلى خم دجاج العم غاناك، الأكبر في القرية، وتبديل الماء بالنبيذ، وإسكار الدواجن. ثم عمدوا بعد ذلك، إلى تلطيخها بالألوان، وفتحوا

الخم، وأخرجوها إلى الساحة؛ حيث ظهر، في ذروة الخروج للتمشي يوم الأحد، ذلك الموكب الهذياني للطيور المترنحة، الصاخبة، الملونة التي تقاقي بصخب، وتدور حول نفسها، أو تتقلب وتتدحرج. قدم العمدة والكاهن شكواهما إلى غوغان، وحثاه على كبح هذه الحماقات. وقال الكاهن: «يمكن لأي واحدة من هذه الحوادث أن تكون سيئة العاقبة».

وقد كانت العاقبة بالغة السوء بالفعل. فبعد أسابيع من حادثة الدجاجات المخمورة والملونة، وفي يوم الخامس والعشرين من أيار ١٨٩٤، المشمس، انتهزت الجماعة كلها - أوكونور، سيغوين، جوردان، وبول، مع عشيقاتهم أو زوجاتهم، والقردة تاوا - صفاء الجو، وقرروا القيام بنزهة إلى كونكارنو، وهي ميناء صيد سمك قديم، على بعد اثني عشر كيلومتراً من بون أفين، تحتفظ بالأسوار القديمة والبيوت الحجرية، في الحي الذي يرجع إلى العصور الوسطى. منذ أن دخلوا الشارع البحري، المجاور للمرفأ، راود بول هاجس بأن مكروهاً سيحدث. كانت الحانات تغص بالصيادين والبحارة الجالسين على الأرصفة، تحت الشمس البديعة، فأنزلوا أباريق السيدرا والبيرة التي في أيديهم، ليروا، بعيون مخبولة غائمة، مرور هذه الجماعة الغريبة من الرجال ذوي الشعور الطويلة، والملابس الصارخة، والنساء اللافتات للنظر؛ وبينهن سوداء تتبختر مثل فنانة سيرك، وتجر بحبل، قرداً كثير الصراخ، يكشر كاشفاً لهم عن أسنانه. سمعوا صرخاتٍ استغراب، استياء، ورأوا حركات تهديد: «انصرفوا أيها المهرجون!». وعلى عكس أهالي بون آفين، لم يكن أناس كونكارنو معتادين على الفنانين. وأقل من ذلك، رؤية زنجية ضئيلة، تتطلع إليهم مقطبةً ملامح وجهها، في حركات ساخرة.

في منتصف الشارع البحري، أحاطت بهم جوقة من الصبيان. كانوا ينظرون إليهم بفضول. بعضهم يبتسمون، وآخرون يقولون لهم، بلهجتهم البريتانية المفرقعة، عبارات يبدو أنها غير لطيفة. وفجأة،

بدؤوا يرمونهم بالحجارة، والحصى التي يحملونها في جيوبهم. وكانوا يوجهونها بصورة خاصة، إلى آنا وقردتها التي جعلها الفزع تلتصق أكثر بصاحبتها. رأى بول أن أرماند سيغوين قد انفصل عن الجماعة، وركض، وأدرك أحد الصبية الذين يرمونهم بالحجارة، وشده من أذنه.

عندئذ، تسارع كل شيء، بطريقة سيتذكرها بول في ما بعد، على أنها دوارية. فقد نهض عدد من الصيادين الجالسين في الحانة القريبة، واتجهوا نحوهم راكضين. وخلال ثوان قليلة، كان أرماند سيغين يحلق في الفضاء، ويهزه بخشونة، رجلٌ ينتعل قبقاباً، ويعتمر قبعة بحرية، ويزمجر قائلاً: «أنا فقط من يحق له أن يضرب ابني». كان أرماند الذي سقط على الأرض، يتلقى الركلات ويتلوى، وانتهى به الأمر، متدحرجاً إلى البحر المزبد الذي يرتطم بالحاجز الواقي. وبردّ فعل شبابي مندفع، وجّه بول لكمة إلى المعتدي، ورآه ينهار وهو يئن، ويداه على وجهه. كان ذلك هو آخر ما رآه؛ إذ انهالت عليه، بعد ثوان، زوبعة من الرجال ذوي القباقيب، يلكمونه ويركلونه من كل الاتجاهات، وفي كل أنحاء جسده. دافع عن نفسه كيفما استطاع، ولكنه وقع أرضاً، وأحس موقتاً، بأن كاحله الأيمن الذي انسحق وتهشم، قد تفتت إلى أربعة أجزاء. أفقده الألم الشعور. وعندما فتح عينيه، دوت في مسمعيه، صرخات نساء. رأى ممرضاً يقرفص عند قدميه، ويشير إلى ساقه العارية - فقد شقوا بنطاله كي يفحصوه - حيث يظهر من اللحم الدامي، عظم بارز ومتشظ. «لقد كسروا عظم ساقك يا سيدي. عليك أن تستريح لوقت طويل».

دائخاً، متألماً، مع قيء، كان يتذكر كما في حلم كريه، عودته إلى بون آفين، في عربة خيول، تجعله يئن صارخاً عند كل حفرة أو طفرة. ومن أجل تنويمه، كانوا يقدمون إليه جرعات خمرة مرة المذاق، تخرش حلقه.

لازم الفراش طوال شهرين، في حجرة منخفضة السقف، ذات

نوافذ قاتمة، متحولة إلى عيادة، في بنسيون غلونيك. لقد حطم الطبيب قلبه: من المستحيل إعادته إلى باريس، بعظم الطنبوب المكسور هذا، بل من المستحيل، أن يحاول النهوض على قدميه. الراحة المطلقة وحدها، تتيح إعادة العظم إلى مكانه والتحامه. وسيبقى على أي حال، أعرج في المستقبل. وسيكون عليه، استخدام عكاز. من تلك الأسابيع الثمانية التي أمضيتَها دون حراك، في الفراش، ستتذكر مدى حياتك، الآلام يا بول، أو أنك ستتذكر، بكلمة أدق، ألماً واحداً، ألماً أعمى، شديداً، حيوانياً، يبللك بالعرق أو يجعلك ترتجف، تبكي، تجدف بجنون، شاعراً أنك تفقد عقلك. المسكنات والمهدئات لم تكن تنفع في شيء. الكحول وحده، وكنت تشربه في هذين الشهرين دون توقف تقريباً، كان يُغيبك عن الوعي، ويُغرقك في فواصل راحة قصيرة. ولكن، سرعان ما لم يعد الكحول نفسه قادراً على تهدئة ذلك العذاب الذي يدفعك للتوسل إلى الطبيب - وكان يأتي مرة في الأسبوع -: «ابتر لي هذه الساق يا دكتور!». أي شيء من أجل وضع حد لذلك الألم الجهنمي. وقرر الطبيب أن يصف لك صبغة الأفيون. كان الأفيون ينومك؛ وفي ذلك الذهول الملتبس، في دوامات السلام البطيئة تلك، كنت تنسى كاحلك، وتنسى بون-أفين، والحادث في كونكارنو، وكل شيء. ولا يبقى في ذهنك، سوى فكرة واحدة ثابتة: «إنه إنذار. غادر بأسرع ما يمكن. عد إلى بولينيزيا، ولا ترجع منها إلى أوربا أبداً، يا كوكي».

بعد زمن لا يُقدر مداه. وبعد ليلة، استطاع أن ينام فيها، أخيراً، دون كوابيس، استيقظ ذات صباح، صافي الذهن. كان الايرلندي أوكونور يناوب إلى جوار سريره. ماذا حدث لآنا؟ كان لديه إحساس بأنه لم يرها منذ أيام طويلة.

- ذهبت إلى باريس - قال له الايرلندي - لقد كانت حزينة جداً. لم تستطع البقاء هنا، بعد أن سمم الجيران تاوا.

كان هذا هو ما تعتقده الجاوية على الأقل. أن أهالي بون آفين

الذين يكرهون القردة تاوا، بقدر ما يكرهونها هي، قد أعدوا للقردة مزيجاً من العقاقير مع الموز، مما سبب لها عسر هضم أودى بحياتها. وبدلاً من دفن الحيوان، قامت آنا بنزع أحشائه بيديها، وهي تنتحب، وحملت رفاته معها، إلى باريس. تذكر بول تيتي بتشيتوس التي تركته، عندما ضجرت من ماتايّا، لترجع إلى ليالي بابيتي الصاخبة. هل سترى الشيطانة الجاوية ثانية؟ من المؤكد أن لا.

عندما استطاع النهوض - وهو يعرج فعلاً، ويحتاج إلى عكاز - كان عليه، قبل أن يعود إلى باريس، أن يحضر تحقيقاً بوليسياً حول المشاجرة في كونكارنو. لم تكن لديه أوهام عن القضاة، مواطني المعتدين، وربما كانوا أشد منهم عداء للبوهيميين الذين يقلقون هدوءهم. وقد برأ القضاة، بالطبع، جميع الصيادين، في حكم كان سخرية من الحس السليم، وقدموا إليه مبلغاً رمزياً كتعويض، لا يغطي عُشر نفقات علاجه. المغادرة، لا بد من المغادرة في أسرع وقت. مغادرة بريتاني، فرنسا، أوروبا. لقد صار هذا العالم عدوك. إذا أنت لم تسرع، فسوف يُقضى عليك يا كوكي.

في الأسبوع الأخير، في بون آفين، بينما هو يتدرب على المشي - وكان قد فقد اثني عشر كيلوغراماً من وزنه - جاء لزيارته من باريس، شاعر وكاتب شاب، ألفريد جاري. كان يدعوه بلقب «المعلم» ويُضحكه بحماقاته الذكية. فقد رأى لوحاته في صالة دوران رويل، وفي بيوت مقتنين، وأبدى له فيضاً من التقدير. لقد كتب عدة قصائد عن لوحاته، قرأها عليه. وكان ذلك الشاب يستمع إليه، بورع ديني، وهو يهذي ضد الفن الفرنسي والأوروبي. وقد دعاه، هو وتلاميذه في بون آفين، عندما ودّعوه في المحطة، للذهاب معه إلى أقيانوسيا. سيشكلون هناك، معاً، محترف الرسم التروبيكالي الذي حلم به الهولندي المجنون في آرل. سيعملون في العراء، وسيعيشون كالوثنيين، وسيثوّرون الفن، ويحقنونه بالقوة والجرأة اللتين فقدهما. جميعهم أقسموا موافقين. سيرافقونه، سيذهبون معه إلى تاهيتي.

ولكنه عندما صار في القطار، متوجهاً إلى باريس، أدرك أنهم لن يفوا بوعدهم، مثلما لم يفِ من قبل، زميلاه القديمان: شارل لافال وإميل برنار. وأنتَ لن تعودَ أيضاً، لرؤية جماعة بون آفين اللطيفة هذه، يا بول.

في باريس، مضى كل شيء من سيئ إلى أسوأ. كان يبدو مستحيلاً، أن تسوء الأمور أكثر، بعد شهور النقاهة تلك، في بريتاني. كانت المخاوف والشكوك تسيطر على الأوساط الفنية، بسبب السياسة الحقيرة. فمنذ إقدام الفوضويين على اغتيال الرئيس سادي كارنو، أدت أجواء القمع، والوشايات والملاحقات، إلى هروب كثير من معارفه وأصدقائه (أو أصدقائه سابقاً) المتعاطفين مع الفوضويين، من أمثال كاميل بيسارو، أو المعارضين للحكومة، مثل أوكتاف ميربو، وخروجهم إلى المنفى. كان هناك رعب في الأوساط الفنية. هل سيجلب لك المتاعب كونك حفيد فلورا تريستان، الثورية والفوضوية؟ لقد كانت الشرطة غبية، وربما تكون قد صنّفتك كعنصر هدّام، لأسباب وراثية.

دخوله إلى المرسم في شارع فرسان جيتوركس، الرقم ٦، كان مفاجأة كبيرة. فآنا، تلك الشيطان الصغير ذو التنورة، لم تكتف برحيلها، وتركه شبه ميت هناك في بريتاني، بل نهبت المحترف، آخذة الأثاث، والسجاد، والستائر، والزينة والملابس. ولا بد أنها باعت كل تلك الأشياء في سوق البراغيث، وفي أوكار مرابي باريس. ولكنها - ويا للإهانة الكبرى يا بول! - فهي لم تأخذ لوحة واحدة، ولا رسماً واحداً، ولا أي دفتر ملاحظات. تركت كل ذلك كسقط متاع لا نفع فيه، في هذه الحجرة الخاوية تماماً الآن. وبعد انفجار غضب وشتائم، راح بول يضحك. لم يكن يشعر بأدنى لوم تجاه تلك المتوحشة الرائعة. إنها كذلك يا بول: متوحشة حقيقية، حتى النخاع، جسداً وروحاً. ما زال عليك أن تتعلم الكثير، لتكون بمستواها.

خلال الشهور الأخيرة في باريس، وبينما هو يعدّ العدّة لعودته

النهائية إلى بولينيزيا، أحس بالشوق إلى تلك الزوبعة التي تَدَّعي أنها جاوية، وهي ربما تكون ماليزية، أو هندية، أو من يدري من أين هي حقاً. وكي يُسرّي عن نفسه، في غيابها، كان هناك رسمها وهي عارية. وقد أحس، وهو يتأمله، بأنه حالة مرحلية من جوديت، ابنة الزوجين مولار، فعكف على إضافة لمسات إلى اللوحة، إلى أن أحس بأنه قد أنهاها.

- أترين نفسك هنا يا جوديت، في العمق، تطلين من هذا الجدار الوردي، بديلة لآنا، بالأبيض والأشقر؟

ومهما فتحت عينيها، وأمعنت النظر في اللوحة مطولاً، لم تكن جوديت تتوصل إلى تمييز ذلك الشبح الظليل الذي يشير إليه بول، وراء آنا. ولكنكَ لم تكن تكذب. فخطوط رسم الصبية التي محوتها بالتربنتين وجرحتها بالمالج، لتهدئ من غضب إيدا، لم تختفِ تماماً. إنها تطل، بصورة مختزلة، مثل طيف خفي، سحري، في بعض ساعات النهار، مثل ضوء مطموس، لتشحن اللوحة بغموض سري، بخلفية ملتبسة. خطَّ اسم اللوحة فوق رأس آنا، حول بعض الثمار المنفلتة من الجاذبية، بالتاهيتية: ***أيتا تاماري فاهيني جوديت تي باراري***.

فسألته الصبية:

- ما معنى هذا؟

- **«المرأة-الطفلة جوديت، ما زالت دون افتضاض»** - ترجم لها بول، وأضاف:- أترين، مع أنها تبدو، للوهلة الأولى، صورة لآنا، إلا أن بطلة هذه اللوحة الحقيقية هي أنت.

منبطحاً على الفراش العتيق الذي أعاره إياه الزوجانَ مولار، كي لا ينام على الأرض، قال لنفسه، مرات كثيرة، إن هذه اللوحة ستكون الذكرى الوحيدة الطيبة لمجيئه إلى باريس، غير المجدي، وبالغ الضرر. كان قد انتهى من الإعدادات لعودته إلى تاهيتي. غير أنه اضطر إلى تأجيل السفر، لأن - «أهلاً بك أيها الشر، إذا جئت

منفرداً»، اعتادت أن تقول أمه، في ليما، عندما كانا يعيشان على إحسان أسرة تريستان – ساقيه امتلأتا بالأكزيما. كان الألم المبرح يعذبه، وتحولت البقع إلى قروح متقيحة. كان عليه أن يدخل المستشفى ثلاثة أسابيع، في جناح الأمراض المعدية، في مستشفى سالبيترير. أكد لكَ طبيبان ما كنتَ تعرفه، وإن لم تتقبل قط، هذا الواقع. إنه الداء الذي لا يسمى، مرة أخرى. فهو يتراجع، يمنحك إجازة لمدة ستة، أو ثمانية أشهر، ولكنه يواصل، خفية، عمله القاتل، مسمماً دمك. وها هو ذا يظهر الآن في ساقيك، يسلخهما، يغطيهما بالبثور الدامية. وبعد ذلك، سيصعد إلى صدرك، إلى ذراعيك، وسيصل إلى عينيك، فيخيم عليك الظلام. عندئذ تكون حياتك قد انتهت، ولو بقيت على قيد الحياة، يا بول. ولن يتوقف الداء اللعين عند ذلك الحد أيضاً. بل سيواصل إلى أن يتغلغل في الدماغ، ويحرمك من الوعي والذاكرة، مسبباً لك الاختلال، قبل أن يحوّلك إلى نفاية مزدراة، يبصق عليها الناس، ويتفادها الجميع. ستتحول إلى كلب أجرب يا بول. ومن أجل مقاومة الاكتئاب، كان يشرب، خفية، الكحول الذي يأتيه به دانييل الشهم، وشوف الكريم، في آنية القهوة الحافظة للحرارة، أو في زجاجات المرطبات.

خرج من مستشفى سالبيترير، بساقين جافتين من البثور، وإن كانتا مثلمتين بالندوب. وبملابسه المتهدلة بسبب النحول. وبشعره الكستنائي الطويل الذي تخللته بعض الخصل الرمادية، والمثبت بطاقية كبيرة من فراء الحملان، والأنف العدواني المكسور الذي تلمع فوقه، في هياج دائم، حدقتاه الزرقاوان، ولحية العنزة في ذقنه. كان مظهره لا يزال مهيباً، وكذلك إيماءاته وحركاته، وكلماته البذيئة التي ترافق نقاشاته، عندما يجتمع مع أصدقائه، في بيوتهم أو في أحد مقاهي الأرصفة، لأنه لا يستطيع استقبال أحد في محترفه الخاوي. وكان من عادة الناس، أن يعيدوا النظر إليه، حين يرونه في الشارع، ويشيرون إليه، بسبب تقاطيع جسده، وشذوذ مظهره: العباءة الحمراء

السوداء المتطايرة الأطراف، قمصانه ذات الألوان التاهيتية، وصدريته البريتانية، وبنطاله المخملي الأزرق. كانوا يظنونه ساحراً، أو سفير بلاد غريبة.

تقلص ميراث العم زيزي كثيراً، بعد دفع نفقات المستشفى والأدوية، فاشترى تذكرة سفر في الدرجة الثالثة، في السفينة «*الاسترالي*» التي ستبحر من مرسيليا، في الثالث من تموز ١٨٩٥، وستجتاز قناة السويس، وتصل إلى سيدني في أوائل شهر آب. وهناك سيجد سفينة أخرى تنقله إلى بابيتي، عن طريق نيوزيلندا. حاول، قبل سفره، أن يبيع اللوحات والمنحوتات المتبقية لديه. أقام معرضاً في محترفه بالذات، حضر إليه بعض المقتنين، بفضل مساعدة أصدقائه، وبفضل بطاقة الدعوة التي كتبها، بعبارات ملتبسة، السويدي أوغست سترندبرغ. وكانت أعماله المسرحية تلقى نجاحاً كبيراً في باريس. كانت المبيعات هزيلة. فأقام تصفية في فندق دروو، لكل أعماله المتبقية، فجاءت النتيجة أفضل قليلاً، وإن ظلت أدنى من توقعاته. كان متشوقاً إلى الوصول إلى تاهيتي، بصورة لم يستطع إخفاءها. وذات ليلة، في بيت الزوجين مولار، سأله الإسباني باكو دوريو عن حنينه ذاك إلى مكان ناء، بصورة رهيبة، عن أوروبا.

- لأنني لم أعد فرنسياً، ولا أوروبياً يا باكو. حتى لو كان مظهري يقول عكس ذلك، فإنني موشوم، آكلُ لحمٍ بشري، واحدٌ من زنوج تلك الأنحاء.

ضحك أصدقاؤه. أما هو، فإنه على الرغم من مبالغاته المعهودة، كان يقول الحقيقة.

وبينما هو يُعدّ أمتعته - كان قد اشترى أكورديوناً وجيتاراً، بدل تلك التي أخذتها آنا، وصوراً كثيرة، ومؤونة جيدة من قماش وحمّالات اللوحات، والفراشي، والرياش، وعلب الألوان - وصلته رسالة غاضبة من الفايكنغة، من كوبنهاجن. لقد علمت بالمزاد العلني

لرسومه ومنحوتاته في فندق دروو، وهي تطالبه بنقود. فكيف يمكن له أن يبدي كل تلك اللامبالاة، تجاه زوجته وهؤلاء الأبناء الخمسة الذين تبذل هي المعجزات - إعطاء دروس لغة فرنسية، والقيام بترجمات، وتسول المساعدة من أقربائها وأصدقائها - لتتمكن من إعالتهم، منذ سنوات؟ من واجبه كأب وزوج، أن يساعدهم، بإرسال حوالة لهم، بين حين وآخر. وأنتَ قادر على عمل ذلك الآن، أيها الأناني.

أغضبته رسالة مِت وأحزنته. لكنه لم يرسل إليها سنتيماً واحداً. فأشد قوة من مشاعِر تأنيب الضمير التي تداهمه أحياناً - لا سيما عندما يتذكر ألين، الطفلة العذبة والحساسة - كانت الرغبة الملحة في المغادرة، في الوصول إلى تاهيتي التي ما كان عليه، أن يرجع منها أصلاً. هذا أسوأ لكِ أيتها الفايكنغة. النقود القليلة التي حصل عليها من ذلك المزاد العلَني، كانت ضرورية من أجل عودته إلى بولينيزيا، حيث يريد أن يدفن عظامه، وليس في هذه القارة ذات الشتاءات الجليدية والنساء الباردات. فلتتدبر أمورها كيفما استطاعت بلوحاته التي ما زالت لديها. وعليها أن تعزي نفسها، بأن زوجها، بسبب الخطايا التي يقترفها بإهمال أسرته، سيدفع الثمن، حسب معتقداتها (وهي ليست معتقدات بول)، بالاحتراق إلى أبد الآبدين.

عشية السفر، جرى له وداع، في بيت آل مولار. أكلوا، وشربوا، ورقص باكو دورين وغنى أغنيات أندلسية. وعندما منع هو أصدقاءه من مرافقته، في صباح اليوم التالي، إلى المحطة التي سيركب منها القطار إلى مرسليا، انفجرت جوديت الصغيرة في البكاء.

VII. أخبار من البيرو

روان وسانت إتيين، حزيران ١٨٤٤

كانت السماء مفعمة بالنجوم. وكانت تهب نسمة ربيعية تضمخ بالشذا، الليلة التي وصلت فيها فلورا إلى روان، قادمة من ليون، يوم الرابع عشر من حزيران ١٨٤٤. ظلت مؤرقة في بنسيونها، تتأمل القبة السماوية المفعمة بالنجوم البراقة، ولكنها كانت تفكر، طوال الوقت، في إلينور بلان، العاملة الليونية التي تعلقت بها. لو كانت لدى كل النساء الفقيرات، طاقة، وذكاء، وحساسية تلك الفتاة، فإن الثورة ستكون مسألة شهور. بوجود إلينور، ستعمل لجنة **الاتحاد العمالي** بدقة كاملة، وستكون محركاً لتحالف العمال الكبير، في كل أرجاء جنوبي فرنسا.

إنك تشتاقين إلى تلك الفتاة يا فلوريتا. ترغبين لو أنك تعانقينها وتحسين بجسدها النحيل، في هذه الليلة الهادئة والمليئة بالنجوم من ليالي روان، مثلما أحسست به، يوم ذهبتِ بحثاً عنها، في بيتها البائس، في شارع لوزرن، ووجدتها تبكي.

- ما الذي أصابك يا بنيّتي؟ لَماذا تبكين؟

- أخشى ألا تكون لدي الكفاءة الكافية، لإنجاز كل ما تنتظرينه مني، يا سيدتي.

سماعها تتكلم على هذا النحو، مغمومة من التأثر، ورؤية العذوبة والتوقير اللذين تنظر إليها بهما، اضطرّا فلورا إلى بذل جهد هائل، كي تمنع نفسها من البكاء معها. ضمتها بين ذراعيها، وقبلت جبهتها وخديها. زوج إلينور، وهو عامل صبّاغ، يداه ملطختان، لم يكن يفهم شيئاً:

- تقول إلينور إنك علمتها في هذه الأسابيع، أكثر من كل ما

تعلمته في حياتها، حتى الآن. وبدلاً من أن تفرح بذلك، تبكي! من يفهم هذا!

يا للصبية المسكينة، المتزوجة من مثل هذا الأبله. هل سيدمرها الزواج هي أيضاً؟ لا، أنتِ ستتولين حمايتها وإنقاذها، أيتها الأندلسية. تصورت فلورا طريقة جديدة للعلاقة بين الأشخاص، في المجتمع المتجدد، بفضل **الاتحاد العمالي**. الزواج الحالي، هذا الشراء والبيع للنساء، سيتبدل ليحل محله الاقتران الحر. وسيتحد الأزواج لأنهم متحابون، ولهم أهداف مشتركة. ولدى أدنى خلاف، ينفصلون بصورة ودية. ولن يكون للجنس، ذلك الطابع الطاغي الذي يتبدى في تصور فورييه للفالانستيرات؛ بل سيكون مُغَربِلاً، مكبوحاً، بحب الإنسانية. وستكون الشهوات أقل أنانية، لأن الأزواج سيكرسون شطراً مهماً من حنانهم للآخرين، من أجل تحسين الحياة المشتركة العامة. في ذلك المجتمع، يمكنكِ أنت وإيلنور أن تعيشا معاً متحابتين، مثل أم وابنتها، أو مثل أختين أو حبيبتين، متحدتين بالمثل العليا والتضامن مع الآخرين. ولن يكون لهذه العلاقة، ذلك الميل الإقصائي والأناني الذي كان لغرامياتكِ مع أوليمبيا - لهذا السبب قطعتها، متخلية عن التجربة الجنسية الوحيدة الممتعة في حياتك، يا فلوريتا - بل إن علاقتكما، على عكس ذلك، ستستند إلى الحب المشترك للعدالة والعمل الاجتماعي.

في اليوم التالي، بدأت العمل في روان، منذ وقت مبكر جداً. فالصحفي أغوست غويار، الليبرالي الكاثوليكي، إنما المعجب بفلورا، والذي علّق بحماسة على كتبها، عن البيرو وإنكلترا، كان قد رتب لها اجتماعات مع عدة جماعات، كل جماعة منها تضم حوالي ثلاثين عاملاً. لم تكن الاجتماعات بالغة النجاح. لكم يبدو عمال روان مستسلمين ومستكينين، بالمقارنة مع الكانوت الليونيين الواعين والقلقين. ولكنها بعد زيارة ثلاثة معامل أقمشة قطنية - الصناعة المحلية الكبرى التي تستخدم قرابة أربعة آلاف عامل -، فوجئت

فلورا بأن أولئك البائسين، بالرغم من الظروف التي يعملون فيها، ليسوا شديدي الفظاظة.

أسوأ تجربة عرفتها، كانت في ورش نسيج، يملكها عامل سابق، المسيو شريان، تحوّل الآن إلى أحد أغنى الرأسماليين في المنطقة، وأكبر المستغلين لأخوته السابقين. طويل القامة، قوي البنية، كثيف الشعر، سوقي، فظ السلوك، وتنبعث من إبطيه، رائحة مدوخة. استقبلها متفحصاً إياها بسخرية، من أعلى إلى أسفل، دون أن يواري الازدراء الذي توحي به إليه، وهو الرجل الظافر، تلك المرأة الضئيلة، الساعية إلى خلاص البشرية غير الضروري.

- هل أنت متأكدة من أنك تريدين النزول هناك؟ - سألها، وهو يشير إلى مدخل القبو، حيث الورشة، وأضاف:- سوف تندمين، إنني أحذرك.

- سنتحدث في ما بعد، يا سيد شريان.

ثمانون تعساً، محشورون هناك، بين ثلاثة صفوف متراصة من الأنوال، في مغارة خانقة، حيث من المستحيل، الوقوف بكامل القامة، بسبب انخفاض السقف. ولا يمكن التحرك بسبب الازدحام. إنه جحر فئران، أيتها الأندلسية. أحست أنها ستدوخ. أنفاس الفرن الملتهبة، العفونة، الضجة الباعثة على الصمم التي يحدثها ثمانون نولاً، تعمل في وقت واحد، سببت لها الدوار. وبصعوبة، كانت تصوغ الأسئلة الموجهة إلى تلك الكائنات شبه العارية، القذرة، العجفاء كهياكل عظمية، والمنحنية على الأنوال. كثيرون منهم لا يكادون يفهمونها، لأنهم لا يتكلمون إلا اللهجة العامية البورغونية. عالم أشباح، أطياف، أموات أحياء. يعملون منذ الخامسة فجراً حتى التاسعة ليلاً. ويكسب الرجال منهم، فرنكين اثنين يومياً؛ والنساء، ثمانين سنتيماً؛ والأطفال حتى سن الرابعة عشرة، خمسين سنتيماً.

عادت إلى السطح، مبللة بالعرق. صدغاها مشدودان، وقلبها متسرع، شاعرة في صدرها، ببرودة نزيله المكدر. قدم لها السيد شريان كأس

ماء، دون أن يتوقف عن ضحكه الفاجر.

- لقد حذرتك. ليس هذا بالمكان المناسب لسيدة محترمة، يا مدام تريستان.

بذلت «**المدام غضب**» جهدها للحفاظ على رصانتها، وقالت متهجية:

- أتظن أنه من العدل، أنت الذي بدأت حياتك عاملاً نساجاً، أن يعمل أخوتك في الرب، في مثل هذه الظروف؟ هذه الورشة أسوأ من كل زرائب الخنازير التي عرفتها.

- لا بد أنه عدل، وإلا لما طرق الباب هنا، كل فجر، عشرات الرجال والنساء، متوسلين منحهم عملاً - قال السيد شريان بتباه، وأضاف:- إنك تشفقين على أناس محظوظين يا مدام. إذا ما دفعتُ لهم أكثر، فسوف ينفقونه في الحانات. سيسكرون بذلك السم الذي يصيبهم بالجنون. أنت لا تعرفينهم. أما أنا فأعرفهم، لأنني كنت واحداً منهم.

في اليوم التالي، وبعد جولة منهكة في توزيع الطبعة الشعبية من ***الاتحاد العمالي***، على مكتبات روان، وزيارة مصنعيّ أقمشة آخرين، مماثلين في جهنميتهما لمصنع السيد شريان، ذهب أغوست غويار برفقة فلورا إلى مياه سانت أليان الساخنة. وكان مالكها، الدكتور إميل غوي، قارئاً معجباً بكتاباتها، خاصة بكتاب رحلتها إلى البيرو «**اغتراب منبوذة**»، فطلب منها أن توقع نسخته. إنه خمسيني أنيق، له سالفان أشيبان، وعينان نفاذتان، وحركات أرستقراطية، ولكنها لطيفة. كان الدكتور غوي يعيش مع امرأته الوديعة، وثلاث بنات سخيفات، في بيت فخم، يغص باللوحات والمنحوتات، وتحيط به الحدائق. أثناء العشاء الذي قدمه لها، لاحظت فلورا أن صاحب البيت ينظر إليها بإعجاب. لا تجتذبه مآثرك الثقافية فقط، وإنما كذلك سواد شعرك المجعد، وظُرف وحيوية عينيك، وتناسق ملامحك، أيتها الأندلسية. أحست بالنشوة، وفكرت: «هذا رجل،

ربما كنت ستتمكنين من تحمله في البيت». أراد الدكتور غوي أن يعرف إذا ما كان كل ما روته فلورا في «**اغتراب منبوذة**» صحيحاً، أم أنه مُجَمّل بالتخييل. لا، ليس مجملاً؛ فقد بذلت جهوداً كبيرة، كي تروي الحقيقة فقط، مثل روسو، في كتابه **اعترافات**. صحيح إذن أن تلك المغامرة التي لا تُصدق، قد بدأت مصادفة، في بنسيون باريسي، بفضل اللقاء مع ذلك القبطان العائد من البيرو؟

بالفعل، هكذا بدأت القصة التي جعلت منكِ ما أنتِ عليه الآن، يا فلوريتا. لقد أنقذك شابريه الطيب من أن تكوني طفيلية باهتة، تعيش حياة مستعارة، مثل زوجة الدكتور إميل غوي البدينة الذاهلة. أجل، في ذلك البنسيون الباريسي، حيث التجأت مع ألين، بعد ثلاث سنوات من العبودية والتردي المعنوي في العمل، كخادمة لدى أسرة سبينس. وكنت تفكرين في أنه مكان لن يعثر عليك فيه زوجك أندريه شازال الذي لا تزالين هاربة منه ومتخفية، رغم مرور زمن طويل. يا للمصادفات والتوافقات التي تحسم مصائر الأفراد، أليس كذلك يا فلوريتا؟ كم كان مسار حياتك سيتغير، لولا تلك الليلة، في قاعة الطعام الصغيرة، في البنسيون الباريسي، حيث كان النزلاء يتعشون، حين وجه إليك الجار الذي على الطاولة المجاورة، الكلام:

- اعذريني يا سيدتي. ولكنني سمعت صاحبة النزل تدعوك للتّو، باسم مدام تريستان. أهذه هي كنيتك؟ ألا تكونين من أقرباء أسرة تريستان، في البيرو؟

كان القبطان زكرياس شابريه، يقوم برحلات في سفينته، إلى تلك البلاد البعيدة. وقد تعرف هناك، في مدينة أريكيبا، على أسرة تريستان، الأكثر ازدهاراً ونفوذا في المنطقة كلها. إنها أسرة أعيان! وطوال ثلاثة أيام، في موعدي الغداء والعشاء، أخضعت فلورا البحار اللطيف للاستجواب، مستخلصة منه، كل ما يعرفه عن تلك الأسرة، أسرتك، لأن دون بيو، عميد أسرة تريستان ورأسها، لم يكن سوى الشقيق الأصغر لدون ماريانو، أبيك. وإلى دون بيو هذا، عمك شقيق

أبيك، كتبت أمك مرات كثيرة، منذ أن ترملت، طالبةً منه المساعدة، دون أن تتلقى أيَ ردٍّ قط. إنها تقلبات الحياة، يا فلوريتا. لولا تلك الأحاديث مع القبطان شابريه، سنة ١٨٢٩، ما كان سيخطر لك أبداً، أن تكتبي تلك الرسالة المحبة والمأساوية، إلى عمك الأريكيبي، دون بيو تريستان آي موسكوسو الواسع النفوذ، لتخبريه، بسذاجة، ستدفعين ثمنها غالياً، بالوضع الذي صرتِ إليه، أنت وأمك، بعد موت دون ماريانو، بسبب زواج والديك غير النظامي.

بعد مرور عشرة شهور، عندما كانت فلورا قد فقدت الأمل، جاء ردّ دون بيو. رسالة ماكرة ومحسوبة، بدل أن يدعوها فيها «ابنة أخي العزيزة»، يخبرها، بصورة حاسمة، بأن وضعها، كابنة طبيعية -آه، يا لصرامة القانون القاسي! - يحرمها من أي حق في وراثة «أخيه العزيز جداً، دون ماريانو». وهو ميراث، فوق ذلك، لا وجود له، لأن ممتلكات أبي فلورا، بعد تصفية الديون والضرائب، تبخرت ولم يبق منها شيء. ومع ذلك، فإن دون بيو تريستان، وفي لفتة كرم، أرسل إلى ابنة أخيه المجهولة في باريس، وعن طريق ابن عم له، يقيم في بوردو، ويدعى دون مريانو دي غوينتشي، هدية من ألفين وخمسمئة فرنك، وأعطية أخرى بقيمة ثلاثة آلاف بياسترا. وهذا المبلغ الأخير، من أم دون بيو ودون مريانو، جدة فلورا، السيدة القوية ذات التسعة والتسعين ربيعاً.

نزلت تلك النقود على فلورا، مثل بَرَكة من السماء. لقد كانت أزمنة صعبة، بسبب المطاردة الضارية التي يُخضعها لها أندريه شازال. كان قد اكتشف مكانها، في باريس، وادعى عليها أمام المحاكم، متهماً إياها بأنها زوجة وأم غير طبيعية. وكان يطالبها بابنيه اللذين ما زالا على قيد الحياة (كان ألكسندر، الابن البكر، قد مات قبل وقت قصير). استطاعت فلورا أن تدفع لمحام، وأن تدافع عن نفسها، وأن تطيل المحاكمة، وتُؤخِّر صدور حكم، يتوقع محاميها أنه لن يكون في مصلحتها؛ لأن القوانين السائدة، ضد المرأة التي

تهرب من بيت الزوجية. جرت محاولة لتسوية ودية، في بيت أحد أخوال فلورا، القومندان ليسني، في فرساي. وقد جاء أندريه شازال الذي لم تره منذ أربع سنوات، وهو يعبق بنتانة الكحول، وبعينين زجاجيتين، وفم يملؤه الغضب والتأنيب. كان شبه مجنون من الحقد والمرارة. «لقد أهنتِ شرفي أيتها السيدة»، كان يكرر ذلك بين لحظة وأخرى، مرتجفاً. وبعد أن كبحت نفسها لوقت طويل، مثلما توسل إليها محاميها، لم تستطع «**مدام غضب**» تحمل المزيد. تناولت طبقاً خزفياً، من رف قريب، وكسرته على رأس زوجها. فهوى على الأرض، متهالكاً، ومطلقاً زمجرة مفاجَأة وألم. فانتهزت فلورا البلبلة، وأمسكت بيد ابنتها الصغيرة ألين - وكانت العدالة قد أوكلت حضانتها إلى أبيها - وهربت. رفضت أمها توفير ملاذ لها، مؤنبة تصرفها الجنوني. ولم تكتفِ بذلك، بل أخبرت آندريه شازال (وفلورا متأكدة من ذلك) بمخبئها، في فندق بائس، في شارع سيرفاندوني، في الحي اللاتيني، حيث التجأت فلورا مع ابنتها ألين، وابنها إرنست كاميل. وذات صباح، بينما هي تغادر الفندق مع ابنها، اعترض زوجها طريقها. انطلقت راكضة، يتبعها شازال الذي أدركها عند أبواب كلية حقوق جامعة السوربون. انقض عليها وبدأ يضربها. كانت فلورا تدافع عن نفسها كيفما استطاعت، محاولة تلقي الضربات بمحفظتها، بينما إرنست كاميل يصرخ مذعوراً، وممسكاً برأسه. فصلت جماعة من الطلاب بينهما. وكان شازال يصيح إن هذه المرأة هي زوجته الشرعية، ولا يحق لأحد التدخل في نزاع زوجي. تردد محامو المستقبل. «هل صحيح ما يقوله يا سيدتي؟». وعندما اعترفت هي بأنها متزوجة من ذلك السيد، ابتعد الشبان، مرتبكين. «إذا كان زوجك، فلا يمكننا الدفاع عنك، يا سيدتي. القانون يحميه». فصرخت بهم فلورا: «أنتم خنازير أكثر من هذا الخنزير»، بينما كان أندريه شازال يجرها، بالقوة، إلى مركز الشرطة، في ساحة سان سولبيس. وهناك فُتح لها ملف، وقام المفوض بتوبيخها

وتحذيرها: لا يمكنها مغادرة الفندق في شارع سيرفاندوني. وقريباً ستتلقى أمراً بالمثول أمام السيد القاضي. أما أندريه شازال الذي هدأ، فقد انصرف، حاملاً بين ذراعيه، الصغير إرنست كاميل الذي كان يبكي صارخاً.

بعد ساعات من ذلك، كانت فلورا هاربة من جديد، ومعها ألين، في السادسة من عمرها. وبفضل الفرنكات والبياسترات الآتية من أريكيبا، هامت على وجهها قرابة ستة شهور، في مناطق فرنسا الداخلية، مبتعدة طوال الوقت، عن باريس، كأنها تبتعد عن الطاعون. كانت تعيش متيقظة ومحترسة، بأسماء مزيفة، في نُزُلٍ بالغة التواضع أو مساكن فلاحين، دون أن تطيل البقاء في أي مكان. كانت واثقة من أن هناك أمراً بالقبض عليها. وإذا ما أمسكت بها الشرطة، فإنها ستفقد ألين أيضاً، وستذهب إلى السجن. كانت تدعي أنها أرملة محزونة لموت زوجها، أو سيدة إسبانية منفية من بلادها، لأسباب سياسية؛ أو سائحة إنكليزية؛ أو أنها زوجة بحار يمضي مبحراً في بحر الصين، وأنها تسلو حنينها إليه، بالسفر والترحال. ولكي تكفيها النقود أطول مدة ممكنة، كانت تكاد لا تأكل، وتبحث في كل مرة عن مأوى أشد بؤساً. وذات يوم، في أنغوليم، هدها الإنهاك والغم والتردد. سقطت مريضة. وجعلها ارتفاع حرارتها تهذي. وكانت مدام بورزاك، صاحبة المزرعة التي أوت إليها، هي ملاكها الحارس، ومنقذة الصغيرة ألين. اعتنت بها، عالجتها، رفعت معنوياتها. وعندما روت لها فلورا، وسط الدموع، قصتها الحقيقية، طمأنتها بعذوبة غير محدودة:

- لا تقلقي يا سيدتي. لا يمكن للطفلة أن تواصل العيش هكذا، هائمة على وجهها في الدروب، مثل غجرية. دعيها معي إلى أن ترتبي وضعك. لقد أحببتها وسأعنى بها كأنها ابنتي.

- إنها أنبل وأكرم كائن عرفته - هتفت فلورا - لولاها لكنا أنا وألين قد متنا، في تلك الأيام الرهيبة. مدام بورزاك! فلاحة بائسة،

تكاد لا تعرف كتابة اسمها.

- أكنتِ آنذاك، قد قررت السفر إلى البيرو؟ - سألها الدكتور إميل غوين، وهو ينظر إليها بافتتان كبير، جعل فلورا تحمر خجلاً.

- وما الذي بقي لي؟ إلى أين يمكنني مواصلة الهرب من أندريه شازال، ومن العدالة الفرنسية التي لا تستحق هذا الاسم؟

ومن أنغوليم، كتبت رسالة إلى دون مريانو دي غوينتشي، ابن خال دون بيو تريستان الذي يعيش في بوردو. كانت فلورا قد تبادلت معه الرسائل من قبل، كي تتلقى النقود المرسلة إليها من أريكيبا. طلبت منه لقاء، بهدف إطلاعه على قضية حساسة ومستعجلة جداً. ويجب أن تكون في لقاء مباشر. وجاء رد دون مريانو دي غوينتشي، فورياً ووديا؛ فابنة دون مريانو تريستان، ابن خاله، يمكنها المجيء إلى بوردو، عندما تشاء. وستُستقبل على الرحب والسعة، وبكل ما في العالم من حنان. لم يكن لدى دون مريانو، أسرة. وأسعده أن يستضيفها، طوال الوقت الذي ترغب فيه.

- هنا يجب أن أقطع القصة - قالت فلورا، بصورة مفاجئة، وهي تنهض واقفة:- لقد تأخر الوقت كثيراً. وعلي أن أسافر في الصباح الباكر، إلى سانت إتيين.

عندما قبّل الدكتور غوين يدها، لدى الوداع، لاحظت فلورا أن شفتيه الرطبتين أطالتا ملامسة بشرتها، بصورة موحية. ففكرت باستياء: «إنه يشتهيني». وقد منعها الاستياء من النوم في ليلتها الأخيرة، في روان، وأبقاها متوترة ومعكرة المزاج، في اليوم التالي، خلال الرحلة في القطار، إلى سانت إتيين. وقد لاحقها الاستياء بطريقة ما، وحاصرها. ولم تستطع التخلص منه، طوال الأسبوع الذي أمضته في مدينة العسكريين البلهاء، وأشباه البلهاء تلك. ومدينة العمال الورعين والحمقى، المعصومين عن تقبل أي فكرة ذكية، وأي إحساس إيثاريّ، وأي مبادرة اجتماعية. الشيء الوحيد الطيب الذي حدث لها خلال الأسبوع، في سانت إتيين، هو

الرسالتان - الطويلتان والرقيقتان - اللتان تلقتهما من إلينور بلان. وقد ردت عليهما أيضاً، برسالتين مسهبتين. ومثلما توقعت، كانت لجنة ليون تتقدم بصورة جيدة.

فوجئت في ورش النسيج الأربع التي زارتها - اثنتان للرجال، وواحدة للنساء، وأخرى مختلطة - حين علمت أن العاملات والعمال يصلّون، في بداية يوم العمل ونهايته. وفي إحدى الورش، دعوها للانضمام إلى الصلاة. وعندما أوضحت لهم أنها ليست كاثوليكية، لأن الكنيسة في رأيها، مؤسسة مضطهِدة لحرية الإنسان، نظروا إليها برعب شديد، حتى إنها خشيت أن يشتموها. وقد خرجت، من جميع الاجتماعات، مقتنعة بأنها تضيع وقتها. وبالرغم من جهودها، لن تتمكن من كسب أحد تقريباً إلى صفوف **الاتحاد العمالي**. وبالفعل، لم تتمكن في النهاية من تشكيل لجنة من عشرة أعضاء، كما هي العادة. وكان عليها، أن تكتفي بسبعة، مع ارتيابها فوق ذلك، بأن نصفهم سينسحبون، فور مغادرتها.

وكي لا تكون زيارتها، إلى سانت إتيين، بلا طائل، انهمكت في تلك الدراسات الاجتماعية، وهي أكثر ما يروقها، بعد العمل السياسي. فمن منضدة في مقهى باريس، حيث اعتادت تناول الفطور والغداء، وأقامت صداقة مع صاحبته، شغلت نفسها في مراقبة ضباط الحامية الذين جعلوا من مقهى باريس، فرعاً لثكنتهم.

وسرعان ما توصلت إلى استنتاج أن العسكريين العاديين، هم أناس فارغون بالفطرة، وأن ضباط المدفعية، وإن كانوا يبلغون مستوى الكائنات البشرية الطبيعية، إلا أنهم يُظهرون عجرفة وتكبراً مقززين. وكما يبدو، فإن أولئك الضباط، وهم من أبناء الأسر المتمولة أو البرجوازية الكبيرة، ليس لديهم ما يفعلونه في الحياة، سوى المجيء إلى مقهى باريس، للعب الدمينو أو الورق، وللشرب، والتدخين، ورواية الدعابات، وتوجيه عبارات الغزل إلى السيدات اللواتي يجتزن الرصيف، بانتظار نشوب حرب ينشغلون بها. وقد حاولوا مغازلة

فلورا أيضاً، في أول الأمر. ولكنهم تخلوا عن ذلك، لأن ردودها الجريئة والساخرة أربكتهم. إنهم يحبون النساء المذعنات، مثل جنودهم وأحصنتهم. وقالت فلورا لنفسها إن موقفها كان حصيفاً ومصيباً تماماً، باتباعها تعاليم الكونت سان سيمون، بحظر صناعة كل أنواع الأسلحة، في المجتمع الجديد الذي يطرحه **الاتحاد العمالي**، وإلغاء الجيش.

نار الذكريات التي أُشعلت في العشاء، في بيت آل غوين، في روان، واصلت إطلاق الشرر، خلال زيارتها لسانت إتيين. فتلك الإقامة في بوردو، في المنزل الفخم الذي يقطنه دون مريانو دي غوينتشي، الثري بصورة لا تصدق، والذي أصر على أن تدعوه «العم مريانو»، وكان يدعوها دوماً، «ابنة الأخ فلورا». بدت لها خيالاً متحولاً إلى واقع. لم تدخلي قط، من قبل، بيتاً بمثل تلك الأبهة، ولم تري مثل ذلك العدد من الخدم، ولم يخطر لك من قبل، ما الذي يعنيه العيش كشخص ثري. لم تُعَامَلي قط، بكل ذلك الاهتمام، والملاطفة، والراحة. ومع ذلك، لم تكوني سعيدة تماماً، خلال تلك الشهور في بوردو، أيتها الأندلسية، لأنك لم تكوني معتادة بعد، على الكذب. كنت تعيشين في الخوف، في القلق، والارتياب، في فزع من أن تناقضي نفسك، أن تخالفي أقوالك، أن يُكتشف أمرك، وتُهاني، وتعادي إلى حقيقتك اليومية، على يد دون مريانو دي غوينتشي وظله، رجله الموثوق، سكرتيره وقندلفته: إسماعيليّو، **الخصي الإلهي**.

لقد ابتلع دون مريانو دي غوينتشي أكاذيب فلورا، دون أدنى شبهة. صدّق أنها، بعد موت أمها، منذ وقت قريب، ظلت وحيدة في الدنيا، بلا أقرباء ولا أصدقاء في باريس، وأنها فكرت - تلهفت، حلمت - في تلك الظروف، بالسفر إلى البيرو، إلى أريكيبا، لتتعرف على بلاد أبيها، وتتعامل مع أسرتها لأبيها، وتجوب أنحاء البيت الذي ولد فيه والدها. ستشعر هناك بأنها محمية، وتجد السلوى لخذلانها ووحدتها. ومسحت فلورا عينيها بمنديلها الشفاف، وشوهت صوتها،

وتصنعت البكاء. تأثر العجوز ذو الشعر الأبيض، والتقاطيع الصارمة، والملابس القاتمة التي تشبه مسوح الرهبان. وبينما هي تروي له نكبتها، أمسك يدها عدة مرات، مؤيداً ما تقوله. أجل، أجل يا فلوريتا؛ فشابة مثلها لا يمكن أن تبقى وحيدة في هذا العالم. ابنة ابن عمته مريانو تريستان يجب أن تسافر إلى البيرو، حيث سيمنحها عمها، وجدتها، وأبناء وبنات عمومتها الدفء والحنان اللذين سيملأان الفراغ الذي سببته وفاة أمها. سيكتب إلى العم بيو، يخبره بسفرها، وسيتولى هو نفسه البحث لها عن سفينة جيدة، ويوصي بها كي تقوم بالرحلة الطويلة، بكل آمان. وفي أثناء انتظار الأخبار من أريكيبا، لن تغادر فلورا بوردو، ولا هذا البيت الذي سيملؤه شبابها بالبهجة. كان دون مريانو دي غوينتشي سعيداً بمجيء ابنة عمه، لقضاء بضعة شهور برفقته.

أمضت سنة تقريباً، في منزل دون مريانو دي غوينتشي الفخم. وإذا كان الرجل لا يزال حياً، فلا بد أنه يكرهك ويزدريك، بقدر ما أحبك وحماك، قبل إحدى عشرة سنة. فقد صدّق الرجل أنك عازبة وعذراء، بينما أنت في الحقيقة، زوجة هاربة، وأم لثلاثة أطفال (اثنان على قيد الحياة، وواحد ميت)، ولم تكوني، فوق ذلك، قد فقدت أمك التي كانت لا تزال تعيش في باريس. وإن كانت قد ماتت في نظرك، لوقوفها إلى جانب أندريه شازال؛ فأنت لن تعودي لرؤيتها، أو الكتابة إليها. أي وجه سيكون قد أبداه دون مريانو دي غوينتشي، وهو يقرأ، في «**اغتراب منبوذة**»، حقيقة الأكاذيب التي جعلته يبتلعها؟ فابنة العم الطاهرة والبريئة، والتي دفع لها قيمة تذكرة السفر إلى البيرو، تبين أنها زوجة وأم مخزية، تطاردها الشرطة! لا بد أنه ذهب للاعتراف، وزاد في تلك الليلة، من شدّ ثيابه المتقشفة على جسده النحيل.

لقد كان، ومعه إسماعيليو، **الخصي الإلهي**، أشد الكائنات التي عرفتها فلورا، كاثوليكية. كاثوليكي بالغ الكمال، شديد الهوس، يبدو

لمبالغته فـي تدينـه، أقـرب إلـى الكاريكـاتير، منــه إلــى التديـن. وكـان فخـره الأكبر (ربمـا المغذى بحسـد سـريّ)، هـو كـون أخيـه الأصغـر، مطـران أريكيبـا. «أحـد أمـراء الكنيسـة، مـن الأسـرة، يـا فلوريتـا! أي شـرف وأي مسـؤولية!» وقـد ظـل عازبـاً، كـي يتـاح لـه إنجـاز واجباتـه، علـى أحسـن وجـه، تجـاه الكنيسـة والـرب. وإن لـم يـنـذر نفسـه للعفـة، والفقـر، والانصياع، وهـي أمـور تكفـل بهـا، علـى مـا يبـدو، إسـماعيليو. كان يذهب إلـى القداس كل يوم، فـي الكاتدرائية، ويرجع عـدة مـرات، كل أسبوع، إلـى الكنيسة فـي المساء، من أجل المباركة وصلاة السبحة. يجـر معـه فلـورا إلــى القداديـس، وصلـوات الغـروب، والتاسـوعات، وطقـوس التبخـير، والمواكب الدينيـة. وتبـذل هـي جـهوداً اسـتثنائية، لتتكلف ورعاً شبيهاً بورع دون مريانو فـي الصلاة: فـهو لا يجثـو علـى وسـادة الركـوع، بـل علـى البـلاط البـارد. يـداه علـى الصـدر، والعينـان مغمضتان، وجسـده بكامله، فـي حالة ندم ومذلـة، والملامـح مسـتغرقة فــي الـترتيل. كـان يـتردد علـى البيـت، أسـاقفة، وخوارنـة، ومديـرو الأعمال الخيرية، وراهبات الإحسان، والجمعيات الدينيـة. وكـان دون مريانو يستقبل الجميع بمودة، ويقدم لهم فناجين شوكولاته، يتصاعد منـها البخـار، «مجلوبـة مـن كوسـكو»، ومعـها بسـكويت وحلويـات، ويودِّعهم بصدقات سخية.

منزله الحجري الشاسـع، فـي حي سان بيير، فـي وسط بوردو، كان يبــدو أشـبه بديـر؛ فـهو يغـص بتمــاثيل المصلوبـين والمقدسـات، وبسجاجيد ولوحات موضوعات دينيـة. وفضـلاً عـن المصلـى القديـم، كانت هناك فـي الزوايـا، مذابـح صغيرة، وقنـاطر صغيرة، وصنـاديق مزينة برسوم شهيدات وقديسين، يُحرق فـيها البخـور. ولأن السـتائر السـميكة تبقـى مسـدلة عـادة، فقـد كـانت تخيـم علـى البيـت القديـم والفسيح، عتمـة دائمـة، وهـواء انطـواء وتخـل دنيوي يبعـث القشـعريرة فــي جسـد فلــورا. وبوحـي مـن ظليليـة المكـان ومهابتـه، كـان النـاس يتكلمـون بصـوت خـافت، مخافـة أن يقـترفوا إهانـة، إذا مـا أحدثـوا

ضجة، في ذلك المكان الجنائزي والروحاني.

كان **الخصي الإلهي** شاباً إسبانياً ممتلئاً بالمعارف في موضوع الاقتصاد، حسب قول دون مريانو. وكان يتولى إدارة أملاك السيد غوينتشي وموارده. ولكنه، ربما يدخل ديراً في المستقبل. وكان يعيش في جناح من البيت الفسيح، مؤلف من مكتبه وغرفة نومه بالغا التقشف، مثل حجرتي دير مغلق. وفي موعد العشاء، كان دون مريانو يطلب من الرب مباركة الطعام. وعلى الغداء يفعل ذلك إسماعيليو، فيتصنع في صوته، ويبدي وجهاً شديد البلاهة والملائكية، تتكلف معه فلورا مشقة في كبح ضحكها. وأكثر من كونه أنيقاً، كان جميلاً، بوجهه الوردي الحليق، وقامته النحيلة، ويديه، بأظفارهما المقلمة والملمعة، الناعمتين مثل بشرة طفل حديث الولادة. وكان يرتدي كذلك ثياباً مكفهرة، مثل ملابس صاحب المنزل. ولكنه، خلافاً لدون مريانو دي غوينتشي الذي يبدو مرتاحاً تماماً، باستسلامه الكامل، جسداً وروحاً، لمحبة الرب والممارسات الدينية، كان هناك، في حركات الشاب الإسباني - لا بد أنه في مثل سن فلورا، أي حوالي ثلاثين أو اثنتين وثلاثين سنة، على أبعد تقدير - وفي كلامه، وسلوكه، ما يشي بتناقض دون حلّ، بتمزق وانقسام بين الأشكال الخارجية لسلوكه، وحياته الحميمة. فهو يبدو لفلورا، في بعض الأحيان، كائناً ملائكياً، حمله إيمان ديني متوقد إلى التخلي عن كل المتع والشهوات. اعتزل العالم ليكرس نفسه من أجل خلاص روحه، ومن أجل الرب. ولكن الشكوك تراودها، في أحيان أخرى، بأن فيه كائناً منافقاً، متكلفاً، يخفي وراء تواضعه، وتقشفه، وطيبته، شخصاً صفيقاً، يبدي ما هو ليس فيه حقيقة، كي يكسب ثقة دون مريانو، ويزدهر في ظله، ويرث بعد ذلك، ثروته.

كانت تلحظ، فجأة، في عيني إسماعيليو، بعض ومضات الجشع التي تحملها على الارتياب. وكانت تعمد، في بعض الأحيان، إلى استثارتها، ليس دون خبث، برفع تنورتها بإهمال، في جلسات السمر،

بحيث يظهر كاحلها الناعم، أو تبدي تلهفاً، ظاهرياً، إلى عدم إضاعة حرف مما يرويه إسماعيليو، فتقترب منه، إلى حد يشمها معه الشاب الإسباني، ويشعر بأن بشرتها تلامسه. عندئذ، يفقد السيطرة على نفسه، فيشحب لونه أو يحمر، ويضطرب صوته، وتختلط عباراته، ويقفز من موضوع إلى آخر، دون أي ترابط. لقد تعلق بهذه الفتاة، في ذلك البيت القديم العابق بالقداسة، فور رؤيته لها. وقد عرفت فلورا ذلك، منذ اليوم الأول. لقد وقع في حبكِ، ولا بد أن هذا يمزقه. ولكنه لم يتجرأ قط، على قول شيء لَكِ، يتعدى الصداقة التقليدية. ومع ذلك، فإن عينيه تخونانه، وكثيراً ما تفاجئ فلورا فيهما، ذلك الوميضَ الجزعَ الذي يريد أن يقول: كم أتمنى أن أكون حراً، وأن أقول لكِ ما أشعر به، أن أمسكَ يدكِ وأقبّلها، أن أتوسل إليكِ بأن تسمحيَ لي بمغازلتك، بحبك، أن أطلب منكِ أن تكوني امرأتي، وأن تعلميني السعادة.

خلال السنة التي أمضتها في ذلك البيت، ريثما يُحسم أمر رحلتها إلى البيرو، كانت فلورا تعيش مثل أميرة، بالرغم من ضجرها من الممارسات الدينية الدائمة. ولولا القراءة – لم تقرأ في حياتها قط، قدر ما قرأت خلال تلك الشهور، في مكتبة دون مريانو الضخمة – ورفقة **الخصي الإلهي** وورعه، لكان الوضع أسوأ بكثير. كان إسماعيليو يرافقها للقيام بنزهات طويلة، على ضفاف نهر غارون، أو في الريف المجاور، حيث الكروم على امتداد النظر، ويسليها بالحديث عن إسبانيا، وعن دون مريانو، وعن مكايد أسر بورودو الكبيرة التي يعرفها بالتفصيل. وذات يوم، بينما هما يلعبان الورق، بجانب المدفأة، لاحظت فلورا أن الشاب ينقل يده، طوال الوقت، بعصبية كبيرة، إلى بنطاله، ويحكه، كما لو أنه يُبعد حشرة أو يشكو من حرقة. فراحت ترصد حركاته، خفية. أجل، ليس هناك أدنى شك: مثل من لا يريد الأمر، كان يكافئ نفسه، مستثاراً لقرب فلورا منه. وكان يفعل ذلك، هناك بالذات، تحت نظرها تقريباً،

وتحت نظر دون مريانو الذي كان يقرأ في كرسيه الهزاز، كتاباً مغلفاً بجلد. ولكي يجعله يمر بلحظة عصيبة، رجاه فجأة، أن يأتيه بكأس ماء. احمر وجه إسماعليو مثل مشعل، وحاول كسب الوقت بالتظاهر بأنه لم يسمع جيداً. وأخيراً نهض مجانبة ومنحنياً، ومع ذلك، رأت فلورا انتفاخ بنطاله. وفي تلك الليلة، سمعته ينتحب، جاثياً في المصلى. أتراه يجلد نفسه أيضاً؟ منذ ذلك الحين، شاب علاقتها بالشاب الإسباني، إحساس بالشفقة ممزوج بالاستياء. كنت تشفقين عليه يا فلورا. ولكنك تشعرين في الوقت نفسه، بالاشمئزاز أيضاً. لقد كان طيباً، ويتألم دون شك. ولكن، أي رغبة تلك، في إضافة عذابات إلى ما تقدمه الحياة. ما الذي حلّ به يا ترى؟

أطرف تجربة مرت بها فلورا، خلال وجودها في سانت إتيين، كانت زيارتها لمصنع الأسلحة، المجاور للحامية. حصلت على تصريح بالزيارة، بفضل ثلاثة برجوازيين فالانستيريين، أصدقاء للكولونيل قائد الموقع العسكري الذي كلّف أحد مساعديه، وهو نقيب له شارب رفيع جداً ومشذب، بأن يرافقها. أضجرتها الشروح عن الأسلحة التي تُصنع هناك، حتى إنها كانت تفكر في أمور أخرى، أثناء تلك الشروح. ولكن، لدى انتهاء الزيارة، قدم لها مدير المصنع، وهو مدني، وعدة عسكريين من سلاح المدفعية، شراباً مرطباً. ودار الحديث أثناء ذلك، حول موضوعات تافهة. وفجأة، سألها نقيب المرافقة، بحياء شديد، إذا ما كانت صحيحة، الإشاعاتُ القائلة إن لدى مدام تريستان ميولاً سلمية غريبة. أرادت أن ترد عليه، بعبارة متهربة - فقد كانوا بانتظارها، في ورشة عمال صانعي حبال، في حي سان بينوا، ولا تريد إضاعة الوقت، في نقاشات عقيمة - ولكنها حين رأت وجوه الضباط المحيطين بها المتفاجئة، تحمل ملامح التأنيب الصريح أو السخرية، لم تستطع كبح نفسها:

- إنها صحيحة جداً أيها النقيب! إنني داعية سلام، بالطبع. ولهذا، يقر مشروعي للاتحاد العمالي، حظر الأسلحة، في مجتمع

المستقبل، وإلغاء الجيوش.

بعد ساعتين من ذلك، كانت لا تزال تناقش، بحمية، أولئك المحاورين المستنكرين. وقد تجرأ أحدهم على القول، غاضباً، إن حمل مثل هذه الأفكار «لا يليق بسيدة فرنسية».

- وطني، قبل فرنسا، هو الإنسانية، يا سيدي - قالت لتضع بذلك حداً للقاء - شكراً لمرافقتكم. عليّ أن أغادر.

خرجت من هناك، مرهقة من الجدال. ولكنها مستمتعة، لأنها بلبلت أولئك المدفعيين المتبجحين بأفكارهم المنحلة الفاسدة. كم تبدلتِ يا فلورا منذ أن كنت تأوين في منزل دون مريانو دي غوينتشي، وتستعدين للسفر إلى البيرو، لتهربي من مطاردة أندريه شازال. لقد كنتِ امرأة متمردة. أجل، إنما مشوشة وجاهلة، وبلا أي توجه ثوري بعد. لم تكن تخطر ببالكِ، إمكانية النضال، بصورة منظمة، ضد هذا المجتمع الذي يسمح باستعباد النساء، تحت ذريعة الزواج. كم أفادتك التجربة البيروية. لقد بدلتكِ تماماً، تلك السنة، في أريكيبا، وفي ليما.

أعطى دون بيو تريستان موافقته، وإن يكن دون حماسة، على سفر فلورا. الأسرة ستستضيفها في البيت الذي ولد فيه أبوها، وأمضى فيه طفولته وشبابه. بدأ دون مريانو دي غوينتشي وإسماعيليو الاستفسار عن السفن المغادرة إلى أميركا الجنوبية، خلال الأسابيع التالية. وجدا ثلاث سفن: **كارل أدولف**، و**فليتس**، و**المكسيكي**. السفن الثلاث ستغادر خلال شهر شباط ١٨٣٣. ذهب دون مريانو بنفسه، لتفقد السفن الثلاث. استبعد السفينتين الأوليين؛ لأن **كارل أدولف** مغطاة بالرقع، وقديمة جداً. أما **فليتس**، فسفينة جيدة، لكنها ستمر على نصف الساحل الأفريقي، قبل أن تتوجه إلى أميركا الجنوبية. وتبين له، أن **المكسيكي** هي الخيار الأفضل. إنها سفينة صغيرة، ولا تتوقف إلا في محطة واحدة، قبل أن تتوجه، عبر مضيق ماجلان، إلى مدينة بالبارايسو. ومدة الرحلة تزيد قليلاً، على ثلاثة شهور.

بعد اختيار السفينة، وحجز القمرة، لم يبق إلا انتظار موعد السفر. منذ أن استقرت في بوردو، بذل دون مريانو وأسماعيليو جهودهما، لجعلها تمارس معرفتها الضئيلة بالإسبانية، اللغة التي تتذكر فلورا منها كلمات متفرقة، وعبارات سمعتها في طفولتها، في بيت أبويها، في فوجيرار، من فم أبيها. وقد تولى الاثنان بجدية بالغة، دورهما كأستاذين. وصار بإمكان فلورا، بعد تلك الشهور، متابعة حواراتهما والتخبط بالإسبانية.

لم تعلم من خدم السيد غوينتشي، باللقب المشين الذي يطلقه مجتمع بوردو، على إسماعيليو، وإنما علمت به من الضحية نفسه مباشرة، خلال إحدى النزهات الطويلة التي اعتادا الخروج فيها، على ضفاف نهر غارون العريض، أو في الريف المتاخم للمدينة. وكان يبدو لفلورا، في أثناء تلك النزهات، أنها تشعر بالجهود، بالمعركة الصامتة والضارية التي تدور في قلب الشاب، ليعترف لها - أو كي لا يعترف لها - بالعاطفة التي تلهمه إياها.

- لا بد أنكِ سمعت باللقب الذي يطلقه علي الناس، في بوردو، من وراء ظهري.

- لا، لا أسمع أي شيء. هل تعني اسماً مستعاراً؟

- بل اسماً مبتذلاً وساخراً - قال الشاب، وهو يعض شفتيه:- إنهم يدعونني **الخصي الإلهي**.

- إنه مبتذل. أجل - هتفت فلورا، مرتبكة - وتهكمي إلى حد ما. ولكنه غبي قبل كل شيء. لماذا تخبرني بذلك؟

- لا أريد إخفاء أي سر عنك، يا فلورا.

صمت، مطرقاً رأسه، ولم ينطق كلمة أخرى، بقية النزهة، كما لو أن القدر المحتوم قد أخمد عزيمته. لقد كانت تلك هي اللحظة، مثلما اعتقدتِ أنت، يا فلوريتا، التي كان فيها الشاب، أقرب من أي وقت آخر، إلى التخلي عن نذره الدينية، وإخبارك بأنه إنساني، وليس إلهياً، وأنه يحلم بأن يمتلك بين ذراعيه، امرأة جميلة وواعية،

مثلك. لقد أحسن صنعاً، بعدم فعل ذلك. فعلى الرغم من القذارات التي كنت تكتشفينها فيه، أحياناً، توصلتِ إلى الشعور نحوه، بمودة مختلطة بالشفقة.

زيارة العمالِ صانعي الحبال، في حي سان بينوا، أغضبتك وأحبطتك. كانوا حوالي عشرين عاملاً، صماً، آمين، بلهاء، يخلون من أدنى قدر من الفضول. بدا لها أنها تتكلم إلى أشجار أو أحجار. لقد كان تحويل ضباط مقهى باريس المتأنقين إلى ثوريين، أسهل عليها، من تحويل هؤلاء التعساء، المخبولين من الجوع والاستغلال، الذين اعتصر البرجوازيون منهم، آخر ذرة من الذكاء. وعندما حان موعد توجيه الأسئلة، وألمح لها أحد النساجين بأنها، حسب الإشاعات. تغتني من بيع نسخ كتابها ***الاتحاد العمالي***، لم تجد الحماسة، حتى للغضب.

في اليوم الذي عرفت فيه، الموعد النهائي لانطلاق السفينة **المكيسكي**، من ميناء بوردو إلى البيرو - في السابع من نيسان ١٨٣٣، الساعة الثامنة صباحاً، للاستفادة من ارتفاع المد - علمت أيضاً، أن قبطان السفينة التي ستسافر فيها، هو زكرياس شابريه! عندما سمعت مريانو دي غوينتشي ينطق ذلك الاسم، أحست بأن صاعقة نزلت عليها. زكرياس شابريه! القبطان الذي عرفته في ذلك البنسيون، في باريس، وأخبرها عن أسرة تريستان في مدينة أريكيبا. لقد تعرف ذلك القبطان على ابنتها ألين. وحين سيرى فلورا محاطة بمريانو وإسماعيليو، سيبادر إلى القول لها «سيدتي»، وسيسألها عن «ابنتها الجميلة». وستنهار كل أكاذيبكِ، وتهوي عليكِ ونسحقك، يا أندلسية.

أمضت ليلة مؤرقة. صدرها منقبض من الغم. ولكنها كانت قد اتخذت قراراً، في صباح اليوم التالي. خرجت إلى الشارع، متذرعة بنذر للقديسة كلارا، عليها أن تفي به وحدها، وطلبت من عربة مستأجرة، أن توصلها إلى المرفأ. كان العثور على مكاتب الشركة

سهلاً. وبعد نصف ساعة من الانتظار، ظهر القبطان زكرياس شابريه، في باب المحل. تعرفت على قامته الطويلة، وشعره الخفيف المتفرق، ووجهه البريتاني المدور، الشهم والريفي، وعينيه الطيبتين. وتعرف هو عليها، في الحال.

- مدام تريستان! - انحنى ليقبل يدها - كنت أتساءل، حين رأيت قائمة المسافرين، إذا ما كنتِ أنت نفسك المعنية. ستسافرين معي، في المكسيكي، أليس كذلك؟

- أيمكننا التحدث لحظة على انفراد؟ - أومأت فلورا، متخذة هيئة مأساوية، وأضافت:- إنها مسألة حياة أو موت، يا سيد شابريه.

أدخلها القبطان إلى غرفة مكتب، وهو مرتبك، وقدم لها ما يُفترض أنه مقعد، وهو أريكة عريضة، لها مسند للقدمين.

- سأثق بحضرتك، لأنني موقنة من شهامتك.

- ولن أخيب أملك، يا سيدتي. كيف يمكنني أن أخدمك؟

ترددت فلورا بضع ثوان. كان شابريه يبدو واحداً من أولئك البريتانيين ذوي التقاليد القديمة. ومع أنه جاب كل بحار العالم، إلا أنه لا يزال ملتصقاً بثبات، بالقيم التقليدية، والمبادئ الأخلاقية والدين.

- أرجوك ألا توجه إليّ، أية أسئلة - توسلت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع - سأشرح لك كل شيء، حين نصير في عرض البحر. ما أحتاج إليه، في يوم الانطلاق، عندما أجيء إلى هنا، مع من يرافقونني، أن تحييني، كما لو أنك تراني أول مرة. لا تخذلني. أتوسل إليك بأعز ما تحب، أيها القبطان. هل تعدني بذلك؟

أومأ زكرياس شابريه، موافقاً، بكل جدّ.

- لا أحتاج إلى أي تفسير. فأنا لا أعرفك. ولم أركِ قط، مَن قبل. وسوف أتشرف بالتعرف إليك، يوم الثلاثاء، في الساعة الثامنة، عند الانطلاق.

VIII. صورة ألين غوغان

بوناويا، أيار ١٨٩٧

في الثالث من تموز ١٨٩٥، صعد بول، في مرسيليا، إلى السفينة «*الاسترالي*» مستنفداً، ولكنه سعيد. كان قد عاش الأسابيع الأخيرة مغموماً، يخشى من موت مفاجئ. لم يشأ لرفاته أن يتعفن في أوروبا، وإنما في بولينيزيا، بلاده بالتبني. أنتَ تتفق، في هذا الأمر، على الأقل مع جنون جدتك فلورا الأممي، يا كوكي. المكان الذي تولد فيه هو أمر عابر؛ أما الوطن الحقيقي فيختاره المرء، بجسده وروحه. وأنت اخترت تاهيتي. ستموت كمتوحش، في بلاد المتوحشين الجميلة تلك. كانت هذه الفكرة تزيح عن كاهله، حملاً ثقيلاً. ألا يهمكَ أنك لن ترى أبداً، أبناءك وأصدقاءك، يا بول؟ وأنك لن ترى دانييل، ولا شوف الطيب، وتلاميذك الآخرين في بون-أفين، والزوجين مولار؟ ياه، لم يعد يهمك كل ذلك أدنى اهتمام.

عند توقف السفينة في بور سعيد، قبل أن تبدأ باجتياز قناة السويس، نزل يتجول بفضول، في السوق المرتجل، إلى جوار جسر النزول إلى البر. وفجأة، وسط حشد أصوات وصرخات الباعة العرب، واليونانيين، والأتراك الذين يعرضون أقمشة، وحلياً رخيصة، وتمراً، وعطوراً، وحلويات بالعسل، اكتشف وجود رجل نوبي، يعتمر عمامة مائلة إلى الحمرة، يغمز له ببذاءة، ويريه شيئاً يخبئه بين يديه الغليظتين. إنها مجموعة فاخرة من الصور الإيروتيكية، في حالة جيدة، تظهر فيها كل الأوضاع والتوليفات التي يمكن تصورها، بما في ذلك، امرأة يلوط بها كلب. اشترى منه الخمس والأربعين صورة، على الفور. ولسوف تغني صندوق صوره، وأشيائه وغرائبه، الذي خلّفه مودعاً في مستودع، في بابيتي. وقد ابتهج، وهو يتصور ردود

فعل التاهيتيات، عندما سيعرض عليهن هذه الصور الجنونية.

مشاهدة تلك الصور، والتخيل انطلاقاً منها، كانت واحدة من تسلياته القليلة، خلال الشهرين الطويلين اللذين دامتهما الرحلة إلى تاهيتي، مع توقف في سدني، وفي أوكلاند، حيث اضطر للبقاء ثلاثة أسابيع، بانتظار سفينة يمر طريقها من الجزر. وصل إلى بابيتي في الثامن من أيلول. دخلت السفينة إلى البحيرة، وسط عربدة الأضواء العظمى في الفجر. أحس بسعادة لا توصف، كما لو أنه يعود إلى بيته، وكما لو أن هناك، سحابة من الأقارب والأصدقاء، تنتظره للترحيب به، في المرفأ. غير أن أحداً لم يكن بانتظاره. وقد تكلف مشقة في العثور على عربة كبيرة بما يكفي، تتسع لكل أمتعته من الحزم، والصناديق، واللفافات القماشية، وعلب الألوان، وحملها إلى نزل صغير يعرفه، في شارع بونار، في مركز المدينة.

كانت بابيتي قد تغيّرت في سنتي غيابه: فهناك الآن نور كهربائي. ولم يعد للياليها تلك الأجواء، بين المبهمة والمظلمة التي كانت لها من قبل، ولا سيما في المرفأ، وباراته السبعة التي صارت الآن عشرة. وفي النادي العسكري، الذي يرتاده المستوطنون والموظفون المدنيون أيضاً، أقيم الآن، وراء سياجه ذي الأعمدة، ملعب تنس جديد. رياضة لن تتمكن من ممارستها أبداً، يا بول، وقد صرت مضطراً إلى المشي مستنداً إلى عكاز، بعد الضرب الذي نلته في كونكارنو.

لقد سكن ألم كاحله خلال الرحلة. ولكنه ما إن وطأ أرض تاهيتي، حتى عاد يتزايد، إلى حد طرحه يئن في الفراش، في بعض الأيام. لم تكن المسكنات تؤثر فيه، وإنما الكحول وحده، عندما يشرب إلى أن ينعقد لسانه، ويكاد يعجز عن الوقوف على قدميه. وكذلك صبغة الأفيون التي وافق صيدلي، في بابيتي، على أن يبيعه إياها، دون وصفة طبية، مقابل إكرامية باهظة.

كانت الغيبوبة الغبية التي تُغرقه فيه جرعات الأفيون، تبقيه مطروحاً لساعات، في حجرته، أو على أريكة الشرفة، في النزل

المتواضع الذي واصل الإقامة فيه، في بابيتي، بينما كانوا يبنون له، في قطعة أرض اشتراها في بوناويا، على بُعد حوالي اثني عشر كيلومتراً من العاصمة، كوخاً من قصب البامبو، بسقف من سعف النخيل المجدول، قام في ما بعد، بتزيينه وتأثيثه ببقايا مسكنه السابق، والأشياء القليلة التي جلبها معه من فرنسا، وأشياء أخرى اشتراها من سوق بابيتي.

قسم الغرفة الوحيدة بستارة عادية، كي يكون جزء منها غرفة نوم، والجزء الآخر مرسماً له. وعندما نصب حامل اللوحات، وأخرج أقمشة لوحاته وألوانه، شعر بتحسن في معنوياته. ولكي يوفر إضاءة جيدة، قام هو نفسه، بمشقة، بسبب ألم كاحله المزمن، بفتح كوة في السقف. ومع ذلك، ظل غير قادر على الرسم، طوال عدة شهور. نحت بعض الأعمال الخشبية، وعلقها على جدران الكوخ. وكلما سمحت له بثور ساقيه وألم كاحله - فالداء الذي لا يُسمى، بدأ يعاوده، بانتظام دوري - كان يصنع تماثيل آلهة، يعمدها بأسماء آلهة الماووري القديمة: هينا، أوفيري، أريوري، تي فاتو، تاورا.

وخلال كل ذلك الوقت، نهاراً وليلاً، في صحوه، أو غيبوبته في الدوار الهلامي الذي يذيب فيه الأفيون دماغه، كان يفكر في ألين. ليس ابنته ألين - وهي الوحيدة من أبنائه الخمسة من مِت غاد التي يتذكرها أحياناً - وإنما أمه: ألين شازال التي تحولت إلى مدام ألين غوغان، عندما قام أصدقاء فلورا السياسيون والمثقفون، بعد موتها، وهي قلقة على مستقبل ابنتها الصبية اليتيمة، بتزويجها سنة ١٨٤٧، من الصحفي الجمهوري كلوفيس غوغان، أبيه. زواج مأساوي يا كوكي، وأسرة مأساوية هي أسرتك. توالى شلال الذكريات يوم بدأ بول، أخيراً، بإلصاق صور بور سعيد، على جدران مرسمه الجديد، في بوناويا. صورة الموديل التي تلوذ بين ذراعي فتاة أخرى، عارية مثلها، وتنظر مواجهة إلى المصور، كان لها شعر أسود من ذلك النوع الذي يسميه الباريسيون «أندلسي»، وعينان واسعتان، هائلتان،

فاترتان، تذكرانه بشخص ما. أحس بالقلق، دون أن يدري السبب. بعد ساعات من ذلك، تذكر الشخص. إنها أمك يا بول. عاهرة الصورة فيها شيء من تقاطيع، ومن شعر، وعيني ألين غوغان الحزينتين. ضحك واغتم. لماذا تتذكر أمك الآن؟ لم يحدث له ذلك منذ ١٨٨٨، عندما رسم صورتها. لقد مضت سبع سنوات دون أن تتذكرها. والآن، تعشش في وعيكَ ليلاً ونهاراً، كفكرة ثابتة. ولماذا تتذكرها بهذا الشعور، بهذا الحزن الممض الذي يرافقك منذ أسابيع، منذ شهور، مع بدء إقامتك الثانية في تاهيتي؟ الغريب ليس تذكر أمه الميتة منذ زمن بعيد، وإنما مجيء ذكراها مضمخة بهذا الإحساس بالنكبة والحزن.

لقد علم بموت ألين شازال، أمه الأرملة، سنة ١٨٦٧ - قبل ثمانية وعشرين عاماً يا بول! - وهو في أحد موانئ الهند، خلال توقف السفينة التجارية شلي التي كان يعمل فيها، مساعداً من الفئة الثانية. كانت ألين قد توفيت في باريس النائية، في الحادية والأربعين من عمرها، السن نفسها التي توفيت فيها الجدة فلورا. لم تشعر آنذاك بالأسى الذي تشعر به الآن. «حسن»، كنت تردد، مُظهراً ملامح تتلاءم مع ذلك الظرف، وأنت تتلقى تعازي ضباط السفينة شلي وبحارتها: «جميعنا سنموت. اليوم أمي. وغداً نحن».

ألم تحبها قط، يا بول؟ لم تكن تحبها عندما ماتت. هذا صحيح. ولكنك أحببتها كثيراً، في طفولتك، هناك في ليما، عند العم دون بيو تريستان. فإحدى أكثر ذكريات طفولته صفاء، هي ذكرى الجمال والظرف اللذين كانت تبدو فيهما الأرملة الشابة، في ذلك البيت الكبير، حيث يعيشون كملوك، في حي سان مارثيلو، وسط ليما، عندما كانت ألين غوغان تلبس، كسيدة بيروية، وتلف جسدها، الرقيق بذلك الرداء الكبير المطرز بالفضة، وتغطي به، على طريقة النساء البيرويات، رأسها ونصف وجهها، كاشفة إحدى عينيها فقط. كم كان بول وشقيقته ماريا فرناندا يشعران بالفخر، عندما تمتدح

قبيلة آل تريستان وآل إتشينيكي، أمهما ألين شازال، أرملة غوغان: «كم هي جميلة!». «إنها رسم. طيف».

أين هي تلك الصورة التي رسمتَها لها، سنة ١٨٨٨، مستعيناً بذاكرتك، وبالصورة الفوتوغرافية الوحيدة التي تحتفظ بها لأمك، المختلطة بما في صندوق العجائب والغرائب؟ إنها لم تُبَع، على حدّ علمك. أتكون لدى مت، في كوبنهاجن؟ يجب أن تسألها عنها، في رسالتك القادمة. أتكون بين اللوحات التي لدى دانييل، أو الطبيب شوف؟ ستطلب منهما أن يرسلاها إليك. إنك تتذكرها بأدق التفاصيل: خلفية صفراء مع شيء من الخضرة، كما في الأيقونات الروسية. لون يُبرز شعر ألين غوغان الطويل الأسود. شعرها الذي يتهدل على كتفيها في انحناءة لطيفة، وتثبته عند الرقبة بشريط بنفسجي، معقود على شكل زهرة يابانية. إنه شعر أندلسية حقيقي، يا بول. لقد عملتَ كثيراً، كي تبدو عيناها، مثلما تتذكرهما، واسعتين، سوداوين، فضوليتين، خجولتين قليلاً، وحزينتين كثيراً. بشرتها شديدة البياض، تكتسب حيوية في خديها، بالتورد الذي يطل منهما، عندما يتوجه إليها أحد بالكلام، أو تدخل غرفة فيها أناس لا تعرفهم. الخجل والتحفظ الكامل، هما الملمحان البارزان في شخصيتها. وتلك القدرة على المعاناة بصمت، دون احتجاج؛ ذلك التقشف الذي كان يستثير- هي نفسها أخبرتك - حفيظة الجدة فلورا، **المدام غضب**. أنتَ واثق من أن لوحتك «*صورة ألين غوغان*» تبدي ذلك كله، وتُخرج إلى السطح، المأساة الطويلة التي كانتها حياة أمك. عليك أن تستقصي عن مكان وجود تلك اللوحة، وأن تستعيدها يا بول. سترافقك هنا في بوناويا، ولن تشعر بأنك وحيد، مع هذه القروح المفتوحة في ساقيك، والكاحل الذي خلّفه لك أطباء بريتاني الأغبياء، معطوباً.

لماذا رسمتَ تلك الصورة، في كانون الأول ١٨٨٨؟ لأنكَ علمت، من غوستاف أروزا، في محاولته الأخيرة الفاشلة للتقارب بينكما، بأمر

تلك المحاكمة المقززة. كشفٌ، بعد الموت، صالحك مع أمك؛ ليس مع الوصي عليك، وإنما معها هي. أتصالحت معها حقاً يا بول؟ لا. لقد كنتَ بربرياً، إلى حد أن معرفتك بمحنة أمك، وهي طفلة - سمح لك غوستاف أروزا بقراءة كل وثائق المحاكمة، لأنه فكر في أنك ستصادقه، إذا ما شاركته حزنه - لم تنتزع منك الضغينة التي كانت تنهش قلبك، منذ أن تركتك ألين، لدى العودة من ليما، وبعد بضع سنوات من العيش عند العم زيزي، في أورليان. تركتك هناك، في مدرسة داخلية، يديرها رهبان المنسنيور دوبانلوب، وذهبت هي إلى باريس، لتصير عشيقة غوستاف أروزا، الوصي عليك، وتعيش في كنفه! لم تسامحها قط. يا كوكي. لا على تركها إياك في أورليان، ولا على كونها عشيقة غوستاف أروزا، المليونير، المولع بالرسم وباقتنائه. أي نوع من المتوحش كنت، أنت أيها المنافق بول؟ مكمورة أحكام مسبقة برجوازية، هذا هو ما كنته. وزمجر: «إنني أسامحك الآن، يا أماه. سامحيني أنتِ أيضاً إذا استطعتِ». كان مخموراً تماماً، وفخذاه يتأججان، كما لو أن، في كل واحدَ منهما، جهنماً صغيرة. كان يتذكر أباه، كلوفيس غوغان الذي مات في عرض البحر، في تلك الرحلة، نحو ليما، وهو هارب من فرنسا، لأسباب سياسية، ودُفن في بويرتو هامبري الشبحي، بالقرب من مضيق ماجلان، حيث لا يمكن لأحد، أن يذهب أبداً، ليضع باقة أزهار على قبره. كان يفكر في ألين غوغان، وهي تصل أرملة، إلى ليما، ومعها ابنان صغيران، وفي ذروة اليأس.

في تلك الأيام، وهو يشعر بأنه يائس، وغير قادر على الخروج من كوخه، بسبب آلام كاحله، كان يتذكر نبوءة أمه، في الوصية التي أورثته فيها لوحاتها القليلة وكتبها. تتمنى لكَ النجاح في حياتك. ولكنها تضيف جملة ما زالت تبعث المرارة في نفسكَ: «ولأن بول أبدى النفور، تجاه كل أصدقائي، فإن الأمر سينتهي بابني المسكين هذا، إلى البقاء وحيداً تماماً». لقد تحققت النبوءة بحذافيرها يا

أماه. إنني وحيد مثل ذئب، وحيد مثل كلب. أمك تكهنت بالمتوحش الذي في داخلك، قبل أن تُطلَّ أنت بطبعك الحقيقي، يا بول. ولكن ليس صحيحاً، مع ذلك، أنك كنت الفتى النفور مع كل أصدقاء ألين غوغان، بل مع غوستاف أروزا فقط، الوصي عليك. أجل، لقد كنتَ نفوراً معه. لم تستطع قط، أن تبتسم لهذا السيد، أو أن تجعله يحبك، على الرغم من كل تودده إليك، وبالرغم من الهدايا والنصائح الجيدة التي كان يقدمها إليك، وبالرغم من كل مساندته لك، بعد أن تركتَ البحرية، لتبدأ مسيرتك في عالم الأعمال. لقد أدخلكَ إلى وكالة بول برتان، لتجرب حظك في بورصة أسعار باريس، وقدم لك أفضالاً كثيرة أخرى. ولكن، لا يمكن لهذا السيد أن يكون صديقك، لأنه إذا كان يحبُ أمكَ، فعليه أن ينفصل عن زوجته، وأن يعلن أمام الملأ، عن حبه لألين شازال، أرملة غوغان، بدلاً من أن يبقيها عشيقة سرية، لإشباع ملذاته، بين وقت وآخر. حسن، على المتوحش، ألا يهتم بمثل هذه الحماقات. أية أحكام مسبقة، كانت تلك يا بول؟ صحيح أنك لم تكن، آنذاك، قد صرت متوحشاً بعد، بل كنت برجوازياً يكسب عيشه في بورصة باريس. ومثله الأعلى أن يصير ثرياً مثل غوستاف أروزا. قهقهته المدوية جعلت السرير يهتز، والكلة تسقط لتلفه، مثلما تلف الشبكة سمكة.

عندما هدأت الآلام، قام بالتقصي عن خليلته القديمة، تيهامانا. لقد تزوجت شاباً من ماتايّا، يدعى مآري، ولا تزال تعيش في تلك القرية، مع زوجها الجديد. أرسل إليها بول، وإن يكن دون أمل، مع صبي يعمل في تنظيف الكنيسة البروتستانتية في بوناويا، متوسلاً إليها أن تعود إليه، وواعداً إياها بهدايا كثيرة. وكانت مفاجأته وسعادته، أن تيهامانا ظهرت بعد أيام قليلة، عند باب الكوخ. كانت تحمل صرة صغيرة فيها ثيابها، كما في المرة الأولى. حيته، وكأنهما قد افترقا في العشية: «صباح الخير، كوكي».

كانت قد سمنت، ولكنها لا تزال شابة جميلة، تفيض بالرشاقة،

ذات جسد منحوت، وافرة الصدر، والمؤخرة، والبطن. أسعده مجيئها كثيراً، حتى إنه بدأ يشعر بالتحسن. آلام الكاحل اختفت، وعاد للرسم. لكن المصالحة مع تيهامانا لم تدم طويلاً. فالفتاة لم تستطع مواراة الاشمئزاز الذي تثيره فيها، قروحه؛ بالرغم من أن بول كان يبقي ساقيه ملفوفتين بالأضمدة، طوال الوقت تقريباً، بعد أن يدلكها بمرهم أساسه الزرنيخ، يخفف من الحكة. ممارسة الحب معها الآن، كانت محاكاة باهتة لحفلات الجسد تلك التي يتذكرها. فقد كانت تيهامانا تقاوم، تبحث عن ذرائع. وعندما لا يكون ثمة مهرب، كان بول يراها - يتخيلها - بوجه مقطب من الاستياء، مظهرة التصنع، يمنعها القرف من الشعور بأدنى متعة. وعلى الرغم من الهدايا التي غمرها بها، ومن قسمه بأن تلك الأكزيما، ما هي إلا التهاب عابر، سيشفى سريعاً، فقد حدث ما لا بد منه: في صباح أحد الأيام، غادرت تيهامانا، حاملة صرتها على كاهلها، دون وداع. بعد بعض الوقت، عرف بول أنها تعيش من جديد، مع زوجها، مآري، في ماتايّا. «يا له من محظوظ». لقد كانت امرأة استثنائية. ولن يكون من السهل، أن تحل أخرى محلها، يا كوكي.

لم يكن ذلك سهلاً. وإن كانت بعض صبايا الجوار اللعوبات، يأتين أحياناً، بعد دروس الديانة المسيحية، في كنيستي بوناويا، البروتستانتية والكاثوليكية - متساويتي البعد عن كوخه - لرؤية ذلك المارد شبه العاري، وهو يرسم، محاطاً بالرياش وعلب الألوان، والأقمشة المشدودة، وقطع الخشب نصف المنحوتة؛ فيتمكن من اجتذاب إحداهن إلى غرفة نومه، والاستمتاع بها استمتاعاً كاملاً أو نصف استمتاع. ولكن أياً منهن لم تقبل، مثلما كان يعرض عليهن، أن تكون امرأته. التقلب مع أولئك الصغيرات، جلب له الخلافات، أولاً مع الخوري الكاثوليكي، الأب داميان، وبعد ذلك، مع الراعي البروتستانتي، القس ريكيلم. كلاهما جاءا، منفردين، لتأنيبه على سلوكه المشين، وغير الأخلاقي، والمفسد للوطنيات الصغيرات. وقد

هدده كلاهما: يمكن لهذا، أن يتسبب لك بمشاكل مع العدالة. وقد ردَّ على القس وعلى الخوري، بأنه لا يحب شيئاً أكثر من حبه لأن تكون لديه، رفيقة دائمة، لأن ألعاب التنقل هذه، تضيع وقته. ولكنه رجل له حاجاته. والإلهام يغادره، ما لم يمارس الحب. هكذا هو الأمر، ببساطة، أيها السادة.

بعد ستة شهور فقط، من مغادرة تيهامانا، تمكن من الحصول على خليلة أخرى: باؤورا. كان عمرها - بالطبع - أربعة عشر عاماً. تعيش قريباً من القرية، وتغني في الكورال الكاثوليكي. وبعد تمرينات الغناء المسائية، ذهبت مرتين أو ثلاث مرات، إلى كوخ كوكي. كانت تتأمل، بضحكات مكتومة، البطاقات البورنوغرافية الموزعة على أحد جدران المرسم. قدم لها بول هدية، وذهب إلى بابيتي ليشتري لها تنورة تاهيتية. وأخيراً، وافقت باؤورا على أن تكون فاهيني (امرأة) له، وجاءت للعيش في كوخه. لم تكن بالغة الجمال، ولا شديدة الذكاء، ولا متأججة في الفراش، مثل تيهامانا. وخلافاً لهذه، كانت تهمل الأعمال المنزلية. فبدلاً من التنظيف أو الطهو، كانت تهرع للعب مع أترابها من بنات القرية الصغيرات. لكن ذلك الحضور الأنثوي في الكوخ، وبخاصة في الليل، كان مفيداً له؛ فقد قلص الجزء الذي كان يمنعه من النوم. وكان إحساسه بأنفاس باؤورا، ورؤيته في الظلمة كتلة جسدها المستسلم للنوم، يُشعرانِه بالسكينة، ويعيدان إليه شيئاً من الطمأنينة.

ما الذي يؤرقكَ هكذا؟ ما الذي يبقيكَ متوتر الأعصاب؟ ليس السبب هو نفاد ما ورثته عن العم زيزي، والفرنكات الهزيلة التي جنيتها من تصفية لوحاتك، في فندق دروو. فأنت معتاد على العيش دون نقود. وهذا لم يسبب لك الأرق قط. وليس السبب هو الداء الذي لا يُسمى أيضاً. لأن قروح ساقيك الآن، وبعد أن عذبتك لوقت طويل، عادت تلتئم من جديد. وألم الكاحل صار تحمله، حالياً، ممكناً. ما السبب إذن؟

التفكير بأبيك، المُلاحَق السياسي الذي انفجر قلبه، وسط المحيط الأطلسي، وهو هارب من فرنسا إلى البيرو، وتذكر ***صورة ألين غوغان***. أين هي تلك اللوحة؟ إنها ليست لدى دانييل دو مونفريد، ولا لدى شوف؛ بل إنهما لم يرياها أصلاً. مت هي التي تخبئها إذن، في كوبنهاجن. ولكن امرأته، في الرسالة الوحيدة التي تلقاها منها، منذ عودته إلى تاهيتي، لا تقول كلمة واحدة عن تلك اللوحة، بالرغم من أنه طلب منها، في رسالتين، أن تخبره بأمرها. وقد فعل ذلك، في رسالة ثالثة. متى ستتلقى الردّ يا بول؟ ستة شهور من الانتظار على الأقل. لقد سيطر عليه التشاؤم: لن تعود إلى رؤية تلك اللوحة أبداً. وصورة ألين غوغان التي لا تفارق ذهنك، تحولت إلى جرح آخر.

لقد كانت ألين شازال، بلحمها وعظمها، وليس صورتها فقط، هي التي تحاصره. لماذا تعود ذاكرتك الآن، مرة بعد أخرى، إلى النكبات التي حاقت بحياة الابنة الوحيدة الناجية. من الأبناء الثلاثة الذين أنجبتهم الجدة؟ كان من الأفضل، لابنة فلورا تريستان، فلورا شاغال سابقاً، ألا تنجو، أن تموت مثل أخويها.

في ذلك اللقاء الأخير مع الوصي عليه، رأى بول كيف امتلأت بالدموع، عينا غوستاف أروزا، وهو يتذكر عذابات ألين شازال التي كان يعرفها بالتفصيل. وقد أكد ذلك شكوك بول، حول العلاقة بين أمه والمليونير. فلمن كان يمكن لها، هي المتكتمة، الحريصة على أسرارها، أن تبوح بهذه القصة المؤثرة، إلا لعشيقها؟ هذا ما كنتَ تفكر فيه، بينما أنت تستمع إلى تفاصيل حياة ألين غوغان الرهيبة. وبدلاً من أن تبكي، مثلما كان يبكي الوصي عليك، كنتَ تتمزق من الغيرة والخجل. أما الآن بالمقابل، في هذه الليلة الحارة، دون ريح، المعطرة بروائح الأشجار والنباتات، ومع هذا القمر الكبير ذي النور الأصفر الشبيه بالصفرة التي وضعتها كخلفية، في صورة ألين غوغان، فإنك تشعر بالرغبة في البكاء أيضاً؛ البكاء على نفسك، وعلى الصحفي عاثر الحظ كلوفيس غوغان، وعلى أمك، قبل كل

شيء. طفولة حزينة جداً تلك التي عاشتها. لا شك في ذلك. فقد ولدت في الوقت الذي هربت فيه الجدة فلورا من بيت الجد - فذلك الوحش، الشرير، أندريه شازال، ذلك الضبع المقرف، كان جدك. وعليك أن تتقبل ذلك، مهما تجمد الدم في عروقك منه - وأمضت سنواتها الأولى في الحياة، تعيش على الكفاف، دون أن تدري ما الذي يعنيه البيت أو الأسرة، في بنسيونات، وفنادق، ونزل بائسة. في كنف الجدة فلورا المندفعة، المتنقلة دوماً، والهاربة دوماً من مطاردة الزوج المهجور، أو متروكة، وهو الأسوأ، لدى مرضعات فلاحات. لا بد أن هذه الطفلة التي بلا أب ولا أم، قد أمضت طفولة كئيبة. وعندما ذهبت الجدة فلورا إلى البيرو، وغابت مدة سنتين، في اريكيبا، وفي ليما، وفي اجتياز المحيطات، تركت ألين منسية لدى سيدة رحيمة، في ريف أنغوليم، أشفقت عليها، مثلما تروي الجدة فلورا نفسها في «**اغتراب منبوذة**». كم أنت نادم لأنك لا تملك، هنا، نسخة من تلك المذكرات، يا بول.

بعد رجوعها إلى فرنسا، استعادت فلورا ابنتها ألين، واستطاعت هذه أن تتمتع بأمها، أقل من ثلاث سنوات. ولكن، في النهاية، هذا ما قاله غوستاف أروزا، ولا بد أنه صحيح، لأن ألين نفسها أخبرته به: تلك الفترة، ما بين عودة الجدة من البيرو، عندما استعادت أمك من أنغوليم، وأخذتها معها إلى باريس، الى البيت في شارع شيرش-ميدي ٤٢، وسجلتها كتلميذة خارجية، في مدرسة أطفال، في شارع داسا المجاور، كانت أفضل فترة في حياتها، الفترة الوحيدة التي نعمت فيها ألين بأمها، وببيت، وبروتين دافئ يبدو طبيعياً في الظاهر، حتى الحادي والثلاثين من تشرين الأول ١٨٣٥، اليوم الذي بدأ فيه الكابوس الذي لن ينتهي إلا بعد ثلاث سنوات، بطلقة مسدس في شارع دوباك. في ذلك اليوم، كانت ألين شازال عائدة من المدرسة إلى البيت، برفقة خادمة. أوقفها في عرض الشارع، رجل مهلهل المظهر، تفوح منه رائحة الخمر، عيناه المحمرتان تطفران

من محجريهما. وبصفعة واحدة، أبعد الخادم المذعورة، ثم أدخل ألين بالقوة، إلى عربة تنتظره، وهو يصرخ: «طفلة مثلك يجب أن تكون مع أبيها، الرجل الصالح، وليس مع أمك الفاجرة. عليك أن تعرفي أنني أبوك، أندريه شازال». في ذلك الحادي والثلاثين من تشرين الأول، بدأ جحيم ألين.

«يا للطريقة التي تعرفت بها على أبيها»، قال غوستاف أروزا، متألماً حتى النخاع، وأضاف: «لم تكن أمك آنذاك، قد تجاوزت العاشرة من عمرها. وكانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها أندريه شازال». كان ذلك هو الاختطاف الأول، من عمليات الاختطاف الثلاث التي تعرضت لها الطفلة. تلك الاختطافات جعلت منها الكائن الحزين، المكتئب، المجروح الذي كانته دائماً، والذي رسمتَهُ أنت في تلك اللوحة الضائعة، يا بول. ولكن، ما هو أسوأ من الاختطاف، ومن تلك الطريقة المتعسفة والوحشية، في تقديم نفسه إلى ألين، كانت أسباب الاختطاف، الأسباب التي دفعت ذلك الحثالة البشرية إلى اختطافها. الجشع! المال! الوهم بفدية من ذهب البيرو الذي تخيله! من أين وصلت الإشاعة، الأسطورة، إلى ذلك الحثالة الميت من الجوع الذي كانه جدك أندريه شازال، بأن المرأة التي هجرته، قد عادت من البيرو، وهي تنعم بثروات آل تريستان الذين يعيشون في أريكيبا؟ لم يخطفها بدافع الحب الأبوي، ولا بكرامة الزوج المغتاظ؛ وإنما لابتزاز الجدة فلورا، وتجريدها من ثروة متخيلة، جاءت بها من أمريكا الجنوبية. وقال غوستاف أروزا محتجاً: «لا حدود للدناءة، للخسة، لدى بعض البشر». بالفعل، فقد كان سلوك أندريه شازال أسوأ مثال للحياة الحيوانية: الغربان، نسور الرخمة، بنات أوى، الأفاعي. وكان ذلك التعس يستند إلى القوانين التي تسانده؛ فالمرأة الهاربة من بيتها، في نظر الأخلاق التقية، في مملكة لويس فيليب، لا تقل خزياً عن العاهرة. وحقوقها أقل من حقوق العاهرات المعدومة في القانون.

يا لروعة تصرف «**المدام غضب**» في تلك المناسبة. أليس كذلك يا بول؟ هذه هي الأشياء التي تجعلكَ تشعر، فجأة، بتقدير غير محدود، وبتضامن قلبي مع تلك الجدة التي توفيت قبل أربع سنوات من مولدك. لا بد أنها كانت محطمة، كسيرة الفؤاد، لاختطاف ابنتها. ولكنها لم تفقد الحماسة. وسعت على امتداد شهر كامل، من خلال أقربائها لأمها، آل ليسني (وخاصة خالها، القومندان ليسني)، إلى تدبر لقاء مع زوجها. لأن خاطف ألين، كان لا يزال زوجها أمام القانون. وجرى اللقاء في فرساي، بعد أربعة أسابيع من الاختطاف، في بيت القومندان ليسني. إنك تتخيل المشهد جيداً، وقد خربشتَ في أحد الأيام، رسماً أولياً يمثل ذلك اللقاء. النقاش البارد، التأنيب المتبادل، الصراخ. وفجأة، تحطمُ الجدة العظيمة زهرية (أم أنه كان طبقاً، أم كرسياً؟) على رأس شازال، وتستغل الفوضى، فتمسك بيد ألين، وتهرب معها في شوارع فرساي المقفرة والمبللة. وقد سهّل هروبها، مطرٌ مفاجئ، جادت به العناية الإلهية. أي جدة رائعة لك يا بول؟

بدءاً من ذلك الإنقاذ الرائع، تختلط تلك القصة في ذهن بول. تصبح أكثر كثافة، وتتكرر، كما في حلم كريه. فالجدة المطاردة، بعد شكوى بحقها، تتنقل من مركز للشرطة إلى آخر، ومن نائب عام إلى نائب عام، ومن محكمة إلى محكمة. وبما أن الفضيحة ترفع من شهرة المحامين، فقد تولى محام شاب، طموح وخسيس، سيدخل الحياة السياسية في ما بعد، يُدعى جول فافر، الدفاع عن أندريه شازال، باسم حماية النظام، والأسرة المسيحية، والأخلاق. وراح يُلحق الإهانات المشينة بالهاربة من بيتها، والأم المخزية، والزوجة الغادرة. وماذا جرى للطفلة؟ ماذا جرى لأمك، طوال ذلك الوقت؟ أُرسلت بأمر من القضاة، إلى سكن داخلي، حيث يمكن لشازال والجدة فلورا أن يزوراها، كل على حدة، مرة واحدة، في الأسبوع.

في الثامن والعشرين من تموز ١٨٣٦، اختُطفت ألين للمرة الثانية.

فقد أخرجها أبوها بالقوة، من المدرسة الداخلية التي تديرها المدموزيل دوروتشر، في الرقم ٥، شارع داسا، وحبسها سراً، في بنسيون بائس، في شارع بارادي بواسونيير. وقال غوستاف أروزا باكياً: «أيمكن لكَ أن تتخيل حالة الطفلة المعنوية، في مثل تلك الأوضاع المضطربة، يا بول؟». بعد سبعة أسابيع، هربت ألين من ذلك الحبس، متدلية من نافذة، وتمكنت من الوصول إلى حيث الجدة فلورا. وكانت تعيش آنذاك في شارع دوباك. واستطاعت الطفلة أن تستمتع بشهرين من الإقامة، في بيت أمها.

لكن شازال تمكن، بفضل المحامي الوضيع جول فافر، من جعل العدالة والشرطة تنطلقان في إثر الصغيرة، باسم سلطة الوطن. وفي العشرين من تشرين الثاني سنة ١٨٣٩، اختُطفت ألين للمرة الثالثة، على يد مفوض شرطة، هذه المرة، من أمام باب بيتها، وسُلمت إلى أبيها. وفي الوقت نفسه، وجه المدعي الملكي والقاضي تحذيراً إلى فلورا، بأن أي محاولة لانتزاع ألين من أبيها، سيعني السجن لها.

الآن يأتي الجزء الأكثر قذارة، والأشد نتانة، في القصة. وهو جزء قذر ونتن إلى حد آن غوستاف أروزا، معتقداً أنه يتقرب منكَ بذلك، عرض عليكَ الرسالة المقتضبة التي أرسلتها الطفلة، في نيسان ١٨٣٧، إلى الجدة فلورا، بعد خمسة شهور من اختطافها للمرة الثالثة. وما كدتَ تبدأ بقراءتها، حتى أغمضتَ عينيك، مريضاً من القرف، وأعدتها إلى الوصي عليك. لقد أُخرجت تلك الرسالة في المحكمة، ونُشرت في الصحف، وشكلت جزءاً من الملف القضائي، وأشاعت أقاويل وشائعات في الصالونات، وفي مجتمعات النميمة الباريسية. كان شازال يعيش آنذاك، في حجرة ضيقة، في مونمارت. والطفلة اليائسة تتوسل، بأخطاء إملائية في كل جملة، إلى أمها أن تنقذها. فهي تشعر، في الليل، بالخوف، بالألم، بالهلع، عندما يجعلها أبوها - «السيد شازال» كما تقول في الرسالة - تنام

عارية معه، في السرير الوحيد، ويكون هو نفسه عارياً، يحتضنها، يقبلها، يحتك بها، ويطلب منها أن تحتضنه أيضاً، وأن تقبله. إنه جزء قذر ونتن من القصة، إلى حد أن بول كان يفضل المشي على الجمر، بدل الاطلاع على تلك الوقائع، وعلى الشكوى التي قدمتها الجدة فلورا ضد أندريه شازال، بتهمة الاغتصاب والزنا بالمحارم. اتهامات فظيعة ومريعة، أثارت الفضيحة التي يمكن تصورها. ولكن، بفضل براعة ذلك الوحش الضاري الآخر، وحش المحكمة، المحامي جول فافر، أدخلوا المغتصب والزاني بالمحارم إلى السجن، لبضعة أسابيع فقط. فمع أن الدلائل تدينه، إلا أن القاضي أفتى بأنه «لا يمكن إقامة الدليل الدامغ على الحدوث المادي لسفاح القربى». وهكذا كان الحكم، مرة أخرى، إدانة للطفلة، بالحكم عليها بالعيش منفصلة عن أمها، في مدرسة داخلية.

هل وضعتَ كل هذه المآسي، مختلطة بمسرح دمى، في ***صورة ألين غوغان***، يا بول؟ لستَ واثقاً من ذلك. فأنت تريد استرداد اللوحة، للتأكد من الأمر. هل كانت اللوحة عملاً بارعاً؟ ربما نعم. نظرة أمك في اللوحة - كما تتذكرها - تطلق، من خجلها الخلقي، ناراً ساكنة، قاتمة، مع تجهمات مائلة إلى الزرقة، تخترق المُشَاهِد، وتنفذ منه، لتضيع في نقطة من الفراغ. «ما الذي تنظرين إليه في لوحتي، يا أماه؟». «حياتي، حياتي الفقيرة البائسة يا بني. وحياتك أيضاً، يا بول. لقد رغبتُ في أن تكون لكَ حياتك، حياة شخص طبيعي، على خلاف ما جرى لجدتك ولي، وللمسكين أبيك الذي مات في عرض البحر، ودُفن في أقصى العالم. رغبتُ في أن تحقق حياة طبيعية، هادئة، آمنة، بلا جوع، بلا هرب، بلا عنف. ولكن ذلك لم يكن ممكناً. لقد أورثْتُكَ سوء الطالع، يا بول. سامحني يا بني».

عندما استيقظت باؤورا، بعد قليل، على اجهاش كوكي، سألته لماذا يبكي هكذا. فكذب عليها:

- لقد عاودتني حرقة ساقي، والمصيبة أن المرهم قد نفد.

بـدا لـكَ أن القمـر، «*هينـا*» المشـع، إلـه شـعب الأريـوري، قدمـاء الماووري، الهادئ في سماء بوناويا، اللامع بين صفائح مربع النافذة المتشابكة، حزين أيضاً.

لم يبق تقريباً، أي سنتيم من ميراث العم زيـزي، ومـن النقود التـي جئت بها من باريس. ولـم تـأتِ أي إشارة مـن دانييـل، أو شـوف، أو أمبراوس فولار، أو من أصحاب صالات العرض الذين تركت عندهم لوحات ومنحوتات، في باريس، تدل على أنهم أحياء. المراسل الأكثر وفاء على الدوام هو دانييل دو مونفريد. ولكنه لا يجد مشترياً لأي لوحة أو منحوتة، أو حتى لأي رسم تخطيطي. بدأت المؤن تغيب عن البيت، وباؤورا تشكو. اقترح بول على الصيني، صاحب المتجر الوحيد في بوناويا، مقايضة: سيقدم إليه رسوماً تخطيطية، وبالألوان المائية، مقابل أن يطعمه هو وامرأته، ريثما تأتيه نقود من فرنسا. وانتهى الصيني إلى القبول، على مضض.

بعد أسابيع قليلة، جاءت باؤورا لتقول له إن الصيني، بدلاً من أن يحتفظ بالرسوم، أو يعلقها على الجدران، أو يحاول بيعها، يستخدمها لصرّ المواد المشتراة. وأرته بقايا منظر طبيعي، لأشجار المانجا في بوناويا، ملطخاً، ومجعداً، وعليه بقايا حراشف سمك. ذهب بول إلى المتجر، وهو يعرج، متوكئاً على عكازه الذي صار يستخدمه الآن، لأدنى تنقل، حتى داخل الكوخ، ووبخ صاحب المتجر لانعدام حساسيته. رفع صوته قليلاً، فهدده الصيني بأنه سيشكوه إلى رجال الدرك. منذ ذلك الحين، صارت كراهية بول تمتد، من صاحب المتجر، إلى جميع الصينيين في تاهيتي.

ليس انعدام النقود وعلله الجسدية، هي وحدها التي زادت من حدة طبعه، وجعله يقف دائماً، على حافة الانفجار، في نوبة غضب؛ بل كان السبب أيضاً، تَسَلُّطَ ذكرى أمه على عقله، وتلك الصورة التي لم يبق لها أثر. أين انتهت تلك اللوحة؟ ولماذا هذه اللوحة التي على القماش - وقد أضعتَ لوحات كثيرة دون أن يرف لكَ جفن - تبقيك

غارقاً في القنوط، وروحك تغص بالهواجس؟ أتراك أصبتَ بالجنون، يا بول؟

ظل زمناً لا يرسم، مكتفياً بخط بعض الرسوم التخطيطية على دفاتره، ونحت قطع خشبية صغيرة. كان يفعل ذلك دون قناعة، يلهيه القلق والعلل الجسدية. أصابه التهاب في عينه اليسرى، فصارت تدمع طوال الوقت. قدم له الصيدلي، في بابيتي، قطرة لعلاج التهاب الملتحمة؛ ولكنها لم تعط أي مفعول. وقد ذعر، لأن الرؤية بهذه العين، ساءت كثيراً: هل ستصاب بالعمى؟ ذهب إلى مستشفى فيامي، فأجبره الطبيب، الدكتور لاغرانج، على البقاء في المستشفى. ومن هناك، كتب بول إلى الزوجين مولار، جاريه في شارع فِرسان جيتوركس، رسالة مثقلة بالمرارة، يقول فيها: «لقد لاحقني سوء الطالع، منذ الطفولة. لم يحالفني الحظ قط، ولم أعرف السعادة مطلقاً؛ إنما المصاعب دائماً. ولهذا، فإنني أصرخ: أيها الرب، إذا كنتَ موجوداً، فإنني أتهمك بالظلم والشر».

لم يكن الدكتور لاغرانج، المقيم منذ زمن طويل، في المستعمرات الفرنسية، يشعر نحوه بالمودة. إنه خمسيني، شديد البرجوازية والرسمية - أصلع، نظارة دون إطار مثبتة على أنفه، ياقة قاسية، وربطة عنق على شكل فراشة، بالرغم من حر تاهيتي - لا يمكنه التفاهم مع هذا البوهيمي، ذي العادات المخالفة للقوانين، والذي يتعايش مع الوطنيين، ويجري تداول أسوأ القصص عنه، في كل أنحاء بابيتي. ولكنه طبيب مهني صاحب ضمير، وقد أخضعه لفحوصات صارمة. تشخيصه لم يفاجئ بول. فالتهاب العين هو مظهر آخر من مظاهر الداء الذي لا يُسمى. فقد تقدم المرض إلى مرحلة أشد خطورة، وفق ما تشير إليه البثور والطفح على ساقيه. هل سيواصل التردي إذن؟ إلى متى يا دكتور لاغرانج؟

- هذا مرض طويل النفس - تجنب الطبيب الإجابة المباشرة - وأنت تعرف ذلك. واصل العلاج بصورة منتظمة. وحذار من صبغة

الأفيون. لا تتناول أكثر من الجرعة التي وصفتها لك.

تردد الطبيب، وكان يريد أن يضيف شيئاً آخر، لكنه لم يجرؤ، خوفاً من رد فعلكَ، فقد صرت مشهوراً، في بابيتي، بوقاحتك.

- أنا رجل قادر على تلقي الأخبار السيئة - قال بول، مشجعاً الطبيب على الكلام.

- أنت تعرف أيضاً، أن هذا المرض شديد العدوى - دمدم الطبيب، مبللاً شفتيه بطرف لسانه، وأضاف:- وخاصة في العلاقات الجنسية. فانتقال المرض في هذه الحالة، محتم.

كان بول على وشك أن يرد عليه بشتيمة، ولكنه كبح نفسه، كي لا يفاقم ما لديه من المشاكل. بعد ثمانية أيام في المستشفى، أوصلت إليه الإدارة فاتورة بمئة وثمانية عشر فرنكاً، محذرة إيّاه من أنهم سيتوقفون عن تقديم العلاج إليه، إذا لم يدفعها فوراً. في تلك الليلة بالذات، هرب من المستشفى، عبر إحدى النوافذ، ووصل إلى الشارع، بالقفز عن السور. رجع إلى بوناويا في العربة العامة. وقد أخبرته باؤورا بأنها حامل، في الشهر الرابع. وأخبرته كذلك بأن الصيني صاحب المتجر، رداً على تعنيفه إياه، أشاع في القرية أن بول مصاب بالجذام. وأن الجيران الخائفين من هذا المرض الذي يثير الهلع، يحاولون الاتفاق للطلب من السلطات، بأن تطرده من القرية، أو تدخله مصحة للمجذومين، أو أن يطالبوه بالابتعاد عن المراكز المأهولة في الجزيرة. ويؤيدهم في ذلك الأب داميان الكاثوليكي، والقس ريكيلم البروتستانتي، مع أنهما لا يصدقان، بكل تأكيد، تقولات الصيني، لكنهما يريدان استغلال الفرصة، لتخليص القرية من ماجن وكافر.

لم يخِفه الأمر، ولم يقلقه كثيراً. كان يقضي شطراً كبيراً من النهار، مستلقياً في الكوخ، يغفو في سبات يُفرغ ذهنه من كل ذكرى وكل حنين. ولأن مصدر تموينه الوحيد بالأغذية قد توقف، صار يتغذى، هو وباؤورا، على ثمار المانجا، والموز، وجوز الهند، وثمر

شجرة الخبز، التي كانت تجمعها هي نفسها، من الأماكن المحيطة، أو على السمك الذي يهديه إليه، أحياناً، بعض الأصدقاء، خفية عن أسرهم.

في هذه الفترة، راح بول ينسى، أخيراً، صورة أمه. وحل محل ألين غوغان، موضوع آخر تسلط على عقله: القناعة بأن جمعية الأريوري لا تزال موجودة. كان قد قرأ عنها في كتاب القنصل مورينو، المكرس لمعتقدات الماووري القديمة، والذي أعاره إياه المستوطن أوغوست غوبيل. وفي أحد الأيام، راح يعلن يميناً ويساراً، ويؤكد أن سكان تاهيتي الأصليين، يحافظون على وجود تلك الجمعية الأسطورية سراً، ويحمونها بغيرة، من الأجانب، الأوروبيين والصينيين. فكانت باؤورا تقول له إنه يرى رؤى. وأكد له أبناء الماووري في الضيعة، ممن ما زالوا يأتون لزيارته، بأنه يهذي. لأن الأغلبية الساحقة من التاهيتيين، لا يعلمون شيئاً عن جمعية الأريوري السرية، جمعية أرباب وسادة التاهيتيين القدماء. الماووري القليلون الذين سمعوا بالأريوري، أقسموا له إنه لا يوجد وطني واحد يؤمن بمثل تلك الأشياء القديمة، وإنها معتقدات مدفونة، في ماض سحيق. لكنّ بول، الرجلَ العنيد ذا الأفكار الثابتة، واصل طوال عدة شهور، التحدث ليلاً ونهاراً، عن الأريوري. وبدأ ينحت آلهة وتماثيل من الخشب، ويرسم لوحات على القماش، مستوحاة من تلك الشخصيات الخرافية. لقد أعاد إليه الأريوري الرغبة في الرسم.

كان يفكر: «إنهم يخدعونني». ما زالوا يرون فيكَ أوروبياً، «**بوبا**» وليس الهمجي الذي أنتَ عليه، في أعماق روحك. لا يمكن لبضع عشرات من سنوات الاستعمار الفرنسي، أن تمحو قروناً من المعتقدات، والطقوس، والأساطير. مما لا شك فيه، أن أبناء شعب الماووري، في حركة دفاعية، قد أخفوا تلك التقاليد الدينية، في سرداب روحي، بعيداً عن متناول القسس البروتستانت والخوارنة الكاثوليك، أعداء آلهتهم. وجمعية الأريوري السرية التي مكّنت

الماووري، في كل الجزر، من عيش مرحلتهم المجيدة، لا بد أن تكون حية. إنهم يجتمعون، في أشد أعماق الغابة كثافة، ليحتفلوا بالرقص والغناء. ويعبرون دوماً، بالوشم المزدهر في تاهيتي، والمختفي تحت لباسهم التقليدي «الباريو»، على الرغم من أن وشمهم ليس متقناً وغامضاً، كما هي الحال في جزر المارتينيك، وبالرغم من الحظر المفروض على الوشم كذلك. وعندما بدأ بول يؤكد أنه، في أعماق صمت الغابات، ما زالت تُمارس طقوس الدعارة المقدسة، وأكل اللحم البشري، والقرابين البشرية، انطلقت في بوناويا الإشاعة بأنه إذا كانت إصابة الرسام بالجذام غير صحيحة، إلا أنه قد فقد عقله، كما يبدو. وصار الناس يضحكون منه، عندما يطلب منهم، متوسلاً أحياناً، وغاضباً في أحيان أخرى، أن يكشفوا له سرَّ الوشم، وأن يضموه إلى جمعية الأريوري: لقد حقق كوكي ما يكفي من الاستحقاقات. لقد صار كوكي واحداً من الماووري.

أُغلقت هذه المرحلة المشؤومة، بضربة نهائية. رسالة وصلته من مت. كانت رسالة جافة، باردة، كُتبت قبل شهرين ونصف الشهر: ابنته ألين، بعد قليل من إكمالها العشرين سنة من عمرها، توفيت في شهر كانون الثاني، نتيجة إصابة بالتهاب رئوي، سببه البرد الذي تعرضت له، لدى عودتها من حفلة رقص، في كوبنهاجن.

- الآن عرفتُ لماذا لاحقتني، منذ عودتي من أوروبا، ذكرى أمي وصورتها - قال بول لباؤورا، وهو يحمل رسالة مت في يده، وأضاف:- لقد كان ذلك إشعاراً. فابنتي أيضاً تسمى ألين، إكراماً لذكراها. وهي مثلها حساسة، وخجولة. آملُ ألا تكون قد عانت كثيراً في طفولتها، مثل ألين غوغان الأخرى.

- أنا جائعة - قاطعته باؤورا، وهي تلمس معدتها، بحركة كوميدية - لا يمكن العيش دون أكل يا كوكي. ألا ترى كم أنت نحيل؟ عليك أن تفعل شيئاً لكي نأكل.

IX. الرحلة البحرية

أفينيون، حزيران ١٨٤٤

بينما كانت فلورا تعدّ حقائبها، للسفر من سانت إيتين إلى أفينيون، في أواخر حزيران ١٨٤٤، أجبرها حدث مزعج على تغيير خططها. فقد اتهمتها إحدى صحف ليون التقدمية، *لِسينسور*، بأنها «عميلة سرية للحكومة»، مبعوثة لتجوب جنوبي فرنسا، بمهمة «إخصاء العمال» بدعواتها السلمية، وإخبار النظام الملكي، بأنشطة الحركات الثورية. وتتضمن صفحة الافتراءات تلك، كلمة لمدير الصحيفة، المسيو ريتز، منشورة ضمن إطار، يحث فيها الشغيلة على مضاعفة اليقظة، كي لا يقعوا «في اللعبة الفريسيّة للحواريين المزيفين». وقد طلبت منها لجنة **الاتحاد العمالي** في ليون، أن تذهب شخصياً، لتفنيد تلك الأكاذيب.

بادرت فلورا، المستثارة من الإهانة، إلى تنفيذ ذلك فوراً. استقبلتها اللجنة بكامل أعضائها، في ليون. ووسط الغم الذي تعانيه، كانت عودتها لرؤية إلينور بلان مؤثرة، وهي تحس بها ترتعش بين ذراعيها، ووجهها مستحم بالدموع. وفي النزل، قرأت وأعادت قراءة تلك الاتهامات الهذيانية. فقد انكشفت، حسب قول لِسينسور، حقيقة وضعها المنافق، عندما وصلت إلى يدي النائب العام، الأشياء التي صادرها مفوض شرطة ليون، المسيو باردوز، في فندق ميلان؛ وظهرت بينها نسخة من تقرير أرسلته فلورا تريستان إلى السلطات، حول لقاءاتها مع قادة عماليين.

لم تتح لها المفاجأة والغضب إغماض عينيها، على الرغم من ماء الزهر الذي أجبرتها إلينور بلان على شربه في رشفات، وهي مستلقية. في صباح اليوم التالي، وبعد أن تناولت، بسرعة، فنجاناً

من الشاي، ذهبت لتنتظر أمام باب جريدة لِسينسور، طالبة مقابلة المدير. طلبت من رفاقها في اللجنة أن يتركوها وحدها، لأن ريتز لن يوافق بكل تأكيد، على مقابلتها، إذا ما رآها مع رفاقها.

السيد ريتز، وقد تعرفت عليه فلورا بصورة عابرة، أثناء وجودها السابق في ليون، جعلها تنتظر قرابة الساعتين، في الشارع. وعندما استقبلها، حذراً جداً أو جباناً جداً، كان محاطاً بسبعة محررين، ظلوا في الصالة المزدحمة والعابقة بالدخان، طوال المقابلة، مؤيدين رب عملهم، بصورة بالغة المذلة، أحست معها فلورا بالغثيان. هؤلاء الشياطين التعساء، هم أقلام الجريدة التقدمية في ليون!

أيظن ريتز، النفعي، وتلميذ الآباء الجيزويت السابق، أنه سيتملص، مثل سمكة حنكليس، من أسئلة فلورا عن تلك المعلومات الكاذبة، وأن هؤلاء الذكور السبعة الذين لهم مظهر الجزارين، سيخيفونها؟ راودتها الرغبة في أن تقول له، منذ البداية، إنها قبل إحدى عشرة سنة، عندما كانت امرأة غرة، في الثلاثين من عمرها، أمضت خمسة شهور في سفينة، وحيدة مع سبعة عشر رجلاً، دون أن تشعر بالرهبة من كل تلك البناطيل. أما الآن، وهي في الحادية والأربعين، وبما اكتسبته من خبرة، فإن هؤلاء الخدم المثقفين السبعة، الجبناء والمفترين، يملؤونها حماسة واندفاعاً، بدل أن يخيفوها.

لكن السيد ريتز، وبدل أن يرد على أسئلتها («من أين خرجت تلك الأكذوبة الفظيعة، بأنني جاسوسة؟». «أين هو الدليل المزعوم الذي وجده مع أوراقي، ذلك المفوض المدعو باردوز، مادامت لدي قائمة، موقعة منه بالذات، تتضمن كل ما صادره مني وأعاده إلي، ولا وجود فيها لأي شيء من ذلك؟». «كيف تتجرأ جريدته على الافتراء بهذه الطريقة، ضد من تكرس كل طاقتها للنضال من أجل العمال؟»)، كان يقتصر، مرة بعد أخرى، على الترديد، مثل ببغاء، متصنعاً، كما لو أنه في البرلمان: «أنا لا افتري. أنا أكافح أفكارك، لأن التوجه السلمي يجرد العمال من سلاحهم، ويؤخر الثورة، يا سيدتي». وبين حين

وأخر، يرميها بفرية أخرى: إنها فالانستيرية. وباعتبارها كذلك، فإنها تدعو إلى التعاون بين أرباب العمل والعمال. وهذا لا يصب إلا في مصلحة رأس المال.

ساعتا الجدل العبثي - حوار الطرشان - ستتذكرينهما في ما بعد، يا فلوريتا، باعتبارهما أشد الأحداث إحباطاً للعزيمة، خلال جولتك في مناطق فرنسا الداخلية. لقد كان الأمر بسيطاً جداً. فالسيد ريتز، وبطانته من ذوي الأقلام المرتزقة، لم يتفاجؤوا، ولم يُخدعوا، لأنهم هم أنفسهم من طبخوا تلك المعلومات المزيفة. ربما السبب هو الحسد، بعد النجاح الذي حققته في ليون. أو لأن تشويه سمعتك، باتهامك بأنك جاسوسة، هي أفضل طريقة لتصفية أفكارك الثورية التي يخالفونها. أم أن حقدهم ينبع من كونك امرأة؟ لا يستطيعون التسامح مع أنثى تتصدى لهذا العمل الافتدائي الذي هو، في نظرهم، من اختصاص الذكور. ويقترف، مثل هذه الدناءة، من يسمون أنفسهم تقدميين، جمهوريين، ثوريين. لم تتوصل فلورا، خلال ساعتي الجدل، إلى جعل المسيو ريتز يخبرها من أين خرجت الإشاعة التي نشرتها *لسينسور*. وعندما ملّت، غادرت صافقة الباب، ومهددة برفع دعوى قدح ضد الصحيفة. لكن لجنة **الاتحاد العمالي** أقنعتها بالعدول عن ذلك: لأن *لسينسور*، الجريدة المعارضة للنظام الملكي، مشهورة، وأي محاكمة ضدها، ستلحق الضرر بالحركة الشعبية. من الأفضل، مواجهة المعلومات المزيفة، بالتكذيب العلني.

وهذا ما فعلته خلال الأيام التالية، في ندوات في الورش والجمعيات، وبزيارة جميع الصحف الأخرى، إلى أن توصلت إلى جعل صحيفتين، على الأقل، تنشران رسائلها التصويبية. لم تبتعد إلينور عنها لحظة واحدة، مغدقة عليها، من المحبة والحنان، ما هز مشاعر فلورا. يا لحسن الحظ بالتعرف على فتاة كهذه. وكم **الاتحاد العمالي** في ليون، محظوظ بوجود مثل تلك المرأة المثالية والمتحمسة في صفوفه.

أسهم الهياج والمضايقات في إضعاف جسدها. وبدأت تشعر، منذ اليوم الثاني لعودتها إلى ليون، بأنها محمومة، مع رعشة في جسمها، واضطراب في معدتها، أنهكها بشدة. ولكن ذلك لم يدفعها إلى التخفيف من نشاطها المحموم. فقد راحت تتهم ريتز، في كل مكان، بأنه يزرع الشقاق في الحركة الشعبية، على صفحات جريدته.

وفي الليل، كانت الحمى تؤرقها. بدا ذلك غريباً. إنكِ تشعرين، بعد إحدى عشرة سنة، مثلما شعرت خلال تلك الشهور الخمسة في السفينة «المكسيكي»، عندما اجتزت الأطلسي، في السفينة التي يقودها القبطان زكرياس شابريه. وبعد اجتياز خليج هورنوس، ركبت المحيط الهادي، متوجهة إلى البيرو، للقاء أقربائك من جهة أبيك، آملة بأنهم، فضلاً عن استقبالكِ بأذرع مفتوحة، وتقديم بيت جديد لك، سيسلمونك حصتك من ميراث والدك. وهكذا ستُحل كل مشاكلك الاقتصاديّة. ستخرجين من الفقر، وستتمكنين من تعليم ابنيك، وتحصلين على حياة هادئة، بمنجى من الحاجة والمجازفة، ودون خوف من الوقوع في براثن أندريه شازال. من تلك الشهور الخمسة، في عرض البحر، في قمرة ضيقة تكاد لا تستطيع فيها مدّ ذراعيها، ومحاطة بتسعة عشر رجلاً - بحارة، وضباط، وطاه، وصبي بحار، وسفان، وأربعة مسافرين - تتذكرين ذلك الدوار الفظيع الذي كان، مثل المغص المعوي في ليون الآن، يمتص طاقتك، توازنك، نظامك الذهني، ويُغرقك في البلبلة والقلق. إنك تعيشين الآن، كما عشت آنذاك، واثقة من أنك في أي لحظة، ستنهارين، عاجزة عن القدرة على الوقوف، عن الحركة على إيقاع الاهتزازات غير المتماثلة، للأرض التي تطئينها.

لقد تصرف زكرياس شابريه كرجل كامل الشهامة، مثلما حدست فلورا في الليلة التي تعرفت فيها عليه، في ذلك البنسيون الباريسي. بذل أقصى عناية. وكان يحمل إليها بنفسه مشروبات الأعشاب الساخنة، تلك التي يُفترض بها أن توقف الغثيان. وأمر أن يضعوا لها

فراشاً صغيراً على السطح، إلى جوار أقفاص الدجاج وصناديق الخضار، لأن الدوار يخف في الهواء الطلق، وتنعم فلورا بفواصل راحة. ليس القبطان شابريه وحده، هو الذي ضاعف من اهتمامه بها. بل فعل ذلك أيضاً، معاون الريان، لويس بريت، وهو بريتاني آخر. وحتى السفان ألفريد دافيد الذي يتصنع الصفاقة، ويُصدر أحكاماً فظيعة السلبية على الجنس البشري، ونبوءات كارثية، كان يتحول إلى العذوبة معها، ويبدو خدوماً ولطيفاً. الجميع في السفينة، ابتداء من القبطان حتى صبي البحار، من المسافرين البيروويين حتى الطاهي البروفانسي، فعلوا المستحيل، كي تكون رحلتكِ عبر المحيط، مريحة، بالرغم من عذاب الدوار.

ومع ذلك، لم يجر شيء في تلك الرحلة، مثلما كنت تأملين، يا فلوريتا. ولكنكِ لن تندمي على قيامك بها، بل على العكس. وإذا كنتِ ما أنتِ عليه اليوم، مناضلة من أجل رفاه الإنسانية، فالفضل يعود إلى تلك التجَربة. لقد فتحت عينيك على عالم، قسوته وشروره، بؤسه وألمه، أسوأ بكثير من كل ما يمكنك تصوره. وأنت التي كنت تظنين، بتعاستكِ الزوجية الضئيلة، أنك قد لامست قاع المحنة.

بعد خمسة وعشرين يوماً من الإبحار، التجأتَ «المكسيكي» إلى خليج برايا، في جزر الرأس الأخضر، من أجل جلفطة فنطاس السفينة، بعد أن تبين أن المياه تتسرب منه. وأنت يا فلورا، يا من أحسستِ بالسعادة، حين علمت أنك ستمضين بضعة أيام على اليابسة، دون أن يتحرك كل شيء تحت قدميك، وجدت نفسك في برايا، في وضع أسوأ من دوار البحر. ففي تلك البلدة ذات الأربعة آلاف نسمة، رأيتِ الوجه الحقيقي، المرعب، الذي لا يوصف، لمؤسسة تكادين لا تعرفينها سماعاً: العبودية. ستتذكرين على الدوام، تلك الصورة التي استقبلتك بها ساحة السلاح الصغيرة، في برايا. الساحة التي وصل إليها القادمون في «المكسيكي»، بعد أن اجتازوا أرضاً سوداء، صخرية، وتسلقوا السفح الصخري المرتفع الذي تنتشر

المدينة على ضفته. جنديان متعرقان، يطلقان السباب والتجديف، وهما يجلدان زنجيين عاريين، مقيدين إلى عمود، وسط سحب من الذباب، وتحت شمس كالرصاص. ظهرا المجلودين الداميين وصرخاتهما، سمرتك في مكانك. استندتِ إلى ذراع ألفريد ديفيد:

- ما الذي يفعله هؤلاء؟

- إنهما يجلدان عبدين سرقا، أو فعلا ما هو أسوأ من السرقة - أوضح لكِ السفان، مومئاً بفتور، وأضاف:- مالكو العبيد يحددون العقوبة، ويمنحون الجنود إكرامية كي ينفذوها. فتوجيه الضربات بالسوط، في هذا الحر، عمل شاق ورهيب. يا للنخاسين المساكين!

جميع البيض والخلاسيين في برايا، يكسبون عيشهم من صيد العبيد، وبيعهم وشرائهم. فتجارة العبيد هي الصناعة الوحيدة، في تلك المستعمرة البرتغالية، حيث كل ما رأته فلورا وسمعته، وجميع من عرفتهم خلال عشرة الأيام التي دامتها جلفطة عنابر المكسيكي، أثار فيها الشفقة، الفزع، الغضب، الرعب. لن تنسى أبداً الأرملة واترين، السيدة الطويلة والبدينة التي بلون القهوة بالحليب. وكان بيتها يغص بصور لشخصيتها المفضلة المبجلة: نابليون، وجنرالات الإمبراطورية. وبعد أن دعتك لتناول فنجان من الشوكولاته مع المعجنات، أرتك بفخر، الزينة الأكثر أصالة في صالونها: جنينين زنجيين، يطفوان في حوض مملوء بالفورمول.

الإقطاعي الرئيسي في الجزيرة، هو فرنسي من بايون، المسيو تاب، طالب لاهوت سابق، أرسلته طائفته الدينية، للقيام بعمل تبشيري في البعثات الأفريقية، فانشق، ليتفرغ لمهمة أقل روحانية، وأكثر إنتاجية، هي تجارة العبيد. كان خمسينياً بديناً ومحتقناً، له رقبة ثور، وعروق بارزة، وعينان شهوانيتان، مرّتا بوقاحة، على صدر فلورا وعنقها، حتى إنها أوشكت أن تصفعه. ولكنها لم تفعل، وهي تسمعه يتهجم على الإنكليز الأنجاس الذين «يوشكون أن يدمروا هذه التجارة»، بأحكامهم المسبقة البوريتانية الحمقاء، ضد تجارة العبيد،

ويودون بالنخاسين إلى الإفلاس. جاء تاب لتناول الطعام معهم في المكسيكي، حاملاً إليهم دمجانات نبيذ ومعلبات أطعمة، كهدية. أحست فلورا بالغثيان، وهي ترى النهم الذي يقضم به النخاس أفخاذ الخراف واللحم المشوي، مع جرعات كبيرة من النبيذ، تجعله يتجشأ. لديه في الوقت الحالي، ثمانية وعشرون زنجياً، وثمان وعشرون زنجية، وسبعة وثلاثون زنجياً صغيراً. وقال إنهم، بفضل «السيد فالينتين» - أي السوط الذي يلفه حول خصره - «يتصرفون على ما يرام». وعندما سكر، اعترف لهم بأنه، لخوفه من أن يسممه عبيده، تزوج واحدة من زنجياته، جعلها تنجب ثلاثة أبناء «خرجوا مثل الفحم». وهو يجبر زوجته على تذوق كل الأطعمة والمشروبات قبله، تحسباً من محاولة العبيد، تسميمه.

شخص آخر سيبقى محفوراً في ذاكرة فلورا، هو القبطان براندیسکو الأدرد. إنه فينسي. سفينته الشراعية راسية إلى جوار المكسيكي. دعاهم إلى العشاء في سفينته، واستقبلهم وهو يرتدي ملابس ممثل أوبريت كوميدية: قبعة من ريش الطاووس، وجزمة فارس من العصور الوسطى، وبنطالاً ضيقاً من المخمل الأحمر، وقميصاً برّاقاً مزركشاً بخرز لامع. أراهم صندوق عقود من الخرز، تباهى بأنه يقايضها بزنوج في القرى الأفريقية. وكانت كراهيته للإنكليز، أشد من طالب اللاهوت السابق تاب. فقد داهم الإنكليز ذلك الفينسي، في عرض البحر، وهو في سفينة محملة بالعبيد، فصادروا السفينة، والعبيد، وكل ما كان على متنها، وحبسوه سنتين في سجن، انتقلت إليه فيه عدوى داء تقيح اللثة الذي خلّفه بلا أسنان. وعند تناول الحلوى، حاول براندیسکو أن يبيع فلورا زنجياً صغيراً، متفتحاً جداً، في الخامسة عشرة من عمره، ليكون «خادمك». ولكي يقنعها بصحة الفتى وسلامته، أمره بأن يخلع وزرته، فبادر المراهق فوراً، إلى عرض حيائه عليهم وهو يبتسم.

لم تنزل فلورا من المكسيكي إلى برايا، سوى ثلاث مرات. وفي

المرات الثلاث، رأت في الساحة الصغيرة الملتهبة، جنوداً من الحامية الاستعمارية، يجلدون عبيداً على حساب أسيادهم. كان المشهد يحزنها ويغضبها إلى حدّ قررت معه، عدم معاناته أكثر. وأخبرت شابريه بأنها ستبقى في السفينة حتى يوم المغادرة.

كان ذلك هو الدرس الكبير الأول، في تلك الرحلة، يا فلوريتا. أهوال العبودية، أقصى جور في هذا العالم الجائر الذي لا بد من تغييره، لجعله إنسانياً. ومع ذلك، فإنك في كتابك الذي نشرته سنة ١٨٣٨، «*اغتراب منبوذة*»، لتروي فيه تلك الرحلة إلى البيرو، وأثناء حديثك عن مرورك في برايا، تضيفين تلك العبارات عن «رائحة الزنجي التي لا يمكن مقارنتها بشيء، والتي تسبب الغثيان وتلاحق المرء في كل مكان»، وهي عبارات لن يكفيك الندم عليها أبداً. رائحة زنجي! كم ندمت، في ما بعد، على هذه البلاهة الطائشة، بترديدك عبارة مبتذلة من عبارات السنوب الباريسيين. لم تكن «رائحة الزنجي» هي المقرفة في تلك الجزيرة، وإنما رائحة البؤس والقسوة، رائحة قدر أولئك الأفارقة الذين حوّلهم التجار الأوروبيون إلى سلعة تجارية. وعلى الرغم من كل ما تعلمته عن موضوع الظلم، فقد كنت لا تزالين جاهلة، عندما كتبت «اغتراب منبوذة».

اليوم الأخير في ليون، كان أكثر تلك الأيام الأربعة عملاً. استيقظت، وهي تعاني مغصاً شديداً. ولكنها ردّت على إلينور التي نصحتها بالبقاء في الفراش، قائلة لها: «غير مسموح لشخص مثلي أن يمرض». ذهبت بما يشبه الجرجرة إلى اجتماع، أعدت له لجنة **الاتحاد العمالي**، مع حوالي ثلاثين خياطاً ومُفَصِّل أقمشة. كانوا جميعهم شيوعيين إيكاريين، يرون أن كتابهم المقدس (وإن كان كثيرون منهم لا يعرفونه إلا سماعاً، لأنهم أميون) هو كتاب إيتيان كابيه، المنشور سنة ١٨٤٠: «*رحلة إلى إيكاريا*». حيث يعمد الفحام السابق، في كتابه هذا، إلى ذريعة رواية المغامرات المزعومة لأرستقراطي إنكليزي، اللورد كاريسدل، في بلد مساواة خيالي، لا وجود فيه

لبارات ولا مقاه، ولا عاهرات ولا متسولين - ولكن، مع وجود حمامات في الشوارع! - ليوضح بذلك نظرياته عن مجتمع المستقبل الشيوعي؛ حيث يتم التوصل، من خلال الضرائب التصاعدية على الدخل والإرث، إلى المساواة الاقتصادية، فتُلغى النقود، والتجارة، وتعم الملكية الجماعية. كان الخياطون ومفصلو الملابس مستعدين للسفر إلى أفريقية أو إلى أميركا، مثلما فعل روبرت ووين، ليبنوا هناك مجتمع الكمال الذي بشَّر به إيتيان كابيه. وكانوا يدفعون اشتراكات لشراء أراض في ذلك العالم الجديد. لم يبد عليهم الحماس لمشروع **الاتحاد العمالي** الدولي. فقد بدا لهم متواضعاً بالمقارنة مع فردوسهم الإيكاري، حيث لا وجود لفقراء، ولا لطبقات اجتماعية، ولا لعاطلين، ولا لخدم منزليين، ولا لملكية خاصة، وحيث كل الثروات مشتركة، والدولة «الإيكار الأعلى» تطعم جميع المواطنين، وتكسوهم، وتعلمهم، وترفه عنهم. وقد قالت لهم فلورا، بسخرية، على سبيل الوداع: من الأنانية الذهاب إلى جنة عدن خاصة، وإدارة الظهر لبقية العالم. ومن السذاجة، الإيمان بحرفية ما يقوله «*رحلة إلى إيكاريا*»، وهو كتاب غير علمي ولا فلسفي، بل هو مجرد تخيل أدبي! فمن لديه قليل من العقل في رأسه، ويرضى بأن يأخذ رواية، على أنها كتاب نظري ومنهج للثورة؟ وأي ثورة هي هذه التي يدعو إليها السيد كابيه، وتعتبر الأسرة مقدسة، وتحافظ على مؤسسة الزواج، أي بيع النساء لأزواجهم، بصورة مواربة؟

الانطباع السيئ الذي كونته عن الخياطين، تلاشى في عشاء الوداع الذي أقامته لجنة **الاتحاد العمالي**، في جمعية للنساجين. امتلأ المكان الفسيح بأكثر من ثلاثمئة عامل وعاملة، هتفوا لها خلال السهرة، عدة مرات، وأنشدوا **مارسيليز العامل**، التي وضع كلماتها شاعر حذّاء. وقال الخطباء إن افتراءات جريدة *لسينسور*، قد رفعت أكثر، من سمعة العمل الذي تقوم به فلورا تريستان، وكشفت الحسد الذي يوقظه نجاحها في الفاشلين. أحست بالتأثر الشديد من ذلك

التكريم، وقالت لهم إنها لا ترى مانعاً في أن يشتمها كل ريتزات هذا العالم، إذا كانت المكافأة، ليلة مثل هذه الليلة. فهذه القاعة المزدحمة، هي دليل على أن **الاتحاد العمالي** لا يمكن وقفه.

ودعتها إلينور وأعضاء اللجنة الآخرون، في الثالثة فجراً، في المرسى. الاثنتا عشرة ساعة التي أمضتها في المركب الصغير، على صفحة الرون، متأملة الضفاف المكللة بجبال، ورؤية بزوغ الفجر من قممها المغطاة بأشجار السرو، بينما هم يبحرون باتجاه أفينيون، أعادت إلى ذاكرتها، صور تلك الرحلة البحرية، في **المكسيكي**، من الرأس الأخضر، حتى سواحل أميركا الجنوبية. أربعة أشهر دون أن تطأ أرضاً. لا ترى سوى البحر والسماء، ورفاق رحلتها التسعة عشر، في ذلك السجن العائم الذي يبقيها متوعكة من الدوار يوماً، وفي اليوم التالي، أيضاً. أسوأ ما في الرحلة، كان اجتياز خط الاستواء، وسط عواصف ماطرة، تهز السفينة وتجعلها تئن، كما لو أنها ستتفكك، وتجبر البحارة والمسافرين على السير مقيدين بحواجز السطح والحلقات التي فيه، كي لا تجرفهم الأمواج.

هل أغرم بك التسعة عشر ذكراً، في السفينة «**المكسيكي**» يا فلوريتا؟ ممكن. والمؤكد أنهم جميعاً، كانوا يشتهونك، وكانت تؤرقهم، في ذلك الحبس الاضطراري، وتجننهم امرأة ذات عينين واسعتين سوداوين، وشعر أندلسي طويل، وخصر مانيكان، وإيماءات لطيفة. كنت متأكدة من أن بعض البحارة، وليس صبي البحار وحده، كانوا يتخيلونك، وهم يتلذذون خفية، بالقذارات التي اكتشفتِها، في بوردو، لدى إسماعيليو، **الخصي الإلهي**. جميعهم كانوا يشتهونك، أجل، بسبب ذلك الاعتزال والحرمان الذي تستثيرهم فيه مفاتنك، مع أن أياً منهم لم يسئ الاحترام نحوك قط. والقبطان زكرياس شابريه وحده، هو الذي صرح لك رسمياً، بحبه.

حدث ذلك في برايا، في عصر يوم، نزل الجميع فيه إلى البر، باستثناء فلورا، كي لا ترى عمليات جَلد العبيد. وكان شابريه يبقى

لمرافقتها. لقد كان تبادل الحديث مع ذلك البريتاني المهذب، ممتعاً، في مقدّم السفينة، ورؤية غروب الشمس، في احتفال ألوان، هناك في الأفق. فالحر اللاهب يخف، وتهب نسمات فاترة، وتصبح السماء فسفورية. كان شابريه متأنقاً في مظهره، على شيء من السمنة، تُحسِّن منه جسدياً، بل وتُظهره وسيماً للحظات، الأساليب اللطيفة والتهذب المحبب لمغني التنور المحبط فيه، والذي لم يبلغ الأربعين. وعلى الرغم من الاستياء الذي يسببه لك الجنس، ما كنت تستطيعين التخلي عن إبداء بعض التغنج مع البحار، مبتهجة بالتأثر الذي تحدثه فيه رؤيتك، تضحكين بملء فيك، أو الرد عليه بخاطرة لامعة، وأنت ترمشين، وتبالغين في تحريك يديكِ، أو تمدين إحدى ساقيك، من تحت التنورة، إلى أن تظهر نعومة كاحلك. كان تشابريه يصطبغ، سعيداً، بحمرة الخجل، ولا يتورع أحياناً، من أجل التسلية، عن الصداح بأغنية رومانسية، أو لحن لروسيني، أو فالس فينيي، بصوت جهير ومتناغم. ولكنه في ذلك المساء، ربما متحمساً بأريحية الغسق، أو لأن ظرفك تجاوز الحد المعهود، لم يستطع السيد البريتاني كبح نفسه، فأمسك يديك برقة بين يديه، ورفعهما إلى شفتيه، وقال متلعثماً:

- اعذري جرأتي يا مدموزيل. ولكنني ما عدت قادراً على الصمود. ويجب أن أقول لك: أنا أحبك.

كان تصريح الحب المرتعش والطويل ينضح بالصدق والوقار، بالتهذب وحسن التربية. وقد استمعت إليه مذهولة. هل يوجد إذن رجال من هذا النوع؟ مستقيمون، حساسون، رقيقون، مقتنعون بأنه لا بد من التعامل مع المرأة، ببتلة زهرة، كما في الرويات الرومانسية. كان البحار يرتعش، خجلاً من جرأته. ولتأثرك، وإن لم توافقي رسمياً، على حبه، أعطيته بارقة أمل. إنه خطأ فادح، يا فلوريتا. كنت مذهولة بطيب رجولته، بصفاء نواياه، وقلت له إنك ستحبينه دوماً، كأفضل الأصدقاء. وفي لحظة تأثر، ستجلب لك المشاكل في ما

بعد، أمسكت وجه شابريه المحمر، بين يديك، وقبّلتِ جبهته. شكر ربان المكسيكي الرب، وهو يرسم إشارة الصليب، لأنه جعل منه، في تلك اللحظة، أكثر الرجال سعادة، على وجه الأرض.

هل ندمت يا فلوريتا، خلال هذه السنوات الإحدى عشرة، لأنك لعبت في تلك الرحلة، بعواطف القبطان زكرياس شابريه؟ تساءلت بينما المركب يمخر بها نهر الرون، مقترباً من أفينيون. وردت على تساؤلها، كما في مرات أخرى: «لا». لن تندمي على ألاعيبك، وتدللك، وأكاذيبك مع القبطان شابريه، المتوقد جمراً، خلال الرحلة البحرية، حتى بالبارايسو، معتقداً أنه يحقق تقدماً، وأن المدموزيل فلورا تريستان، سترد عليه بنَعَمٍ حاسمة، في أي لحظة. لقد لعبتِ به دون أدنى وازع، مشجعة إياه، ببرودك الملتبسة، وبذلك السهو المدروس الذي كنت تسمحين فيه للبحار، أحياناً، بتقبيل يديك، عندما كان يأتي لزيارتك، في قمرتك، في لحظات هدوء البحر؛ أو عندما كنتِ تسمحين له، في النقلات الانفعالية، كي يواصل قص سيرة حياته عليك - رحلاته، أحلام شبابه، في لوريان، بأن يصبح مغني أوبرا، وخيبة أمله مع المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته، قبل أن يعرفك -، بأن يريح رأسه على ركبتيك، وأن تداعبي شعره الخفيف. بل إنك سمحت، في إحدى المرات، بأن تلامس شفتا شابريه شفتيكِ. ألستِ نادمة؟ «لا».

لقد صدّق البريتاني، دون تردد، أن فلورا أم عزباء، عندما أوضحت له سبب طلبها منه، التظاهر بعدم معرفتها، يوم الإبحار من بوردو. وفكرت في أن البحار الكاثوليكي الملتزم، سيستفظع الأمر حين يعلم أن فلورا أنجبت طفلة دون زواج. ولكن ما حدث هو العكس؛ فمعرفة «محنتها»، شجعت شابريه على عرض الزواج عليها. سيتبنى الطفلة، وسيذهبون معاً للعيش بعيداً عن فرنسا، حيث لن يتذكر أحد فلورا، ولا دناءة الرجل الذي دنس شبابها. سيذهبون إلى ليما، إلى كاليفورنيا، إلى المكسيك، أو إلى الهند نفسها، إذا هي

رغبت. ومع أنكِ لم تشعري قط بالحب تجاهه، - أليس كذلك يا فلورا؟ - فقد راودتك، مرة، فكرة الموافقة على عرضه. ستتزوجان، وتستقران في مكان بعيد وغريب، حيث لا يعرفك أحد، ولا يمكن لأحد، أن يتهمك بالزواج من رجلين. وستعيشين هناك، حياة مطمئنة وبرجوازية، دون خوف ولا جوع، في كنف رجل شهم لا غبار عليه. هل كنت ستتحملينه، يا أندلسية؟ بالطبع لا.

ها هو ذا مرسى المراكب في أفينيون. وبدلاً من نبش الماضي، لا بد من العودة إلى الحاضر. إلى العمل. لا متسع لإضاعة الوقت، يا فلوريتا، فخلاص البشرية لا يحتمل التأجيل.

لم يكن سهلاً العملُ من أجل خلاص عمال أفينيون، هؤلاء الذين تجد مشقة في التواصل معهم، لأن غالبيتهم لا يتكلمون الفرنسية، وإنما اللغة المحلية فقط. في باريس، قدم لها أغريكول بيرديغيي، ذلك الأثر المتبقي من الجمعيات العمالية، الملقب بـ «الأفينيوني الفاضل». وعلى الرغم من اختلافه مع طروحاتها حول **الاتحاد العمالي**، فإنه بعث رسائل توصية بها، إلى أناس من مسقط رأسه. وبفضل تلك الرسائل، استطاعت فلورا أن تعقد اجتماعات عمالية في مصانع النسيج، ومع عمال سكة حديد أفينيون-مرسيليا، من يتلقون أفضل أجور في المنطقة (فرنكان يومياً). لكنها لم تكن اجتماعات ناجحة جداً، بسبب جهل أولئك الرجال العجيب، الذين يفتقرون إلى الرد والاستجابة، على الرغم من استغلالهم بشراسة. ويعيشون في خمول، راضين بقدرهم. لم تبع، في الاجتماع مع عمال مصانع النسيج، أكثر من أربع نسخ من ***الاتحاد العمالي***، وعشر نسخ في الاجتماع مع عمال سكة الحديد. لم تكن لدى الأفينيونيين، رغبة كبيرة في صنع الثورة.

عندما علمت أن ساعات العمل، في مصانع النسيج الخمسة التي يملكها أغنى صناعي في أفينيون، تصل إلى عشرين ساعة يومياً، أي أكثر بثلاث أو أربع ساعات مما هو معهود، رغبت في التعرف

على رب العمل ذاك. لم يكن لدى المسيو توماس مانع في مقابلتها. كان يعيش في قصر دوقات كريون القديم، في شارع ماس، حيث حدد لها موعداً، في الصباح الباكر. في الداخل، كان ذلك البناء الجميل، يغص بفوضى أثاث ولوحات من مختلف العصور والأماكن، وكان مكتب السيد توماس - وهو كائن عظمي وعصبي، يتمتع بطاقة تشع من عينيه - قديماً، قذراً، جدرانه حائلة اللون، وكميات كبيرة من الورق، والعلب، والحقائب منثورة على الأرض. يكاد يكون التحرك بينها غير ممكن.

- لا أطالب عمالي بأي شيء لا أفعله أنا نفسي - قال لفلورا نابحاً عندما لامته، بعد أن أوضحت له مهمتها، لأنه لا يترك لعماله، سوى أربع ساعات للنوم. وأضاف:- أنا أعمل منذ الفجر حتى منتصف الليل، أسهر بنفسي على سير العمل في ورشي. ومبلغ فرنك يومياً، هو ثروة لشخص غير نافع. لا تسمحي للمظاهر بأن تخدعك يا سيدتي. إنهم يعيشون في بؤس، لأنهم لا يعرفون كيف يوفرون. ينفقون ما يكسبونه على شرب الخمر. ولكي تعلمي حضرتك، أنا لا أشرب الخمور أبداً.

أوضح لفلورا أنه لا يفرض على أحد ساعات العمل تلك. فمن لا يروقه هذا النظام، يمكنه البحث عن عمل في مكان آخر. وهو لا يجد أي مشكلة في ذلك؛ فعندما لا يجد أيدياً عاملة في أفينيون، يستوردها من سويسرا. لأنه لم يواجه مشاكل قط، مع أولئك البرابرة الآتين من جبال الألب. فهم يعملون بصمت وامتنان، مهما كان الأجر الذي يُدفع لهم. أولئك السويسريون المخبولون، يعرفون فعلاً، كيف يوفرون.

ودون أن يتردد لحظة واحدة، قال لفلورا إنه لا يفكر في التبرع بسنتيم واحد، لمشروعها في **الاتحاد العمالي**؛ فهو يرى، وإن لم يكن مطلعاً جيداً، أن هناك في أفكارها، شيئاً يبدو له فوضوياً وهداماً. ولهذا، لن يشتري منها كذلك، كتاباً واحداً.

- أشكرك على صراحتك يا سيد توماس - قالت فلورا، وهي تنهض - وبما أننا لن نلتقي مرة أخرى أبداً، اسمح لي أن أقول لك، إنك لست شخصاً مسيحياً، ولا متحضراً، وإنما أنت رجل كهوف، وآكل لحم بشر. وإذا ما شنقك عمالك يوماً، فإنك ستكون قد استحققت ذلك بجدارة.

انفجر الصناعي مقهقهاً، كما لو أن فلورا قد وجهت إليه ثناء. وأيدها متهللاً:

- أنا معجب بالنساء قويات الشخصية. ولو لم أكن مشغولاً جداً، لكنت دعوتك لقضاء نهاية أسبوع في مزرعتي، في فوكلوز. أنا وأنت يمكننا التفاهم على أحسن وجه، يا سيدتي.

لم يكن جميع رجال أعمال أفينيون شديدي الفظاظة. فقد استقبلها السيد إسنارد بتهذب، وأصغى إليها، واكتتب بخمسة وعشرين فرنكاً، للاتحاد العمالي، وطلب منها خمساً وعشرين نسخة من الكتاب «ليوزعها على أكثر العمال ذكاء». واعترف لها بأن أفينيون ما زالت، سياسياً، في عصور ما قبل التاريخ، خلافاً لليون، المدينة الحديثة بكل المعاني. فالعمال في أفينيون غير مبالين، والطبقات السائدة منقسمة بين ملكيين ونابوليونيين، وهما أمران متشابهان إلى حد بعيد، ولكن بتسميتين مختلفتين. وهو لا يتصور أنها ستحقق نجاحات كبيرة، في حربها الصليبية للقضاء على الظلم، ولكنه يتمنى لها النجاح.

لم تفقد فلورا حماستها بسبب تلك النبوءات السيئة، ولا كذلك بسبب التهاب القولون الذي عذبها، دون راحة، خلال الأيام العشرة في أفينيون. ولأنها لم تكن تستطيع النوم، في الليل، في «بنسيون الدب»، فقد كانت تفتح النافذة، بفعل الحر، لتدخل إليها النسمات، ولترى سماء بروفانس المفعمة بالنجوم.. نجوم كثيرة العدد ومتلألئة، كتلك التي كانت تتأملها من السفينة «المكسيكي»، في الليالي الهادئة، بعد اجتياز منطقة خط الاستواء، أثناء وجبات العشاء على سطح

السفينة، والتي كان القبطان شابريه يبعث البهجة فيها، بغناء أغنيات الألب الشعبية، وألحان روسيني، مؤلفه الموسيقي المفضل. وكان السفان ألفريد دافيد، يستغل معارفه الفلكية، ليعلّم فلورا أسماء النجوم ومجموعات الكواكب، بصبر معلم مدرسة طيب. فكان شحوب الغيرة يكسو وجه القبطان شابريه. ولا بد أنه كان يشعر بالغيرة أيضاً، من تمريناتكِ على التكلم بالإسبانية، بمساعدة المسافرين البيروبين الدؤوبين: الكوسكي فيرمين ميوتا، وابن عمه دون فرناندو، والعسكري العجوز دون خوسيه، وابن أخيه سيساريو، من كانوا يتنافسون على تعليمكِ الأفعال، وتصويب تراكيبكِ اللغوية، وإطلاعكِ على التبدلات اللفظية للإسبانية المتداولة في البيرو. ولكن شابريه، على الرغم من معاناته من اهتمام الآخرين بك، لم يكن يقول ذلك. فقد كان مستقيماً ومهذباً بطريقة لا يمكنه معها إظهار غيرته. وبما أنك قلتِ له إنك ستقدمين له إجابة حاسمة، بعد الوصول إلى بالباريسو، فقدَ كان ينتظر، مصلياً كل ليلة، دون شك، كي تقولي له: نعم.

بعد حرّ خط الاستواء، وأسبوع من الهدوء الخفيف والجو الجيد الذي تراجع فيه الدوار، صارت الرحلة محتملة أكثر - استطعتِ أن تقرئي كتب فولتير، وفيكتور هوغو، وولتر سكوت التي حملتها معك - واجهت «المكسيكي» أسوأ مرحلة في الرحلة: رأس هورنوس. فاجتيازه في شهري تموز وآب، يعني المجازفة بالغرق في كل لحظة. فالرياح العاصفة تبدو كأنها تسعى لدفع السفينة للارتطام بجبال الجليد التي تظهر أمامها، بينما عواصف الثلج والبَرَد التي تنهمر عليهم، من فوق، تغمر القمرات والعنابر. كانوا يعيشون الليل والنهار، في رعب، وهم شبه متجمدين. الخوف من الموت غرقاً، أبقى فلورا غير قادرة على إغماض عينيها، خلال تلك الأسابيع الرهيبة، وهي ترى، بإعجاب، كيف أن ضباط **المكسيكي** وبحارتها، بدءاً من شابريه، يبدون كأنهم تكاثروا، وهم يرفعون القلوع وينزلونها، وينزحون الماء،

ويحمون الآلات، ويصلحون الأضرار، في عمل متواصل، دون راحة، ودون طعام، طوال اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة متواصلة. معظم أفراد الطاقم يرتدون ملابس خفيفة. البحارة يرتجفون من البرد، ويسقطون أحياناً، منهارين من الحمى. وقد وقعت بعض الحوادث - فقد انزلق أحد البحارة من أعلى صاري المؤخرة، وكُسرت إحدى ساقيه - وأصيب نصف من هم على السفينة، بوباء جلدي، ترافقه دمامل وألم مبرح. وعندما خرجوا، أخيراً، من رأس هورنوس، وبدأت السفينة تبحر صعوداً، بمحاذاة ساحل أميركا الجنوبية، في المحيط الهادي، متوجهة إلى بالبارايسو، ترأس القبطان شابريه طقساً دينياً للشكر، لخروجهم أحياء من تلك المحنة، شارك فيه بورع، المسافرون والبحارة - باستثناء السفان ديفيد الذي أعلن أنه لا أدريّ - ومعهم فلورا أيضاً. قبل رأس هورنوس، لم تشعري قط، بأن الموت قريب منك إلى هذا الحد، يا أندلسية.

كانت تفكر في ذلك الطقس الديني، تحديداً، وفي صلوات زكرياس شابريه الصادقة، عندما خطر لها، في صباح أحد أيام وجودها في أفينيون، أن تستغل بضع ساعات فراغ متوفرة، لزيارة كنيسة سان بيير القديمة. أهالي أفينيون يعتبرونها إحدى درر المدينة. كان يقام هناك قداس. وكي لا تشتت ذهن المؤمنين، جلست فلورا على مقعد في أقصى الممر. وبعد قليل، أحست بالجوع - كان طعامها بسيطاً، بسبب نوبات المغص - ولأنها كانت تحمل قطعة خبز في جيبها، فقد أخرجتها وبدأت تأكل، بتكتم. لكن ذلك لم ينفعها كثيراً، إذ وجدت نفسها، بعد قليل، محاطة بجوقة نساء غاضبات، يغطين رؤوسهن بمناديل، ويحملن مسابح وكتب صلوات في أيديهن؛ ورحن يؤنبنها لقلة احترامها لمكان مقدس، والإساءة لمشاعر المؤمنين خلال القداس. أوضحت لهن أنها لم تتعمد إغضاب أحد، وأنها مضطرة لأكل شيء عندما تشعر بالتعب، لأنها تعاني من مرض في المعدة. وبدلاً من تهدئتهن، زادهم توضيحها غضباً، وراح عدد منهن،

بالفرنسية والبروفانسية، يدعونها «يهودية»، «يهودية مدنسة للمقدسات». فاضطرت إلى الانسحاب، كي لا تتخذ المسألة بعداً أكبر.

الحادث الذي وقعت ضحية له، في اليوم التالي، في ورشة نساجين، هل كان نتيجة لما جرى في كنيسة سان بيير؟ فعند مدخل الورشة، وفي وضع متوعد، كانت تغلق الطريق أمامها، وتنتظرها، جماعة من العاملات، أو من نساء العمال وقريباتهم، كما يبدو من ملابسهن البائسة جداً. بعضهن كن حفاة. محاولات فلورا للحوار معهن، والاستفسار عن سبب تأنيبهن لها، ولماذا يردن منعها من الدخول إلى الورشة، للاجتماع بالعمال، لم تؤد إلى نتيجة. فالأفينيونيات اللواتي كن يصرخن معاً، ويومئن بغضب، أسكتنها. وتوصلت إلى فهم تقريبي لخليط الكلام الذي يقلنه، بالفرنسية واللغة المحلية. فهن يخشين أن يفقد أزواجهن عملهم بسببها، وأن يجري اعتقالهم أيضاً. بعضهن كن يشعرن بالغيرة من وجودها هناك، فقد كن يصرخن بها «مُفسِدة» أو «عاهرة، عاهرة»، ويظهرن لها أظفارهن. مرافقاها الأفينيونيان، وهما من تلاميذ أغريكول بيرديغيي، نصحاها بأن تتخلى عن اللقاء مع العمال. لأنه لا يمكن استبعاد وقع اعتداء جسدي عليها، في ظل هياج الخواطر ذاك. وإذا ما جاءت الشرطة، فإن فلورا هي التي ستدفع ثمن الأطباق المهشمة.

اختارت أن تزور قصر البابوات، الذي تحول إلى ثكنة عسكرية. لم يثر اهتمامها المبنى الضخم والفخم، ولا لوحات ديفيريه وبريبيه التي تزين جدرانه السميكة - لم يكن لديها وقت ولا حماسة لتذوق الفن، بينما هي في حرب ضد الشرور التي تثقل على المجتمع - ولكنها بقيت معلقة بمدام غرو-جان، البوابة العجوز التي ترشد الزائرين في ذلك القصر الشبيه بسجن. بدينة، عوراء، ملتفة بمعطف على الرغم من حر الصيف الشديد الذي يجعل فلورا تتعرق. لقد كانت مدام غرو-جان، النشطة وكثيرة الحركة، ملكية متعصبة. تستغل

شروحاتها كذريعة للتهجم على الثورة الكبرى. فنكبات فرنسا كلها، حسب رأيها، بدأت سنة ١٧٨٩، مع أولئك اليعاقبة الكفرة، وبخاصة المسخ روبسبير. وكانت تعدد، بتلذذ قبوري، وبإدانات عنيفة، الأفعال السوداء التي اقترفها، في أفينيون، قاطع الطريق الروبسبيري جوردان، الملقب بقاطع الرؤوس. فقد قطع بنفسه، ستة وثمانين رأساً، وأراد أن يدمر هذا القصر. ولحسن الحظ، أن الرب لم يُتح له ذلك، وأنهى حياة جوردان على المقصلة. ولمجرد أن ترى كيف سيتحول وجه البوابة، أكدت فلورا فجأة، أن الثورة الكبرى هي أفضل ما حدث في فرنسا، منذ أزمنة القديس لويس. وأهم حدث تاريخي للبشرية. فكان على مدام غرو-جان أن تستند إلى أحد الأعمدة، وقد صعقها الذهول والغيظ.

المقطع الأخير من رحلة «**المكسيكي**»، قبالة سواحل أميركا الجنوبية، كان الأقل سوءاً. فقد كرّم المحيط الهادي اسمه، وأبدى سكوناً طوال الوقت؛ فاستطاعت فلورا أن تقرأ، فضلاً عن الكتب التي معها، كتباً أخرى من مكتبة السفينة الصغيرة التي تضم أعمالاً لمؤلفين مثل لورد بايرون، وشاتوبريان اللذين تقرؤهما لأول مرة. وكانت في أثناء القراءة، تسجل ملاحظات، تدرس الكتب، وتكتشف، في كل صفحة، أفكاراً تشدها. وتكتشف كذلك فجوات تعليمها. ولكن، هل حصلتِ حقاً على أي تعليم يا فلوريتا؟ هذه هي مأساة حياتك الحقيقية، وليس أندريه شازال. ما نوع التعليم الذي تحصل عليه النساء، حتى في هذه الأيام؟ هل كان ممكناً وقوع حادثة مثل حادثة المتدينات اللواتي أسمينك «يهودية» في كنيسة سان بيير، وأولئك اللواتي اعتبرنك «عاهرة» في وشة النساجين، لو أن النساء يتلقين تعليماً جديراً بهذه التسمية؟ ولهذا، فإن المدارس الإلزامية لنساء **الاتحاد العمالي**، ستثور المجتمع.

رست «**المكسيكي**» في ميناء بالبارايسو، بعد مئة وثلاثة وثلاثين يوماً من انطلاقها من بوردو، بتأخر شهرين عن الموعد المقرر. كانت

بالبارايسو شارعاً واحداً طويلاً، موازياً للبحر ذي الرمال السوداء. وفيها تعج بشرية شديدة التنوع، حيث يبدو أن ثمة تمثيلاً لكل شعوب الأرض، بالنظر إلى تنوع اللغات التي يجري التكلم بها: إنكليزية، فرنسية، صينية، ألمانية، روسية. جميع تجار العالم ومرتزقته ومغامريه، الآتين للبحث عن الحياة في أميركا الجنوبية، يدخلون القارة عبر بالبارايسو.

ساعدها القبطان شابريه على الإقامة في نزل تديره سيدة فرنسية، تدعى مدام أوبري. أثار وصولها الهياج في الميناء الصغير. فالجميع يعرفون عمها، دون بيو تريستان، أغنى الرجال في جنوبي البيرو، والذي كان منفياً لبعض الوقت، في بالبارايسو. خبر وصول ابنة أخ فرنسية لدون بيو - ومن باريس! - استثار صخب الأهالي. وكان على فلورا، في الأيام الثلاثة الأولى، أن تستسلم لاستقبال مواكب الزائرين. الأسر الكبرى تريد تقديم تحياتها إلى ابنة أخي دون بيو الذي يقسم الجميع بأنهم أصدقاؤه، ويتأكدون في الوقت نفسه، بأم العين، من صحة ما تقوله الأسطورة عن الباريسيات: جميلات، أنيقات، وشيطانات.

ومع الزائرين، جاء خبر، كان له على فلورا، وقع القنبلة: جدتها العجوز، أم دون بيو التي عقدت عليها أكبر الآمال، للاعتراف بها وضمها إلى أسرة تريستان، توفيت في أريكيبا، في السابع من نيسان ١٨٣٣، اليوم نفسه الذي أكملت فيه فلورا، ثلاثين سنة من عمرها، والذي انطلقت فيه، مبحرة في السفينة «**المكسيكي**». بداية سيئة لمغامرتك الأمريكية الجنوبية، يا اندلسية. واساها شابريه كيفما استطاع، حين رأى شحوبها. وأرادت فلورا أن تستغل الفرصة لتقول له إنها مضطربة جداً، ولا يمكنها الرد على عرضه بالزواج، ولكنه منعها من الكلام، وقد خمن ما ستقوله.

- لا يا فلورا، لا تقولي لي شيئاً. لم يحن الوقت بعد. ليست هذه هي اللحظة المناسبة لأمور بالغة الأهمية. واصلي رحلتك. اذهبي إلى

أريكيا للقاء أسرتك، رتبي شؤونك. وأنا سأذهب للقائك هناك. وعندئذ، ستخبرينني بقرارك.

عندما غادرت فلورا أفينيون، في الثامن عشر من تموز ١٨٤٤، متوجهة إلى مرسيليا، كانت متحمسة أكثر مما كانت عليه، في الأيام الأولى، في مدينة البابوات. فقد شكلت لجنة للاتحاد العمالي من عشرة أعضاء - عمال نسيج وسكك حديد وخباز - وحضرت اجتماعين سريين مكثفين مع الكاربوناريين[1]. وهؤلاء على الرغم من كونهم مقموعين بقسوة، إلا أنهم لا يزالون نشطين في بروفانس. أوضحت لهم فلورا أفكارها، وهنأتهم على شجاعتهم في النضال من أجل أفكارهم الجمهورية. ولكنها أغاظتهم عندما قالت إن تشكيل المنظمات السرية، والعمل السري، هما من الأمور الصبيانية والرومانسية التي مضى زمانها، مثل آمال الإيكاريين بالذهاب لتأسيس الفردوس في أميركا. فالنضال يجب خوضه في وضح النهار، أمام العالم بأسره، هنا وفي كل مكان، كي تصل أفكار الثورة إلى العمال والفلاحين، وإلى كل المستغَلين دون استثناء، لأنهم هم وحدهم، بصفوفهم المتراصة، من سيغيرون المجتمع. استمع إليها الكاربوناريون، مشوشين. وقد أنبها بعضهم بجفاء، لأنها توجه إليهم انتقادات لم يطلبها أحد منها. وبدا آخرون متأثرين بجرأتها. وقد قال لها زعيمهم، السيد بروني، لدى وداعها: «بعد زيارتك هذه، ربما سيكون علينا نحن الكاربوناريين، أن نراجع مبدأ حظر قبول النساء في جمعيتنا».

---

[1] الكاربوناريون Los carbonarios: جمعية سياسية سرية، تأسست في إيطاليا، في أوائل القرن التاسع عشر، وامتدت إلى فرنسا. كانت تسعى إلى انتصار الأفكار التحريرية وتوحيد إيطاليا.

Nevarmore .X

بابيتي، أيار ١٨٩٧

عندما قالت له باؤورا، في أواخر أيار، إنها حبلى، لم يولِ كوكي الخبر أهمية. وكذلك فعلت خليلته؛ على طريقة نساء الماووري اللواتي يأخذن حبلهن، بقدرية هادئة، دون سعادة ودون مرارة. لقد كانت مرحلة بالغة الشؤم بالنسبة إليه، بسبب عودة القروح مرة أخرى، وآلام كاحله، والعوز الاقتصادي، بعد إنفاق آخر سنتافو من ميراث العم زيزي. غير أن حَبَل باؤورا ترافق مع تبدل في الحظ. ففي الوقت الذي بدأت قروح ساقيه تندمل من جديد، وصلته حوالة مالية بقيمة ألف وخمسمئة فرنك، من دانييل دو مونفريد؛ فقد باع أمبراوس فولار، أخيراً، بعض اللوحات، ومنحوتة واحدة. في تلك الأثناء، كان يأتي لزيارته أحياناً، ولتدخين غليون، وشرب كأس من الروم معه، الجندي الفرنسي السابق، بيير ليفرغو الذي استقر، بعد أن هجر الزي العسكري، في بستان أشجار مثمرة، على مقربة من بوناويا. وقد أكد له بول، بين الجد والمزاح:

– لقد قرر «الأريوري» حمايتي، منذ أن علموا بأنني سأصير أباً لطفل تاهيتي. ابتداء من الآن، وبعون آلهة هذه البلاد، ستتبدل الأمور إلى الأفضل.

وهذا ما حدث، ولكن لبعض الوقت. فمع الأموال وتحسن الصحة – وإن كان يعلم أن كاحله سيؤلمه دوماً، وأنه سيظل أعرج، مدى الحياة – وبعد أن دفع الديون، استطاع العودة لشراء دمجانات النبيذ التي تستقبل الضيوف عند باب بيته. وإقامة ولائم، في أيام الآحاد، يكون الطبق النجم فيها، هو عجة رغوية، شبه مائعة، يحضّرها هو نفسه، بحركات معلم طهاة. أثارت الحفلات مجدداً، غضب كاهن بوناويا الكاثوليكي وراعيها البروتستانتي؛ ولكن بول لم يولهما أدنى اهتمام.

كان طيّبَ المزاج، متحمساً، ومتأثراً بصورة فاجأته هو نفسه، لرؤية كيف بدأ خصر محظيته وبطنها ينتفخان. لم تُصب الصبية، في الشهور الأولى، بذلك الدوار والتقيؤ اللذين كانا يرافقان كل حمل، لزوجته مت غاد. بل على العكس، فقد واصلت باؤورا نظام حياتها، كما لو أنها لا تشعر بأن كائناً حياً ينمو في أحشائها. ابتداء من شهر أيلول، عندما بدأ بطنها يتكور، اكتسبت نوعاً من السكينة، من البطء الإيقاعي. فصارت تتكلم بتمهل، وتتنفس بعمق، وتحرك يديها في كاميرا بطيئة، وتمشي بساقين مفتوحتين كثيراً، كيلا تفقد توازنها. وكان بول يكرس وقتاً طويلاً في مراقبتها. وحين يراها تتنفس بعمق، رافعة يديها إلى بطنها، كما لو أنها تريد الاستماع إلى الطفل، يغمره إحساس يجهله: الحنان. أتراك صرت عجوزاً يا كوكي؟ ربما. وهل يمكن لمتوحش، أن يشعر بالانشراح، لتجربة الأبوة التي يشعر بها الجميع؟ أجل، لا شك في ذلك، لأنك تشعر بالسعادة، بهذا المخلوق من صلبك، الذي سيولد قريباً.

انعكست حالته المعنوية في خمس لوحات رسمها بسرعة، حول موضوع الأمومة: *تي أريفاهيني* (المرأة النبيلة)، و*نو تي آها وي ريري* (لماذا أنت غاضبة؟)، و *تي تاماري نو آتوا* (ابن الرب)، و*نافي نافي ماهانا* (أيام عذبة)، و*تي ريريوا* (الحلم). لوحات تكاد لا تتعرف على نفسك فيها، يا كوكي، لأن الحياة فيها تبدو بلا دراما، وبلا توتر أو عنف، متجمدة الحس، وساكنة، وسط مناظر طبيعية مترفة الألوان. يبدو البشر فيها، شيئاً مقتضباً وعابراً في الفردوس النباتي. رسم فنان راض عن حياته!

ولدت الطفلة قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد، لسنة ١٨٩٦، عند الغروب، في الكوخ الذي يسكنانه، بمساعدة قابلة القرية. كانت ولادة بلا تعقيدات، على خلفية من كورال أغنيات الميلاد التي يتدرب عليها أطفال وطفلات بوناويا، في الكنيستين، البروتستانتية والكاثوليكية. احتفل كوكي وبيير ليفرغو بمولد الطفلة، بكؤوس من الأفسنتين،

جالسين في الهواء الطلق، مترنمين بأغنيات بريتانية، كان الرسام يرفقها بأنغام ماندولينه.

– إنه غراب – قال كوكي فجأة، متوقفاً عن العزف، ومشيراً إلى شجرة المانجا الضخمة.

– لا توجد غربان في تاهيتي – فوجئ الجندي السابق، وهو ينهض قافزاً، ليذهب ويرى – لا توجد غربان ولا أفاع. ألا تعرف ذلك؟

لم يستطيعا التأكد من الأمر، لأنهما عندما اقتربا من شجرة المانجا، اختفت تلك الكتلة القاتمة، ذلك الشبح الأسود.

– إنه طائر شؤم. أعرف ذلك جيداً – ألح كوكي – غراب لِبولدو جاء لينبئني بمأساة. وهذا جاء إلى هنا بخبر كارثة أخرى. ستتفتح قروح الأكزيما، أو أن صاعقة ستصيب هذا البيت، وتحرقه في العاصفة القادمة.

– إنه طائر آخر. من يدري ما هو – أصر بيير ليفرغو – ففي تاهيتي، وفي موريا، والجزر الأخرى هنا، لم يُشاهد أي غراب قط.

بعد يومين من ذلك، بينما كان كوكي وباؤورا يتناقشان حول الكنيسة التي سيأخذان إليها الطفلة، لتعميدها – هي تريد الكنيسة الكاثوليكية، أما هو فيرفض ذلك، لأن الأب داميان أشد عداء له من الموقر ريكيلم الأحسن معشراً –، تصلبت الصغيرة فجأة، وبدأت تَزرَقُّ كما لو أنها تفتقد القدرة على التنفس، وظلت جامدة. عندما وصلا بها إلى مركز بوناويا الصحي، كانت قد ماتت، «بسبب خلل خلقي في الجهاز التنفسي»، حسب تقرير الوفاة الذي وقّعه ضابط الصحة العامة.

دفنا الطفلة في مقبرة بوناويا، دون خدمة دينية. لم تبك باؤورا، لا في ذلك اليوم، ولا في الأيام التالية. وشيئاً فشيئاً، عادت إلى روتينها المعهود، دون أن تأتي على أي ذكر لطفلتها المتوفاة. وبول أيضاً، لم يتكلم عنها، لكنه كان يفكر ليلاً ونهاراً بما حدث. وصار

ذلك التفكير يعذب روحه، مثلما جرى له، قبل شهور، مع ***صورة آلين غوغان***، التي لن يعرف قط، أين هي.

كنتَ تفكر في الطفلة الميتة، وفي الطائر المشؤوم - لقد كان غراباً، أنت واثق من ذلك، مهما أكد الوطنيون والمستوطنون أنه لا وجود لغربان في تاهيتي - لقد حرك ذلك الشبح المجنح صوراً قديمة في ذاكرتكَ، من زمن، وإن يكن غير بعيد جداً، إلا أنك تشعر بأنه بالغ القِدم. حاول الحصول، من مكتبة النادي العسكري المتواضعة في بابيتي، ومن مكتبة المستوطن أوغوست غوبيل - المكتبة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم في الجزيرة - على مطبوعة تتضمن الترجمة الفرنسية لقصيدة إدغار آلن بو ***«الغراب»***. كنتَ قد استمعتَ إلى قراءة لها، بصوت عال، من المترجم، صديقك، الشاعر استيفان مالارميه، في بيته، في شارع روما، خلال سهرات أيام الثلاثاء تلك، في الفترة التي اعتدت التردد عليها. إنكَ تتذكر بوضوح، شروحات استيفان المتأنق والمرهف، حول الفترة الفظيعة من حياة بو، المنهوك من الكحول، والمخدرات، والجوع، والمصائب العائلية، هناك في فيلادلفيا، عندما كتب النسخة الأولى من ذلك النص. تلك القصيدة الرهيبة، المترجمة بصورة شديدة الكآبة، وفي الوقت نفسه، شديدة التناغم، شديدة الحسية، وشديدة المأتمية، أذهلتكَ حتى النخاع يا بول. تأثرك بتلك القراءة، دفعك إلى رسم صورة لمالارميه، تكريماً لمن استطاع أن يصوغ بالفرنسية، بطريقة بالغة المهارة، تلك القصيدة البارعة. لكن الصورة لم تعجب استيفان. وربما كان محقاً. ربما لم تتوصل إلى الإمساك بملامح وجهه المتهربة، كشاعر.

تذكر أنه، خلال العشاء الذي أقامه أصدقاؤه لوداعه، في مقهى فولتير، يوم الثالث والعشرين من آذار ١٨٩١، عشية رحلته الأولى إلى تاهيتي، وكان قد ترأسه استيفان مالارميه تحديداً، قرأ هذا الأخير ترجمتين لقصيدة ***«الغراب»***، ترجمته وترجمة الشاعر الرهيب شارل بودلير الذي كان يتباهى بأنه تحادث مع الشيطان. وبعد ذلك، في

لفتة شكر على الصورة، أهدى استيفان إلى بول، نسخة، مع إهداء، من الطبعة المحدودة الخاصة للترجمة التي ظهرت سنة ١٨٧٥. أين هو ذلك الكراس؟ تفحص محتويات صندوق العجائب والغرائب، لكنه لم يجده. من هو الصديق الذي أخذه منك ولم يُعده؟ في أي واحدة من تنقلاتك الكثيرة، ضاعت تلك القصيدة التي تحتاجُ الآن، بإلحاح - مثل حاجتك إلى الكحول والأفيون، عندما تداهمك الآلام - إلى إعادة قراءتها؟ الذاكرة القاحلة التي عناها بحثك عن صورة أمك، منعتك من التوسل إلى أصدقائك، أن يحاولوا العثور على تلك الترجمة لقصيدة بو.

إنه لا يتذكر أبيات الشعر. ولكنه يتذكر اللازمة التي تنتهي بها المقاطع - «*Nevarmore*»، «أبداً»، ويتذكر كذلك، تصاعد القصيدة، والقصة فيها. إنها قصيدة مكتوبة لكَ يا كوكي، أيها التاهيتي، في هذه اللحظة من حياتكَ. وأنت تشعر بأنكَ - بل لقد كنت - ذلك الطالب، في منتصف تلك الليلة العاصفة، وهو غارق في تأملاته وقراءاته، بقلب ممزق على موت حبيبته إلينور، ويأتي غراب ليقطع عليه تأملاته. يدخل من نافذة غرفته، مدفوعاً بالعاصفة أو مبعوثاً من الظلمات، ويحط على عمود المرمر الأبيض لتمثال «بالاس» الذي يحرس الباب. إنك تتذكر بوضوح محموم، كآبة القصيدة وتلوناتها المأتمية، وإيحاءها بالموت، بالرعب، بالتعاسة، بالجحيم («شواطئ بلوتون»)، بالظلام، وبالقلق من الغيب. وعلى كل أسئلة الطالب عن حبيبته، عن المستقبل، يرد الطائر القبيح بنعيب مشؤوم: («أبداً»، «*Nevermore*»)، إلى أن يولّد وعياً مغموماً بالأبدية، بالزمن الثابت. وتتذكر الأبيات النهائية، عندما تغادر القصة الشاعر وزائره الأسود، محكومين بالبقاء وجهاً لوجه، إلى آخر الأزمنة، وأبد الآبدين.

عليكَ أن ترسم يا كوكي. ها هو ذا، من جديد، ذلك الأزيز الحلزوني الذي يداهمك منذ زمن، يطالبك، يحولك إلى كائن مختلج، متشنج، متوهج. أجل، أجل، بالطبع: يجب أن ترسم. ماذا سترسم؟

وبحركات محمومة، يتأكله التهيج، وفوران الدم، ذاك الذي يجعل الجلد يقشعر، ويصعد حتى الدماغ، ويُشعره بالأمان، بالقوة، بالظفر، ركّب قماشة على الإطار، وثبتها على المنصب، بمسامير صغيرة. وبدأ برسم الطفلة الميتة، محاولاً بعثها، انطلاقاً من معتقدات وخرافات الماووري القدماء، تلك التي لم يبق منها أثر، أو التي يحفظها الحاليون مخبأة، وسرية، ومحظورة عليك، يا كوكي. عمل لأيام بكاملها، صباحاً ومساء، مع استراحة في الظهيرة، لقيلولة قصيرة، معيداً خلق الجسد الصغير، الوجه المحبب. وعند غروب اليوم الثالث، عندما لم يعد الضوء المتضائل يتيح له العمل، بصورة مريحة، وجّه لطخة طلاء أبيض، بالفرشاة إلى الصورة التي كوّنها بدأب. كان يشعر بالقرف، بالهيجان، وبغضب يسدّ أذنيه وعينيه، ذلك الغضب الذي يتلبسه عندما يرى، بعد هبة حماسة تدفعه إلى العمل، أنه أخفق. ما تبديه لك اللوحة قمامة، يا كوكي. وعندئذ، أضيف إلى الخيبة، وإلى الإحباط، وإلى الإحساس بالعجز، ألمٌ حاد في المفاصل والعظام. ترك رياش الرسم إلى جانب مزّاجة الألوان، وقرر أن يشرب، حتى فقدان الوعي. وبينما هو يجتاز غرفة النوم، متوجهاً نحو المدخل، حيث توجد دمجانة النبيذ، رأى، دون أن يرى، باؤورا عارية، مستلقية على جانبها. وجهها متوجه نحو الفتحات المربعة في الجدار، التي تبدو من خلالها، في سماء زرقاء كوبالتية، أولى النجوم. تطلعت عينا امرأته إليه برهة، دون مبالاة، وعادتا تنظران إلى السماء، بهدوء، أو ربما دون اهتمام. في قرف باؤورا المزمن ذاك، تجاه كل شيء، كان ثمة شيء غامض، متكتم، يفتنه. توقف فجأة، اقترب منها، وراح يراقبها، وهو واقف. كنتَ تشعر بإحساس غريب، بهاجس مسبق.

هذا الذي تراه، هو ما يتوجب عليك أن ترسمه، يا كوكي. الآن بالذات. ودون أن يقول شيئاً، ذهب إلى المرسم، تناول دفتر الرسوم التخطيطية، وبعض قطع الفحم، ورجع إلى غرفة النوم. تهاوى،

جالساً على حصيرة الأرضية، قبالة باؤورا. لم تتحرك المرأة، ولم توجه إليه أي سؤال، بينما هو ينجز، بخطوط سريعة، رسمين تخطيطيين، ثلاثة، أربعة، للفتاة المستلقية على جانبها. كانت باؤورا تغمض، بين حين وآخر، عينيها، وقد غلبها النعاس، ثم تفتحهما في الحال، وتصوبهما هنيهة، إلى كوكي، دون أدنى فضول. كانت الأمومة قد منحت وركيها مزيداً من الكمال، فصارا الآن، أكثر استدارة. وزُوِّد بطنها بثقل مهيب يذكرك ببطون ومؤخرات جاريات أنغر المسترخيات، وبملكات روبنز وديلاكروا ونسائهما الأسطوريات. ولكن لا، لا، يا كوكي. هذا الجسد الرائع ذو البشرة الكامدة، مع انعكاسات ذهبية، ذو الفخذين المتينين، المتطاولين، في ساقين قويتين، مخروطتين بانسجام، ليس جسداً أوروبياً، ولا غربياً، ولا فرنسياً. إنه تاهيتي. إنه ماووري. إنه كذلك، في الاستسلام والحرية اللذين ترقد بهما باؤورا، في الحسية غير الواعية التي تسكبها من كل مسام في جسمها، حتى من جدائل الشعر الأسود، فوق الوسادة الصفراء - صفرة مذهبة شديدة الثراء، دفعتك إلى التفكير في ألوان **الهولندي المجنون** الذهبية الجامحة التي تجادلتَ معه، حولها مطولاً، في آرل - مما يزيد تلك الجدائل سواداً. الهواء يحمل عبقاً مهيجاً، محبباً. شبقاً زخماً راح يُسكِرَكَ أكثر من النبيذ الذي كنت تستعد لشربه، عندما رأيت **فاهينتك** عارية، في ذلك الوضع الذي وفرته العناية الإلهية، وأخرجك من الاكتئاب.

أحس بعضوه يتصلب، لكنه لم يتوقف عن العمل. فقطعُ العمل، في هذه اللحظة، سيكون امتهاناً للمقدسات، لأن السحر لن يعود للظهور ثانية. عندما انتهى من إعداد المادة التي يحتاجها، كانت باؤورا قد نامت. أحس بأنه مستنفد، وإن كان ذلك الشعور مترافقاً بالتفاؤل، وبسكينة في الروح. غداً ستبدأ اللوحة من جديد، يا كوكي، ودون تردد هذه المرة. أنت تعرف تماماً اللوحة التي سترسمها. وتعرف أيضاً أنه وراء المرأة العارية والمذهبة، في هذه اللوحة،

المستلقية على سرير، ورأسها يستريح على وسادة صفراء، سيكون هناك غراب. وأن اللوحة ستُسمى *Nevarmore*.

في اليوم التالي، عند الظهر، اقترب صديقه بيير ليفرغو من الكوخ، كما في أيام أخرى، ليشربا كأساً معاً، ويتبادلا الحديث. فصرفه كوكي بطريقة فظة:

- لا تعد إلى أن أستدعيك يا بيير. لا أريد لأحد، أن يقاطعني، لا أنت ولا أي شخص آخر.

لم يطلب من باؤورا أن تتخذ الوضع الذي كان يرسمها فيه؛ لأن ذلك سيكون كمن يطلب من السماء، أن تعيد إنتاج ذلك الضوء الخاص الذي رأى فيه **فاهينته**. ضوء على وشك التلاشي ومحو الأشياء، واختزالها إلى ظلال... تحويلها إلى حزم بلا ملامح. لا يمكن للفتاة، أن تعود لإظهار ذلك السهو بالغ العفوية، ذلك الاسترخاء المطلق الذي فاجأها فيه. الصورة لا تزال نابضة في ذاكرته، ويمكن له، أن يستنسخها بسهولة، دون أن يتردد ثانية واحدة، في خطوط الوجه وملامحه. ولكنه سيتكلف بالمقابل، جهداً كبيراً في تحميم صورتها بذلك الضوء المائل إلى الزوال، المختلط بشيء من الزرقة، في ذلك الجو الطيفي، أو السحري، أو الإعجازي الذي سيمنح **نيفرمور**، دون شك، طابعها الخاص، وشخصيتها. اشتغل شكل القدمين بدقة، مثلما يتذكرهما، ممدودتين، أرضيتين، أصابعهما متباعدة، تبعثان في النفس، إحساساً بالرسوخ، بأنهما كانتا على الدوام، على اتصال بالأرض، في تعاقد جسدي مع الطبيعة. واعتنى بالبقعة الدامية في ذلك الجزء المهجور من اللوحة، إلى جانب قدم باؤورا وساقها اليسرى: لهب حريق، خثرة تحاول أن تشق طريقها في ذلك الجسد الحسي.

انتبهَ إلى أن هناك تواصلاً وثيقاً بين هذه اللوحة، وتلك التي رسمها لتيهامانا، سنة ١٨٩٢: ***ماناو توباباو*** (الشيطان يحرس الطفلة)، عمله التاهيتي البارع الأول. هذه اللوحة ستكون عملاً بارعاً

آخر، أكثر نضجاً وعمقاً من تلك، أشد برودة، وأقل ميلودرامية، وربما أكثر تراجيدية. فبدلاً من خوف تيهامانا من الشبح، تظهر باؤورا هنا، بعد محنة فقدان ابنتها حديثة الولادة، راقدة بسلبية، باستسلام، بذلك الوضع الحكيم والقدري الذي يتخذه أبناء الماووري، حيال القدر المتمثل بغراب بلا عينين، يحلّ في *نيفرمور*، محل الشيطان في *ماناو توباباو*. عندما رسمتَ، بعد خمس سنوات، هذه اللوحة الأخيرة، كنتَ لا تزال تجرجر الكثير من بقايا الافتتان الرومانسي بالشر، بالموت، بالكآبة، مثل شارل بودلير، الشاعر المغرم بإبليس، ويؤكد أنه تعرف عليه، في إحدى الليالي، جالساً في إحدى حانات مونبارناس، وتناقش معه حول علم الجمال. ذلك الديكور الأدبي- الرومنسي كان قد اختفى. فقد جعلت الغراب تروبيكالياً: تحول إلى لون أقرب إلى الخضرة القاتمة، مع منقار رمادي، وأجنحة ملطخة بالدخان. في هذا العالم الوثني، تتقبل المرأة المستلقية حدودها، تعرف أنها عاجزة عن مواجهة القوى السرية القاسية التي تنقض فجأة، على الكائنات البشرية، لتدمرها. الحكمة البدائية - حكمة الأريوري - لا تتمرد ضدهم، ولا تبكِ، ولا تحتج. تواجههم بفلسفة، بصفاء، باستسلام، مثلما تواجه الشجرة والجبل العاصفة، ومثلما تواجه رمال الشاطئ المد الذي يغمرها.

عندما أنهى رسم العارية، أثث الفراغ حولها بطريقة مترفة، غنية بالتفاصيل، بتلونات متنوعة وتآلفات مرهفة. ذلك الضوء المحير، الضوء الغسقي، يُحمّل الأشياء بالغموض الملتبس. كل موتيفات عالمك الشخصي ماثلة، لتضفي طابعك الخاص على هذا التركيب الذي هو، مع ذلك، تاهيتي لا يمكن الخطأ فيه. ففضلاً عن الغراب الأعمى، المتلون بالتروبيكالية، تطل على مستويات مختلفة، أزهار متخيلة، بعض الظلال الأنبوبية المنتفخة، سفن نباتية مشرعة القلوع، وسماء سُحب مبحرة، يمكن لها أن تكون غيوم لوحة تغطي جداراً، أو غيوم سماءٍ تُطل من نافذة مفتوحة على فناء. والمرأتان اللتان

تتبادلان الحديث، وراء الفتاة المستلقية، إحداهما تدير ظهرها، والأخرى بصورة جانبية، من هما؟ أنت لا تعرف ذلك، ففيهما شيء مشؤوم وغيبي، شيء أشد قسوة من الشيطان القاتم في *ماناو توباباو*، متخفٍّ وراء طبيعية مظهرهما. يكفي تقريب العينين من الفتاة المستلقية، لندرك أن عينيها، على الرغم من استلقائها الساكن، منحرفتان: تحاول سماع الحوار الدائر وراء ظهرها. وهو حوار يقلقها. وعلى أشياء مختلفة في الحجرة - الوسادة، الملاءة - تظهر الأزهار اليابانية الصغيرة التي ترد آلياً إلى ريشتكَ، منذ أن اكتشفتَ، في بداياتك، كرسام، أعمال الحفر اليابانية، في عصر ميجي. ولكن، يظهر الآن أيضاً، في هذه الأزهار، الغموض الخفي للعالم البدائي، لأنها تتبدل، حسب زاوية الرؤية، متحولة إلى فراشات، نجوم، تشكيلات طائرة.

عندما أنهى اللوحة - ظل يهذب فيها، ويضيف لمسات إلى التفاصيل، قرابة عشرة أيام - أحس بالسعادة، بالحزن، بالخواء. نادى باؤورا. وبعد أن تأملت اللوحة لبعض الوقت، بملامح غير معبرة، هزت رأسها، دون حماسة:

- أنا لستُ هكذا. هذه المرأة عجوز. أنا أكثر شباباً، بكثير.

- معك حق - ردّ عليها - أنت شابة. وهذه أزلية.

استلقى لينام قليلاً. وعندما استيقظ، بحث عن بيير ليفرغو. دعاه للذهاب إلى بابيتي، ليحتفلا بعمله البارع الذي أنهاه للتو. شربا في بارات المرفأ، دون توقف، طوال الليل، ومن كل شيء: أفسنتين، روم، بيرة، إلى أن فقدا الوعي. حاولا دخول محل لتدخين الأفيون، على مقربة من الكاتدرائية، لكن الصينيين طردوهما. ناما على أرض إحدى الحانات. وفي اليوم التالي، لدى عودتهما إلى بوناويا، في العربة العامة، كانت أحشاء بول مضطربة، وكان يشعر بغثيان وبحموضة مسممة في المعدة. ولكنه رغم حالته تلك، غلّف قماشة اللوحة بحذر، وأرسلها إلى دانييل دو مونفريد، مع هذه السطور

المقتضبة: «بما أن هذه اللوحة عمل بارع، فإنني أفضل عدم بيعها، إذا لم يكن ممكناً الحصول مقابلها، على سعر جيد».

عندما جاءه رد مونفريد، بعد أربعة شهور من ذلك، قائلاً له إن أمبراوس فولار قد باع **نيفرمور** بخمسمئة فرنك، في اليوم الأول لعرض اللوحة، في معرضه، كان بول قد غادر بوناويا، وصار يعيش في بابيتي. فقد وجد وظيفة مساعد رسام، في مديرية الأشغال العامة، التابعة للإدارة الاستعمارية. وكان يكسب مئة وخمسين فرنكاً، تكفيه للعيش بصورة متواضعة. ولم يعد يتجول شبه عار، لا تغطيه سوى تنورة تاهيتية. وصار يلبس، مثل الموظفين، على الطريقة الغربية، مع انتعال حذاء. كانت باؤورا قد هجرته - فقد اختفت في أحد الأيام، دون أن تقول كلمة واحدة، آخذة معها، حفنة أمتعتها الشخصية - فانحطت معنوياته لذهابها، ولخبر موت ابنته آلين، في كوبنهاجن، الذي كانت وطأته عليه تزداد مع مرور الوقت. فباع البيت في بوناويا، وأقسم علناً، أمام جماعة من الأصدقاء، إنه لن يرسم شيئاً بعد اليوم، ولن ينحت أي شيء، ولو على قصاصة ورق أو قطعة من لب الخبز. وسيكرس وقته، من الآن فصاعداً، للعيش فقط، دون خطط من أي نوع. وعندما سألوه، دون أن يعلموا، إذا ما كان يتكلم بجد أم أنه مجرد هذيان كحولي، عن سبب اتخاذه ذلك القرار الحاسم، ردّ عليهم بأن كل ما يمكن أن يرسمه، بعد **نيفرمور**، سيكون سيئاً. فتلك اللوحة هي أنشودة بجعه.

بدأت عندئذ مرحلة من حياته، كان جميع جيرانه في بابيتي، يراقبونه خلالها، متسائلين كم سيستمر احتضار ذلك الميت في الحياة، الذي يبدو أنه قد دخل نهاية مستقيم الوجود، ويفعل كل ما من شأنه، تسريع موته. كان يعيش في فندق خارج المدينة، حيث تختفي بابيتي، كأن الغابة قد ابتلعتها. ويخرج من هناك باكراً جداً، في طريقه إلى مديرية الأشغال العامة؛ إذ كان عرجه يؤخره في الطريق، ضعف ما يحتاج إليه رجل عادي المشي. كان عمله أقل من

رمزي بقليل - إنه جميل يقدمه إليه الحاكم غوستاف غاليه - فقد كان ينجز المخططات التي يكلفونه برسمها، بخراقة شديدة وقرف، مما يجعلها مرفوضة. لكن أحداً لم يلفت نظره إلى ذلك. فالجميع يخشون طبعه النزق، ونزعة حب الشجار تلك التي لم تعد تسيطر عليه وهو مخمور فقط، وإنما وهو صاح، أيضاً.

لم يكن يأكل شيئاً تقريباً، فهزل كثيراً، وأحاطت بعينيه، دوائر بنفسجية. ونحول وجهه، جعل انكسار أنفه يبدو أكبر، وأكثر التواء، مثل أنوف أولئك الآلهة الذين كان يحب نحتهم من الخشب، سابقاً، مؤكداً أنهم آلهة الماووري القدماء.

كان يخرج من عمله إلى بارات المرفأ، مباشرة. وقد صارت الآن، اثني عشر باراً. يتقدم ببطء عبر شارع المرسى، الشارع التجاري، وحيداً، أعرج، مستنداً إلى عكازه، بمظاهر إنهاك جسدي واضحة على وجهه، متبرماً، عابساً، دون أن يرد على أحد، التحية. فقد تحول، هو الذي عرف فترات علاقات اجتماعية واسعة، مع الوطنيين والمستوطنين، إلى شخص نفور، صعب المعشر. يختار في أحد الأيام، أحد مقاهي الرصيف، وفي يوم آخر، رصيف مقهى آخر. يشرب كأساً من الأفسنتين أو من الروم أو النبيذ أو البيرة. وبعد رشفتين أو ثلاث رشفات، تصير عيناه زجاجيتين، وينعقد لسانه، ويومئ بحركات السكير المألوفة.

عندئذ، يتبادل الحديث مع السقاة، مع المومسات، ومع السكارى المحيطين به، أو مع بيير ليفرغو الذي كان يأتي من بوناويا لمرافقته، مشفقاً على وحدته. وحسب رأي الجندي السابق، فإن من يظن أنه سيموت، مخطئ. لأن ما يحدث لبول، برأيه، شيء أخطر. إنه يفقد عقله؛ فقد تحول عقله إلى خليط متشابك. يتحدث عن ابنته آلين التي ماتت في كوبنهاجن، وهي في العشرين، دون أن يتمكن من وداعها، ويطلق أقذع الكفر والإلحاد ضد الديانة الكاثوليكية. يتهمها بأنها قد قضت على الأريوري، الآلهة المحليين، وأنها سممت

وأفسدت عادات الوطنيين الصحية، الحرة، الخالية من الأحكام المسبقة والآفات الذهنية التي أوصلت أوروبا إلى انحدارها الحالي. وقد كانت هناك أهداف كثيرة لأحقاده وهيجانه. ففي بعض الأيام، يركز على الصينيين المقيمين في تاهيتي، ويتهمهم بأنهم يسعون إلى السيطرة على الجزيرة، للقضاء على التاهيتيين والمستوطنين، وتوسيع الإمبراطورية الصفراء. أو يتورط في مناجيات متشابكة مع نفسه، حول ضرورة أن يتجاوز الفن مقاييس الجمال الغربي، مقاييس المرأة والرجل ذوي البشرة البيضاء، والأبعاد المتناسقة التي وضعها الإغريق، والتحول إلى قيم غير متناسقة، وغير متناظرة.. إلى الجماليات الجريئة للشعوب البدائية، لأن أنماطها الجمالية أكثر أصالة، وتنوعاً ودنساً من الأنماط الأوروبية.

لا يهتم إذا كان هناك من يسمعه. وإذا ما قاطعه أحدهم بسؤال، يتظاهر بأنه لم يسمعه، أو يُسكته بعبارة بذيئة. كان يظل غارقاً في عالمه، وفي كل مرة، أقل تواصلاً مع الآخرين. السيئ كان غضبه الذي يحمله فجأة إلى شتم أي بحار نزل لتوه، إلى بابيتي، أو محاولته أن يوجه ضربة بكرسي إلى الزبون الذي، لسوء حظه، يوجه إليه نظرة. في مثل هذه الحالات، يقتاده رجال الدرك إلى مركز الشرطة، ويجعلونه يقضي ليلته في الزنزانة. ومع أن المقيمين في المدينة، كانوا يعرفونه، ولا يولون اهتماماً لاستفزازاته، إلا أن الأمر كان مختلفاً مع البحارة العابرين الذين يدخلون معه، أحياناً، في عراك باللكمات. عندئذ، يكون بول هو الخاسر، وينتهي نهاية سيئة، بكدمات في وجهه، ورضوض في جسده. كان عمره تسعاً وأربعين سنة فقط، لكن جسده كان محطماً مثل روحه.

موضوع آخر كان يتسلط على عقل كوكي، هو الانتقال إلى جزر الماركيزات. ومن كانوا قد ذهبوا إلى تلك المستعمرات التي تبعد أقرب جزرها إلى تاهيتي، أكثر من ألف وخمسمئة كيلومتر، حاولوا ثنيه عن الفكرة الخيالية التي كوّنها عن تلك الجزر. ولكنهم سرعان ما فضلوا

الصمت، مدركين أنه لا يسمعهم. يبدو أن رأسه لم يعد يميز بين الخيال والواقع. كان يقول إن كل ما أفسده الخوارنة الكاثوليك والقسس البروتستانت، والمستوطنون الفرنسيون والتجار الصينيون، ودمروه في تاهيتي وغيرها من جزر هذا الأرخبيل، لا يزال سليماً، بكراً، نقياً، حقيقياً في جزر الماركيزات. وإن الشعب الماووري هناك، لا يزال مثلما كان في القديم، شعباً متكبراً، حراً، همجياً؛ وشعباً بدائياً متين الاتحاد بالطبيعة وبآلهته، ما زال يعيش براءة العري، والوثنية، واحتفال الموسيقى، والطقوس المقدسة، وفن التواصل بالوشم، وطقوس الجنس الجماعي، وأكل اللحم البشري المُجَدد. لقد كان يبحث عن كل هذا، منذ أن نفض عنه القشرة البرجوازية التي احتوته منذ طفولته، وقد أمضى ربع قرن في هذا العالم الفردوسي، دون أن يجده. بحث عنه في بريتاني المحافظة والكاثوليكية، المتباهية بتدينها وعاداتها، ولكنها كانت قد دُنست على يد الفنانين السائحين والحداثة الغربية. ولم يجده كذلك، في بنما، ولا في المارتينيك، ولا هنا، في تاهيتي، حيث أحدث استبدال الثقافة البدائية بالأوروبية، جراحاً مميتة في المراكز الحيوية لتلك الحضارة المتفوقة، فلم يبق منها إلا آثار بائسة. لهذا، عليه أن يغادر. فما إن يتمكن من جمع بعض النقود، حتى يركب سفينة إلى الماركيزات. سيحرق ملابسه الغربية، وجيتاره وأكورديونه، ولوحاته ورياشه. سيتوغل في الأدغال إلى أن يجد قرية نائية معزولة، لتكون مسكنه. سيتعلم عبادة تلك الآلهة الدموية التي تؤجج الغرائز، والأحلام، والمخيلة، والشهوات البشرية، ولا تضحي قط، بالجسد من أجل العقل. سيدرس فن الوشم، وسيتمكن من إتقان نظام رموزه المتاهية، والحكمة السرية التي ما زالت تحفظها، سليمة، رموز ذلك الماضي الثقافي الغني. سيتعلم الصيد، والرقص، والصلاة بلغة الماووري البدائية تلك، الأقدم من التاهيتية، وسيجدد جسده بأكل لحم جاره. فكان بيير ليفرغو، الشخص الوحيد الذي يتحمل بول مزاحه، يقول له: «لن أضع نفسي

أبداً، في متناول أسنانك، يا كوكي».

ومن وراء ظهره، كان الجيران يضحكون منه. كانوا يتندرون برواية هذياناته. وعندما لا يسمونه الهمجي أو الأعرج، يسمونه آكل اللحم البشري. كان واضحاً أن عقله لم يعد سليماً، بسبب التناقضات التي يتورط فيها، عندما يستذكر حياته الماضية. كان يتبجح بأنه ينحدر مباشرة، من الإمبراطور الأزتكي الأخير، المدعو موكتيزوما. فإذا ما ذكّره أحدهم، باحترام، أنه أكد قبل أيام، بأنه ينحدر، في خط مباشر، من أحد نواب الملك في البيرو، يقول له، إنه كان كذلك بالفعل، وإن له فوق ذلك، جدة تدعى فلورا تريستان. كانت فوضوية في عهد الملك لويس فيليب. وقد ساعدها هو نفسه، في طفولته، في تحضير القنابل والبارود لعمليات اغتيال إرهابية ضد المصرفيين. لم يكن يهتم بدخوله في تأكيدات، لا رأس لها ولا أساس، أو في مغالطات زمنية فاحشة؛ فذكرياته هي اختلاقات ابنة لحظتها، لشخص منفصل عن الواقع، لرأس فبرك ماضياً، لأن ماضيه حللته الأمراض، والأدوية، والجنون والسكر.

لم يكن أي من المستوطنين أو ضباط الحامية الصغيرة أو الموظفين، يدعوه إلى بيته، أو يسمح له بالدخول إلى النادي العسكري. لقد تحول، في نظر مجتمع مستوطني تاهيتي-نوي الضيق، إلى شخص موبوء. بسبب حياته الفضائحية، وبسبب معيشته، علناً، مع وطنيات، ولأنه يظهر مع عاهرات، ويقوم بفضائح مجون مكشوف. سواء في ماتايّا أو في بوناويا - وهي فضائح كانت الشائعات تبالغ فيها حتى الهذيان - وبسبب سوء السمعة التي أشاعها عنه الخوري الكاثوليكي والراعي البروتستانتي (وخاصة الأب داميان). فعلى الرغم من خصومتهما المستحكمة، في تنافسهما على كسب أرواح الهنود، كلّ لكنيسته، اتفقا على اعتبار بول رساماً سكيراً ومنحطاً، وخطراً عاماً، وشخصاً غير جدير بثقة المجتمع، ومصدراً لفساد الأخلاق. ويمكن له أن يرتكب الجرائم في أي

لحظة. فما الذي يمكن انتظاره من شخص، يعلن أمام الملأ، عن مديحه لأكل اللحم البشري؟

في أحد الأيام، حضرت إلى مديرية الأشغال العامة، فتاة وطنية حبلى، وسألت عنه. لقد كانت باؤورا. وبحركة طبيعية، كما لو أنهما افترقا في العشية - «مرحباً كوكي» - أشارت إلى بطنها، مبتسمة نصف ابتسامة. وكانت تحمل في يدها، صرة ملابسها.

- هل أتيتِ للبقاء معي؟

أومأت باؤورا، مؤكدة.

- وهذا الذي في بطنك، مني؟

وعادت الصبية تومئ من جديد، بثقة كبيرة، وببريق خبيث في عينيها.

ابتهج كثيراً. ولكن التعقيدات ما لبثت أن برزت، وهو أمر لا يمكن تجنبه، عندما يتعلق الأمر بكَ، يا كوكي. فقد رفضت صاحبة البنسيون أن تسمح لباؤورا بمشاركة بول في حجرته، متذرعة بأن بنسيونها متواضع، ولكنه محترم؛ وهي لا تسمح لنفسها بأن تؤوي، تحت سقفها، شخصين غير متزوجين شرعياً، وخاصة رجلاً أبيض ووطنية. بدأا عندئذ جولة مؤثرة على بيوت الأسر التي تؤجر غرفاً في بابيتي. الجميع رفضوا استقبالهما. وكان على بول وباؤورا، أن يلتجئا في بوناويا، إلى مزرعة بيير ليفرغو الذي وافق على استضافتهما، إلى أن يجدا مكاناً يعيشان فيه، مما أكسب الجندي السابق، عداء الأب داميان، والموقر ريكيلمي.

صارت حياة كوكي شاقة جداً، بمعيشته في بوناويا، وعمله في بابيتي. فقد كان عليه، أن يركب عربة الخدمة العامة الأولى، بينما الظلام لا يزال مخيماً. ومع ذلك، كان يصل متأخراً، نصف ساعة، إلى مديرية الأشغال العامة. ولكي يعوض ذلك التأخير، عرض أن يتأخر، في العمل، نصف ساعة، بعد انتهاء الدوام.

وكما لو أنه لم يكن لديه ما يكفي من المشاكل، فقد تسلطت على

عقله، فكرة غير معقولة: أن يرفع دعوى قضائية ضد البنسيونات والنزل التي رفضت تقديم مأوى له، مع امرأته، في بابيتي، متهماً إياها بخرق قوانين فرنسا التي تحظر التمييز بين المواطنين، بسبب العرق أو الدين. أهدر ساعات، وأياماً، في استشارة المحامين والتحدث مع المدعي العام، حول مبلغ التعويضات الضخم الذي يمكنه، هو وباؤورا، أن يطلباه بسبب الإهانة التي لحقت بهما. فحاول الجميع ثنيه عن عزمه، مبينين له أنه لن يكسب أبداً، مثل تلك الدعوى؛ لأن القوانين تحمي حقوق مالكي الفنادق والبنسيونات ومديريها، في رفض استقبال من يفتقرون، حسب تقديرهم، إلى الاحترام. وما هو الاحترام الذي يحظى به، هو الذي يعيش في زنا مكشوف، وارتباط غير شرعي، أو زواج بامرأتين، إحداهما وطنية، وقد سبق له أن تسبب، وهو مخمور، في مشاكل كثيرة، مسجلة لدى الشرطة. كما تُثقل عليه، فوق ذلك، التهمة بأنه هرب من المستشفى، كي لا يدفع ما هو مترتب عليه؟ وبدافع الشفقة فقط، لم يحرك أطباء مستشفى بيامي ضده، دعوى ضرر. ولكنه إذا أصر على هذه المحاكمة، فإن تلك القضية ستخرج إلى العلن، وسوف يتضرر كوكي.

لم تكن هذه الحجج هي التي دفعته إلى التخلي عن القضية، وإنما رسالة مشتركة من صديقيه دانييل دو مونفريد وشوف الطيب، وصلته في منتصف عام ١٨٩٧، مثل منٍّ من السماء. وكانت مرفقة بتحويل مالي بقيمة ألف وخمسمئة فرنك، وتعلن عن تحويل جديد، بعد وقت قريب. فقد بدأ أمبراوس فولار ببيع لوحاته ومنحوتاته. ليس لزبون واحد، وإنما إلى عدد من الزبائن. ولديه وعود بالشراء، قد تُبرم في أي لحظة. وقد بدا ذلك كله كما لو أنه تمهيد لتبدل في قدر رسومه. ويبدي الصديقان، في الرسالة، سعادتهما لأن المقتنين بدؤوا، أخيراً، الاعتراف بما كان يقوله بعض النقاد والفنانين، بصوت خافت: إن بول فنان كبير، وإنه ثَوَّر الأنماط الجمالية المعاصرة. ويضيفان: «لا نستبعد أن يحدث لك ما حدث لفينسنت. فبعد

تجاهلـه، بصـورة منهجيـة، صـار الجميـع يتنـازعون الآن لوحاتـه، ويدفعون مقابلها، مبالغ خيالية».

فـي اليوم نفسه الذي تلقى فيه هذه الرسالة، استقال بول مـن مديرية الأشغال العامة. واشترى قطعة أرض صغيرة فـي بوناويـا، ليس بعيداً عن مزرعة بيير ليفرغو، حيث كان ينام هو وامرأته، فـي عنبر بلا جدران، عند حافة بستان الأشجار المثمرة، لأن بيت بيير ضيق جداً. وبإظهار رسالة صديقيه والشيك، وكذلك الإشعار بتحويلات مالية قريبة، تمكن من جعل مصرف بابيتي يقدم لـه قرضاً، لبناء مسكنه الجديد الذي رسم هو نفسه مخططاته، وتابع بناءه بحرص.

لقد تحسن بصورة ملحوظة، منذ عودة باؤورا. فقد صار يتغذى، واستعاد لونه، واستعاد قبل ذلك كله، الحماسة. وسُمع مرة أخرى يضحك، ويبدو اجتماعياً مع الجيران. ولم يكن حضور امرأته هو الذي أسعده فقط، وإنما كذلك، أفق أنه سيكون أباً لمولود تاهيتي. وهذا يعني استقراره النهائي في هذه الأرض، وأن أرواح هذا المكان، الأريوري، قد تقبلته أخيراً.

بعد حوالي شهرين، صار البيت الجديد مناسباً للسكن. كان أصغر من البيت السابق، ولكنه أمتن منـه، بجدران وسقف تقاوم المطر والرياح. لم يعد إلى الرسم، لكن بير ليفرغو كان يشك فـي حفاظه على وعده، بعدم إمساك رياش الرسم ثانية. كان الجندي السابق يصغي إليه، متظاهراً باهتمام لا يشعر به، يسمعه ينتقد رسامين يجهلهم، ويدافع عن أفكار لا يفهمها. فكيف يمكن إحداث «ثورة» في الرسم، بالطريقة التي عليها حال الرسم؟ وكان الذهول يعتري الجندي السابق، وهو يسمع بول يؤكد، في لحظات نشوته، أنّ مأساة أوروبا، وفرنسا، بدأت عندما لم تعد اللوحات والمنحوتات مختلطة بحياة الناس، مثلما جرى في العصر الوسيط، ومثلما حدث فـي كل الحضارات القديمة... حضارات المصريين، الإغريق، البابليين، الإنكا،

الأزتيك، وهنا أيضاً، بين الماووري القدماء. وهو شيء مازال يحدث في جزر الماركيزات، حيث سينتقل هو وباؤورا والطفل، بعد بعض الوقت.

قطع الداء الذي لا يُسمى تَحسُّن كوكي الجسدي والمعنوي، وأعاده فجأة، في شهر آذار، أكثر نزقاً من السابق. فقد عادت قروح ساقيه المتقيحة تتفتح. وفي هذه المرة، لم يعد المرهم الذي أساسه الزرنيخ، يخفف من آلامه. كما اشتدت، في الوقت نفسه، آلام كاحله. رفض صيدلي بابيتي مواصلة بيعه صبغة الأفيون، دون وصفة طبية. واضطر مذعناً، وبإحساس بالمهانة، إلى السماح بأخذه إلى مستشفى بيامي. رفضوا استقباله هناك، ما لم يصف قبل ذلك، ما هو مدين به، من المرة السابقة، عندما هرب من النافذة. وكان عليه أن يدفع، فوق ذلك، مبلغاً مقدماً لضمان أنه سيسدد الفاتورة، في هذه المرة.

ظل في المستشفى ثمانية أيام. ووافق الدكتور لاغرانج على أن يصف له صبغة الأفيون، مرة أخرى، محذراً إياه مع ذلك، من أنه لا يستطيع مواصلة الإكثار من هذا العقار المخدر، المسؤول إلى حد كبير، عما يعانيه من فقدان الذاكرة، وتشتت الذهن - عدم معرفته من يكون، وأين هو، وإلى أين يمضي - اللذين يشكو منهما الآن. وعندما تجرأ الطبيب، بكثير من اللف والدوران، على التأكيد بأنه سيكون من الأفضل له، وهو في هذه الحالة الصحية، التفكير في العودة إلى فرنسا، بلاده، حيث أهله ومعشره، وأناس من لغته، ودمه، وعرقه، لكي يقضي، بينهم، سنواته الأخيرة - وهي ستكون سنوات شاقة ومؤلمة، وعليه أن يعرف ذلك - جاء ردّ فعل بول بصوت صارخ:

- لغتي، وعرقي، ودمائي تاهيتية، يا دكتور. لن أعود إلى فرنسا، تلك البلاد التي لا أدين لها إلا بالإخفاق والتفاهة.

غادر المستشفى، والقروح لا تزال في ساقيه، ودون أن يخف ألم كاحله. ولكن صبغة الأفيون كانت تحميه من الآلام المبرحة واليأس. لقد كانت تجربه للتحلل شيئاً فشيئاً، من الوسط المحيط، والغرق في

عالم من الأحاسيس الصافية، والتصورات، والتخيلات التي تحرره من الألم والقرف اللذين يشعر بهما، حين يدرك أنه يتعفن في الحياة، وأن قروح ساقيه التي لا تُخفي نتانتَها الضماداتُ المضمخة بالمرهم، إنما هي إخراج إلى النور، لخطاياه، وقذاراته، ودناءاته، وشروره، وأخطائه التي ارتكبها مدى الحياة. وهي حياة لن تستمر، كما يبدو، طويلاً يا بول. ستموت قبل أن تصل إلى جزر الماركيزات.

في التاسع عشر من نيسان ١٨٩٨، ولد ابن كوكي وباؤورا. طفل ذكر سليم، ووزنه جيد، أطلقا عليه، باتفاقهما المشترك، اسم إميل.

XI. أريكيبا

مرسيليا، تموز ١٨٤٤

«هناك مدن تمقتها إحدانا دون أن تعرفها»، فكرت فلورا، فور نزولها من عربة السفر التي حملتها من أفينيون، مع رفيقي سفر، أحدهما خوري والآخر تاجر. كانت تتأمل بيوت مرسيليا باستياء. لماذا تكرهين هذه المدينة التي لم تريها بعد، يا فلوريتا؟ ستقول، في ما بعد، إنها مقتتها لأنها مدينة مزدهرة: هناك كثير من الأغنياء والناس الموسيرين، في بابل المغامرين والمهاجرين الجشعين الصغيرة تلك. الإفراط في التجارة والثراء فرض على سكانها، روحاً فينيقية، وفردية شرسة، انتقلت عدواها حتى إلى الفقراء والمستغَلين الذين لم تجد لديهم كذلك، أدنى استعداد للتضامن، بل وجدتهم سادرين في لامبالاة متحجرة، تجاه أفكار الوحدة العمالية والأخوة العالمية التي ذهبت لترسخها. يا للمدينة الملعونة التي لا يفكر قاطنوها إلا في الربح! فالمال هو سمُّ المجتمع؛ يُفسد كل شيء، ويحول الكائن البشري إلى وحش جشع وضار.

وكما لو أن مرسيليا أرادت أن تمنحها الحق، لتبرير استيائها، بدأ كل شيء يخرج لها معوجاً، منذ أن وطأت قدماها الأرض المرسيلية. تبين لها أن فندق مونمورنسي مرعب، يغص ببراغيث جعلتها تتذكر وصولها إلى البيرو، في أيلول ١٨٣٣، عبر ميناء إيسلاي، حين أمضت الليلة الأولى في بيت دون خوستو، مدير البريد، وظنت أنها ستموت من لسع تلك الحشرات الضارية التي تغذت عليها، دون رحمة. وفي اليوم التالي، هربت إلى نزل في وسط مرسيليا، تديره أسرة إسبانية؛ حيث قدموا لها غرفة بسيطة، فسيحة، ولم يعارضوا أن تستقبل هناك، جماعات من العمال. كان الشاعر-البناء شارل

بونسي، مؤلف نشيد **الاتحاد العمالي**، والذي ستعتمد عليه فلورا في مرافقتها إلى اجتماعاتها مع الشغيلة، قد سافر إلى الجزائر، تاركاً لها ملاحظة: إنه منهوك، وأعصابه وعضلاته بحاجة إلى الراحة. ما الذي يمكن انتظاره من الشعراء، حتى لو كانوا عمالاً؟ إنهم من مسوخ الأنانية أيضاً، مصابون بالعمى والصمم، حيال قدر الآخرين. فهم نرجسيون مفتونون بالآلام التي يخترعونها، كي يتمكنوا من غنائها. ربما عليكِ أن تأخذي في اعتبارك، يا أندلسية، أن الحظر في مجتمع **الاتحاد العمالي** المستقبلي، لن يقتصر على النقود وحدها، وإنما سيشمل الشعراء أيضاً، مثلما فعل أفلاطون في جمهوريته.

والأدهى من ذلك، أن آلامها ازدادت حدة، منذ يومها الأول في مرسيليا. خاصة التهاب القولون. فما إن تأكل أي شيء، حتى تنتفخ معدتها، ويشطرها المغص إلى نصفين. ولكنها صممت على عدم الاستسلام للهزيمة، وواصلت زياراتها واجتماعاتها، مختارة - وهذا صحيح - ألا تأكل شيئاً، باستثناء حساء بلا طعم، ومهلبية أطفال، يمكن لبطنها المنهوك، أن يحتفظ بهما.

في اليوم الثاني لوجودها في مرسيليا، وبعد اجتماع مع فريق من الحذائين والخبازين والخياطين، نظمه حلاقان من أتباع فورييه، كانت قد راسلتهما من باريس، بتوصية من فيكتور كونسيدران، وقعت لها حادثة في المرفأ، حيث شهدت واقعة جعلت دمها يفور. كانت تراقب من الرصيف، عمليات إفراغ سفينة رست حديثاً. ورأت هناك، بأم عينها، كيف يطبق نظام «الرقيق الأبيض» الذي أخبروها عنه في اجتماع الحلاقين. إذ قالوا لها: «عمال تفريغ السفن لن يأتوا لمقابلتك يا سيدتي. فهم أسوأ مستغلين للفقراء». لقد كان لدى عمال تفريغ السفن امتياز، يخولهم هم وحدهم، حق العمل في عنابر السفن، لشحن وتفريغ البضائع، وتقديم المساعدة للمسافرين، بنقل أمتعتهم. وكان كثيرون منهم يفضلون تأجير عملهم إلى جنويين وأتراك ويونانيين، يتزاحمون قبالة الرصيف، ويتوسلون بالإيماءات

والصراخ، أن يُستدعوا. كان عمال التفريغ يتلقون، مقابل إنزال أمتعة المسافر، أجراً جيداً: فرانكاً ونصف فرانك. فيقدمون للحمال المستأجَر خمسين سنتيماً، وتكون العمولة التي يحصلون عليها فرنكاً كاملاً، دون أن يحركوا إصبعاً. وما أخرج فلورا عن طورها، رؤيتها أحد عمال التفريغ أولئك، يُحمّل حقيبة ضخمة - تكاد تكون صندوقاً - لامرأة جنوية، طويلة وقوية، ولكنها حبلى، في شهور متقدمة من الحمل. كانت المرأة المنحنية، تحت ثقل الحمولة على كاهلها، تتقدم لاهثة باتجاه عربة المسافرين، ووجهها المحتقن من الجهد، يقطر عرقاً. أعطاها عامل التفريغ خمسة وعشرين سنتيماً فقط. وعندما بدأت تطالبه بفرنسية بربرية، بالخمسة والعشرين سنتيماً الأخرى، هددها وشتمها.

تصدت فلورا لعامل التفريغ، وهو عائد باتجاه السفينة، بين جماعة من رفاقه. وقالت له بغضب:

- أتعرف من تكون أنت أيها التعس؟ إنك خائن وجبان. ألا تخجل من التصرف مع هذه المرأة البائسة، مثلما يتصرف المستغِلون معك ومع أخوتك؟

نظر إليها الرجل، دون أن يفهم، متسائلاً إذا ما كان عليه، أن ينظر إليها كمعتوهة. وأخيراً، وسط ضحكات وسخرية الآخرين، اختار أن يسألها، بإيماءة ضيق:

- ومن تكونين أنت؟ من منحك الحق بالتدخل في شؤوني؟

فردت عليه بغضب:

- اسمي فلورا تريستان. تذكر اسمي جيداً. فلورا تريستان. أكرس حياتي للنضال ضد الظلم الذي يُقترف بحق الفقراء. حتى البرجوازيون أنفسهم، ليسوا بحقارة العمال الذين يستغلون عمالاً آخرين.

اشتعلت عينا الرجل - القوي، متصل الحاجبين، المُكرّش، ومعوج الساقين - بالسخط. وصاح بها وهو يبتعد، مومئاً بسخرية إلى النظارة على الرصيف:

- اعملي عاهرة، سيكون أفضل لك.

وصلت فلورا إلى البنسيون، مصابة بقشعريرة وحمى. تناولت بضع ملاعق حساء، وأوت إلى الفراش. كانت تشعر بالبرد، على الرغم من أنها تدثرت جيداً، ومع أن الوقت في أوج الصيف. لم تستطع أن تطبق جفونها طوال بضع ساعات. آه يا فلوريتا، جسدك اللعين هذا، ليس على مستوى همومك وواجباتك، ومقاصدك وإرادتك. أتراك صرتِ عجوزاً؟ الكائن البشري، في الحادية والأربعين، يكون مفعماً بالحياة. لكم تردى جسدك يا أندلسية. قبل إحدى عشرة سنة فقط، تحملت تلك الرحلة الرهيبة من فرنسا إلى بالبارايسو، ثم من بالبارايسو إلى إيسلاي، بعد ذلك. وأخيراً، هجمة البراغيث تلك التي أكلتكِ طوال الليل. يا للاستقبال الذي استقبلتك به البيرو!

إيسلاي: شارع وحيد وأكواخ من البامبو، شاطئ رمال سوداء، وميناء بلا مرفأ، حيث يُنزلون المسافرين مثلما يُنزلون حزم الأمتعة والبهائم، ببكرات وحبال تتدلى من سطح السفينة إلى قوارب خشبية. وصول ابنة أخي دون بيو تريستان الفرنسية إلى إيسلاي، أثار هزة في الميناء ذي الألف نسمة. ولهذا كان لا بد من استضافتكِ، في أفضل بيت في المكان، بيت دون خوستو دي ميدينا، مدير البريد. أفضل بيت، ولكن هذا لا يعفيه من البراغيث التي تسود في إيسلاي، وتهيمن عليها. في الليلة التالية، بعد أن رأت زوجة دون خوستو اللسعات التي تغطيكِ، من رأسك حتى قدميك، وكيف تحكين جسمك دون توقف، قدمتْ إليكِ وصفتها من أجل التمكن من النوم: خمس كراسٍ مصفوفة على التوالي، آخر كرسي منها يلامس السرير. تخلعين عند الكرسي الأول ثوبك الخارجي، وتجعلين الجارية تأخذه ببراغيثه. وتخلعين عند الكرسي الثاني، الملابس الداخلية، وتدلكين الأجزاء التي انكشفت من جسمك، بمزيج من الماء الفاتر والكولونيا، للتخلص من البراغيث الملتصقة بالجلد. ثم تواصلين، عند كل كرسي جديد، خلع بقية الملابس، مع دلك أجزاء

الجسم التي تنكشف، حتى الكرسي الخامس، حيث ينتظرك قميص نوم مبلل بماء الكولونيا، يُبقي القُراد بعيداً، ما دامت الكولونيا لم تتبخر منه. وهذا يتيح لك الاستغراق في النوم. وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات، تتبخر الكولونيا، فتعود البراغيث إلى الهجوم. ولكنك في أثناء ذلك، تكونين قد نمتِ، وبقليل من الحظ، وقليل من التعود، لا تشعرين بها.

كان ذلك، يا فلوريتا، هو الدرس الأول الذي قدمته إليك، بلاد أبيك وعمك دون بيو، بلاد أسرتك لأبيك الكبيرة، والتي جئت تكتشفينها، بوهم استرداد شيء من ميراث دون مريانو. ستقضين هناك سنة، وستكتشفين الرخاء، وما هو العيش ضمن أسرة ممتلئة بالزهو، دون هموم اقتصادية، وملامسة اللاواقعية.

كم كنتِ قوية وسليمة آنذاك، وأنت في الثلاثين، يا أندلسية. ولولا ذلك، لما كنتِ صمدت تلك الأربعين ساعة، على صهوة جواد، متسلقة جبال الأنديزَ، ومجتازَة الصحراء، بين إيسلاي وإريكيبا. من شاطئ البحر إلى ارتفاع ألفين وستمئة متر، بعد اجتياز مهاوٍ سحيقة، وجبال شاهقة - تبدو الغيوم فيها تحت قدميك - حيث كانت البهائم تتعرق وتصهل، مثقلة من الجهد. وتلا بردَ القمم، حر صحراء مترامية، دون أشجار، ودون أي ظل أخضر، وبلا أي غدير أو أي بئر. صحراء صخور متكلسة وكثبان رمل، يظهر الموت فيها فجأة، في هيئة هياكل عظمية لكائنات، لبغال، لخيول. صحراء بلا طيور ولا أفاعٍ ولا ثعالب، بلا كائنات حية من أي نوع. وإلى عذاب الظمأ، يضافُ عذاب القلق. وأنتِ، وحدك هناك، محاطة برجال القافلة الخمسة عشر الذين ينظرونَ إليك، جميعهم، بجشع مكشوف، بينهم طبيب، وتاجران، والدليل، وأحد عشر بغّالاً. هل ستصلين إلى أريكيبا؟ هل ستظلين على قيد الحياة؟

لقد وصلتِ إلى أريكيبا، وظللتِ على قيد الحياة. لو أنك كنتِ في ظروفك الجسدية الحالية، لقضيتَ نحبك، في تلك الصحراء، مثل

ذلك الطالب الشاب الذي كان قبره، بصليبه الخشبي المرتجل، هو الإشارة الوحيدة إلى الحضور البشري، في ذلك الطريق القمري الذي يتطلب اجتيازه يومين على الخيول، بين إيسلاي وبراكين **المدينة البيضاء** المهيبة.

الألم الذي تشعر به، كان يُفقدها الصبر بسرعة، في اجتماعاتها المرسيلية، بسبب الأسئلة البلهاء التي يوجهها إليها، أحياناً، العمال الذين يأتون للاجتماع بها، في نزل الإسبان. فبالمقارنة مع عمال ليون، كان عمال مرسيليا أشبه بكائنات ما قبل التاريخ، جهلة، أجلافاً، دون أدنى فضول تجاه المسألة الاجتماعية. كانوا يتثاءبون، وهم يستمعون دون مبالاة إلى شروحها عن أنهم سيحصلون، بفضل **الاتحاد العمالي**، على عمل مضمون، وسيتمكنون من أن يوفروا لأبنائهم، تعليماً جيداً كالذي يوفره البرجوازيون لأبنائهم. وأكثر ما كان يُغضب فلورا، هو الدهشة المرتابة، والعدائية المكشوفة أحياناً، التي يستمعون بها إليها، وهي تتكلم ضد النقود، وقولها إن التجارة ستختفي مع الثورة، وسيعمل الرجال والنساء، كما في المجتمعات المسيحية البدائية، لا سعياً وراء الحوافز المادية، وإنما بدافع الإيثار، من أجل إشباع حاجاتهم الخاصة وحاجات الآخرين. وإن الجميع، في ذلك العالم المستقبلي، سيعيشون حياة تقشف، بلا عبيد بيض أو سود. ولا يمكن لأي رجل، أن تكون له عشيقات، ولا أن يتزوج من امرأتين، أو من عدة زوجات، مثلما هي حال كثيرين من رجال مرسيليا.

كانت مرافعاتها ضد المال والتجارة، تستثير ذعر العمال. وكانت تلمح ذلك، استغراباً وعدم رضى، في وجوههم. كان يبدو لهم سخيفاً، أن ترى فلورا ظلماً وخزياً في امتلاك الرجال لعشيقات، أو في ذهابهم إلى المواخير، أو في أن يكون لديهم، حريم مثل باشا تركي. وقد تجرأ أحدهم على قول ذلك:

ربما لا تفهمين حاجات الرجال، يا سيدتي، لأنك امرأة. فأنتِ

تشعرن بالسعادة لحصولكن على زوج. وهو يكفيكن ويزيد. أما نحن، فامرأة واحدة مدى الحياة، تكون مملة لنا. ربما إنك لا تلحظين ذلك، ولكننا نحن الرجال والنساء مختلفون جداً. حتى الكتاب المقدس يقول ذلك.

يصيبكِ الدوار عندما تسمعين مثل هذا الكلام المبتذل، يا فلورا. فأنت لم تري في أي مكان آخر، استعراض مجون واستغلالاً جنسياً، أشد وقاحة مما رأيته في مدينة التجار المترفين تلك. ولا مثل هذا العدد الكبير من العاهرات اللواتي يبحثن عن زبائن، بذلك الإصرار وتلك الصفاقة. وقد أخفقت كل محاولاتكِ، لتبادل الحديث مع المومسات، في الأزقة المملتئة بالبارات والمواخير، قريباً من الميناء - وعليكِ أن تعترفي بأنها أقل قذارة من مواخير لندن -. كثيرات منهن لم يكنَّ يفهمنك، فهن جزائريات، أو يونانيات، أو تركيات، أو جنويات يكدن لا يعرفنَ الفرنسية. جميعهن كن يبتعدن عنك، مذعورات، خشية أن تكوني واعظة دينية أو عميلة للسلطة. كان عليكِ أن تتنكري بزي رجل، مثلما فعلتِ في إنكلترا، لتكسبي ثقتهن. كنتِ تظنين أنك تحلمين، أثناء اجتماعكِ مع رجال صحافة، أو مع مهنيين متعاطفين مع فورييه، أو من ذوي الميول السان-سيمونية، أو الإيكاريين، أو حتى مع عمال عاديين، حين تسمعينهم يتكلمون، بطلاقة وإعجاب، عن المصرفيين، وأصحاب السفن، والأعيان، والتجار الذين لديهن عشيقات، وعن البيوت التي يجهزونها لهن، وكيف يدللونهن: «يا للحياة التي يوفرها السيد لافيريه لعشيقاته»، «ليس هناك من يعامل عشيقاته مثله، إنه رجل عظيم». أي ثورة يمكن صنعها بأناس من هذا النوع؟

لم يكن أولئك التجار يشبهون أثرياء باريس أو لندن، في مسألة استعراض السلطة والثراء، وإنما هم أشبه بتجار أريكيبا البعيدة. لأن فلورا أدركت، لأول مرة، وبأبعاد دوارية، ما الذي تعنيه «الحظوة» و«الثروة»، عندما وصلت إلى البيرو، في شهر أيلول ذاك، من عام

١٨٣٣. فبعد الرحلة من إيسلاي، كانت هناك كوكبة من عشرات الفرسان، جميعهم يرتدون ملابس على الطريقة الباريسية، وجميعهم تقريباً من أقربائها، بالدم أو النسب - فالأسر الرئيسية في أريكيبا كانت شبه توراتية باتساعها، وتزاوج أفرادها في ما بينهم - خرجوا لاستقبالها عند مرتفعات تيابايا، ورافقوها حتى بيت دون بيو تريستان، في شارع سانتو دومنغو، في مركز المدينة. إنها تتذكر، بصورة شبحية، ذلك الدخول الظافر إلى أرض أبيها: خضرة وتناسق الوادي الذي يرويه نهر شيلي، قطعان اللاما ذات الآذان المتصلبة، والبراكين الثلاثة المنتصبة بكبرياء، والمكللة بالثلج، حيث تنتشر تحتها، البيوت البيضاء المبنية بأحجار منحوتة، في تلك المدينة ذات الثلاثين ألف نفس، المدعوة أريكيبا. كانت البيرو قد تحولت، منذ سنوات قليلة، إلى جمهورية، لكن كل شيء يشي بالمستعمرة في تلك المدينة، حيث يَدّعي البيض أنهم من النبلاء، ويحلمون بأن يكونوا كذلك. إنها مدينة تغص بالكنائس، والأديرة، والمدارس الدينية، وبهنود وزنوج حفاة. مدينة شوارع مستقيمة مرصوفة بحجارة مثلمة، في منتصفها تجري قنوات يلقي فيها الناس القمامة، ويبول الفقراء، ويتبرزون، وتشرب منها الدواب والكلاب والأطفال المتشردون. وبين البيوت البائسة، المبنية من فضلات وألواح خشب وقش، تنتصب فجأة، بمهابة، أبنية كالقصور، هي بيوت الأعيان. وقد كان بيت بيو تريستان واحداً منها. لم يكن هو نفسه موجوداً في أريكيبا، وإنما في معاصر قصب السكر التي يملكها في كامانا. لكن البيت الكبير ذا الواجهة الحجرية البيضاء، كان ينتظر فلورا، متشحاً بأجواء احتفالية، وسط دوي مفرقعات. كانت تضيء الفناء الفسيح، مشاعل راتنج. وكل الخدم - المنزليين منهم والعبيد - كانوا مصطفين هناك للترحيب بها. عانقتها امرأة تضع طرحة، يداها ممتلئتان بالخواتم، وعنقها بالعقود، وقالت لها: «أنا ابنة عمك كارمن دي بيرولا، يا فلوريتا. هذا البيت هو بيتك». لم تستطيعي تصديق ما ترينه:

أحسست أنك شحاذة محاطة بكل تلك الأبهة. كل شيء يلمع في قاعة الاستقبال الكبرى؛ فإضافة إلى ثريا الكريستال الصخري الضخمة، كانت هناك في محيط الصالون، شمعدانات شموع ملونة. وبإحساس بالدوار، رحت تنتقلين من شخص إلى آخر، وأنت تمدين يدك. السادة يقبلونها، مع انحناءات أنيقة. والنساء يعانقنك، على الطريقة الإسبانية. كثيرون منهم تحدثوا إليك بالفرنسية. والجميع كانوا يسألونك عن فرنسا تجهلينها، فرنسا المسارح، ومتاجر الأزياء، وسباقات الخيول، وحفلات الرقص في الأوبرا. وكان هناك أيضاً، عدد من الكهنة الدومينكانيين، بمسوح بيضاء مخصصة لكهنة آل تريستان - إنها العصور الوسطى، يا فلوريتا! - وفجأة، في وسط الاستقبال، طلب رئيس الجماعة الرهبانية الصمت، لإلقاء بضع كلمات ترحيب بالقادمة الجديدة، وتوسل مباركة السماء لها، خلال إقامتها في أريكيبا. كانت ابنة العم كارمن قد أعدت عشاء. ولكنك، وأنت شبه ميتة من إنهاك الرحلة، ومن المفاجأة والتأثر، اعتذرت: فقد كنت مستنفدة، وتفضلين الراحة.

ابنة العم كارمن - شديدة التودد، منفتحة، بلا رقبة، ووجهها مغطى بآثار الجدري - رافقتك إلى حجرات إقامتك، في الجناح الخلفي من البيت الفسيح: غرفة أولى واسعة، ومخدع، لسقفه المرتفع جداً، شكل القبة. وعند الباب، أرتك زنجية ذات عينين متيقظتين، كانت بانتظاركما، ثابتة مثل تمثال:

- هذه العبدة لخدمتك يا فلوريتا. لقد أعدت لك حمام ماء بالحليب الفاتر، كي تنامي منتعشة.

وكما أثرياء أريكيبا، كان تجار مرسيليا لا يلاحظون مدى الفحش في مشهد الثراء الذي يستعرضونه، وهم محاطون بالبؤساء. صحيح أن فقراء مرسيليا يبدون أغنياء، بالمقارنة مع أولئك الهنود قصار القامة، المتلفعين بعباءات البونتشو، ويطلبون الصدقات أمام كنائس أريكيبا، مبرزين عيونهم العمياء، أو أطرافهم المبتورة، لإيقاظ

الشفقة، أو يهرولون إلى جانب قطعان اللاما، حاملين منتجاتهم إلى أسواق السبت، تحت قناطر ساحة السلاح. أما هنا، في مرسيليا، فثمة الكثير من البائسين أيضاً، لكنهم جميعهم تقريباً من المهاجرين. ولأنهم كذلك، فإنهم يُستَغَلون في الورش، وفي المرفأ، وفي المزارع المحيطة بالمدينة.

لم تكن قد قضت أسبوعاً في مرسيليا بعد. وبالرغم من أنها أمضته في حالة صحية سيئة، فقد عقدت عدداً كبيراً من الاجتماعات، وباعت حوالي خمسين نسخة من ***الاتحاد العمالي***، عندما عاشت تجربة ستتذكرها في ما بعد، وهي تضحك مقهقهة أحياناً، وفي أحيان أخرى، وهي غاضبة. جاءت سيدة تسأل عنها عدة مرات، في نزل الإسبان، دون أن تخبرهم إلا باسمها، مدام فيكتوار. أما كنيتها فلم تذكرها قط. وبعد المرة الرابعة أو الخامسة، التقت بها. كانت امرأة بلا سن محددة، تعرج بقدمها اليسرى. وبالرغم من الحر، كانت ترتدي ثياباً قاتمة، وتغطي شعرها بمنديل، وتتدلى من ذراعها حقيبة قماشية كبيرة. ألحت بشدة على تبادل الحديث معها على انفراد، فأدخلتها فلورا إلى حجرتها. لا بد أن تكون مدام فيكتوار، من خلال لهجتها، إيطالية أو إسبانية. ولكنها قد تكون من المنطقة أيضاً، لأن المرسيليين يتكلمون الفرنسية بلكنة تبدو لفلورا، غير مفهومة أحياناً. اندفعت مدام فيكتوار في الإطراء على محاسنها - يا للشعر الكهرماني السواد، يا لهاتين العينين اللتين تلمعان مثل الحباحب في الليل. يا للقامة الهيفاء. ويا للقدمين الصغيرتين - إلى أن جعلتها تحمر خجلاً. فقاطعتها فلورا:

- أنت لطيفة جداً يا سيدتي. ولكن لدي مشاغل كثيرة. ولا يمكنني التأخر. لماذا تريدين رؤيتي؟

- لأجعلك غنية وسعيدة - عاملتها مدام فيكتوار دون كلفة، فاتحة ذراعيها وعينيها، كما لو أنها تحيط بعالم من الأبهة والثروة، وأضافت:- يمكن لزيارتي هذه، أن تبدل حياتك. ولن تجدي إلى الأبد، ما يكفي من الكلمات لتشكريني، يا جميلتي.

لقد كانت قوادة. وقد جاءت لتقول لها، إن هناك رجلاً واسع الثراء، كريم النفس، وأنيق المظهر، من علية الناس في مرسيليا، رآها، وفكر فيها - إنه روح رومانسية. فالسيد المبجل يؤمن بالحب من النظرة الأولى - وهو مستعد لإخراجها من هذا البنسيون البائس، وفتح بيت لها، وتلبية كل احتياجاتها ونزواتها، بحيث تكون حياتها في آتي الأيام، على مستوى جمالها. ما رأيك يا فلوريتا؟

مشدوهة، غاضبة، انفجرت فلورا في نوبة ضحك قطعت أنفاسها. راحت مدام فيكتوار تضحك أيضاً، معتقدة أن الصفقة قد أُبرمت. وقد فوجئت جداً، عندما رأت فلورا تنتقل من الضحك إلى الغضب، وتنهال عليها صارخة بالشتائم، وتتوعدها بإبلاغ الشرطة، إذا هي لم تتصرف فوراً. غادرت القوادة، وهي تدمدم بأنها عندما ستعيد التفكير، ستندم على ردّ فعلها الطفولي هذا.

- يجب اقتناص الفرصة عندما تحين يا جميلتي، لأنها لا تعود مطلقاً.

ظلت فلورا مستغرقة في التأمل. وتراجع السخط، مفسحاً المجال لإحساس بالزهو، لغرور حميم. من هو هذا الطامح في أن يكون عشيقكِ وحاميك؟ أهو عجوز متداعٍ؟ كان عليكِ أن تتصنعي الاهتمام، وتحصلي على اسمه من مدام فيكتوار. وعندئذ، تذهبين إليه لتصفي حسابك معه. ولكن عرضاً كهذا، من أولئك الأثرياء والداعرين المرسيليين، يشير إلى أنك لا تزالين جذابة، على الرغم من النكبات الكثيرة، وحياتك التي لم تعرف الراحة، والأمراض، وإنك لا تزالين قادرة على صعق الرجال، ودفعهم إلى اقتراف الحماقات. ما زالت سنوات عمرك الإحدى والأربعون في حالة جيدة يا فلوريتا. أولم تكن أولمبيا تقول لكِ، في أشد اللحظات إثارة: «أشعر أحياناً بأنك خالدة يا حبي»؟

في أريكيبا، كان الجميع يعتبرون الفرنسية القادمة حديثاً، آية في الجمال. وقد قال ذلك، منذ اليوم الأول، أعمامك وعماتك، أبناء

عمومتك، وشبكة أقارب الأقارب المعقدة، وأصدقاء الأسرة، وفضوليو مجتمع أريكيبا وفضولياته، ممن جاؤوا في الأسبوع الأول، ليقدموا إليك احترامهم، حاملين إليك الهدايا، وليشبعوا ذلك الفضول المتأجج، المحمل بالأقاويل، وغير الصحي، المرض الوبائي في «المجتمع الراقي» في أريكيبا (هكذا كانوا يسمونه هم أنفسهم). يا للمسافة والازدراء اللذين تنظرين بهما الآن، إلى كل أولئك الناس الذين ولدوا في البيرو، ويعيشون فيها، ولكنهم لا يحلمون إلا بفرنسا وباريس، كل أولئك الجمهوريين المحدثين الذين يتظاهرون بأنهم أرستقراطيون، وأولئك السيدات والسادة شديدي الوقار الذين لا يمكن لحياتهم أن تكون أكثر خواء، وطفيلية، وأنانية، وابتذالاً. يمكنكِ الآن إصدار هذه الأحكام الصارمة. ولكن ليس آنذاك. لم تكوني قادرة على إصدارها بعد. لقد عشتِ تلك الشهور الأولى في بلاد أبيك، محاطة بالتملق، سعيدة، بين أثرياء برجوازيين. لقد جعلكِ أولئك العلق الباذخ، بلطفهم، ودعواتهم، وحنانهم، ومجاملاتهم، تشعرين بأنك ثرية أيضاً، محترمة وبرجوازية وأرستقراطية أيضاً، يا فلوريتا.

كانوا يظنونك عذراء وعازبة، بالطبع. لم يكن هناك، من يراوده الشك في الحياة الزوجية التي هربتِ منها. يا لروعة نهوضك لتجدي أن هناك من يخدمك، وأن هناك خادمة تنتظر أوامرك، دون أن تقلقي بشأن النقود أبداً، لأنك ستجدين دوماً، طالما أنت في هذا البيت، الطعام، والسقف، والحنان، وخزانة ملابس تضاعفت خلال أيام قليلة، بفضل كرم الأقارب، وخاصة ابنة العم كارمن دي بيرولا. أتعني هذه المعاملة أن دون بيو وأسرة تريستان، قد قرروا تجاهل أنك ابنة طبيعية، والاعتراف بحقوقك كابنة شَرعية؟ لن تعرفي ذلك بصورة نهائية حتى عودة دون بيو. ولكن المؤشرات مشجعة. فالجميع يعاملونك كما لو أنك لم تكوني بعيدة عن الأسرة قط. ربما يكون قلب عمك بيو قد لان. وسيعترف بك كابنة شرعية لأخيه مريانو،

وسيقدم لك حصتك من ميراث جدتك وأبيك. وستعودين إلى فرنسا، بدخل يتيح لك أن تعيشي، في المستقبل، كبرجوازية.

آه، فلوريتا! عدم حدوث ذلك كان أفضل، أليس كذلك؟ لأنك كنت ستنتهين إلى التحول إلى واحدة من أولئك النساء الثريات والغبيات اللواتي تزدريهن الآن كثيراً. لقد كان من الأفضل، تعرضك إلى خيبة الأمل تلك في أريكيبا، والتي تعلمت فيها، بقدرة الشدائد، التعرف على الظلم، ومقته، ومكافحته. صحيح أن بلاد أبيك لم تُعدكِ ثرية إلى فرنسا، ولكنها حوّلتك إلى متمردة، إلى محبة للعدالة، إلى «منبوذة»، مثلما تسمين نفسك أنت بالذات، بفخر، في الكتاب الذي قررتِ أن تروي قصة حياتك فيه. إن لديك الكثير، في نهاية المطاف، مما يتوجب عليكِ أن تشكري أريكيبا من أجله، يا فلوريتا.

أهم اجتماعاتها في مرسيليا، هو الذي عقدته في جمعية لصانعي السروج. وإلى مكان الاجتماع، العابق برائحة الجلود، والأصبغة، والخشب الرطب، مع حوالي عشرين شخصاً، حضر فجأة بنجامين مازيل، تلميذ شارل فورييه الأنيق والطافح بالحيوية. إنه أربعيني مفعم بالنشاط، له شعر شاعر رومانسي مشعث، ويلتف بعباءة مرصعة بالبقع والقشرة، ذو ميل متحمس إلى الثرثرة. كان يحمل معه نسخة من ***الاتحاد العمالي***، تغص بالملاحظات. لقد أغرتكِ آراؤه وانتقاداته فوراً. جسد مازيل الرياضي وحماسته المتدفقة، ذكّراكِ بالكولونيل كليمنت ألتوس، في أريكيبا. لقد قال وهو يومئ بيديه كإيطالي، إن مشروع **الاتحاد العمالي** للإصلاح الاجتماعي، ينقصه التأكيد، إلى جانب حق العمل والتعليم، على الحق بالخبز اليومي المجاني. وطرح رؤيته بالتفصيل، على الفور، أمام العشرين سروجياً وفلورا نفسها: في مجتمع المستقبل، ستكون المخابز كلها في يد الدولة، تقدم خدمات عامة، مثل المدارس والشرطة؛ وسينتهي دورها كمؤسسات تجاريةٍ، كي توزع الخبز بالمجان على المواطنين. أما التكاليف، فيتم تمويلها من الضرائب.

وهكذا، لن يموت أحد من الجوع، ولن يعيش أحد في بطالة، وسيتلقى جميع الأطفال والفتيان التعليم.

كان مازيل يكتب كراسات، وقد أشرف على إدارة جريدة، أُغلقت بتهمة النشاط الهدام. وبينما فلورا تستمع إليه، حول مائدة مرطبات وفناجين شاي، وهو يروي لها نكباته السياسية - فقد اعتُقل عدة مرات بتهمة التحريض - لم تستطع إلا أن تتذكر ألتاوس، الشخص الذي أثر فيها، إلى جانب الماريشالة، أكثر من سواه سنة ١٨٣٣ في البيرو. فقد كان كليمنت ألتاوس، مثل مازيل، يقطر طاقة وحيوية من كل مسامات جسمه، ويجسد المغامرة، المجازفة، الحركة. ولكنه، على خلاف مازيل، لم يكن يهتم بالعدالة، ولا بوجود الكثير من الفقراء وقلة من الأغنياء، ولا كون هؤلاء الأخيرين قساة تجاه المحرومين. ما يهم ألتاوس هو أن تكون هناك حروب في العالم، كي يشارك فيها، ويطلق النار، ويقتل، ويأمر، ويرسم استراتيجية ويطبقها. فصنعة الحرب هي ميله ومهنته. إنه ألماني طويل القامة، وأشقر الشعر. له جسم أبوليّ، وعينان زرقاوان مُفولَذتان. عندما تعرفت عليه فلورا، كان يبدو أكثر شباباً بكثير من سنوات عمره الثماني والأربعين. وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة تكلمّه الألمانية والإسبانية. لقد كان مرتزقاً منذ مراهقته. ترعرع مقاتلاً في ميادين المعارك، من أقصى أوروبا إلى أقصاها. قاتل في صفوف التحالف، خلال الحروب النابوليونية. وعندما انتهت تلك الحروب، جاء إلى أميركا الجنوبية، بحثاً عن حروب أخرى، ليؤجر نفسه كمهندس عسكري. تعاقدت معه حكومة البيرو، وعينته كولونيلا في الجيش البيروي. وكان قد أمضى هناك، أربعة عشر عاماً، شارك خلالها، في جميع الحروب الأهلية التي هزت جمهورية البيرو الفتية، منذ استقلالها، مبدلاً حزبه مرة بعد أخرى، حسب العروض التي يتلقاها من المتقاتلين. وسرعان ما اكتشفت فلورا أن تبديل الحزب، ابتداء بعمها بيو تريستان - وكان نائباً للملك في المستعمرة الإسبانية، ثم رئيساً للجمهورية بعد

الاستقلال - هي الرياضة الأكثر شعبية في المجتمع البيروي. والمثير للفضول، أن الجميع يفاخرون بذلك، وكأنه فن راق للتخلص من الأخطار، والاستفادة من حالة النزاعات المسلحة المزمنة التي تعيشها البلاد. إلا أنه لم يكن هناك من يتباهى، بمنتهى الظرف والوقاحة، بذلك الانعدام للمبادئ والمثل والوفاء، والبحث المجرد عن المغامرة والمال، أكثر من الكولونيل كليمنت ألتاوس، عندما يتوجب عليه أن يقرر إلى جانب من يقاتل. كان يقيم في أريكيبا، لأنه في هذه المدينة التي وصلها، ضمن هيئة أركان سيمون بوليفار، وقع في حب مانويلا دي فلوريس، ابنة عمة فلورا، وابنة إحدى شقيقات دون بيو ودون مريايو، وتزوج منها. ولأن زوجته كانت في كامانا، مع دون بيو وحاشيته، فقد تحول ألتاوس إلى مرافق فلورا الدائم. أخذها إلى كل الأماكن المهمة في المدينة، ابتداء من كنائسها وأديرتها القديمة، حتى المسرحيات الدينية التي تقدم في الهواء الطلق، في ميدان «نعم الرب»، أمام جمهور متنوع، يتابع ساعة فساعة، إيماءات الممثلين وترتيلاتهم. أخذها إلى مصارعات الديوك، في ميداني المصارعة في أريكيبا، وإلى مصارعة الثيران في ساحة السلاح، وإلى المسرح، حيث تقدم مسرحيات كلاسيكية لكالديرون دي لاباركا، أو مسرحيات تهريجية مجهولة المؤلف، وإلى المواكب الدينية، كثيرة التواتر، مما دفع فلورا إلى التفكير في حقيقة ما كانت عليه احتفالات باخوس، وأعياد ساتورن: طقوس تهريج ماجنة لإلهاء الشعب وإبقائه مخدراً. فوراء الفرق الموسيقية، يمر خلاسيون وزنوج متنكرون بملابس وأقنعة بيضاء، وبهيئة مهرجين بملابس سوداء، وحمقى، وبأقنعة، يتلوون ويمتعون الرعاع بتهريجهم. ثم يأتي بعد ذلك التائبون، محاطين بالبخور والمباخر، وهم يجرجرون السلاسل، يحملون الصلبان، يجلدون أنفسهم، يليهم جمهور من الهنود الذين يرتلون بلغة الكيتشوا، ويبكون صارخين. ومن يحملون المحفة، يتشجعون بجرعات من الخمر وكحول الذرة المخمر - يسمونه تشيتشا - ويكونون

مخمورين تماماً.

- هذا الشعب المؤمن بالخرافات، ينتج أسوأ الجنود في العالم - قال لها ألتاوس ضاحكاً، وكنتِ تستمعين إليه مفتونة - إنهم جبناء، أفظاظ، قذرون، وغير منضبطين. الطريقة الوحيدة لجعلهم لا يهربون من المعركة، هي الخوف.

روى لك أنه توصل إلى أن تُفرض في البيرو، العادة الألمانية في أن يكون الضباط أنفسهم، وليس معاونوهم، هم من يطبقون العقوبات الجسدية على جنودهم.

- سوط الضابط يصنع الجندي الجيد، مثلما يصنع سوط المروض وحوش السيرك - كان يؤكد وهو يموت من الضحك. وكنتِ تفكرين: «إنه مثل واحد من أولئك الجيرمان البرابرة الذين قضوا على الإمبراطورية الرومانية».

في أحد الأيام، ذهبا إلى تينغو، مع جماعة من الأصدقاء، للتعرف على حمامات المياه الساخنة (فهناك عدد من هذه الحمّات في محيط أريكيبا)، وقد ابتعدت هي وألتاوس عن الجماعة، لزيارة بعض الكهوف. وفجأة، أخذها الألماني بين ذراعيه - أحسستِ أنك هشة وسريعة العطب، مثل عصفور مطوق بتلك العضلات - داعب نهديها، وقبلها من فمها. كان على فلورا أن تبذل جهداً حقيقياً، كي لا تستسلم لمداعبات ذلك الرجل الذي يفرض سحره عليها، مثلما لم يحدث لها قط، مع أي ذكر آخر. لكن الغلبة كانت لنفورها من الجنس، المتأصل منذ زواجها من شازال:

- آسفة جداً، فقد حطمتَ، في هذه الوقاحة، المودة التي كنتُ أشعر به نحوك، يا كليمنت.

ووجهت إليه صفعة، دون أي قوة، لم تكد تهز ذلك الوجه الأشقر المتفاجئ.

- أنا الذي عليه أن يتأسف يا فلورا - قال ألتاوس معتذراً، وهو يضرب كعبيه متأهباً - لن يحدث هذا ثانية. أقسم لكِ بشرفي.

وقد وفى بكلمته. وخلال كل الشهور التالية التي أمضتها فلورا في أريكيبا، لم يعد إلى التجاوز أو التلميح، وإن لمحت هي، في بعض الأحيان، وبصورة مفاجئة، ومضات شهوة في عيني ألتاوس الزرقاوين.

بعد أيام قليلة من تلك الواقعة، في حمامات تينغو. شهدت أول زلزال في حياتها. كانت في حجرتها، تكتب رسالة، عندما سمعت، قبل ثوان من بدء كل شيء بالاهتزاز، صخب نباح هائل في المدينة - كان قد قيل لها إن الكلاب هي أول من يشعر بما هو آت - ثم رأت، على الفور، عبدتها دومينغا، تخر على ركبتيها، رافعة ذراعيها إلى أعلى. وبعينين مذعورتين، تبدأ صلاة إلى سيد الزلازل، بصوت من حلقها:

الرحمة يا رب
هدئ يا رب غضبك
عدالتك وصرامتك.
يا يسوع حياتي الرقيق
بحق قروحك المقدسة
الرحمة يا رباه.

اهتزت الأرض دقيقتين متواصلتين، ورافق ذلك شخير أصم، عميق، نسيت خلاله، فلورا المشلولة، أن تهرع للاحتماء عند عتبة الباب، مثلما علّمها أقرباؤها. لم يُحدث الزلزال أضراراً كبيرة في أريكيبا، ولكنه دمر مدينتي تاكنا وأريكا على الساحل. الهزات الثلاث أو الأربع التي تلت ذلك، كانت ضعيفة، وبلا أهمية، بالمقارنة مع الزلزال. لن تنسى أبداً ذلك الإحساس بالعجز والكارثة الذي عاشته خلال تلك الهزة اللانهائية. وهو لا يزال، بعد مرور إحدى عشرة سنة، وأنت هنا في مرسيليا، يبعث القشعريرة في بدنك.

أمضت أيامها الأخيرة، في مدينة الميناء المتوسطي، طريحة الفراش، يثقل عليها الحر وآلام المعدة، مضيعة الوقت على ذلك

النحو، بينما هناك أمور كثيرة عليها إنجازها. تحسّن انطباعها بعض الشيء عن عمال مرسيليا، في تلك الأيام. فعندما رأوها مريضة، تفانوا في العناية بها. كانوا يأتون في جماعات صغيرة إلى النزل، حاملين إليها فاكهة وباقات زهر، ويقفون عند حافة السرير، متيقظين، مرتبكين، ممسكين قبعاتهم بأيديهم، منتظرين أن تطلب منهم شيئاً، متلهفين لخدمتها. وبفضل مساعدة بنجامين مازيل، تمكنت من تشكيل لجنة اتحاد عمالي من عشرة أشخاص، كانوا جميعهم، باستثناء مؤلف الكتيبات والمحرض، من العمال اليدويين: خياط، نجار، بنّاء، صانعا سروج، حلاقان، خياطة، وكذاك عامل تفريغ من الميناء.

كانت الاجتماعات في غرفتها في النزل، تمتد طويلاً. وبسبب الضعف والألم، كانت فلورا تتكلم قليلاً، ولكنها تستمع كثيراً. وتضحك لسذاجة زائريها وانعدام ثقافتهم، أو تغضب للأحكام المسبقة البرجوازية التي أصابتهم عدواها. كمعاداتهم، على سبيل المثال، للمهاجرين الأتراك، واليونانيين، والجنويين، وتحميلهم إياهم مسؤولية كل السرقات والجرائم. أو معاداتهم للنساء، وعدم تمكنهم من اعتبارهن مساويات لهم، ولهن حقوق الرجال نفسها. وكي لا يغضبوها، كانوا يتظاهرون بتقبل أفكارها بشأن المرأة، غير أن فلورا كانت ترى، في ملامحهم وفي نظراتهم التي يتبادلونها، أنها لم تقنعهم.

في أحد تلك الاجتماعات، علمت من مازيل، أن مدام فيكتوار، فضلاً عن كونها قوادة، هي مخبرة لدى الشرطة. وأنها تسعى، منذ أيام، لتقصي أخبارها في مجالس النميمة المرسيلية. أي أن السلطات هنا أيضاً، تلاحق خطواتها. عندما سمع ذلك سالين، وهو نجار اعتاد أن يزورها يومياً، خشي أن تعمد الشرطة إلى اعتقال السيدة، وحبسها في سجن للعاهرات والسارقات، فاقترح عليها أن تتنكر ببدلة الحرس الوطني التي لديه، وتختبئ في ملجأ رعاة

يعرفهم، في الجبل. وقد أضحك الاقتراح جميع الحاضرين. فأخبرتهم فلورا بأنها عاشت تجربة مثل التي يقترحها عليها سالين. وروت لهم مغامرتها في لندن، قبل خمس سنوات، حيث أمضت أربعة أشهر، مرتدية ملابس الرجال، طوال الوقت تقريباً، كي تتنقل بحرية، وتقوم بأبحاثها الاجتماعية. وبينما هي تتكلم، خانتها قواها، وأغمي عليها.

لقد تنكرتِ بزي رجل في أريكيبا أيضاً، خلال الكرنفالات - بزي جندي هوصار، مع السيف، والخوذة ذات قنزعة الريش، والجزمة، والشارب - لحضور حفلة رقص تنكرية. أهالي أريكيبا، من «المجتمع الراقي»، يلعبون في الليل، بالتراشق بالزهور، أو الشرائط الورقية الملونة، أو العطر. أما في النهار، فيحتفلون في الكرنفالات، مثل الناس العاديين، بدلاء الماء والقشور - قشور البيض المملوءة بماء ملون - في معارك شوارع حقيقية. ومن فوق الشرفة-السطح، في بيت دون بيو، كنتِ تتأملين المشهد، بالافتتان الذي توحي به إليك، تلك البلاد المختلفة عن كل ما عرفته.

كل شيء في أريكيبا كان يفاجئك، ويستثير أفكاركِ حول الكائنات البشرية، والمجتمع، والحياة. فأفضل تجارة للفرق الدينية، على سبيل المثال، تتمثل في بيع المسوح للمحتضرين. فالعادات في أريكيبا، تقتضي دفن الموتى بالمسوح الدينية. وقد كانت الحياة الاجتماعية واليومية، في تلك المدينة الصغيرة، أشد زخماً مما هي عليه في باريس. فالأسر تقوم بالزيارات، وتستقبل الزائرين طوال النهار، وعند العصر، يأكلون البسكويت والحلويات اللذيذة التي تصنعها راهبات أديرة القديسة كاتالينا، والقديسة تيريسا، والقديسة روسا. ويتناولون الشوكولاته المجلوبة من كوسكو، ويدخنون - النساء أكثر من الرجال - دون توقف. الطعن في الظهر، والمماحكات، وسوء الائتمان، والنميمة والافتراءات، وكشف الأسرار الحميمة وعيوب الأسر، تصير سعادة الضيوف. في تلك الاجتماعات كلها، يجري

الحديث بالطبع، بحنين، بحسد، بيأس، عن باريس التي هي، في نظر أهالي أريكيبا، فرع من الفردوس. كانوا يأكلونكِ بالأسئلة عن الحياة الباريسية، فكان عليكِ، أنت التي تجهلينها أكثر منهم، أن تختلقي كل أشكال التخيلات، كي لا تخيبي أملهم.

بعد مرور شهر ونصف الشهر، على وجودك في أريكيبا، كان العم بيو لا يزال في كامانا، دون أن يكون هناك ما يشير إلى اقتراب عودته. أكان ذلك الغياب الطويل استراتيجية، لإضعاف حماسكِ في مطالبك؟ أيخشى العم بيو أن تكوني قد أحضرت معك أدلة جديدة، تجبر العدالة على الاعتراف بك ابنة شرعية، وبالتالي وريثة من الدرجة الأولى لدون مريانو تريستان؟ كانت مستغرقة في هذه التأملات، عندما أخبروها بأن القبطان زكرياس شابريه، وقد وصل حديثاً إلى أريكيبا، سيأتي مساء اليوم، لزيارتها. ظهور البحار البريتاني الذي لم تعد إلى التفكير به، مذ ودعته في بالبارايسو، كان له عليها تأثير زلزال آخر. لا شك في أنه سيلح على الزواج منها.

في اليوم الأول، كان اللقاء مع شابريه لطيفاً، مؤثراً، بفضل حضور نصف دزينة من الأقارب، في الصالة، مما منع البحار من التحدث في الموضوع العاطفي الذي حمله على المجيء. لكن عينيه كانتا تقولان لفلورا، ما صمت عنه فمه. في اليوم التالي، جاء في الصباح، ولم تستطع فلورا أن تتجنب البقاء معه على انفراد. توسل إليها زكرياس شابريه، وهو يقبل يدها جاثياً، أن تقبل به. سوف يكرس ما تبقى من حياته لإسعادها. وسيكون الأب النموذجي لآلين؛ فابنة فلورا ستكون ابنته. ولشدة وطأة الموقف عليها، دون أن تعرف ما تفعل، كانت على وشك أن تخبره بالحقيقة: بأنها امرأة متزوجة، وليس لديها ابنة واحدة، وإنما ابنان (لأن الابن الثالث كان قد مات)، ولا يمكنها شرعياً وأخلاقياً، أن تتزوج مرة أخرى. لكن ما منعكِ هو الخوف من أن يشي بك شابريه، في نوبة حنق، إلى آل تريستان. ما الذي سيحدث عندئذ؟ هذا المجتمع الذي فتح لكِ ذراعيه، سيلفظك

ككاذبة وغير محتشمة، ولأنك زوجة هاربة، وأم قاسية.

كيف التخلص منه إذن؟ بينما هي في فراشها في مرسيليا، تُهَوّي لتدفع عن نفسها، حرّ ذلك الغروب المتقد من تشرين الأول، وتسمع صرير الزيزان، عادت فلورا إلى الإحساس بحموضة في معدتها، وشعور بالذنب، وقلق الضمير. وهذا ما يحدث لها دائماً، كلما تذكرت الحيلة التي لجأت إليها، كي تخيب أمل شابريه بها، وتتخلص من محاصرته لها. وقد أحسستِ الآن أيضاً، ببرودة معدن الرصاصة، إلى جوار القلب.

- حسن يا زكرياس. إذا كنت تحبني إلى هذا الحد حقاً، فعليك أن تثبت لي ذلك. احصل لي على وثيقة، على شهادة ميلاد، تثبت أنني ابنة شرعيه لأبوي. بهذه الطريقة، سأتمكن من المطالبة بحصتي من الميراث، وسنعيش بما أرثه بأمان، مطمئنين في كاليفورنيا. هل ستحصل لي على تلك الوثيقة، حتى لو اضطررت إلى رشوة أحد الموظفين؟

شحب لون ذلك الرجل المستقيم، ذلك الكاثوليكي الملتزم، وفتح عينيه على اتساعهما، غير مصدق ما سمعه.

- ولكن، هل تدركين يا فلورا، ما الذي تطلبينه مني؟

- ليس هناك مستحيل على الحب الحقيقي، يا زكرياس.

- فلورا، فلورا. أهذا هو الدليل الذي تريدينه على حبي؟ أن أقترف جريمة! أن أخرق القانون! أهذا ما تنتظرينه مني؟ أن أتحول إلى مجرم من أجل أن تحصلي على ميراث؟

- إنني أرى حقيقة الأمر. أنت لا تحبني بما يكفي لأن أكون زوجتك يا زكرياس.

رأيته يزداد شحوباً. ثم يحمّر كما لو أنه سيصاب بالسكتة. ترنح في مكانه، وهو يوشك أن ينهار. وأخيراً، ابتعد عنك، مديراً ظهره، ومنتزعاً قدميه كعجوز. وعند الباب، التفت ليقول لك، رافعاً إحدى يديه، كما لو أنه يريد تطهيرك:

- اعلمي أنني أكرهك الآن، بقدر ما أحببتك يا فلورا.

ما الذي تراه جرى لشابريه الطيب، خلال كل هذه السنوات؟ لم تعودي لمعرفة أي شيء عنه. ربما يكون قد قرأ *«غتراب منبوذة»*، وعرف بهذه الطريقة، حقيقة الأسباب التي دفعتك إلى تلك الحيلة، من أجل رفض حبه. أيكون قد سامحك؟ ألا يزال يكرهك؟ كيف ستكون حياتك الآن، يا فلوريتا، لو أنك تزوجت من شابريه، وذهبت لدفن نفسك معه في كاليفورنيا، دون العودة أبداً إلى فرنسا؟ حياة هادئة ومطمئنة دون شك. ولكنك ما كنت، عندئذ، لتفتحي عينيك قط، ولما ألَّفت كتباً، ولما صرت راية للثورة التي ستحرر النساء من العبودية، وعمال العالم من الاستغلال. لقد أحسنت صنعاً، في نهاية المطاف، بتعريض ذلك القديس الذكر، في أريكيبا، إلى لحظة النحس الرهيبة تلك.

بينما فلورا تعدّ حقائبها، بعد أن استردت عافيتها بعض الشيء، لتواصل جولتها بالتوجه إلى طولون، حمل إليها بينجامين مازيل خبراً مضحكاً. فالشاعر-البناء شارل بونسي الذي تركها وحيدة، بحجة سفره إلى الجزائر، للراحة، لم يجتز البحر المتوسط قط. لقد صعد إلى السفينة، أجل. ولكنه خاف، قبل الإبحار، من تعرضه للغرق. وأصيب بنوبة هلع وانهيار عصبي، فراح يبكي ويصرخ، طالباً أن يعيدوا إنزال السلم، وأن ينزلوه إلى البر. فاختار ضباط السفينة أسلوب البحرية الإنكليزية، في تخليص المجندين الجدد من رهبة البحر: الإلقاء به إلى الماء من حافة السفينة. وقد اختبأ شارل بونسي، وهو يموت خجلاً، في مرسيليا، ريثما يمر بعض الوقت، كي يظن الناس أنه كان في الجزائر، بحثاً عن إلهام ربات الشعر. لكن أحد الجيران وشى به، وهو الآن أضحوكة المدينة. فعلقت فلورا:

- أمور شعراء.

XII. من نحن؟

بوناويا، أيار ١٨٩٨

وصل إلى تابيتي باكراً جداً، قبل أن تشتد وطأة الحر. كانت سفينة بريد سان فرانسيسكو التي أُعلن في العشية عن وصولها، قد دخلت البحيرة ورست. دخل ليشرب زجاجة بيرة، في أحد بارات المرفأ، بانتظار مجيء موظفيّ البريد. رآهم يمرون عبر الرصيف التجاري، في عربة يجرها حصان متعب. وحياه أقدم موظفي البريد، المدعو فونشيفال أو فونتيفال - إنكَ تخطئ باسمه دوماً - بانحناءة من رأسه. انتظر هادئاً، دون أن يكلم أحداً، مرتشفاً البيرة التي دفع ثمنها آخر سنتيمات يملكها، إلى أن اختفى موظفا البريد عن النظر، تحت أشجار الفلامبويان والأكاسيا، في شارع ريفولي. ترك الوقت يمر، مقدراً ما يحتاجانه من أجل ترتيب الطرود والرسائل المنثورة على أرض المكتب الضيق، ووضعها في العلب البريدية وعلى الرفوف. لم يكن كاحله يؤلمه. ولم يكن يشعر بحرقة ربلتي ساقيه التي أرقته، وجعلته يتعرق عرقاً بارداً طوال الليل. هذه المرة، ستكون أوفر حظاً مما كنتَ عليه، عند مجيء سفينة الشهر الماضي، يا كوكي.

توجه إلى مكتب البريد متمهلاً، دون أن يحث الحصان الضامر الذي يجر العربة. كان يشعر في رأسه، بلحس الشمس التي ستأخذ بالتأجج، في الدقائق والساعات التالية، حتى تصل، بين الساعة الثانية والثالثة بعد الظهر، إلى حد لا يطاق. كان شارع ريفولي شبه مقفر، بالرغم من وجود بعض الأشخاص في الحدائق، وعلى شرفات بيوتهم الخشبية الكبيرة. ولمح في البعيد، برج الكاتدرائية، بين خضرة أشجار المانجا العالية. كان مكتب البريد مفتوحاً. إنكَ

أول مراجع، يا كوكي. كان موظفا البريد منهمكين في ترتيب الرسائل، على منضدة الكونتوار، وفق التسلسل الأبجدي، بعد أن انتهيا من استعراضها.

- لا يوجد شيء لك - حياه فونشيفيل أو فونتيفيل، بإيماءة حزينة، وأضاف:- متأسف.

- لا شيء؟ - أحس بالحرقة اللاذعة في ربلتي ساقيه، والوخز في كاحله - هل أنت متأكد؟

- آسف - ردّ موظف البريد العجوز، هازاً كتفيه.

أدركَ فوراً، ما الذي يتوجب عليه عمله. رجع إلى بوناويا، دون تسرع، على إيقاع حصان جر عربته الصغيرة التي لم يسدد سوى نصف ثمنها، وهو يلعن أصحاب صالات العرض الباريسيين الذين لم تصله أية أخبار منهم، منذ نصف سنة على الأقل. السفينة التالية التي ستأتي من سيدني، لن تصل قبل مرور شهر. كيف ستعيش حتى ذلك الحين، يا كوكي؟ الصيني تينغ، صاحب الحانوت الوحيد في بوناويا، توقف عن تسليفه، لأنه منذ شهرين، لم يخفف من ديونه المتراكمة، ثمناً للمعلبات، والتبغ، والكحول. وليس هذا هو الأسوأ، يا كوكي. فأنت معتاد على العيش مديناً لنصف العالم، دون أن يُفقدك ذلك الثقة بنفسك، أو حبك للحياة. ولكن إحساساً بالخواء، بالموات، هيمن عليكَ منذ نحو ثلاثة أو أربعة أيام، عندما أدركتَ أن تلك اللوحة الضخمة، بطول أربعة أمتار، وارتفاع مترين، تقريباً، أكبر لوحة رسمتها على الإطلاق، والتي احتاجت منك، لأطول وقت - عدة شهور - قد انتهت. أي لمسة إضافية ستفسدها. أليس من الحماقة، أنك رسمت أفضل لوحة ترسمها، خلال خمسين سنة من حياتك، على خيش، يمكن له أن يتعفن من الرطوبة والمطر، خلال وقت قصير؟ وفكر: «وهل هناك أهمية لاختفائها، دون أن يراها أحد؟ لأن أحداً لن يعترف، على أي حال، بأنها عمل بارع». لن يفهمها أحد. كيف لم يكتب لكَ حتى دانييل دو مونفريد، هذا الصديق الوفي الذي

طلبتَ المساعدة منه، بيأس غريق، منذ ثلاثة شهور؟

دخل إلى بوناويا، في منتصف النهار، تقريباً. لحسن الحظ، أن باؤورا وإميل الصغير لم يكونا في البيت. ليس لأنه يمكن لها أن تُفسد خططك، فالصبية هي ماوورية كاملة، معتادة على طاعة زوجها في كل ما يفعله، أو يرغب فيه، وإنما لأنك كنت ستضطر إلى التحدث معها، والرد على أسئلتها السخيفة، وليس لديك الآن وقت، ولا مزاج، ولا صبر على السخافات. وأقل من ذلك لتحمل صراخ الطفل. تذكر كم كانت تيهامانا ذكية. لقد كان تبادُل الحديث معها، يساعدك على تجاوز المصاعب؛ أما مع باؤورا فلا. ارتقى سلّم الكوخ الخارجي المزعزع، إلى غرفة النوم، بحثاً عن جراب مسحوق الزرنيخ الذي يدلك به قروح ساقيه. تناول قبعة القش، والعكاز الذي نَحَتَ في قبضته، عضواً منتصباً؛ وغادر البيت، دون أن يلقي نظرة وداع على فوضى الكتب، واللوحات، والملابس، والبطاقات البريدية، والكؤوس والزجاجات التي كان القط يتناوم بينها. بل إنه لم يلقِ نظرة على ذلك المرسم، حيث عاش حبيساً، في تلك الأسابيع الأخيرة، في حالة احتدام، بسبب تلك اللوحة الضخمة التي امتصت كل وجوده. مرّ، دون أن ينظر، بمحاذاة المدرسة الصغيرة المجاورة، حيث كانت تتعالى أصوات وتراكض، وسارع في اجتياز بستان الأشجار المثمرة الذي يملكه صديقه، الجندي السابق بيير ليفرغو. اجتاز الجدول، واتخذ وجهة وادي بونارو، مبتعداً عن الشاطئ، وسالكاً الطريق نحو الجبال الكثيفة والوعرة.

كان الحر قد اشتد كثيراً، حر الصيف هذا الذي يمكن له أن يُغيّب عن الوعي، أي متهور، يُعرِّض نفسه طويلاً للشمس القاسية، دون تغطية رأسه. سمع من بعض أكواخ الوطنيين المتفرقة، ضحكات وغناء. فقد بدأت الاحتفالات بالسنة الجديدة، منذ أسبوع. وسمعهم مرتين، قبل أن يغادر الوادي، يحيونه («كوكي»، «كوكي») بهذا اللقب الذي هو، في الحقيقة، أقرب طريقة تاهيتية للفظ كنيته. وكان يرد

عليهم بيده، دون أن يتوقف، محاولاً أن يسرع خطاه، مما زاد في ألم ساقيه، ووخزات كاحله.

الواقع أنه كان يتقدم ببطء، وهو يعرج، مستنداً إلى عكازه. وبين فينة وأخرى، يمسح العرق عن جبهته بأصابعه. خمسون سنة، هي سن مناسبة للموت بوقار. أيأتيك بعد الموت، ذلك المجد الذي كان إيمانك به راسخاً، خلال سنوات شبابك، في باريس، في فنسستير، في بنما، في المارتينيك؟ وعندما يصل خبر موتك إلى فرنسا، هل سيوقظ حماسة الباريسيين، فضول مدوٍ تجاه أعمالك وشخصك؟ هل سيحدث لك مثل ما حدث للهولنديِ المجنون، بعد انتحاره؟ الفضول، والاعتراف، والتقدير، والنسيان. كل ذلك لا يهمك في شيء.

كان قد بدأ بارتقاء الجبل، عبر درب ضيق، تظلله خضرة متشابكة من أشجار جوز الهند والمانجا، وأشجار الخبز الباسقة من بين الآجام. كان عليه، أن يشق طريقه باستخدام كعازه، كمنجل متشيتي. وفكر: «لستُ نادماً عن أي شيء مما فعلته». غير صحيح. إنك نادم، لأنك أصبت بعدوى المرض الذي لا يُسمى، يا كوكي. كلما صار ارتقاء الدرب أكثر صعوبة، يصير مسيره أبطأ. كان الجهد يثقل عليه. ليست المسألة في أن تباغتكَ، الآن بالذات، سكتة قلبية. موتك سيكون مثلما خططت له أنتَ، وليس مثلما، وعندما، يقرره المرض الذي لا يسمى. المسير في ظل الخضرة، على سفح الجبل، كان أفضل ألف مرة، من السير في الوادي، تحت نار السماء، هذه الأداة المتخصصة في ثقب الرأس. توقف عدة مرات، ليلتقط أنفاسه، قبل أن يصل المصطبة الجبلية الصغيرة. لقد صعد إلى هناك، قبل شهور. تقوده باؤورا. وما إن وطأت قدماه تلك الفسحة من الأرض، الخالية من الأشجار، إنما الممتلئة بسرخس من كل الأحجام، والتي يمكن منها رؤية الوادي، وخط الساحل الأبيض، والبحيرة الزرقاء، والنور الوردي للأرصفة المرجانية؛ وإلى الوراء، البحر المختلط

بالسماء، حتى قرر: «أريد أن أموت هنا». كان مكاناً باهر الجمال. هادئاً، كاملاً، بكراً. وربما هو المكان الوحيد، في تاهيتي كلها الذي يشبه، مثل قطرة ماء، المخبأ الذي تصورتَهُ في مخيلتك، قبل سبع سنوات، في ١٨٩١، عندما غادرتَ فرنسا، متوجهاً إلى بحار الجنوب، معلناً لأصدقائك، أنك هارب من الحضارة الأوروبية المفسدة بالعجل الذهبي، لتبحث عن عالم نقي وبدائي، لا يكون الفن، في أرضه ذات السماء التي بلا شتاء، مجرد تجارة أخرى للتجار، وإنما ممارسة حيوية، دينية، رياضية، وحيث لا يحتاج الفنان، كي يأكل، إلا أن يمد ذراعه، مثل آدم وحواء في جنة عدن، ليقطف الغذاء من الأشجار المحملة بالثمر. لكن الواقع لم يكن على مستوى أحلامك، يا كوكي.

إلى هذه الشرفة الطبيعية، المعلقة على حافة الجبل، يصعد محمولاً بنسمة خفيفة، ذلك العبق الزخم الذي تطلقه الخضرة في شهور المطر، والذي يسميه التاهيتيون *نوا نوا*. استنشقَ باستمتاع، ونسي لبضع ثوان، كاحله وساقيه. جلس على رقعة ناشفة من الأرض، عند أصل شجيرة سرخس أخفت السماء. ودون تأثر، دون أن ترتعش يده، فتح الجراب، وابتلع كل ما فيه من مسحوق الزرنيخ، بمساعدة اللعاب، مع وقفات قصيرة، كي لا يختنق به. لحس البقايا الأخيرة العالقة بالجراب. كان لها طعم ترابي، مع حموضة خفيفة. انتظر سريان مفعول السمّ، دون خوف، ودون تخيل شيء من تلك الأمور القاسية التي تروقه، بفضول ناء. وعلى الفور تقريباً، بدأ يتثاءب. هل ستنام؟ هل ستنتقل بصورة عذبة، غير واعية، من الحياة إلى الموت؟ كنتَ تظن أن الموت بالسمّ مأساوي، وأنه آلام فظيعة، تشنجات عضلية، تقلّب كارثي في الأحشاء. وبدلاً من ذلك، ها أنتذا تغرق في عالم فقاعات غازية، وتبدأ بالحلم.

حلم بتلك الزنجية في بنما، في شهر نيسان أو أيار ١٨٨٧، ذات العضو الأحمر مثل خثرة دم. لقد كان هناك، دائماً، عند باب كوخها الذي من ألواح خشبية، صف أطول بكثير، مما هو عند أبواب

المومسات الكولومبيات الأخريات في المخيم. العمال الذين يعملون في شق القناة، يفضلونها بسبب «الكليب»... شيء تأخر بول في اكتشافه، هو الرواية البنمية، الحميدة، عن *الرحم المسنن* الرهيب والأسطوري. فرحم الزنجية، حسب قول العمال في حفر القناة، لا يخصي من يمتطونها، بل يعضعضهم برفق، فتبعث فيهم تلك الدغدغات النابضة مزيداً من اللذة. وبفضول، وقف في الصف أيضاً، يوم قبض الأجور، مثل غيره من عمال المعاول في فريقه. ولكنه لم يلحظ في فرج الزنجية، أي شي خاص. إنه يتذكر رائحة جسدها المتعرق النفاذة، ودفء بطنها المضياف، وفخذيها وثدييها. أتكون هي من نقلت إليكَ عدوى الداء الذي لا يسمى؟ الشك يخامره بذلك، مذ بدأت نوبات الحمى النهمة التي أوشكت أن تقتله في المارتينيك. أتكون تلك الزنجية البنمية، هي السبب في ما أصابكَ من ضعف البصر، وتردي حالة قلبك، وامتلاء ساقيك بالبثور؟ أحزنته هذه الفكرة. وفجأة، راح يبكي على آلين: لم ترها منذ سنوات، ولن تراها إلى الأبد، لأن ابنتك آلين ماتت، هناك في الدانمارك، مصابة بذات الرئة، بعد أن صارت، دون شك، آنسة دانمركية جميلة، تتكلم الفرنسية، بصورة لا تقل سوءاً عن باؤورا. والآن، أنت تموت هنا، في هذه الجزيرة المنسية، في بحار الجنوب: تاهيتي. وعندئذ، حلم بزميله وصديقه شارل لافال. لقد تعرفتَ عليه في أزمنة بون أفين الطيبة، ورافقك إلى المارتينيك وبنما، بحثاً عن الفردوس. لم تجداه هناك؛ بل الأصح أنك، أنت وشارل، سقطتما على وجهيكما، في الجحيم. فقد أصيب شارل بعدوى الحمى الصفراء، وحاول الانتحار. ولكن، لماذا شفقتكَ الآن، على شارل لافال يا كوكي؟ ألم يُشفَ من الوباء؟ أولم يتجاوز حياً، محاولة الانتحار؟ ألم يرجع إلى فرنسا، ليروي مآثره مثل محارب صليبي يرجع إلى مسقط رأسه، بعد غزوه أورشليم؟ أولم ينل شهرة لائقة كرسام؟ وقبل ذلك كله، ألم يتزوج من الجميلة، الرقيقة، الأثيرية مادلين، أخت إميل

برنار التي تعلقتَ بها، هناك في بريتاني؟ وفجأة، تحول حلمه إلى كابوس. أحس بالاختناق. شيء كثيف وساخن صعد إلى بلعومه، وسدّ حنجرته. لا يمكنك أن تبصقه. بقي لوقت طويل، على تلك الحال، يتألم، يختنق، يتلوى، ضحية الغم. وعندما فتح عينيه، كان قد تقيأ على نفسه. وكان هناك صف من النمل الأحمر، يمشي فوق صدره، متجنباً بقع القيء.

أكنتَ حياً؟ كنت حياً. ولكنك مشوش، ذاهل، خجل، ودون قوة على رفع ذراعيك. كان الوقت غروباً. وكان يَلمحُ، في البعيد، آخر ومضات الغسق. ويفقد الوعي بين فينة وأخرى، ويمر في ذهنه، معرض من الصور المتتالية. لكن واحدة منها، متواترة، على سطح السفينة جيروم-نابليون. ضابط يسألك: «أين كسروا أنفك، أيها البحار غوغان؟». «ليس مكسوراً يا سيدي، إنه هكذا. فأنا من شعب الإنكا، يا سيدي، على الرغم من زرقة عيني، ومن كنيتي الفرنسية. وعلامتي المميزة، هي أنفي.» كان الليل قد صار ليلاً؛ فهو يرى نجوماً، عندما يفتح عينيه، ويرتجف من البرد. كان ينام، ويستيقظ، ويعود للنوم. وفجأة، عرف في لحظة إشراق تام، أي اسم يلائم اللوحة التي رسمها في تلك الشهور الأخيرة، بعد نصف سنة، لم يلمس خلالها، فراشي الرسم، ولم يسجل مخططاً واحداً في دفاتره. منحه هذا اليقين طمأنينة آمنة، وأزال الخجل الذي يشعر به، من إخفاقه في الانتحار أيضاً، مثل شارل لافال في الكاريبي، في نيسان أو أيار ١٨٨٧، عندما أصيب بالوباء. ومع أول أنوار الفجر، استعاد صفاء ذهنه وقواه، لينتصب وينهض واقفاً. كانت ساقاه ترتجفان، ولكن دون حكة في بثورهما، ولم يكن كاحله يسبب له الآن أي إزعاج. وقبل أن ينطلق عائداً، أمضى بعض الوقت، وهو ينفض النمال الحمراء التي تذرع جسمه. كم تشعر هذه النمال بخيبة الأمل، لأنك لم تمت، يا كوكي. وأي مأدبة كانت ستقيمها على هيكلك العظمي المتعفن، إنما العنيد والغبي في تمسكه بالحياة.

بالرغم من أن العطش يعذبه - كان لسانه متحجراً مثل لسان حرذون - إلا أنه لم يكن يشعر، وهو ينزل سفح الجبل، إلى الوادي، بأي ألم، لا في جسده ولا في روحه، بل أحس بتهيج تفاؤل يداهمه. كنتَ تتلهف للوصول بأسرع ما يمكن، إلى البيت، للغطس في نهر بوناويا الذي تستحم فيه كل صباح، قبل أن تبدأ العمل، وتشرب لتراً من الماء، وفنجاناً من الماء الساخن مع قليل من الروم (هل بقي لديك روم؟)، ثم تشعل بعد ذلك، غليونك (هل بقي لديك تبغ؟)، وتدخل إلى المرسم؛ وتبدأ، دون إضاعة للوقت، بخط ذلك العنوان الذي اكتشفتَهُ بفضل الانتحار المُحبَط، بحروف سوداء، في الركن العلوي الأيسر من لوحة الخيش تلك، ذات أربعة الأمتار طولاً، والتي كنتَ تبلورها خلال الأسابيع الماضية. أي عمل بارع؟ أجل يا كوكي. في ذلك الركن العلوي، ستتصدر اللوحة هذه الأسئلة الرهيبة. ليس لديك أدنى فكرة عن الإجابات. ولكنك واثق، أجل، من أن الإجابات موجودة لمن يعرف البحث عنها، في شخوص اللوحة الاثني عشر التي ترسم، في قوس معاكس لاتجاه عقارب الساعة، المسيرة الإنسانية، منذ بدء الحياة في الطفولة، حتى نهايتها في الشيخوخة المخزية.

قبل قليل من بلوغه الوادي، وجد شلالاً صغيراً يهوي من خاصرة الجبل، فوق حفرة عفن طحلبي. شرب، بسعادة. بلل وجهه، رأسه، ذراعيه، صدره، واستراح جالساً على حافة الدرب. ساقاه متدليتان في الفراغ، وكان غارقاً في ذهول عذب. قطع بقية الطريق مخموراً بالتعب، ولكن بحماسة.

دخل إلى بيته، قرابة منتصف النهار، كما لو أنه قد انتهى من الدوران حول العالم. كان إميل الصغير ينام عارياً، على ظهره، في مهده. بينما كانت باؤورا جالسة على الحصيرة، والقط متكور على ساقيها، تحاول إخراج لحن من الجيتار. نظرت إليه، وابتسمت له، دون أن تتوقف عن مداعبة أوتار تلك الآلة الموسيقية التي لن تتمكن من ترويضها أبداً. وكانت تفقد اللحن مع كل نغمة.

- حاولتُ قتل نفسي وأخفقت. ابتلعتُ كثيراً من السمّ، فجاءني القيء، ونجوتُ بذلك. ولكن لم يعد لدي زرنيخ لقروح ساقيّ - قال متمهلاً، بالفرنسية التي تفهمها باؤورا تماماً، وإن كانت تتكلمها بصعوبة - لستُ فناناً فاشلاً وميتاً من الجوع فقط. إنني منتحر فاشل أيضاً. هيا، أعدّي لي فنجاناً من الشاي.

ملامح امرأته البليدة لم تتبدل. وبصورة آلية، رسمت ابتسامة أخرى، بينما يداها تواصلان إخراج بعض النغمات من الجيتار الخرب. ثم قالت دون أن تتحرك من مكانها:

- كوكي. فنجان شاي.

- فنجان شاي! - كرر هو، واستلقى على السرير، مستحثاً إياها بيده - الآن، فوراً!

أبعدت القط، ووضعت الجيتار على الأرض، ومضت تخطر برقة نحو الباب. كانت تبدو أكبر من سنوات عمرها الست عشرة أو السبع عشرة. إنها ممتلئة، ليست طويلة جداً، لها شعر طويل مائل إلى الزرقة، يغطي كتفيها، وبشرة حريرية، تبدو فسفورية بالتعارض مع لون ردائها الأحمر. فتاة جميلة، ربما هي أجمل فاهيني عشتَ معها منذ وطأت قدماكَ أرض تاهيتي. لقد حبلت وأنجبت مرتين، دون أن يصيب جسدها أدنى تشوه؛ لا يزال قوامها ممشوقاً وفتياً. إنك تعيش معها، منذ سنوات، لكنك لم تتوصل إلى أن تحبها، مثلما أحببت تيهامانا التي ما زلت تشعر، بين حين وآخر، بحنين جارف إليها. ولماذا لم تتوصل إلى أن تحبها يا كوكي، ما دامت، فضلاً عن جمالها، خدومة وشديدة الإذعان؟ لأنها شديدة البلاهة. لقد قلص، في الأزمنة الأخيرة، حواراته مع امرأته التاهيتية، إلى ما هو جوهري. فعندما تكون باؤورا صامتة، يشعر بشيء من العاطفة نحوها؛ فهي مرافقة، ومساعدة. وعندما تجتاحه الرغبة، وهو أمر أقل تواتراً الآن، مما كان عليه من قبل، يجد فيها جسداً شاباً، صلباً، وحسياً. ولكنها عندما تفتح فمها وتتكلم، بفرنسيتها البائسة، أو بتاهيتية تبدو

له غير مفهومة على الدوام، تثقل عليه تفاهة أسئلتها، وعجزها عن فهم الشروحات التي يحاول تقديمها إليها. غير أن ما يثير حفيظته، هو إهمالها غير المحدود للاهتمام بأي شأن روحي، أو ثقافي، أو فني، أو ذكي حتى. أتراها فهمت أنكَ أردت الانتحار؟ لقد فهمت ذلك جيداً. ولكن، بما أن كل ما يفعله زوجها، هو شيء جيد، فما الذي يمكنها عمله في هذا الشأن. وهل لها الحق في إبداء الرأي بشؤون سيدها ومولاها؟ إنها ليست امرأة يا كوكي. بل هي مجرد جسد غض، وفرج، ونهدين، ولا شيء أكثر من ذلك.

غلبه النوم. ولكن ليس لزمن طويل، لأنه عندما فتح عينيه، وجد فنجان الشاي الذي وضعته باؤورا إلى جانب السرير، لا يزال ساخناً. ذهب لإحضار زجاجة الروم الأخيرة من حجرة المؤونة. كانت فارغة تقريباً، لكن القطرات القليلة التي قطّرها على الشاي، أشعلت المشروب. تذوقه في رشفات صغيرة، بينما هو ينتقل بخوف، إلى المرسم. ألقى نظرة مطولة إلى اللوحة الفسيحة المشدودة، والمستقرة فوق المنصب، الشبيه بسقالة بناء، والذي صنعه خصيصاً لها. سهام الشمس التي كانت تنسل من بين قصب البامبو، أكسبت اللوحة حركة، نقلت إليه رعشة غريبة. هياج فراشات، كما في أيكة، بونارو في قيظ الظهيرة. أجل يا كوكي، العنوان يناسبها. وتناول مزّاجة ألوانه، وبإحدى أكثر الرياش دقة ونعومة، كتب في الركن العلوي الأيسر، بخط دقيق: «*من أين نأتي؟ من نحن؟ إلى أين نذهب؟*».

أهذه هي اللوحة التي كنتَ تريد رسمها؟ الآن، وأنت تراها بعد عودتك من الموت - عبارة جميلة يا كوكي - لم تعد واثقاً من ذلك، بالأفق والهدوء اللذين تضفيهما عودتك من الغيب. أكان ذلك هو الفردوس، كما أعاد اختلاقه رسام متوحش، يقيم في جزيرة تاهيتي؟ لقد كانت هذه هي نيتك الأولية. أو أنك، بكلمة أدق، أردت أن ترسم انطلاقاً من الجحيم الذي هويت فيه، خلال هذه الأزمنة الأخيرة، من ضراوة سوء الحظ، جنةَ عدن غير تجريدية، مجسدةً، هنا والآن.

ولكن، ليس هذا هو ما لديك هنا، في مقدمة اللوحة. من هو هذا الشخص المركزي الذي يضع وزرة بيضاء، ويلتقط ثمرة من شجرة غير مرئية فوق رأسه، ويقسم اللوحة إلى نصفين؟ ليست حواء، بالتأكيد. بل ليس مؤكداً أنها امرأة. فمع أنه يمكن، لسحنتها، لخصرها، لذراعيها، أن تعتبر أنثوية، إلا أنه لا يمكن لتلك التكورات التي تنفخ الوزرة، أن تكون أنثوية: إنهما خصيتان كبيرتان وعضو ذكري ضخم، ربما في سيرورة انتصاب.

انفجر ضاحكاً. إنه *تاتا فاهيني*! إنه *ماهو*! هذا هو ما رسمته يا كوكي: رجل-امرأة. قبل سبع سنوات، لدى وصولك إلى تاهيتي في حزيران ١٨٩١، وعندما أخبرك الملازم جينو (ما الذي حلّ به يا ترى؟) بأن الوطنيين سيظنونك *تاتا فاهيني* أو *ماهو*، بسبب شعرك الطويل المتهدل، وقبعة بوفالو بيل التي كنت تعتمرها، أُصبت بقشعريرة. رجل-امرأة، أنت؟ أولم تقدم فائضاً من الأدلة على فحولتك، منذ وعيت على الدنيا؟ وبقلق، قصصت شعرك الطويل، واستبدلت القبعة بأخرى من القش. ولكنك بدلت رأيك عندما اكتشفت أن التاهيتيين، على خلاف الأوروبيين، يتقبلون *التاتا فاهيني* مثلما يتقبلون أي رجل أو امرأة. وأنت الآن فخور لأنك أُخذت من قبل *ماهو*. وفكر: «إنه الشيء الوحيد الذي لم يستطع المبشرون انتزاعه». أليس هناك كثير من *التاتا فاهيني* في القرى، ضمن كثير من الأسر، على الرغم من ضراوة وعظ الرهبان والخوارنة، المصممين على فرض تناظر جنسي صارم: رجال هنا، نساء هناك، وتصفية أي نوع من الالتباس بين الجنسين؟ هذا ما لم يتم التمكن من انتزاعه من الوطنيين: حكمتهم الجنسية. تذكر، بمرح، مغامرته مع جوتيفا، الحطاب، عند الشلال: لم يمض على ذلك، وقت طويل. ويبدو لك كأنه حدث منذ قرون يا كوكي. أجل، لا يزال هناك الكثير من *التاتا فاهيني* في تاهيتي. ليس في العاصمة تابيتي، إنما في داخل الجزيرة، حيث وصل التأثير الأوروبي متأخراً، وبصورة سيئة،

أو أنه لم يصل قط. أولئك الفتيان الذين يزينون رؤوسهم بزهور تتزين بها النساء، ويطبخون، ويحيكون، ويقومون بالأعمال المنزلية. كان قد رأى الرجال يداعبونهم، في الحفلات، عندما يعمّ السكر، ويستخدمونهم أحياناً، كما النساء، بصورة طبيعية. وكان قد رأى كذلك، في الظروف نفسها، فتيات ونساء يتعانقن ويتبادلن المداعبات، دون أن يستغرب أحد ذلك. إنها آخر بقايا الحضارة المضمحلة التي جئت تبحث عنها، ولم تجدها يا كوكي، النَفَس الأخير من هذه الحضارة البدائية، الصحية، الوثنية، السعيدة، غير الخجلة من الجسد، وغير المشوهة بفكرة الخطيئة المنحدرة. الشيء الوحيد المتبقي مما اجتذبك إلى بحار الجنوب يا كوكي، هو هذا التقبل الحكيم للحاجة إلى الحب دون رياء، الحب بكل تجلياته، بما في ذلك المثلية. لن يستمر ذلك طويلاً. فأوروبا ستقضي كذلك، على **التاتا فاهيني**، مثلما قضت على الآلهة القدماء، وعلى المعتقدات القديمة، وعلى الاستخدامات القديمة، وعلى العري القديم، وعلى الوشم وأكل اللحم البشري، وعلى هذه الحضارة الصحية، السعيدة، النشطة التي وُجدت في أحد الأيام. ولكنها لا تزال موجودة في جزر الماركيزات. عليك أن تذهب إلى هناك، قبل أن تنفجر.

دون أن تدري، ودون أن تسعى إلى ذلك، رسمتَ **تاتا فاهيني** في وسط أفضل لوحاتك. إنه تكريم لما انقرض، لما سُلب من التاهيتيين. خلال كل السنوات التي أمضيتها هنا، لم تجد شخصاً واحداً يتذكر كيف كانت، من قبل، العادات، والعلاقات، والحياة اليومية. لم يُترك لهم حتى العري البديع الذي يظهرون به، في لوحتك. لقد غطى لهم المبشرون أجسادهم النحاسية، بهذه الجلابيب التي تبدو أثواب رهبنة. يا للجريمة! إخفاء تلك الأجساد ذات اللون الترابي الأمغر، أو الرمادي الشاحب، أو المائل إلى الزرقة، التي كانت تزدهي بكبرياء، طوال قرون، تحت الشمس، ببراءة حيوانية. الجلابيب التي أجبروهم على ارتدائها، خطفت منهم الظرافة، الانطلاق، القوة، ووسمتهم

بوسم العبيد المشين. كوكي، كوكي: كان عليك أنت، أن تخلق تلك الثقافة المتلاشية، من رأسها حتى قدميها، كي توجد وتحيا. هل كان أبناء الماووري يوماً، مثلما يظهرون في لوحتك؟ طبيعيين، أصدقاء لأجسادهم، وأخوة للأشجار التي تقدم لهم ثمرها، للبحر والبحيرة، حيث يصطادون ويستحمون، وحيث تمخر زوارقهم الصغيرة الماء، تحرسها من النكبات تلك الإلهة المُقلقة «هينا» التي كان عليك أن تختلقها لهم أيضاً، لأنه لم يكن هناك، تاهيتي واحد، يتذكر كيف كانت، عندما كان أسلافهم يعبدونها. فقد انتزع منهم المبشرون الذاكرة، وأفقدوهم إياها.

لقد كان عملاً صائباً، تمييز تلك الزوايا العلوية بالأصفر الكامد، للإيحاء بلوحة تاريخ قديم، بدأ تقادم الزمن يتلف حوافها. وإصابة أخرى هي ذلك التلون الثابت للمشهد، يحمله ويؤكده أزرق خفيف، وأخضر الخلفية الفيروني الذي تتجعد عليه وتتلوى أذرع أخطبوطية وأفعوانية، لأغصان وجذوع متراقصة. الأشجار هي الشخوص المحاربة الوحيدة في اللوحة. أما الحيوانات، بالمقابل، فهي مسالمة: القطط، العنزة، الكلب، الطيور، تتعايش بأخوة مع البشر. وحتى العجوز المقرفصة إلى اليسار، على وشك أن تموت، أو ربما تكون قد ماتت، متخذة وضع المومياءات البيروية التي لم تستطع نسيانها أبداً، تبدو مستسلمة لوجودها.

وماذا عن هذين الشخصين المتلفعين بعباءات وردية، ويمشيان، في البعد الثاني، بعكس الزمن، من الموت إلى الحياة، إلى جانب شجرة المعرفة؟ بينما أنت ترسمهما، خطر لك أنهما سيكونان أنت نفسك وعاثرة الحظ آلين. ولكن، لا. هذان الشخصان المتهامسان ليسا أنت وابنتك الميتة. وليسا تاهيتيين كذلك. هناك شيء مشؤوم، فظ، كيدي، مُغضِّب، في طريقتهما في التهامس، في استغراقهما في نفسيهما، غير عابئين بما يحيط بهما. أغمض عينيه، وبحث في أعماق روحه. ما الذي مثلته في هذا الثنائي يا كوكي؟ لم يعرف ذلك. لن يعرفه

إلى الأبد. إنه عارض جيد. فأنتَ لم ترسم لوحتك الأفضل بيديك، وبأفكارك، وتخيلاتك، وبحرفتك القديمة وحسب؛ وإنما كذلك بتلك القوى الغامضة الآتية من أعماق الروح، من دوي عواطفك، من غضب نزواتك، تلك الاندفاعات التي تفور في اللوحات الاستثنائية. اللوحات التي لا تموت أبداً يا كوكي. مثل «أولمبيا» مانيه.

ظل وقتاً أطول، مستغرقاً في دراسة لوحته، محاولاً فهمها بصورة متكاملة. وعندما نزل من المرسم، كانت باؤورا في انتظاره، وقد انتهت من إعداد العشاء، في الأسفل، في الحجرة المفتوحة على العراء من جانبيها، والتي يستخدمانها كغرفة طعام. كانت تحمل إميل بين ذراعيها، هذا الطفل الذي يظل صامتاً، ودون حركة على الإطلاق - لم تتوصل إلى الشعور نحوه، بالحنان الذي كانت توحي به إليك أخته التي ماتت، بعد قليل من مولدها -، بالرغم من فتحه عينيه على اتساعهما. يا لحسن الحظ. كان هناك على المائدة، طبق فواكه، والعجة التي علَّمتَ امرأتك أن تصنعها مثلما تروقكَ: خفيفة وطرية جداً، شبه مائعة. وكان يُسمع، في القرب، رجع البحر غير المرئي.

- هذا يعني أن الصيني تينغ أعطانا البيض بالدين - احتفل بالأمر، مبتسماً - كيف أقنعتِه؟

فأكدت هي:

- كوكي. صيني. بيض. ملح.

كان في عينيها، شيء ساكن، عذب، طفولي، يتعارض من استدارة جسدها البالغ.

- إذا ما ضاجعتُكِ هذه الليلة، فسوف أشعر بأنني أنبعث حقاً - قال بصوت عال، وهو يجلس لتناول الطعام.

- صحيح - وافقت باؤورا، وهي تبدي تقطيبة.

XIII. الراهبة غوتيريث

طولون، آب ١٨٤٤

ما كان لانطباع فلورا الأول عن طولون، حين وصلتها، فجر يوم التاسع والعشرين من تموز ١٨٤٤، أن يكون أسوأ: «مدينة عسكريين ومجرمين. لا يمكن لي عمل أي شيء هنا». وكان ما أوحى لها بهذا التشاؤم، هو أن طولون تعيش على ترسانة بناء السفن، حيث يعمل خمسة آلاف عامل من المدينة، مختلطين مع السجناء المحكومين بالأشغال الشاقة. وكان التهاب الكولون وآلام الأعصاب تؤرقها، بلا هوادة، مذ كانت في مرسيليا.

من استقبلوها في طولون، هم بعض البرجوازيين السان-سيمونيين، شديدي الحداثة عندما يتكلمون عن التقدم العلمي، وعن تنظيم إنتاج الثروات الصناعية. ولكنهم خائفون من أن يوقعهم كلام فلورا الفظ، في مشكلات مع السلطات. كان يقودهم كابتن له أهواء رجل غندور، يدعى جوزيف كوريز، كان ينهكها بنصائحه لها، بتوخي الحذر والاعتدال.

لكن فلورا أوقفته عند حده:

- لو أنني أريد الحذر والاعتدال، لما احتجت إلى القيام بهذه الجولة. فأنتم موجودون من أجل ذلك. أما أنا فجئت لصنع ثورة. وعليّ أن أقول بعض الحقائق، دون مفر. وإذا ما غضبت السلطات، فسوف تزيد من مصداقيتي أمام العمال.

وقد غضبت السلطات فعلاً، قبل أن تكون فلورا قد فتحت فمها أمام الجمهور. ففي اليوم التالي لوصولها، حضر إلى الفندق، مفوض شرطة طولون، وهو ملتحٍ خمسيني، يعبق برائحة الخزامى.

واستجوبها خلال نصف ساعة عن نواياها في المدينة. حذرها بأن أي عمل يخل بالنظام العام، سيقمع بشدة. وبعد ساعات من ذلك، جاءها استدعاء من المدعي الملكي، للمثول في مكتبه.

- قل لرئيسك إنني لن أذهب إليه - انفجرت **مدام غضب**، بحنق - إذا كنتُ قد اقترفت جريمة، فليعتقلني. أما إذا أراد أن يخيفني، ويجعلني أضيع الوقت، فلن يستطيع ذلك.

مساعد المدعي الملكي، وهو شاب رقيق السلوك، نظر إليها مستغرباً وقلقاً، كما لو أن هذا المرأة التي ترفع عليه صوتها، وتهز إصبعها السبابة المتوعدة، على بعد مليمترات من أنفه، يمكن لها أن تتحول إلى الاعتداء الجسدي عليه. هكذا نظر إليكِ يا فلوريتا، بالدهشة نفسها، والذهول نفسه، والرعب نفسه الذي نظَر به إليك، قبل عشر سنوات، عمك بيو تريستان، في بيت شارع سانتو دومنغو الكبير، في أريكيبا. في ذلك الصباح، بعد أيام من لقائكما الأول؛ عندما تطرقتما أخيراً، إلى موضوع الميراث الشائك. دون بيو الأنيق، الضئيل، السلس، الشائب، السيد النحيف ذو العينين الزرقاوين، كان قد أعد حججه على أحسن وجه. وبعد ديباجة لطيفة، أثقل فيها عليكِ بالمصطلحات الحقوقية اللاتينية، والاقتباسات القانونية، أخبركِ بأنه لا يمكن لك، كابنة غير شرعية، لأبوين يفتقر ارتباطهما، حسب اعترافكِ في رسالتك إليه، إلى أي شرعية مثبتة، أن تتطلعي إلى الحصول على سنتافو واحد، من ميراث أخيه العزيز مريانو.

تأخر دون بيو ثلاثة شهور، قبل أن يعود من معاصر قصب السكر التي يملكها في كامانا، كما لو أنه يخشى اللقاء بابنة أخيه الفرنسية. كنتِ قد تأثرتِ إلى حد البكاء، بتعرفك شخصياً، على هذا الأخ الأصغرَ لأبيك الذي تذكّرك ملامحه به. لقد كنتِ لا تزالين عاطفية، أيتها الأندلسية. عانقت عمك، مرتجفة، مدمدمة أنك تريدين أن تحبيه وأن يحبك؛ وأنك تشعرين بالسعادة لاستعادة أسرتك لأبيك، وأنك تشعرين، بفضلها، بالدفء والأمان اللذين لم

تعرفيهما منذ طفولتك، في بيت حي فوجيرار. كنتِ تقولين ذلك، وتشعرين به يا فلوريتا! وقد تأثر العم تريستان كذلك، في الظاهر، وهو يعانقكِ ويدمدم، وعيناه الزرقاوان معكرتان من فيض المشاعر:

– رباه، إنك صورة حية لأخي، يا بنيتي.

وفي الأيام التالية، استنفد ذلك العجوز ذو الأربعة والستين عاماً، المحتفظ بمظهر رائع – فقد كان أغنى أغنياء أريكيبا، بدخله البالغ ثلاثمئة ألف فرنك – استنفد الملاطفة والحنان، نحو ابنة أخيه. ولكنه، عندما وافق أخيراً، على أن يتحدثا على انفراد، وأعربت له فلورا عن لهفتها للاعتراف بها كابنة شرعية لدون مريانو، وأن تتلقى بصفتها تلك، دخلاً بقيمة خمسة آلاف فرنك سنوياً، من ميراث جدتها وأبيها، تحول دون بيو إلى شخص جليدي، قانوني، إلى ناطق رسمي لا يلين، باسم القواعد الشرعية: لا بد للقوانين، وهي مقدسة، من أن تتغلب على العواطف؛ وإلا لن تكون ثمة حضارة. وحسب القانون، ليس لفلورا، أية حقوق. وإذا كانت لا تصدق، فلتستشر قضاة ومحامين. لقد فعل دون بيو ذلك، وهو يعرف ما الذي يقوله.

عندئذ، انفجرت فلورا في واحدة من نوبات غضبها، مثل تلك التي دفعت مساعد المدعي الملكي الشاب، في طولون، إلى الانصراف شاحباً، شبه هارب. جاحد، دنيء، جشع، أهكذا يكافئ اهتمام أبيها دون مريانو الذي رعاه، وحماه، وعلّمه هناك في فرنسا؟ أيفعل ذلك بالإساءة إلى ابنته المحرومة، وإنكار حقوقها، والحكم عليها بالبؤس، وهو الرجل الغني؟ رفعت فلورا صوتها بقوة، حتى إن دون بيو، الشاحب مثل ورقة، انهار على الأريكة. بدا عاجزاً، ضئيلاً في تلك القاعة ذات الجدران المزينة بصور أسلافه، الأعيان والموظفين الكبار في الإدارة الاستعمارية: أعضاء في مجلس المستعمرة، أسياد ريف، مطارنة، نواب ملك، عمد، جنرالات. وقد اعترف لفلورا، فيما بعد، بأنها أول مرة، في سنوات عمره الأربع والستين، يرى فيها امرأة، من داخل الأسرة وخارجها، تتمرد بهذه الصورة، وتسيء احترام رب

أسرة. أهذه هي العادات الآن في فرنسا؟

انفجرت فلورا في الضحك. وفكرت: «لا يا عماه. في ما يتعلق بالمرأة، ما زالت العادات الفرنسية أكثر تخلفاً مما هي عليه في أريكيبا». عندما علم أصدقاؤها السان-سيمونيون في طولون بزيارة المفوض، وباستدعاء المدعي العام، أحسوا بالخطر. فسوف يكون هناك، تفتيش لغرفتها في الفندق. هذا مؤكد. خبأ الكابتن جوزيف كوريز، في بيته، كل أوراق فلورا، حول منظمات **الاتحاد العمالي** في الأقاليم الفرنسية. ولكن، لسبب غامض، لم يجر أي تفتيش، ولم يعد المدعي الملكي إلى استدعاء فلورا، خلال زيارتها.

ولتعويضها عن تلك الانفعالات القوية، أخذها السان-سيمونيون إلى المرفأ لحضور «الترامح البحري»؛ احتفال لهو سنوي، يجتذب إلى طولون أعداداً كبيرة من الزائرين، من كل المناطق، حتى من إيطاليا. يقف رَمَّحَان على منصة صغيرة، في مقدمة بعض الزوارق التي تستخدم كأحصنة بخرية، ويكونان مسلحين بعصوين طويلتين أحد طرفيهما مرهف، ومحميين بتروس خشبية، يصطدمان بقوة، بكل سرعة الاندفاع التي توفرها للزورق دزينة من المجدفين. ومن شدّة الصدمة، يسقط أحد الرَمَّاحين، أو كلاهما في الغالب، إلى الماء، وسط زمجرة الحشود المتجمعة على الأرصفة، وعلى الطريق المحاذي للبحر. وقد أحس السان-سيمونيون بشيء من الانزعاج، عندما أخبرتهم فلورا، بعد انتهاء الاستعراض، بأن أهم ما في الأمر، في نظرها، هو أن أولئك الرجال المساكين الذين يتبادلون الهجمات بالرماح، لتسلية الرعاع والبرجوازيين، يسقطون في مياه قذرة، حيث تصب مجاري المدينة. ولا بد أن التلوث ينقل إليهم عدوى أمراض.

لم تَرُقك قط، هذه التسليات الحاشدة، حيث يَتَحَيْوَن الأفراد في كنف الحشد، ويفقدون السيطرة على غرائزهم، ويتصرفون كمتوحشين. ولهذا أحسست بانزعاج عميق، عند رؤية مصارعات الثيران تلك، في ساحة السلاح في أريكيبا، حيث أخذك كليمنت

ألتاوس للتفرج؛ ومصارعات الديوك، وسط صخب المراهنين الذين يحثون الحيوانات الدامية. لقد ذهبت إليها بذلك الفضول، لمعرفة وتقصي كل ما هو فطري. وهو ما كان يدفعك أحيانا إلى ابتلاع ضفادع وأفاع.

حاول الكولونيل ألتاوس الذي يقول إنه وقع أيضاً، ضحية جشع دون بيو تريستان، أن يواسيها، وأن يثنيها كذلك، عن اللجوء إلى أي إجراء قانوني، للاعتراف بها كابنة شرعية. وأكد لها بأنها لن تجد أبداً، محامياً جيداً يتجرأ على مواجهة أوسع الرجال نفوذاً في أريكيبا، ولا قاضياً يتجاسر على توجيه اتهام إلى دون بيو. «هذه البلاد ليست فرنسا، يا فلوريتا، إنها البيرو». فالألماني أيضاً لديه أوهام عن فرنسا العذبة.

وبالفعل، كان المحامون الستة الذين استشرتهم، حاسمين: ليس لذلك أدنى احتمال. فبرسالتك الساذجة إلى دون بيو، وإخباره فيها بالحقيقة، حول زواج أبويك، وضعت الحبل حول عنقك. لن تكسبي القضية أبداً، إذا ما تجرأت على رفعها. بل إن فلورا استشارت محامياً راديكالياً، يتحاشاه مجتمع أريكيبا الراقي، لسمعته كآكل رهبان، منذ أن تجرأ قبل سنتين، على الدفاع عن الراهبة دومينغا غوتيريث، تلك الفضيحة التي مازالت تستثير تقولات وإشاعات المدينة. وقد انتهى الأمر بالمحامي الناري الشاب مريانو يوسا ميرابيداس، إلى توجيه نصيحة الضربة القاضية إليك:

– يؤسفني أن أخيب أملك يا دونيا فلوزا. ولكنك لن تكسبي هذه القضية، بصورة شرعية، أبداً. وحتى لو توفرت لك الوثائق النظامية، وكان زواج والديك شرعياً، فإننا سنخسر القضية أيضاً. ليس هناك من كسب حتى الآن، نزاعاً قضائياً مع دون بيو تريستان. ألا تعرفين أن نصف أريكيبا تعيش على نفقته، والنصف الآخر يتطلع إلى التمكن من رضاعة ضرعه؟ فمع أننا تحولنا، نظرياً، إلى جمهورية، إلا أن المستعمرة لا تزال حية تنبض في البيرو.

كان عليها أن تجتر هزيمتها، وتتخلى عن أحلامها في التحول إلى برجوازية مزدهرة. هذا أفضل، أليس كذلك يا فلوريتا؟ أجل، أفضل. لهذا، وبالرغم من أن أريكيبا قد أحبطت الكثير من أحلامك، فإنك تشعرين بحب جارف إلى مدينة البراكين تلك. فهي التي فتحت عينيك على التفاوت، وعدم المساواة بين البشر، وعلى العنصرية، وعمى الأثرياء وأنانيتهم، وعلى عدم إنسانية التعصب الديني، مصدر كل جور. لقد أرّقتك قصة الراهبة دومينغا غوتيريث - وهي ابنة عم لك، بالطبع، في مدينة زنا المحارم المستتر تلك - أذهلتك، أغضبتك، وقادتك إلى استجواب نصف العالم، كي تكوِّني فكرة عما حدث. ومن أجل فهم القصة، كان لا بد من التعرف على تلك الأديرة المغلقة. وهي علامة مميزة أخرى لأريكيبا؛ ففضلاً عن تفاخرها بأحجار كنائسها ومنازلها البيضاء المنحوتة، وبزلازلها وثوراتها، تفاخر كذلك بأنها الأكثر كاثوليكية بين مدن البيرو، وأميركا، وربما مدن العالم بأسره. وقد قررت التعرف على تلك الأديرة.

بطبعها الذي ينتهي إلى تليين الحجارة، طلبت الفرنسية، توسلت، تآمرت مع الأصدقاء والأقارب، إلى أن حصلت على التصاريح اللازمة، من المطران غوينتشي، واستطاعت زيارة أديرة الراهبات الثلاثة الرئيسية المغلقة في أريكيبا: دير القديسة روسا، ودير القديسة تريسا، ودير القديسة كاتالينا. ووراء أسوار هذا الأخير ذات الشرفات، حيث أمضت فلورا خمس ليال، كانت هناك مدينة إسبانية صغيرة مغروسة وسط أريكيبا: شوارع صغيرة منتظمة، تحمل أسماء أندلسية واكستريمادورية، وساحات هادئة ومترعة بالقرنفل وشجيرات الورد، ونوافير مغردة، وحشد أنثوي يتجول في تلك القاعات، والمصليات، وصالات اللهو، والكنائس، وبيوت الإقامة المزودة بحدائق وشرفات ومطابخ، حيث يُسمح لكل راهبة، بأن تحتبس معها أربع عبدات وأربع خادمات.

لم تستطع فلورا أن تصدق عينيها، حيال ذلك الترف. لم تتصور

قط، بأن ديراً مغلقاً يرفل بمثل تلك الأبهة. ففضلاً إلى الثراء الفني: لوحات، منحوتات، سجاجيد، وأدوات عبادة من الفضة، والذهب، والمرمر، والعاج، كانت الزنازين تزدهي بالسجاد والوسائد، بملاءات الحرير، وأغطية الأسرة المطرزة يدوياً. الوجبات الخفيفة تقدم في صحاف مستوردة من فرنسا، من الفلاندر،من إيطاليا، ومن ألمانيا، مع أدوات مائدة من الفضة المنمنمة. استقبلتها راهبات دير القديسة كاتالينا استقبالاً صاخباً. كن مرحات، بشوشات، لطيفات، وأنثويات إلى أقصى الحدود. وكي يعرفن «كيف تلبس الفرنسيات»، لم يكتفين بأن تخلع فلورا بلوزتها، وتريهن مشدّ الصدر وحَمَّالة الثديين؛ بل جعلوها تخلع تنورتها كذلك، والمشد السروالي، لأنهن كن يتحرقن فضولاً، للمس الثياب الداخلية النسائية الفرنسية. وكان على فلورا، المحمرة مثل زهرة برقوق، والبكماء من الخجل، أن تعرض نفسها، وهي بالسروال الداخلي والجورب، لتَفَحُّص الراهبات وهمهماتهن، إلى أن جاءت رئيسة الدير لإنقاذها، وهي تكاد تموت من الضحك.

أمضت أياماً مفيدة، ومسلية حقاً، في ذلك الدير الأرستقراطي الذي لا تُقبل فيه، سوى راهبات مستجدات من أسر عريقة، قادرات على دفع البائنة المرتفعة التي تطلبها الرهبانية. وعلى الرغم من الحبس المؤبد، والساعات الطويلة المكرسة للتأمل والصلوات، لم تكن الراهبات يشعرن بالملل؛ فهن يقضين شطراً لا بأس به من اليوم، في المرح، واللعب كطفلات، أو في تبادل الزيارات، في تلك البيوت الصغيرة التي تحافظ العبدات الزامبي[١]، والخلاسيات والزنجيات، والخادمات الهنديات، على بقائها نقية ونظيفة. جميع راهبات دير القديسة كاتالينا اللواتي استجوبتهن، كن يعتقدن اعتقاداً راسخاً، بأن شيطاناً يتلبس دومينغا. ويقلن جميعهن إنه لا يمكن أبداً، أن يحدث في دير القديسة كاتالينا، مثل ذلك الأمر المحزن.

---

[١] زامبا zamba : المهجنة المولودة لأبن زنجي وأم هندية، أو العكس.

ولأن قصة دومينغا حدثت، بالفعل، في دير القديسة تريسا، وهو دير راهبات كرمليات، حافيات، أشد تقشفاً، وصرامة، وتصلباً من دير القديسة كاتالينا، فقد أمضت فلورا فيه أيضاً، أربعة نهارات وثلاث ليال، مقشعرة البدن من الغم. كان دير القديسة تريسا يضم ثلاثة محابس بالغة الجمال، فيها عرائش، وياسمين، وناردين، وشجيرات ورد معتنى بها، وخمَمَة دجاج، وبستان تزرعه الراهبات بأيديهن. ولكن لا يسود فيه الجو المستهتر، الدنيوي، اللعوب، العابث الذي وجدته في دير القديسة كاتالينا. فليس هناك من يلهو في دير القديسة تريسا؛ بل هنا تعبد، وتأمل، وعمل بصمت، ومعاناة في الجسد والروح، حباً بالرب. الزنازين الصغيرة التي تعتكف فيها الراهبات للعبادة - وهي ليست غرف نومهن - لا وجود فيها لشيء من مظاهر الرفاهية أو الراحة، بل جدران عارية، وكرسي متقشف من القش، ومنضدة من ألواح خشبية خشنة. وتتدلى، معلقة بمسمار، أدوات تعذيب النفس التي تجلد الراهبات أنفسهن بها، لكي يقدمن جراحاً من لحمهن، قرباناً للرب. ومن زنزانتها، سمعت فلورا، بفزع، النحيب الذي يرافق فرقعة سياط من يؤدبن أنفسهن ليلاً. وأدركت ما الذي كانت عليه حياة ابنة عمها دومينغا غوتيريث، خلال السنوات العشر التي أمضتها هناك؛ مذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها.

لقد كانت دومينغا في تلك السن، عندما وافقت، نزولاً عند إلحاح أمها، وبسبب خيبة أمل غرامية بعد ذلك - زواج حبيبها الشاب من أخرى - على الدخول كمستجدة، إلى دير القديسة تريسا. وبعد أسابيع قليلة، وربما بعد أيام قليلة، أدركت أنها لن تستطيع التكيّف أبداً، مع ذلك النظام من التضحية بالنفس، والتقشف المفرط، والصمت والعزلة الكاملة، حيث تكاد لا تُنام، ولا تأكل، ولا تعيش، لأن كل الأوقات عبادة، وإنشاد تراتيل، وجلد للنفس، واعترافات، وعمل يدوي في الأرض. توسلاتها وتضرعها إلى أمها، عبر غرفة التحادث، من أجل إخراجها من الدير، ذهبت أدراج الرياح. وكانت

حجج متلقي اعترافاتها التي تشوش دومنغا، تعزز حجج أمها: عليها أن تتجاوز هذه الكمائن، لأن الشيطان هو الذي يريد دفعها إلى التخلي عن خيارها الديني.

بعد سنة من ذلك، وبعد تقديم النذر الذي يربطها حتى الموت، بتلك الجدران وذلك الروتين، سمعت دومينغا، خلال القراءة، في موعد الطعام، في صفحات من «**كتاب الحياة**» للقديسة تريسا، قصة حادثة مس شيطاني، أصاب راهبة من سلمنكا، فأوحى لها الشيطان بحيلة قبورية للهرب من الدير. عندئذ، أشرقت بارقة إلهام في ذهن دومينغا التي أكملت الخامسة عشرة من عمرها. أجل، لقد فكرت في طريقة للهرب. كان لا بد لها من التصرف بمنتهى الحذر والصبر، كي تتمكن من النجاح. وقد تطلب منها تنفيذ الخطة، ثماني سنوات. عندما تفكرين بما كانت عليه، بالنسبة لابنة عمك دومينغا، تلك الأعوام الثمانية، في حبك مؤامرتها المعقدة، خطوة خطوة، بمنتهى الحذر، متراجعة كلما داهمها الخوف من أن يكتشف أمرها، لتعود وتبدأ من جديد في اليوم التالي - إنها بنلوبي لا تكل من حياكة وفتق ما حاكته، كي تعيد الحياكة من جديد - ينقبض قلبك، وتراودك دوافع تدميرية، فتفكرين في إحراق أديرة، وفي شنق أولئك المتعصبين المضطهدين للروح والجسد، وقطع رؤوسهم بالمقصلة، مثلما فعل ثوريو ١٧٨٩. ولكنك تندمين بعد ذلك، على تلك الرؤى القيامية السرية التي يزينها لك غضبك.

وأخيراً، في السادس من آذار ١٨٣١، استطاعت دومينغا غوتيريث، ذات الثلاث والعشرين سنة، تنفيذ خطتها. في اليوم السابق، تمكنت اثنتان من خادماتها، من الحصول على جثة فتاة هندية، بفضل تواطؤ طبيب في مستشفى سان خوان دي ديوس. وحملتا الجثة، تحت جنح الظلام، إلى غرفة مستأجرة لهذا الغرض، قبالة دير القديسة تريسا. ومع دقة ناقوس منتصف الليل الأخيرة، سحبتا الجثة إلى داخل الدير، من البوابة الرئيسية. وكانت الراهبة

البوابة، وهي متواطئة في المؤامرة أيضاً، قد تركتها مفتوحة. وهناك كانت تنتظرهما دومينغا. حملت هي والخادمتان الجثة إلى الجحر الضيق الذي تنام فيه الراهبة الصغيرة. وعَرَّين جثة الهندية، ثم ألبسنها مسوح دومينغا وكتفيتها. وسكبن زيتاً على الجثة، وأشعلن فيها النار، متوخيات أن يشوه اللهب الوجه، حتى يصير التعرف عليه غير ممكن. وقبل هربهن، أفسدن ترتيب الزنزانة، ليضفين مزيداً من المصداقية على الحادث المدبر.

من مخبئها، في الغرفة المستأجرة، تابعت دومينغا غوتيريث الجناز الذي أقامته لها راهبات القديسة تريسا قبل دفنها، في المقبرة المجاورة للبستان. هل أعطى ذلك نتيجة! لم تذهب الشابة الهاربة لتلتجئ في بيتها، خوفاً من أمها، وإنما ذهبت إلى بيت أعمام لها، كانوا يحبونها كثيراً، وهي طفلة. لكن الأعمام الخائفين من عبء المسؤولية، هرولوا ليخبروا المطران غوينتشي بالقصة التي لا تُصدق. بعد سنتين من ذلك، كانت الفضيحة لا تزال تتفاعل. وقد وجدت فلورا المدينة منقسمة إلى مؤيدين ومعارضين لدومينغا التي منحها أحد أخوتها، بعد أن طردها أعمامها، ملاذا في مزرعة في تشوكيباميا، حيث تعيش منفية، في محبس من نوع آخر، بينما تواصل الإجراءات القانونية والشرعية، حول قضيتها، مسارها.

أهي نادمة؟ ذهبت فلورا إلى تشوكيباميا، لتقصي ذلك. بعد رحلة شاقة في جبال الأنديز، وصلت إلى البيت الريفي البسيط الذي تحول إلى سجن علماني لدومينغا. لم يكن لدى هذه الأخيرة، مانع من استقبال ابنة عمها. كانت تبدو أكبر بكثير من سنوات عمرها الخمس والعشرين. المعاناة، الخوف، القلق سببت امتقاعاً في وجهها ذي التقاطيع المحفورة، بعظام وجنتيه البارزتين. وكانت رجفة عصبية تهز شفتها السفلى. كانت ترتدي ملابس بسيطة، ثوب فلاحة مزيناً بأزهار، ومغلقاً عند العنق والمعصمين. وتغطي يديها، مقلمتي الأظفار، الثآليل، من العمل في الأرض. وكان في عينيها العميقتين،

المرهقتين، شيء متهرب، مذعور، يترصد كارثة ما. كانت تتكلم بنعومة، باحثة عن الكلمات، خوفاً من أن ترتكب خطأ يفاقم من سوء وضعها. ولكنها، عندما تحدثت، تحت إلحاح فلورا، عن قضيتها، كان تصميمها صلباً لا يلين. لقد أساءت التصرف، لا شك في ذلك. ولكن، ما الذي يمكنها عمله غير دلك، للهرب من الحبس الذي تتمرد عليه روحها، وعقلها، وكل ثانية من حياتها؟ الاستسلام لليأس؟ الجنون؟ الانتحار؟ أهذا ما كان يريدها الرب أن تفعله؟ وكان أكثر ما يحزنها، أن أمها أرسلت تقول لها إنها، منذ ارتدادها، تعتبرها ميتة. وما هي خططها؟ تحلم بأن تنتهي تلك المحاكمة، تلك التعقيدات العويصة بين المحاكم والكنيسة، وأن يسمحوا لها بالذهاب إلى ليما، لتعيش هناك مجهولة، حتى ولو عملت خادمة منزلية، إنما في الحرية. وعند الوداع، همست في أذن فلورا: «صلّي من أجلي».

ما الذي فعلته دومنغا غوتيريث، خلال هذه السنوات الإحدى عشرة؟ أتراها تعيش، أخيراً، بعيداً عن أريكيبا، حيث ستبقى على الدوام، هدفاً للجدل والفضول العام، أم أنها تمكنت من السفر إلى ليما، والعيش فيها مجهولة، مثلما كانت تتمنى؟ هل علمت دومينغا بالمحبة والتضامن اللذين عرضت بهما قصتها، في كتابها «**اغتراب منبوذة**»؟ لن تعرفي ذلك أبداً يا فلوريتا. فمنذ أن أمر دون بيو تريستان بإحراق كتاب مذكراتك، أمام الملأ، هناك في أريكيبا، لم تعد تصلك أية رسالة من معارفك وأقربائك الذين كنت تترددين عليهم، قبل سنوات، في مغامرتك البيروية.

خلال زيارة دار صناعة السفن، في طولون، وقد أستغرقت يوماً كاملاً، وجدت فلورا الفرصة سانحة، مرة أخرى، مثلما في إنكلترا، لرؤية المساجين عن قرب. لم يكن سجنهم مثل ذلك السجن الذي عرفته ابنة عمها دومينغا، بل أسوأ منه. فقد كان آلاف السجناء الذين يقضون أحكام أشغال شاقة، في منشآت دار بناء السفن، مقيدين من كواحلهم بسلاسل حديدية، جرّحت أقدام كثيرين منهم،

وأحدثت فيها قروحاً. ولم تكن السلاسل هي الشيء الوحيد الذي يميز السجناء عن العمال الذين يعملون، مختلطين معهم، في الورش ومقالع الحجارة؛ بل ارتداؤهم أيضاً، قمصاناً مخططة، وطاقيات يدل لونها على نوع الحكم الذي يقضونه. كان من المستحيل، عدم الشعور بالقشعريرة، أمام السجناء ذوي الطاقيات الخضراء: أحكام مؤبدة. فقد كان أولئك التعساء يعرفون، مثل دومينغا، أنهم سيعيشون ما تبقى من حياتهم، اللهم إلا إذا تمكنوا من الهرب، خاضعين لهذا الروتين الباعث على الخبل، يحرسهم حراس مسلحون، إلى أن يأتي الموت، ليحررهم من الكابوس.

وكما في السجون-الكنائس، فوجئت هنا أيضاً، بأعداد السجناء الذين يبدون، للعين المجردة، مرضى عقليين، تعساء مصابين بأمراض البلاهة، والهذيان، وأشكال أخرى من الجنون. ينظرون إليها بذهول مخبول، بأفواه مفتوحة، وخيوط لعاب تتدلى من شفاههم، وبعيون زجاجية، زائغة، عيون من فقدوا العقل. لا بد أن كثيرين منهم لم يروا امرأة منذ زمن. وهو ما تدل عليه ملامح الانبهار، أو الرعب التي ينظرون بها إلى فلورا. بل إن بعض المجانين، مدوا أيديهم إلى أعضاء حيائهم، وراحوا يستمنون، بغريزية البهائم.

أمن العدل أن يُحاكم ضعفاء العقل، والمتخلفون والمجانين، ويحكم عليهم، مثل الأشخاص الذين بكامل قواهم العقلية؟ أليس ظلماً فادحاً؟ وما هي المسؤولية التي يتحملها المجنون عن أفعاله؟ عدد كبير من هؤلاء المحكومين بالأشغال الشاقة، يجب ألا يكونوا هنا، وإنما في ملاجئ للمجانين. غير أنها تذكرت تلك المستشفيات النفسية في إنكلترا، والمعاملة التي يخضع لها المجانين فيها، ورأت أن الحكم عليهم، كمجرمين، أفضل من تلك الملاجئ. لديك الآن، موضوع آخر للتأمل فيه، والبحث عن حل له، في مجتمع المستقبل يا فلوريتا.

حذرها ضباط دار بناء السفن في، طولون، بأنه عليها عدم

الدخول في حوار مع الشغيلة - السجناء منهم والعمال -، لأن ذلك قد يؤدي إلى وقوع أحداث غير مريحة. ولكن فلورا، الوفية لمزاجها، اقتربت من فرق العاملين، وسألت عن ظروف العمل، وعن علاقة المحكومين المقيدين بالعمال. وسرعان ما وجدت نفسها، أمام ذهول ضابطي البحرية والموظف المدني الذين يرافقونها، تترأس مناظرة ملتهبة، في الهواء الطلق، حول أحكام الإعدام. كانت تدافع عن إلغاء المقصلة، كوسيلة للعدالة، وأعلنت أن **الاتحاد العمالي** سيمنعها. ولكن عمالاً كثيرين اعترضوا، بغضب. إذا كانت المقصلة موجودة الآن، وتُقترف كل هذه السرقات والجرائم، فما الذي سيحدث عندما يختفي كابح الحكم بالإعدام الذي يخيف المجرمين؟ انقطع النقاش بصورة تهريجية، عندما اجتذب الجدل الدائر، جماعة من المجانين، وحاولوا المشاركة فيه. كانوا منفعلين بشدة، يكشرون، يقفزون، يتكلمون معاً، يتبارون في الترهات، أو يغنون ويتراقصون للفت الاهتمام، وسط ضحكات الآخرين، إلى أن تمكن الحراس من فرض النظام، بهز هراواتهم.

لقد كانت التجربة، بالنسبة لفلورا، مفيدة جداً. فعدد كبير من العمال، وبعد ما سمعوه منها، خلال الزيارة إلى دار بناء السفن، أبدوا اهتمامهم بالاتحاد العمالي، وسألوها أين يمكنهم تبادل الحديث معها، بهدوء أكبر. ابتداء من ذلك اليوم، وأمام ذهول أصدقائها السان-سيمونيين الذين تمكنوا، بصعوبة، من ترتيب اجتماعين لها مع حفنة من البرجوازيين، استطاعت فلورا أن تجتمع، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، مع جماعات من العمال. كانوا يأتون مفعمين بالفضول، ليستمعوا إلى هذه الشخصية الغريبة، ذات التنورة؛ المصممة على فرض العدالة الكونية، في عالم بلا مستَغِلين ولا أغنياء، حيث ستحصل النساء، ضمن غرائب أخرى، على حقوق الرجال نفسها، أمام القانون، وفي الأسرة، وحتى في العمل. ومن التشاؤم الذي جاءت به إلى مدينة العسكريين والبحارة هذه، انتقلت

فلورا إلى حماسة خففت حتى من أوجاعها. شعرت بالتحسن، وبأنها تتمتع بالنشاط الّذي كانت عليه في أفضل أزمنتها. صارت تعمل بنشاط محموم، منذ الفجر حتى منتصف الليل. وبينما هي تخلع ملابسها - آه، مشدّ الصدر الخانق الذي قدمتِ مرافعة هجائية ضده، في روايتك *Mephis*، وسيُمنع في مجتمع المُستقبل باعتباره لباساً مهيناً، يجعل النساء يشعرن كما لو أنهن مقيدات بسروج، كالأفراس! - وتقوم بجردة حساب ليومها، شعرت بالسعادة. لا يمكن للنتائج أن تكون أفضل مما هي عليه؛ فقد نفدت خمسون نسخة من ***الاتحاد العمالي***. وكان عليها، أن تطلب من الناشر، مزيداً من النسخ. وسرعان ما تجاوز عدد المسجلين في الحركة، المئة.

كان يأتي أحياناً، لحضور الاجتماعات، في البيوت، أو في الجمعيات العمالية، أو المراكز الماسونية، أو في الورش الحرفية، بعض المهاجرين الذين لا يتكلمون الفرنسية. لم تكن هناك مشكلة مع اليونانيين والإيطاليين، فقد كان يظهر على الدوام، شخص يعرف اللغتين، ويقوم بدور المترجم. لكن الصعوبة كانت مع العرب الذين يبقون منزوين في أحد الأركان، غاضبين لأنهم لا يستطيعون المشاركة.

في تلك الاجتماعات التي يشارك فيها أناس من أجناس ولغات مختلفة، كثيراً ما كانت تقع بعض الحوادث التي تضطر فلورا إلى إخمادها، بتدخل حاسم ضد الأحكام المسبقة عرقياً، وثقافياً، ودينياً. ولكنك لم تكوني تتجحين دائماً، يا فلوريتا. كم هو صعب إقناع كثيرين من مواطنيك بأن جميع البشر متساوون، بغض النظر عن لون البشرة، أو اللغة التي يتكلمونها، أو الرب الذي يعبدونه! وحتى عندما يُبدون تقبلهم لذلك، لا يلبث أن يطفو إلى السطح، لدى أدنى اختلاف، ذلك الازدراء، والاحتقار، والشتائم، والدعوات العرقية والقومية. في إحدى تلك المناقشات، وبخت فلورا، بغضب، عامل جلفطة فرنسياً، طالب بمنع «الوثنيين المحمديين» من حضور هذه

الاجتماعات. وقد نهض العامل، وصفق الباب، صارخاً بها قبل أن يغادر: «عاهرة زنوج!». استغلت فلورا الشتيمة لتدفع المجتمعين إلى تبادل الآراء، حول موضوع الدعارة.

كان نقاشاً طويلاً، معقداً، تأخر فيه الحاضرون، بسبب وجود فلورا، عن التشجع والتكلم بصراحة. ومن أدانوا منهم العاهرات، فعلوا ذلك دون قناعة، لإرضاء فلورا، وليس لأنهم يؤمنون بما يقولون. إلى أن تجرأ خزاف هزيل، في نطقه، شيء من التلعثم - يلقبونه جوجو - وعارض زملاءه. قال، وهو يطرق برأسه، وسط صمت قبوري، تلته ضحكات خبيثة، إنه لا يتفق مع كثير من التهجمات على العاهراب. لانهن، في نهاية المطاف، «حبيبات وعشيقات الفقراء». فهل لدى هؤلاء الفقراء، الوسائل المادية، كما لدى البرجوازيين، لتحمل نفقات العشيقات؟ لولا العاهرات، لكانت حياة البؤساء أشد كآبة وضجراً.

فقاطعته فلورا ساخطة:

- أنت تقول هذا الكلام لأنك رجل. هل كنت ستقول الكلام نفسه، لو كنت امرأة؟

اندلع جدل صاخب. أيدت أصوات أخرى الخزاف. وخلال النقاش، علمت فلورا أن برجوازيي طولون، معتادون على أن يتشاركوا في تحمل نفقات العشيقات، بصورة جماعية. يؤسس أربعة أو خمسة تجار، أو صناعيين، أو متمولين، صندوقاً مشتركاً، لإعالة عدد مساوٍ لهم من العشيقات اللواتي يتداولهم أولئك السفهاء. وبهذا يقلصون النفقات، ويستمتع كل واحد منهم بحريم صغير. انتهت الجلسة بخطبة لفلورا، طرحت فيها أفكارها، أمام وجوه متشككة، إذا لم تكن مبتسمة، وهي أفكار معارضة تماماً لأتباع فورييه؛ حيث سيُنفى اللصوص والعاهرات، في مجتمع المستقبل، إلى جزر نائية، بعيداً عن الناس العاديين الذين لن يشعروا، بهذه الطريقة، بالإهانة من سوء سلوكهم.

مقتكِ للدعارة، له تاريخ طويل. وهو مرتبط بالاستياء والاشمئزاز اللذين يوحي بهما الجنس إليكِ، منذ زواجك من شازال، حتى تعرّفك على أولمبيا ماليسويسكا. وبالرغم من أنك ترددين، عقلانياً، أن الجوع والحاجة إلى البقاء، هما ما يدفعان عدداً كبيراً من النساء، إلى فتح سيقانهن من أجل المال. وبالتالي، فإن المومسات، مثل أولئك البائسات اللواتي رأيتهن في الإسنت إند، في لندن، كن أكثر استحقاقاً للشفقة منهن إلى القرف، إلا أن شيئاً غريزياً، رفضاً أحشائياً، ضربة غضب، تنبثق منك يا فلوريتا، عندما تفكرين بالتنازل الأخلاقي، بالتخلي عن الكرامة، لدى المرأة التي تبيع جسدها لفجور الرجال. «إنك متزمتة في أعماقك، يا فلوريتا – هكذا كانت تسخر منك أولمبيا، وهي تعضعض نهديك، وتقول:– تجرئي على القول لي، إنك لا تستمتعين في هذه اللحظة».

ومع ذلك، فقد توصلت فلورا، في أريكيبا، خلال الحرب الأهلية، بين الأوربيغوسيين والغاماريين التي شهدتها في الشهور الأولى من عام ١٨٣٤، إلى الإحساس، للمرة الأولى والوحيدة، بالاحترام والتقدير، تجاه «الرابونات»[1]، وهن في نهاية المطاف، صنف آخر من العاهرات. وهذا ما كتبتِه، يا فلوريتا في «*غتراب منبوذة*»، في مديحك المتأجج لهن.

يا لتلك الرحلة إلى بلاد أبيك، يا أندلسية! فقد كان من نصيبك أن تشهدي هناك ثورة، وحرباً أهلية، وأن تشاركي، بطريقة ما، في النزاع. إنك تكادين لا تتذكري أسباب وظروف تلك الحرب، وهي في الحقيقة، مجرد ذرائع، لإطلاق العنان لشهوة السلطة. هذا الداء المستحكم لدى جميع الجنرالات وأشباه الجنرالات الذين يتنازعون،

---

[1] رابونات rabonas: نساء كن يرافقن الجنود (في البيرو وتشيلي)، أثناء المعارك، ويحملن على كواهلهن أدوات المطبخ وأواني الطهو، وأبناءهن الصغار أيضاً. ويقدمن خدماتهن للجنود.

منذ الاستقلال، على زئاسة البيرو، بالوسائل الشرعية، أو بالرصاص وقذائف المدفعية، في معظم الأحيان. في تلك المرة، بدأت الثورة عندما اختار المؤتمر الوطني الماريشال الأكبر دون لويس خوسيه دي أوربيغوسو، ليخلف الرئيس أغوسطين غامارّا المنتهية ولايته، ولم يختر الجنرال بيدرو برمودث الذي يحظى بحماية غامارا، وحماية زوجة هذا الأخير، بصورة خاصة، دونيا فرانثيسكا زوبيغا دي غامارّا، المعروفة بلقب الماريشالة، وهي شخصية أذهلتك هالتها كمغامرة، وأسطورتها، منذ أن سمعت عنها أول مرة. فقد كانت دونيا بانتشا، الماريشالة، ترتدي الزي العسكري، وتخوض القتال على صهوة جواد، إلى جانب زوجها، وتشاركه الحكم. وعندما استولى غامارّا على الرئاسة، كانت لديها سلطات مساوية، أو تفوق، سلطات زوجها الماريشال، في شؤون الحكم. ولم تتردد في إشهار المسدس لفرض سلطتها، أو استخدام السوط والصفعات ضد من لا ينصاع لها ويحترمها، مثلما يفعل أشد المحاربين الذكور، شراسة.

عندما اختار المؤتمر الوطني أوربيغوسو، بدلاً من برمودث، قامت حامية ليما، بتحريض من غامارّا وزوجته الماريشالة، بحركة انقلابية في الثالث من كانون الثاني ١٨٣٤. ولكن الانقلاب لم ينجح إلا بصورة جزئية، لأن أوربيغوسو استطاع، مع جزء من الجيش، الخروج من ليما، لينظم المقاومة. وانقسمت البلاد إلى حزبين، حسب موقف الحاميات العسكرية المؤيد لأربيغوسو أو برمودث. فوقفت حاميتا كوسكو وبونو، بقيادة الجنرال سان رومان، إلى جانب الانقلاب، إي إلى جانب برمودث، أي إلى جانب غامارّا والماريشالة. أما أريكيبا بالمقابل، فاختارت الوقوف إلى جانب أوربيغوسو، الرئيس الشرعي. واستعدت، تحت قيادة الجنرال نيتو، لمقاومة هجوم المتمردين.

أيام مسلية. أليس كذلك يا فلوريتا؟ لم تشعر قط، بالخطر، وهي غارقة في الإثارة مما يحدث. لم تشعر به حتى أثناء معركة كانغايّو التي حسمت، بعد ثلاثة شهور من بدء الحرب الأهلية، مصير

أريكيبا. معركة راقبتها فلورا، مثل عرض أوبرا، بمنظار مكبر، من فوق شرفة-سطح بيت عمها دون بيو، بينما كان هذا الأخير وأقرباؤه، وكل مجتمع أريكيبا يتزاحمون في الأديرة والكنائس، مرتعبين. وأكثر من خوفهم من الرصاص. كانوا يخافون نهب المدينة الذي سيلي الأعمال العسكرية، دون مفر، أياً كان المنتصر.

في تلك الأثناء، كانت فلورا قد تصالحت مع دون بيو. فبعد أن اقتنعت ابنة الأخ، بأنها لن تستطيع القيام بأي عمل قانوني ضد عمها، خشي هذا الأخير من الفضيحة التي هددته بها يوم المشاجرة، فهدّأ فلورا، معبئاً زوجته، وبناته، وبنات آخوته، وكذلك الكولونيل ألتاوس، لكي يجعلوها تتخلى عن نيتها بمغادرة بيت آل تريستان. عليها أن تبقى هناك، حيث ستُعامل كابنة أخ دون بيو العزيزة، وتكون محط عناية ومحبة الأقارب. ولن ينقصها أي شيء، وسيحبها الجميع. وهكذا أعلنت فلورا - ماذا بقي لكِ - موافقتها.

لست نادمة، بكل تأكيد. بل كنت ستأسفين لو أنك ضيعت تلك الشهورَ الثلاثة من الهيجان، والتقلبات، والقلاقل والاضطرابات الاجتماعية التي عاشتها أريكيبا، منذ اندلاع الثورة، حتى معركة كانغايّو.

ما إن بدأ الجنرال نيتو بعسكرة المدينة، وتهيئتها لمقاومة الغاماريّين، حتى دخل دون بيو في نوبة اختلاجات هستيرية. فالحروب الأهلية تعني له، مدّ المتقاتلين أيديهم إلى ثروته، بحجة المساهمة في الدفاع عن حرية الوطن. روى لفلورا، وهو يبكي مثل طفل، كيف أن الجنرال سيمون بوليفار، سحب منه خمسة وعشرين ألف بيزو، والجنرال سوكري عشرة آلاف، ولم يُعد إليه هذان الفنزويليان سنتيماً واحداً مما أخذوه. ما هي الحصة التي سيفرضها عليه الآن، الجنرال نيتو والذي يحركه، فوق ذلك، مثل دمية، ذلك الخوري الثوري الشيطاني، العميد الكافر خوان غوالبيرتو بالديبيا الذي يوجه الاتهامات، من جريدة «**إلشِلي**»، إلى المطران

غوينتشي، بسرقة فضة الفقراء، ويستنكر عزوبية الكهنة، ويدعو إلى إلغائها؟ نصحته فلورا بأن يبادر هو نفسه، قبل أن يفرض عليه الجنرال نيتو حصة، بالذهاب إليه، شخصياً، في حركة تضامن تلقائية، ويقدم إليه خمسة آلاف بيزو. وبهذه الطريقة سيكسبه إلى جانبه، وينجو من استنزاف ثوري جديد.

فدمدم الرجل الجشع:

- أهذا ما تظنينه يا فلوريتا؟ ألا يكفي ألفان؟

- لا يا عماه. عليك أن تقدم له خمسة آلاف، لكي تستحوذ عليه، باستثارة عواطفه.

عمل دون بيو بنصيحتها. ومنذ ذلك الحين، صار يستشير فلورا في كل أعماله، في نزاع لا يهمه فيه، هو وجميع مواطني أريكيبا الأثرياء، إلا عدم تمكين أطراف النزاع من سلب أملاكه.

حصل الكولونيل ألتاوس على تعيينه كرئيس أركان لقوات الجنرال نيتو، بعد أن فكر في الذهاب، لوضع نفسه في خدمة الخصم، الجنرال سان رومان، القادم من بونو على رأس الجيش الغاماريّ، لاقتحام أريكيبا. وكان ألتاوس يتحدث إلى فلورا، عن كل الأمور السرية، مستمتعاً إلى أقصى الحدود، بالحرب الوشيكة. كان يسخرُ بقسوة من الجنرال نيتو الذي جبى الأموال، عداً ونقداً، من أثرياء أريكيبا - وقد رأت فلورا أولئك السادة المغمومين، وهم يمرون من شارع سانتو دومنغو، حاملين أكياس المال تحت آباطهم، في طريقهم إلى القيادة العامة، في مقر المحافظة - واشترى بها «ألفين وثمانمئة سيف، لجيش لا يزيد تعداده عن سبعمئة جندي، جُمعوا من الشوارع قسراً، وليس لديهم حتى أحذية».

وعلى بعد فرسخ من المدينة، أقيم معسكر الجند، تحت قيادة ألتاوس، حيث كان نحو عشرين ضابطاً يدربون المجندين على فنون القتال العسكري. وكان يتنقل بينهم، على صهوة بغلة، العميد المُحزن بالديبيا، متشحاً بعباءة بنفسجية، معلقاً بندقية على كتفه، ومسدساً

على خصره. وبالرغم من أنه لا يتجاوز الثلاثين أو الأربعين من عمره، إلا أنه كان قد هرم باكراً. استطاعت فلورا أن تتبادل بضع كلمات معه، وتوصلت إلى أن ذلك الخوري القرصان، ربما يكون الشخص الوحيد الذي يقاتل، في تلك الثورة، في سبيل مثل أعلى، وليس من أجل مصالح بائسة. كان العميد بالديبيا، بعد التدريب، يحث الجنود المتثائبين، بخطب حماسية، على القتال حتى الموت، دفاعاً عن الدستور والحرية، المتجسدين في الماريشال أوربيغوسو، وضد «غامارّا ورابونته، الماريشالة»، أولئك الانقلابيين المخلين بالنظام الديمقراطي. ونظراً للقناعة التي يتكلم بها، كان العميد بالديبيا يؤمن تماماً، بما يقوله.

إلى جانب الجيش النظامي، المؤلف من المجندين المأخوذين بالإكراه، كانت هناك، كتيبة من الشبان المتطوعين، من أبناء الطبقات الميسورة في أريكيبا. وقد أطلقوا على أنفسهم، اسم «الخالدين»، وهو دليل آخر على السحر الذي كان يمارسه هناك، كل شيء من فرنسا. لقد كانوا شباناً من الطبقة الراقية. وقد أخذوا معهم، إلى المعسكر، عبيدهم وخدمهم، ليساعدوهم في ارتداء ملابسهم، ويعدوا لهم أطعمتهم، ويحملوهم بين أذرعهم عند اجتياز الوحول أو النهر. وعندما زارت فلورا المعسكر، قدموا لها وليمة، مع فرقة غناء ورقص من السكان الأصليين. أيكون شبان المجتمع الراقي هؤلاء، قادرين على القتال، وهم يبدون للوهلة الأولى، في معسكرهم، كما لو أنهم في تلك الحفلات الدنيوية التي تشغل حياتهم؟ ألتاوس يقول إن نصفهم سيقاتلون، أجل. سيقاتلون وسيقتلون، ولكن ليس في سبيل مثل عليا، وإنما لكي يتشبهوا بأبطال الروايات الفرنسية. أما النصف الآخر، فما إن يسمعوا أزيز الرصاص، حتى يولوا الأدبار هاربين، مثل الكلاب السلوقية.

الرابونات كنّ شيئاً آخر. إنهن محظيات، وعشيقات، وزوجات المجندين والجنود. هؤلاء الهنديات والزامبي الحافيات، ذوات

التنانير الملونة، والضفائر الطويلة البارزة من تحت قبعاتهن الفلاحية المزركشة، هن من يدرن العمل في المعسكر. يحفرن الخنادق، ويُقمن المتاريس، ويطبخن للرجال، ويغسلن ملابسهم، ويُفَلِينهم، ويعملن مراسلات، وراصدات، وممرضات، ومداويات، ويُستَخدمن لإخماد فوران المقاتلين الجنسي، كلما رغب هؤلاء في ذلك. وكثيرات منهم، بالرغم من كونهن حبالى، يواصلن العمل مثل الأخريات، يتبعهن أطفالهن ذوو الأسمال. ويكن الأكثر إقداماً، حسب قول ألتاوس، عند نشوب القتال. يقفن دوماً في الصف الأول، يحرسن رجالهن، ويدعمنهم، ويشجعنهم، ويأخذن أماكنهم عندما يسقطون. ويرسلهن القادة العسكريون في طليعة المسير، كي يقمن باحتلال القرى ويصادرن المؤن والذخائر، ليؤمّن الأطعمة للجيش. يمكن لأولئك النساء أيضاً أن يكن عاهرات. ولكن، أليس هناك فرق كبير بين عاهرات كأولئك الهنديات، وهؤلاء اللواتي، ما إن يخيم الليل، حتى يبدأن التّسكع في محيط دار بناء السفن، في طولون؟

عندما انطلقت فلورا إلى نيم، في الخامس من آب ١٨٤٤، قالت إن إقامتها في طولون، كانت أكثر من ناجحة. فلجنة الاتحاد العمالي ضمت هيئة قيادية من ثمانية أعضاء، ومئة وعشرة منتسبين، بينهم ثمانية نساء.

XIV. الصراع مع الملاك

بابيتي، أيلول ١٩٠١

عندما دعا بول، في بلدية بابيتي، إلى عقد اجتماع للحزب الكاثوليكي، في الثالث والعشرين من أيلول ١٩٠٠، ضد «غزو الصينيين»، استنتج أناس كثيرون، منهم صديقه وجاره في بوناريا، الجندي السابق بيير ليفرغو، وحتى امرأته باؤورا نفسها، بأن الرسام غريب الأطوار والفضائحي، قد انتهى إلى الجنون. كان صاحب المتجر في بوناويا، الصيني تينغ، قد توقف عن توجيه التحية إليه، وامتنع عن بيعه أي شيء منذ زمن. وكان بول نفسه، من جهة أخرى، في فترات تعقله وصحوه، يعترف بأن المرض والأدوية قد أثرت على ذهنه، وأنه لم يكن قادراً، في أحيان كثيرة، على التحكم بتصرفاته، وأنه يتخذ قراراته بالغريزة أو الهواجس، مثل الأطفال والشيوخ الخرفين. أجل، أنتَ لم تعد الشخص الذي كنته سابقاً، يا كوكي. فمنذ شهور، وربما منذ سنوات، منذ أن رسمت ***من أين أتينا؟ من نحن؟ إلى أين نمضي؟***، لم تنه لوحة واحدة. فعندما لا تكون منهوكاً من المرض، أو الكحول، أو المخدرات، تكرس كل وقتك لهذه الجريدة الصغيرة الشهرية، الساخرة والهجائية، المسماة *Les Guêpes* **(الزنابير)**، والناطقة بلسان مستوطني الحزب الكاثوليكي الذي يتزعمه فرانسوا كارديلا؛ وتهاجم فيها، بشراسة، الحاكم غوستاف غاليه، والمستوطنين البروتستانت بزعامة صديقك القديم أوغوست غوبيل، والتجار الصينيين الذين تحمل عليهم بضراوة، متهماً إياهم بأنهم قوة متقدمة «لغزو بربري، أسوأ من غزو آتيلا»، للقضاء على السيطرة الفرنسية في بولينيزيا، وإحلال «الطاعون الأصفر» محلها.

أي جنون هذا؟ حتى إن بيير ليفرغو وأصدقاء آخرين، لم يفهموه. كيف انتهى بول إلى أن يخدم، بهذه الطريقة الحادة، كي لا نقول الخسيسة، مصالح الصيدلي وصاحب مزارع القصب، المسيو كارديلا، والمستوطنين الآخرين من الحزب الكاثوليكي، ممن لا سبب لكراهيتهم للحاكم غاليه، إلا أنه يريد الحد من تسلطهم وتعسفهم، وإجبارهم على التصرف وفق القوانين، وليس كسادة إقطاعيين؟ يبدو ذلك غير معقول، وغير مفهوم، لأنه إلى ما قبل بضعة شهور، وخلال كل سنوات وجوده في تاهيتي، كان بول موبوءاً في نظر أولئك المستوطنين الذين يعمل الآن، في خدمتهم. كانوا يزدرونه آنذاك، لبوهيميته، لآرائه الفوضوية، ولأنه يرتبط بعلاقات حميمة مع الوطنيين الذين يملأ بهم لوحاته! كيف يمكن فهم أن هؤلاء الماووري الذين طالما أشاد، في السابق، بعاداتهم ومعتقداتهم القديمة، متحسراً على تحويلهم على يد الغربيين، يصيرون الآن، في «**الزنابير**»، متهمين من قبل نصيرهم السابق، بأنهم لصوص، وألف تهمة أخرى؟ في كل عدد، كانت «**الزنابير**» تؤنب القضاة، لأنهم يتساهلون مع الوطنيين الذين يقترفون السرقات، ضد أسر المستوطنين، ولأنهم يغضون النظر أو يصدرون أحكاماً مخففة جداً، هي استهزاء بالعدالة. صارت باؤورا تتلقى شكاوى يومية من جيرانها في بوناويا: «هل صحيح أن كوكي صار يكرهنا الآن؟». «ما الذي فعلناه له؟». ولم تكن تدري كيف ترد عليهم.

ذلك التبدل، سببه المال، فقد اشتراكَ المستوطنون الكاثوليكيون، يا كوكي. لقد كنتَ تعيش، من قبل، في شح وضيق. تقوم بتلك الرحلات إلى مركز البريد، في بابيتي، لترى إذا ما كان أصدقاؤك في باريس، قد أرسلوا إليك حوالة ما، وتقترض النقود من نصف العالم، كي لا تموت، أنت وباؤورا وإميل، جوعاً. والآن، بفضل ما يدفعه لك الحزب الكاثوليكي، من أجل ملء أوراق «**الزنابير**» الأربع هذه، برسوم كاريكاتيرية وشتائم، لم تعد لديك مخاوف مادية. فقد ملأت مجدداً،

بيتك، في بوناويا، بالأطعمة والخمور، وعدت ثانية، عندما تسمحُ لكَ بذلك حالتك الصحية، إلى إقامة ولائم العشاء الأحدية، تلك التي تنتهي بعربدة ومجون، يحمَّر منهما خجلاً، حتى بيير ليفرغو، الجندي السابق الذي كان يظن أنه رأى كل شيء. أجل، الحاجة المادية، وتردي دماغكَ التدريجي، بسبب مرضك اللعين، وهذه الأدوية اللعينة، تفسر تبدلك غير المعقول، منذ سنة حتى الآن. أكان الأمر كذلك، يا كوكي؟ أم أنها كانت طريقة أخرى في الانتحار، أبطأ، إنما أكثر فعالية من محاولتك السابقة؟

اجتماع الثالث والعشرين من أيلول ١٩٠٠، كان أسوأ من كل ما كان يخشاه بيير ليفرغو. لقد ذهب لحضوره على مضض، كي لا يخيب أمل بول الذي يشعر نحوه بالمودة، وربما بالشفقة، وهو يعرف أنه سيمر بلحظة عصيبة. بيير الذي كان يفاخر بأنه أكثر فرنسية من أي شخص آخر (وقد أثبت ذلك، بارتدائه الزي العسكري، وحمله السلاح في سبيل فرنسا)، لم يكن يؤيد الحرب المعلنة التي يشنها الكورسيكي كارديلا، ومستوطنون أغنياء آخرون، على تجار تاهيتي الصينيين، باسم الوطنية والنقاء العرقي. من الذي سيبتلع هذه الأكذوبة؟ كان بيير ليفرغو يعرف، مثلما يعرف الجميع في تاهيتي- نوي، أن سبب كراهيتهم للصينيين، هو كسر هؤلاء احتكار استيراد سلع الاستهلاك المحلي. دكاكينهم تبيع بأسعار أرخص من متاجر كارديلا والمستوطنين الآخرين. وكان بول هو الشخص الوحيد الذي يبدو مصدقاً، بقناعة، بأن الصينيين المتجذرين في تاهيتي، منذ جيلين، يشكلون تهديداً لفرنسا، وأن الامبريالية الصفراء تريد انتزاع مواقع فرنسا في الباسفيك، وأن حلم أي أصفر هو هتك امرأة بيضاء!

هذه الترهات الفظة، وأخرى أسوأ منها، سمعها بيير ليفرغو من بول، في الاجتماع، في بلدية بابيتي، بحضور نحو خمسين مستوطناً كاثوليكياً. وقد أبدى بعض أولئك الحضور، ممن يقفون بثبات، وراء

فرانسوا كارديلا، في صراعه ضد الحاكم غاليه، شيئاً من التململ، حيال بعض فقرات خطاب بول العنصري والشوفيني؛ مثل تأكيده، بنبرة درامية، وهو يومئ بيديه، متحدثاً عن صينيّي الجزر: «هذه اللطخة الصفراء في الراية الفرنسية، تجعلني أحمَّر خجلاً».

بعد أن مرّ الحاضرون على المنصة، لتهنئة الخطيب، ذهب بول وبيير ليفرغو لتناول كأس، في أحد بارات المرفأ، قبل أن يرجعا إلى بوناويا. كان كوكي شاحباً جداً، ومستنفداً. وكان عليهما أن يسيرا ببطء شديد، بينما بول يستند إلى العكاز الذي لم يعد نحت قبضته، يمثل قضيباً ذكرياً منتصباً، وإنما تاهيتية عارية. كان يعرج أكثر من المعتاد. وبدا كما لو أنه سينهار في أي لحظة من الإعياء. لدى الوصول إلى بار «لاس إيسلاس»، تهاوى على منضدة، على الرصيف المغطى بمظلة كبيرة، وطلب كأساً من الأفسنتين. كم هرم منذ أن تعرف عليه بيير ليفرغو، بعد عودته من باريس، في أيلول ١٨٩٥! في هذه السنوات الخمس، أثقلت كاهل بول عشر سنوات أو أكثر. لم يعد ذلك المتأنق متين البنية الذي كانه بالأمس، بل هو عجوز نصف محدودب، يكثر الشيب في شعره. وفي وجهه المخدد بالتجاعيد، تلمع لحية شهباء، بمرارة محاربة. حتى أنفه بدا كأنه قد انكسر، واعوجّ، أكثر مما كان عليه، مثل قطعة من غصن دالية هرمة. وبين حين وآخر، يقوم ببعض التقطيبات التي يمكن أن يكون سببها الألم أو الغيظ. وكانت يداه ترتعشان، مثلما ترتعش أيدي السكارى المدمنين.

خشي بيير ليفرغو أن يستجوبه بول عن خطابه. ولكنه كان محظوظاً، لأن بول لم يشر، ولو مرة واحدة، إلى الموضوع الذي يتسلط، في الأزمنة الأخيرة، على عقله: السياسة. لم يقل أي شيء، وهما في المرفأ، ولا بعد ذلك، في أثناء رحلة العودة إلى بوناويا، ولا في تلك الليلة، بينما هما يأكلان في الهواء الطلق، أمام الكوخ، وينظران إلى باؤورا تلعب مع الصغير إميل. لقد تحدث دون توقف

عن الدين. آه منك يا كوكي، لن تتوقف أبداً عن إرباك الناس بالحيرة. فهو يقول الآن، أمام استغراب بيير، إن البشرية ستتذكره، بعد موته، كرسام ومصلح ديني.

- هذا هو ما أنا عليه - أكد واثقاً من نفسه - عندما يُنشر البحث الذي انتهيتُ من كتابته مؤخراً، ستفهم الأمر يا بيير. ففي «*الروح الجديدة والكاثوليكية*»، أضع الكاثوليكيين في مكانهم اللائق، باسم المسيحية الحقيقية.

كان بيير ليفرغو يرمش دون توقف. يا للشياطين. أهذا هو بول نفسه؟ أهو من يطالب في «**الزنابير**»، بطرد المعلمين البروتستانت من مدارس الجزيرة، واستبدالهم بمبشرين كاثوليكيين؟ لقد كتب الآن بحثاً، يشد فيه براغي الكاثوليكية. لا شك في الأمر: لقد ساخ عقله، ولم تعد يده اليمنى تعرف ما تفعله اليسرى. وكان بول يواصل الحديث في موضوعه: آجلاً أو عاجلاً، ستدرك الإنسانية أن *le sauvage péruvien* (*البيروي المتوحش*) هو فنان صوفي، وأن أكثر لوحات العصر الحديث، تديناً، هي *الرؤيا بعد الموعظة* التي رسمها هو نفسه، أواخر صيف ١٨٨٨، هناك في بون آفين، تلك القرية الصغيرة من ناحية فنيستير، في إقليم بريتاني. فهذه اللوحة، تشكل بعثاً للقلق الروحي والديني في الرسم الحديث، الراكد منذ تألقه في العصر الوسيط.

بعد ذلك، لم يعد بيير ليفرغو يفهم كلمة واحدة من مونولوج كوكي (كان قد شرب الكثير من الكحول، وصار لسانه ينعقد بعض الشيء، وهو يتكلم) الذي ترد فيه أسماء أشخاص، وأشياء، وأماكن، وأحداث، لا تعني شيئاً لبيير. تأتي من ذكريات، يجعلها وعيه، لسبب ما، راهنة في هذه الليلة الهادئة، بلا قمر، وبلا حر، وبلا حشرات، في بوناويا.

- إننا في سنة ١٩٠٠، أليس كذلك؟ - وربت بول براحته على ركبة جاره، وتابع قائلاً:- وأنا أحدثُكَ عن صيف ١٨٨٨. قبل حوالي اثنتي

عشرة سنة. مجرد حبة رمل في سياق الزمن. ولكن، يبدو لي، كما لو أن قروناً مضت منذ ذلك الحين.

هذا ما يقوله لكَ هذا الجسد المنهوك، المريض، المتعب، والممتلئ بالغضب الذي تجرجره في الحياة، يا بول، وأنت في الثانية والخمسين من عمرك. كم هو مختلف عن ذلك الجسد الآخر، المربوع، المعافى، وأنت في الأربعين؛ عندما كنت تنضح تفاؤلاً، بالرغم من الحرمان والمصاعب التي تحاصرك، بسبب شح النقود، منذ أن هجرت الأعمال التجارية إلى الرسم. وكان تفاؤلاً لا يُهزم، تفاؤلاً بموهبتك، بجمال الحياة، بديانة الفن... قناعة تكتسح كل العوائق. ألستَ ترسم صورة مثالية للماضي، يا بول؟ ذلك الصيف من عام ١٨٨٨، خلال إقامتك الثانية في بون أفين، لم تكن بكامل العافية. ليس في جسدك، على أي حال، بل ربما في روحك. كان الجسد لا يزال يعاني من عقابيل الملاريا والحمّيات التي أُصبتَ بها في بنما، في تشرين الثاني ١٨٨٧. الصحيح أنك رسمت ***الرؤيا بعد الموعظة***، وسط معاناتك من زحار فظيع، متحملاً وخزات الألم التي تسببها لك إفرازات الصفراء المتجمعة في المعدة، قبل أن تخرج بعد ذلك، من الشرج، ترافقها فصوص مدوية، كانت سخرية جميع من في بنسيون غلونيك. كم من الخجل، كنت تشعر به، خشية أن تسمع الشابة، الجميلة، النقية، غير المادية، مادلين برنار، ذلك الوابل من الفصوص، إرث حمَّيات الملاريا (ألا تكون تلك هي أول أعراض المرض الذي لا يُسمى يا بول؟) التي أصبت بها خلال مغامرة بنما والمارتينيك الوخيمة!

والآن، بينما لسانه، المتحول إلى حيوان ضار صغير، يحاول أن يوضح لبيير ليفرغو الطيب، المتناوم على الكرسي، لم تعد تشعر، يا بول، بأدنى قدر من الغضب تجاه إميل برنار، بالرغم من أنه يشيع في الشوارع والساحات، منذ القطيعة معه، سنة ١٨٩١، أنك أردت مساومته بدناءة، على كونه أول من نشر الأفكار عن «الفن التركيبي».

كما لو أنك تهتم بدور المؤسس لمدارس، ربما لم يعد هناك من يتذكرها. ما سَبَّبَ لك الألم، هي أشياء أخرى، يقولها الشاب الرشيق والأنيق الذي يصغرك بعشرين سنة، شقيق الجميلة مادلين، والذي حضر في أحد الأيام، إلى بنسيون غلونيك، وقال لك متلعثماً: «لقد أرسلني من كونكارنو، صديقك شوفينكير. وهو يقول إنك الشخص الوحيد في العالم الذي يمكنه أن يساعدني في أن أكون فناناً حقيقياً». والآن، يؤكد أنك قد انتحلت، في ***الرؤيا بعد الموعظة***، تركيبه، وأفكاره، وأغطية رأس نساء بريتاني الساكنات التي كان قد تصورها، من قبل، في لوحته ***البريتانيات في المرج***.

- مجرد حماقات، يا عزيزي بيير - أكَّد، وهو يضرب الطاولة - فأنا لا أتذكر من لوحة **البريتانيات في المرج** تلك، سوى عنوانها. ما الذي حدث لأفضل تلاميذي، كي يمتلئ، في ما بعد، بالحسد، ويبدأ بكراهيتي؟

لقد حدث له شيء بالغ الإنسانية، يا بول: أدرك أن ***الرؤيا بعد الموعظة*** هي عمل بارع. فكان ذلك شديد الوطأة عليه. وللانتقام، راح يكره من كان يحبه ويقدره كثيراً. يا للمسكين إميل! ما هي أحواله الآن؟ ربما يكون ما يقوله، إذا ما أمعنت التأمل، ليس خاطئاً تماماً. فدون إميل برنار، ربما لم تكن لترسم، في ذلك الصيف من عام ١٨٨٨، في غرفتك الضيقة، في بنسيون غلونيك، المزدحمة برسامين أصدقاء، يعتبرونك معلمهم - برنار، لافيل، شامايار، ماير دي هان - تلك اللوحة التي تصف معجزة، أو ربما مجرد رؤيا فقط. جماعة من المتدينات البريتانيات، بعد استماعهن لموعظة يوم الأحد، من كاهن مقصوص الشعر، ذي بروفيل يشبهك، ومنزوٍ في ركن من اللوحة، يركِّزن ذهنهن في الصلاة، في حالة نشوة روحيَّة، ويرين أمامهن، أو ربما يتخيلن فقط، ذلك الحدث المثير للقلق في سفر التكوين: صراع يعقوب مع الملاك، معاداً في مرج بريتاني تقسمه شجرة تفاح، إلى نصفين، بلون قرمزي مستحيل. المعجزة في تلك اللوحة يا بول،

ليست في ظهور الشخصيات التوراتية في الواقع، أو في أذهان أولئك الفلاحات البائسات. إنها الألوان المتغطرسة، خضرة زجاج القناني في ملابس يعقوب، الزرقة اللازوردية في الملاك، أسوَد بروسيا في الملابس النسائية، والأبيض مع الوردي الكالح، وخضرة أو زرقة صف الكوفيات وأطواق الرقاب المصفوفة بين المُشاهد، وشجرة التفاح، والمتصارعين. الإعجاز هو انعدام الوزن السائد داخل اللوحة، ذلك الفضاء الذي تبدو فيه الشجرة، والبقرة، والنساء شديدات الإيمان، كما لو أنها تطفو جميعها بقدرة الإيمان. المعجزة هي في التوصل، في تلك اللوحة، إلى وضع حد للواقعية المبتذلة، وخلق واقع جديد، يختلط فيه الذاتي والموضوعي، الواقعي والخارق، بصورة غير قابلة للتجزئة. لقد أحسنت صنعاً، يا بول! إنه عملك البارع الأول، يا كوكي!

هذا الإيمان الكاثوليكي، لم تكن تفهمه في ذلك الحين. كنتَ قد أضعته، إذا ما كنت قد توصلتَ إلى امتلاكه يوماً. أنت لم تذهب إلى بريتاني، بحثاً عن الكاثوليكية المحمية بعداء عنيد للحداثة، وتشبث شعب بريتاني الشديد بالماضي، وهو يقاوم آنذاك، بصمت، وثبات، مساعي الجمهورية الثالثة، ضد الأكليروس، ومن أجل فرض علمانية راديكالية، في فرنسا. لقد ذهبتَ إلى هناك، مثلما أوضحتَ لشوف الطيب، بحثاً عن الوحشية والبدائية اللتين كنت ترى أنه لا بد منهما، من أجل ازدهار الفن العظيم. وقد أغوتك بريتاني الريفية، منذ اللحظة الأولى، لأنها فظة، مؤمنة بالخرافات، ومتشبثة بطقوسها وتقاليدها المغرقة في القدم. فهي أرض تدير ظهرها، لحسن الحظ، لجهود الحكومة التحديثية، وترد على العلمنة، بزيادة المواكب الدينية، والازدحام في الكنائس، والاحتفال بظهور العذراء، وتجلياتها في كل مكان. لقد فتنك ذلك كله. ولكي تحاكي ذلك الوسط، ارتديت السترة البريتانية المطرزة، وانتعلت قبقاباً خشبياً، نحته أنت نفسك وزينته. وحضرت طقوس «الغفران»، تلك الطقوس التي تجتذب الناس، في

بون آفين، بصورة خاصة، فيجثو كثيرون منهم على ركبهم، مولين ظهرهم إلى الكنيسة، ويطلبون المغفرة عن خطاياهم. كنت تزور كل دروب الآلام الدينية، بدءاً من أشدها مهابة، في نيزون، وتحج إلى كنائس ترامالو الصغيرة، ومسيحها الخشبي، متعدد الألوان الذي أوحى لك بلوحة دينية أخرى: *المسيح الأصفر*.

أجل، جميع العناصر اللازمة للرسم المناهض للطبيعية الذي تحلم بصنعه، كانت مبثوثة في بريتاني تلك. فكنت تقول باحتفالية، أمام شوف الطيب: «عندما يرن قبقابي الخشبي على هذه الأرض الغرانيتية، أسمع الوقع الأصم، الكامد، القوي الذي أحاول بلوغه في لوحاتي». وما كان يمكن لك أن تتوصل إلى ذلك، لولا برنار وأخته مادلين. ولولاهما ما بدأت أبداً، الشعور بأنك تتضمخ أيضاً. قليلاً قليلاً، دون أن تلاحظ ذلك في البدء، بذلك الإيمان الذي كان فطرياً بالنسبة إليهما، لا أقل ولا أكثر من ملامحهما المرهفة، ومهابتهما الجسدية، والأناقة التي يتحركان ويتكلمان بها. لقد كان الأخوان كلاهما، يعيشان الدين، أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. وكان إميل قد جاب كل أنحاء بريتاني والنورماندي، سيراً على قدميه، ليزور الكنائس، والأديرة، والمعابد، والمدارس الدينية، وأماكن العبادة والتقوى، مقتفياً آثار ذلك العصر الوسيط الذي يرى فيه، مرحلة عليا من الحضارة البشرية، لاندماجه بالرب، ولحضور الدين في جميع النشاطات العامة والخاصة. لم يكن برنار شخصاً متديناً، وإنما كان مؤمناً. وهو نموذج غريب بالنسبة إليك، أنت الذي بدأت، بعد السخرية من الشاب، لولـه الديني المتأجج، تتقبل، دون وعي، العدوى بالزخم الذي يعيش به إميل إيمانه المسيحي.

لقد كان صيفاً لا يُنسى، أليس كذلك يا بول؟ «بلى، لقد كان كذلك»، هتف وهو يضرب المائدة مرة أخرى، بقبضته. كانت باؤورا قد دخلت الكوخ، حاملة الطفل بين ذراعيها، وقد ناما كلاهما الآن، بوداعة، متشابكين مع القط. وكان بيير ليفرغو يتناوم، منكمشاً في

كرسيه، ومطلقاً الشخير بين وقت وآخر. كانت الليلة مظلمة عندما جلسا لتناول الطعام. ولكن الريح حملت الغيوم بعيداً، وأضاء هلال، الآن، محيط المكان. وبينما أنت تدخن غليونك، يمكنك رؤية عقد أزهار عَبّاد الشمس المحيط بالكوخ. لقد أكدوا لك أنه لا يمكن لعباد الشمس الأوروبي، أن يتأقلم مع رطوبة هايتي المدارية. ولكنك أنتَ، العنيد، طلبت من دانييل دو مونفريد، أن يرسل إليك البذور. وزرعتها مع باؤورا، وسقيتها ورعيتها بحب. وها هي الآن هناك، حية، منتصبة، مشرقة، إكزوتيكية. أزهار عباد شمس أقل إبهاراً من تلك التي كان يرسمها، بضراوة، الهولندي المجنون، في بروفانس؛ ولكنها تشكل رفقة لكَ، وتمنحكَ شيئاً من الطمأنينة الروحية. لماذا يا بول؟ بينما تسبب هذه الأزهار الغريبة الضحك لباؤورا.

في صيف عام ١٨٨٨ ذاك، في القرية البريتانية الصغيرة التي يحممها نهر آفين، جرت لكَ أحداث استثنائية. فقد فهمتَ الديانة الكاثوليكية، وقرأتَ ***البؤساء*** لفكتور هوغو، ورسمت عملاً بارعاً، ***الرؤيا بعد الموعظة***، وكنت قد أحببت، بعفة، مريم العذراء تلك، المتجسدة في مادلين برنار، وأقمت علاقة ودودة مع أخيها إميل. ذلك الصيف الذي ألحَّ فيه الهولندي المجنون، برسائله الجذابة، على أن تذهب للعيش معه في آرل. ذلك الصيف الذي أمضيته، بتأثير رحلة بنما - ذبابة في قدر الحليب - وأنتَ تتبرز دون توقف، وتطلق مئات الفصوص.

ما هو أهم شيء حدث لك، من تلك الأحداث كلها؟ ***البؤساء*** يا كوكي. فقد قرأ رواية فكتور هوغو، جميع الرسامين الذين كانوا يعيشون معك، في بنسيون الأرملة ماري جان غلونيك (حتى إنها هي نفسها، قرأتها)، لقد قرأها شارل لافال، ماير دي هان، إميل برنار، إرنست دي شامايار. جميعهم أشادوا بها. أما أنت، فكنت ترفض الغرق في تلك القصة الضخمة التي تستثير عواطف فرنسا بأسرها، بدءاً من البوابات حتى الدوقات. من الخياطات حتى المثقفين، من

الفنانين حتى المصرفيين. ولكنك استسلمت لطلبات مادلين، عندما اعترفت لك بأن هذا الكتاب «قد هز روحها»، وأنه أبقى «الدموع في عينها، طوال وقت قراءتها». أنت لم تبكِكَ مغامرة جان فالجان، ولكنها استثارت عواطفكَ، أكثر من كل الكُتب الأخرى التي كنت قد قرأتها حتى ذلك الحين. حتى إنكَ، عندما تبادلت مع الهولندي المجنون، بناء على طلبه، صورتكما، كمقدمة لتعايشكما التالي معاً في آرل، رسمتَ نفسك على شكل بطل الرواية، جان فالجان، المحكوم قضائياً، المتحول إلى قديس بتأثير رحمة غير متناهية، يبديها نحوه المونسنيور بيانفينو الذي يكسبه إلى الخير، يوم يعطيه الشمعدانين اللذين كان يرغب في سرقتهما. تلك الرواية أذهلتكَ، أقلقتكَ، استنفرتك، بلبلتك. أهناك حقاً نقاء أخلاقي كهذا، قادر على تجاوز القذارة الإنسانية؟ وهل هناك مثل هذا الكرم والسخاء في العالم الدنيء؟ لقد كان لدى مادلين العذبة، في الأمسيات الماطرة، عندما يكون ممكناً الجلوس على شرفة بنسيون غلونك، بانتظار حلول الليل، اسمٌ لذلك: الصفح الرباني. ولكن، إذا كانت يد الرب المحيية هي التي جعلت، من خلال الأسقف بيانفينو، ثم من خلال جان فالجان بعد ذلك، الخير ينتصر على الشر الذي يحمله، في نهاية الرواية، جافير القاسي في روحه. إلى أعماق نهر السين، فما هي إذن فضيلة الحيوان البشري وجدارته؟

في الصورة الذاتية التي أرسلتها إلى الهولندي المجنون، مشخصاً فيها جان فالجان، رسمتَ الفنان غير المفهوم، المحكوم بالنفي الاجتماعي، بسبب عمى، ومادية، وفظاظة مواطنيه. ولكن، هل تراك بدأت، في تلك الصورة الذاتية، برسم ذاك الذي لن يصير واقعاً ناجزاً، إلا بعد شهور، في ***الرؤيا بعد الموعظة***: التحول مما هو تاريخي إلى ما هو متسام، مما هو مادي إلى ما هو روحي، مما هو بشري إلى ما هو إنساني. أتتذكر تهنئات أصدقائك، في بون آفين، وإطراءهم، عندما انتهت اللوحة؟ وكلمات مادلين الجميلة: «عملك

هذا سيرافقني حتى نهاية حياتي، يا مسيو غوغان»؟

هل تذكَّرت مادلين الروحانية، وهي تموت بالسل، في القاهرة، بعد سنة من موت شارل لافال، لوحة *الرؤيا بعد الموعظة*؟ بالطبع لا. لقد نسيتكَ تماماً، ونسيت اللوحة. وربما نسيت صيف عام ١٨٨٨ ذاك في بون آفين. لم تتخيل قط، أنك ستحب أحداً، بعد مِت غاد، يا بول. صحيح أنكما كنتما تعيشان منفصلين آنذاك؛ هي في كوبنهاجن مع أبنائكما الخمسة، وأنت في بون آفين، والشيء الوحيد المتبقي من زواجكما، هو ورقة ومراسلات باهتة. ولكن، بالرغم من ذلك، وبالرغم من تأكدكَ أنك لن تعود، أنت ومِت، إلى تشكيل أسرة، وبيت مشترك، إلا أنك لم تشعر قط، بأنك متحرر عاطفياً، حتى الآن، يا كوكي. فقد توصلتَ في عام ١٨٨٨، إلى القناعة بأن الحب، على الطريقة الغربية، هو عقبة. وأن الحب، بالنسبة إلى الفنان، يجب أن يقتصر على مضمونه الجسدي والحسي الذي كان عليه لدى البدائيين، دون أن يؤثر على المشاعر، وعلى الروح. ولهذا، عندما كنتَ تتصاع لإغواء الجسد، وتمارس الحب - مع عاهرات، بصورة خاصة - كنت تشعر بأنه عمل صحي، ومتعة بلا غد. غير أن مجيء مادلين، مع أخيها إميل، إلى بنسيون غلونيك، في بون آفين، في ذلك الصيف، قبل اثني عشر عاماً، أعاد إليك الانفعال الذي يُذهل العقل، يصيب بالبكم، يخيف، أمام الوجه الشاب، شديد البياض، شديد الحزن. أمام تلك النظرة الزرقاء السائلة، وذلك الجسد المتناسق، الهش الذي يشع براءة، قداسة، عندما تدخل قاعة الطعام، أو تخرج إلى الشرفة، أو تشم الهواء بجانب آفين، ساهية، وهي تتأمل مرور مراكب الصيادين، وأنت تراقبها، مختبئاً بين الأشجار.

لم تقل لها كلمة حب واحدة قط، ولم تُلمِّح لها أدنى تلميح. ألأنها شابة صغيرة السن، ولأن عمرك ضعف عمرها؟ بل الأصح أن السبب هو رقابة ذاتية أخلاقية غريبة، والهاجس بأن حبك لها يلطخ كمالها الخلقي، وبهاءها الروحي. ولهذا، أخفيت مشاعرك، متخذاً صورة

الأخ الأكبر الذي يوجه النصيحة، من خلال تجربته، إلى الطفلة التي تخطو خطواتها الأولى، في عالم البالغين. لم يكبح الجميع المشاعر التي يوحي بها جمال مادلين. هناك شارل لافال، على سبيل المثال: أتراه أحبها في صيف عام ١٨٨٨ ذاك، ملقياً عليها أشعار حب، بينما أنت، في حجرتك، تضفي شكلاً ولوناً على *الرؤيا بعد الموعظة*؟ وهل عاش شارل ومادلين حباً جميلاً يا ترى؟ عسى أن يكون الأمر كذلك. من المحزن، أنهما ماتا شابين، وبفارق سنة بينهما، هناك، في أرض مصر الغريبة، بعيداً عن أحبائهم، مثلما ستموت أنت، يا بول.

تلك التجارب، ورواية *البؤساء*، وحب مادلين الطاهر، والنقاشات مع أصدقائه الرسامين، حيث يرد الموضوع الديني بكثرة - فمثل إميل برنار، كان الهولندي ماير دي هان، اليهودي المتحول إلى الكاثوليكية، يعيش تحت هواجس التصوف المتسلطة على عقله - كل ذلك كان حاسماً في رسمك *الرؤيا بعد الموعظة*. وعندما أنهيتَ اللوحة، ظللتَ مؤرقاً عدة ليال، تكتبُ على ضوء سراج غرفتكَ، رسائل إلى الأصدقاء. كنت تقول لهم إنك توصلت أخيراً، إلى تلك السذاجة الريفية والخرافية للناس العاديين الذين لا يميزون جيداً، في حياتهم البسيطة، وفي معتقداتهم القديمة، بين الواقع والحلم، بين الحقيقة والخيال، وبين الرؤية والرؤيا. وقد أكدتَ لشوف، وللهولندي المجنون، أن *الرؤيا بعد الموعظة*، تنسف الواقعية، مفتتحة عصراً يقوم الفن فيه، بدلاً من محاكاة العالم الطبيعي، بتجريد الحياة المباشرة، من خلال الحلم، مقتفياً بذلك مثال **المعلم الإلهي**، بصنع ما صنعه: الخلق. هذا هو واجب الفن: الخلق، وليس المحاكاة. ومن الآن فصاعداً، سيتمكن الفنانون المتحررون من القيود الصارمة، التجرؤ على كل شيء، في مسعاهم لخلق عوالم مختلفة عن الواقع.

أين انتهى المطاف بلوحة *الرؤيا بعد الموعظة*؟ في المزاد، في فندق دروو، يوم الأحد، الثاني والعشرين من شباط ١٨٩١، من أجل جمع أرصدة تتيح لك سفرك **الأول** إلى تاهيتي. كانت *الرؤيا بعد الموعظة*

هي اللوحة التي دُفع فيها أعلى سعر، قرابة تسعمئة فرنك. في أيّ قاعة طعام برجوازية باريسية، تقبع اللوحة الآن؟ لقد كنتَ تريد للرؤيا بعد الموعظة محيطاً دينياً. وعرضتَ أن تهديها إلى كنيسة بون آفين. لكن الكاهن رفضها، متذرعاً بأن تلك الألوان - أين يوجد في بريتاني تراب بلون الدم؟ - تتآمر ضد العفة الواجبة في أماكن العبادة. ورفضها كذلك، بغضب أشد، كاهن نيزون، متذرعاً بأن لوحة مثل تلك، ستؤدي بالمؤمنين إلى الكفر والاستنكار.

كم تبدلت الأمور بالنسبة إليك، يا بول، في هذه السنوات الاثنتي عشرة، منذ أن كتبتَ إلى شوف الطيب: «بحل مشكلتيِ الجماع والصحة، أستطيع التركيز على العمل، باستقلالية تامة، وتكون مسائل حياتي كلها قد حُلّت». لم تُحل قط، يا بول. ولم تحل أيضاً، حتى الآن، بالرغم من انقضاء غمّ عدم معرفتك ما الذي ستأكله في الغد، بفضل مقالاتك ورسومك وكاريكاتيراتك في «**الزنابير**». لقد صار بإمكانك الآن، بفضل فرانسوا كارديلا، وأصحابه في الحزب الكاثوليكي، أن تأكل وتشرب، بانتظام لم تعرفه خلال كل سنواتك، في تاهيتي. كثيراً ما يدعوك كارديلا المتنفذ إلى بيته المهيب ذي الطابقين، مع شرفات مشغولة، وحديقة فسيحة، محمية بسياج خشبي، في شارع بريا، وإلى السهرات السياسية في صيدليته، في شارع ريفولي. أأنتَ سعيد بذلك؟ لا. إنكَ تحس بالمرارة والضجر. هل لأنك لم ترسم، منذ سنة، ولو رسماً مائياً بسيطاً، ولم تنحت أي شيطان **توباباو** صغير؟ ربما نعم، وربما لا. وما المغزى من مواصلة الرسم؟ فأنتَ تعرف الآن، أن أي عمل جدير بالخلود، صار جزءاً من تاريخك الماضي. أتتناولَ رياش الرسم، لتنتجَ شهاداتٍ على انحدارك وروتينيتك؟ لا، إلى البراز.

من الأفضل، أن تسكب في «**الزنابير**» كل ما تبقى فيك، من إبداع ونضالية، مهاجماً الموظفين المبعوثين من باريس، والبروتستانت. والصينيين الذين يسببون الكثير من وجع الرأس، للكورسيكي كارديلا

وأصدقائه. أتشعر، أحياناً، بتأنيب الضمير لتحولك إلى مرتزق في خدمة أناس كانوا يزدرونك من قبل، وكنتَ تعتبرهم محتقَرين؟ لا. فقد قررتَ منذ سنوات طويلة، أنه لا بد للمرء، كي يكون فناناً، من أن ينفض عنه كل أنواع الأحكام المسبقة البرجوازية. والندم هو واحد من تلك الأثقال. هل يندم النمر لغرس أنيابه في لحم الأيّل الذي يتغذى عليه؟ وهل تشعر الأفعى بوساوس الضمير، وهي تنوّم العصفور الصغير، وتبتلعه حياً؟ بل إنك لم تشعر بأي تأنيب للضمير، عندما أطلقت، بتطبيل وتزمير، في أحد الأعداد الأولى من «الزنابير»، عدد نيسان أو أيار ١٨٩٩، بدعة بيير لوتي، في «زواج لوتي»، الرواية التي فتنت المجنون الهولندي، بأن الصينيين هم الذين جلبوا الجذام إلى تاهيتي، ولم يراودك أي ندم على نشر ذلك الافتراء.

- العاهرة الجيدة هي التي تقوم بعملها جيداً، يا عزيزي بيير - قال هاذياً، وهو لا يجد القوة على النهوض، ثم أضاف:- وأنا عاهرة جيدة، تجرأ على إنكار ذلك.

ردّ عليه شخير عميق من بيير ليفرغو. وكانت الغيوم قد حجبت القمر مجدداً، وصارا في ظلام متقطع، يتخلله بريق الحباحب.

ما كانت الجدة فلورا لتوافق على ما تفعله، يا بول. ما كانت لتوافق بالطبع. فتلك المجنونة المتعالمة، ستقفُ إلى جانب العدالة، وليس في صف فرانسوا كارديلا، أكبر منتج للرّوم في بولينيزيا. وما هي العدالة في جزر القمامة هذه التي يتضاءل، أكثر فأكثر، شبهها بعالم الماووري القدماء، وتصبح أكثر شبهاً بفرنسا العفنة؟ لو كانت الجدة فلورا مكانك، لحاولت تقصي أين هي العدالة، ودست أنفها في هذه المتاهة من الخصام، والمكائد، والمصالح الدنيئة المقنعة بالإيثارية، لكي تُصدر حكمها الصاعق. لهذا السبب متِّ، أيتها الجدة، وأنتِ في الحادية والأربعين من عمرك فقط! أما هو الذي يبول على العدالة، بالمقابل، فقد عاش حتى الآن، ثلاثاً وخمسين سنة. اثنتي عشرة سنة

أكثر من الجدة فلورا. لن تعيش طويلاً بعد هذا، يا بول. ما همّ، إذا كانت سيرة حياتك، في ما يهمك حقاً، الجمال والفن، قد انتهت.

عندما أيقظه، في فجر اليوم التالي، وابل من المطر نخر عظامه، كان لا يزال على الكرسي نفسه، في العراء، يعاني من تشنج شديد في رقبته، بسبب وضع رأسه. كان بيير ليفرغو قد غادر، في وقت من الليل. ترك المطر يوقظه تماماً، ثم جرجر نفسه إلى داخل الكوخ، ليستلقي في الفراش، وينام حتى الظهيرة. وكانت باؤورا قد خرجت آنذاك، مع الطفل.

منذ أن توقف عن الرسم، لم يعد يستيقظ مبكراً، كما في السابق. يظل متثائباً حتى الضحى، ثم يذهب لركوب العربة العامة إلى بابيتي. يبقى هناك حتى الليل، يهيئ للعدد التالي من «**الزنابير**». كانت المجلة شهرية، تتألف من أربع صفحات. ولكن، بما إن كل ما يظهر فيها، يخرج من بين يديه - مقالات، كاريكاتير، رسوم، أبيات شعر احتفالية، سخريات وإشاعات، ونوادر - فقد كان كل عدد يعني له الكثير من العمل. وكان يتولى، فوق ذلك، أخذ المواد إلى المطبعة، وضبط الألوان، وتصحيح التجارب المطبعية، والإشراف على الطباعة النهائية، والتأكد من وصول المجلة إلى المشتركين، ثم إلى الجمهور بعد ذلك. كان ذلك كله يمتعه، ويدفعه إلى الاستغراق في العمل بحماسة. غير أنه كان يملّ من كثرة اجتماعات فرانسوا كارديلا وأصدقائه في الحزب الكاثوليكي، ممن يتحملون تكاليف المجلة، ويدفعون له أجوره. لقد كانوا يزعجونه، على الدوام، بنصائح، هي أوامر مستترة. ويسمحون لأنفسهم، بتأنيبه، لأنه يتمادى في انتقاداته للحاكم غاليه، أو لأنه لم يكن حاداً فيها. فكان يستمع إليهم، في بعض الأحيان، مستسلماً، ومفكراً بأمر آخر. وفي أحيان أخرى، يفقد الصبر، ويطلق عبارات الزجر والاستياء، بل إنه قدم إليهم استقالته في مناسبتين. ولكنهم لم يوافقوا عليها. فمن سيجد أولئك المضحكون الذين يعجزون عن كتابة رسالة، ليحل محله.

وكانت حياته ستتواصل على ذلك النحو، لا أحد يدري حتى متى، لولا أن أمراضه الجسدية، في أوائل عام ١٩٠١، وكانت قد توارت لوقت لا بأس به، انقضّت عليه مجدداً، بشراسة أشد من السابق. فعند غروب أحد أيام كانون الثاني، من تلك السنة الأولى، من القرن الجديد، وفي بيت فرانسوا كارديلا، في شارع بريا، بينما كان صاحب البيت يقدم له فنجاناً من الشاي مع رشفة من البراندي، أصيب قلب بول بالجنون. تسرّع نبضه بصورة جامحة، وراح صدره يعلو يهبط مثل كير. لم يعد قادراً على التنفس إلا بمشقة. ظل طوال الأسبوع، ضحية نوبات تسرع في القلب، وحشرجات. وأخيراً، تقيأ دماً اضطره إلى الذهاب إلى مستشفى فيامي.

- وماذا الآن، يا دكتور لاغرانج. فأنا أعاني من مشاكل في القلب، أيضاً؟ - قال ساخراً، للطبيب الذي يفحصه.

قال الطبيب أن لا، بهز رأسه. فهذا ليس مرضاً جديداً، يا صديقي. إنه الداء الدائم نفسه، يواصل تقدمه الذي لا يلين. والآن، مثلما فعل الداء بجلده، ودمه، ورأسه من قبل، بدأ بطحن قلبه. كان عليه أن يدخل المستشفى، بين كانون الثاني وآذار ١٩٠١، ثلاث مرات، ولعدة أيام في كل مرة. وقد استمرت المرة الأخيرة أسبوعين. لقد كانوا يعاملونه في مستشفى فيامي، معاملة جيدة، لأن معظم الأطباء، بدءاً من الدكتور لاغرانج الذي صار الآن مديراً للمستشفى، كانوا يدعمون كارديلا في حملته ضد السلطات المبعوثة من الميتربول. بل إنهم وفروا له لوحة خشبية، كي يتمكن من تهيئة أعداد «**الزنابير**»، وهو في فراشه.

ولكن فترات الإقامة الاضطرارية في المستشفى تلك، كان لها مفعول غير متوقع. لقد فكر كثيراً، وتوصل فجأة، بعد أرق طويل، إلى هذه النتيجة: لقد ضقتَ ذرعاً بما تفعله، ومن الناس الذين تعمل من أجلهم. لم تعد تريد الموت، وأنت تعمل لمصلحة حفنة من الأغبياء. من المحزن، أنك وصلت إلى هذا الدرك، أنت الذي جئت إلى تاهيتي،

هرباً من النقود، ولكي تبني جنة عدن صغيرة، مثلما كنتَ تحلم، هناك في آرل، أنت والهولندي المجنون، عندما كانت علاقتكما لا تزال جيدة. جنة عدن صغيرة ترفل بالحرية، بالجمال، بالإبداع والمتعة. وكان فينسينت يسمي ذلك الفردوس «جنة عدن»! كم كان القدر غريباً ومتقلب النزوات، يا كوكي.

أولا تتذكر يا بول؟ لقد بدأ كل شيء قبل سنة ونصف السنة، بعد محاولة انتحارك الفاشلة. عندما رسمت *من أين أتينا؟ من نحن؟ إلى أين نمضي؟*، آخر أعمالك البارعة. بدأت بعض الأشياء تختفي من الكوخ - أكانت تختفي، أم يُخيَّل إليه أنها اختفت؟ - وتبلور في رأسك اليقين، بأن اللصوص هم من وطنيي بوناويا. كانت باؤورا تنفي ذلك، وتقول إنك تحلم. ولكن آلية الهذيان انطلقت، دون توقف. انهمكتَ في محاولة دفع محكمة بابيتي إلى محاكمة اللصوص. وبما أن القضاة رفضوا، عقلانياً، فتح محاكمة حول اتهامات بالغة الضعف، فقد كتبتَ رسائل مفتوحة، بالغة القسوة، مفعمة بالنار والمرارة، متهماً الإدارة الاستعمارية، بالتواطؤ مع الوطنيين، ضد الفرنسيين. هكذا ولدت «*الابتسامة (جريدة ساخرة)*» التي كانت سمومها تبهج المستوطنين. فكانوا يشترونها سعداء، ويبعثون إليك رسائل التهنئة. وعندئذ، جاء كارديلا بنفسه لزيارتك، وعرض عليك المن والسلوى، مقابل توليك إصدار «**الزنابير**». وانطلقتَ في ذلك العمل، دون انتباه منك تقريباً. فأكلت، وشربت، طوال ثمانية عشر شهراً، وأحدثت زلزالاً صغيراً في الجزيرة، بانتقاداتك اللاذعة. وسهوتَ ونسيتَ في ذلك الدوار، أنك رسام. أكنتَ سعيداً بذلك المصير؟ لا. وهل ستواصل العمل مع كارديلا؟ ولا بأي حال.

ما الذي ستفعله إذن؟ الخروج، بأسرع ما يمكن، من جزيرة تاهيتي اللعينة هذه التي عفنتها أوروبا، بإجهازها على كل ما كان يجعل منها، من قبل، متوحشة وصالحة للتنفس. وإلى أين سيتحمل عظامك المتعبة وجسدك المريض، يا بول؟ إلى جزر الماركيزات، بالطبع.

فمازال هناك شعب ماووري حر، جامح، يحافظ على ثقافته سليمة، وعلى عاداته، وعلى فنون الوشم. ويمارس في أعماق الغابات، بعيداً عن الرقابة الغربية، طقوس أكل اللحم البشري المقدسة. سيكون حمام تطهير، يا كوكي. ففي ذلك الجو الجديد، الطازج، والبكر، سيتوقف الداء الذي لا يسمى. وربما ستعود هناك إلى امتشاق ريشتك، يا بول.

كان يكفيه أن يتخذ القرار، لتبدأ الأمور بالانتظام، بصورة مواتية. فما إن خرج من مستشفى فيامي، حتى جاء من باريس، مثل قنبلة، خبر إعفاء الحاكم غوستاف غاليه من منصبه. وقد أبهج الخبر المستوطنين الذين كنتَ تعمل لحسابهم، فلم تجد مشقة في إقناعهم بأنه، بعد تحقيق ذلك الانتصار، لم يعد هناك معنى لمواصلة إصدار الجريدة. فأنهوا عملكَ بمنحكَ إكرامية كبيرة.

بعد أيام من ذلك، وبينما هو يستقصي عن السفن التي تسافر بين تاهيتي وجزر الماركيزات، في واحدة من تلك الحالات المحمومة التي تسبق دوماً، التبدلات الكبيرة في حياته، جاء بيير ليفوغو ليقول له إن أكسيل نوردمان، وهو سويدي وصل حديثاً للإقامة في تاهيتي، يريد أن يشتري بيته في بوناويا. لقد رأى البيت، لدى مروره، وتعلق به. أنجز بول الصفقة خلال ثمان وأربعين ساعة، مما وفر له نقوداً لشراء تذكرة السفر، ولشحن أمتعته القليلة، بل وتقديم مبلغ صغير إلى باؤورا والطفل إميل. فقد رفضت الفتاة، بصورة قاطعة، مرافقته إلى جزر الماركيزات. ما الذي ستفعله هناك، بعيداً عن أسرتها؟ إنه عالم ناءٍ وخطر. ويمكن لكوكي أن يموت في أي لحظة. فما الذي ستفعله، عندئذ، هي والطفل؟ إنها تفضل العودة إلى حيث أسرتها.

لم يهمكَ ذلك كثيراً. والحقيقة أن باؤورا وإميل سيكونان عقبة أمام بدء تلك الحياة الجديدة. ولكنكَ غضبتَ بالمقابل، لأن بيير ليفارغو رفض مرافقتك. عرضتَ عليه أن تأخذه معك كطاه، وأن تتقاسم معه كل ما تملكه. فكان جارك حاسماً: لن يتحرك من هنا،

ولو أعطيته كل ذهب العالم. لن يُقدِم أبداً، على اقتراف جنون مجاراتك في هذا القرار الأرعن. عندئذ، وصفه بول بالمتبرجز، الجبان، الوسطي، وغير الوفي.

ظل بيير ليفارغو ساهماً لبعض الوقت، دون أن يرد على شتائمكَ، وهو يعلك قطعة عشب، في ذلك الفم الذي تنقصه نصف أسنانه. كنتما تجلسان في العراء، إلى جانب شجرة المانجا التي تظللكما. وأخيراً، دون أن يرفع صوته، بمزاج هادئ، قال لك، متهجياً الكلمات:

– تقول للجميع إنك ذاهب إلى جزر الماركيزات، لأنك ستحصل هناك على موديلات أرخص كلفة، ولأن هناك أرضاً بكراً، وثقافة أقل انحداراً. وأنا أظن أنك تكذب على الجميع. وتكذب أيضاً، على نفسك، يا بول. إنك تغادر تاهيتي، بسبب بثور ساقيك. لم تعد أي امرأة هنا تقبل النوم معكَ، بسبب خبث رائحتكَ. ولهذا السبب، لا تريد باؤورا مرافقتك. وأنتَ تظن أنك ستتمكن هناك من شراء فتاة صغيرة، بحفنة من الحلوى، لأن الناس في جزر الماركيزات أفقر من الناس هنا. إنه حلم آخر من أحلامك، سيتحول إلى كابوس، يا جاري، وسوف ترى.

لم يذهب أحد لوداعه في مرفأ بابيتي، يوم العاشر من أيلول ١٩٠١، عندما صعد إلى السفينة «**صليب الجنوب**»، المبحرة إلى هيفا وا. كان يحمل معه أرغنه الصغير، ومجموعة صوره البورنوغرافية، وصندوق ذكرياته، وصورته الذاتية كمسيح على الجلجلة، ولوحة صغيرة لبريتاني تحت الثلج. وبالرغم من إلحاح المالك الجديد لبيته في بوناويا، بأن يأخذ كل شيء، فقد ترك بعض لفافات الرسم، وحوالي عشر منحوتات خشبية لآلهة التوياباو الذين كان يخترعهم. وحسب ما أخبره به السيد أكسيل نوردمان، في رسالة، بعد بضعة شهور، فإن مشتري بيته الجديد، ألقى كل تلك الكراكوزات إلى البحر، لأنها كانت تخيف أبناءه الصغار.

XV. معركة كانغايّو

نيم، آب ١٨٤٤

في غرفة فندق دوغار الخانقة، في مدينة نيم، العابقة برائحة القدم وبول القطط، حيث أمضت، من الخامس حتى الثاني عشر من آبَ ١٨٤٤، ستة نهارات وست ليال من الرعب، هي أسوأ أيام جولتها قاطبة، كانت فلورا تعاني كل يوم تقريباً من كابوس مكرب. فمن منابرهم، كان أساقفة المدينة يؤلبون ضدها، تلك الجموع المتعصبة التي تملأ الكنائس، وتخرج بحثاً عنها في شوارع نيم لتشنقها. فكانت تختبئ، مرتعبة، في مداخل الأبنية، والدهاليز، والأركان المظلمة. وترى من مخبئها غير الآمن، الجموع المنفلتة، بحثاً عن الكافرة الثورية، كي تنتقم ليسوع الملك. وعندما يكتشفون مخبئها، وينقضّون عليها بوجوه شوهها الحقد، تستيقظ، وقد بللها العرق وشلّها الخوف، مستنشقة رائحة البخور.

منذ اليوم الأول، في نيم، كان كل شيء سيئاً؛ ففندق دوغار قذر وغير صالح للإقامة، والطعام بائس. (أنت، من لم تولِ اهتماماً للطعام قط، يا فلورا، تضبطين نفسك فجأةً، وأنت تحلمين بمائدة بيتية جيدة، فيها حساء دسم، وبيض طازج، وزبدة مخفوقة لتوها.) كان المغص، والإسهال، وآلام الرحم، مضافة إلى حر لا يطاق، تُحوّل كل يوم عمل إلى عذاب، يفاقم منه الإحساس بأن هذه التضحيات بلا جدوى، لأنك لن تجدي في هيكل المقدسات الضخم هذا، عاملاً ذكياً واحداً، يكون حجر الأساس، للاتحاد العمالي.

لقد وجدت واحداً، في الحقيقة، ولكنه ليس من نيم، بل هو - بالطبع! - من ليون. الوحيد بين الأربعين ألف عامل، في ذلك المركز، لصناعة المنسوجات الحريرية، والصوفية، والقطنية، الذي بدا لها،

في أربعة الاجتماعات التي تمكنت من تنظيمها، بمساعدة متكاسلة من طبيبين، وُصفا لها بأنهما إنسانيان ومن أتباع فورييه - الدكتوران بليندو وديكاستلناو - غير مخبول تماماً بمواعظ الخوارنة التخديرية التي يبتلعها عمال نيم، دون أدنى ضيق. كنت تظنين أنك قد رأيتِ وسمعت كل شيء عن البلاهة، يا أندلسية؛ ولكن نيم علمتك أنه يمكن للحدود، أن تتسع بصورة غير محدودة. يوم سمعت، في أحد الاجتماعات، ميكانيكياً يقول: «وجود الأغنياء ضروري؛ فبفضلهم نوجد في العالم، نحن الفقراء الذين سندخل ملكوت السماء، بينما لن يدخلوه هم»، غلبتها القهقهة أولاً، وبعد ذلك دوار. فَتَمكُّن منابر الكهنة من إقناع العمال، بأنه من الأفضل لهم، أن يكونوا مستَغَلين، لأنهم سيذهبون بذلك، إلى الفردوس، أفقدها الهمة إلى حد أصيبت معه، بالبكم برهة طويلة، دون أن تجد الحماسة حتى للغضب.

لم ترَ مثيلاً لتلك البلاهة والبلبلة المتراكمة التي شهدتها في نيم، إلا خلال المهزلة التراجيكوميدية المتمثلة بمعركة كانغايّا، في الفترة الأخيرة من وجودها في أريكيبا، قبل عشر سنوات. فمنذ عشر سنوات، عندما كان الغاماريون والأربيغوسيون يعدون العدة، على مشارف أريكيبا، لمسرحية الدم والموت الإيمائية تلك، كنتِ أنت، المشاهدة ذات الامتياز، تدرسين ذلك الوضع بتأثر، بحزن، بسخرية، بشفقة، محاولة أن تفهمي لماذا يُقَدِّم أولئك الهنود، والزامبي، والخلاسيون أنفسهم ليكونوا لحماً للمدافع، وهم يساقون إلى حرب أهلية بلا مبادئ، ولا أفكار، ولا أخلاق؛ إلى عرض فظ لمطامع الزعماء المحليين، وليكونوا أداة صراع الفئات التي لا علاقة لهم بمصيرها. أما هنا، في نيم، بالمقابل، أمام جدار الغباء والأحكام الدينية المسبقة الذي يغلق كل الأبواب، أمام التبشير بالثورة السلمية، فكنت تتصرفين بمرارة، بعاطفية، متيحة للغضب أن يطغى بضبابيته على ذكائك.

هل أفقدكِ الألم الجسدي الصبر؟ أيبعث فيكِ، مثل هذا القنوط،

الإنهاكُ الذي شعرتِ به، خلال هذه الشهور، وأنت تعيشين، متنقلة بحذر وتيقظ، في بنسيونات ونزل بائسة، أو سيئة مثل فندق دوغار؟ الكوابيس الليلية التي يشنقك فيها خوارنة نيم، على يد الغوغاء، تستنفد قواك. فيكون السهر والأرق أفضل من الكابوس. كانت تقضي شطراً كبيراً من الليل، والنافذة مفتوحة، تحوك رؤى مرعبة ضد كهنة نيم. «إذا ما وصلتِ إلى السلطة، فسوف تجعلين منهم عبرة رهيبة، يا فلوريتا. ستحشرينهم في ميدان ذلك المدرج الروماني الذي يفاخرون به، كي يلتهمهم العمال أنفسهم الذين حوّلتهم مواعظ الكهنة إلى وحوش ضارية». وكان تصور هذه الفظائع يخلصها من تعكر المزاج، ويجعلها تضحك مثل صبية صغيرة. وعندئذ، ترجع، عادة، إلى أريكيبا.

وماذا لو كانت كل المعارك غبية، مثل تلك التي قُيِّض لكِ أن تشهديها، في المدينة البيضاء، أريكيبا؟ فوضى بشرية، يتولى المؤرخون في ما بعد، إرضاء للمشاعر الوطنية، تحويلها إلى مظاهر متماسكة من المثالية، والشجاعة، والكرم، والمبادئ، ويمحون ما كان فيها من خوف، وغباء، وجشع، وأنانية، وقسوة، وجهل أغلبية كبيرة، يُضحّى بها دون رحمة، في سبيل طموحات، أو مطامع، أو تعصب أقلية ضئيلة. لقد أمكن، خلال مئة سنة، لذلك التهريج، لحفلة المساخر تلك التي هي معركة كانغايّو، أن تظهر في كتب التاريخ التي يقرؤها البيرويون، على أنها صفحة نموذجية من الماضي الوطني، حيث ناضلت أريكيبا البطلة، المدافعة عن الرئيس المنتخب، الجنرال أوربيغوسو، بشجاعة ضد قوات الجنرال غامارا المتمردة، وتمكنت بعد معارك دامية وقصيرة، من إلحاق الهزيمة بها (كي تظهر منتصرة، بعد أيام، بصورة سحرية). أجل يا فلوريتا؛ فالتاريخ المعيش كان حماقة قاسية، والتاريخ المكتوب، متاهة مفاتن وطنية زائفة.

لقد تأخرت طويلاً، القوات الغامارية، بقيادة الجنرال سان رومان، في الوصول إلى أريكيبا، حتى كاد ينساها الجيش الأوربيغوسي الذي

يقوده الجنرال نيتو والعميد بالدبيبا، ويرأس هيئة أركانه، ابنُ عمها كليمنت ألتاوس. ولطول الانتظار، منح الجنرال نيتو جنوده الإذن بالذهاب إلى المدينة للسكر، في الأول من نيسان١٨٣٤ . وفي بيت آل تريستان، في شارع سانتو دومنغو، سمعت فلورا، طوال تلك الليلة، صخب الأغاني، والرقص، والصراخ الذي احتفل به الجنود، في كل حانات المدينة، بليلتهم الحرة، وهم يشربون التشيتشا، ويأكلون الأطعمة الحارة. كانت الجوقات والجيتارات تصم الآذان في كل أحياء المدينة. وفي اليوم التالي، أطل جنود الجنرال سان رومان من بعيد، من فوق الهضاب، من خلال هواء الأفق النقي بين البركانين. وقد رأت فلوريتا، وهي تحتمي من الشمس، بمظلة حمراء، وتحمل منظاراً مقرباً، ظهور بقعة نمل بطيئة، آخذة بالاقتراب. بينما كان يعمّ حجرات البيت، صخب وجلبة عمها دون بيو، وابنة عمها كارمن، وعمتها خواكينا، وبقية الأقارب - العمات، وبنات العمومة، والأعمام، وأبناء العمومة، من الأعيان والرهبان - وهم منهمكون في ربط الحزم، وملء الصناديق بالمجوهرات، والنقود، والملابس والأشياء الثمينة، كي يذهبوا للالتجاء، مثل كل مجتمع أريكيبا الراقي، في الأديرة والكنائس. وعند الظهيرة، عندما حجبت زوبعة غبار، عن عينيها، مشهد جنود الجنرال سان رومان، رأت فلورا ظهور كليمنت ألتاوس على صهوة جواد، يتقدم متعرقاً، ومسلحاً من رأسه حتى قدميه. فقد هرب الكولونيل، للحظات من المعسكر، لكي يحذرهم:

- رجالنا جميعهم سكارى، بمن فيهم الضباط، بسبب فكرة نيتو الغبية، بمنحهم ليلة حرة - زمجر غاضباً، ثم أضاف:- إذا ما شن سان رومان هجوماً علينا الآن، فإننا ضائعون. اذهبوا إلى دير سانتو دومنغو، دون إضاعة للوقت.

ثم انطلق عائداً، في خبب سريع، وهو يجدف بالألمانية. وبالرغم من حث العمات وبنات العمومة لفلورا، كي تسرع في الذهاب معهن، إلا أنها ظلت على سطح المنزل، مع الذكور. فهم سينتقلون إلى دير

سانتو دومنغو المجاور، عندما تبدأ المعركة. في الساعة السادسة ليلاً، دوت أول طلقات البنادق. واستمر تبادل إطلاق النار، متقطعاً، بعيداً، عدة ساعات، دون أن يدنو من المدينة. وفي حوالي الساعة التاسعة، ظهر جندي منفرد في شارع سانتو دومنغو. لقد كان مبعوثاً من الجنرال نيتو إلى زوجته، يطلب منها أن تهرع إلى أقرب دير؛ لأن الأمور ليست على ما يرام. أمر دون بيو تريستان بتقديم الطعام والشراب إليه، بينما الجندي يروي لهم ما حدث. كان يلهث من التعب، وهو يتكلم، ويختنق في الوقت نفسه، بالشراب المرطب والطعام. كانت الوحدة الرئيسية في قوات الجنرال سان رومان، هي أول من بدأ الهجوم. فخرج للقائها، خيالة الجنرال نيتو، وتمكنوا من كبحها. وظل القتال متعادلاً، إلى أن أخطأت مدفعية الكولونيل موران الهدف، مع بداية الظلام؛ فبدلاً من أن تصوب إلى الغاماريين، أطلقت صلياتها النارية على الخيالة أنفسهم، وألحقت بهم أضراراً. النتائج ما زالت غير معروفة، ولكن انتصار سان رومان لم يعد مستحيلاً. وتحسباً من غزو القوات المعادية للمدينة، من الأفضل «للسادة أن يختبئوا». أتتذكرين الرعب العام الذي أحدثته هذه الأخبار، يا فلوريتا؟ بعد لحظات من ذلك، انطلق الأعمام وأبناء العمومة، يتبعهم العبيد، محملين بالسجاجيد، وأكياس المؤن والأطعمة والملابس. وكان كثيرون منهم يحملون مباول فضية أو خزفية في أيديهم، ويمضون إلى دير وكنيسة سانتو دومنغو، بعد أن أحكموا إقفال أبواب البيت بعوارض خشبية. انتشر الخبر كانتشار النار في البارود، لأن فلوريتا تعرفت، وهم في طريقهم إلى الملجأ، على أُسر أخرى من المدينة، تركض مذعورة، إلى أماكن العبادة المقدسة. وكانوا يحملون بين أذرعهم، كل الثروات والأشياء الثمينة التي يستطيعون حملها، لإنقاذها من جشع المنتصر.

كان يسود ديرَ وكنيسةَ سانتو دومنغو، اضطراب وفوضى لا يوصفان. فالأسر الأريكيبية مكدسة في ممرات الدير وأروقته، وفي

ممر الكنيسة، وفي محابس الدير، وحجرات الرهبان، مع أطفالها وعبيدها المستلقين على الأرض، حيث لا يكاد التحرك يكون ممكناً. كانت هناك، روائح بول وبراز مقززة، وصراخ يبعث على الجنون. وكانت مشاهد الرعب تختلط بالصلوات والتراتيل التي ترددها بعض الجماعات؛ بينما الرهبان يقفزون من مكان إلى آخر، محاولين، دون جدوى، فرض النظام. أما دون بيو وأسرته، فكان لهم، بفضل المكانة والثروة، امتياز احتلال مكتب رئيس الدير؛ حيث يمكن للأقرباء الكثر، على الرغم من ضيق المكان، أن يتحركوا بالتناوب على الأقل. توقف تبادل إطلاق النار في الليل، ثم اشتد عند الفجر، وبعد قليل من ذلك، صمت تماماً. وعندما قرر دون بيو أن يذهب ليرى ما يجري، تبعته فلورا. كان الشارع مقفراً. ولم يكن بيت آل تريستان قد اقتُحم. ومن السطح، في ذلك الصباح ذي السماء الصافية، والنسيم البارد الذي أزاح دخان البارود، رأت فلورا في البعيد، بمنظارها المكبر، أشباح عسكريين يتعانقون. ما الذي يحدث؟ لقد عرفوا بما حدث بعد قليل من ذلك، عندما جاء الكولونيل ألتاوس، على جواد يعدو بأقصى سرعة، عبر شارع سانتو دومينغو، ملطخاً بالهباب الأسود، من رأسه حتى قدميه، مع خدوش في يديه، وشعره الأشقر مبيض بالغبار.

– الجنرال نيتو أشد غباء من ضباطه وجنوده – زمجر، وهو ينفض زيه العسكري بيديه – لقد وافق على هدنة طلبها سان رومان، عندما كان بإمكاننا، الإجهاز عليه.

فضلاً عن الإصابات التي أحدثتها نيران مدفعية الكولونيل موران، في خيالة جيشها – قدرها ألتاوس بثلاثين أو أربعين قتيلاً – قصفت معسكر الرابونات، بالخطأ أيضاً، معتقدة أنهم من القوات الغامارية. ومن يدري كم قتلت قذائف المدفعية وجرحت، من أولئك النسوة اللواتي لا يُعوضن في أعمال إسعاف القوات وتموينها. ومع ذلك، وبعد عدة هجمات بالحِراب، تمكن جنود نيتو، متأججين حماسة

بالمثل الأعلى الذي يقدمه الكاهن بالديبيا وألتاوس نفسه، من إجبار جيش سان رومان على التراجع. وعندئذ، بدل الاستجابة إلى ما طالب به الكاهن والألماني - مطاردتهم وإبادتهم - وافق الجنرال نيتو على الهدنة التي طلبها العدو. فاجتمع مع سان رومان، وتعانقا، وبكيا، وقبّلا كلاهما راية بيروية، وبعد أن وعده القائد الغاماريّ بأنه سيعترف بأوربيغوسو، رئيساً للبيرو، بدأ نيتو الأحمق الآن، بإرسال الأطعمة والشراب لجنود خصمه الجائعين. لقد أكد له العميد بالديبيا وألتاوس أن الأمر مكيدة من الخصم، لكسب الوقت وإعادة تنظيم قواته. وأن قبول الهدنة تصرف أرعن وغير عاقل! غير أن نيتو تمسك برأيه، قائلاً: سان رومان رجل شهم. وسوف يعترف بأوربيغوسو، رئيساً للدولة. وبهذا تتم المصالحة بين الأسرة البيروية الواحدة.

طلب ألتاوس من دون بيو، ومعه بعض أعيان أريكيبا، أن يعزل الجنرال نيتو، ويتولى القيادة العسكرية، ويصدر الأوامر بتجدد القتال. شحب لون عم فلورا مثل جثة. أقسم إنه مريض، ومضى ليدس نفسه في الفراش. فغمغم ألتاوس: «الشيء الوحيد الذي يهم هذا العجوز البخيل، هو أمواله». وبما أن الحرب قد توقفت، فقد طلبت فلورا من ابن عمها، أن يأخذها إلى المعسكر. بعد أن تردد الألماني قليلاً، وافق على طلبها. وأردفها على حصانه. كل شيء في محيط الطريق، كان دماراً. فالحقول والبيوت نُهبت، قبل أن تحتلها الرابونات، ويحولنها إلى ملاجئ أو عيادات. نساء داميات، نصف مضمدات، يطبخن على مواقد مرتجلة، بينما الجنود الجرحى مطروحون على الأرض، دون أي رعاية، يئنون، وجنود آخرون ينامون ملء جفونهم، بعد إرهاق المعركة. كانت هناك، أعداد كبيرة من الكلاب، تحوم في المكان، تتشمم الجثث تحت سُحب من نسور الرخمة. وبينما كانت فلورا، في مقر قيادة ألتاوس، تستجوب بعض الضباط عن أحداث المعركة، وصل مفاوض من جيش سان رومان.

وقد أوضح أنه، بتوافق هيئة أركان جيشه، لا يمكن تنفيذ الوعد الذي قطعه قائده، بالاعتراف بأوربيغوسو، رئيساً: جميع ضباطه يعارضون ذلك. وهكذا، سوف تتجدد الأعمال القتالية. فهمس ألتاوس لفلورا: «بسبب الأحمق نيتو، خسرنا معركة رابحة». وقدم لها بغلاً، لكي ترجع إلى أريكيبا، وتخبر الأسرة بأن الحرب قد تجددت.

وجدها الفجر تضحك وحدها، في حجرتها القذرة، في فندق دوغار، متذكرة تلك المعركة التي كانت تقترب، من بلبلة إلى بلبلة، من نهايتها غير المعقولة. كان ذلك هو يومها الثالث في نيم المقيتة. ولديها عند الضحى، موعد مع الشاعر-الخباز جان ريبول، الذي أطرى لامارتين وفيكتور هوغو على قصائده. هل ستجدين، أخيراً، في هذا الشاعر الخارج من عالم المستَغَلين، النصير الذي تفتقدينه، لإطلاق فكرة **الاتحاد العمالي** في نيم، وإخراج النيميين من سباتهم؟ لا شيء من هذا. فقد وجدت في جان ريبول، الشاعر العامل المشهور في فرنسا، متغطرساً مغروراً - الغرور هو مرض الشعراء، يا فلوريتا، وهذا أمر مؤكد ومُثبت - كرهته بعد عشر دقائق من اللقاء به. وقد راودتها الرغبة، في إحدى اللحظات، في إطباق فمه، لترى إذا ما كان يصمت بذلك عن تبجحه الوقح. لقد استقبلها في مخبزه، وصعد معها إلى غرفة فوق الفرن. وعندما سألته إذا ما كان قد سمع بحربها الصليبية التي تشنها، وبالاتحاد العمالي، بدأ البدين المترهل، الرخو والمتبجح، بتعداد الدوقات، والأكاديميين، والأساتذة، والأشخاص المرموقين الذين يكتبون إليه، ممتدحين أشعاره، وشاكرين ما يقدمه للفن في فرنسا. وعندما حاولت أن تحدثه عن الثورة السلمية التي ستقضي على التمييز، والظلم، والفقر، قاطعها المزهو بنفسه، بعبارة أذهلتها:«ولكن، هذا هو بالضبط، ما تفعله كنيستنا الأم المقدسة». حاولت فلورا، في ردها، أن تنوره، مبينة له أن جميع رجال الدين - اليهود، والبروتستانت، والمحمديين، وقبلهم جميعاً الكاثوليك - كانوا على الدوام، حلفاء للمستغِلين والأغنياء،

لأنهم في مواعظهم، يُبقون الإنسانية المعذبة مستسلمة، بوعدها بالفردوس. بينما المهم ليس تلك المكافأة السماوية غير المؤكدة، بعد الموت، وإنما المجتمع الحر والعادل الذي يتوجب إقامته هنا والآن. فانتفض الشاعر-الخباز كما لو أن الشيطان قد ظهر له:

- أنتِ شريرة، شريرة - هتف، وهو يومئ بيديه، بنوع من التطهر، وأضاف:- وكيف خطر لكِ أن تأتي لطلب المساعدة مني، في عمل ضد ديانتي؟

فانتهى الأمر بمدام غضب إلى الانفجار، والقول له إنه خائن لأصوله، مخادع، عدو للطبقة العاملة، وذو شهرة زائفة سيتولى الزمن كشف حقيقتها.

استنفدت زيارتها للشاعر-الخباز قواها، فاضطرت إلى الجلوس على مقعد، تحت بعض أشجار الموز، إلى أن استعادت بعض الهدوء. وسمعت إلى جانبها زوجين يقولان، متأثرين، إنهما سيذهبان هذا المساء، لسماع عازف البيانو لِيست، في قاعة الموسيقى البلدية. يا للمصادفة المثيرة للفضول: فجولتها بكاملها تقريباً، كانت متوافقة مع تنقلات الموسيقي. يبدو أن عازف البيانو يقتفي أثركِ، يا فلوريتا. وماذا لو منحتِ نفسك استراحة، هذه الليلة، وذهبتِ لسماعه؟ لا، ولا بأي حال. لا يمكنكِ إضاعة الوقت بسماع الموسيقى، مثل البرجوازيين.

عرفت بالنتيجة التي انتهت إليها معركة كانغايّو، بعد شهر من ذلك، وهي في ليما، من الكولونيل الغاماريّ برناردو إسكوديرو الذي تعرفت إليه - بخرت الذكرى من ذهنها، صورة جان ريبول - خلال أيامها الأخيرة في أريكيبا. وعشتِ قصة حب، رومانسية يا فلوريتا؟ يا لتلك القصة! في اليوم التالي لتوقف الأعمال القتالية بين الأوربيغوسيين والغاماريين، أمر الجنرال نيتو جيشه بالتحرك، والخروج بحثاً عن المحتال سان رومان. فوجد الجنود الغاماريين في كانغايّو، يستحمون في النهر، ويستريحون. انقض نيتو عليهم. وكان

الانتصار يبدو سريعاً. ولكن الأخطاء جاءت، مرة أخرى، لتساعد سان رومان. فقد أخطأ خيالة نيتو هدفهم، هذه المرة. وبدلاً من أن يطلقوا نيران بنادقهم على القوات المعادية، شتتوا بها شمل قواتهم المدفعية بالذات، حتى إنهم جرحوا الكولونيل موران نفسه. عندئذ، تزعزعت صفوف جنود نيتو، معتقدين أنه هجوم ساحق يشنه الغاماريون، فداروا على أعقابهم، واندفعوا يركضون، في انسحاب أهوج، باتجاه أريكيبا. وفي الوقت نفسه، ظن الجنرال سان رومان أنه ضائع لا محال، وهو يجهل ما يجري في صفوف الخصم، فأمر قواته أيضاً بالانسحاب، بأقصى سرعة، نظراً لتفوق العدو. ولم يتوقف عن هروبه اليائس والمضحك، مثل هروب نيتو، إلا في فيلكي، على بعد أربعين فرسخاً من الموقع. وستبقى في ذاكرتك، إلى الأبد، يا فلوريتا، صورة هذين الجيشين، يتقدمهما جنرالاتهما، وكل منهما يهرب من الآخر، لأن كليهما يظن نفسه مهزوماً. إنه رمز للفوضى والعبث اللذين كانت تجري بهما الحياة في بلاد أبيك، تلك الجمهورية الكاريكاتيرية طرية العود. في بعض الأحيان، كما هي الحال الآن، تجدين تلك الذكرى مسلية. تبدو لك تشخيصاً، مكبّراً وموسعاً، لواحدة من مسرحيات الأخطاء، وسوء التفاهم الموليبرية التي يُعتقد، هنا في فرنسا، أنها تقتصر على منصات المسارح فقط.

في اليوم التالي للمعركة، علم سان رومان أن خصمه قد هرب أيضاً، فدار على عقبيه مرة أخرى، وقاد قواته لاحتلال أريكيبا. أما الجنرال نيتو، فكان لديه ما يكفي من الوقت، لدخول المدينة، وترك الجرحى في الكنائس والمستشفيات، والانطلاق بمن تبقى معه، في انسحاب باتجاه الساحل. ودعت فلوريتا ابن عمها، الكولونيل كليمنت ألتاوس، والدموع في عينيها. كنتِ تظنين أنك لن تري ثانية، ذلك البربري الأشقر. وقد ساعدتِ أنتِ نفسك في إعداد أمتعته: ملابس داخلية جديدة، وشاي، ونبيذ بوردو، وعبوات سكر، وشوكولاته، وخبز.

عندما دخل إلى أريكيبا، بعد أربع وعشرين ساعة، جنودُ الجنرال سان رومان، المنتصر اللاإرادي في معركة كانغايّو، لم تحدث أعمال السلب والنهب المرهوبة. فقد استقبلتهم لجنة من الأعيان، يرأسها دون بيو تريستان، بالرايات وبفرقة موسيقية. وكدليل على تضامنه مع الجيش المنتصر، قدم دون بيو للكولونيل برناردو إسكوديرو، تبرعاً، بقيمة ألفي بيزو، للقضية الغامارية.

هل شُغف بك الكولونيل إسكوديرو، أيتها الأندلسية؟ إنك متأكدة من ذلك. وأنت أيضاً، شُغفت به. أليس كذلك؟ حسن، ربما. ولكن رجاحة العقل، كبحتك في الوقت المناسب. فالجميع كانوا يقولون إن إسكوديرو لم يكن، منذ ثلاث سنوات، سكرتيراً، ومرافقاً، ومساعداً فقط، وإنما عشيقاً أيضاً، لتلك الشخصية النسائية المفاجئة، دونيا فرانسيسكا زوبياغا دي غامارا، المعروفة بدونيا بانتشا، أو الماريشالة، أو «المسترجلة»، مثلما يسميها أعداؤها، زوجة الماريشال أغوسطين غامارا، رئيس البيرو السابق، والزعيم السياسي، والمتآمر المحترف.

ما هي القصة الحقيقية للماريشالة، وما هي أسطورتها؟ لن تتقصي حول هذا الأمر أبداً، يا فلوريتا. لقد فتنتك تلك الشخصية. ألهبت مخيلتك كما لم يلهبها أحد من قبل. وربما كانت صورة تلك المرأة المحنكة التي تبدو كأنها خارجة من رواية، هي التي ولّدت فيك العزم، والقوة الداخلية، القادرين على تحويلك إلى كائن حر ومصمم، مثلما كان مسموحاً للرجل وحده أن يكون. فإذا كانت الماريشالة قد توصلت إلى ذلك، فلماذا لا تتوصل إليه فلورا تريستان؟ لا بد أنها كانت في مثل عمرك عندما تعرفت إليها، في حوالي الثالثة والثلاثين أو الرابعة والثلاثين. تنحدر من مدينة كوسكو، ابنة أب إسباني وأم بيروية. وكان أغوسطين غامارّا، بطل استقلال البيرو - قاتَلَ إلى جانب سوكري في معركة آياكوتشو - قد تعرف عليها في دير في ليما، أدخلها أبواها إليه. فهربت الفتاة التي شُغفت به، من الدير، لتلحق به. وقد تزوجا في كوسكو، حين عُين غامارّا محافظاً

للمدينة. لم تكن ابنة العشرين سنة، زوجة بيتية، سلبية، مدجَّنة، ومفرخة أبناء، مثلما كانت (ويؤمل أن تكون) عليه سيدات المجتمع البيروي. بل كانت أكثر معاوني زوجها فعالية، وعقله وذراعه في كل أمر: النشاط السياسي، والاجتماعي، وحتى - وهذا أغنى بصورة خاصة، أسطورتها - في النشاط العسكري. كانت تحل محله في مكتب محافظ كوسكو، عندما يسافر. وفي واحدة من تلك المناسبات، أخمدت تمرداً، بظهورها في معقل المتمردين، بزي ضابط، وهي تحمل كيساً مليئاً بالنقود، ومسدساً محشواً في يديها: «ماذا تختارون؟ الاستسلام وتقاسم محتويات هذا الكيس، أم القتال؟». وقد فضلوا الاستسلام. ودونيا بانتشا، الأذكى والأشجع من الجنرال غامارّا، والأكثر منه، طموحاً وجرأة، كانت تخرج في كل الحملات مع زوجها، ممتطية حصاناً، ومنتعلة جزمة، ومرتدية بنطالاً وسترة عسكرية. وتشارك في المعارك والمناوشات، كأحد أشد المقاتلين إقداماً. وقد اشتهرت بدقة تصويبها. وكانت هي نفسها، خلال الحرب مع بوليفيا، تتقدم القوات، بعنادها غير المحدود وشجاعتها المرهوبة، لتحقق النصر في معركة باريا. وبعد الانتصار، احتفلت مع جنودها، برقص الرقصات الشعبية، وشرب التشيتشا. كانت تكلمهم بالكيتشية، وتتقن إطلاق اللعنات والبذاءات الرجولية. منذ ذلك الحين، صار تأثيرها على الجنرال طاغياً. وطوال السنوات الثلاث التي شغل خلالها، رئاسة البيرو، كانت دونيا بانتشا، هي من تمارس السلطة الفعلية. وتُنسب إليها مكائد وفظاعات لا تصدق، ضد أعدائها، ذلك أن خلوها من وساوس الضمير والكوابح، لم يكن أقل من شجاعتها. وكان يقال إن لها، عشاقاً كثيرين، تدللهم أو تسيء معاملتهم كدمى، أو ككلاب مدللة.

وبين كل الحكايات التي تروى عنها، هناك حكايتان لا يمكنكِ نسيانهما، لأنكِ كنتِ تتمنين، في كلتيهما، أن تكوني البطلة. أليس كذلك، يا فلوريتا؟ كانت الماريشالة، في إحدى المناسبات، تزور حصن

ريال فيليبه، في كاياو، ممثلة للرئيس. وفجأة، اكتشفت بين الضباط الذين يقدمون لها التكريم، وجود ضابط تُشيع التقولات أنه يتباهى بأنه عشيقها. ودون أن تتردد لحظة واحدة، انقضت عليه، مخلّفة أثر ضربة بالسوط، على وجهه. ودون أن تترجل عن حصانها، انتزعت عنه إشاراته العسكرية، بيديها:

- ما كان يمكن لك أن تكون عشيقي أبداً، أيها النقيب. فأنا لا أضاجع الجبناء.

القصة الأخرى حدثت في القصر: دعت دونيا بانتشا أربعة من ضباط الجيش، لتناول العشاء معها. وكانت الماريشالة مضيفة فاتنة، تمازح مدعويها، وتخدمهم بلباقة بالغة الرقة. وعند تقديم القهوة والسيجار، صرفت الخدم. أقفلت الأبواب، وواجهت أحد ضيوفها، متخذة البرود في صوتها، ونظرة غضبها التي لا ترحم:

- هل قلتَ لأصدقائك الثلاثة هؤلاء، الحاضرين هنا، إنك مللت من كونك عشيقاً لي؟ إذا كانوا يفترون عليك، فسوف نتولى أنا وأنت، معاقبتهم بما يستحقون. أما إذا كان ذلك صحيحاً، وأخشى أنه كذلك، وأنا أرى شحوبك، فسوف أتولى أنا وهؤلاء الضباط، كسر ظهرك جلداً بالسياط.

أجل يا فلوريتا، ستأخذين درساً لا يُنسى من تلك الكوسكية التي كانت تصيبها، بين حين وآخر، نوبات صرع - وقد شهدتِ واحدة من تلك النوبات - ستنتهي، مع هزائمها وآلامها، إلى القضاء عليها، قبل أن تكمل الخامسة والثلاثين من عمرها. هناك، إذن، نساء لا يسمحن بإذلالهن - وواحدة منهن في هذه البلاد المتخلفة، الجاهلة، غير المكتملة، في أقصى أطراف العالم - ولا يسمحن بمعاملتهن كالعبيد، ويتمكن من فرض احترامهن. يعتمدن على أنفسهن، ولا يكن ذيولاً ملحقة بالرجل، حتى في ساعة استخدام السوط أو إطلاق رصاص المسدسات. هل كان الكونيل برناردو إسكوديرو عشيقاً للماريشالة؟ ذلك الإسباني المغامر، القادم إلى البيرو، مثل كليمنت ألتاوس، للعمل

كمرتزق، في الحروب الأهلية، علمه يجمع ثروة، كان يرافق دونيا بانتشا، مثل ظلها، منذ ثلاث سنوات. عندما سألته فلورا، مباشرة، أنكر ذلك، بغضب: إنها افتراءات أعداء السيدة غامارا، بالطبع! ولكنك لم تقتنعي بكلامه.

لم يكن إسكوديرو وسيماً، ولكنه مع ذلك، جذاب جداً. نحيل القوام، بشوش، رشيق، قرأ وعرف العالم، أكثر من الرجال الآخرين الذين يحيطون بها. وقد أمضت فلورا معه، أوقاتاً طيبة، في تلك الأيام، عندما كانت أريكيبا تتعايش، مكرهة، مع احتلال قوات سان رومان. كانا يلتقيان صباحاً ومساءً، ويقومان بنزهات على الخيول إلى تيبابايا، إلى ينابيع المياه الحارة في يورا، إلى سفوح ميستي، البركان الوصي على المدينة. وكانت فلورا تحاصره بالأسئلة عن دونيا بانتشا غامارا، وعن ليما وأهالي ليما. فيرد عليها بصبر غير محدود، وبتبذير للذكاء. فقد كانت تعليقاته ذكية، وتودداته مرهفة ورفيعة الذوق. إنه رجل يطفح باللطف. وماذا لو تزوجتِ من الكولونيل برناردو إسكوديرو، يا فلوريتا؟ وماذا لو تحولت، مثل باتشا غامارا مع الماريشال، إلى السلطة وراء العرش، لكي تتمكني، من هناك في الأعلى، وباستخدام الذكاء والقوة في الوقت نفسه، من تحقيق هذه الإصلاحات التي يحتاجها المجتمع، بحيث لا تبقى النساء مستعبدات من الرجال؟

لم يكن الأمر مجرد تخيل عابر؛ فهذه الرغبة - زواجك من إسكوديرو، وبقاؤكِ في البيرو، وتحولك إلى ماريشالة ثانية - استحوذت عليك، إلى حد التغنج مع الكولونيل، كما لم تفعلي ذلك، مع أي رجل آخر، ولن تفعليه في ما بعد، مصممة على إغوائه. لقد وقع ذلك الحذر في شباكك، بسهولة. أغمضت عينيها - وكان قد بدأ يهب نسيم يخفف من حَرّ صيف نيم اللاهب - وعادت تعيش تلك الحادثة. هي وبرناردو وحدهما، في بيت آل تريستان. كلماتهما ترن في قبة السقف العالية. وفجأة، يمسك الكولونيل بيدها ويرفعها

إلى فمه، ويقول بجد: «أحبك يا فلورا. إنني مجنون بك. يمكنك أن تفعلي معي ما تشائين. دعيني أظل دائماً عند قدميك». هل أحسست بالسعادة، لذلك الانتصار السريع؟ في اللحظة الأولى، أجل. فخططك الطموحة بدأت تتحقق، بسرعة فائقة. ولكن، بعد قليل من ذلك، أثناء الخروج، عبر دهليز البيت المظلم، في شارع سانتو دومنغو، عندما أمسك بك الكولونيل بين ذراعيه، وضمك إلى صدره، وبحث عن فمك، انكسر السحر. لا، لا، رباه، يا للجنون! غير ممكن، غير ممكن قط! العودة إلى ذلك؟ العودة إلى الشعور، في الليل، بجسد مغطى بالشعر، متعرق، يركب عليك، ويمتطيك مثل فرس؟ عاد الكابوس للظهور في ذاكرتك، باعثاً فيك الخوف. لن تعودي إلى ذلك، مقابل ذهب العالم كله، يا فلوريتا! في اليوم التالي، أخبرت عمك أنك تريدين العودة إلى فرنسا. وفي الخامس والعشرين من نيسان، أمام ذهول إسكوديرو، كنت تودعين أريكيبا. وتنطلقين إلى إيسلاي، مستغلة قافلة تاجر إنكليزي. وبعد ذلك، إلى ليما، حيث ستركبين، بعد شهرين من ذلك، سفينة تعيدك إلى أوروبا.

اختلاط تلك الصور الأريكيبية، ألهاها عن اللحظات السيئة التي أمضتها مع الشاعر-الخباز جان ريبول. رجعت إلى فندق دوغارد، متمهلة، عبر شوارع مزدحمة بأناس يتكلمون باللغة المحلية التي لا تفهمها. كانت تشعر كما لو أنها في بلاد أجنبية. لقد علمتها هذه الجولة أن اللغة الفرنسية، خلافاً للاعتقاد السائد في باريس، أبعد ما تكون عن كونها لغة جميع الفرنسيين. كانت ترى، في كل ركن، أولئك البهلوانات، السحرة، المهرجين، المتنبئين الكثيرين في هذه المدينة، ككثرة المتسولين الذين يمدون لها أيديهم، عارضين أن يقدموا، مقابل قطعة نقدية، «صلاة يا قديسة مريم، لروح السيدة الطيبة». لقد كان التسول واحداً من بهائمها السوداء: ففي كل الاجتماعات، كانت تحاول تلقين العمال بأن التسول، هذه الممارسة

التي يشجعها ذوو المسوح الكهنوتية، لا يقل إثارة للاشمئزاز من الإحسان؛ فكلاهما يحطان من قيمة المتسول الأخلاقية، ويمنحان البرجوازي، في الوقت نفسه، راحة الضمير كي يواصل استغلال الفقراء، دون إحساس بتأنيب الضمير. لا بد من مكافحة الفقر بتغيير المجتمع، وليس بالصدقات. غير أن الطمأنينة وطيب المزاج لم يستمرا طويلاً، فقد مرت، وهي في طريقها إلى الفندق، بموقع غسل الملابس العام. وهو مكان أخرجها عن طورها، منذ يومها الأول في نيم. كيف يمكن، في عام ١٨٤٤، وفي بلد يعتبر نفسه الأكثر تحضراً في العالم، رؤية مثل ذلك المشهد القاسي، غير الإنساني، دون أن يفعل أحد شيئاً، في مدينة المقدسات والأتقياء هذه، لوضع حد لذلك الظلم.

كان طول المغسل ستين قدماً، وعرضه مئة قدم، ويتغذى من ينبوع ينزل من الصخور. وهو المغسل الوحيد في المدينة. وفيه كانت تعمل في غسل وتنشيف ملابس أهل نيم، حوالي ثلاثمئة أو أربعمئة امرأة. وكان لا بد لهن، بسبب عبثية بناء المغسل، من النزول في الماء حتى خصورهن، من أجل دعك الملابس وفركها بالصابون على المصاطب، وهي مصاطب الغسل الوحيدة في العالم التي بدل أن تكون مائلة باتجاه الماء، كي تتمكن النساء من البقاء مقرفصات على الضفة، كان ميلانها بالاتجاه المعاكس، بحيث لا يمكن للغسالات استخدامها إلا وهن غاطسات في الماء. أي عقل بليد أو شرير وضع المصاطب بهذه الطريقة، حتى تبقى النساء التعيسات متورمات ومشوهات مثل ضفادع، تغطي البثور والبقع جلودهن؟ ولم يكن الخطر في بقائهن، ساعات طويلة، في الماء وحسب؛ وإنما في أن صبّاغي الغزول، وهي الصناعة المحلية، كانوا يستخدمون ذلك الماء أيضاً. فكانت المياه محملة بالصابون، والبوتاس، والصودا، وماء جافيل، والدهون، وبالأصبغة مثل النيلة، والزعفران، والفُوّة. وقد تبادلت فلورا الحديث عدة مرات مع أولئك التعسات اللواتي كن يعانين، بسبب قضاء عشر

ساعات أو اثنتي عشرة ساعة في الماء، من الروماتيزم، والتهابات الرحم، ويشكين من الإجهاض وحالات الحمل العسيرة. لم يكن العمل في المغسل يتوقف أبداً. وكثيرات من الغسالات يفضلن العمل ليلاً، لأنهن يستطعن اختيار أماكن أفضل، لأن قلة من الصبّاغين يأتون في ذلك الوقت. وعلى الرغم من وضعهن المأساوي، ومن توضيحها لهن أنها تعمل من أجل تحسين مصيرهن، إلا أنها لم تتوصل إلى إقناع غسالة واحدة، بحضور الاجتماعات عن **الاتحاد العمالي**. لقد لاحظت أنهن مترددات، فضلاً عن استسلامهن لقدرهن. وفي أحد لقاءاتها مع الدكتورين بليندو ودوكاستلناو، أتت على ذكر الغسالات. فاستغربا اعتبار فلورا ظروف عملهن غير إنسانية. ألا تعمل الغسالات هكذا، في بقية أنحاء العالم؟ ولم يريا في ذلك، سبباً للاستنكار. ومنذ أن اكتشفت ظروف عمل غسالات نيم، قررت فلورا، بالطبع، عدم إرسال ملابسها للغسل، ما دامت في هذه المدينة. وكانت تغسلها هي نفسها، في الفندق.

لم يكن فندق دوغارد مثل بنسيون مدام دينول. أليس صحيحاً يا أندلسية؟ ومدام دينول هي مغنية أوبرا باريسية سابقة، مستقرة في ليما، ومتحولة إلى صاحبة نزل، أمضت فيه فلورا شهريها الأخيرين، في أراضي البيرو. كان قد نصحها به القبطان شابريه. وبالفعل، استقبلتها مدام دينول التي كان القبطان قد حدثها عن فلورا، باحترام كبير، وقدمت لها حجرة مريحة جداً، وخدمة ممتازة، بسعر متواضع (كان دون بيو قد قدم إليها، عند الوداع، أربعمئة بيزو، لنفقاتها، فضلاً عن دفع قيمة تذكرة سفرها). وخلال تلك الأسابيع الثمانية، عرّفتها مدام دينول على صفوة المجتمع، ممن يأتون إلى البنسيون للعب الورق، والتسامر. ومن خلالهم، اكتشفت فلورا الاهتمامات الأساسية لأسر ليما الثرية: العبث، والحياة الاجتماعية، وحفلات الرقص، وولائم العشاء والغداء، والنمائم الدنيوية. مدينة مثيرة للفضول، عاصمة البيرو تلك؛ فبالرغم من أنها لا تضم أكثر

من ثمانين ألف نسمة، إلا أنه لا يمكن لها أن تكون أكثر كوزموبوليتية مما هي عليه. ففي شوارعها الضيقة التي تقطعها قنوات، يلقي بها الأهالي القمامة، ويفرغون مباولهم، يتجول بحارة سفن راسية في الكاياو، قادمة من نصف بلدان العالم: سفن إنكليزية، أمريكية، هولندية، فرنسية، ألمانية، آسيوية، بحيث كانت فلورا، حين تخرج لزيارة الأديرة والكنائس الكولونيالية الكثيرة، أو للتمشي في ساحة بلاثا مايور، وهي عادة مقدسة للمتأنقين، تسمع في ما حولها، لغات أكثر مما يُسمع في جادات باريس. وكانت المدينة محاطة ببيارات برتقال، وموز، ونخيل. بيوتها فسيحة، ومن طبقة واحدة. تضم رواقاً مكشوفاً واسعاً للتهوية - فالمطر لا يهطل هنا أبداً - وفناءين اثنين، الأول لأصحاب البيت، والثاني للعبيد. تلك المدينة الصغيرة، ذات المظهر الريفي، بغابات أبراج نواقيسها المنتصبة، في تحد للسماء الرمادية على الدوام، تضم أشد المجتمعات دنيوية، وليونة، وحسية، يمكن لفلورا، تصورها.

بين أصدقاء مدام بينول، وأقربائها هي بالذات (حملت إليهم رسائل من أريكيبا)، أمضت فلورا أيام ذينك الشهرين، مثقلة بالدعوات إلى بيوت فخمة، حيث يعدّون ولائم عشاء فاخرة. وفي الذهاب إلى المسارح، ومصارعات الثيران (في حفلة مصارعة الثيران المقيتة، مزق الثور أحشاء أحد الأحصنة، ونطح مصارعاً)، وإلى مصارعات الديوك، وإلى متنزه المياه الإجباري، حيث تذهب الأسر، مشياً على الأقدام أو في العربات، لاستعراض أنفسهم، أو للتعارف، أو الحب أو النميمة. وإلى سفح آمانكايس، وإلى المواكب الدينية، والقداديس (السيدات يحضرن قداسين أو ثلاثة قداديس، كل يوم أحد)، وإلى حمامات البحر في تشوييّوس. وزارت زنازين محكمة التفتيش، ورأت فيها، أدوات التعذيب الباعثة على القشعريرة التي كانت تُستخدم لانتزاع الاعترافات من المتهمين. تعرفت على الجميع، بدءاً من رئيس الجمهورية، الجنرال أوربيغوسو، وأشد

الجنرالات رواجاً، بعضهم شبان شبه مُرد، مثل سالافيري، لطفاء، ومتوددون، ولكنهم غارقون في جهل عجيب. وتعرفت كذلك على مثقف لامع، الاسقف لونا بيثارّو الذي دعاها إلى إحدى جلسات الكونغرس.

أكثر من أثر فيها، هن نساء مجتمع ليما الراقي العمياوات والصم عن البؤس المحيط بهن، وعن هذه الشوارع المليئة بالمتسولين والهنود الحفاة الذين يبدون، وهم مقرفصون وجامدون، كما لو أنهم ينتظرون الموت، ويُبرزن أمامهم بذخهن وثراءهن، دون أدنى إحساس بالضيق. ولكن، يا للحرية التي يتمتعن بها! لا يمكن تصور ذلك في فرنسا. يرتدين لباس ليما التقليدي، وهو أكثر ما يمكن اختراعه خبثاً وإيحاء، لباس «المغطيات»، المؤلف من رداء، وتنورة ضيقة، وملاءة، تلف، مثل كيس، الكتفين، والذراعين، والرأس، راسمة شكل الجسد بصورة دقيقة، ومغطية ثلاثة أرباع الوجه، تاركة عيناً واحدة مكشوفة. ونساء ليما اللواتي يرتدين - يتنكرن - هذا الزي، يوحين جميعهن بأنهن جميلات وغامضات، ويتحولن في الوقت نفسه، إلى غير مرئيات كذلك. لا يمكن لأحد، التعرف عليهن - بدءاً من أزواجهن، مثلما كانت فلورا تسمعهن يتباهين - فيوحي إليهن ذلك بجرأة منقطعة النظير. كن يخرجن وحيدات إلى الشارع - وإن كانت تتبعهن عبدة عن بعد - وتروقهن مفاجأة المعارف الذين يلتقين بهم في الشارع، أو السخرية منهم بعبارات لاذعة، دون أن يتمكن أولئك من تحديد هويتهن. جميعهن يُدَخِنَّ، ويُرَاهِنَّ بمبالغ كبيرة في القمار، ويتباهين بتغنج دائم، ومتماد أحياناً، مع الرجال. وراحت السيدة دينول تطلعها على الغراميات السرية التي يتورط فيها الأزواج والزوجات، والتي قد تنتهي أحياناً، إذا ما انفجرت الفضيحة، بمبارزة بالسيوف أو المسدسات، على ضفة نهر ريماك الذاوي. وفضلاً عن خروجهن وحيدات، اعتادت سيدات ليما على ركوب الخيول ولبس ملابس الرجال. وكن يعزفن الجيتار، ويغنين ويرقصن، بمن في ذلك،

العجائز منهن، بوقاحة متعجرفة. كانت فلورا تجد نفسها في ضيق، عندما ترى أولئك النساء المتحررات، يفتحن شفاههن بتلذذ، ويطلبن منها، بعيون شرهة، أن تروي لهن «الأشياء الرهيبة التي تفعلها الباريسيات». وكان لنساء ليما، هوى مرضيٌّ بالأحذية اللماعة، ذات الأشكال الجريئة، ومن كل الألوان؛ فهي إحدى الأدوات المهمة في تقنيات إغوائهن. لقد أهدوا إليكِ واحداً من تلك الأحذية، وأهديتِه أنت بدورك، يا فلوريتا، بعد سنوات، إلى أولمبيا، عربون حب.

بعد أربعة أسابيع من وجود فلورا في ليما، ظهر الكولونيل برناردو في بنسيون ديبول. كان ماراً من العاصمة، مرافقاً للماريشالة التي اعتُقلت في أريكيبا، وتنتظر في الكايّاو، السفينة التي ستحملها إلى منفاها في تشيلي، حيث سيحرسها، بالطبع، الضابط الإسباني. كان زوجها، الجنرال غامارّا، قد هرب إلى بوليفيا، بعد أن انتهى تمرده ضد أوربيغوسو - في أريكيبا، بالذات - نهاية قاسية. لقد دخلت الماريشالة وغامارا إلى مدينة أريكيبا التي فتحها لهما، بتلك الطريقة التهريجية، الجنرال سان رومان، بعد أيام قليلة من مغادرة فلورا المدينة. ضاعفت القوات الغامارية من تجاوزاتها ضد الأهالي، مما ألهب مشاعر الشعب الأريكيبي. عندئذ قررت كتيبتان غاماريتان، بقيادة السرجنت ماجور لوباتون، التمرد ضد غامارا، والانضمام إلى أوربيغوسو. استولى المتمردون على مراكز القيادة، مطلقين هتافات التأييد لعدوهم السابق، الرئيس الدستوري. وحين سمع شعب أريكيبا إطلاق النار، أساء فهم ما يحدث. ولأنه كان قد مل الاحتلال، خرج مسلحاً بالأحجار والسكاكين وبنادق الصيد، وانقض على المتمردين، معتقداً أنهم ما زالوا غاماريين. وعندما اكتشف الناس خطأهم، كان الوقت قد فات، إذ إنهم كانوا قد شنقوا السرجنت ماجور لوباتون ومساعديه الرئيسيين. عندئذ، وبهياج جنوني أكبر من السابق، انقضوا على جيش غامارا وسان رومان الحائر مما يحدث، والذي تشتت شمله أمام الهجمة الشعبية. بدّل الجنود ولاءهم، وولوا

الأدبار هاربين. تمكن الجنرال غامارا من الهرب، متنكراً بزي امرأة. وذهب، محاطاً بجماعة مرافقين صغيرة، ليلتجئ في بوليفيا. أما الماريشالة التي كانت الجموع الغاضبة تبحث عنها لتشنقها، فقد قفزت من سطح المنزل الذي تنزل فيه، إلى بيت مجاور، حيث اعتقلتها، بعد ساعات من ذلك، قوات أوربيغوسو النظامية. عندئذ، بادر العم بيو، البارع، وسريع التَّكيُّف دائماً مع الظروف السياسية المستجدة، إلى ترؤّس اللجنة المؤقتة لحكومة أريبيكا التي أعلنت تأييدها لأوربيغوسو، ووضعت المدينة تحت تصرف الرئيس الدستوري. وقد قررت اللجنة نفسها نفي الماريشالة. وصادقت حكومة ليما على القرار.

طلبت فلورا، راجية، من إسكوديرو أن يأخذها للتعرف عليها. وقد التقت بدونيا بانتشا على متن السفينة الإنكليزية **وليم روستون**، التي استُخدمت كسجن لها. ومع أنها كانت مهزومة، وشبه مدمرة (ستموت بعد شهور من ذلك)، فقد كانت رؤية تلك المرأة متوسطة القامة، المربوعة، ذات الشعر المشعث، والعينين القلقتين، والتقاء نظرتها المتكبرة، المتحدية، كافياً لأن تشعر فلورا بقوة شخصيتها.

- أنا هي دونيا بانتشا المتوحشة، القاسية، الرهيبة التي تأكل الأطفال نيّئين - قالت الماريشالة، مازحة، بصوت خشن وجاف. وكانت تلبس بأناقة صارخة، وتضع خواتم في أصابعها، وقرطين من الماس، وعقداً من اللؤلؤ - لقد طلبت مني أسرتي أن ألبس هكذا، في ليما. وكان لا بد لي من إرضائها. غير أنني، في الحقيقة، أشعر براحة أكبر، وأنا أنتعل جزمة، وأرتدي بنطالاً وسترة عسكرية، وأكون على صهوة جواد.

كانتا تتبادلان الحديث على سطح السفينة، بمودة، عندما شحب لون دونيا بانتشا، فجأة. وبدأت يداها، وفمها، وكتفاها بالارتجاف. قلبت عينيها، وبرز من بين شفتيها، زبد أبيض. فكان على إسكوديرو ومرافقيها الآخرين، أن يحملوها إلى قمرتها.

- منذ كارثة أريكيبا، صارت النوبات تأتيها كل يوم - أخبرها إسكوديرو، في تلك الليلة - وكثيراً ما تأتيها عدة نوبات في اليوم. لقد حزنت كثيراً، لأنها لم تستطع التحدث معك، لوقت أطول. وطلبت مني أن أدعوكِ للعودة إلى السفينة، غداً.

عادت فلورا، ووجدت نفسها حيال امرأة محطمة، أمام شبح ذي شفتين فقدتا اللون، وعينين غائرتين، ويدين مرتجفتين. لقد هوت على كاهلها، سنوات عديدة، في ليلة واحدة. بل إنها كانت تجد صعوبة في التكلم.

ولكن، لم تكن هذه هي ذكراها الأخيرة عن ليما. وإنما الزيارة إلى مزرعة لافايّي، أكبر المزارع والأكثر ازدهاراً في المنطقة، على مسافة فرسخين من العاصمة. وقد تحدث إليها صاحبها، السيد لافايّي، الرجل اللطيف، وبالغ الرقة، بفرنسية متقنة. وجال بها على حقول القصب، والطواحين المائية، حيث يُهرس القصب، ومراجل التكرير، حيث يُفصل السكر عن الثفل. وكانت فلورا ترغب، بأي طريقة، في جعله يتكلم عن عبيده. وعند نهاية الزيارة، تطرق السيد لافايّي إلى الموضوع:

- نقص العبيد يودي بنا، نحن المزارعين، إلى الإفلاس - قال شاكياً، وأضاف:- تصوري: لقد كان لدي ألف وخمسمئة عبد، لم يبق منهم الآن، إلا أقل من تسعمئة. إنهم يصابون بالأمراض، ويموتون كالذباب، بسبب قلة نظافتهم، وإهمالهم، وكسلهم، وعاداتهم الهمجية.

وتجرأت فلورا على التلميح، بأنه ربما كانت الحياة البائسة التي يعيشونها، والجهل المتولد عن غياب تام للتعليم، هو ما يفسر سهولة إصابة العبيد بالأمراض.

فرد السيد لافايّي:

- أنت لا تعرفين الزنوج. يتركون أبناءهم يموتون من شدة كسلهم. خمولهم ليس له حدود. حتى إنهم أسوأ من الهنود. ودون سوط، لا يمكن الحصول على شيء منهم.

لم تستطع فلورا كبح نفسها أكثر. وصاحت بأن العبودية ليست سوى انحراف بشري، وجريمة ضد الحضارة. ولا بد أن تُلغى العبودية في البيرو، عاجلاً أو آجلاً، مثلما أُلغيت في فرنسا.

نظر إليها السيد لافايّي مذهولاً، كما لو أنه يكتشف شخصية أخرى، إلى جانبه. وردّ، أخيراً، بانزعاج:

- انظري ما الذي حدث، منذ اعتاق العبيد، في مستعمرة سانتو دومنغو الفرنسية القديمة: فوضى شاملة، وعودة إلى البربرية. الزنوج هناك يأكل بعضهم بعضاً.

ولكي يوضح لها، إلى أي حدود يمكن لأولئك الناس أن يصلوا، اقتادها إلى زنازين المزرعة. وفي زنزانة شبه مظلمة، أرضها مملوءة بالقش - تبدو كما لو أنها وجار حيوان مفترس - أراها زنجيتين شابتين، عاريتين تماماً، ومقيدتين إلى الجدار. وقال لها بلهجة ظافرة:

- لماذا تظنين أنهما هنا؟ هاتان المسخان الفظيعتان قتلتا ابنتيهما حديثتي الولادة.

فردت فلورا:

- إنني أتفهم تصرفهما جيداً. ولو كنتُ مكانهما، لقدمتُ الجميل نفسه، لابنتي. بتحريرها، ولو بالموت، من جحيم حياة العبودية.

هل بدأتِ هناك، يا فلوريتا، في مزرعة القصب تلك، في ضواحي ليما، أمام ذلك السيد البيروي المتفرنس، ذلك النخاس والإقطاعي، مسيرتكِ كمحرضة ومتمردة؟ على أي حال، لولا تلك الرحلة إلى البيرو النائية، ولولا التجارب التي عشتها هناك، لما كنتِ ما أنتِ عليه الآن. وما هو ما أنتِ عليه الآن، أيتها الأندلسية؟ امرأة حرة، أجل. ولكنكِ ثورية فاشية على طول الخط. على الأقل هنا، في نيم، مدينة ذوي المسوح هذه التي تعبق بالبخور. لأنك في السابع عشر من آب، يوم مغادرتكِ إلى مونبليه، عندما قمت بجردة حساب لعملك في نيم، ما كان للنتيجة أن تكون أشد بؤساً. بيع ستين نسخة فقط من

الاتحاد العمالي. والمئة نسخة الأخرى التي جاءت بها، اضطرت إلى تركها لدى الدكتور بليندو. ولم تتمكن من تشكيل لجنة. لم يتحمس أي عامل، ممن حضروا الاجتماعات الأربعة، للعمل في **الاتحاد العمالي**. ولم يذهب أحد، بالطبع، لوداعها في المحطة، صباح يوم سفرها.

ولكن، بعد أيام من ذلك، وكانت قد صارت في مونبليه، عرفت من رسالة مذعورة، أرسلها إليها مدير فندق دوغار، أن هناك، من اهتم بها، في نهاية المطاف، هناك في نيم. وإن يكن ذلك، لحسن الحظ، بعد مغادرتها. فقد حضر إلى الفندق، مفوض الشرطة المحلي، يرافقه دركيان، ومعهم قرار موقّع من عمدة نيم، يأمر بطردها فوراً، من المدينة، «لأنها تحرض عمال نيم على طلب زيادة أجورهم».

جعلها الخبر تنفجر في قهقهة مدوية، وتشعر طوال اليوم، بالانشراح. ما هذا، ما هذا! لستِ ثورية **بالغة** السوء إذن، يا فلوريتا.

XVI. بيت المتعة

أتونا (هيفا وا)، تموز ١٩٠٢

عندما أنزلت السفينة «**صليب الجنوب**» مرساتها قبالة أتونا، في جزيرة هيفا وا، في فجر السادس عشر من أيلول ١٩٠١، ورأى بول، من جسر السفينة، الجماعة الصغيرة التي تنتظرهم في المرفأ - دركي بزي أبيض، ومبشرون بمسوح طويلة سابغة وقبعات من القش، وسرب من الأطفال الوطنيين شبه العراة -، أحس بسعادة كبيرة لأنه حقق، أخيراً، حلمه في الوصول إلى جزر المركيزات، ولأن الرحلة الرهيبة تنتهي هنا، بعد ستة أيام وست ليال منذ مغادرته تاهيتي، في هذه السفينة القذرة والخانقة، حيث لم يكد يغمض عينيه، إذ أمضى الساعات في قتل النمل والصراصير، وإبعاد الجرذان التي تأتي لتطوف في القمرة، بحثاً عن طعام.

ما إن نزل من السفينة، في الموقع الصغير الذي كانته أتونا - مستوطنة تضم نحو ألف شخص، محاطة بهضاب غابية، وجبلين وعرين مكللين بالخضرة - حتى تعرف في المرسى نفسه، على أمير، لا أقل! إنه الأنامي كي دونغ. وهذا لقب نضالي اتخذه، هناك في موطنه، فيتنام، عندما قرر التخلي عن منصبه، في الإدارة الاستعمارية الفرنسية، كي يتفرغ للتحريض السياسي، والنضال المناهض للمستعمرين، والإرهاب أيضاً، على ما يبدو. وهذا هو على الأقل، ما أفتت به محكمة سايغون التي حاكمته، بتهمة التمرد. وحكمت عليه بالسجن المؤبد، في جزيرة الشيطان، في غوايانا النائية. كان الأمير نيغوين فان كام، قبل أن يعمد نفسه باسم كي دونغ، قد درس الأدب والعلوم، في سايغون وفي الجزائر. ورجع من هناك إلى فيتنام، حيث بدأ حياة عملية عظيمة، في الوظائف

الإدارية، ثم هجرها ليناضل ضد الاحتلال الفرنسي. كيف انتهى به المطاف، إلى أتونا؟ بفضل البهيمة السوداء «**الزنابير**»، تعرف الحاكم السابق غوستاف غاليه، على الأنامي، عندما توقفت، في بابيتي، السفينة التي كانت تنقله، لقضاء عقوبته في جزيرة الشيطان. وقد أُعجب الحاكم بثقافة كي دونغ وذكائه، وبأساليبه المهذبة، فأنقذ حياته: عينه ممرضاً في مركز أتونا الصحي. حدث ذلك قبل ثلاث سنوات. وكان الأنامي يتقبل قدره بفلسفة شرقية. فهو يعرف أنه لن يخرج من هناك، إلا من أجل اقتياده إلى جحيم غوايانا. وقد تزوج بواحدة من بنات جزر الماركيزات، من جزيرة هيفا وا. وكان يتكلم لغة الماووري بطلاقة، ويقيم علاقات طيبة مع الجميع. إنه ضئيل، متكتم، وفيه أناقة طبيعية، على شيء من الفخامة، يؤدي واجباته كممرض على أكمل وجه. ويحاول بكل الطرق، في ذلك الوسط من الناس الجهلة، الحفاظ على همومه الثقافية وحساسيته.

كان يعلم أن القادم الجديد من بابيتي هو فنان، فعرض عليه فوراً مساعدته، وتعريف المسيو غوغان على المكان الذي قرر أن يُدفن فيه. وهذا هو ما فعله. كانت صداقته ونصائحه لا تقدر بالنسبة إلى بول. فقد أخذه من المرفأ، إلى نهاية الشارع الترابي الوحيد الذي تطغى عليه الآجام، ويشكل «أتونا»، كي يقيم هناك، في كوخ صديقه متيكانا، الصيني-الماووري الذي يوفر بنسيوناً للقادمين. واحتفظ له بصناديق كوكي وحقائبه في بيته، ريثما يشتري هذا قطعة أرض، يقيم عليها مسكنه الخاص. وقدمه إلى من سيكونون، منذ ذلك الحين، أصدقاءه في أتونا: الأمريكي بن فارني، صياد الحيتان السابق الذي بقي، بسبب سكرة قوية، عالقاً في جزيرة هيفا وا، حيث يدير المتجر. والبريتاني إميل فربول، المزارع، والتاجر، والصياد، ولاعب الشطرنج العنيد.

شراء عقار في ذلك المكان الضيق المحاط بالغابات، كان أمراً بالغ الصعوبة. فكل أراضي الدائرة هي ملك للأسقفية، وكان الأسقف

الرهيب جوزيف مارتين، المتسلط والعنيد، يخوض صراعاً مكشوفاً، لإنقاذ السكان الأصليين، من آفة الكحول التي تفكك مجتمعهم. ولا يمكن له أن يبيع قطعة أرض، لغريب قليل الفضيلة.

وعملاً بالاستراتيجية التي وضعها كي دونغ - وكانت قراءاته، وطيب مزاجه، ولباقته الروحية، تجعله يقضي أوقاتاً رائعة - صار بول، منذ اليوم التالي لوصوله إلى أتونا، كاثوليكياً مواظباً على القداس اليومي؛ فكان يُرى في الكنيسة، في أول صف من المصلين، يتابع القداس بورع، ويعترف، ويشارك في المناولة بكثرة. ويحضر كذلك، في بعض الأمسيات، صلاة المساء. وقد أقنعت تقواه وحسن سلوكه الأسقف، في تلك الأيام الأولى في هيفا وا، بأنه شخص محترم. فوافق المنسنيور جوزيف مارتين، في لفتة سيندم عليها بمرارة، في ما بعد، على أن يبيعه، بمبلغ متواضع، عقاراً بديعاً في محيط أتونا. يطل من الخلف على خليج الخونة، وهو اسم يمقته الماركيزيون، لكنهم ما زالوا يستخدمونه لتمييز الشاطئ والمرسى. وقبالته القمتان الشامختان لجبلي تيميتيو وفياني، وإلى جانبه يجري جدول ماك-ماك، أحد العشرين جدولاً التي تتفرع إليها شلالات الجزيرة. منذ أن رأى بول ذلك المشهد المهيب، أول مرة، خطر لذهنه فينسنت. رباه، هذا هو يا كوكي، هذا هو. إنه المكان الذي حلم به الهولندي المجنون، هناك في آرل. المكان البدائي، التروبيكالي الذي كان دائم الحديث عنه، في ذلك الخريف الذي تقاسمتماه، سنة ١٨٨٨، حيث يريد أن يقيم **مرسم الجنوب**، جماعة الفنانين تلك التي ستكون معلمها، وحيث كل شيء ينتمي إلى الجميع، لأن النقود المفسدة ستلغى فيه. مكان تعيش فيه جماعة الفنانين المتآخين، ضمن إطار وحيد من الحرية والجمال، متفرغة لإبداع فن خالد، لوحات ومنحوتات تتجاوز فضائلها وحيويتها القرون دون تأثر. أي صرخات حماسة ستطلق يا فينسنت، لو أنك ترى هذا الضوء الأشد

بياضاً من ضوء بروفانس، وهذا الاندفاع للجهنمية، والسرخس، والأكاسيا، وجوز الهند، والعرائش، وأشجار الخبز التي يراها كوكي بانبهار!

ما إن وقّع عقد الشراء مع الأسقف، وصار مالكاً للعقار، حتى نسي بول القداسات والصلوات. وفي صراعه ضد التوعكات الصحية المتزايدة – آلام الساقين والظهر، صعوبات المشي، ضعف بصر يتفاقم يومياً، وخفقان يقطع أنفاسه –، انهمك جسداً وروحاً في بناء *La Maison du Jouir*، (**بيت المتعة**)، وهي التسمية التي عمّد بها، في تخيلاته، هو والهولندي المجنون، قبل خمس عشرة سنة، هناك في آرل، **مرسم الجنوب** المتخيل. وكان يساعده في العمل، كتفاً إلى كتف، كي دونغ، وإميل فربول، ووطني له لحية بيضاء يدعى تيوكا، سيصبح منذ ذلك الحين جاره، وحتى دركي الجزيرة، ديزريه شاربيه الذي تفاهم كوكي معه تماماً.

انتهى بناء **بيت المتعة** خلال ستة أسابيع. كان من الخشب، والحصائر والقش المجدول، وكان مثل بيتيه في باتايّا وبوناويا، مؤلفاً من طابقين. في الأسفل، حجرتان متقابلتان يفصل بينهما حيز مكشوف، يستخدم كغرفة طعام، وتشكلان المطبخ ومشغل الحفر. وفي الأعلى، تحت سقف مخروطي من القش، يوجد محترف الرسم، وغرفة النوم الصغيرة، والحمام. حفر بول لوحة خشبية للمدخل بعنوان *La Maison du Jouir* (**بيت المتعة**)، ولوحتين عموديتين طويلتين، على جانبي لوحة الإعلان، عليهما رسم امرأتين عاريتين، في وضع شهواني، وبعض الحيوانات والنباتات بأسلوبه، ودعوات أحدثت بلبلة في البعثتين التبشيريتين في هيفا وا، الكاثوليكية (وهي الأكثر عدداً) والبروتستانتية الصغيرة، على السواء، وكانت تلك الدعوات تقول: *Soyez mystérieuses* (عليكن أن تكن غامضات) و *Soyes amoureuses et vous sersz hereuses* (أحببن تنلن السعادة). ومنذ أن علم الأسقف جوزيف مارتين، بأنه قد تجرأ على تزيين مسكنه بتلك

البذاءات، تحول إلى عدو له. وعندما علم أنه يعرض على جدران مرسمه، فضلاً عن الأرغن الصغير، والجيتار، والمندولين، خمساً وأربعين صورة بورنوغرافية، بأوضاع جنسية غير معقولة، هاجمه في إحدى مواعظه الأحدية، باعتباره حضوراً خبيثاً، يتوجب على الماركيزيين أن يتجنبوه.

كان بول يضحك من نوبات الأسقف العصبية، لكن الأنامي حذره، من أنه يمكن لعداء الأسقف مارتين، أن يجلب له المشاكل، لأنه حقود، إضافة إلى أنه دؤوب ومتنفذ. كانا يلتقيان كل مساء في **بيت المتعة** الذي زوده كوكي، على أحسن وجه، بالمأكولات والمشروبات المشتراة من المتجر الوحيد في أتونا، متجر بن فارني. وتعاقد مع خادمين: كاهوي، الطاهي نصف الصيني، وبستاني ماووري يدعى ماتاهابا، وجه إليه تعليمات دقيقة، من أجل أقلمة عباد الشمس هنا، مثلما فعل هو، في بوناويا. وقد انتهى الأمر إلى إضاءة حديقته، في **بيت المتعة**، بزهور عباد الشمس. كانت ذكرى الهولندي المجنون تكاد لا تفارقكَ، لحظة واحدة، خلال شهوركَ الأولى في أتونا، لماذا يا كوكي؟ لقد توصلتَ إلى اجتثاثه من ذاكرتك، على امتداد ما يقرب من خمس عشرة سنة؛ وكان ذلك جيداً، دون ريب، لأن ذكرى فينسنت تسبب لك القلق، وتبعث فيك الغم، ويمكن لها أن تفسد عملك. أما هنا، في الماركيزات، فلأنكَ قلما ترسم، أو لأنك تشعر بالتعب والمرض، لم تعد تستطيع منع صورة فينسنت الطيب، فينسنت المسكين، فينسنت الذي لا يطاق، بتملقه وجنونه، من السيطرة على وعيك طوال الوقت. وأن تستعيد أحداث، وقصص، ونقاشات، وتلهفات، وأحلام، تلك الأسابيع الثمانية من التعايش الشاق، هناك في بروفانس، قبل خمس عشرة سنة. تستعيد تذكرها بوضوح، لا تستطيع أن تتذكر به أحداثاً جرت قبل أيام، ونسيتها تماماً (مثلما جعلت بن فارني يكرر قصته عليك مرتين، خلال الأسبوع نفسه، وكيف أنه استيقظ على شاطئ الخونة، بعد ليلة من

السكر، ليكتشف أن سفينة صيد الحيتان التي يعمل فيها، قد غادرت، وأنه ظل عالقاً هنا، دون أن يكون معه سنتيم واحد، أو أي وثيقة، ودون أن يعرف كلمة واحدة، من الفرنسية أو الماركيزية.)

إنكَ تشفق الآن، على الهولندي المجنون، حتى إنك تتذكره بحنان. أما في شهر تشرين الأول ذاك، من عام ١٨٨٨، عندما استجبتَ لحثه لك، ولضغوط ثيو فان جوخ، كي تسمع نداءات أخيه، وتذهب للعيش معه في آرل، فقد وصل بكَ الأمر إلى كرهه. يا للمسكين فينسنت! لقد بنى أوهاماً كثيرة على مجيئك إليه؛ بفكرة أنكما، أنت وهو، ستكونان رائدي جماعة الفنانين تلك - دير حقيقي في جنة عدن مصغرة - التي كان يتخيلها. وقد أودى إخفاق مشروعه بسلامته، وأودى به إلى الجنون، وقتل نفسه.

بين الرحلات الكابوسية التي قام بها بول، في حياته، تحتل مكاناً بارزاً تلك الرحلة، من خمس عشرة ساعة، وتبديل ستة قطارات، التي تطلبها منه الانتقال من بون آفين في بريتاني، إلى آرل في بروفانس. غادر بون آفين محزوناً. فقد خلّف فيها عدداً من الرسامين الأصدقاء الذين يعتبرونه معلمهم، خاصة إميل برنار وأخته مادلين العذبة. وصل إلى محطة آرل منهوكاً، في الساعة الخامسة، من فجر الثالث والعشرين من تشرين الأول ١٨٨٨. وكيلا يوقظ فينسنت في تلك الساعة المبكرة، التجأ إلى مقهى صغير مجاور. وكانت المفاجأة أن صاحب المحل، تعرف عليه فور دخوله: «آه، أنت الفنان صديق فينسنت!». كان الهولندي المجنون قد أراه الصورة الذاتية التي رسمها بول، وأرسلها إليه، وجَسّد فيها نفسه، في هيئة جان فالجان، بطل رواية *البؤساء*. ساعده صاحب المقهى في حمل الحقائب والحزم، وقاده إلى ساحة لامارتين، خارج أسوار المدينة، عند بوابة الفرسان، وهي أحد مداخل المدينة القديمة، ليس بعيداً عن المدرج الروماني. في أحد أركان ساحة لامارتين، أقربها

إلى الرون، كان يقوم **البيت الأصفر** الذي استأجره الهولندي، قبل شهور، لاستقباله فيه. وكان قد طلاه، وأثثه، وزينه، وملأ جدرانه بلوحات، وهو يعمل ليلاً ونهاراً، بتعصب حقيقي، متابعاً كل التفاصيل؛ كي يشعر بول بالراحة، وبالحماسة للرسم في منزله الجديد.

ولكنكَ لم تشعر بأنك على ما يرام، في **البيت الأصفر** يا بول. بل الأصح، أنكَ شعرت بالضيق من تدفق تلك الألوان المبهرة، والباعثة على الدوار، والتي تقفز بعدوانية للقائك، أينما نقلت بصرك. وتضايقتِ أيضاً، من الإفراط في المجاملة والتملق الذي استقبلك به فينسنت، وراح يعرض به عليك، متلهفاً لمعرفة إذا ما كان يرضيك، ترتيبه للبيت الأصفر، لكي يسبب لك انطباعاً طيباً. الحقيقة أنه أيقظ فيك مشاعر الريبة، وشيئاً من الغم. لقد كان فينسنت ذاك، مفرطاً جداً في مشاعره ولطفه؛ حتى إنك بدأت تشعر، منذ ذلك اليوم الأول، بأنك ستجد حريتك مجتزأة مع شخص كهذا، ولن تكون لك حياتك الخاصة. وأن فينسنت سيسلبك حميميتك، وسيكون سجاناً متودداً. يمكن لهذا **البيت الأصفر**، أن يتحول إلى سجن، بالنسبة لرجل محب للحرية، مثلك.

ولكن تذكّر الهولندي المجنون الآن، عن بعد، وأنت في **بيت المتعة** هذا، ذي الأفق المهيب؛ تذكّر ذلك الهائج، الطفولي، المتعلق بكَ كتعلق المريض بالطبيب الذي سينقذ حياته، يكشف لك بصورة خاصة، عن جانبه ككائن بائس وطيب، ذي سخاء غير متناه، بلا حسد، ولا أحقاد، ولا مزاعم، منكب على الفن، جسداً وروحاً، يعيش كمتسول، دون أن يهتم بذلك أدنى اهتمام؛ بالغ الحساسية، مهووس، ملقح ضد كافة أشكال السعادة. لقد تشبث بك مثلما يتشبث غريق بقطعة خشب. اعتقدَ أنك حكيم وقوي، يمكن لك أن تساعده على العيش في هذه الغابة. كل هذه المسؤولية الضخمة ألقاها على كاهلك يا

بول! فينسنت الذي يفهم في الفن، في الألوان، في اللوحات، ولا يفهم شيئاً على الإطلاق في الحياة. ولهذا كان تعيساً على الدوام، ولهذا أصابه الجنون، وانتهى به الأمر إلى إطلاق رصاصة على بطنه، وهو في السابعة والثلاثين. يا للجور في أن أولئك الغربان المبتذلين، أولئك الباريسيين الكسالى، يحمّلونك الآن جريرة مأساة فينسنت! في الوقت الذي كنت فيه أنت، أنت نفسك، خلال شهري تعايشكما في آرل، على وشك أن تصاب بالجنون، بل على وشك أن تفقد حياتك كذلك، على يد الهولندي.

منذ البدء، سار كل شيء بصورة بالغة السوء، في **البيت الأصفر**، بدءاً من الفوضى التي يمقتها بول، بينما هي العنصر الطبيعي الذي يتحرك فيه فينسنت. قاما بتوزيع صارم للعمل: بول يطبخ، والهولندي مسؤول عن المشتريات، وكلاهما يتوليان التنظيف، أحدهما يوماً، والآخر في اليوم التالي. الحقيقة أن بول كان ينظف، وفينسنت يوسخ. وكان أول أسباب الخلاف، هو سلة النفقات. ففي تجربة لتلك الملكية الجماعية، التي ستسود جماعة الفنانين المستقبليّة، في **مرسم الجنوب** الذي سيقيمانه، في بلاد إكزوتيكية، أسسا صندوقاً مشتركاً، أودعا فيه النقود التي يرسلها إليهما، من باريس، ثيو فان جوخ. ووضعا دفتراً صغيراً وقلم رصاص، كي يسجل كل منهما المبلغ الذي يسحبه. وانتهى الأمر ببول إلى الاعتراض، لأن فينسنت كان يأخذ حصة الأسد، لا سيما في النفقات التي يدونها، بتسمية ملطفة، على أنها «نشاطات صحية»، ويعني بها مضاجعاته لراشيل، وهي مومس شابة ونحيلة، اعتاد مضاجعتها في ماخور مدام فيرجيني، غير البعيد عن **البيت الأصفر**، في أحد الأزقة المتفرعة عن ساحة لامارتين.

الحي الأحمر في آرل، كان سبباً آخر من أسباب الجدال بينهما. فبول يؤنب فينسنت الذي لا يمارس الحب إلا مع المومسات. بينما يفضل هو، بالمقابل، إغواء النساء بدل أن يدفع لهن. وهو أمر تبين

له، فوق ذلك، أنه سهل جداً مع نساء آرل اللواتي تفتنهن مهابته، وطلاقة لسانه، وحيوية كلامه. أكد فينسنت أنه، قبل مجيء بول، كان يذهب مرتين في الشهر إلى ماخور مدام فيرجيني. أما الآن، بالمقابل، فيذهب مرتين في الأسبوع. وهذا الاحتدام الجنسي المستجد، يسبب له الغم. فقد كان واثقاً من أن الطاقة التي يفقدها في «الزنى» (كان يستخدم هذه الكلمة، كواعظ لوثري سابق)، تُقتطع من عمله كفنان. فكان بول يسخر من أحكام القس السابق المتزمتة. لأنه هو، بالمقابل، ليس هناك ما يدفعه إلى إمساك الفرشاة، أكثر من إشباع عضوه.

فيغتاظ الهولندي المجنون:

- لا، لا. أفضل لوحاتي رسمتها، في فترات الامتناع الجنسي المطلق. رسومي المنوية! الرسم بكل تلك الطاقة الجنسية التي سكبتها في اللوحات، بدل سكبها في النساء

- هذه حماقة يا فينسنت. أو ربما تكون لديّ طاقة جنسية فائضة، تكفي لرسومي ونسائي.

كانت الاختلافات بينكما أكثر من التوافقات، ومع ذلك، عندما كنتَ تسمعه أحياناً، يتكلم بكل تلك السذاجة والوهم، عن جماعة الفنانين-الرهبان، المعزولين عن العالم، والملتجئين إلى بلاد نائية وبدائية، دون روابط بالحضارة المادية، مستسلمين - جسداً وروحاً - للرسم، وغارقين في أخوة بلا ظلال. تسمح لنفسك بالانقياد لأحلام صديقك. لقد كان ذلك مؤثراً، بالطبع! فهناك شيء جميل، نبيل، نزيه، كريم، في لهفة الهولندي تلك لتأسيس مجتمع الفنانين الأنقياء الصغير ذاك، مجتمع مبدعين، حالمين، قديسين علمانيين، يكرسون أنفسهم للفن، مثلما كان فرسان العصور الوسطى، يكرسون أنفسهم، للنضال في سبيل مثل أعلى، أو سيدة. حلم ربما يكون مختلفاً جداً عن ذاك الذي أثار حماسة جدتك، عندما جابت أرجاء فرنسا، وهي

نصف ميتة، في محاولة لتجنيد أنصار لتلك الثورة التي ستقضي على علل البشرية وشرورها. كان يمكن للجدة فلورا والهولندي المجنون، أن يتفاهما جيداً، يا كوكي.

لقد كانت هناك خلافات بينهما، حتى بشأن **مرسم الجنوب**. ففي إحدى الليالي، بينما هما على مقهى الرصيف في ساحة فوروم، حيث اعتادا تناول الأفسنتين، بعد العشاء، اقترح فينسنت على بول أن يدعوا الرسام سورا، للانضمام إلى جماعة الفنانين. فصرخ بول: «أتعني ذلك التنقيطي الذي يدعي أنه مبدع؟ غير ممكن على الإطلاق». واقترح عليه، بالمقابل، استبعاد الفنان التنقيطي، ليأتي بدلاً منه، بوفيس دي شافان الذي يكرهه فينسنت، بقدر كراهية بول لسورا. وقد استمر جدالهما، حتى الفجر. أنتَ تنسى الخلافات بسرعة يا بول؛ أما فينسنت، فلا. ظل شاحباً، مغموماً، يجتر المسالة عدة أيام. لم يكن هناك، في نظر الهولندي، ما هو تافه أو مبتذل؛ فكل شيء يلامس، في رأيه، مركزاً عصبياً في الوجود... واحدة من المسائل الكبرى: الرب، الحياة، الموت، الجنون، الفن.

إذا كان هناك ما تشكر عليه الهولندي المجنون، فهو أنه من فتح شهيتكَ، أول مرة، إلى بولينيزيا، بفضل رواية صغيرة وقعت بين يديه، وفتنته، بعنوان: *رارهو، أو زواج لوتي*، لضابط من البحرية التجارية الفرنسية، يدعى بيير لوتي. الأحداث تجري في تاهيتي، وتكشف عن فردوس أرضي قبل سقوطه. طبيعة جميلة وخصيبة، أناس أحرار، أصحاء، بلا أحكام مسبقة، ولا خبث، يستسلمون للحياة واللذة، بتلقائية، بعفوية، أناس مفعمون بالحماسة والقوة البدائية. يا لمفارقات الحياة، أليس كذلك يا كوكي؟ لقد كان فينسنت، هو من يحلم بالهرب، من أوروبا المنحدرة، أوروبا المال، إلى عالم إكزوتيكي، بحثاً عن تلك القوة البدائية والدينية التي استطاعت الإفلات من السجن الأوروبي. وكنتَ أنتَ بالمقابل، من جاء إلى تاهيتي، بل إنكَ

وصلت الآن، إلى جزر الماركيزات، محاولاً أن تحول إلى واقع، ما كان الهولندي المجنون قد حلم به.

- لقد أرضيتُكَ، حققتُ حلمك يا فينسنت - صرخ بصوت خارج من حلقه -. ها هو ذا **بيت المتعة**، بيت الملذات، البيت الذي طالما أزعجتني بالحديث عنه، ونحن في آرل. وهو ليس كما تصورتَهُ، أنت ترى هذا، أليس كذلك يا فينسنت؟

لم يكن هناك أحد حولكَ، ولا يمكن لأحد أن يرد عليكَ. ليس هناك سوى الهر والكلب اللذين ضممتهما إلى البيت الذي انتهيت، للتو، من بنائه، في أتونا، ينظران إليك باهتمام، كما لو أنهما يفهمان هذه الزمجرات التي تطلقها، في الفراغ؛ وتبعث الخوف دون شك، في الديوك، والقطط، والخيول البرية التي تغص بها غابات هيفا وا.

كانا يتحدثان، وهما في آرل، ويتجادلان بكثرة عن الدين أيضاً. كم هي مختلفة التَربية البروتستانتية، المتزمتة، تلك التي تلقاها فينسنت، عن التربية الكاثوليكية التي ربوكَ عليها، خلال عشر سنوات، من ١٨٥٤ حتى ١٨٦٤، في مدرسة شابيل سان ميسما الدينية الصغيرة، بالقرب من أورليان، تحت الإرشاد الروحي للأسقف دوبنلوب. أيهما أفضل لمواجهة الحياة، يا كوكي؟ تربية فينسنت كانت أشد زخماً، وأكثر تقشفاً، وصرامة. كانت أكثر برودة، أكثر نزاهة، وأكثر ملاءمة لطبيعة الإنسان الفاسدة، وأكثر ترفاً وإبداعاً من الوجهة الثقافية والفنية، وربما هي أكثر إنسانية، أكثر قرباً إلى الواقع، إلى الحياة المحتملة. أتتذكر تلك الليلة الماطرة العاصفة، وأنتما محتجزان في **البيت الأصفر**، حين راح الهولندي المجنون يتكلم عن المسيح كفنان؟ أنتَ لم تقاطعه مرة واحدة، يا بول. قال فينسنت إن المسيح هو أعظم الفنانين، ولكنه ازدرى الرخام، والصلصال، والألوان، وفضّل إنجاز أعماله، في لحم الكائنات البشرية الحي. لم يصنع تماثيل، ولا لوحات، ولا قصائد. بل صنع كائنات خالدة، أبدع الوسائل التي يمكن للرجال والنساء، بفضلها، أن

يجعلوا من حياتهم عملاً فنياً متقن الكمال والجمال. لقد تحدث فينسنت طويلاً، وكان يشرب في أثناء ذلك، رشفات قصيرة من الأفسنتين. ويقول، أحياناً، بعض الأشياء التي لم تتمكن من حلّ رموزها. ولكنك فهمتَ، ولم تنس قط، ذاك الذي سمعت فينسنت يقوله، عند الفجر، مزمجراً، وبعينين مغرورقتين بالدموع:

- أريد لرسومي أن تنعش الكائنات البشرية روحياً يا بول. مثلما تنعشهم كلمة يسوع. «الهالة» توحي بما هو خالد، في الرسم الكلاسيكي. هذه «الهالة»، هي ما أحاول الآن، أن أستبدله بإشعاع ونبض اللون، في رسومي.

منذ ذلك الحين، يا بول، وعلى الرغم من أنكَ لم تتحمس كثيراً، لمشهد الأضواء المبهرة ذاك، وتلك النيران الاصطناعية التي تشكلها لوحات فينسنت، فإنكَ صرت تنظر إلى تلك الألوان المفرطة في جموحها، والعنيفة، بتقدير أكثر من السابق. لقد كانت لدى الهولندي المجنون ميول استشهادية، تبعث فيكَ القشعريرة، أحياناً.

وبالرغم من عدم شعوره بأنه على ما يرام، إلا أن استقراره في أتونا، وبناء بيت المتعة، والتقاءه بأصدقاء جدد، بعث الحماسة في كوكي. لقد كان سعيداً. خلال الأسابيع الأولى، من إقامته الجديدة، وممتلئاً بالمشاريع. ومع ذلك، راح يدرك شيئاً فشيئاً، ومكرهاً، بأن جزر الماركيزات، وإن كانت فردوساً، ذات يوم، إلا أنها لم تعد كذلك. مثل تاهيتي. النساء الماركيزيات باهرات الجمال، هذا صحيح، بل إنهن أجمل من التاهيتيات؛ أو هكذا كن يبدون له، على الأقل. لأن كي دونغ، والدركي ديزريه شاربييه وإميل فريول، وجاره تيوكا كانوا يقولون له، ضاحكين، إن ضعف بصره يخدعه، لأن كثيرات من أولئك الماركيزيات المتهورات اللواتي يذهبن إلى بيت المتعة، ليريهن صورة البورنوغرافية - فقد صارت مجموعته مشهورة، في هيفا وا بأسرها - واللواتي كان يصورهن، ويداعبهن بوقاحة أمام أزواجهن، لسن شابات جذابات دوماً، مثلما يعتقد، وإنما عجائز قبيحات؛ وجوه

بعضهن وأجسادهن، تحمل آثار داء الفيال، والجذام، والسفلس التي تعيث خراباً بين السكان الأصليين. ياه، لا يهمكَ ذلك. فما لا تراه العين، لا يحزن له القلب. صحيح أن عينيك المسكينتين تريان أقل فاقل. ولكن، ألم تؤكد أنتَ نفسكَ، منذ زمن بعيد، أن الفنان الحقيقي، لا يبحث عن موديلاته، في العالم الخارجي، وإنما في الذاكرة، هذا العالم الخاص والسري الذي يمكن تأمله بالوعي، وهو ما يتوفر لك، في حالة أفضل من حالة حدقتيكَ؟ إنها لحظة التأكد من صلاحية نظريتك تلك، يا كوكي.

لقد كان ذلك سبب مجادلات عنيفة مع فينسنت، هناك في آرل. كان الهولندي المجنون يعلن أنه رسام واقعي، ويقول إن على الفنان أن يخرج إلى الهواء الطلق، وينصب حمالة لوحاته وسط الطبيعة، كي يجد الإلهام فيها. ومن أجل أن تمضي الأمور بسلام، سايره بول خلال أسابيعه الأولى في بروفانس. فذهب الصديقان بمنصبيهما، ومزاجتيهما، وألوانهما ليستقرا صباحاً ومساء، في لِزالسكام، المقبرة الرومانية والمسيحية القديمة الضخمة في آرل، ورسم كل منهما عدة لوحات للدرب الطويل، المحفوف بالقبور والنواويس، والمحروس بأشجار حور هفهافة، والذي يؤدي إلى كنيسة سان هونوراتو. ولكن، بعد وقت غير طويل، صار من المستحيل عليهما، بسبب الأمطار وهبات ريح الشمال، الرسم في الهواء الطلق؛ فاضطرا إلى البقاء في **البيت الأصفر**، ليعملا، مثلما يريد بول، باحثين عن الموضوعات في ذكرياتهما وتخيلاتهما، بدلاً من البحث عنها في العالم الطبيعي.

ما آلمك أكثر من أي شيء آخر، هو اضطرارك إلى تقبل أنه لم يبق، في هذه الجزيرة، على الأقل، من جزر الماركيزات، أي أثر لأكل اللحم البشري. وهي ممارسة لا تبدو لك متوحشة ومستنكرة - كان أصدقاؤك الجدد يحكون رؤوسهم، مرعوبين، وهم يسمعونك -، وإنما رجولية، طبيعية، وإشارة إلى ثقافة متوثبة، فتية، خلاقة، في إعادة خلق دائم لذاتها، وغير ملوثة بالتقاليدية والانحدار. لم يكن

هناك، في أتونا، من يصدق أن الماركيزيين ما زالوا يأكلون اللحم البشري، سواء هنا أو في الجزر الأخرى؛ لا شك في أنهم فعلوا ذلك في ماض سحيق، أما الآن، فلا. أكد له ذلك جاره تيوكا، وأصر عليه من سألهم من الوطنيين، ومنهم زوجان من جزيرة تاهواتا، حيث يوجد الكثير من ذوي الشعر الأحمر. وقد كانت منهم امرأة هابواني - ويلقبونه الساحر -، المدعوة توهوتاما. فشعرها الطويل الذي يغطي ظهرها حتى الخصر، يشع في ساعات الشمس القوية، انعكاسات وردية. وقد تحولت توهوتاما إلى موديله المفضل في أتونا، أكثر مما كانت عليه فايوهو، الصبية ذات الأربعة عشر عاما - سن غرامياتك المفضلة، يا كوكي - امرأته منذ الشهر الثالث في هيفا وا.

الحصول على فايوهو، تطلب منه رحلة إلى داخل الجزيرة، إلى وادي هاناوبي، وهي رحلة كوكي الوحيدة التي سمح له جسده المنهوك، القيام بها، في هيفا وا. وقد رافقه في الرحلة كي دونغ، العارف العظيم بعادات أهل الجزيرة، ونيوكا الذي يتقن اللغتين تماماً. الطريق الشاق الممتد عشرة كيلومترات، على متن دابة، عبر غابات كثيفة ورطبة، تغص بالزنابير والبعوض، ورَّمت جلده بالكامل، وخلَّفت بول حطاماً. كانت الصبية ابنة الزعيم المحلي، في قرية سكان أصليين صغيرة، تدعى هيكياني. وقد استمرت المساومة مع الزعيم، عدة ساعات. وأخيراً، من أجل أن يتمكن من أخذ الصبية، وافق على دفع ثمن قائمة هدايا، اشتراها من متجر بن فارني، وكلفته أكثر من مئتي فرنك. لم يندم على ذلك. فقد كانت فايوهو جميلة، مُجِدّة، بشوشة، ووافقت على إعطائه دروساً بالماركيزية، لأن لغة الماووريَ هنا مختلفة عن لغتهم في تاهيتي. ومع أنه كان يرسمها أحياناً، إلا أن الموديل التي كان كوكي يفضلها، هي توهوتاما، ذات الشعر الأحمر التي تهيجه بثدييها المنتفخين، ووركيها الكبيرين، وفخذيها الثخينين، وتثير فيه الشهوة. وهو ما لم يعد يحدث له بالكثرة السابقة. ولكنه يحدث مع توهوتاما. فعندما تأتي كي

يرسمها، يشعر دوماً بالرغبة في مداعبتها. وتسمح هي له بذلك، دون أن تبدي حماسة، بمزاج أقرب إلى الملل. إلى أن انتهى به الأمر، ذات مساء، وكان قد شرب كؤوساً كثيرة من الأفسنتين، إلى دفعها إلى السرير، في المرسم. وبينما هو يمارس الحب معها، سمع وراء ظهره، ضحكات ووشوشات امرأته الجديدة فايوهو، والساحر هابواني، زوج توهوتاما، المستمتعين بالمشهد.

كان الماركيزيون أكثر عفوية وحرية من التاهيتيين، في الشؤون الجنسية. فالنساء المتزوجات والعازبات، يخدعن الرجال، ويراودنهم دون أدنى تمنع أو تغنج، بالرغم من الحملات المتواصلة التي تشنها البعثتان، الكاثوليكية والبروتستانتية، لإخضاعهن لقواعد الوقار المسيحي. وكان الرجال، لا يزالون على شيء من التمرد. ولا يتردد بعضهم، مثل زوج توهوتاما، عن تحدي الكنيستين، باللبس على طريقة *الماهو*، الرجل-المرأة، مع زينة من الأزهار على الرأس، ووضع زينات النساء في الكاحلين، والمعصمين، والذراعين.

خيبة أمل أخرى، أحس بها بول، في أرضه الجديدة، هي معرفته أن فن الوشم الذي برز فيه الماركيزيون أكثر من الجميع، في بولينيزيا بأسرها، كان آخذاً بالاختفاء. فالمبشرون الكاثوليك والبروتستانت، يلاحقونه بضراوة، باعتباره مظهراً من مظاهر الهمجية. وقلة هم الوطنيون الذين ما زالوا يستخدمون الوشم في أتونا، حيث يُعرِّضون أنفسهم، لتوعدات الخوارنة والقسس. ولكنهم لا يزالون يمارسونه، في أعماق الجزيرة، في الدساكر الصغيرة الضائعة، في قلب تلك الغابات المتشابكة، حيث لا تسمح لكَ حالتك الصحية المزرية، بالذهاب، للتأكد من الأمر. يا للإحباط، يا كوكي! أن يكون ممارسو الوشم هناك، على بعد بضعة كيلومترات، دون أن تتمكن من الذهاب للتعرف إليهم. بل إنه لم يستطع الذهاب إلى اجتماعات أوبيكي، في وادي تاوا، وإلى *التيكيات* الضخمة، أو تماثيل الآلهة الحجرية، لأنه في المرتين اللتين حاول فيهما الصعود، إلى

هناك، على صهوة حصان، أفقدته الآلام والإنهاك الوعي. إنكَ هنا، على مقربة من تلك الأماكن التي ما زال فيها فن الوشم الجميل حياً، حكمة شعب الماووري المدانة والسرية تلك، حيث كل شكل هو طلسم يحتاج إلى فك لرموزه. وعدم تمكنه من الوصول إليها، بفعل الداء الذي لا يُسمىً، يسبب له الأرق، والغضب، بل نوبات البكاء في بعض الليالي.

لقد وصل الانحطاط إلى هنا أيضاً، لسوء الحظ. فالأسقف جوزيف مارتين، منع الكحول، مقتنعاً بأنه السبب في تزايد الأمراض والأوبئة بين الوطنيين. فكان متجر بن فارني لا يبيع النبيذ والمشروبات إلا للبيض. لكن العلاج كان أسوأ من الداء. فبما أنه لم يكن بإمكان الماركيزيين، في هيفا وا، أن يحصلوا على النبيذ، فإنهم يسكرون بكحول البرتقال، وثمار أخرى، يقطرونها في أجهزة تقطير سرية، تكلس أحشاءهم. وعمد كوكي المستتكر، إلى مقارعة الحظر، بملء **بيت المتعة** بدمجانات روم، يهديها إلى جميع الوطنيين الذين يأتون لزيارته.

كان يشعر بالإرهاق، وبعدم رغبة في الجلوس قبالة المنصب، وإمساك الرياش، للمرة الأولى في حياته، منذ أن اكتشف أن ميله هو الرسم - حين كان لا يزال يعمل في البورصة، في باريس -. لم يكن الألم الجسدي، حرقة قروح ساقيه، ضعف بصره المتزايد، واختلاجات قلبه، هي التي تبقيه خاملاً، يشرب رشفات من كأس أفسنتين، مخفف بالماء، يذيب فيه قطعة من السكر، ليمزجها بالليكور. وإنما كان الإحساس بعدم الجدوى كذلك. لماذا ترهق نفسك، بهدر الطاقة القليلة المتبقية لديك، في رسم لوحات، ستصل إلى باريس، عندما تنتهي منها، بعد رحلة طويلة، وتبقى مركونة، في مستودع العارض أمبرواس فولار، أو في عليّة عند دانييل دو مونفريد، بانتظار أن يأتي، في أحد الأيام، تاجر راغب في اقتنائها، ببضعة فرنكات، ليزين بها بيتاً بناه حديثاً؟

ذات يوم، قالت له فايوهو، خلال درس اللغة الماركيزية، بخليط من الفرنسية والماووري، جملة لم يفهمها. أو أنكَ لم تشأ فهمها يا كوكي. فجعلها تكررها عدة مرات، إلى أن لم يبق لديه شك في معناها: «إنك تزداد شيخوخة. وعما قريب سأصير أرملة». فذهب إلى المرآة، وظل يتأمل نفسه، إلى أن آلمته عيناه.

عندئذ، قرر أن يرسم صورته الذاتية الأخيرة. الشهادة على انحداره، في ذلك الركن المنسي من العالم، محاطاً بماركيزيين، يغرقون مثله في الدمار، والعطالة، والانحطاط، وضعف العزيمة. وضع المرآة إلى جانب المنصب، وعمل طوال أكثر من أسبوعين، محاولاً أن ينقل إلى القماشة تلك الصورة التي تلتقطها عيناه الكليلتان بمشقة، وتبدو كما لو أنها تتسرب منه، وتتشوه: صورة رجل مهزوم، ولكنه ليس ميتاً بعد، يتأمل النهاية القريبة المحتومة، بهدوء، وبشيء من الحكمة الغائرة، في نظرة تبدو، من وراء عدستي نظارة غبشتين، كأنها تختزل حياة طويلة من المغامرات، والجنون، والبحث، والإخفاق، والنضال. حياة ستصل، أخيراً، إلى منتهاها يا بول. كان شعركَ أبيض وقصيراً، وكنت نحيلاً ومستكيناً، تنتظر انقضاض النهاية عليك، بشجاعة هادئة. لم تكن واثقاً تماماً، ولكنك كنت تحدس، بأن هذا الرسم، بين الصور الذاتية الكثيرة التي رسمتها - كفلاح بريتاني، كإنكا بيروي، على تكور جرة، وكجان فالجان، وكمسيح في حقل الزيتون، وكرومنسي - صورة الوداع هذه، صورة الفنان في نهاية الطريق، هي أفضل ما تمثلك.

رسمُ هذه الصورة الذاتية، ذكّرك بالصورة التي رسمتَها افينسنت، في أسابيع العزلة تلك التي فرضتها الأمطار والرياح الشمالية الباردة، في **البيت الأصفر**، في آرل، حين رسمته وهو يرسم عباد الشمس، الزهرة المتسلطة على عقل الهولندي. فقد كان يرسمها دون هوادة، وغالباً ما يشير إليها، عندما يعرض نظرياته حول الرسم. فهذه الزهور، في رأيه، لا تتابع حركة الشمس مصادفة، أو في

استجابة عمياء لقوانين الطبيعة. إن فيها شيئاً من نار النجم الملك، وإذا ما راقبها المرء، بورع فينسنت وعناده في مراقبتها، فإنه سيلمح «الهالة» المحيطة بها. وبرسمها، كان يحاول أن يجعلها مشاعل، وقناديل، دون أن تتخلى عن كونها عباد شمس. يا للجنون! عندما أراك الهولندي المجنون البيت **الأصفر**، أول مرة، عرض عليك، بفخر، زهور عباد الشمس التي رسمها وهي تشع، حرفياً، ذهباً سائلاً ومتوهجاً على سريرك. وقد كبحتَ، بصعوبة، إيماءة استياء. لهذا السبب، رسمته محاطاً بعباد الشمس. ولم يكن في الصورة - بكل تعمد - ذلك الضوء الرجراج الذي يفرضه فينسنت على لوحاته، بل على العكس، كانت كالحة بعض الشيء، شاحبة، وتبدي فيها الأزهار، والرسام على السواء، ظلالها الغائمة، المختلطة بمحيطها. وأكثر مما هو كائن بشري محدد ومتماسك، بدا فينسنت حزمة، دمية متيبسة، محنطة، فريسة توتر لا يطاق، يوشك أن ينفجر، يفرقع: رجل-بركان. تصلّب ذراعه اليسرى، بصورة خاصة، التي تمسك الفرشاة، تكشف الجهد الخارق الذي عليه بذله كي يواصل الرسم. كل ذلك يبدو راكداً في وجهه المقطب، في نظرته التي يبدو أنها تقول: «أنا لا أرسم، أنا أضحي». لم تعجب الصورة فينسنت. فعندما عرضتها عليه، ظل يتأملها لبعض الوقت، بشحوب شديد، وهو يعض شفته السفلى، تلك الحركة التي تداهمه، في اللحظات السيئة. ودمدم أخيراً: «أجل، هذا أنا. ولكن، مجنوناً».

أولم تكن مجنوناً يا فينسنت؟ بلى، بالطبع. وقد راح بول يقتنع بذلك، وهو يرى تبدلات مزاج صديقه المفاجئة، وسرعة تنقله من التملق المقزز والمُثقل إلى العدوانية، والمجادلات العقيمة، ومشاجرته على التوافه. وبعد كل جدل، كان يسقط في سبات موت، في جمود يضطر معه بول، المذعور، إلى إنهاضه بالملاطفة ورشفات الأفسنتين، أو باقتياده إلى ماخور مدام فرجيني، ليضاجع هناك راشيل.

عندئذ، حسمتَ أمرك: لا بد من المغادرة. فهذا التعايش سينتهي

نهاية سيئة. وحاولت أن تمهد للأمر بلباقة، مُلمحاً بصورة عابرة، في أثناء الحوارات، إلى أنك قد تضطر، لأسباب عائلية، إلى مغادرة آرل، قبل رأس السنة الذي اتفقتما على قضائه معاً. كان الأفضل ألا تفعل ذلك، يا بول. فقد أدرك الهولندي أنك قد اتخذت قرار المغادرة، ودخل في حالة من العصبية الهستيرية، والاختلال الذهني. صار يبدو مثل عاشق يائس، لأن من يحبه سيهجره. كان يتوسل إليك، يتضرع أن تبقى السنة كلها معه، بدموع في عينيه، وبصوت كسير؛ أو يمتنع عن التحدث إليك أياماً بكاملها، ناظراً إليك بحقد وكراهية، وكأنك قد سببت له ضرراً لا علاج له. فكنت تشعر في بعض الأحيان، بشفقة غير متناهية على هذا البائس، الأعزل في مواجهة العالم، والذي يتمسك بك، لأنه يشعر بأنك قوي، مقاتل. ولكنك في أحيان أخرى، تغضب: أليس لديك ما يكفي من المشاكل، كي تلقي على كاهلك، مشاكل الهولندي المجنون أيضاً؟

تسارعت الأمور، قبل بضعة أيام من ليلة الميلاد، عام ١٨٨٨. فقد استيقظ بول فجأة، في حجرته، في **البيت الأصفر**، يُثقل عليه إحساس غريب. وعلى الضوء الخافت الذي يدخل من النافذة، رأى شبح فينسنت، عند طرف السرير، يتأمله. نهض مذعوراً: «ماذا حدث، يا فينسنت؟». ودون أن يقول صديقه كلمة واحدة، غادر الغرفة مثل طيف. في اليوم التالي، أقسم له إنه لا يذكر بأنه دخل إلى حجرته؛ وربما يكون تصرف مسرنم. بعد يومين، عشية عيد الميلاد، في مقهى ساحة فوروم، أخبره بول، أنه مضطر إلى الذهاب، رغماً عنه. لأن شؤوناً عائلية، تستدعي وجوده في باريس. وأنه سيذهب خلال أيام، وإذا ما استقام كل شيء، فقد يرجع في المستقبل، لقضاء فترة أخرى معه. استمع إليه فينسنت بصمت، وكان يهز رأسه، موافقاً، بمبالغة. ظلا يشربان لبعض الوقت، دون كلام. وفجأة، تناول الهولندي كأساً شبه فارغة، وقذفها إلى وجهه، بغضب. تمكن بول من تفاديها. نهض، ومضى بخطوات واسعة إلى **البيت**

الأصفر، دس في حقيبة صغيرة شيئين أو ثلاثة أشياء ضرورية، ولدى خروجه، التقى بفينسنت داخلاً. قال له إنه ذاهب إلى فندق، وإنه سيأتي في الغد ليأخذ بقية أشيائه. حدثه دون أحقاد:

- إنني أفعل هذا من أجلنا نحن الاثنين، يا فينسنت. يمكن لهذه الكأس أن تهشم وجهي في المرة القادمة. وأنا لا أعرف إذا ما كنت سأكبح نفسي عندئذ، مثلما فعلت هذه الليلة. أو أنني سأنقض عليك، وألوي عنقك. يجب لصداقتنا ألا تنتهي بهذه الطريقة.

كان فينسنت، الشاحب مثل ميت، بعينين محمرتين، ينظر إليه بثبات، دون أن يقول شيئاً. وكان قد بدأ، منذ بعض الوقت، بقص شعره كمجند أو راهب بوذي. وعندما يستنفره الحزن أو الغضب، مثلما هو الآن، يبدو كما لو أن رأسه ينبض مختلجاً أيضاً، مثل صدغيه وذقنه.

خرج بول. وفي الشارع - أنتَ تتذكر ذلك جيداً -، نفذ برد الشتاء إلى عظامه. وبينما هو يسير عبر المدينة المسورة، سمع الأُسر، في بعض البيوت، تغني أغنيات عيد الميلاد. كان يمضي باتجاه المحطة، إلى فندق متواضع يعرف صاحبه. وأثناء اجتيازه ساحة فكتور هوغو، أحس بوقع خطوات خلفه، قريبة جداً. التفت، يراوده هاجس خبيث، وبالفعل، على بعد أمتار قليلة، كان فينسنت، حافياً ويحمل موسى حلاقة في يده، يحدجه بعينين رهيبتين.

- ماذا جرى؟ ما الذي يعنيه هذا؟ - صرخ به بول.

دار الهولندي على عقبيه، وانطلق راكضاً. هل أسأتَ التصرف يا بول، بعدم إنذارك رجال الدرك فوراً، بحالة صديقك؟ أجل، دون شك. ولكن، كيف يمكن لك أن تتصور أن المسكين فينسنت، بعد هذه المحاولة المحبطة لطعنك، سيذهب لقطع نصف أذنه اليسرى، ويحمل القطعة الدامية، ملفوفة في جريدة، إلى راشيل، المومس النحيلة عند مدام فيرجيني. ويذهب بعد ذلك، كما لو أن هذا قليل، لينبطح في سريره، ورأسه ملفوف بمنشفة، وجدتها في اليوم التالي، لدى

دخولك إلى **البيت الأصفر** - المحاط برجال الشرطة والفضوليين -، مضمخة بالدم، كما هي ملاءات السرير، والجدران، واللوحات. كان يبدو أن الهولندي المجنون، فضلاً عن صلم أذنه في طقس بربري، قد عمّد بدمه المشهد المحيط بعملية البتر كاملاً. ويأتي الآن هؤلاء المتأنقون الباريسيون، هؤلاء القمامة، ليلقوا عليكَ جريرة مأساة فينسنت، لأن الهولندي، بعد إقدامه على تلك الفظاعة، لم يرفع رأسه قط. فقد ظل، أول الأمر حبيساً في أوتيلدو، في آرل؛ ثم أمضى حوالي سنة، بعد ذلك، في مصح سان ريمي، وأخيراً، أمضى الشهر الأخير من حياته، في قرية أفير-سور-أواس، حيث أطلق على بطنه، في نهاية الأمر، تلك الرصاصة التي أبقته يحتضر يوماً كاملاً، بآلام مريعة، قبل أن يموت. والآن، يأتي أولئك الكسالى الباريسيون، من لم يشتروا منه لوحة واحدة وهو حي، ليقروا، بعد موته، بأن فينسنت عبقري. وأنك جلاد ومدمر، لأنك لم تنقذه في ليلة عيد الميلاد تلك. يا للأوغاد!

أتراهم سيكتشفون، بعد موتكَ أيضاً، أنك كنتَ عبقرياً، يا بول؟ وهل سيبدؤون ببيع لوحاتك، بالأسعار الباهظة التي تباع بها لوحات الهولندي المجنون الآن؟ لا تظن ذلك. كما أنه لا يهمك، مثلما كان يهمك من قبل، أن يجري الاعتراف بك، وتصير مشهوراً، وفناناً خالداً. لن يحدث ذلك. أتونا بعيدة جداً عن باريس، هناك حيث تُقَرَّر الشهرة والرواج الفني، كي يهتم أولئك التافهون بما فعلته. ما يشغل تفكيرك الآن، ليس الرسم، وإنما المرض الذي لا يُسمى، والذي هاجمك من جديد، بشراسة، في الشهر الرابع لوجودك في هيفا وا.

كانت القروح تأكل ساقيه، والأضمدة تتلوث بسرعة، لم تعد لديه معها، في نهاية الأمر، حماسة لاستبدالها. وكان لا بد له من أن يفعل ذلك بنفسه، لأن فايوهو، المشمئزة، كانت ترفض استبدال أضمدته، مهددة بهجره إذا ما أجبرها على معالجته. كان يُبقي الأضمدة المتسخة يومين أو ثلاثة أيام، تعبق برائحة كريهة، ويغطيها الذباب

الذي ملّ من إبعاده عنها. كان الدكتور بيسون، مدير الصحة في هيفا وا، وقد تعرف إليه من قبل في بابيتي، يزرقه بحقن مورفين، ويقدم إليه صبغة الأفيون. فيخفف ذلك من آلامه، لكنه يبقيه في حالة من ذهول البلاهة، وهاجس حاد بتردي حالته الذهنية المتسارع. هل سينتهي بك الأمر إلى ما انتهى إليه الهولندي المجنون، يا بول؟ في حزيران ١٩٠٢ صار عاجزاً تقريباً، عن المشي، بسبب آلام ساقيه. ولم يكد يبق لديه شيء من النقود التي باع بها البيت في باونايا. أنفق آخر نقوده في شراء عربة صغيرة، يجرها حصان طويل الشعر. وكان في كل مساء، يرتدي قميصاً أخضر، ووزرة تاهيتية زرقاء، وقبعة باريسية، ويحمل عكازاً جديداً نحت قبضته - مرة أخرى - على شكل قضيب منتصب. ويركب العربة، ليقوم بجولة على البعثة البروتستانتية، وعلى أشجار التمر الهندي البديعة في بيت القس فرنيه، في طريقه إلى خليج الخونة. ويكون في تلك الساعة ممتلئاً بالصبيان والبنات الذين يستحمون في البحر، أو يمتطون صهوات الخيول البرية التي تصهل وتقفز، متحدية، فوق الأمواج. وقبالة الخليج، تبدو جزيرة هناماكي الصغيرة المقفرة، كأنها حوت عنبر نائم، واحد من تلك الحيتان التي كانت تأتي بحثاً عنها، في ما مضى، من أميركا، سفن صيد الحيتان التي يخشاها كثيراً سكان هيفا وا الأصليون. لأن أطقم تلك السفن اعتادوا، كما يروون، على إسكار السكان الأصليين من أجل اختطافهم، وأخذهم معهم، كعبيد. ولواحدة من تلك السفن، وقعت الحادثة التي منحت ذلك الخليج اسمه المشين. فبعد أن ملّ وطنيو هيفا وا من عمليات الاختطاف، استقبلوا بالاحتفالات والرقص وولائم السمك النيء والخنزير البري، بحارة إحدى تلك السفن. ووسط الاحتفال، ذبحوهم جميعاً. «اعترفوا بأنكم أكلتموهم!» كان كوكي يزمجر، منفعلاً، كلما سمع تلك القصة. «برافو! عمل جيد! لقد أحسنتم صنعاً!». وقبل غياب الشمس بقليل، يرجع كوكي إلى بيت المتعة، ملتفاً في جولة

تجعله يجتاز شارع أتونا الوحيد. يذرعه ببطء شديد، كابحاً حصان العربة، من المرسى حتى بنسيون الصيني-الماووري ماتيكانا، محيياً الجميع باحتفالية، مع أن عينيه لم تعودا قادرتين على تمييز معظمهم بصورة واضحة.

عند مجيئه، استقبله كاثوليكيو الجزيرة كواحد منهم، لأنهم كانوا قد سمعوا عنه باعتباره محرر مجلة «**الزنابير**». غير أن حياته المتهتكة، وسكراته، وعلاقاته الحميمة مع الوطنيين، والأساطير الشريرة حول ما يدور في **بيت المتعة**، حولته إلى منبوذ ومغضوب عليه. وكان البروتستانت الذين طالما هاجمهم في «**الزنابير**»، ينظرون إليه من بعيد، باستياء. غير أن رحيل الدكتور بيسون، بانتقاله إلى بابيتي في شهر حزيران، دفعه إلى التقرب من الراعي البروتستانتي، بول فرنيه، وكان قد هاجمه شخصياً في مجلته. أخذه إليه كي دونغ وتيوكا، قائلين له إنه الشخص الوحيد في أتونا الذي لديه بعض المعارف الطبية، ويمكنه مساعدته. استقبله القس فرنيه، وهو رجل وديع وكريم النفس، دون أي أثر من الحقد على الإساءات الموجهة إليه. وقد حاول مساعدته فعلاً، بمراهم ومسكنات لساقيه. كان لها بعض المفعول، ذلك أنه صار قادراً، من جديد، في تموز ١٩٠٢، على القيام بنزهات قصيرة، مستنداً إلى قدميه.

وللاحتفال بتحسنه الآني، خطرت للدركي ديزيريه شاربييه فكرة تعيينه - لأنه فنان - حكماً في المسابقة الموسيقية التقليدية التي تجري في الرابع عشر من تموز، بين كورالي مدرستي الجزيرة، المدرسة الكاثوليكية والمدرسة البروتستانتية. كان الخلاف بين البعثتين التبشيريتين يتبدى في أتفه الأمور وأصغرها. وفي محاولة منه لعدم تسميم تلك الخلافات أكثر مما هي عليه، اختار بول أن يُصدر حكماً سليمانياً: التعادل بين المتسابقين. غير أن هذا الاقتسام لم يرضِ الكنيستين، وغضبت كلتاهما منه. فاضطر إلى الانسحاب إلى **بيت المتعة** وسط التأنيب والعداء العام.

ولكن، عندما وصلت العربة التي يجرها الحصان إلى بيته، استقبلته مفاجأة سعيدة. فقد كان جاره تيوكا، الماووري ذو اللحية البيضاء، بانتظاره هناك. قال له بجديّة كبيرة، إنه صار يعتبره، بعد الوقت الذي انقضى، صديقاً حقيقياً. وقد جاء ليعرض عليه إقامة طقوس الصداقة المتبادلة. كان ذلك بسيطاً جداً. يتلخص في تبادلهما اسميهما، دون أن يفقد كل منهما اسمه الخاص. وهذا ما فعلاه. ومنذ تلك اللحظة، صار اسم جاره تيوكا-كوكي، وصار اسمه كوكي-تيوكا. ها قد صرت ماركيزياً كاملاً، يا بول.

XVII. كلمات لتغيير العالم

مونبليه، آب ١٨٤٤

كانت فلورا قد وعدت، لدى وصولها إلى مونبليه، في السابع عشر من آب ١٨٤٤، بعد مغادرتها نيم، بأن تكون إقامتها فيها فترة استراحة تامة. إنها بحاجة إلى استرداد عافيتها. فهي منهوكة القوى؛ تعاني من الزحار منذ شهرين، وتشعر في صدرها، فضلاً عن الوخزات القوية، بالرصاصة المستقرة بجوار قلبها. لكن القَدَرَ قدَّر شيئاً آخر. ففندق الحصان الأبيض، حيث حُجز لها، صفق الباب في وجهها، حين تبين أنها تسافر وحدها. قال لها موظف الفندق منبهاً: «لا نقبل في هذا الفندق، كما في كل الأماكن المحترمة، إلا السيدات اللواتي يأتين مع آبائهن أو أزواجهن».

وكانت على وشك أن تردّ عليه «ولكنني علمت، وأنا في نيم، بأن فندق الحصان الأبيض، في مونبليه، هو مكان أقل مكانة من ماخور»، عندما تقدم وكيل مبيعات متجول، كان قد وصل معها في وقت واحد، وعرض أن يكون كفيل السيدة. تململ موظف الفندق. ولكن فلورا هاجت، عندما أدركت أن السيد الشهم، يصر على استئجار غرفة واحدة لكليهما. «وهل تظنني عاهرة؟»، قالت له مباشرة، وهي توجه إليه صفعة مدوية. بقي التعيس مذهولاً، يفرك وجهه. وخرجت هي إلى شوارع مونبليه، محملة بالحقائب، لتبحث عن ملجأ. لم تجده حتى منتصف النهار، في فندق دوميدي، فندق في طور البناء، تبين لها أنها النزيل الوحيد فيه. وقد عاشت أيامها الستة في المدينة، محاطة بجلبة وحركة البناءين، والعمال الذين يفككون المبنى، من فوق السقالات، ويوسعونه. كانت متعبة إلى حدّ أنها تخلت، بالرغم من إزعاج الضجيج، عن البحث عن نزل آخر.

في الأيام الأربعة الأولى، لم تعقد اجتماعاً واحداً مع العمال، أو السان-سيمونيين، أو أتباع فورييه الذين كانت تحمل إليهم رسائل توصية. ولكنها لم تكن أيام راحة. فانتفاخ بطنها، وتشنجات المغص، عذبتها إلى درجة اضطرت معها إلى مراجعة طبيب. وتبين لها أن الدكتور آمادور الذي نصحها به الفندق، هو إسباني. وقد ابتهجت فلورا بالتحدث إليه، بتلك اللغة التي لم تكد تتاح لها فرصةُ تكلُّمِها، منذ عودتها من البيرو، قبل عشر سنوات. كان الدكتور آمادور، المتعصب للطب التجانسي الذي يسميه، وهو يقلب عينيه، «العلم الجديد»، خمسينياً رقيقاً، مثقفاً، أسمر، طويل القامة، ذا ميول سان-سيمونية، ومقتنع بأن «نظرية التدفقات» التي وضعها سان سيمون، والحاسمة في فهم تطور التاريخ، تفسر أيضاً الجسم البشري. «التقنية والعلم الاقتصادي، هما القوة المحولة للمجتمع، يا دونيا فلورا»، كان يقول لها ذلك بصوت جهوري. وكان التحدث إليه ممتعاً. وبوفاء لقناعاته التجانسية، بأن الداء يعالج بالداء، وصف لها مزيجاً محضراً من الزرنيخ والكبريت، شربته فلورا بتوجس، خائفة من التسمم. ولكنها، منذ اليوم التالي لتناولها ذلك الشراب الغريب، شعرت بتحسن ملحوظ.

هذا الرجل الدؤوب المحترم الذي يصغي إليكِ باهتمام، حتى عندما تختلفان في موضوعات كثيرة، يشبه أول «الرجال الحديثين» الذين تعرفتِ إليهم، بفضل جرأتكِ وعنادك، في باريس، أوائل عام ١٨٣٥، لدى عودتك من البيرو، بعد تلك الرحلة البحرية الشيطانية، في سفينة، كنتِ على وشك التعرض فيها للاغتصاب، على يد مسافر سفيهٍ ومنحط، أنطونيو المجنون. أتتذكرين ذلك يا فلوريتا؟ كان يحاول، في الليل، خلع باب قمرتك، دون أن يطلب منه ربان السفينة التزام النظام؛ لا بد أنه كان معتاداً على مهاجمة مسافريه، للنساء اللواتي يسافرن وحيدات. لقد أنبته على ذلك، فرد عليك القبطان ألينكار، على سبيل الاعتذار، بهذه البلاهة الاتهامية: «أنتِ

أول سيدة أراها تسافر وحيدة، خلال ثلاثين سنة من عملي كذئب بحر». يا للرحلة المرعبة التي كان عليها رجوعكِ إلى فرنسا، بسبب الدوار والمجنون أنطونيو!

ولكنك، خلال تلك الشهور الأولى في باريس، لم تولي اهتماماً لتلك الجرعة الكريهة، بعد أن صرتِ في شقتكِ التي استأجرتِها للتو، في شارع شابانيه. فالدخل المتواضع الذي وفره لك العم بيو تريستان، يسمح لك بأن تعيشي حياة كريمة. كنتِ محمّلة بالاندفاع والأحلام، بعد السنة التي أمضيتِها في البيرو، وكانت تلك السنة أكثر ثراء، في الدروس المستخلصة، من خمس سنوات في السوربون. وقد رجعتِ إلى فرنسا، مصممة أن تكوني **أخرى**، أن تكسري القيود، أن تعيشي بانفتاح وحرية، عازمة على ملء فجوات روحك، وتنمية ذكائك، وقبل ذلك كله، أن تنجزي أشياء... الكثير من الأشياءَ، كيما تكون حياة النساء أفضل مما كانت عليه بالنسبة إليك.

بتلك الحالة المعنوية، كتبت، بعد قليل من وصولك إلى فرنسا، كتابك الأول. أو كُتيبك، الكراس ذا الصفحات القليلة: ***حول ضرورة إحاطة الأجنبيات بالترحيب***. إنك تشعرين الآن بالخجل من ذلك النص الرومانسي، العاطفي، الممتلئ بالنوايا الطيبة حول انعدام، أو سوء الترحيب الذي تُقابل به الأجنبيات في فرنسا. واقتراح إنشاء جمعية لمساعدة الأجنبيات اللواتي يردن الاستقرار في باريس، وإيجاد مأوى لهن، وتقديمهن إلى الناس، وتوفير السلوى لمن تحتجنها منهن! جمعية يقسم أعضاؤها قسمهم الخاص، ويكون لها نشيدها، وشعاراتها المستمدة من الدستور: الفضيلة، التبصر، والدعاية ضد الرذيلة! اختنقت بالضحك - كم كنتِ حمقاء، يا فلوريتا - وتمطت في حجرتها الضيقة، في فندق دوميدي. أنتِ أيضاً لم تستطيعي الإفلات، من جائحة تشكيل الجمعيات التي اجتاحت فرنسا.

كان نصاً شبابياً، يكشف ضعف ثقافتها، ذاك الذي اضطر صاحب مطبعة ديلوناي، في الباليه رويال، إلى تصحيحه من البداية حتى

النهاية، بسبب كمية الأخطاء الإملائية في المخطوطة. ألم يكن فيه ما هو جدير بالبقاء، رغم كل ما بذلتِ فيه من تفكير وتأمل؟ بلى، كان فيه شيء ما. إعلان إيمانك - «المعتقد، الدين، الأكثر جمالاً وقداسة: حب الإنسانية» - وهجومك على النزعة القومية: «يجب أن يكون وطننا هو العالم». لقد كان إنشاء الجمعيات هو هوس السان-سيمونيين والفورييهيين. وهل كنتِ على علاقة بهم، عندما صدر الكراس؟

من خلال القراءة فقط، وقد قرأتِ كثيراً في شقتك الصغيرة في شارع شابانيه، وبعد ذلك في شارع شيش-ميدي، خلال سنوات ١٨٣٥، ١٨٣٦، ١٨٣٧، على الرغم من وجع الرأس الذي كان يسببه لك أندريه شازال، كنتِ تحاولين تمثل تلك الأفكار، والفلسفات، والمذاهب التي تشكل الحداثة، وتجدين فيها أكثر الأسلحة فعالية، للتوصل إلى تحرر المرأة. من جريدة *الكون* التي يصدرها السان-سيمونيون، إلى *الفالانج* التي يصدرها أتباع فورييه، مروراً بكل النشرات، والكتب، والمقالات، والمحاضرات التي تصل إلى يديك؛ كنتِ تريدين قراءة كل شيء. ساعات وساعات، وأنتِ تدونين الملاحظات، البطاقات، المقتبسات، في بيتك، أو في مكتبي المطالعة اللذين اشتركتِ فيهما. بأية أوهام كنتِ تبحثين عن طريقة، للارتباط بالسان-سيمونيين وبالفورييهيين، وهما في تلك السنوات، التياران اللذان بدوا لك - ولم تكوني قد تعرفت بعد على أفكار إتيين كابيه، ولا على أفكار الاسكتلندي روبرت أوين - أكثر تقدماً، لتحقيق الهدف: المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة.

الفيلسوف والاقتصادي كلود-هنري دي روفيري، كونت سان سيمون، المتنبئ بـ «مجتمع منتجين ودون طبقات»، كان قد توفي سنة ١٨٣٥. وكان وريثه المشوق، الأنيق، المثقف والمتنور بروسبير إنفانتان، لا يزال زعيماً للسان-سيموفيين حتى اليوم. وقد كان أحد أول من أرسلتِ إليهم كتيبك، مع عبارة إهداء توقيرية. دعاك إنفانتان إلى

اجتماع لمناصريه في سان جيرمان دي بري. أتتذكرين انبهارك، وأنت تصافحين يد ذلك الكاهن العلماني الذي تهيم به الباريسيات؟ لقد كان مهيباً، مُحَدِّثاً، كاريزمياً. وقد دخل السجن، على إثر التجربة الأولى للمجتمع السان-سيموني في مينلمونتان ، حيث صمم إنفانتان ذلك الزي الخيالي، من أجل توطيد التضامن بين الرفاق، وتصفية الفردية؛ وكان الزي على شكل جلابية، لها أزار من الخلف، لا يمكن إغلاقها إلا بمساعدة شخص آخر. وقد سافر بروسبير إنفانتان إلى مصر، بحثاً عن المرأة-المسيح التي ستكون، حسب معتقدهم، فادية الإنسانية. لم يجدها هناك، ومازال يواصل البحث عنها. والآن، تبدو لك تلك الحركات النسائية السان-سيمونية المتكلفة، قليلة الجدية، ولعبة ترف وطيش. أما في سنة ١٨٣٥، فكانت تصل إلى أعماق روحك، يا فلوريتا. بأي توقير كنت تنظرين إلى الكرسي الشاغر الذي يتصدر، إلى جانب الأب بروسبير إنفانتان، الاجتماعات السان-سيمونية. وكيف لن تتأثري بعمق، وأنت تكتشفين أنك لست وحدك، وإن هناك آخرين مثلك، في باريس، يرون أنه لا يمكن التسامح مع اعتبار المرأة كائناً أدنى منزلة، لا حقوق له، ومواطناً من الدرجة الثانية؟ وقبالة كرسي تلاميذ سان-سيمون الطقوسي الشاغر ذاك، بدأت تصممين، سراً، كما لو أنك تصلين: «أنتِ، يا فلورا تريستان، ستكونين منقذة الإنسانية».

ولكن، لا بد للمرأة-المسيح، لدى السان-سيمونيين، من أن تشكل جزءاً من ثنائي مع بروسبير إنفانتان - أي أن تشاطره الفراش، ببساطة -. وكان ذلك يغري باريسيات كثيرات. أما أنت، فلا. عند ذلك الحد تتوقف غيرتك الإصلاحية. فالحرية الجنسية التي تدعو إليها تلك الحركات، تبدو لك - وإن لم تقولي ذلك - تشريعاً للمجون، وأنت غير مستعدة لمجاراتهم في ذلك. لأن الحياة الجنسية ظلت توحي إليك، إلى أن تعرفت إلى أولمبيا ماليسويسكا، بالقرف نفسه الذي يوحي به إليك تذكر أندريه شازال.

وإذا كان كونت سان-سيمون قد مات، منذ زمن؛ فإن شارل فورييه، بالمقابل، كان حياً في سنة ١٨٣٥ تلك. لقد كان في الثالثة والستين، ومازالت أمامه سنتان في الحياة. وقد تعرفت عليه، أيتها أندلسية. والآن، بعد تسع سنوات من ذلك، وبالرغم من استيائك من مريديه، هؤلاء النظريين الفالانستيريين الجامدين، إلا أنك تتذكرينه بإعجاب. ومع أنك تعاملت معه قليلاً، بمحبة بنوية، إلا أن فورييه كان أول شخص بعثت إليه كُتيب ***حول ضرورة إحاطة الأجنبيات بالترحيب***، عارضة عليه تعاونك، بكلمات متحمسة: «أنتَ، أيها المعلم، ستجد فيَّ قوة غير معهودة في بنات جنسي، ولهفة متعجلة لفعل الخير». ويا للمفاجأة الكبيرة؛ فالعجوز النبيل وحسن الهندام، بعباءته المكوية جيداً، وعينيه الصافيتين الطيبتين، حضر بنفسه إلى ٤٢، شارع شيرش-ميدي، ليشكرك على الكتاب، ويهنئك على أفكارك التجديدية، وروحك المحبة للعدالة. إنه أحد أسعد أيام حياتك، يا فلوريتا!

وجدت صعوبة كبيرة في فهم بعض نظرياته (وجود نظام اجتماعي، مواز لنظام الكون الفيزيائي الذي اكتشفه نيوتن، على سبيل المثال. أو انتقال البشرية، في ثمانية تحولات، من الوحشية والهمجية، قبل وصولها إلى مجتمع الوئام، حيث تبلغ البشرية السعادة)، قرأت ***نظرية الحركات الأربع، والعالم الصناعي والاشتراكي الجديد***، ومقالات كثيرة نُشرت في ***الفالانج*** ومطبوعات فورييهية أخرى. ولكنه كان هو نفسه، بصورة خاصة، بصفائه الأخلاقي المتألق الذي يُشع من حياته - كان يعيش وحيداً، في شقة شديدة التواضع، في شارع سان بيير، في مونتمارت، مترعة بالكتب والأوراق، حيث حملت إليه في أحد الأيام ساعة رملية كهدية -، وبطيبته، ورعبه من كل أشكال العنف، وثقته القوية بطيب طوية الكائنات البشرية، هو ما جعلك، في سنوات ١٨٣٥، و١٨٣٦، و١٨٣٧ تلك، تشعرين بأنك تلميذة ذلك الحكيم العظيم. لقد كان فورييه

مناهضاً للزواج أيضاً، ويؤمن مثلك بأن هذه المؤسسة التعسة، تجعل من المرأة مادة استعمالية، بلا كرامة ولا حرية. لقد فتنتك، في البدء، نظريته حول تنظيم العالم في فالانستيرات، مجمعات يضم كل واحد منها أربعين أسرة، بلا مستغلين ولا مستغلين، حيث يجري تقاسم العمل ونتاجه بصورة عادلة، ومكافأة الأعمال غير المرغوبة، بأجور أعلى من الأعمال المحببة، وحيث تسود المساواة المطلقة، بين الرجال والنساء. فهذه العقيدة تمنح شكلاً محدداً للهفتك إلى العدالة بين البشر.

ولكنك لم تستطيعي الموافقة قط، على تلك الآراء المتعلقة بالجنس، في فلسفة فورييه. أأنت المذنبة في هذا الشأن؟ أولمبيا كانت ترى ذلك. لقد كنت تتفهمين نوايا المعلم الإيثارية: لا يمكن استبعاد أحد، بسبب عيوبه أو نزواته، من المجتمع والسعادة. إنه قديس وطيب. ولكن؛ هل كانت قابلة للتحقق دعوته تلك، بتشكيل فالانستيرات تقوم على التوافقات الجنسية، بجمع المخنثين، والسحاقيات، ومن يستمتعون بتلقي الألم أو التسبب به، والبصاصين ومحبي الاستمناء، في مجمعات صغيرة، يشعرون فيها بأنهم طبيعيون؟ ومع أنه لم تكن لديك حجج لدحضها، إلا أن مجرد التفكير في تلك الطروحات يجعلك تحمرين خجلاً. كنت ترين أن الاقتراح جريء، إلى حد لا يمكن معه أن يكون واقعياً. كما أن تصور الحياة في فالانستيرات الشاذين جنسياً تلك، حيث يمارسون ما يسميه المعلم فورييه «المجون النبيل»، يبعث فيك القشعريرة. وقد كانت أولمبيا محقة في القول، بينما هي تداعب جسدك في الفراش، وتجعلك تحمرين من رأسك حتى قدميك، بنزواتها: «إنك متزمتة يا فلوريتا، أنت راهبة علمانية».

لقد كنت تشاطرين، بالطبع، تأكيد فورييه بأن الحضارة مرتبطة ارتباطاً مباشراً بدرجة الاستقلال الذي تتمتع به النساء. لكن تأكيدات أخرى له، كانت تسبب لك البلبلة. كما هو الأمر في ثقة العجوز المطلقة، بأن العالم سيستمر ثمانين ألف سنة، وأن كل روح

ستنتقل بين الأرض وكواكب أخرى، خلال هذا الزمن، ثمانمئة وعشر مرات، وستكون لها ألف وستمئة حياة. ألا يبدو هذا كله أقرب إلى الشعوذة منه، إلى العلم؟

ومن جهة أخرى، كان قلبك ينقبض وأنت ترين، أو تتصورين، الحكيم العجوز، ينهض ظهيرة كل يوم، من مقاهي باليه رويال التي يذهب إليها ليقرأ ويكتب. ويرتقي مستعجلاً، رابية مونمارت، متوجهاً إلى بيته في شارع سان بيير، لينتظر هناك، مثلما أعلن منذ ١٨٢٦، نصيرَ الآداب والفنون، الرأسمالي الغني والمتنور الذي سيأتي ليخبره بأنه مستعد لتمويل أول فالانستير، بذرة إنسانية المستقبل السعيدة. كانت عيناكِ تمتلئان بالدموع، وأنت تفكرين بأن شارل فورييه، بإيمانه الراسخ بطيبة الكائنات البشرية قاطبة، ظلّ منذ عام ١٨٢٦، حتى عشية موته، في العاشر من تشرين الأول ١٨٣٧، ينتظر في بيته، من الساعة الثانية عشرة ظهراً، حتى الثانية بعد الظهر، الزائر الذي لم يأت قط. هل هناك ما هو أكثر إثارة للشفقة من ذلك الانتظار الطويل وغير المجدي، على امتداد إحدى عشرة سنة؟

تلاميذ فورييه، بدءاً من فيكتور كونسيدران، مدير صحيفة «*الفالانج*»، لا يفكرون في الأمر على هذا النحو. فهم لا يزالون حتى الآن، في سنة ١٨٤٤، وبعد سبع سنوات من موت المعلم، مؤمنين بوجود رأسماليين، قادرين على اجتراح أعمال عظيمة. عظيمة؟ بل انتحارية، إذا أردنا الصواب. لأن الرأسمالية ستختفي من العالم، إذا افتراضنا أن الفالانستيرية ستنتصر؛ ولكن ذلك لن يحدث، وأنت يا فلورا، على الرغم من ضآلة علومك، تدركين السبب جيداً. قد يكون الرأسماليون أشراراً وأنانيين، ولكنهم يعرفون ما يناسبهم. ولن يمولوا، على الإطلاق، منصة إعدام لتُقطع عليها رؤوسهم. ولهذا ما عدتِ تؤمنين بأتباع فورييه، ولهذا تنظرين إليهم بشفقة. ومع ذلك، فقد احتفظت بعلاقة جيدة مع فيكتور كونسيدران الذي نشر لك، منذ سنة ١٨٣٦، في *الفالانج*، رسائل ومقالات تنتقدين، في بعضها،

المجلّةَ نفسها بشدة. ومع أنه كان يدرك أنكِ لم تعودي معهم، فقد أعطاكِ رسائل وتوصيات، من أجل جولتك هذه في فرنسا.

عندما كان الدكتور آمادور، الطبيب التجانسي في مونبليه، والذي التقت به عدة مرات خلال هذا الأسبوع، يسمعها تنتقد أتباع فوربيه والسان-سيمونيين بغضب، وتتهمهم بأنهم «ضعفاء» و«برجوازيون»، يسخر من «روحها النارية». كانت فلورا تلمح في الطبيب الإسباني - يتكلم وهو يداعب سالفيه الأبيضين والمشذبين بعناية، واللذين يصلان حتى فكه السفلي - انجذاباً ظاهراً نحو شخصها. إنه لا يتوقف عن ملاطفتكِ يا أندلسية. ومع ذلك، فإن هذه العلاقة الودودة، انتهت بصورةٍ فيها الكثير من الجفاء، يوم علمت، من الطبيب آمادور نفسه، أنه في دروسه، في كلية طب جامعة مونبليه، لا يُدرِّس الطب التجانسي، غير المقبول في الأكاديمية، وإنما طب المداواة المغايرة، أي الطب التقليدي الذي يشعر نحوه - وقد قالَ لكِ ذلك، بصورة حاسمة - بالقرف الذي تستحقه الأشياء القديمة، والأفكار البالية.

فردت عليه «**مدام غضب**» باستنكار:

- كيف يمكن لكَ أن تُدَرِّس شيئاً، أنتَ غير مقتنع به، وأن تتقاضى عليه أجراً فوق ذلك؟ إن في موقفك هذا، عدم اتساق فكري، ولا أخلاقية.

- هوني عليكِ، هوني عليكِ، لا تكوني بهذه الصرامة - استمهلها الطبيب، وقد فوجئ، بردّ فعلَ حيوي، وأضاف:- عليّ أن أعيش يا صديقتي. لا يمكن للمرء، في هذه الحياة، أن يكون منسجماً بصورة مطلقة مع أفكاره، إلا إذا امتلك استعدادات شهيد.

- أنا عليّ أن أمتلكها - قالت **مدام غضب** - لأنني أحاول أن أتصرف دوماً باستقامة صارمة، وفق قناعاتي. فليُقلَع لساني إذا ما حاولتُ تعليم أشياء لا أؤمن بها، لمجرد أن أتقاضى عليها راتباً.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي يلتقيان بها. مع ذلك، وبالرغم من

أن الطبيب قد استاء، دون ريب، من انتقادات فلورا، فقد أرسل إليها، في فندق ميدي، نجاراً يدعى رينه ميدارد، تبين لها أنه شاب مهتم ولطيف. وكان قد شكل جمعية عمالية للتعاضد، دعاها إليها.

- لماذا قررتِ عدم التكلم في مونبليه، يا سيدتي؟

فاستثارته فلورا:

- لأنه قيل لي إنه لا وجود هنا لعامل ذكي واحد.

فضحك الفتى:

- يوجد هنا أربعمئة عامل ذكي يا سيدتي. وأنا واحد منهم.

وردّت فلورا:

- بأربعمئة عامل ذكي، يمكنني صنع الثورة في فرنسا بأسرها، يا بني.

كان الاجتماع الذي نظمه أندريه ميدارد، بحضور سبعة عشر رجلاً وأربع نساء، ممتازاً جداً. لقد كانوا يفتقرون إلى المعلومات، لكنهم يتمتعون بالفضول وحب المعرفة، ولديهم رغبة في الاستماع، وقد أبدوا اهتماماً بالاتحاد العمالي والقصور العمالية. اشتروا بعض الكتب، ووافقوا على تشكيل لجنة من خمسة أعضاء - بينهم امرأة - من أجل تنشيط الحركة في مونبليه. لقد أخبروا فلورا بأشياء أذهلتها. فتحت مظهرها الهادئ، كمدينة برجوازية مزدهرة، كانت مونبليه برميل بارود. ليس هناك عمل، وكثير من العاطلين يهيمون على وجوههم في الشوارع، متحدين حظر السلطات لهم، وهم يرشقون أحياناً عربات الأغنياء الكثيرين في المدينة وبيوتهم بالحجارة.

- إذا لم نسرع، ونغير الوضع سلمياً، بفضل **الاتحاد العمالي**، فإن فرنسا، وربما أوربا بأسرها، ستنفجر - أكدت فلورا، لدى انتهاء الاجتماع - وستكون المجزرة رهيبة عندئذ. إلى العمل أيها الأصدقاء!

وخلافاً لأيامها الأولى في مونبليه، أيام الراحة، كانت الأيام الثلاثة الأخيرة نشاطاً فائضاً، بفضل الدواء التجانسي الذي أعده

الدكتور آمادور، والذي جعلها تشعر بالنشاط وتمتلئ بالطاقة. حاولت زيارة السجن، دون جدوى. وجالت على المكتبات، تاركة فيها نسخاً من *الاتحاد العمالي*. وأخيراً، اجتمعت مع حوالي عشرين شخصاً من أتباع فورييه المحليين. وقد خيبوا أملها، كالعادة. كانوا مهنيين وموظفين، غير قادرين على التحول من النظرية إلى الممارسة العملية، ويشعرون بانعدام ثقة فطري تجاه العمال، وكأنهم يرون فيهم خطراً قادماً يهدد طمأنينتهم البرجوازية. وعندما حان موعد توجيه الأسئلة، تمكن محام - الأستاذ سيساك - من إخراجها عن طورها، حين توجه إليها بالتوبيخ لأنها «تتجاوز مهمات المرأة التي يجب عليها ألا تتحول من العناية ببيتها إلى السياسة». وقد غضب المحامي عندما قالت له إنه «ما قبل تاريخي، ما قبل مواطن، وساكن كهوف متوحش اجتماعياً».

كان هناك في وجه الأستاذ سيساك، شيء من وجه أندريه شازال الذي كان يشبه الرق، المصفر، والهرم من العوز، والمرارة، والحقد، في سنوات ١٨٣٥، ١٨٣٦، ١٨٣٧ تلك. وقد كان على فلورا أن تراه، وتتواجه معه، عدة مرات، في حرب ظلَّ لديها منها ذكرى: رصاصة في الصدر، لم يتمكن الطبيبان الجيدان ريكاميه وليسفرانك من استخراجها. في عامي ١٨٣٥ و١٨٣٧، اختطف شازال المسكينة ألين مرتين (وإرنست-كاميل، مرتين أيضاً)، محولاً تلك الطفلة إلى الكائن الحزين، المكتئب، المكبوت الذي صارت إليه الآن. وفي كل مرة، كانت المحاكم الكابوسية التي لجأت إليها فلورا، لحضانة ابنيها، تعطي الحق له، بالرغم من أنه كسول، كحولي، فاسد، منحط، وشيطان تعس يعيش في غرفة نتنة، حيث لا يمكن للطفلين أن يعيشا حياة لائقة. وما السبب؟ السبب أن أندريه شازال هو الزوج، وهو صاحب الولاية والحقوق، حتى لو كان حثالة بشرية، لا يتورع عن البحث عن اللذة في جسد ابنته. أما أنتِ، بالمقابل، من توصلت، بالجهد، إلى التعلم الذاتي ونشر الكتب، وتعيشين حياة محترمة، ويمكن لكِ أن

تضمني للصغيرين تعليماً، وحياة لائقة، فقد كنتِ، على الدوام، مشبوهة في نظر أولئك القضاة الذين استقر في رأسهم، أن كل امرأة مستقلة هي عاهرة. يا لهم من تعساء!

كيف استطعتِ يا فلوريتا، في تلك السنوات الجنونية، وبينما أنتِ تتصارعين في المحاكم، وفي الشارع، مع أندريه شازال، أن تكتبي *«اغتراب منبوذة»*؟ تلك المذكرات عن رحلتك إلى البيرو التي صدرت في جزأين، في باريس، أوائل سنة ١٨٣٨. وجعلتكِ معروفة، خلال أسابيع، في الأوساط الثقافية والأدبية الفرنسية. لقد كتبتِها بفضل تلك الطاقة الجامحة التي بدأتِ تفقدينها في هذه الشهور الأخيرة فقط، خلال جولتك.

الكتاب المكتوب بتمهل، أثناء تنقلاتك في مفوضيات الشرطة، وأمام المحاكم والدعوات الشرطية، للرد على المطالب الجنونية لشازال الذي لم يكن يريد - مثلما اعترف هو نفسه أمام المحكمة التي حاكمته على محاولة اغتيالك - انتزاع حضانة الابنين، بقدر ما يريد الانتقام، الانتقام من هذه الوقحة التي تجرأت، بالرغم من كونها زوجته أمام القانون، على هجره. وتتباهى أمام الجميع، في مقالات وكتب، بمآثرها المشينة: الهرب من منزل الزوجية، والسفر إلى البيرو، متظاهرة بأنها عازبة، ومفسحة المجال لرجال آخرين، بمغازلتها وخطب ودها. وهي تفتري عليه فوق ذلك، بتقديمه إلى الرأي العام على أنه كائن متعسف ومتوحش.

وقد انتقم أندريه شازال فعلاً. انتقم باغتصابه المسكينة ألين، وهو يعلم أن هذه الجريمة ستجرح الأم والطفلة على السواء. وعادت إلى الإحساس بدوار ذلك الصباح من نيسان ١٨٣٧، عندما وصلت إلى يديها رسالة ألين. لقد سلّمت الطفلة الرسالة إلى سقاء خدوم، أوصلها إلى فلورا شخصياً. مضت، وقد أصابها مس من الجنون، لتنقذ ابنتها، وتشكو مغتصب المحارم إلى الشرطة. فاعتدى عليها في الشارع، قبل أن يلقي رجال الشرطة القبض عليه. ما لا يُصدَّق -

أليس كذلك، يا فلوريتا؟ - هو أن المحاكمة، بدل أن تكون حول الاغتصاب وزنا المحارم الذي اقترفه زوجها، تحولت، بفضل مهارة المحامي جول فافر الخطابية، لتدور حول شخصية فلورا تريستان غير السوية، وأخلاقها المشبوهة، وسلوكها المستَنكَر! فأعلنت المحكمة أن الاغتصاب «لم يُثبت». وأمرت بنقل الطفلين إلى سكن داخلي، حيث يمكن لأبويهما زيارتهما منفصلين. هكذا كانت العدالة الفرنسية للنساء، يا فلوريتا. ولهذا السبب دخلتِ غمار هذه الحرب الصليبية، يا أندلسية.

ظهور *اغتراب منبوذة*، منحها شهرة أدبية وبعض المال - نفدت طبعتان خلال وقت قصير -، ولكنه سبب لها المشاكل أيضاً. فالفضيحة التي أثارها الكتاب في باريس - لم يحدث من قبل، أن عرّت امرأة حياتها الخاصة، بمثل تلك الصراحة، أو كشفت عن وضعها كـ«منبوذة»، أو جاهرت بتمردها ضد المجتمع، والتقاليد، والزواج مثلما فعلتِ أنتِ - لم تكن تقارن بتلك الفضيحة التي أثارها في البيرو، عندما وصلت النسخ الأولى إلى ليما وأريكيبا. كنتِ تتمنين لو أنك هناك، وأن تري وتسمعي ما يقوله أولئك السادة الغاضبون، ممن يقرؤون بالفرنسية، وهم يرون أنفسهم مرسومين بتلك الطريقة الوقحة. وأبهجكِ أن البرجوازيين في ليما، قد أحرقوا، في المسرح المركزي، صورة لك، وأن عمك، دون بيو تريستان، ترأس احتفالاً في ساحة السلاح، في أريكيبا، أحرق فيه، بصورة رمزية، نسخة من *اغتراب منبوذة*، تعبيراً عن احتقار مجتمع أريكيبا البرجوازي الراقي لكِ. غير أن ما كان أقل بهجة، هو قطع دون بيو الدّخلَ الضئيل الذي أتاح لكِ العيش، حتى ذلك الحين. الحرية لا تأتي مجاناً، يا فلوريتا.

كاد الكتاب أن يكلفك حياتك. فأندريه شازال لم يغفر لك الصورة القاسية التي رسمته بها. وقد أمضى أسابيع وشهوراً هو يجتر الجريمة. لقد عُثر، في جحره في مونمارت، على رسوم مدافن

ولوحات قبور للـ «المنبوذة»، تحمل تاريخ نشر كتاب *اغتراب*. وفي شهر أيار من تلك السنة، اشترى مسدسين، وخمسين رصاصة، وباروداً، ورصاصاً، وكبسولات، دون أن يهتم بتمزيق الإيصالات. ومنذ ذلك الحين، راح يتباهى، في الحانة، أمام أصدقائه الطبّاعين الحجريين، بأنه سيحقق العدالة، بيده، عما قريب، «ضد هذه الإيزابل[1]». وقد أخذ معه إرنست-كاميل الصغير في بعض أيام الآحاد، ليراه وهو يتدرب على مسدسيه، بالرماية على الهدف. وقد رأيته طوال شهر آب، يحوم حول بيتك، في شارع دوباك. وبالرغم من أنكِ أخبرتِ الشرطة، إلا أنها لَم تفعل شيئاً لحمايتك. في العاشر من أيلول، خرج أندريه شازال من جحره في مونمارت، وذهب لتناول الغداء، بهدوء تام، في مطعم صغير، على بعد خمسين متراً من بيتك. أكل بهدوء، مركزاً على القراءة، في كتاب في الهندسة. وكان يدون عليه ملاحظات، حسب قول صاحب المحل. وفي الساعة الثالثة والنصف، بينما أنتِ عائدة إلى بيتك ماشية، ومختنقة بالحر الصيفي، شممتِ من بعيد رائحة شازال الكريهة. رأيته يقترب، وعرفتِ ما الذي سيحدث. لكن حكّة كرامة أو كبرياء، منعتكِ من الهرب راكضة. واصلتِ المشي، ورأسكِ مرفوعة عالياً. ومن مسافة ثلاثة أمتار عنكِ، رفعَ شازال أحد المسدسين اللذين يحملهما في يديه، وأطلق النار. سقطتِ على الأرض، بفعل الرصاصة التي دخلت جسمكِ، من أحد الإبطين، واستقرت في صدرك. وعندما استعدَّ شازال، لإطلاق المسدس الثاني، مصوباً إليك، تمكنتِ من النهوض، والركض حتى دكان مجاور. وهناك غبتِ عن الوعي. وقد عرفتِ، في ما بعد، أن شازال، ذلك الضعيف، لم يتوصل إلى إطلاق النار من المسدس الثاني، وسلّم نفسه للشرطة

---

[1] إيزابل المقصودة، هي زوجة آخاب التي عوقبت على خيانتها، وأكلتها الكلاب، كما جاء في العهد القديم.

دون مقاومة. وهو يقضي الآن حكماً بالسجن، لعشرين سنة من الأشغال الشاقة. لقد تحررتِ منه يا فلورا. إلى الأبد. بل إن العدالة سمحت لك بتغيير كنية ألين وإرنست-كاميل، من شازال إلى تريستان. إنه تحرر متأخر، ولكنه مؤكد. غير أن شازال ترك فيك، كذكرى، هذه الرصاصة التي قد تقتلك في أية لحظة، لدى أدنى حركة تتحركها باتجاه قلبك. فالدكتوران ريكاميه وليسفرانك، بالرغم من كل جهودهما، ومن تلك المسابر التي يدخلونها في جسمك، لم يتمكنا من إخراج الطلقة. لقد جعلت محاولة الاغتيال منك بطلة. وطوال فترة نقاهتك، تحول بيتك الصغير، في شارع دوباك، إلى مكان يغص بالرواد. فقد أمته شخصيات باريس المشهورة، ابتداء من جورج صاند حتى أوجين سو، ومن فيكتور كونسيدران حتى بروسبير إنفانتان. كانوا جميعهم يأتون للاطمئنان على صحتك. لقد صرت أوسع شهرة من مغنية أوبرا أو بهلوانة سيرك، يا فلوريتا. لكن موت ابنك الصغير إرنست-كاميل، المفاجئ والقاسي مثل زلزال، جاء ليعكر تلك الحال التي بدت كما لو أنها نهاية تعاساتك، وبداية مرحلة سلام ونجاح في حياتك.

لقد كان الدكتوران ريكاميه وليسفرانك، مخلصين ومتعاطفين معك، حتى إنك أمليت، قبل البدء بجولة تنشيط **الاتحاد العمالي**، وصية خطية، تبرعتِ إليهما بمقتضاها بجسدك، في حالة الوفاة، كي يستخدماه في أبحاثهما السريرية. أما رأسك، فتبرعت به لجمعية علوم الفِراسة الجمجمية، في باريس، تقديراً لذكرى الجلسات التي حضرتِها هناك، وخلّفت لديك انطباعاً بالغ الاستحسان بهذا العلم الجديد.

وعلى الرغم من نصائح الدكتورين، بأن تعيشي حياة هادئة، نظراً لوجود قطعة المعدن الباردة في صدرك، إلا أن نشاطاتك، فور تمكنك من النهوض والخروج، حققت إيقاعاً دوارياً. فبعد ما نلته من شهرة الآن، صارت الصالونات تتنازعكِ. وكما في أريكيبا، بدأت

تمارسين حياة اجتماعية في باريس: استقبالات، سهرات، حفلات شاي، مسامرات ثقافية. بل إنكِ انجررت إلى حفلة رقص تنكرية في دار الأوبرا التي أدهشتك أُبَّهتُها. وفي تلك الليلة، تعرفتِ على امرأة نحيلة، ذات عينين نفاذتين - فاتنة بملامح قوطية - قَبّلت يدكِ، وقالت لك بنبرة رقيقة: «أنا أقدرك وأحسدك يا مدام تريستان. اسمي أولمبيا ماليسويسكا. أيمكننا أن نكون صديقتين؟». ستصبحان كذلك، وبصورة حميمة جداً، بعد بعض الوقت.

لو لم تكوني مثلما أنتِ يا فلوريتا، لاستطعتِ التحول إلى سيدة كبيرة، بفضل الشعبية التي وفرها لك ***اغتراب منبوذة***، ومحاولة الاغتيال. لكنتِ الآن جورج ساند أخرى، سيدة عالم كبير، تلقين التدليل والاحترام، وتعيشين حياة اجتماعية زخمة، وتستنكرين الظلم في الوقت نفسه، في كتاباتكِ. اشتراكية صالونات محترمة، هذا ما ستكونين عليه. ولكنكِ أدركتِ على الفور، أنه لن يكون بإمكان حورية صالونات باريسية، أن تغيّر الواقع الاجتماعي قيد أنملة، ولا أن تمارس أدنى تأثير في الشؤون السياسية. لا بد من الممارسة. كيف، كيف؟

خيل إليكِ، حينذاك، أن الأمر يتحقق بالكتابة، وأن الأفكار والكلمات ستكون كافية. كم كنتِ مخطئة. لقد كانت الأفكار جوهرية؛ غير أن الكلمات الجميلة، ما لم يرافقها عمل حاسم من جانب الضحايا - النساء والعمال - تتحول إلى دخان، ولا تتعدى مجالس الثرثرة الباريسية. ولكنكِ قبل ثماني أو تسع سنوات، كنتِ تعتقدين أن الكلمة المطبوعة التي تستنكر الداء وتشهر به، ستكون كافية لإحداث التغيير الاجتماعي، ولهذا كتبتِ بتسرع، بحماسة، في كل شيء وعن كل شيء، حارقة أهدابك على ضوء قنديل، في شقتك الصغيرة، في شارع دوباك. وكنت ترين من نوافذها، أبراج سان سولبيس المربعة، وتسمعين نواقيسها التي تجعل زجاج غرفة نومك يهتز. كتبتِ عريضة من أجل ***إلغاء حكم الإعدام***، وطبعتِها، وحملتِها

بنفسك إلى مجلس النواب، دون أن تخلّف أدنى أثر بين البرلمانيين. وكتبتِ *Méphis*، رواية حول الاضطهاد الاجتماعي للمرأة واستغلال العامل، قرأها قلة من الناس، واعتبرها النقد بالغة السوء. (ربما كانت كذلك. ليس مهماً: فالمهم ليس الجمالية التي تنوم الناس في حلم بهيج، وإنما إصلاح المجتمع.) وكتبتِ مقالات في ***لفولور***، وفي ***الفنان***، وفي ***الكون***، وفي ***الفالانج***، وألقيتِ محاضرات، وشاركتِ في مناظرات، لإدانة ذلك البيع والشراء للنساء، الذي يشكله الزواج، وللمطالبة بإقرار الطلاق، أمام صمم السياسيين وأحبار الكاثوليكية.

وعندما زار المصلح الاجتماعي الإنكليزي روبرت أوين فرنسا، سنة ١٨٣٧، ذهبتِ لمقابلته، أنت التي لا تكادين تعرفين تجاربه التعاونية والمجتمعية الصناعية الزراعية، المنظمة وفق العلم والتقنية، في نيو لانرك، في اسكتلندا. أخضعته لاستجواب مطول حول نظرياته، أعجب هو نفسه به؛ حتى إنه ردّ لك الزيارة، بالطرق على باب شقتك، في شارع دوباك، مثلما فعل شارل فورييه من قبل، عندما كنتِ تقيمين في شارع شيرش-ميدي. كان أوين ذو الست والستين سنةً من العمر، أقل علماً وأحلاماً من فورييه، وأكثر منه برغماتية. يعطي الانطباع بأنه شخص ينفذ مشاريعه. تناقشتما، واتفقتما في الرأي، ودعاكِ لأن تذهبي لتري بأم عينك، في نيو لانرك، نتائج ذلك المجتمع الصغير الذي أحلّ التضامن محل الجشع، ونَشّط التعليم المجاني، دون عقوبات جسدية للأطفال، وأقام متاجر تعاونية للعمال، حيث تباع السلع بسعر الكلفة، وراح يتشكل فيه مجتمع أناس أصحاء وسعداء. فكرة العودة إلى إنكلترا، البلاد التي تتذكرينها، برعب، منذ أيام عملك خادمة لأسرة سبينس، أغوتك وأخافتك. لكن الدودة ظلت تقرض دماغك. ألن يكون رائعاً الذهاب إلى لندن، ودراسة وتقصي كل شيء حول المسألة الاجتماعية، مثلما فعلتِ في البيرو. وصبّ ذلك كله، في ما بعد، في كتاب تشهيري يهز ركائز الإمبراطورية البريطانية، ذلك المجتمع المضمخ بالنفاق والأكاذيب؟ ما إن وضعتِ

تصورك للمشروع، حتى بدأتِ البحث عن الطريقة لوضعه موضوع التنفيذ.

آه يا فلوريتا، من المؤسف أن الجسد يحرم روحكِ من الحيوية التي كنت قادرة بها، قبل سبع سنوات، على القيام بعدة أمور دفعة واحدة، متخلية عن النوم والأكل إذا تطلب الأمر. أما الآن، فالجهود التي تفرضينها على نفسك، تتطلب منك إرادة هائلة كي تتجاوزي الإنهاك، هذا الإكسير الذي يخدر، ويبدو أنه يُتلف، عظامك، عضلاتك، ويجبركِ على الاسترخاء، في سرير، أو على أريكة، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، شاعرة بأن الحياة تنسَلُّ منكِ.

على هذه الحال من الإنهاك كانت، بعد اجتماع ثانٍ مع جماعة من أنصار فورييه في مونبليه، بناء على طلبهم. ذهبتْ إلى الموعد مذهولة. فقد جمعوا مبلغاً صغيراً من تبرعاتهم، وسلّموها عشرين فرنكاً للاتحاد العمالي. ليس كثيراً، ولكن شيئاً أفضل من لا شيء، على الدوام. ظلت تناقشهم وتمازحهم، إلى أن اضطرها إنهاك مفاجئ إلى وداعهم، والعودة إلى فندق ميدي.

وجدت بانتظارها هناك رسالتين. فتحت أولاً رسالة إلينور بلان. إلينور الوفية، دائمة النشاط والمودة. كانت تقدم لها في الرسالة، رصداً مفصلاً لنشاطات لجنة ليون، والمنضمين الجدد إليها، والاجتماعات، وجمع التبرعات، وبيع الكتب، والجهود لاجتذاب العمال. وكانت الرسالة الثانية من صديقها، الفنان جول لور الذي تربطها به علاقة متينة. كان يشاع في الصالونات الباريسية أنهما عشيقان، وأن لور هو من ينفق عليها. الأمر الأول كان زائفاً، لأن جول لور، بعد أن رسم صورتها، قبل أربع سنوات، صارحها بحبه، فصدته فلورا بصراحة جافة. طلبت منه، بصورة حاسمة، ألا يلح. فمهمتها، ونضالها، يتعارضان مع أي عاطفة غرامية. وقالت إنها تخلت عن الحياة العاطفية، كي تتصرف، بجسدها وروحها، إلى مهمة تغيير المجتمع. ومهما بدا ذلك غريباً، فإن جول لور قد تفهمها. فرجاها،

بما أنه لا يمكن لهما أن يكونا عشيقين، أن يظلا صديقين، أخوين، رفيقين. وهذا هو ما كانا عليه. وقد وجدت فلورا في الرسام، شخصاً يحترمها ويحبها، شخصاً تبوح له، وحليفاً يقدم لها الصداقة والدعم في لحظات الضعف والوهن. وفضلاً عن ذلك، كان لور الذي يتمتع بوضع اقتصادي جيد، يساعدها أحياناً على تجاوز مشاكلها المادية. ولم يعد قط إلى التحدث عن الحب، أو مجرد لمس يدها.

كانت رسالته تحمل أخباراً سيئة. فصاحب شقتها في الرقم ١٠٠، شارع دوباك، قد طردها لأنها لم تدفع الإيجار عدة شهور متتالية. أخرج سريرها وكل ممتلكاتها إلى الشارع. وعندما أُخبر جول لور بما حدث، وهرع لإنقاذ تلك الممتلكات، ونقلها إلى مستودع، كانت قد انقضت عدة ساعات. وهو يخشى أن أشياء كثيرة من ممتلكاتها قد سُرقت من قبل أناس من الحي. ظلت فلورا مذهولة لبرهة. وراح نبض قلبها يتسرع، ينخسه السخط. وتخيلت، وهي مغمضة العينين، تلك العملية الدنيئة: الصناديق، والملابس، والأوراق، تتدحرج على السلّم، وتُكوّم على أحجار الشارع. لم تستطع البكاء، إلا بعد مرور بعض الوقت، والفضفضة عن نفسها، بإطلاقها الشتائم، بصوت عال، ضد أولئك «الأوغاد التعساء»، أولئك «المؤجرين المقرفين»، أولئك «السُّرّاق القذرين». وزمجرت: «سنحرق الملاكين كلهم، أحياءً»، وتخيلت محارق يتصاعد منها الدخان، في أركان باريس، تشوى عليها تلك الحثالات، إلى أن غلبها الضحك، لكثرة ما أطلقت من اللعنات. مرة أخرى، تأتي هذه التخيلات الخبيثة، لتهدئ من غلوائها: إنها لعبة تمارسها منذ طفولتها في شارع دوفوار، وتأتي بنتيجة على الدوام.

ولكنها، بعد ذلك مباشرة، متجاهلة أنها صارت بلا بيت، وفقدت دون شك، جزءاً كبيراً من ممتلكاتها القليلة، راحت تفكر في طريقة توفر بها للثوريين، حداً أدنى من الطمأنينة، بشأن المسكن والمأكل، عندما يخرجون في مهمات لكسب الأنصار والتبشير بالإصلاح

الاجتماعي. وقد فاجأها منتصف الليل، وهي لا تزال تعمل، في غرفتها الضيقة في الفندق، على ضوء قنديل متراقص، في مشروع «ملاجئ» للثوريين، على طريقة أديرة أو بيوت الرهبان الجزويت، حيث يجدون بانتظارهم على الدوام، سريراً للنوم، وطبق حساء ساخن، عندما يخرجون عبر العالم للتبشير بالثورة.

XVIII. الرذيلة المتأخرة

أتونا، كانون الأول ١٩٠٢

- هل كنت ترغب، طوال الوقت، في أن تكون رساماً يا بول؟ - سأله فجأة، القس بول فرنيه.

كانوا قد شربوا، وأكلوا «العجة الرغوية» الرائعة التي أعدها صاحب البيت، وتناقشوا حول المشاكل التي جلبها لبول - برأي بن فارني وكي دونغ - تحديه السلطة، بتحريضه الماركيزيين على عدم دفع الضرائب. وكانوا قد ضحكوا وهم يتخيلون غضب الأسقف مارتين، حين يعلم أن كوكي قد وضع للتو، في حديقته، منحوتتين خشبيتين تلمحان إلى أكثر ما يمكن أن يؤلم الكردينال: منحوتة لراهب بقرنين، يصلي، وله وجه الأسقف، بعنوان ***الأب فجور***، ومرأة ذات ثديين ضخمين، تعرض مؤخرتها بخلاعة بعنوان، ***تيريسا***، مثل اسم الخادمة التي تقول الشائعات في أتونا، إنها عشيقة الأسقف. وكانوا قد تجادلوا حول إذا ما كانت السفينة الغامضة التي مرت قبالة الجزيرة، في البعيد، وسط المطر والضباب، هي إحدى سفن صيد الحيتان الأمريكية التي تجلب سوء الطالع، وتُقلق وطنيي هيفا وا، لأنها تختطف أناساً من الجزيرة، لتضمهم بالقوة إلى طاقمها. ولكنهم، نزولاً عند حجج فربول وبن فارني، بأن سفن صيد الحيتان لم تعد تأتي، لأنه لم يبق ثمة حيتان في المنطقة، قرروا أن السفينة التي لمحوها لا وجود لها، وأنها ليست سوى سفينة شبح.

سؤال القس البروتستانتي المفاجئ، أصاب بول بالارتباك. كانوا يتبادلون الحديث في حديقة بيت المتعة الغارقة بالماء. لحسن الحظ أن المطر كان قد توقف. وحين انشقت السحب، قبل نحو ساعة، كشفت عن سماء صافية الزرقة، وشمس سطعت بقوة كبيرة. كان

المطر قد هطل طوفانياً طوال الأسبوع، وقد جاء توقفه هذا ليبعث السعادة في نفوس أصدقاء بول الخمسة: كي دونغ، وبن فارني، وإميل فريول، وجاره تيوكا، والراعي فرنيه، زعيم البعثة البروتستانتية. داعب الآخرون في أيديهم كؤوس الأفسنتين أو الروم، وكانت عيونهم ثملة.

- هل أحسست بالميل إلى الفن منذ طفولتك - قال فرنيه ملحاً -. إنني مهتم جداً بقضية الميول. سواء أكانت دينية أم فنية. لأنني أرى أن هناك أشياء كثيرة مشتركة في الأمرين.

كان القس فرنيه رجلاً ضامراً، لا زمانياً، يتكلم برقة كبيرة، مداعباً الكلمات. به شغف إلى الأرواح والأزهار؛ حديقته الممتدة تحت أشجار التمر الهندي البديعة، في مقر البعثة التبشيرية التي يراها كوكي من مرسمه، هي أفضل حديقة في المدينة، والأكثر عبقاً في أتونا. لقد كان وجه القس يحمّر كلما تلفظ بول، أو الآخرون، بكلمات بذيئة، أو أتوا على ذكر الجنس. وهو ينظر الآن إلى كوكي باهتمام حقيقي، كما لو أن مسألة الميل الفطري تهمه حقاً.

- حسن، لقد داهمتني هذه الرذيلة في وقت متأخر - قال بول ساهماً - فأنا لم أرسم ولو صورة بهلول، قبل الثلاثين من عمري. كنت أرى في الفنانين أشخاصاً بوهيميين ومخنثين. وكنت أحتقرهم. وعندما تركتُ البحرية، مع انتهاء الحرب، لم أكن أدري ما الذي سأفعله في الحياة. ولكن الشيء الوحيد الذي لم يكن يخطر لبالي، هو أن أصير رساماً.

ضحك أصدقاؤك، معتقدين أن ما تقوله هو واحدة من دعاباتك المعتادة. ولكن قولكَ كان صحيحاً، صحيحاً، يا بول. حتى وإن لم يفهم أحد الأمر، بمن في ذلك أنت نفسك. إنه سر حياتك الكبير يا كوكي. لقد تأملت الأمر، وفكرت فيه ألف مرة، دون أن تجد تفسيراً. هل كنتَ تحمل تلك الدودة من المهد؟ وهل كانت تنتظر اللحظة، والظروف المناسبة لكي تظهر؟ لقد لمَّح إلى ذلك، للتو، كي دونغ الذي كان الماء يقطر من ردائه المزين برسوم أزهار.

- من المستحيل أن يظهر الميل إلى الرسم فجأة، في حياة رجل ناضج، يا بول. أخبرنا بالحقيقة.

هذه هي الحقيقة، حتى لو لم يصدقكَ أصدقاؤك. ليس هناك في ذاكرتك أدنى أثر للاهتمام بالرسم، أو بأي شكل من الفنون، في السنوات التي كنتَ تجوب فيها بحار العالم، في سفن البحرية التجارية، ولا في ما بعد أيضاً، عندما كنت تؤدي الخدمة العسكرية في السفينة **جيروم-نابليون**. ولا قبل ذلك أيضاً، في مدرسة المونسنيور دوبنلوب الداخلية، في أورليان. لقد صارت ذاكرتك تخلط الأمور مؤخراً، غير أنك واثق من ذلك: فأنت لم ترسم أي خربشة، سواء وأنت تلميذ في المدرسة أو وأنت بحار. ولم تزر متحفاً، ولم تدخل صالةً لعرض الفن. وعندما سُرِّحت من الخدمة العسكرية، وذهبتَ للعيش في باريس، حيث الوصي عليك غوستاف أروزا، لم تبدِ اهتماماً كبيراً كذلك، بالرسوم المُعلقة على الجدران؛ وإنما كنت تنظر بفضول فقط، إلى منحوتات الإنكا القدماء الصغيرة، المشغولة من الصلصال المشوي، التي يملكها الوصي عليك. ولكن، هل كنتَ تنظر إليها لأسباب فنية أم لأنها تذكرك بتلك الدمى ما قبل الإسبانية التي كثيراً ما أعطوكَ إياها، وأنت طفل، في بيت عم جدتك، دون بيو تريستان؟

- وما الذي كنتَ تفعله إذن، ما بين العشرين والثلاثين من عمرك؟

- سأله بِن. وكان صياد الحيتان السابق، صاحب متجر أتونا، محتقن الوجه، وعيناه شبه زائغتين. لكن صوته لم يكن صوت مخمور، بعد.

- كنتُ وكيل بورصة، خبيراً مالياً، مصرفياً - قال بول - وكنت أقوم بذلك العمل على أحسن وجه، حتى لو لم تصدقوني. ولو أنني واصلت هناك، فربما كنت الآن مليونيراً. برجوازياً كبيراً يدخن السيجار، ويقوم بأود عشيقتين أو ثلاث عشيقات. اعذرني أيها القس.

احتفوا بما قاله. وبدت ضحكة فربول الضخم الذي عمّده بول

بلقب بوسيدون، بسبب ضخامته الجسدية وشغفه بالبحر، كما لو أنها تجرف أحجاراً. وحتى تيوكا، المتأمل الجامد، ضحك بينما هو يداعب لحيته الكبيرة البيضاء، كما لو أنه يُخضع كل ما يسمعه لاجترار فلسفي. لا يمكنهم تصوركَ كرجل أعمال، وأنتَ هذا المتوحش الذي صرت إليه الآن يا بول. ليس ذلك غريباً. فحتى أنتَ نفسك لا تصدق ذلك الآن، بالرغم من أنكَ عشته. ولكن، هل كنتَ أنتَ ذلك الشاب، ذا الثلاثة والعشرين عاماً، الذي اقترح عليه غوستاف أروزا، في محادثة بالغة الجديّة، وأنتما تشربان الكونياك في بيته، في باسي، أن يتوجه إلى الأعمال في البورصة، حيث يمكن جني الثروات، مثلما فعل هو؟ تقبلتَ الفكرة برغبة، وقد اعترفتَ له بالجميل - لم تكن تكرهه بعد، ولم تكن تريد أن تعرف أن أمك كانت عشيقة هذا الثري - عندما حصل لكَ على عمل في مكتب شريكه بول برتان، الوكيل المشهور في بورصة باريس. وستكون أنتَ ذلك الشاب المتأنق، المؤدب، الخجول، الذي يصل إلى المكتب بدقة مرضية، ودون أن يسهو لحظة واحدة، ينهمك لساعات وساعات، جسداً وروحاً، في تلك المهمة الشاقة، مهمة اكتساب زبائن، يعهدون إلى وكالة برتان، باستثمار أموالهم وثرواتهم في بورصة باريس. من يستطيع أن يتصور، ممن تعرفوا إليك خلال تلك السنوات العشر الأخيرة، أنكَ كنتَ في سنوات ١٨٧٢، ١٨٧٣، ١٨٧٤، موظفاً نموذجياً، يهنئه أحياناً ربُّ العمل نفسه، بول برتان شديد الجفاء والصرامة، على تفانيه، وعلى حياته المنظمة، وعلى تجنبه، خلافاً لزملائه، الإسراف في ارتياد المقاهي والحانات، حيث يسرعون جميعهم إليها متهافتين، بعد إغلاق المكاتب. أما أنتَ فلا. أنت رجل متمسك بالأصول، تذهب ماشياً إلى الحجرة المستأجرة في شارع بريير، بعد تناول عشاء بسيط في مطعم مجاور، لتواصل مراجعة أوراق المكتب على منضدة مكسورة القائمة.

- أمر لا يُصدق يا بول - هتف الراعي البروتستانتي فرنيه، رافعاً

صوته، لأن رعداً بعيداً كان يطغى عليه -. هل كنتَ هكذا في شبابك؟

- كنتُ برجوازياً متدرباً مقرفاً أيها القس. أنا نفسي لا أصدق ذلك الآن.

- وكيف حدث التبدل؟ - تدخل فريول ذو الصوت الراعد.

- بل قل المعجزة - صحح له كي دونغ. وكان الأمير الأنامي ينظر إلى بول مستغرباً، وبملامح استغراق في التأمل. وأضاف:- كيف حدث ذلك؟

- لقد فكرتُ كثيراً في الأمر، وأظن أن لدي الآن جواباً واضحاً - استبقى بول في فمه، بتلذذ، رشفة أفسنتين حلوة ولاذعة، وعب نفساً من غليونه، قبل أن يواصل:- المُفسد، من دمر مسيرتي كبرجوازي، هو شوف الطيب.

كتفان متهدلان، نظرة كلبية، مشية متعبة، لهجة ألزاسية تثير ابتسامات: إنه كلود هنري شوفنكير. شوف الطيب. من أين لك أن تتخيل، يا بول، عندما دخل هذا الرجل الخجول، الطيب، والسمين، للعمل في وكالة برتان - كان أكثر تأهيلاً منكَ، فقد درس التجارة وهو مسلح بشهادة جامعية -، التأثير الذي سيُحدثه في حياتك. كان ذلك الزميل اللطيف، الودود، الهياب، المذعور، ينظر إليك باحترام. ويحسد قوة شخصيتك وتصميمك. لقد أخبرك بذلك، وهو يتورد خجلاً. صرتما صديقين حميمين. ولم تكتشف إلا بعد عدة أسابيع، أن هذا الزميل المكبوت والهياب، يخبئ، تحت مظهره الضعيف، شغفين اثنين، راح يكشف لك عنهما مع تقدم صداقتكما: الفن والديانات الشرقية، وبخاصة البوذية التي قرأ عنها كلود-إميل الكثير. أتراه لا يزال مهتماً ببلوغ النيرفانا؟ ولكن طريقة شوف بالحديث عن الرسم والرسامين، هي ما فاجأكَ، أدهشكَ، ونقل إليك، شيئاً فشيئاً، العدوى. فالفنانون في نظر شوف الطيب، هم كائنات من جنس آخر، نصف ملائكة ونصف شياطين، مختلفون في جوهرهم عن البشر العاديين. والأعمال الفنية تشكل واقعاً قائماً

بذاته، أكثر نقاء، وأكثر كمالاً، وأكثر تنظيماً، من هذا العالم القذر والفظ. والدخول في عالم الفن هو اقتحام حياة أخرى، لا تغتني فيها الروح وتستمتع الحواس وحدها، وإنما الجسد كذلك.

– لقد كان يُفسدني دون أن أنتبه – ورفع بول نخباً :– في صحة شوف الطيب! كان يجرجرني إلى معارض الرسم، إلى المتاحف، إلى محترفات الفنانين. جعلني أدخل إلى اللوفر أول مرة، لرؤية نسخ من أعمال الكلاسيكيين. وفي أحد الأيام، لا أدري كيف، ولا أدري متى، بدأت أرسم، خفية، في أوقات فراغي. هكذا بدأت هذه الرذيلة المتأخرة. أتذكر إحساسي بأنني كنت أفعل شيئاً سيئاً، مثلما عندما كنتُ صغيراً، في أورليان، عند العم زيزي، حين كنت أستمني أو أتلصص على الخادمة وهي تتعرى. أمر غير معقول، أليس كذلك؟ وذات يوم، جعلني أشتري حاملة لوحات. وفي يوم آخر، علمني الرسم الزيتي. لم أكن قد أمسكت بيدي ريشة من قبل. علمني تحضير الألوان، مزجها. ومثلما قلت لكم؛ لقد أفسدني! بوجهه البريء كوجه ذبابة ميتة، ومظهره الذي يقول أنا لستُ أحداً، أنا لا وجود لي. أحدث شوف الطيب انقلاباً في حياتي. وبسبب ذلك الألزاسي السمين، أنا هنا، في أقصى العالم هذا.

ولكن، ألم يكن الحدث الحاسم هو تلك الزيارة إلى معرض الرسم، في شارع فيفيان، حيث كانت تعرض لوحة *أولمبيا* لإدوارد مانيه، وليس الطيب شوف؟

– كنتُ كمن أصابته صاعقة، كمن يرى رؤيا – أوضح باول –. *أولمبيا* إدوارد مانيه، أكثر لوحة أثرت بي. لقد فكرتُ: «أن ترسم هكذا يعني أن تكون سنتَوراً، إلهاً». وفكرت: «أنا أيضاً يجب أن أصير رساماً». لم أعد أتذكر جيداً. ولكن الأمر جرى على هذا النحو، تقريباً.

– هل يمكن للوحة أن تبدل حياة إنسان؟ – قال كي دونغ وهو ينظر إليه بارتياب.

كان فوق رؤوسهم الآن، من جديد، دوي رعد وبرق جهنمي، وكانت

الريح تهز كل أشجار أتونا بغضب. ولكن هطول المطر لم يكن قد تجدد بعد. وحجبت غيوم كثيفة الشمس من جديد. واختفت الهيئة الغابية لجبلي تيميتيو وفياني. صمت الأصدقاء، إلى أن أتاح لهم توقف جديد للعاصفة، سماع أصوات بعضهم بعضاً.

- أنا، غيَّرت لوحةٌ حياتي، خوزقتني - أكد بول، بغضب مفاجئ -. قلبت كياني، سببت لي الكوابيس. وفجأة، لم أعد واثقاً من شيء، حتى من الأرض التي أطؤُها. أولم تروا صورة لوحة *أولمبيا*، الموجودة هنا، في مرسمي؟ سأريكم إياها.

اجتاز الحديقة الموحلة متقافزاً على الماء، وصعد إلى الجزء العلوي من **بيت المتعة**. كانت الريح تهز السلّم الخارجي كما لو أنها ستقتلعه. كانت صورة *أولمبيا* المصفرة، والغائمة بعض الشيء، تتصدر مجموعة صوره القديمة: دورير، هولبين، رامبرندت، بوفيس دي شافان، ديغاس، وبعض أعمال الحفر اليابانية، ونسخة حفر غائر لمعبد بارابودور البوذي في جاوا. عند بدء هطول المطر، قبل سبعة أيام، كان قد انتزع الصور البورنوغرافية، وخبأها تحت الفراش؛ كي ينقذها من المطر الذي نفذ عبر البامبو، وبلل الغرفة كلها. كثير من تلك الصور، المبللة، ستفقد الآن لونها الباهت. كانت صورة *أولمبيا* هي أقدمها. فقد بحثتَ عنها بلهفة، بعد أن رأيتها في ذلك المعرض، في شارع فيفيان، ولم تنفصل عنها قط، منذ ذلك الحين.

تفحصها أصدقاؤه، متداولين الصورة من يد إلى يد. ولدى تبين جسد فيكتورين ميري (أخبرهم كوكي بأنه كان قد تعرف عليها، وأن تلك الموديل لم تكن ولو مجرد ظل لصورتها، وأن مانيه قد حوّلها) العاري، المشع؛ بنظرتها المتحدية كامرأة حرة ومتفوقة على العالم بأسره، بينما خادمتها الزنجية تقدم إليها باقة أزهار، احمَّر، بالطبع، وجه القس فرنيه حتى أذنيه. وخشية أن تكون صورة العارية تلك، بداية لما هو أسوأ، تذرع بحجة كي يغادر:

- قد تفلت السماء وابلها مرة أخرى، في أية لحظة - قال مشيراً

إلى تشكيلات الغيوم القاتمة المتوعدة التي تتقدم باتجاه أتونا - لا أريد الذهاب إلى مقر البعثة سابحاً، لدينا قداس هذا المساء. وإن كنت أخشى أن أحداً لن يتمكن من المجيء، في مثل هذا الجو. لا بد أنه لم تبق نبتة واحدة منتصبة في حديقتي. الوداع لكم جميعاً. لقد كانت العجة لذيذة يا بول.

انصرف، متخبطاً في الوحل، ومتفادياً النظر إلى المنحوتتين البذيئين، **الأب فجور**، و**تيريسا**، لدى مروره بجوارهما. كان تيوكا يحدق في الصورة، وبعد مرور بعض الوقت، دون أن يتوقف عن حك لحيته الثلجية، سأل بفرنسيته البطيئة:

- أهي إلهة؟ أهي عاهرة؟ من هي هذه يا كوكي؟

- إنها الأمران معاً، وأشياء أخرى كثيرة - قال بول دون أن يضحك، مثلما ضحك زملاؤه - هذا هو الاستثنائي في هذه الصورة. إنها ألف امرأة، في امرأة واحدة. من أجل كل الرغبات، من أجل كل الأحلام. المرأة الوحيدة التي لم أملّها قط، يا أصدقاء. مع أنني أكاد لا أستطيع رؤيتها الآن. ولكنني أحملها هنا، وهنا، وهنا.

قال ذلك وهو يلمس، على التوالي، رأسه، وقلبه، وقضيبه. فاحتفى أصدقاؤه بذلك، بضحكات جديدة.

ومثلما تنبأ القس فرنيه، واصلت السماء تلبدها بسرعة كبيرة. لم تعد تظهر رابية المقبرة كذلك، غير أن هدير نهر ماكي-ماكي القوي كان مسموعاً. وعندما اشتد المطر، هرعوا وهم يحملون الكؤوس، للالتجاء في محترف النحت، وهو أكثر جفافاً من بقية أرجاء **بيت المتعة**. كانوا مبللين. تكوموا على المقعد الوحيد، وعلى الأريكة منزوعة الأحشاء. ملأ لهم بول الكؤوس من جديد. وبينما هو يفعل ذلك، انتبه إلى أن وابل المطر قد أتلف أزهار عباد الشمس في الحديقة، فأحس بالأسى عليها وعلى الهولندي المجنون. أبدى كي دونغ استغرابه لأنه لم يرَ فايوهو، طوال اليوم: أين ذهبت، في مثل هذا الجو العاصف؟

– لقد ذهبت إلى أسرتها، في قرية هاناوبي. إنها حامل، وتفضل أن تضع مولودها هناك. الحقيقة أنها تستغل هذه الحجة كي تتخلص مني. ولا أظنها سترجع. أعتقد أنها سئمت من هذا كله، وربما هي على حق.

تبادل أصدقاؤه النظرات، بقلق. لقد سئمت منكَ ومن قروحك يا بول. لم يعد بإمكان **فاهينتك** إخفاء اشمئزازها، ولستَ بحاجة لأن تراها كي تعرف ذلك. فوجهها يتشنج كلما أردتَ لمسها. ياه، يا للصبية المسكينة. إنكَ تتحول إلى شخص مقرف، إلى حطام حي، يا كوكي. ولكن، في هذه اللحظة، مع الدفء الذي يحدثه الأفسنتين في الجسم، وتبادل الحديث مع هؤلاء الأصدقاء، تريد الشعور بأنك على ما يرام، بالرغم من غضب السماء. فخراب بضع زهرات عباد شمس لن يعكر حياتك أكثر مما هي عليه، يا كوكي.

– خلال السنوات التي أمضيتها هنا، لم أرَ مطراً مثل هذا قط – قال كي دونغ، مشيراً إلى السماء: كان وابل المطر يهز سقف البامبو وسعف النخيل المجدول، ويبدو كأنه يوشك على انتزاعه. وتضيء البروقُ الأفقَ لثوانٍ، تختفي بعدها كل جبال هيفا وا المحيطة بهم، مطموسة بغيوم سوداء ورعود مدوية. لم يعد يظهر حتى متجر بن فارني، رغم قربه الشديد. كان البحر، وراء ظهره، يبدو هائجاً. أهي نهاية العالم يا كوكي؟

وقال تيوكا:

– أنا لم أغادر قط هذه الجزيرة أيضاً، ولم أرَ أبداً مثل هذا المطر. أمر سيئ سيحدث.

– أسوأ من هذا الطوفان؟ – قال بن فارني ساخراً، وقد تثاقل لسانه، ثم التفت إلى بول، وجدد المحادثة:– أتعني أنك رميت كل شيء إلى البحر، وتفرغت للرسم؟ أنت لستَ متوحشاً، وإنما مجنون يا بول.

كان مظهر صاحب المتجر مضحكاً، بشعره المائل إلى الحمرة

واللبد الذي يغطي جبهته مثل سياج. وكان يضحك، مستمتعاً وغير مصدق.

- ليت الأمر كان بهذه السهولة - قال بول -. كنتُ متزوجاً. وبجديّة بالغة. كان لي بيت شديد البرجوازية، وامرأة تغرقني بالأبناء. فكيف يمكن إلقاء كل ذلك إلى البحر، بين عشية وضحاها؟ المسؤوليات؟ والأخلاق؟ وما سيقال؟ فقد كنتُ أؤمن بكل هذا، في ذلك الحين.

- أنت كنتَ متزوجاً؟ - فوجئ كي دونغ - وبكل ما يعنيه الزواج يا كوكي؟

بكل ما يعنيه الزواج وأكثر. هل أُغرمتَ كثيراً، يا بول، بمت غاد، تلك الشابة الدانماركية المثقفة، المشوقة؛ الفايكنغة ذات الشعر الأشقر الطويل، الآتية للتنزه في باريس، في صيف عام ١٨٧٢ ذاك؟ أنت لا تتذكر شيئاً من ذلك على الإطلاق. ولكنكَ وقعت، بكل تأكيد، في غرام الفايكنغة. فقد دعوتها، غازلتها، صارحتها بحبك، وطلبتها رسمياً للزواج، وهو أمر وافقت عليه أخيراً، أسرة مت البرجوازية، البرجوازية جداً، في كوبنهاجن، بعد تردّد طويل، وتَحريات دقيقة حول العريس. كان زفافاً حسب الأصول، في مقر بلدية الحي التاسع، وفي كنيسة باريس اللوثرية، لكي تُرضي أولئك الاسكندنافيين المتكلفين. زفاف بشمبانيا، وفرقة أوركسترا، وعدد لا بأس به من المدعوين، وهدايا سخية من الوصي عليك، غوستاف أروزا، ومن رب عملك، بول برتان. وبعد قضاء شهر عسل قصير في دوفييل، رجعت لتشغل الشقة الصغيرة في ساحة سان جورج، حيث علقت عباءة البيرويين القدماء التي أهدتها إليك أختك ماريا فرناندا، وخطيبها الكولومبي خوان أوريبي. كنت تفعل كل ما هو ملائم لشاب يعمل في البورصة، وينتظره مستقبل لامع. هذا ما كنته أنت آنذاك، يا بول. كنت تعمل كثيراً، وتكسب جيداً. في سنة ١٨٧٣ حصلتَ على ألف فرنك مكافأة - أكثر من أي واحد من زملائك في

وكالة برتان -، وكانت مِت السعيدة، تجدد ديكور البيت، وتتحرق للإنجاب بنفاد صبر. وفي ١٨٧٤، عندما ولد ابنك البكر وسمي إميل (على اسم عرابه، شوف الطيب، وإن يكن دون حرف «e» الأخير، تذكيراً بأسلافه الشماليين)، تلقيتَ مكافأة جديدة من ثلاثة آلاف فرنك. ثروة صغيرة، راحت مت غاد السعيدة تبددها على مشتريات وترهات، دون أن يخطر لها أن العدو صار في البيت. فزوجها الدؤوب المحب، كان يخربش بعض الاسكتشات خفية، وكان قد بدأ بأخذ بعض دروس الرسم والتلوين مع شوف، في أكاديمية كولارسي. وعندما اكتشفت مت ذلك، ما كانا يعيشان في ساحة سان جورج، وإنما في حي أكثر فخامة، الحي السادس عشر، في شقة بديعة بشارع شايّو، أذعن بول لاستئجارها، كي يرضي هذيانات مت وميلها إلى العظمة، بالرغم من تحذيره لها بأن في ذلك مبالغة، لا تتناسب مع دخلهما.

اكتشفت الفايكنغة رذيلة زوجها من خلال شخص آخر، كان له دور حاسم في حياتكَ خلال تلك السنوات: كاميل بيسارو. المولود في إحدى جزر الكاريبي الصغيرة، جزيرة سان توماس، حيث ساند تمرداً للعبيد، مما جعل منه شخصاً مشبوهاً. وقد جاء كاميل إلى أوربا، وتابع هنا، بكل قوة، مسيرته كفنان طليعي، إلى جانب أصدقائه من الجماعة المعروفة باسم الانطباعية، دون أن يراوده أدنى قلق من قلة من يشترون لوحاته. كان يتردد على مثقفين فوضويين، مثل كروبتكين الذي يزوره، ويقول عنه إنه «فوضوي لطيف، لا يضع قنابل». تعرّف بول على بيسارو عند الوصي عليه، غوستاف أروزا، الذي اشترى منه منظراً طبيعياً، ومنذ ذلك الحين، صارا يلتقيان بكثرة. وقد اشترى منه لوحة كذلك. لم يكن بإمكان بيسارو، العيش في باريس، بسبب ضآلة دخله. فكان لديه بيت في الريف، بالقرب من بونتواز، حيث كان، مثل بطريرك توراتي، مزود بصبر أيوب، يربي أبناءه السبعة الذين يحبونه حتى العبادة، ويتحمل

زوجته جولي، الخادم السابقة ذات الطبع المتسلط. وقد كانت تسيء إليه أمام أصدقائه، وتوبخه لعدم كفاءته في كسب المال. «أنت لا ترسم إلا مناظر طبيعية، لا تلقى إعجاب أحد»، كانت تؤنبه بحضور بول ومت، عندما يدعوهما لقضاء نهاية الأسبوع في بونتواز. «من الأفضلَ أن ترسم وجوهاً، أو حفلات ريفية، أو عاريات، مثل رينوار أو ديغاس. فأمورهما تمضي خيراً منك، أليس كذلك؟»

في أحد أيام الآحاد، بينما هم يتناولون فنجاناً من الشوكولاته، قال كاميل بيسارو، بلهجة بدت صادقة، إن لدى بول «مزاج فنان حقيقي». فوجئت مت غاد. ما معنى هذا؟

- هل صحيح ما قاله بيسارو؟ - سألت زوجها، عندما رجعا إلى باريس- هل أنت مهتم بالفن؟ لم تخبرني بشيء من ذلك قط.

الذعر، الإحساس بالذنب، أفعى تجوبكَ من رأسك حتى قدميك، يا بول. لا، يا جميلتي، مجرد تزجية للوقت. شيء أكثر صحية وحساسية من هدر الليالي في البارات والمقاهي، ولعب الدومينو مع الأصدقاء. أليس صحيحاً أيتها الفايكنغة؟ وردّت هي، بتقطيبة قلقة: بلى، بلى بالطبع. إنه حدس المرأة يا بول. أتراها تنبأت بأن الخراب قد دخل بيتها، وأن هذا الدخيل سينتهي إلى تدمير زواجها وتلهفها لأن تكون برجوازية غنية، وسيدة مجتمع في مدينة النور؟

بعد تلك الحادثة، أحسستَ، بصورة مثيرة للفضول، بأنكَ قد تحررت، وصار لك الحق بعرض رذيلتك الجديدة أمام زوجتك وأصدقائك. ولماذا لا يكون لوكيل ناجح في بورصة باريس، الحق في أن يتباهى، أمام الجميع، بهذه الهواية الفنية التي يمارسها في أوقات فراغه، مثلما يتباهى آخرون بالبلياردو والخيول؟ في عام ١٨٧٦، وفي تصرف جريء، طلبتَ من أختك ماريا فرناندا، وزوجها الجديد خوان أوربي، أن يعيراك اللوحة التي أهديتها إليهما بمناسبة زفافهما، ***غابة فيروفلاي الصغيرة***، وتقدمت بها إلى المعرض السنوي. وقد قُبلت، من بين مئات المتطلعين إلى المشاركة. من أسعده ذلك

كثيراً هو كاميل بيسارو، وقد صار منذ ذلك الحين، يقدمكَ على أنكَ تلميذه. أخذكَ إلى مقهى الأتينيه الجديد، في كلشي، مقر الأركان العامة لأصدقائه. كان الانطباعيون قد أنهوا للتو، معرضهم الجماعي الثاني. وبينما كان ديغاس المهيب، ومونيه متكدر المزاج، ورينوار المرح، يتبادلون الحديث مع بيسارو - برميل بشري بلحية بيضاء ومزاج طيب لا يعكره شيء -، كنتَ تبقى صامتاً، خجلاً أمام أولئك الفنانين، لأنكَ لستَ سوى وكيل في البورصة. وذات ليلة، عندما ظهر في الأتينيه الجديد، إدوار مانيه، صاحب لوحة *أولمبيا*، أصابكَ الشحوب، كما لو أنه سيغمى عليكَ. ولم تكد تتلعثم بأكثر من تحية، تحت وطأة التأثر. كم كنتَ مختلفاً آنذاك يا كوكي! وكم كنتَ بعيداً عما أنتَ عليه الآن! ما كان بإمكان مِت أن تتذمر، لأنكَ كنت لا تزال تكسب الكثير من النقود. فقد تلقيتَ في ١٨٧٦، فضلاً عن راتبك، مكافأة بقيمة ثلاثة آلاف وستمئة فرنك، وفي السنة التالية، عندما ولدت ألين، انتقلت إلى بيت جديد. فقد أجّر إليكَ النحات جول-إرنست بويوه شقة ومرسماً صغيراً، في فوجيرار. هناك بدأت بقولبة الصلصال، ونحت الرخام، تحت إشراف صاحب البيت. هل كان رأس مِت الذي نحته، بجهد كبير، عملاً مقبولاً؟ أنت لا تتذكر ذلك.

- لا بد أن تلك الحياة المزدوجة كانت شاقة - لاحظ كي دونغ -. وكيل بورصة، عدة ساعات في اليوم، والرسم والنحت في أوقات الفراغ. إنك تذكرني بنفسي، في الزمن الذي كنتُ فيه ثورياً، في آنام. ففي النهار، كنتُ موظفاً حذراً في الإدارة الاستعمارية. وفي الليل، أقوم بالثورة. كيف استطعتَ عمل ذلك يا بول؟

- لم أستطع - قال بول - ولكن، ماذا بإمكاني أن أفعل. لقد كنتُ برجوازياً صاحب مبادئ. كيف يمكن لي أن ألقي إلى الشيطان بكل ما أحمله على كاهلي: زوجة، أبناء، حياة آمنة، واسم طيب؟ ولحسن الحظ أنني كنت أتمتع بطاقة بركان. فأربع ساعات من النوم كانت تكفيني.

- يجب أن أقدم لك نصيحة، الآن وأنا سكران - قاطعه بن فارني، مغيراً موضوع الحديث فجأة. كان صوته متلعثماً، وتكشف عيناه بصورة خاصة، عن أنه مخمور - دعك من الخصام مع السلطات في أتونا، لأنك ستخسر. فهم أقوياء، ونحن لسنا كذلك. لا يمكننا مساعدتك يا كوكي.

هز بول كتفيه، وشرب رشفة من الأفسنتين. تكلف مشقة في الانفصال عن ذلك الرجل الذي كان عليه، وهو في الثانية والثلاثين، والثالثة والثلاثين، والرابعة والثلاثين، هناك في باريس، موزعاً بين واجباته الأسرية، وهذا الولع الفني المتأخر الذي استقر في حياته، بنهم دودة وحيدة. عمَّ كان يتكلم فارني؟ آه، عن حملتكَ لجعل الماركيزيين يتوقفون عن دفع «ضرائب الطرق». لقد ذعر أصدقاؤك أيضاً، عندما أوضحت للوطنيين بأنهم غير مجبرين على أخذ أبنائهم إلى المدرسة، إذا ما كانوا يعيشون بعيداً عن أتونا. وماذا حدث لكَ؟ لا شيء.

لقد ابتلعت العاصفة المشهد المحيط. البحر المجاور، أسطح أتونا، صليب المقبرة على سفح الرابية، كلها اختفت الآن، وراء سحب بيضاء، تتكثف خلال ثوان. وها هي قد حاصرتهم. نهر ماكي-ماكي القريب، المتعاظم، بدأ يطفح، ويحرك أحجار مجراه. فكر بول بآلاف العصافير، وبالقطط البرية، وبديوك هيفا وا المغردة التي ستقتلها العاصفة.

- بما أن بن قد تطرق إلى الموضوع، فإنني أتجرأ أنا أيضاً على نصحكَ - قال كي دونغ، بحذر كبير - فعندما خرجتَ، مع بدء العام الدراسي، إلى خليج الخونة، لتخبر الماووريين الذين يحضرون أبناءهم إلى مدرسة الخوارنة والراهبات، بأنهم غير مجبرين على فعل ذلك، إذا كانوا يعيشون في أماكن بعيدة، قلتُ لكَ محذراً: «إنك تقترف أمراً خطيراً». وبسببكَ، تقلص عدد التلاميذ في المدارس إلى الثلث، وربما أقل. الأسقف والخوارنة لن يسامحوك على ذلك.

ولكن مسألة الضرائب هذه أخطر من تلك. لا تُقدم على مزيد من الحماقات يا صديقي.

خرج تيوكا من جموده الصارم وضحك، وهو ما لا يفعله إلا نادراً:

- الأسر الماوورية التي كانت تذرع نصف الجزيرة، لكي تأتي بأبنائها إلى المدرسة، ممتنة لكَ يا كوكي، لأنك كشفت أمر ذلك الإعفاء - ثم دمدم، وكأنه يحتفي بخبث:- لقد كذب الأسقف والدركي علينا.

فضحك كوكي:

- هذا ما يفعله الكهنة والشرطيون، الكذب. معلمي كاميل بيسارو الذي يحتقرني الآن، لأنني أعيش بين البدائيين، سيكون سعيداً بسماعي أقول هذا. لقد كان فوضوياً. يكره أصحاب المسوح الكهنوتية والزي العسكري.

رعد متطاول، أجش وأشبه بغرغرة، حال دون أن يقول الأمير الأنامي ما يريد قوله. ظلَّ كي دونغ فاتحاً فمه، ينتظر هدوء السماء. ولأنها لم تفعل ذلك، تكلم بصوت عالٍ كي يُسمع صوته وسط العاصفة:

- مسألة الضرائب أسوأ بكثير يا بول. بن على حق، فأنت تتهور بهذا التصرف - كان يلح بأسلوبه الرقيق، الهِرّي، المخرخر - نصحكَ للوطنيين بعدم دفع الضرائب هو تمرد، إخلالَ بالنظام.

فقال بول وهو يطلق قهقهة:

- أأنت ضد الإخلال بالنظام، يا من حُكم عليك بالنفي إلى جزيرة الشيطان، لأنك تريد انفصال الهند الصينية عن فرنسا؟

- لستُ وحدي من يقول ذلك - ردّ الإرهابي السابق، بجد - بل يقوله كثيرون في القرية.

فتدخل فريبول، محركاً يديه:

- أنا سمعت الدركي الجديد يقول هذا، وبهذه الكلمات نفسها. إنه يضع عينه عليك يا كوكي.

- أتعني ابن العاهرة كلافييه؟ من المؤسف أنهم استبدلوا شاربيه اللطيف بهذا المسوس المخبول - وقام بول بحركة من يبصق - أتعرفون منذ متى يكرهني هذا الدركي؟ منذ أن وجدني أستحم عارياً في النهر، في ماتايّا، بعد شهر من وصولي إلى هايتي أول مرة. لقد فرض عليَّ الوغد غرامة. ولم تكن الغرامة هي أسوأ ما في الأمر، وإنما تحطيمه أحلامي: تاهيتي ليست الفردوس الأرضي إذاً. ففيها ذوو بزات عسكرية يمنعون البشر من عيش حياة حرة.

- إننا نتكلم بجد - تدخل بن فارني - لا نريد إزعاجك، ولا التدخل في شؤونك. إننا أصدقاؤك يا بول. يمكن لك أن تتعرض لمشاكل. مسألة المدارس كانت خطيرة. لكن مسألة الضرائب هذه أسوأ.

- أسوأ بكثير - كرر كي دونغ - إذا ما عمل الوطنيون بنصيحتك، وتوقفوا عن دفع الضرائب، فسوف تذهب إلى السجن، بتهمة الإخلال بالنظام. ومن يدري إذا كان الحظ سيحالفك مثلي. أنت هنا منذ أقل من سنة، وقد جعلت لنفسكَ أعداء كثيرين. أنت لا تريد أن تنهي حياتك في جزيرة الشيطان، أليس كذلك؟

- ربما كان هناك، في غوايانا، ما أبحث عنه في كل مكان، دون أن أجده - تخيل بول، وهو يبدي الوقار - فلنشرب يا أصدقاء. دعونا من الاهتمام بالمستقبل. ثم إن كل شيء، هناك في الأعلى، يشير إلى أن نهاية العالم في جزر الماركيزات قد بدأت.

كانت الرعود والبروق قد استعادت دويها الصاخب، وراح **بيت المتعة** بأسره يهتز ويتراقص، كما لو أن مضخات الماء وهبات الريح الهائجة، ستخلعه وتحمله مع الهواء في أي لحظة. مياه النهر المجاور الطافحة، بدأت تغمر الحديقة. إنهم أصدقاؤك يا بول. وهم قلقون على مصيرك. يقولون الحقيقة: أنت لست أحداً، مجرد متوحش متدرب، بلا مال ولا شهرة، يمكن للخوارنة، والقضاة، والدركيين أن يقصموا ظهره عندما يشاؤون. لقد حذرك أيضاً الدركي كلافييه،

وهو قاض أيضاً، وسلطة سياسية في جزيرة هيفا وا: «إذا ما واصلتَ تحريض السكان الأصليين على التمرد، فسوف يهوي عليك كل ثقل القانون. وعظامك البائسة لا تتحمله. لقد حذرتك». لا بأس، وشكراً على التحذير، يا كلافييه. لماذا تبحث عن التورط في مشاكل جديدة يا كوكي؟ أليس في ذلك حماقة؟ ربما. ولكن من غير العدل جباية «ضريبة طرق» من سكان جزيرة بائسين، لم تشق الدولة فيها متراً واحداً من الطرق أو الشوارع أو الدروب، حيث الخروج من أتونا يعني مواجهة غابة متشابكة ومغلقة في كل الجهات. لقد تأكدتَ من ذلك بنفسك، في رحلة الكوابيس؛ حين ذهبتَ، على متن بغلة، إلى هاناوبي، كي تفاوض في مسألة زواجكَ من فايوهو. ولهذا لا يمكنك التحرك من هنا يا كوكي. ولهذا لم تستطع الذهاب حتى وادي تاوا، لرؤية أطلال أوبيكي وتماثيل التيكيات، وهو أمر ترغب فيه كثيراً. يا لهذه الضريبة من سرقة كبيرة. من يستحوذ على الأموال التي لا تُستثمر هنا؟ واحد أو عدد من هؤلاء الطفيليين المقرفين الذين يحتلون المناصب في الإدارة الاستعمارية، في بولينيزيا، أو هناك في المتريبول. فليتخوزقوا! سوف تواصل نصح الماووريين بأن يرفضوا دفع الضريبة. ولكي تكون قدوة لهم، كتبتَ إلى السلطات موضحاً أسباب امتناعك أنت أيضاً عن دفعها. أحسنت صنعاً يا بول! معلمك السابق، الفوضوي كاميل بيسارو سيؤيد ما تفعله. وهناك، في النعيم أو في الجحيم، ستصفق لك الجدة فلورا، المحرضة الثورية ذات التنورة.

كان كميل بيسارو قد قرأ بعض كتب وكراسات فلورا تريستان، وكان يتحدث عنها باحترام شديد دفعكَ إلى الاهتمام، للمرة الأولى، بجدتك لأمك التي لم تكن تعرف شيئاً عنها. فأمك لم تحدثكَ عنها قط. أكانت تكرهها؟ إنها محقة في ذلك: فالجدة لم تهتم بابنتها ألين قط. أبقتها تعيش عند مرضعات، بينما هي تصنع الثورة. ولكنك لم تكد تقرأ شيئاً يستحق الذكر من كتابات الجدة فلورا. لم يكن

لديك وقت لأي شيء آخر، خلال النهار، سوى الركض وراء زبائن الوكالة لإطلاعهم على أحوال أسهمهم، والرسم في كل أوقات الفراغ الأخرى - لا سيما عطلات نهاية الأسبوع السعيدة في بونتواز، حيث يقيم آل بيسارو - الرسم، الرسم، باندفاع حقيقي. في العام ١٨٧٨ افتتح متحف الأجناس البشرية، في قصر تروكاديرو. إنك تتذكر ذلك جيداً، لأنك هناك، وأنت تتأمل تماثيل خزف البيرو القديمة - تلك الأسماء السحرية الغامضة: موتشيكيين، تشموين -، تنبأت بما سيتحول، بعد سنوات من ذلك، إلى مادة إيمان بالنسبة إليك: هذه الثقافات الإكزوتيكية، البدائية، تكشف عن قوة، عن نضالية روحية تبخرت من الفن المعاصر. إنك تتذكر، بصورة خاصة، مومياء ترجع إلى قبل ما يزيد على ألف عام، ذات شعر طويل، وأسنان ناصعة، وعظام ملطخة بالسواد، مجلوبة من وادي أوروبامبا. لماذا فتنتكَ تلك الجمجمة التي سميتها «خوانيتا»، يا بول؟ لقد ذهبتَ مرات كثيرة لتتأملها، وذات مساء، في لحظة سهو من الحراس، قبّلتَها.

ما لا يُصدق، أليس كذلك يا بول؟، هو أنه في تلك الفترة، عندما صار الرسم يهمك أكثر من أي شيء آخر، كان أرباب العمل في عالم البورصة يتنافسون على شخصك، باعتبارك قيمة مضمونة. في ١٨٧٩، قبلتَ عرضاً لتبديل العمل، وقد قمت بعملكَ في الوكالة الجديدة على أحسن وجه، فكانت المكافأة الإضافية، في تلك السنة، ثروة حقيقية: ثلاثون ألف فرنك! يا لسعادة الفايكنغة. لقد قررت مت، على الفور، أن تجدد الأثاث، وتستبدل ورق جدران الصالون وغرفة الطعام. وفي تلك السنة، بمساع من كاميل بيسارو، قدمتَ إلى المعرض الانطباعي الرابع، تمثالاً نصفياً لابنكَ إميل. لم يكن في المنحوتة شيء استثنائي، ولكن الجميع - الجمهور والنقاد - صاروا يتعبرونك، منذ ذلك الحين، واحداً من جماعة الانطباعيين. أكنتَ سعيداً بذلك التقدم؟

- لم يكن لدي وقت للسعادة، في الحياة الهائجة التي كنت

أعيشها - قال بول -. ولكنني كنت نشيطاً، هذا صحيح. أنفقتُ الجزء الذي سمحت لي الفايكنغة بوضع يدي عليه، من تلك المكافأة، في شراء لوحات لأصدقائي. امتلأ بيتي بلوحات لديغاس، مونيه، بيسارو، سيزان. أشد الأيام إثارة في تلك السنة، أدين به إلى المعلم ديغاس: اقترح علي أن نتبادل لوحة. لقد كان يعاملني كند له، تصور!

وكانت تلك هي السنة التي ولد فيها كلوفيس، ابنكَ الثالث. في عام ١٨٨٠، شاركتَ في معرض الانطباعيين الخامس بثماني لوحات. وفي هذه السنة، لأول مرة، امتدحكَ إدوار مانيه، بطريقة غير مباشرة. فقد قلتَ في الأتينيه الجديد: «إنني مجرد هاوٍ، يدرس الفن في الليل وفي أيام العطل»، فصحح لك مانيه، بحماسة: «الهواة هم من يرسمون بصورة سيئة.» أحسست بالزهو والسعادة. وفي ١٨٨١، وكان شوف الطيب قد استثمر كل ما ورثه ووفره في شركة غامضة، تستغل تقنية جديدة في معالجة الذهب، وبدأ يكسب أموالاً كثيرة؛ وعندئذ تزوج من الجميلة والفقيرة لويز مون، وكانت تفكر في أنها تحقق بذلك صفقة جيدة. لم تكن مخطئة. فقد استقال الطيب شوف من عمله في البورصة، كي يتفرغ للفن. ارتعبت مِت: ألا تحلم بحماقة مشابهة، يا بول؟ وصارت المشاحنات الزوجية يومية:

- لماذا خدعتني، وأخفيت عني ميلك إلى الرسم؟
- لأنه كان خفياً علي أنا أيضاً، يا مِت.

في المحترف الصغير الذي استأجرته من الرسام فيلكس جوبيه-دوفال، كنتَ تختلس بعض الساعات من العمل في البورصة، لتنحت، وتشذب، وترسم بعناد. فتحت شهيتكَ قصصُ جوبيه-دوفال عن موطنه، بريتاني، وعن البريتانيين، الشعب البدائي والتقليدي، المخلص لماضيه، ومقاوم «التصنيع الكزموبوليتي». عندئذ بدأت تحلم بالهرب من باريس، هذه المدينة الضخمة، بحثاً عن أرض لا يزال الماضي فيها حاضراً، والفن لم يبتعد عن الحياة العادية بعد. وفي

ذلك المحترف نفسه، رسمت لوحات مازلتَ تفخر بها: *أعماق الفنان، شارع كوريه، دراسة عارية، سوزان تخيط*، عرضتها في المعرض الانطباعي، وأفضلها جميعاً: *الصغير الحالم: دراسة*. في عام ١٨٨١، وبينما مِت تضع مولودها الرابع، جان-رينيه، اشترت منكَ صالة عرض دوران-رويل ثلاث لوحات بألف وخمسمئة فرنك، وكرس لك الناقد المشهور جوري-كارل هويسمان، مقالة ممتدحة. لقد بدأت الحياة تبتسم لكَ يا بول.

- أجل، أجل. والأفضل من ذلك كله أن إفلاس الصناعات والمصارف كان قد بدأ - زمجر بابتهاج، محاولاً إسماع صوته وسط الرعود - كانت فرنسا ماضية نحو الإفلاس، يا أصدقائي. وراحت البورصات، واحدة بعد أخرى، تغلق أبوابها أيضاً. شكراً لك يا رب! شكراً لأنك حللت مشكلتي!

نظر إليكَ أصدقاؤك دون أن يفهموا. فقد قلتَ لهم إن تلك الكارثة الاقتصادية دمرت جميع الفرنسيين، باستثنائكَ أنت. لقد عنت بالنسبة إليك، الانعتاق. المأساة الاقتصادية أدت إلى هزة سياسية كبيرة. فجرت ملاحقة الفوضويين، واعتُقل كربوتكين. اختبأ كاميل بيسارو، وعمّ الذعر الكثير من بيوت الفقراء والبرجوازيين. أما أنت يا بول، غير العابئ تماماً بتلك الأحداث، فكنت تواصل الرسم، يجننكّ نفاد الصبر والتلهف. عندما أُغلقت بورصة ليون، أُصيبت مت بنوبة عصبية، وبكت كما لو أن عزيزاً عليها قد مات. وعندما أغلقتَ بورصة باريس، لم تأكل عدة أيام؛ هزلت، نحل جسمها. وكنتَ أنت سعيداً جداً. وفي تلك السنة، شاركتَ في معرض الانطباعيين السابع، بعرض إحدى عشرة لوحة زيتية، ولوحة باستيل، ومنحوتة. وعندما استدعاك رئيسك في الوكالة المالية، في شهر آب ١٨٨٣، ليقول لكَ، بصوت متردد وملامح متأسفة، إنهم لن يستطيعوا، نظراً للوضع الحرج «الاحتفاظ بكَ»، فعلتَ شيئاً أفقده صوابه، من شدة المفاجأة: قبّلت يديه. وكنت تقول له، في الوقت نفسه، بتأثر: «شكراً

يا سيدي. لقد صنعتَ مني للتو، فناناً حقيقياً». ومجنوناً بالسعادة، هرعت لتخبر مِت بأنك، منذ الآن، لن تطأ مكتباً أبداً. سوف تنصرف إلى الرسم وحسب. أصاب مِت البكم، الشحوب، وبعد أن رمشت لبعض الوقت، انهارت متدحرجةً عند قدميك، فاقدة الوعي.

- كنتُ قد تبدلتُ كثيراً في ذلك الحين - أضاف بول جذلاً - فقد صرت أشرب أكثر من السابق. الكونياك في البيت، والأفسنتين في الأتينيه الجديد. وكنت أقضي أوقاتاً طويلة وحيداً، أعزف الأرغن، لأن ذلك كان يحرضني على التفكير. وبدأت ألبس على الطريقة البوهيمية، الشاذة، لأستثير غيظ البرجوازيين. كان عمري خمساً وثلاثين سنة. وبدأت أعيش الحياة الحقيقية يا أصدقائي.

وفجأة، توقف الرعد، وهدأ المطر قليلاً. الثلاثون شلالاً التي تنزل على أتونا في أيام المطر، من جبلي تيميتيو وفياني تضاعفت، ونهر ماكي-ماكي تجاوز ضفتيه. وسرعان ما اقتحم سيل من الماء المتدفق المرسم وأغرقه. وترنم بن فارني وهو يشير إلى الضباب المحيط بهم: «هذا أشبه بالإبحار في سفينة صيد حيتان». وخلال دقائق قليلة، كانوا قد غطسوا في سيل الوحل حتى كواحلهم. أطلوا إلى الخارج، مبللين. كانت المنطقة بأسرها غارقة، ونهر جديد، ظهر للتو، يجرف أغصاناً، وجذوعاً، وأعشاباً، وطيناً، وصفيحاً، يمضي باتجاه الشارع الرئيسي، جارفاً معه حديقة **بيت المتعة**.

- أتدرون ما هي تلك الكتلة، هناك؟ - أشار تيوكا إلى بقعة داكنة أكثر من السحب المنخفضة المتراكمة فوق أتونا - تلك الكتلة التي يحملها التيار إلى البحر؟ إنه بيتي. آمل ألا يكون قد حمل معه **فاهينتي** وأولادي أيضاً.

كان يتكلم دون توتر، بهدوء الماركيزيين الصابر الذي أذهل كوكي كثيراً، منذ يومه الأول في هيفا وا. أومأ لهم نيوكا مودعاً وابتعد، والماء يغمره حتى ركبتيه. وسرعان ما ابتلعته ستائر المطر والغيوم. وعلى العكس منه، جاء رد فعل كي دونغ، وبوسيدون فريول، وبن

فارني أخيراً. فقد انتزع منهم الذعر والمفاجأة، خلال ثوان، تأثير الكحول. ماذا سيفعلون؟ أفضل شيء هو الإسراع في الذهاب لمعرفة حال أسرهم، وربما اللجوء إلى رابية المقبرة. فهم أكثر تعرضاً، في هذا السهل، لأخطار العاصفة. وإذا ما جاء إعصار تسونامي، فوداعاً يا أتونا.

- عليك أن تصعد معنا يا بول - ألح كي دونغ -. هذا البيت لن يصمد. فما يحدث ليس عاصفة. إنه هوراكان، إعصار. ستكون في أمان أكثر معنا هناك في الأعلى، في المقبرة.

فضحك هو:

- أتريدونني أن أخوض في الوحل، وساقايّ بهذه الحال؟ أكاد لا أستطيع المشي يا أصدقائي. اذهبوا، اذهبوا أنتم. سأبقى هنا، وأنتظر. فنهاية العالم هي مادتي الأساسية، أيها السادة!

رآهم يغادرون، متكورين، متقافزين، والماء يصل حتى ركبهم، باتجاه الدرب الذي اختفى الآن، وتحول إلى نخاع أتونا الشوكي، في ما وراء سياج الشجيرات ذاك. هل سيصلون سالمين؟ أجل، فلديهم خبرة بكوارث المناخ هذه. وماذا عنكَ أنت يا بول؟ لقد قال كي دونغ الحقيقة؛ فبيت المتعة بناء هش من البامبو. والسعف والعوارض الخشبية، صمد حتى الآن بمعجزة، أمام الريح والماء. وإذا ما استمرت هذه الحال، فسوف يتخلع وينجرف، وتنجرف أنتَ معه. أهذه طريقة مقبولة للموت؟ ربما هي مضحكة بعض الشيء. ولكن الموت بنزلة صدرية ليس أقل إضحاكاً. وكذلك التلف شيئاً فشيئاً بسبب الداء الذي لا يُسمى. وبما أنه لم يكن هناك ركن جاف في بيت المتعة، أو بمنجى من صفعات الريح والمطر، فقد راح يجرجر قدميه - ساقاه تؤلمانه كثيراً الآن -، ليسكب كأساً أخرى من الأفسنتين. تناول أرغنه المبلل وبدأ العزف، بصورة آلية. كان قد تعلم التحكم بهذه الآلة الموسيقية الصعبة وهو فتى، في السفن، عندما كان يخدم في البحرية التجارية. موسيقاها تملأ فراغات الروح،

تهدئه في لحظات اليأس والقنوط الحرجة، وعندما يكون مستغرقاً في لوحة أو منحوتة - وهذا صار نادراً الآن، بعد أن ضعف بصره كثيراً -، تمنحه الحماسة، الأفكار، وشيئاً من الإرادة القديمة في بلوغ الكمال المتهرب. أمن غير المتوقع أن تموت هكذا يا بول؟ في جزيرة صغيرة ضائعة، وسط المحيط الهادي. في جزر الماركيزات، أبعد منطقة في العالم. حسن، لقد حسمت ذلك منذ زمن: تريد الموت بين المتوحشين، كمتوحش آخر. ولكنه تذكر عندئذ، العجوز العمياء التي أشعرته بأنه غريب.

كانت قد ظهرت قبل أسابيع، مستندة إلى عكاز، آتية من لا مكان، في ساعة الغسق، بينما كان كوكي ينظر من الطابق العلوي ليتأمل، مجهداً بصره الكليل، جزيرة هاناكي الصغيرة المقفرة، وخليج الخونة اللذين تلونهما شمس الغروب بلون وردي. دخلت العجوز العمياء إلى الحديقة، وسط عواء الكلب ومواء القطط، مطلقة صرخات بلغة الماووري تُعلم كوكي بوجودها. كانت تبدو أشبه بحزمة، بكائن غير محدد المعالم أكثر من كونها امرأة. ملتفة بخرق ربما التقطتها من القمامة، وصلت تلك الرقع والأجزاء بخيوط غليظة. وجدت الطريق إلى البيت، وبصورة غريبة، مستدلة على طريقها بالعكاز - كانت تضرب به ضربات سريعة، إلى اليسار واليمين -، ووجدت أيضاً الطريق إلى بول الذي نزل للقائها. التقيا وجهاً لوجه، في مشغل النحت، حيث كان يقف كوكي الآن بالضبط، ميتاً من البرد، مقارعاً الخوف بالأفسنتين. أهي عمياء أم أنها تتصنع العمى؟ عندما صارت قريبة منه، رأى بياض شبكيتي عينيها. أجل، إنها عمياء. وقبل أن يفتح بول فمه، كانت المرأة قد أحست بوجوده، فرفعت يدها ولمست صدره العاري. تلمست بهدوء، ذراعيه، وكتفيه، وسرته. ثم فتحت وزرته، ولمست بطنه، وأمسكت بخصيتيه وعضوه. رازته، كما لو أنها تخضعه لفحص. وعندئذ بدا الاستياء على وجهها، وقالت بقرف: «بوبا». إنها كلمة يعرفها كوكي؛ فهذه هي التسمية التي يطلقها

الماووريون على الأوربيين. ودون أن تقول شيئاً آخر، دون أن تنتظر حصولها على الطعام أو الهدية التي جاءت بحثاً عنها، دارت العجوز العمياء على عقبيها، وانصرفت متلمسة طريقها. هذا هو أنتَ في نظرهم: أجنبي بقضيب ذي قلنسوة. لقد أخفقت في هذا أيضاً، يا كوكي.

استيقظ في صباح اليوم التالي، محتضناً أرغنه. كان قد غفا على منضدة الكؤوس والزجاجات المتناثرة الآن على الأرض. وكان الماء قد بدأ بالتراجع من المرسم، لكن كل شيء في ما حول كوكي كان خراباً وكآبة. ومع ذلك، فقد صمد بيت المتعة للإعصار، بالرغم من تضرره الجزئي. وهناك في الأعلى، في السماء الزرقاء الشاحبة، كانت الشمس الوليدة قد بدأت بتدفئة الأرض.

XIX. المدينة-المسخ

بيزيه وكَركَسون، آب/أيلول ١٨٤٤

في بعض اللحظات، كانت فلورا تقارن رحلتها عبر جنوبي فرنسا، برحلة فرجيل ودانتي في الجحيم، لأن هناك دائماً، في طريقها، مدينة أشد قذارة، وقبحاً، ونذالة من السابقة. في بيزيه النتنة، على سبيل المثال، حيث أمضت ليلتها في فندق دي بوست الذي لا يطاق، ولا وجود فيه لعامل خدمة واحد، بمن في ذلك مدير الخدم، يتكلم الفرنسية، وإنما لهجة الأوكسيتين المحلية فقط، لم تتوصل إلى الحصول على إذن بعقد اجتماع في أي مصنع أو ورشة. فقد أغلق أرباب العمل والعمال الطريق أمامها، خوفاً من السلطات. والعمال الثمانية الوحيدون الذين وافقوا على تبادل الحديث معها، فعلوا ذلك باتخاذ احتياطات كثيرة - جاؤوا إلى الفندق ليلاً، ودخلوا من باب جانبي - وكانوا خائفين جداً من فقدان عملهم، حتى إن فلورا لم تحاول أن تقترح عليهم، تشكيل لجنة للاتحاد العمالي.

لم يكن قد مضى عليها في بيزيه إلا أقل من يومين، وهما اليومان الأخيران من شهر آب ١٨٤٤. عندما ركبت سفينة البريد إلى كَركَسون، أحست كما لو أنها تخرج من السجن. وكي لا تدوخ، ظلت على السطح، مختلطة بالمسافرين الذين ليس لهم قمرات. واستثارت مشادة، كادت تصل إلى تبادل الضرب، بين **سباهي**، جندي استعماري قادم حديثاً من الجزائر، وشاب من البحرية التجارية، حثتهما على المقارنة، لمعرفة عمل أي منهما أكثر فائدة للمجتمع. قال البحار إن السفن تنقل الركاب والبضائع وتسهّل التجارة؛ وما هو، بالمقابل، النفع من الجنود، اللهم سوى القتل؟ فراح **السباهي** المستاء، يعرض آثار جروحه، وردّ بأن الجيش قد كسب لفرنسا، للتو، مستعمرة في

شمالي أفريقيا، أكبر بثلاث مرات من مساحة فرنسا الأم. وعندما ازداد حدة، وبدأ التلفظ ببذاءات، أسكتته فلورا:

- حضرتك دليل حي على أن جيش فرنسا، ما زال يخبّل المجندين، مثلما كانت الحال في زمن نابليون.

كانت لا تزال أمامها ست ساعات للوصول إلى كركسون. جلست على مقعد في مؤخرة السفينة، وتكورت مستندة إلى بعض الطرود، وعلى الفور، غلبها النوم. حلمت بأولمبيا. إنها المرة الأولى التي ترينها في أحلامك يا فلوريتا، منذ مغادرتك باريس، قبل ستة شهور.

حلم لطيف، رقيق، مهيج بصورة خفيفة، ونوستالجي. ليست لديك سوى ذكريات طيبة عن تلك الصديقة التي تدينين لها بالكثير. ولكنك غير نادمة على قطع علاقتك مع أولمبيا بالحزم الذي فعلت به ذلك، بعد عودتك من إنكلترا، في خريف ١٨٣٩. لأن ندمك على ذلك، سيعني أنك نادمة على حربك الصليبية من أجل تغيير العالم، بالذكاء والحب. مع أنك تعرفت عليها في الأوبرا، خلال حفلة الرقص تلك التي حضرتها متنكرة بزي غجرية، عندما قبّلت يدك تلك المرأة المشوقة، ذات العينين الحادتين، إلا أن صداقتك مع أولمبيا ماليسويسكا لم تبدأ إلا بعد شهور من ذلك. إنها حفيدة مستشرق مشهور، وأستاذ في السوربون، تعمل من أجل انعتاق بولونيا من النير الروسي. وكانت تشارك في اللجنة الوطنية البولونية التي تضم المنفيين في فرنسا، وقد تزوجت من أحد قادتها، ليونارد شودزكو، المؤرخ والوطني، الموظف في مكتبة سانت جنفيف. ولكن أولمبيا كانت، قبل كل شيء، سيدة مجتمع. لديها صالون مشهور جداً، يرتاده أدباء وفنانون وسياسيون، وقد ذهبت إليه فلورا عندما تلقت دعوة لحضور مسامرات أيام الخميس. كان البيت أنيقاً، والاهتمام بالرواد راقياً، ومنهم شخصيات مشهورة. فالممثلة ذائعة الصيت ماري دورفال، تذهب إلى هناك مع الروائية جورج صاند، وأوجين سو مع أبي السان-سيمونيين، بروسبير إنفانتان. وكانت أولمبيا تهتم بهم بمحبة

ولطف. وقد أبدت مودة كبيرة تجاهك، وقدمتك إلى أصدقائها بإطراء كبير. كانت قد قرأت *اغتراب منبوذة*، وبدا تقديرها لكتابك بالغ الإخلاص.

ولأن أولمبيا ألحت كثيراً على عودتك إلى صالونها، فقد رجعت عدة مرات، وكنت تقضين وقتاً ممتعاً على الدوام. في المرة الثالثة أو الرابعة، وبينما أولمبيا تساعدك، في حجرة الملابس، في خلع معطفك، وتسوية شعرك -«لم أرك قط، مشرقة مثلما أنت اليوم، يا فلورا»-، وأمسكت بك فجأة من خصرك، ضمتك إلى جسدها، وقبّلت شفتيك. كان ذلك مفاجئاً، حتى إنك، وقد تأججت من رأسك حتى قدميك، لم تدري ماذا تفعلين (المرة الأولى في حياتك التي يحدث لك هذا يا فلوريتا). ومتوردة من الخجل، مشوشة، ظللت جامدة، تنظرين إلى أولمبيا دون أن تقولي شيئاً. «إذا كنت لم تلحظي ذلك من قبل، فأنت تعرفين الآن أنني أحبك»، ضحكت أولمبيا وهي تقول لك ذلك. ثم أمسكت بيدك، واقتادتك للقاء المدعوين الآخرين.

لقد تساءلت، مرات عديدة، في ذلك المساء، لماذا لم يكن ردّ فعلك مثلما كنت ستتصرفين، لو أن من قبّلك فجأة هو رجل، وليس أولمبيا - صفعه، والانصراف من هذا البيت فوراً -، وظللت في الاجتماع، مشوشة، مضطربة، ولكن دون أن تغضبي، ودون أن تشعري بالرغبة في المغادرة. أهو مجرد فضول أم شيء أكثر من ذلك؟ ما معنى هذا أيتها الأندلسية؟ ما الذي سيحدث الآن؟ وعندما أعلنت، بعد نحو ساعتين، أنك ستغادرين، أمسكت صاحبة البيت بذراعك، وقادتك إلى حجرة الملابس. ساعدتك في ارتداء معطفك، وقبعتك ذات الخمار. «أنت لم تغضبي مني، أليس كذلك يا فلورا؟» همست في أذنك، بصوت دافئ. «لا أدري إذا ما كنتُ غاضبة أم لا. إنني مشوشة. هذه هي المرة الأولى التي تقبلني فيها امرأة من فمي.» فقالت لك أولمبيا، وهي تنظر إلى عينيك. «أنا أحبك مذ رأيتك تلك المرة في الأوبرا. أيمكننا أن نلتقي على انفراد، للتعارف بصورة

أفضل؟ أرجوكِ يا فلورا.»

والتقيتا، وتناولتا الشاي معاً، وتنزهتا في عربة فيكر، في نولي. وروت لها فلورا تجربتها الزوجية مع أندريه شازال، فاغرورقت عينا صديقتها اللامعتان بالدموع. لقد اعترفتِ لها أنك، منذ زواجك، صرتِ تشعرين دوماً، باشمئزاز غريزي من الممارسة الجنسية، ولهذا لم يكن لديكِ عشيق قط. وبعذوبة ورقة بالغتين، توسلت إليكِ أولمبيا، وهي تقبّل يديك، أن تسمحي لها بأن تريكِ كم يمكن للمتعة أن تكون عذبة ومبهجة بين صديقتين متحابتين. ومنذ ذلك الحين، صرتما، عند كل لقاء أو وداع، تتبادلان قبلة من الشفاه.

مارستا الحب أول مرة، بعد وقت غير طويل، في بيت ريفي، بالقرب من بونتواز، حيث كان آل شودزكو يصطافون، ويقضون عطلات نهاية الأسبوع. كانت أشجار الحور المهتزة مع الريح، تطلق همساتها المتواطئة؛ وتُسمع زقزقة العصافير. وفي تلك الغرفة، المُدفَّأة بنار المدفأة، راح الجو المتوتر، الباعث على الدوار، يبدد شيئاً فشيئاً، احتراس فلورا وتحفظاتها. وبينما كانت صديقتها، تسقيها من فمها، رشفات من الشمبانيا، ساعدتها على التعري. وتعرت أولمبيا بدورها بطلاقة، ثم حملت فلورا بين ذراعيها، ومددتها على الفراش، هامسة لها بكلمات عذبة. وبعد أن تأملتها بدقة وورع، بدأت بمداعبتها. لقد جعلتكِ تستمتعين يا فلوريتا، أجل، كثيراً، بعد انقضاء لحظات البداية القلقة والحذرة تلك. جعلتكِ تشعرين بأنك جميلة، مشتهاة، شابة، امرأة. علمتكِ أولمبيا بأنه ليس هناك ما يستدعي الخوف أو القرف من الجنس، وأن الاستسلام للشهوة، والغرق في حسية المداعبات، في متعة اللذة الجسدية، هي طريقة مثيرة في الحياة، وإن كانت تدوم ساعات فقط، أو لحظات. يا للأنانية اللذيذة يا فلوريتا. اكتشاف المتعة الجسدية، اللذة دون عنف، بين متماثلتين، جعلكِ تشعرين بأنك امرأة أكثر كمالاً وحرية. مع أنكِ لم تستطيعي أن تتخلصي قط، حتى في أشد أيام سعادتكِ مع أولمبيا، وأنت

تستسلمين لمتعة الجسد الخالصة، من شعورك بالذنب، والإحساس بتبديد الطاقة، وبالهدر المعنوي.

لم تستمر تلك العلاقة إلا أقل من سنتين. وفلورا لا تتذكر وقوع أي خصام، أو شقاق، أو فظاظة تشوهها. صحيح أنهما لم تكونا تلتقيان كثيراً، فكلتاهما لديهما مشاغل كثيرة، ولدى أولمبيا، فوق ذلك، زوج وبيت عليها العناية بهما، ولكنهما عندما تلتقيان، يمضي كل شيء على أروع وجه دائماً. كانتا تمرحان وتستمتعان معاً كصبيتين عاشقتين. لقد كانت أولمبيا أكثر طيشاً ودنيوية من فلورا، وباستثناء اهتمامها بمأساة بولونيا المستعبدة، لم تكن تولي اهتماماً للشؤون الاجتماعية، ولا لمصير النساء أو العمال. كانت تهتم ببولونيا بسبب زوجها الذي تحبه كثيراً، على طريقتها المتحررة تماماً. ولكنها كانت حيوية، لا تكل، وشديدة المودة تجاهك. وكانت فلورا تستمتع بالاستماع إليها تتحدث عن مكائد العالم الراقي وإشاعاته، لأنها تفعل ذلك بظُرف وسخرية. وقد كانت أولمبيا، فوق ذلك، امرأة مثقفة، واسعة القراءات في التاريخ، والفن، والسياسة. وهي الموضوعات التي تثير شغفها. وهكذا، اكتسبت فلورا، في المجال الثقافي أيضاً، معارف كثيرة من صداقتها لها. مارستا الحب عدة مرات في البيت الريفي في بونتواز، ولكنهما مارستاه أيضاً في شقة أولمبيا الباريسية، وفي شقة فلورا في شارع دوباك. ومرة في فندق على أطراف غابة مارلي، حيث ذهبتما متنكرتين، أنت كحورية، وهي في هيئة سيلين[1]. وكانت السناجب يومذاك تأتي إلى نافذة الفندق، لتأكل الفول السوداني من يديكما. وعندما سافرت فلورا، سنة ١٨٣٩، أربعة شهور إلى لندن، لتؤلف كتاباً عن وضع الفقراء في حصن الرأسمالية، تبادلتا الرسائل مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع.

---

[1] سيلين sileno أو Silene: اسم يطلق على الماجنين والسكارى الذين كانوا يشاركون في السير في موكب ديونيسيوس.

كانت رسائل مؤثرة، تقولان فيها إنهما تتشوقان، تتذكران، تشعران بالرغبة، وإنهما تعدان الأيام، الساعات، الدقائق، للقاء. «إنني ألتهمك بالقبلات والمداعبات في كل أحلامي يا أولمبيا. أعبد سواد شعرك، وعانتك. لقد صرت منذ أن تعرفت إليك، أكره النساء الشقراوات.» أكنتِ تفكرين في هذه العبارات المتأججة التي تكتبينها إلى أولمبيا من لندن، بينما أنت تتنكرين هناك بزي رجل، لتزوري مصانع، وبارات، وأحياء بائسة، ومواخير، كي توثقي حقدك على جنة الأغنياء وجهنم الفقراء تلك؟ كنتِ تفكرين فيها حرفاً حرفاً. ولكن، لماذا إذن يا أندلسية، ما إن رجعتِ إلى باريس حتى أبلغتِ أولمبيا، في يوم وصولك بالذات، أن تلك العلاقة قد انتهت، وأنه عليكما عدم اللقاء أبداً؟ أولمبيا، الواثقة دوماً من نفسها، وامرأة الحياة، فتحت عينيها وفمها من الدهشة، وتلعثمت. ولكنها لم تقل شيئاً. لقد كانت تعرفكِ، وتعرف أن قراركِ غير قابل للاستئناف. كانت تنظر إليك وهي تقضمُ شفتيها، منهارةً.

- ليس لأني لا أحبك يا أولمبيا. فأنا أحبك، وأنت الشخص الوحيد الذي أحببته في هذا العالم. وسأكون شاكرة لك على الدوام، على هاتين السنتين من السعادة اللتين أدين بهما إليكِ. ولكن، لدي مهمة أخرى. لا يمكنني إنجازها بانقسام مشاعري وعقلي، بين واجباتي وبينك. ما أريد القيام به يتطلب ألا يشغلني عنه شيء أو أحد. ليس لدي الكثير من الوقت، يا حبي. ولا أعرف أحداً في فرنسا يمكن له أن يحل محلي. وهذه الرصاصة، هنا، يمكن لها أن تقضي على حياتي في أية لحظة. عليَّ أن أترك الطريق ممهداً على الأقل. لا تحقدي علي، وسامحيني.

لم تعودا للالتقاء. وفي أثناء ذلك، أنجزتِ أنت كتابك الهجائي الرهيب ضد إنكلترا - ***جولات في لندن*** -، وكتيبكَ حول ***الاتحاد العمالي***، وها أنت هنا الآن، في أقاصي البيرينه الفرنسي، في كركسون، تحاولين إطلاق مسيرة الثورة العالمية. ألستِ نادمة لأنكِ

هجرت الرفيقة أولمبيا هكذا، يا فلوريتا؟ لا. فقد كان الواجب يتطلب أن تتصرفي على ذلك النحو. افتداء المستغَلين، توحيد العمال، تحقيق المساواة للنساء، إقرار العدالة لضحايا هذا العالم غير السوي، كل هذا أهم من أنانية الحب الرائعة، من تلك اللامبالاة السامية تجاه الآخر حيث تستنفد إحدانا المتعة. الشعور الوحيد الذي له الآن متسع في حياتكِ هو حب الإنسانية. لم يبق في قلبكِ المشغول، متسع حتى لابنتكِ ألين، يا فلوريتا. فألين موجودة في أمستردام، تعمل كمتدربة عند خياطة، وتقضين أسابيع في بعض الأحيان، دون أن تتذكري الكتابة إليها.

في ليلة وصول فلورا إلى كركسون بالذات، حدث لها لقاء مزعج مع أتباع فورييه المحليين الذين أعدوا ترتيبات زيارتها، برئاسة زعيمهم، المسيو إسكوديه. لقد حجزوا لها في فندق بونيت، إلى جانب السور. وكانت قد نامت، عندما أيقظتها طرقات على باب حجرتها. كان موظف الفندق يذوب اعتذاراً: هناك بعض السادة يلحون على مقابلتك. الوقت متأخر جداً، فليرجعوا في الغد. ولكن، بما أنهم أثاروا صخَباً شديداً، فقد ألقت روباً على كتفيها وخرجت للقائهم. كانوا حوالي عشرة من أتباع فورييه المحليين، جاؤوا مخمورين، للترحيب بها. أحست بدوار الاستياء. أيسعى هؤلاء البوهيميون إلى صنع الثورة بشرب الشمبانيا والبيرة؟ وقد ردّت على واحد منهم، لسانه متثاقل وعيناه زجاجيتان، كان يلح عليها بأن ترتدي ملابسها، كي تخرج معهم، لرؤية الكنائس والأسوار التي تعود إلى العصور الوسطى، على ضوء القمر:

– وما تهمني الأحجار القديمة، بينما هناك بشر كثيرون يعانون مشكلات يجب حلّها! اعلم أيها السيد، أنني مستعدة لاستبدال أجمل كنيسة مسيحية، بعامل ذكي واحد.

وعندما رأوها غاضبة إلى ذلك الحد، انصرفوا.

خلال الأسبوع الذي أمضته في المدينة، تبين لها أن فالانستيريي

كركسون - وهم محامون، وخبراء زراعيون، وأطباء، وصحفيون، وصيادلة، وموظفون، يطلقون على أنفسهم اسم **الفرسان** - يشكلون مصدراً دائماً للمشاكل. فهم يطمعون في السلطة، ويخططون لعمل مسلح في كل الجنوب الفرنسي. يقولون إنهم قد حصلوا على عهود من عسكريين كثيرين، ومن حاميات بكاملها. ومنذ الاجتماع الأول، انتقدتهم فلورا بحدة. قالت لهم إن راديكاليتهم ستؤدي، في أفضل الحالات، إلى استبدال بعض البرجوازيين في الحكومة، ببرجوازيين آخرين، دون تغيير النظام الاجتماعي؛ أما في أسوأ الحالات، فقد تؤدي إلى إثارة قمع دموي، يدمر الحركة العمالية الوليدة. وإن المهم هو الثورة الاجتماعية، وليس السلطة السياسية. وإن خططهم التآمرية، هي أوهام عنيفة، تبلبل الشغيلة، وتبعدهم عن الأهداف، وتستنفدهم في أعمال هدامة ذات طبيعة سياسية محضة، يمكن أن يتعرضوا فيها للتدمير على يد الجيش، في تضحية لا تقدم أي فائدة للقضية. كان **الفرسان** يتمتعون بنفوذ في الوسط العمالي، وقد حضروا اجتماعات فلورا مع عمال المغازل ومصانع الأقمشة. وكان حضورهم يخيف العمال الذين يكادون لا يجرؤون على إبداء رأيهم، أمام أولئك البرجوازيين. فكان عليكِ، بدل أن توضحي أبعاد **الاتحاد العمالي**، أن تستنفدي قواكِ، لساعات وساعات، في دحض آراء أولئك السياسيين المتلاعبين الذين يضللون العمال، بمخططاتهم عن الانتفاضة المسلحة، مدعين أنهم قد خبؤوا، من أجلها، الكثير من البنادق وبراميل البارود، في أماكن استراتيجية. لقد كان منظور الاستيلاء على السلطة بعمل حربي، أمراً مُفسداً، يبهر العمال ويضللهم.

- وماذا سيكون الفرق بين حكومة من أتباع فورييه والحكومة القائمة الآن؟ - كانت **مدام غضب** تزمجر، بسخط - أي تحسن يمكن أن يعنيه استغلال هؤلاء أو أولئك لهم؟ ليست المسألة في الاستيلاء على السلطة بأي طريقة، بل في القضاء إلى الأبد، على الاستغلال

وعدم المساواة.

وفي الليل، كانت ترجع إلى فندق بونيه مستنفدة، مثلما كان يحدث لها في لندن، في صيف عام ١٨٣٩ ذاك، خلال عملها الدؤوب، منذ الفجر حتى مغيب الشمس، وازدرائها الأولمبي بنصائح الأطباء. فقد عكفت فلورا على دراسة كل شيء، في تلك المدينة-المسخ ذات ملايين السكان، عاصمة أكبر إمبراطورية في العالم، ومقر أقوى المصانع، وأضخم الثروات، كي تُظهر للعالم أنه، وراء واجهة الازدهار، والأبهة، والقوة تلك، تعشش أحط وأخس أشكال الاستغلال، وأسوأ أنواع الظلم، وإنسانية معذبة تعاني من الدناءة والتعسف، من أجل ثراء سريع لحفنة من الأرستقراطيين والملاكين.

الفرق يا فلوريتا، هو أنكِ في ١٨٣٩، بالرغم من هذه الرصاصة في صدرك، كنت تستعيدين قواكِ بساعات قليلة من النوم، وتكونين مستعدة ليومٍ عملٍ لندني مثير آخر، والمغامرة في الذهاب إلى تلك الأوكار التي لا يطؤها أي سائح، ولا تظهر في كتابات الرحالة، ممن يتلذذون في وصف بهاء الصالونات والأندية، ونظافة الحدائق، والإنارة العامة بالغاز في الويست إند، وسحر حفلات الرقص، والولائم، ومآدب العشاء التي يشغل بها طفيليو طبقة النبلاء تَبَطُّلهم. إنك تستيقظين الآن متعبة، مثلما كنت عند خلودك للنوم؛ ويكون عليكِ أن تلجئي، خلال النهار، إلى ذلكَ العناد السيكلوبي الذي ما زلتِ، لحسن الحظ، تحتفظين به سليماً، كي تنجزي البرنامج الذي فرضتِه على نفسك. لم تكن الرصاصة هي أكثر ما يعذبكِ، بل آلام الرحم التي لم تعد المهدئات تؤثر فيها.

على الرغم من كل الكراهية التي كنتِ تشعرين بها تجاه لندن وإنكلترا، مذ عشتِ هناك، في شبابكِ، وعملت لدى آل سبينس، فإنه عليك أن تعترفي بأنه لولا هذه البلاد، ولولا الشغيلة الإنكليز، والاسكتلنديّون، والإيرلنديّون، لما استطعتِ أن تتوصلي أبداً، إلى إدراك أن الطريقة الوحيدة لتحرر المرأة، والحصول لها على المساواة

مع الرجل، هي في تآخي نضالها مع نضال العمال، مع الضحايا الآخرين، والمستغَلين الآخرين، أغلبية البشرية الساحقة. لقد جاءتها الفكرة في لندن، بفضل الحركة الشارتية التي تطالب بقانون يتبنى ميثاق الشعب، بإقرار حق الاقتراع العام، والتصويت السري، والتجديد السنوي للبرلمان، وأن يتلقى النواب البرلمانيون راتباً، حتى يتسنى للعمال التطلع إلى احتلال مقعد فيه. ومع أن الحركة الشارتية كانت موجودة منذ العام ١٨٣٦، إلا أنها بلغت أوجها عند وصول فلورا إلى لندن، في حزيران ١٨٣٩. وقد تابعت فلورا مسيرات الحركة واجتماعاتها الحاشدة، وجمعها التواقيع، واطلعت على تنظيمها الممتاز، وتوزع لجانها في القرى والمدن والمصانع. وقد انبهرتِ بذلك كله. كانت الحماسة تبقيكِ مستيقظة لياليَ بطولها، مستذكِرة تلك المسيرات لآلاف مؤلفة من العمال في الشوارع اللندنية. إنه جيش شعبي حقيقي. من يستطيع معارضة مستغَلي وفقراء العالم بأسره، إذا ما تنظموا بتلك الطريقة؟ إذا ما اتحدت النساء مع العمال، فسيشكلون قوة لا تُهزم. قوة قادرة على تثوير الإنسانية، دون إطلاق رصاصة واحدة.

وعندما علمت فلورا أن المؤتمر الوطني للحركة الشارتية كان ينعقد في لندن، في تلك الأيام، استقصت عن مكان الاجتماع. وبعمل جرئ، ظهرت في دكتور جونسون تافرن، وهي حانة يائسة المظهر في أحد أزقة فليت ستريت المسدودة. في قاعة فسيحة يكتنفها الدخان والرطوبة، سيئة الإنارة، تعبق برائحة البيرة الرخيصة والملفوف المسلوق، كان يزدحم نحو مئة من القادة الشارتيين، بينهم الزعيمان الرئيسيان، أوبرين وأوكونور. وكانوا يتناقشون حول ملاءمة الإعلان عن إضراب عام، تأييداً لميثاق الشعب. عندما سألوكِ من تكونين، وما الذي تفعلينه هناك، أوضحتِ، دون أن يرتعش صوتك، بأنكِ تحملين تحية عمال ونساء فرنسا لإخوانهم البريطانيين. نظروا إليك باستغراب، ولكنهم لم

يطردوك. وكانت هناك أيضاً جفنة من العاملات، رحن يتأملن بارتياب ثيابك البرجوازية. إستمعت إليهم يتناقشون، طوال ساعات، ويتداولون المقترحات، ويصوتون على الاقتراحات. أحسست أنك في لحظة فاصلة. أجل، يمكن لهذه القوة، بانتشارها في كل أنحاء أوروبا، أن تغير العالم، وتجلب السعادة للتعساء. وعندما سأل أوبرين وأوكونور، في لحظة صمت، إذا ما كانت المندوبة الفرنسية، ترغب في التوجه إلى المجتمعين، لم تترددي لحظة واحدة. صعدت إلى منصة المتكلمين، وبإنكليزية مترددة، توجهت إليهم بالتهنئة، وبالتشجيع على مواصلة تقديم هذا المثل، في التنظيم والنضال، لكل شعوب العالم. وأنهيت خطابك المقتضب بعبارة حماسية، أثارت استغراب مستمعيك، أنصار الأسلوب السلمي، وشوشتهم تماماً: «فلنضرم النار في القصور أيها الأخوة!»

إنك تضحكين الآن عندما تتذكرين تلك الجملة الحماسية، يا فلوريتا. لأنك لا تؤمنين بالعنف. لقد وجهت تلك الدعوة النارية للتعبير، بصورة درامية، عن الانفعال الذي يجتاحك. يا لامتياز كونك هناك، بين أولئك الأخوة المستغلين الذين بدؤوا يرفعون رأسهم. لقد كنت من مؤيدي المحبة، والأفكار، والإقناع، ومناهضة للرصاص والمشانق. ولهذا يستثير حنقك هؤلاء البرجوازيون الأفظاظ في كركسون، من يرون أنه يمكن حلّ كل شيء بتعبئة الجيوش ونصب المقاصل في الساحات العامة. ما الذي يمكن انتظاره من أناس بهذه البلاهة؟ ليس هناك من علاج للبرجوازية، فأنانيتها تمنعها دوماً من رؤية الحقيقة العامة. أما أنت بالمقابل، فإنك واثقة، الآن أكثر من أي وقت آخر، من أنك تمضين في الطريق الصحيح. تقريب النساء من العمال، تنظيم هؤلاء وأولئك في تحالف يتجاوز الحدود، ولا يكون بإمكان أي شرطة، أو جيش، أو حكومة أن تسحقه. عندئذ، لا تعود السماء مجرد شيء تجريدي، وتفلت من المواعظ، ومن أيدي الخوارنة، ومن تصديق المؤمنين، وتتحول إلى تاريخ، إلى حياة كل يوم،

ولكل البشر. وهتفت بحماسة: «إنني أقدرك يا فلوريتا»، ثم قالت: «آه، يا رب، يكفي أن ترسل عشر نساء مثلي إلى هذا العالم، كي تسود العدالة على الأرض».

كان هوغ برنار أحد أكثر من يلفتون النظر، بين أنصار فورييه في كركسون. إنه مناضل في جمعيات سرية فرنسية، وكاربوناريو في إيطاليا، ويريد بأي ثمن، أن تنشب حرب أهلية. كان مفوهاً، مغوياً، يستمع إليه العمال مبهورين. وقد واجهته فلورا؛ أسمته «الحاوي»، «المشعوذ»، «مفسد الشغيلة بكلامه الديماغوجي المعسول». وبدل أن يغضب، تبعها هوغ برنار حتى الفندق، مستنفداً التملقات: إنها أذكى امرأة عرفها، والوحيدة التي يمكن له أن يتزوج منها. ولو لم يكن واثقاً من أنها ستصده، لحاول مغازلتها والتودد إليها. وانتهى الأمر بفلورا إلى الضحك. ولكنها، بالنظر إلى مغازلاته، اختارت أن تبقيه بعيداً عنها. وقد حاول إسكوديه، زعيم **الفرسان**، أن يكسب صداقتها. وكان رجلاً غامضاً وكئيباً، يرتدي ملابس الحداد، ويخرج بموضات عبقرية.

- يمكن لحضرتك أن تكون ثورياً جيداً يا إسكوديه، لو كان لديك قدر إضافي قليل من الحب، وقدر أقل من الشهية.

- لقد أصبتِ الهدف تماماً يا فلورا - أكد نصير فورييه النحيل، المأتمي، بجدية كبيرة، وبملامح شيطانية - هذه هي مشكلة حياتي الكبرى: الشهوات. اللحم.

- انسَ اللحم يا أسكوديه. فما تحتاج إليه الثورة هو الروح وحسب، الأفكار. أما اللحم فهو عائق.

- قول هذا أسهل من تنفيذه، يا فلورا - أكد الفالانستيري، متخذاً نبرة رثائية، وأضاف بنظرة أثارت ذعرها:- لحمي مركب من كل الجحافل الجهنمية. إذا ما أطللتِ، أنت التي تبدين نقية وطاهرة، على عالم شهواتي، فسوف تسقطينَ ميتة من الرعب. وبالمناسبة، هل قرأتِ المركيز دي ساد؟

أحست فلورا بساقيها ترتجفان. وتدبرت الأمر لتحويل مسار الحديث، خوفاً من أن يكشف لها إسكوديه، إذا ما تمادى في هذا الطريق، النقاب عن جحيمه السري، عن الأعماق الداعرة في روحه، حيث تعشش، كما يبدو من حدقتيه المتأججتين، شياطين كثيرة. ومع ذلك، في حركة لا تتكرر كثيراً منها، وجدت نفسها فجأة تدخل في مناجاة مع الفورييهي المأتمي. إنها امرأة حرة، وقد أثبتت بكثرة، خلال سنوات عمرها الإحدى والأربعين، أنها لا تخشى أحداً أو شيئاً. ولكن الجنس، على الرغم من مغامرتها العابرة مع أولمبيا، ما زال يسبب لها ضيقاً غامضاً، لأن الحياة أظهرت لها، مرة بعد أخرى، أن الشهوة الجسدية، فضلاً عن كونها هيجاناً ومتعة، هي في الوقت نفسه منحدر أيضاً، يتدحرج عليه الرجل بسرعة إلى البهيمية، إلى أشد أشكال القسوة والجور وحشية ضد المرأة. لقد عرفت ذلك منذ شبابها، بفضل أندريه شازال، هاتك زوجته، ثم ابنته نفسها بعد ذلك؛ ولكنها رأت ذلك بصورة خاصة، ولمسته برعب لن يمحى أبداً من ذاكرتها، خلال الرحلة إلى لندن سنة ١٨٣٩. مشاهد مشينة ومخجلة، أجبرها ناشرو كتابها ***جولات في لندن*** على التخفيف منها، ولم يتجرأ أي ناقد، في ما بعد، عند نشر الكتاب، على التعرض له أو التعليق عليه. فخلافاً لكتابها ***اغتراب منبوذة*** الذي أطرى الجميع عليه، قابلت الأوساط الثقافية الباريسية، بصمت جبان، تنديدها بعيوب الميتروبول اللندنية. ولكن، ماذا يهمك كل ذلك، يا فلوريتا. أليس في ذلك إشارة إلى أنك تسيرين في الطريق الصحيح؟ «بلى، بلى، دون شك»، شجعها إسكوريه.

طرح عليها فكرة ارتداء زي الرجال، بعد قليل من وصولها إلى لندن، صديقٌ من أنصار أوين، رآها تغتم حين علمت أنه محظور على النساء الدخول إلى البرلمان البريطاني. وقد ساعدها دبلوماسي تركي، وفر لها ملابس التنكر. كان عليها أن تجري بعض الإصلاحات على السروال الفضفاض، وعلى العمامة، وأن تملأ فراغات الحذاء

التركي بالورق. ومع أنها أحست بالقلق، وهي تجتاز بوابة البناء المهيب، المجاور لنهر التايمز، قلب السلطة الإمبراطورية البريطانية، إلا أنها بعد ذلك، وهي تسمع مداخلات البرلمانيين، نسيت تماماً هويتها البديلة. لقد سبب لها معظم البرلمانيين انطباعاً محزناً، لتفاهتهم وطريقتهم البذيئة في الاسترخاء على المقاعد، وهم يعتمرون قبعاتهم. ومع ذلك، فقد تأثرت كثيراً، حين سمعت دانييل أوكونيل، زعيم الاستقلاليين الإيرلنديين، وأول إيرلندي كاثوليكي يحتل مقعداً في مجلس العموم، وواضع استراتيجية النضال دون عنف ضد الاستعمار الإنكليزي. ذلك الرجل القبيح الذي له مظهر حوذي يرتدي أفضل ملابسه، يتحول عندما يتكلم - داعياً إلى إلغاء العبودية، وحق الاقتراع العام - إلى شخص جميل، يشع وقاراً ومثالية. لقد كان خطيباً لامعاً، يدفع الجميع إلى الإصغاء إليه باهتمام. عندما استمعت فلورا إلى أوكونيل، خطرت لها فكرة «المدافع عن الشعب»، التي ستضمها إلى مشروعها في **الاتحاد العمالي**: حركة النساء والشغيلة ستُوصل إلى البرلمان ناطقاً باسمها، وستدفع له راتباً، كي يدافع هناك عن مصالح الفقراء.

كثيراً ما كانت تتنكر بزي رجل، خلال تلك الشهور الأربعة. لقد قررت أن تتعرف على الحياة التي تعيشها مئة ألف مومس يجبن، كما يقال، شوارع لندن، وعلى ما يجري في مواخير المدينة. وما كان يمكن لها أن ترتاد تلك الجحور، دون أن تخفي جنسها خلف بنطال رجل وسترة طويلة. حتى وهي في تلك الحالة، كان يصعب عليها التوغل في بعض الأحياء. في الليلة التي جابت فيها وترلوو رود، من بدايته في الضاحية حتى جسر وترلوو، تسلح الصديقان الشارتيان اللذان رافقاها بالهراوى، لإخافة النشالين والفضوليين الذين تعج بهم الطريق، وسط القوادات والقبضايات والعاهرات. لقد كانوا يملؤون الأرصفة، شارعاً بعد شارع، وينتهزون غياب الشرطة، لينقضوا على مرأى من الجميع، على الزبائن المتوحدين. كانت

البضاعة تُعرض هناك، بصفاقة، على المارة الذين يتجولون في الشوارع، مشياً، أو على الخيول، أو في عربات، متفحصين البضاعة المعروضة. ونظرياً، كانت السن الدنيا لتلك البضاعة البشرية، هي اثنتا عشرة سنة. غير أنه يمكن لفلورا أن تقسم، بأن هناك، بين تلك الهياكل العظمية القذرة، المهلهلة، وشبه العارية التي تعرضها القوادات والقوادون، طفلات وأطفال في العاشرة، وربما في الثامنة؛ مخلوقات بنظرات مرعوبة أو بلهاء، يبدو أنها لا تعرف ما يحدث لها. وقد اجتاحتها مشاعر الحقد، من الوقاحة والبذاءة التي تُعرض بها الخدمات («يمكن لكَ يا سيدي أن تضاجع هذه الدمية من مؤخرتها»، «جميلتي هذه تقبل أن تُضرب بالسوط على مؤخرتها، وهي فنانة بالمص، يا سيدي»). كانت على وشك أن يغمى عليها. وبينما أنتِ تجتازين تلك الجادة اللانهائية، المختفية في عتمة تقطعها، بين حين وآخر، المصابيح الحمراء المتراقصة في بيوت الدعارة؛ وتسمعين الحوارات القذرة، وأصوات السكارى المتلعثمة، راودكِ الإحساس بأنك في أجواء أشباح قبورية، في اجتماع سحرة من القرون الوسطى. أليس هذا أشبه ما يكون بالجحيم، على الأرض؟ هل هناك ما هو أكثر شيطانية من قدر أولئك الأطفال والطفلات المعروضين، مقابل بضعة سنتات، لفجور هؤلاء القذرين؟

يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر شيطانية، يا فلوريتا. فأسوأ من أرض المواخير في الإست إند، أسوأ من أرض الطفلات والأطفال، المخطوفين في الغالب، من الريف أو القرى، ليباعوا إلى المواخير وبيوت الدعارة، على يد عصابات متخصصة بهذه التجارة، أسوأ من هذا كله، كانت الـ *finishes* في الويست إند، مركز المتع الراقية اللندنية. فهناك يا فلوريتا، بلغتِ ذروة الاضطراب. والـ *finishes* هي الحانات-المواخير، البارات-المباغي حيث يذهب الأغنياء، النبلاء، ذوو الامتيازات في مجتمع السادة والعبيد، الأحرار افتراضياً، كي ينهوا (*to finish*) ليالي مجونهم. لقد زرتِ تلك الأماكن متنكرة بزي

رجل متأنق، برفقة شاب من المفوضية الفرنسية، كان قد قرأ كتبك، وأعارك ملابس رجالية، ولكنه لم يفعل ذلك قبل أن يحاول ثنيك عن عزمك، مؤكداً لك أن التجربة سترعبك. وقد كان محقاً تماماً. فأنت، من كنت تظنين أنك رأيت كل حَيْوَنة الكائن البشري، لم تكوني قد رأيت بعد، الحدود التي يمكن أن يصل إليها امتهان النساء.

عاهرات الـ *finishes* لم يكنّ مثل مومسات وترلوو رود الجائعات، والمصابات بالسل في الغالب. بل كن بغايا يرتدين ملابس جيدة، ذات ألوان فاقعة، ومجوهرات، ويتزيّن بالمكياج والأصبغة الشاذة. ومنذ منتصف الليل يقفن في صف، مثل فتيات كورال ميوزيك-هول، لاستقبال الأثرياء ممن يأتون بعد تناول العشاء، أو بعد الخروج في المسارح والحفلات الموسيقية، لإنهاء حفلتهم في هذه القاعات الفاخرة؛ ليشربوا، ويرقصوا، وليصعد بعضهم إلى المقصورات الخاصة العلوية، لممارسة الحب، مع واحدة أو اثنتين من الفتيات، أو لجلدهن، أو لتجلدهن الفتيات أنفسهن، وهو ما يسمونه في فرنسا *le vice anglais*. ولكن المتعة الحقيقية في الـ *finishes* ليست الفراش ولا الجلد بالسوط، وإنما الاستعراضية والقسوة. يبدأ ذلك في الساعة الثانية أو الثالثة فجراً، عندما يكون الوجهاء والأثرياء قد خلعوا ستراتهم وربطات عنقهم، صداراتهم وحمالات سراويلهم، وبدؤوا بتقديم عروضهم. يعرضون جنيهات إنكليزية لامعة ورنانة على النساء - كثيرات منهن صبيات، مراهقات، طفلات - كي يشربن المشروبات التي يحضرونها لهن بأنفسهم. يحشون معداتهن، بابتهاج، محتفين ببعضهم بعضاً، وهم يضجون بالقهقهات. في البدء، يجعلونهن يشربن الجن، والسيدرا، والبيرة، والويسكي، والكونياك، والشمبانيا. ولكنهم يبدؤون فجأة، بخلط الكحول بالخل، بالفلفل الحار، وبقذارات أسوأ. كي يروا النساء، من أجل كسب الجنيهات، يشربن تلك الكؤوس في جرعة واحدة، يسقطن أرضاً، وهن يكشرن من القرف، ويتلوين ويتقيأن. عندئذ، يعمد أشدهم سكراً أو جرأة،

وسط التصفيق، وحثّ الجمع، إلى فتح سراويلهم والتبول عليهن، أو يعمد من هم أكثر جرأة، إلى الاستمناء عليهن ليتحلين بالمني. وفي الساعة السادسة أو السابعة صباحاً، عندما يتهاوى الساهرون منهوكين من اللهو، ومتخمين من الشرب والخبث، ويستغرقون في بلاهة سبات السكارى، يدخل أزلامهم إلى المحل، لاقتيادهم إلى عرباتهم الفاخرة، وحملهم كي يناموا، بعد سكرهم، في بيوتهم الفخمة.

لم تبكِ فلورا تريستان هكذا قط. حتى عندما علمتِ بأن أندريه شازال قدَ اغتصب ألين، لم تبكي مثلما بكيتِ في فجر ذَينك اليومين في الـ *finishes* اللندنية. عندئذ قررتِ قطعَ العلاقة مع أولمبيا، كي تكرسي وقتك كله للثورة. لم تشعري قطّ بمثل تلك الشفقة، بمثل تلك المرارة، بمثل ذلك الغضب. إنكِ تستعيدين تلك المشاعر الآن، في ليلة الأرق هذه، في كركسون، مفكرةً في أولئك البغايا اللواتي في الثالثة عشرة، الرابعة عشرة، الخامسة عشرة من أعمارهن - كان يمكن لكِ أن تكوني واحدة منهن، لو جرى اختطافك عندما كنت تعملين لدى آلَ سبينس -، يبتلعن تلك المشروبات المقززة من أجلَ جنيه واحد، يسمحن للسمِ السائل بأن يفتت أحشاءهن من أجل جنيه واحد، يسمحن بأن يُبصق ويبال عليهن، وأن يتلوثن بالمني من أجل جنيه واحد، ومن أجل أن يحصل أثرياء إنكلترا على لحظة حماسة فيِ حيواتهم الخاوية والبليدة. من أجل جنيه! رباه، رباه، إذا كنتَ موجوداً، فلا يمكن لك أن تكون ظالماً، وتقصف حياة فلورا تريستان، قبل أن تطلق مسيرة الاتحاد العمالي الدولي الذي سيقضي على الشرور، في وادي الدموع هذا! «امنحني خمس سنوات، ثماني سنوات أخرى. هذا يكفيني يا رب».

لم تكن كركسون، بالطبع، استثناء من القاعدة. في مصانع النسيج، حيث منعوها من الدخول، كان الرجال يكسبون فرنكاً ونصف إلى فرنكين يومياً، والنساء نصف المبلغ، مقابل العمل نفسه.

وكانت ساعات العمل تمتد من أربع عشرة إلى ثماني عشرة ساعة يومياً. وفي ورشات الحرير وغزل الصوف، يعمل أطفال في السابعة من عمرهم، مقابل ثمانية سنتات في اليوم، بالرغم من أن القانون يحظر تشغيلهم. مناخ العداء ضدها كان كبيراً جداً. فقد صارت جولتها معروفة في المنطقة. ومؤخراً، راح الأعداء في المدن، يشحذون السكاكين لاستقبالها. واكتشفت فلورا أن أرباب العمل يوزعون في كركسون منشورات تتهمها بأنها «ابنة زنا، محرضة ومُفسدة، هجرت زوجها وأبناءها، وكان لها عشاق، وهي الآن سان-سيمونية وشيوعية إيكارية». لقد أضحكتها هذه التهمة الأخيرة. كيف يمكن لها أن تكون، في الوقت نفسه، سان-سيمونية وإيكارية؟ فالفريقان متباغضان، يكره أحدهما الآخر. لقد كنت متعاطفة مع سان-سيمون قبل بضع سنوات، هذا صحيح، ولكن هذا يرجع إلى ما قبل التاريخ بالنسبة إليك. وبالرغم من أنك قرأت رواية إتين كابيه «*رحلة إلى إيكاريا*»، (لديك نسخة من الطبعة الأولى، طبعة عام ١٨٤٠، مهداة إليك منه شخصياً) التي أكسبته أتباعاً كثيرين في فرنسا، إلا أنك لم تشعري قط، بأي تعاطف تجاه كابيه، ولا تجاه أتباعه، أولئك الهاربين من المجتمع، ويسمون أنفسهم «شيوعيين». بل على العكس، لقد كنت تنتقدينهم دائماً، شفوياً وفي المقالات، لأنهم يعدون العدة، تحت إشراف ملهمهم، ذلك المغامر، والكاربوناريو في كورسيكا، قبل تحوله إلى نبي، ويهيئون أنفسهم للسفر إلى بلاد بعيدة - أميركا، غابات أفريقيا، الصين - لكي يؤسسوا، في مكان معزول عن بقية العالم، جمهورية الكمال التي تصفها رواية *رحلة إلى إيكاريا*، حيث لا وجود لنقود، ولا مراتب، ولا ضرائب، ولا سلطة. هل هناك ما هو أشد أنانية ونذالة من حلم دعاة الهروب هذا؟ لا، يجب عدم الهروب من عالم النقائص هذا، من أجل تأسيس مملكة سماوية لحفنة مختارة، هناك، حيث لا يمكن لأحد آخر أن يصلها. لا بد من النضال ضد نقائص هذا العالم، في هذا العالم بالذات، وتحسينه،

وتغييره حتى يتحول إلى وطن سعيد لجميع بني البشر.

في اليوم الثالث لوجودها في كركسون، حضر إلى فندق بونيت رجل ناضج، رفض التعريف باسمه. اعترف لها بأنه شرطي، مكلف من قائده بمراقبتها. كان لطيفاً، وخجولاً بعض الشيء، يتكلم فرنسية غير متقنة، وقد فاجأها بأنه يعرف كتابها *اغتراب منبوذة*. وأعلن أنه معجب بها. وحذرها من أن سلطات المنطقة كلها قد تلقت تعليمات لجعل حياتها مستحيلة، والإيقاع بينها وبين الناس، لأنهم يعتبرونها محرضة، تدعو إلى الثورة على النظام الملكي، في عالم العمال. أما من ناحيته، فليس على فلورا أن تخشى شيئاً: لن يفعل أبداً، ما يُلحق بها الأذى. وقد بدا متأثراً جداً وهو يقول لها ذلك، مما دفع فلورا، في نوبة حماسة، إلى تقبيل جبهته: «أنت لا تدري مقدار سعادتي، وأنا أسمعك تقول هذا يا صديقي».

لقد ملأها بالحماسة، لبضع ساعات على الأقل. غير أن الواقع عاد للحضور، عندما أُلغي بصورة مفاجئة، موعد مرتب مع محامٍ متنفذ. فقد أرسل إليها الأستاذ ترينشان رسالة فظة: «بعد أن علمتُ بولاءاتك الشيوعية الإيكارية، أرفض استقبالك. لأن حديثنا سيكون حوار طرشان». فردت عليه مدام غضب: «ولكن مهنتي ليست سوى السعي لفتح آذان الصم وعيون العميان».

لم تكن قانطة، ولكن تذكر زياراتها إلى مواخير الـ *finishes* في لندن، جعلتها تشعر بالاستياء. فهي لا تفارق الآن ذاكرتها. ومع أنها رأت أشياء محزنة، خلال جولاتها في عالم الرأسمالية السفلي، إلا أن شيئاً لم يستثرها مثلما استثارتها المتاجرة بأولئك التعيسات. ولكن ذلك لن يُنسيها زياراتها، مع أحد موظفي الكنيسة الأنجليكانية، إلى الأحياء العمالية في أطراف لندن، تلك العنابر المتتالية الممتلئة بآلات الغزل ذات الدوّاسات دائمة التشغيل، والمزدحمة بأطفال عراة يقلبون عظامهم في النتانة، والشكاوى التي تكررها كل الأفواه، مثل لازمة: «في الثامنة والثلاثين، في الأربعين،

نعتبر جميعنا، رجالاً ونساء، غير نافعين، ونُصرف من المصانع. من أين سنأكل يا سيدتي؟ الأطعمة والملابس المستعملة التي تقدمها إلينا الكنائس لا تكفي الأطفال وحدهم». وفي مصنع الغاز في هورس فيريرود ويستمنستر، أوشكتِ على الموت اختناقاً، لإلحاحك على أن تري، عن قرب، كيف كان أولئك العمال، ممن لا تستر أجسادهم إلا وزرة صغيرة، يكشطون فحم الكوك من أفران، دفعتكِ إلى التفكير بمعامل الإله فولكان. كان بقاؤكِ خمس دقائق هناك، كافياً لأن تبتلّي بالعرق، وتشعري بأن الحر ينتزع الحياة منك. هم يبقون ساعات، في الاحتراق؛ وبعد ذلك، عندما يسكبون الماء على المراجل الفارغة، يبتلعون دخاناً كثيفاً، يلطخ بالسواد أحشاءهم، مثلما يلطخ جلودهم. وبعد هذا العذاب، يستطيعون الاستلقاء، كل اثنين منهم على فراش واحد، ليستريحوا حوالي ساعتين. لقد قال لكِ رئيس المحطة إن أياً منهم، لا يستطيع تحمل هذا العمل، أكثر من سبع سنوات، قبل أن يصاب بالسل. هذا هو ثمن الشوارع المضاءة بأعمدة الإنارة الغازية، في أوكسفورد ستريت، في قلب الويست إند، أجمل جادة في العالم!

السجون الثلاثة التي زرتِها، سجون نيوغيت، كولداث فيلدز، وبينتنشياري، كانت أقل لا إنسانية من الجحور العمالية. لقد اجتاحتكِ قشعريرة حين رأيتِ أدوات تعذيب العصور الوسطى التي يُستقبل بها السجناء، في جناح الدخول إلى سجن نيوغيت. غير أن الزنازين، الفردية منها والجماعية، كانت نظيفة، وكان السجناء والسجينات – وهم سارقون وسارقات في غالبيتهم الساحقة – يأكلون أفضل من عمال المصانع. لقد سمح لكِ مدير سجن نيوغيت بالتحدث إلى قاتلين، محكوم عليهما بالشنق. أولهما شخص نفور، اعتصم بصمت مطبق، ولم تستطيعي الحصول على كلمة واحدة منه. أما الثاني، وكان باسماً، مرحاً، سعيداً لتمكنه من كسر قانون الصمت لبضع دقائق، فبدا لكِ أنه عاجز عن قتل ذبابة. ومع ذلك، فقد مزق ضابطاً في الجيش. كيف استطاع عمل ذلك، وهو بتلك الرصانة

وذلك اللطف؟ لقد أوضح لكِ الأمر طويل السالفين، الدكتور جون إيلستسون، الأستاذ في الطب، والتلميذ المتعصب لفرانز جوزيف غيل، مؤسس علم فراسة الجمجمة.

- لأن لدى هذا الشاب، نتوءين ناميين جداً في الجزء الخلفي من قاعدة جمجمته: إنهما عظمتا الكرامة والخجل. المسيهما، يا سيدتي. هنا، هنا. أتشعرين بهما؟ إنه محكوم قدرياً بأن يَقتُل.

لم تتجرأ فلورا على انتقاد أكثر من شيئين في نظام السجون الإنكليزي: قانون الصمت الذي يفرض على السجناء، ويجبرهم على عدم فتح أفواههم مطلقاً - كلمة واحدة بصوت عالٍ، تؤدي إلى عقوبات صارمة -. وحرمان المسجونين من العمل. وقد أكّد لها حاكم سجن كولداث فيلدز الدؤوب، وهو جندي سابق في المستعمرات، بأن الصمت يساعد على التقرب من الرب، والدخول في استغراق صوفي، والإحساس بالندم، وهي من أهداف الإصلاح. أما بالنسبة إلى العمل، فقد نوقش الموضوع في البرلمان. وقُدِّر بأن السماح للسجناء بالعمل، سيكون غير عادل للعمال، لأن المنافسة لن تكون نزيهة مع المجرمين الذين يعملون بأجور أدنى. ولم تكن هناك في إنكلترا، سن محددة لمحاكمة المرء، وقد وجدت فلورا، في السجون الثلاثة، أطفالاً في الثامنة أو التاسعة من عمرهم، يقضون أحكاماً بتهمة النشل أو سرقات أخرى.

وعلى الرغم من أن رؤية أولئك الأطفال، وراء القضبان، كان محزناً، إلا أن فلورا قالت لنفسها إنه ربما يكون ذلك أفضل لهم؛ فهم يأكلون على الأقل، وينامون تحت سقف، في زنازين نظيفة. أما في أبرشية سان جيلز، بالمقابل، في الأبنية المحصورة بين أوكسفور ستريت وتوتينهام كورت رود، حيث الحي الايرلندي - بينبريدج ستريت -، فكان الأطفال يموتون، حرفياً، من الجوع. يرتدون الأسمال وينامون في ما هو أقل من العراء، في أكواخ من الكرتون والصفيح، لا تقيهم المطر. وبينما هي تمضي وسط برك الماء الآسن،

والروائح النتنة، والأوحال، والذباب، وكل أنواع الهوام والحيوانات الضارة - في تلك الليلة، وعندما صارت في البنسيون، اكتشفت فلورا أن زيارتها إلى الحي الايرلندي، قد ملأت ملابسها بالقمل - راودها إحساس كابوسي، بين هياكل عظمية، ومسنين متكورين على أكوام من القش، ونساء بأسمال ممزقة. لقد كانت القمامة في كل مكان، والجرذان تتراكض بين أقدام الناس. ولا يمكن حتى لمن لديهم عمل، أن يؤمنوا الطعام لأسرهم. الجميع يعتمدون على ما توزعه الكنائس من أغذية، كي يقيموا أود أبنائهم. وبالمقارنة مع بؤس وحرمان الايرلنديين، بدا لها حي فقراء اليهود في بتكيوت لين، أقل كآبة. فمع أن الفقر يبلغ أقصى حدوده، إلا أنه كانت هناك تجارة ملابس قديمة نشطة، في عدد كبير من الدكاكين الضيقة والأقبية، تُعرض فيها كذلك، بتكلف كبير، وفي وضح النهار، مومسات يهوديات شبه عاريات. أما سوق فيلد لين، حيث تباع بسعر زهيد كل الأشياء المسروقة في شوارع لندن - كان لا بد من الدخول في تلك الأزقة، دون حقيبة، أو ساعات، أو حلي -، فقد بدا لها أكثر إنسانية، بل لطيفاً، بما يعمه من نداءات صارخة، وأصداء مجادلات طريفة بين الباعة والزبائن الذين يطالبون بتخفيض السعر.

في مأوى المجانين في مستشفى بيثلين، حدث شيء جمد الدم في عروقك يا فلوريتا. لم يكن أصدقاؤكِ الشارتيون، ولا أصدقاؤك الأوينيون يشاطرونكِ وجهة نظرك في أن الجنون هو مرض اجتماعي، وأنه نتيجة للظلم، ومظهر تمرد مستتر، غريزي، ضد سلطة القوى السائدة. ولهذا لم يرافقكِ أحد منهم في جولتك على ملاجئ الرعاية النفسية في لندن. كان مستشفى بيثلين قديماً، شديد النظافة، حدائقه معتنى بها، تُتابع برعاية جيدة. قال لك المدير فجأة، في أثناء الجولة، إن لديهم هناك واحداً من مواطنيكِ، بحار فرنسي يدعى شابريه. أترغبين في رؤيته؟ انقطعت أنفاسكِ. أيمكن أن يكون زكرياس شابريه الطيب، قبطان «المكسيكي»، قد

انتهى مجنوناً هنا، بعد أن لعبتِ معه تلك اللعبة الخبيثة، في أريكيبا، لتتخلصي من حبه لك؟ لقد مررت بلحظات غم عصيبة، إلى أن أحضروا ذلك الشخص. لم يكن هو نفسه، وإنما شاباً فرنسياً حسن المظهر، يظن أنه الرب. وقد أوضح لك ذلك، بفرنسية هادئة، وبكثير من الحذر: إنه المسيح الجديد، مبعوثاً إلى الأرض «من أجل القضاء على العبودية، وإنقاذ المرأة من الرجل، والفقير من الغني». فابتسمت له فلورا: «كلانا نمضي في النضال نفسه، يا صديقي الطيب». وأيدها هو بغمزة تواطؤ.

لقد كانت تلك الرحلة إلى إنكلترا، عام ١٨٣٩، تجربة تعليمية، فضلاً عن كونها مرهقة. لم تتمخض فقط عن كتاب «***جولات في لندن***» الذي نُشر في بداية أيار ١٨٤٠، وأفزع الصحفيين والنقاد البرجوازيين براديكاليته وصراحته، ولكنه لم يفزع الجمهور الذي استنفد طبعتين منه، خلال شهور قليلة. بل تمخضت الرحلة أيضاً، عن فكرتك في تحالف أكبر ضحيتين في المجتمع: النساء والعمال. وعن كتيبك ***الاتحاد العمالي***، وعن هذه الحرب الصليبية التي تخوضينها. خمس سنوات مضت، آه يا أندلسية، وأنت منهمكة في جهود خارقة، لتحويل ذلك المشروع إلى واقع!

هل ستتمكنين من ذلك؟ إذا لم يخنك جسدك، ستتمكنين. إذا ما منحك الله حفنة أخرى من السنوات في الحياة، فسوف تتمكنين بالتأكيد. ولكنك غير واثقة من أنك ستعيشين ما أنت بحاجة إليه من سنوات. ربما لأن الرب غير موجود، ولا يمكنه بالتالي سماعك؛ أو لأنه موجود، ومشغول بأمور خطيرة، لا تتيح له الاهتمام بالجزئيات التافهة التي تهمك، مثل آلام مغصك ورحمك المتلف. ففي كل يوم، في كل ليلة، تشعرين بأنك تزدادين وهناً. إنها المرة الأولى التي تحاصرك فيها هواجس الهزيمة.

في الاجتماع الأخير في كركسون، تقدم أحد الفرسان، ولم تكن فلورا قد انتبهت إليه كثيراً، هو المحامي تيوفيل مركوني، ليعرض

بمبادرة منه، تنظيم لجنة للاتحاد العمالي في المدينة. فمع أنه كان متردداً في البداية، إلا أنه اقتنع أخيراً، بأن استراتيجية فلورا أشد تماسكاً من المحاولات التآمرية والحرب الأهلية التي يدعو إليها أصدقاؤه. وصار يبدو له أن اتحاد النساء والعمال، من أجل تغيير المجتمع، أمر ذكي وممكن التحقيق. بعد الاجتماع مع مركوني، رافقها حتى الفندق، عاملٌ شاب، له وجه صعلوك ماكر، كنيته لافيت، وأضحكها بخطة وضعها من أجل الاحتيال، كما قال لها، على البرجوازيين الفالانستيريين. فقد تظاهر بأنه مثلهم، من أنصار فورييه، وعرض عليهم استثماراً يضاعف أموالهم، بأن يشتروا، بسعر مضحك، بعض أنوال الحياكة المسروقة. عندما يجمع النقود، سوف يسخر منهم: «لقد أفقدهم الجشع صوابهم، يا سيدتي. وهذه الأموال ستذهب إلى صندوق **الاتحاد العمالي**، من أجل الثورة». لقد كان يضحك، ولكن فلورا لمحت في عينيه زئبقية أقلقتها. فماذا لو تحولت الثورة إلى تجارة على يد بعض الشطار المتلاعبين؟ عندما ودّعها لافيت اللطيف، طلب منها أن تسمح له بتقبيل يدها. فمدتها إليه، وهي تضحك وتقول له إنه «وجيه متدرب».

في الليلة الأخيرة في المدينة المسورة، حلمت بالمغرفة المعدنية ورنينها ما وراء القبوري. إنها ذكرى ملحة، ظلت رمزاً لرحلتها إلى إنكلترا: رنين تلك المغرفة المعدنية، المثبتة بسلسلة إلى مناهل ماء ذات مضخات يدوية، في أركان كثيرة من لندن، حيث يأتي البائسون ليطفئوا ظمأهم. لقد كانت المياه التي يشربها أولئك الفقراء، ملوثة؛ فقبل أن تصل إلى المناهل، تمر في مجاري المدينة. إن رنين تلك المغرفة، هو موسيقى البؤس، يا فلوريتا. وأنتِ تحملين ذلك الرنين، في مسمعيك، منذ خمس سنوات. وتقولين لنفسكِ أحياناً، إنه سيرافقكِ إلى العالم الآخر.

XX. ساحر هيفا وا

أتونا، هيفا وا، آذار ١٩٠٣

- ما يفاجئني أكثر من أي شيء آخر، في قصة حياتك - قال بن فارني، وهو ينظر إلى بول، كما لو أنه يريد حلَّ لغزه - أن امرأتكَ تحملت جنونك هذا.

كان بول يصغي إليه نصف إصغاء فقط. إذ إنه كان يحاول، في الوقت نفسه، تقدير الأضرار التي سببها الإعصار في أتونا. فمن قبل، ومن أعلى متجر بن فارني، حيث يجلسان الآن لتبادل الحديث، لم يكن يظهر سوى برج كنيسة البعثة البروتستانتية الخشبي. لكن الرياح المدمرة، اقتلعت بعض الأشجار، وعرت وبترت أشجاراً أخرى كثيرة؛ فصار بالإمكان الآن، من هذه الشرفة، رؤية واجهة الكنيسة كلها، وبيت القس بول فرنر الصغير المرتب. وكذلك، رؤية شجرتي التمر الهندي البديعتين على جانبيه، اللتين لم تكد العاصفة تؤثر عليهما. وبينما بول يرى كل ذلك، كان يتخيل الدرب إلى الشاطئ: لم يعد سالكاً بسبب ما تراكم فيه من وحل، وأحجار، وأغصان، وأوراق، وجذوع حملها الإعصار. وسوف يمضي وقت لا بأس به، قبل أن ينظفوه، وتتمكن من تجديد نزهاتكَ عند الغسق، إلى شاطئ الخونة، يا كوكي. هل نصب الماركيزيون المسالمون ذلك الكمين حقاً، لطاقم سفينة صيد الحيتان تلك؟ هل قتلوهم وأكلوهم؟

- أعني بقاءها معك، بالرغم من الكارثة الاقتصادية التي عنتها لأسرتك، نزوتك بالتحول إلى فنان - ألح صاحب المتجر. فمنذ أن سمع القصة، صار يحاصر بول، دون توقف، كي يعرف مزيداً من التفاصيل - كيف استطاعت تحملك؟

- لم تتحملني كثيراً، وإنما حوالي سنتين فقط - استسلمتَ

للإجابة - وما الذي كان بإمكانها عمله؟ لم يكن أمام الفايكنغة من مهرب. وما إن وجدت المهرب، حتى تركتني. أو بكلمة أدق، تدبرت الأمور، لكي تدفعني إلى تركها.

كانا يتحدثان على شرفة بيت بن، فوق المتجر. وفي الداخل، كان يُسمع صوت امرأة بن فارني تتحدث بالماركيزية مع بعض الأطفال. وكانت قد بدأت بالظهور في سماء هيفا وا، الألعاب النارية الهائلة - أزرق، أحمر، وردي - لكل أشكال الشفق. لقد أوقع إعصار كانون الأول الماضي، عدداً قليلاً من الضحايا في أتونا، ولكنه تسبب في أضرار كثيرة: هدم أكواخاً، انتزع سقوف محلات، اقتلع أشجاراً، وحول الشارع الوحيد في البلدة إلى مخاضة وحل، تملؤها ثقوب وأكوام تراب تغص بالدود. غير أن بيت الأمريكي الخشبي صمد للعاصفة، مثل **بيت المتعة**، ولم تلحق به سوى أضرار ضئيلة، جرى إصلاحها. أكثر الأصدقاء تضرراً هو تيوكا، جار كوكي، فقد اقتلع فيضان نهر ماك-ماك كوخه بالكامل. ولكن أسرته ظلت سليمة. والآن، يعمل العجوز الضخم، ذو اللحية البيضاء، وأفراد أسرته، دون راحة، في بناء منزل آخر، على قطعة أرض أهداها إليهم كوكي، ضمن أرضه.

قال صاحب المتجر معترفاً:

- من الممكن أنني لا أفهم في الفن. حسن، الحقيقة أنني لا أعرف شيئاً في هذا الشأن. ولكن، يجب الاعتراف بأنه أمر يصعب، على ذكاء عادي، أن يفهمه. التمتع بحياة مضمونة ومزدهرة، ثم التخلي عن كل شيء، في الثلاثين وبضع سنوات، للبدء في حياة فنان. مع وجود زوجة وخمسة أبناء! ألا يتوجب تسمية هذا جنوناً؟

- أتعرف يا بن؟ لو أنني ظللت في البورصة، لانتهى بي الأمر إلى قتل مِت وأبنائي، حتى لو أدى ذلك إلى قطع عنقي على المقصلة، مثلما حدث لقاطع الطريق برادو.

ضحك بن فارني. ولكنكَ لم تكن تمزح يا كوكي. عندما صرتَ، في آب ١٨٨٣، دون عمل، كنت قد بلغت أقصى حدود التحمل. تكريس

جزء كبير من اليوم لعمل شيء تكرهه، ويمنعك من إمساك فرشاة رسم - وهو ما صار يهمك أكثر من أي شيء في الحياة -، أوصلك إلى حافة انفجار كان يمكن له أن ينتهي بك - وكنتَ واثقاً من ذلك - إلى الانتحار أو الجريمة. ولهذا أحسستَ بالسعادة عندما فقدتَ عملك، وأنتَ تعلم أن حياة جديدة ستبدأ، تستدعي منك، ومن مِت بصورة خاصة، تضحيات كثيرة. وهذا ما حدث. المحن يا كوكي. محن يختبرك بها إله صغير وقاس، ليتأكد مما إذا كان لديك ميل فني حقيقي، وليتأكد أيضاً، وهذا هو الأصعب، من أنك تستحق امتلاك تلك الموهبة. بعد مرور عشرين سنة على ذلك، وبالرغم من أنك قد تجاوزت كل المحن بنجاح، ما زال ذلك الإله المتعسف يرسل إليك مزيداً من المحن. وأنتَ تعاني الآن من أشدها شؤماً: تردي بصرك. كيف يمكن لك أن تجتاز محنة العمى وأنت رسام؟ لماذا تتكالب المحن عليّ هكذا؟

بعد قليل من وضعِ مِت مولودها الأخير، في كانون الأول ١٨٨٣ - آخر العنقود، بول رولون، وسينادونه دوماً «بولا» - تركت الأسرة باريس لتستقر في روان. خطر لكَ أنه يمكن للحياة هناك أن تكون أرخص، وأنكَ ستكسب نقوداً جيدة، من بيع اللوحات ورسم الروانيين المزدهرين. إنها الأوهام الدائمة يا كوكي. لم تبع لوحة واحدة، ولم يطلب منك أحد رسم صورة واحدة. وخلال ثمانية شهور في تلك الشقة الصغيرة، في الحي العائد إلى العصر الوسيط، سمعتَ مِت تلعن كل يوم حظها، تبكي وتعنفك لأنك أخفيت عنها ميلك إلى الفَن الذي دمركما. غير أن تلك المشاحنات البيتية لم تكن تعني لكَ شيئاً، يا كوكي.

- كنتُ حراً وسعيداً يا بن - ضحك بول -. كنتُ أرسم مناظر نورماندية، سفناً، صيادين في المرفأ. لوحات براز بامتياز طبعاً. ولكنني كنت واثقاً من أنني سأصير، عما قريب، رساماً جيداً. لقد كنت عند المنعطف. يا للحماسة التي كانت تسري في عروقي يا بن!

- لو أنني كنت مكان مِت، لسممتُكَ - قال صياد الحيتان السابق -

ولكن، لو أنكَ كنت زوجاً صالحاً، لما وصلتَ أبداً إلى جزر المركيزات. أتدري؟ إذا ما كتب أحد قصتنا نحن الذين علقنا هنا، فسوف تكون قصة رائعة. لاحظ، كي دونغ، وأنت، وأنا نفسي.

فقال بول:

- قصتك هي الأكثر أصالة يا بن. تخلُّفكَ عن السفينة بسبب السكر. هل هذا صحيح؟ هل حدث الأمر هكذا؟

هز الأمريكي رأسه مؤكداً، وأبدى تكشيرة جعدت وجهه الأحمر ذا النمش.

- الحقيقة أن زملائي أسكروني، كي يتمكنوا من المغادرة وتركي - قال، دون مرارة، كما لو أنه يتكلم عن شخص آخر -. أظن أنهم كانوا ينظرون إليَّ، في سفينة صيد الحيتان، على أنني شخص مزعج. مثلما ينظرون إليكَ هنا. إننا متشابهان يا كوكي. لا بد أن هذا هو سبب تقديري الكبير لكَ. وبالمناسبة، كيف تمضي مشكلتك مع السلطات؟

- على حد علمي، المحاكم تعطلت - بصق بول باتجاه أشجار النخيل المحيطة - ربما يكون الإعصار قد لطخ أو أتلف الملفات. لم يعد بإمكانهم إلحاق الأذى بي. الطبيعة تحمي الفن من الرهبان والدرك! لقد برأني الإعصار يا بن!

في تموز ١٨٨٤، صعدت مت غاد إلى سفينة في مرفأ روان، حملتها إلى الدانمارك مع ثلاثةَ من أبنائها، مخلّفة بول في عاصمة النورماندي، وبرعايته كلوفيس وجين. وفي كوبنهاجن، تحسنت أمور الفايكنغة. فقد حصلت لها أسرتها على عمل، كمدرِّسة لغة فرنسية. وعندئذ - الأحلام يا كوكي، الأحلام دوماً -، قررتَ الانتقال إلى هناك لتغزو الدانمارك بالانطباعية.

- وما هي الانطباعية؟ - أراد بن أن يعرف.

كانا يشربان البراندي، وكان صاحب المتجر قد سكر. أما بول بالمقابل، بالرغم من أنه شرب أكثر منه، إلا أنه لا يزال متزناً تماماً. ومن خلفه، كانت الريح تحمل إليهما، من رابية البعثة الكاثوليكية،

أناشيد كورال مدرسة راهبات سان جوزيه دي كلوني. لقد كانوا يتدربون في مثل هذا الوقت دوماً، على ترديد أناشيد لم تعد تبدو دينية، لأنها تضمخت بسعادة الحياة الماركيزية وإيقاعها الحسي.

- إنها حركة فنية، أظن أن أحداً لم يعد يتذكرها في باريس - وهز كوكي كتفيه - والآن يا بن، النخب الأخير. لأنه إذا ما حلّ الليل، فلن أجد بيتي بهاتين العينين.

ساعده بن فارني على نزول السلّم، وعلى اجتياز الحديقة المسيجة بأسلاك، والصعود إلى عربته الصغيرة. وما أن أحس الحصان بأنه صار في العربة، حتى انطلق بها. كان يعرف الطريق عن ظهر قلب، ويتقدم بحذر على ضوء الغروب الخافت، متفادياً العوائق. لحسن الحظ أنكَ غير مضطر إلى توجيهه يا بول؛ وإلا لما كنتَ استطعت ذلك. ففي هذه الظلال، لا يمكن لعينيك المتأذيتين من المرض الذي لا يُسمى، أن تميزا حفر الطريق ومطباته. كنتَ تشعر بأنك على ما يرام. أعمى وسعيد يا كوكي. كان الجو دافئاً، لطيفاً، تعطره نسمة خفيفة برائحة الصندل. لقد كانت تجربة قاسية لكرامتك. اضطرارك للعيش في ٢٩ فريدريك شبرغيل، بيت أم مت، تُعيلك وتُذلك حماتك، وأخوال، وأخوات، وأخوة امرأتك، بل وأبناء أخوالها أيضاً. لم يكن بينهم من هو قادر على فهمِ - فما بالك بتقبّل - تخليك عن الأعمال المالية، والحياة البرجوازية، لتصبح بوهيمياً، وهي التسمية المرادفة عندهم لفنان. عزلوك في العلية، حيث كان عليك أن تبقى محبوساً، بسبب مظهرك البائس والشاذ - وكنت أنتَ في تلك الأيام، كردّ فعل انتقامي من أسرة زوجتك، قد بالغتَ بوضع قبعة جلدية حمراء على رأسك -، بينما مِت تعطي دروس اللغة الفرنسية لشبان مترفين من المجتمع الدانماركي، لأن رؤيتهم لك تنطوي على المجازفة، بأن تنزعج الفتيات، ويغضب الفتيان من مظهرك غير اللائق، ويتخلوا عن أخذ الدروس. ولم تتحسن الأمور عندما غادرتَ أنت ومِت والأولاد، بيت حماتك للعيش - بفضل بيع

لوحة من مجموعتك الانطباعية - في البيت الصغير، في نوريغادا ٥١، حي قذر في كوبنهاجن، مما وفر لِت حججاً جديدة للغضب منك والرثاء لحالها.

وقد عرفتَ أيضاً محنة المهانة والعزلة تلك، في بلد لا تتكلم لغته، حيث لا وجود لصديق واحد، ولا مشتر واحد للوحاتك. كنت تعمل دون راحة وبغضب: رسمتَ متزلجين على جليد حديقة فريدريك شبرغيل، وأشجار الحديقة الشرقية، وصورتك الذاتية الأولى. واشتغلت الخزف، والخشب، والرسوم التخطيطية، وما لا حصر له من الاسكتشات. أحد الفنانين الدانماركيين النادرين الذين اهتموا بما تفعله، ويدعى ثيودور فيليبسين، جاء بفضول لرؤية لوحاتك. تبادلتما الحديث لمدة ساعة. وفجأة، سمعتَ نفسك تقول للدانماركي إن الأحاسيس بالنسبة إليكَ، أهم من الحجج العقلية. من أين خرجتَ بتلك النظرية؟ لقد اخترعتها في اللحظة التي كنت تقولها فيها. الرسم يجب أن يكون تعبيراً عن كُلّيَّة الكائن البشري: ذكائه، مهارته الحرفية، ثقافته. ولكنه يجب أن يكون كذلك، تعبيراً عن معتقداته، غرائزه، رغباته، وأحقاده. «مثلما هي الحال لدى البدائيين». فيليبسين لم يولِ أدنى اهتمام لما قلته له؛ لقد كان لطيفاً وباهتاً، مثل كل الشماليين. ولكن ما قلته أثار اهتمامك أنتَ. لقد قلت ذلك دون تأمل وتفكير؛ وفي ما بعد، عندما ستفكر في الأمر، ستكتشف أن تلك المعادلة تلخص معتقدك الجمالي. حتى اليوم، يا كوكي. فوراء كل آراء التأكيد والإنكار التي قلتها وكتبتها على امتداد هذه السنوات، ما زالت النواة الثابتة هي نفسها: انحطاط الفن الغربي، لأنه انفصل عن كُليّة الوجود، تلك التي تظهر في الثقافات البدائية. فالفن في تلك الثقافات، غير المنفصل عن الدين، يشكل جزءاً من الحياة اليومية، مثل الأكل، وتزيين الجسد، والغناء، وممارسة الحب. وأنت تريد أن تقر في لوحاتك هذا التقليد الذي انقطع.

عندما وصل إلى بيت المتعة الذي لم يعد محيطه غابياً، منذ إعصار كانون الثاني، بل تحول إلى أرض خلاء، تتخللها أشجار قليلة وجذوع مطروحة على الأرض، كان الوقت ليلاً. إنه أحد الملامح التي تميز هيفا وا: الظلام يحل في لحظة واحدة، مثل ستارة تُسدل لتحجب المشهد. مفاجأة لطيفة؛ فقد كان هناك هابواني وامرأته توهوتاما، جالسين إلى جوار المنحوتتين الساخرتين *الأب مجون وتيريسا*، الناجيتين من الإعصار. لقد رجعا لتوهما من تاهواتا، جزيرة ذوي الشعور الحمراء، مثل شعر توهوتاما. ما سبب هذه الزيارة اللطيفة؟

تردد هابواني، وتبادل نظرة طويلة مع امرأته، قبل أن يجيبه، دون سعادة:

- إنني موافق على عرضك. الحاجة هي التي تضطرني يا كوكي.

منذ أن تعرف عليه، بعد قليل من وصوله إلى أتونا، كان بول يرغب في رسم هابواني. لقد كانت شخصيته تفتنه. فقد كان كاهناً لقرية ماووري، في جزيرة تاهواتا، قبل مجيء المبشرين الفرنسيين. ليس هناك من يعرف الآن إذا ما كان يعيش في هيفا وا، أم في جزيرته الأصلية، أم ذاهباً وآيباً بين الجزيرتين. كان يختفي لفترات طويلة، ولدى رجوعه لا يقول كلمة واحدة عن غيابه. وطنيو هيفا وا ينسبون إليه معارف وقدرات تقليدية، بسبب مهنته القديمة التي مازال، على حد قول كي دونغ، يمارسها سراً، بالخفاء عن الأسقف مارتين، والقس فرنر، والدركي كلافييه. كان كوكي معجباً بجرأته. ذلك أن هابواني، على الرغم من سنه - لا بد أنه خمسيني -، كان يأتي أحياناً، إلى بيت المتعة، وهو يلبس ويتزين على طريقة *الماهو*، الرجل-المرأة، مما يمكن أن يجلب له غضب الكنيستين والسلطة المدنية إذا ما اكتُشف ذلك. لم يعترض هابواني قط، على أن تقف امرأته الجميلة والعضلية توهوتاما أمام كوكي ليرسمها - وقد فعلت ذلك مرات كثيرة -، ولكنه لم يوافق قط على أن يرسمه كوكي. فهو يغضب، كلما اقترح عليه ذلك. ما أجبره على تغيير رأيه، هو

الإعصار الذي أحدث أضراراً في هيفا وا، ولكنه أوقع شروراً مريعة في تاهواتا، حيث دمر البيوت والمزارع، وأودى بحياة عشرات الأشخاص، منهم عدد من أقرباء المشعوذ السابق. وقد اعترف لكَ هابواني: إنه بحاجة إلى نقود. وبالنظر إلى صوته وملامحه، فقد كلَّفته هذه الخطوة جهداً كبيراً.

هل ستتيح لكَ هاتان العينان البائستان أن ترسمه؟

ودون أن يفكر في الأمر مرتين، وافق كوكي، متحمساً. وعلى الفور توصلا إلى الاتفاق. بعد ذلك قدم بول بعض النقود، سلفة، إلى هابواني. كان يشعر بالكثير من الإثارة حيال أفق رسم هذه اللوحة، حتى إنه أمضى شطراً كبيراً من الليل مؤرقاً، يتقلب في فراشه، بينما هو يسمع مواء القطط المتوحشة، ويتأمل ظهور القمر المتقطع، في السماء المغطاة بالغيوم. إن هابواني يعرف أشياء أكثر بكثير مما يعترف به. فقد سبر كوكي ذلك، عندما كان يأتي إليه مع امرأته توهوتاما، كي يرسمها. ولكنه لم يشأ أن يكشف أي شيء قط، عن ماضيه ككاهن ماووري. لقد أنكر دائماً استمرار ممارسة أكل اللحم البشري، حتى الآن، في بعض جزر الأرخبيل المعزولة. ولكن ذلك الإنكار لم يكن يقنع كوكي الذي يتسلط الموضوع على ذهنه. وقد تمكن في بعض الأحيان، بالمقابل، من التغلب على مقاومة المشعوذ، ودفعه للحديث عن فن الوشم الذي يعتقد الأسقف مارتين والراعي البروتستانتي فرنر أنه قد اندثر. غير أنه لا يزال حياً في القرى والغابات المعزولة في جزر الماركيزات، يَحفَظُ على جلود الإناث والذكور الماووريين المحمصة، في تلك العزلات النائية، الحكمةَ، والديانة، والتقاليد القديمة التي يقضي عليها المبشرون. لقد تأكد كوكي من ذلك، خلال رحلته الوحيدة إلى أعماق جزيرة هيفا وا، حين ذهب إلى قرية هاناوبا، في وادي هيكياني، للتفاوض على شراء امرأته فايوهو. فرجال القرية ونساؤها يكشفون أجسادهم الموشومة، دون أي قلق. وقد تبادل الحديث، من خلال مترجم، مع معلم الوشم

في القرية، وهو عجوز بشوش، عرض عليه دقة وثقة الفنان التي يطبع بها، على الجلد البشري، تلك الرسوم المتناظرة والمتاهية. وهابواني الذي ينتفض مثل هر، كلما سأله كوكي عن معتقدات الماركيزيين، كان يتحمس في بعض المرات، ويقدم له توضيحات حول مغزى الوشم، حتى إنه راح يرسم على ورقة، في أحد الأيام، بتلقائيةٍ وسرعة معلم في الوشم، ليشرح له شبكة الرموز المعقدة التي تتضمنها بعض التصاميم - وهي الأقدم، حسب قوله -، تلك التي تحمي المحاربين في المعارك، أو تمنح القوة لصدّ مكايد الأرواح الشريرة، أو تضمن نقاء الروح.

حضر الساحر في صباح اليوم التالي إلى **بيت المتعة**، بعد شروق الشمس بقليل. وكان كوكي بانتظاره في مرسمه. كانت السماء ناصعة في محيط أتونا، على الرغم من وجود تركم غيوم قاتمة، وتلويات بروق حمراء تنذر بعاصفة، في الأفق البحري، باتجاه جزيرة الأغنام غير المأهولة. عندما أوقف هابواني، في أفضل وضع يمكن للضوء الوليد أن ينعكس عليه، انقبض قلبه. يا للأسف يا كوكي! فأنت تكاد لا تميز سوى كتلة أشبه بحزمة، غائمة ومختلطة بمحيطها، وبقع متعددة التلونات والأبعاد. هذا ما حوّلت إليه عيناك الألوان الآن: ظلال، غمامات. أليس من العبث محاولة الرسم، يا كوكي؟

- لا، يا للعنة، لا - دمدم مقترباً كثيراً من الساحر، كما لو أنه سيقبّله أو يعضه - سوف أرسمك يا هابواني، حتى لو صرت أعمى تماماً، وإلا قتلني الغيظ.

فقال له الماووري ناصحاً:

- أفضل شيء هو الحفاظ على الهدوء. بما أنك تتلهف دائماً، لمعرفة ما يفكر فيه الماركيزيون، فإن هذا هو معتقدنا الأول: عدم الغضب أبداً، إلا في مواجهة العدو.

توهوتاما التي كانت في مكان ما - لم يشعر بمجيئها -، أطلقت ضحكة، كما لو أن ذلك كله لعبة مسلية. لقد كان لدى متِ أيضاً هذه

العادة المثيرة للنزق: تتفيه الأمور المهمة، بإطلاق دعابة وإلحاقها بقهقهة. ومع أنكَ لم تتوصل قط، إلى علاقة صداقة مع الرسام الدانماركي فيليبسين، إلا أنه تصرف بصورة جيدة معكَ. فبعد تلك الزيارة لرؤية لوحاتكَ، في بيت شارع نوريغادا ٥١، استخدم علاقاته، كي ترعى جمعية أصدقاء الفن الدانماركية معرضاً لرسومك. وافتُتح المعرض في الأول من أيار ١٨٨٤، بحضور ضئيل، ولكنه متميز. وجهاء وسادة، لطفاء ومجاملون، بدوا مهتمين بلوحاتكَ، واستفسروا منك عنها بفرنسية متكلفة. ومع ذلك، لم يشتر أحد لوحة واحدة، ولم تظهر أي ملاحظة مرحبة أو معادية في صحافة كوبنهاجن. وبعد خمسة أيام، أُغلق المعرض. وقد تبجحتَ في ما بعد، بأن السلطات الأكاديمية والمحافظة، أمرت بإغلاقه، مستنكرة جرأتكَ الجمالية. ولكن الأمر لم يكن كذلك. والحقيقة أن معرضك الوحيد، خلال حياتك في كوبنهاجن، انتهى سريعاً بسبب انعدام الجمهور، وإخفاقه تجارياً.

والأسوأ لم يكن إخفاقكَ؛ وإنما غضب أسرة مت منك بسبب ذلك الفشل الذريع. كيف! هذا البوهيمي الشاذ يترك وظيفته، وعمله المحترم كرجل مال، باسم الفن، ويكون هذا هو ما يرسمه! وأعلمتهم الكونتيسة مولتك بأنه إذا ما بقي هذا الشخص، ذو الملابس الغريبة المضحكة، مقلد ذوي البشرة الحمراء، في كوبنهاجن، فسوف تتوقف عن دفع تكاليف مدرسة إميل، ابن الزوجين غوغان البكر، وهو عمل إحسان تولته قبل ست شهور. وتجرأت الفايكنغة، شاحبة ومتباكية، على القول لكَ إن الشبان الدبلوماسيين الذين تعطيهم دروساً بالفرنسية، قد هددوها بأنهم سيبحثون عن أستاذ آخر، إذا أنت لم تغادر. وعندئذ ستموت هي والصغار جوعاً. لقد طردوكَ من كوبنهاجن مثل كلب، يا كوكي! ولم تجد مفراً من العودة إلى باريس، في الدرجة الثالثة، في القطار، آخذاً معك الصغير كلوفيس، وكان في السادسة من عمره؛ فهكذا ستخفف فماً عن عوز مِت، كي تتيح

لها أن تطعم بقية الأسرة. إنه الفراق. لقد كانت بداية حزيران ١٨٨٥ تلك، عملاً بارعاً في النفاق. أنت وهي تظاهرتما بأنه فراق مؤقت، فرضته الظروف، قائلين إنه ما إن تتحسن الأمور، حتى تعودا للاجتماع. ومع ذلك، كنتَ تعرف جيداً في أعماقكَ، وربما مِت كانت تعرف أيضاً، أن الفراق سيكون طويلاً، وربما نهائياً. أليس صحيحاً يا بول؟ حسن، إلى حد ما فقط. لأن الفايكنغة لا تزال زوجتك، بالرغم من أنكما لم تلتقيا، سوى مرة واحدة، ولبضعة أيام فقط - لم تسمح لكَ خلالها بلمسها -، طوال هذه السنوات الثماني عشرة. منذ كم من الشهور، لم تكتب إليك مِت، يا كوكي؟

وصل إلى باريس دون أن يكون في جيبه سنتيم واحد، يحمل طفلاً على كاهله، ليلتجئ حيث الطيب شوف، في شقته في شارع بولار، وكنتَ ترى من نوافذها لوحات المدافن في مقبرة مونبرناس. كان عمرك سبعاً وثلاثين سنة يا كوكي. أكنت قد بدأت تصبح رساماً حقيقياً؟ ليس بعد. وبما أنه لم يكن في الشقة متسع للعمل، فقد كنت ترسم في الشوارع، واقفاً عند أصل شجرة كستناء في حديقة اللوكسمبورغ، أو جالساً على مقاعد حدائق ضفة السين، على دفاتر وأقمشة يهديها إليكَ الصديق شوف. وكان يدس في جيبكَ أحياناً، دون أن تراه لويز، امرأته، بضعة فرنكات، كي تتمكن، في منتصف النهار، من الجلوس قليلاً في أحد مقاهي الرصيف. هل صرت في صيف عام ١٨٨٥ ذاك، تقضي الليالي مؤرقاً، مذعوراً، وأنت تفكر في أن كل ما تفعله، ربما ليس سوى خطأ فاحش، وهذيان ستندم عليه؟ لا، فمرحلة اليأس القصوى جاءت في ما بعد. ففي شهر تموز، وبفضل بيع لوحة أخرى من مجموعتك الانطباعية (بقي منها عدد قليل من اللوحات، وجميعها بحوزة مِت) ذهبتَ إلى ديبيه. هناك كانت تقضي الصيف جماعة من معارفك الفنانين، ومنهم ديغاس. كانوا يجتمعون في بيت فخم ومهيب، شاليه دي با-فوت-بلان، يملكه الرسام جاك-إميل بلان. ذهبت لزيارتهم، معتقداً أن أولئك

الأصدقاء سيستقبلونك بأذرع مفتوحة؛ ولكنهم تظاهروا بأنهم غير موجودين، واكتشفتَ وجود ديغاس وبلان، يراقبانكَ من وراء ستارة نافذة، بينما كان كبير الخدم يصرفكَ. منذ ذلك الحين صار كلاهما يتجنبك ككائن لا يليق التعرف عليه. وقد كنتَ كذلك يا كوكي. ورحت تجوب وحيداً، مثل نبتة فطر، منطقة الميناء وجروف الشاطئ، حاملاً رسومك وكرتونك، ترسم المستحمين، والشواطئ الرملية، والأرصفة البارزة. كانت لوحات سيئة. وكنت تشعر بأنك كلب أجرب. ليس هناك ما هو غريب في أن يتجنبك ديغاس، وبلان، والرسامون الآخرون في ديبيه: كنتَ تلبس كمتسول، لأن هذا هو ما تحوّلتَ إليه.

لم تكن قد وصلتَ بعد إلى الأسوأ يا كوكي. فالأسوأ جاء مع الشتاء، عندما رجعتَ إلى باريس، وليس معك مال من جديد. وأعادت إليكَ أختك ماريا فرناندا، ابنك كلوفيس الذي تولت رعايته، مكرهة، بينما أنتَ في ديبيه. ولم يعد بإمكان آل شوفينكير إيواؤك. استأجرتَ غرفة صغيرة بائسة في شارع كيل، قريباً من محطة الشرق، دون أثاث. وحصلت من سوق أشياء قديمة على سرير صغير لكلوفيس. بينما كنتَ تنام على الأرض، مرتجفاً من البرد، تحت بطانية عادية. لم يكن لديكَ سوى ملابس صيفية، ولم ترسل إليك مت قط، ملابس الشتاء التي تركتها في كوبنهاجن. تلك الشهور الأخيرة من عام ١٨٨٥ وبداية عام ١٨٨٦، كانت جليدية، هطل فيها الثلج بكثرة. أصيب كلوفيس بالحصبة، ولم تستطع شراء دواء له؛ وقد ظل حياً لأن لديه، دون شك، دماءً مثل دمائك القوية، وروحاً متمردة تنمو في مواجهة المصاعب. كنت تغذيه بحفنات من الرز، بينما أنت لا تأكل، في أيام كثيرة، سوى رغيف خبز. وعندئذ - إنه اليأس يا كوكي - اضطررتَ إلى التوقف عن الرسم، كي لا تموت أنت والطفل. وعندما فكرتَ بأن الحل، ربما يكون في القفز، من فوق أحد جسور السين، إلى مياه النهر المتجمدة، حاملاً الطفل بين ذراعيك، وجدتَ عملاً: ملصق لوحات إعلانات في محطات باريس.

مرحى لك، يا كوكي! كان عملاً قاسياً، في العراء، يلطخكَ بعجينة النشا من رأسك حتى قدميك، ولكنك بعد بضعة أسابيع، استطعت أن توفر ما يكفي لوضع كلوفيس في بنسيون متواضع، في أنتوني، في ضواحي باريس.

أكان ذلك الشتاء، بين عامي ١٨٨٥ و١٨٨٦، أسوأ لحظات حياتكَ، حين أوشكتَ على الاستسلام؟ لا. بل الأسوأ هو هذا الذي أنت فيه الآن، بالرغم من امتلاكك سقفاً تنام تحته، وتحصل - بفضل دانييل دو مونفريد وبائع اللوحات أمبراوس فولار - على نقود تتيح لك، على ضآلتها، أن تأكل وتشرب. فليس هناك شيء، ولا حتى ذلك الشتاء الرهيب، قبل ثمانية عشر عاماً، يمكن مقارنته بالعجز الذي تشعر به كل يوم، وأنت تحاول، بما هو أقل من التلمس، أن تسكب في اللوحة، الألوان والأشكال التي يوحي بها إليك حضور هابواني. حضوره، لأن كل ما تراه منه لا يتعدى أن يكون ظلا بلا وجه. هذا لا يهمك كثيراً. فأنت تحتفظ في ذهنك، بصفاء تام، بملامح وجه زوج توهوتاما الجميل، رغم سنوات عمره، وتحتفظ كذلك بفكرة ما ستكون عليه اللوحة. ساحر جميل مثلما هو، وفي الوقت نفسه: **ماهو**. كائن متغنج ومتميز، مع أزهار في شعْره الأنثوي السبط والطويل، ملتفاً بعباءة حمراء ضخمة، تتدلى وراء ظهره، مع ورقة في يده اليمنى، تشي بمعارفه السرية عن عالم النبات - شراب الحب، أشربة شافية، سامة، مغلي أوراق سحرية - وخلفه، كما هي العادة في لوحاتك (لماذا يا كوكي؟)، امرأتان غارقتان في أجمة - حقيقيتان أو متخيلتان، تتدثران بمعطفين رجوليين غريبين، يوحيان بالكهنوتية والقروسطية -، تتأملان الساحر، مفتونتين أو مذعورتين من سلوكه الغريب والخاطئ، ومن حريته الوقحة. وسيكون هناك كلب أيضاً، عند قدمي الساحر، ذو جرأة غريبة، ربما هو آت من جحيم ماووري. وديك أسود، ونهر ذو مياه بيضاء-زرقاء. وفي عمق اللوحة، سماء غروب تطل من بين أشجار الغابة. إنكَ ترى ذلك كله بوضوح، في

ذهنك. ولكن، لكي تنقله إلى القماشة، لا بد لك من أن تستشير، في كل لحظة، هابواني نفسه، أو توهوتاما، أو تيوكا الذي يأتي أحياناً لرؤيتك وأنت تعمل؛ تستشيرهم عن الألوان، عن المزج الذي تمارسه بما هو أقل من الحدس بقليل، دون أن تتمكن من التأكد من دقة النتائج. هم يريدون مساعدتكَ، بطيب نية، ولكنهم لا يجدون الكلمات، ولا المعارف، للرد على أسئلتكَ. كانت تعذبكَ فكرة أن تفسد معلوماتهم غير الدقيقة عملك. وكان العمل يمضي ببطء شديد. أكنت تتقدم فيه أم تتراجع؟ وكيف لك أن تعرف. وعندما ينتزع منك العجز تأوهاً، نوبة بكاء أو تجديف. يبقى هابواني وتوهوتاما إلى جانبك، صامتين باحترام، ينتظران أن تهدأ وتعود إلى الإمساك بالريشة.

وعندئذ تتذكر يا بول، أن القدر وضع بين يديك، في ذلك الشتاء القاسي، قبل ثمانية عشر عاماً، عندما كنتَ تلصق إعلانات في محطات القطارات في باريس، كتيباً صغيراً وجدته، وقد نسيه صاحبه أو رمى به، على كرسي في مقهى مجاور لمحطة الشرق، حيث كنت تجلس لتتناول كأساً من الأفسنتين، بعد انتهاء يوم عملك. مؤلف الكتاب تركي. الفنان، والفيلسوف، واللاهوتي ماني فيليبي زامبول زادي. وقد مزج تخصصاته الثلاثة في تلك الدراسة. فاللون في نظره، يعكس شيئاً أكثر سرية وذاتية من العالم الطبيعي. إنه كشف للحساسية، وللمعتقدات والتخيلات البشرية. في تقييم الألوان واستخدامها، تنسكب روحانية عصر الأشخاص، وملائكتهم وشياطينهم. ولهذا، يتوجب على الفنانين ألا يكونوا عبيد محاكاة تصويرية للعالم الطبيعي: غابات خضراء، سماء زرقاء، بحر رمادي، سحب بيضاء. وإنما واجبهم هو استخدام الألوان وفق دوافعهم الحميمة، أو وفق النزوة الشخصية المجردة: شمس سوداء، قمر شمسي، حصان أزرق، أمواج زمردية، سحب خضراء. ويقول ماني فليبي زامبول زادي أيضاً - كم هي مناسبة هذه التعاليم الآن يا

كوكي - إنه يتوجب على الفنانين، للحفاظ على المصداقية، أن يتخلوا عن الموديلات، وأن يرسموا معتمدين على ذاكرتهم وحسب. فهكذا يجسد فنهم، بصورة أفضل، حقيقتهم السرية. وهذا هو ما كنتَ تفعله، وقد اضطرتكَ إليه عيناك يا كوكي. أتكون *ساحر هيفا وا* هي اللوحة الأخيرة التي ترسمها؟ السؤال يسبب لك غثيان حزن وغضب.

- عندما أنهي هذه اللوحة، لن أعود إلى الإمساك بريشة، يا هابواني.

- أتعني أنني سأدفنك، لأنكَ رسمتني، يا كوكي؟

- بطريقة ما، أجل. سوف تدفنني، أما أنا بالمقابل، فسوف أخلدك. ستخرج رابحاً يا هابواني.

- أيمكنني أن أسألك سؤالاً يا كوكي؟ - كانت توهوتاما تقف صامتة وساكنة طوال الصباح، حتى إن بول لم ينتبه إلى وجودها - لماذا وضعتَ هذه العباءة الحمراء على كتفي زوجي؟ هابواني لم يلبس بهذه الطريقة قط. ولا أعرف أحداً كذلك، في هيفا وا، وفي تاهيتي كلها، يلبس هكذا.

- لأن هذا هو ما أراه أنا على كتفي زوجك يا توهوتاما - أحس كوكي بالحماسة، وهو يسمع صوت الصبية العَميق والكثيف الذي يتناسب تماماً، مع صلابة تشريحها، وشعرها المائل إلى الحمرة، ونهديها المنتفخين، ووركيها الكبيرين، وفخذيها الثخينين المشعين. كل هذه الأشياء الجميلة لا يستطيع الآن إلا تذكرها - إنني أرى كل الدماء التي أراقها الماووريون على امتداد تاريخهم. متصارعين في ما بينهم، يمزق بعضهم بعضاً من أجل الطعام والأرض، ومدافعين عن أنفسهم ضد غزاة من لحم وعظم، وشياطين من عالم آخر. هذه العباءة الحمراء تتضمن كل تاريخ شعبك، يا توهوتاما.

- أنا لا أرى سوى عباءة حمراء؛ لم يلَبس أحد مثلها هنا قط. - ألحت هي - وهاتان القلنسوتان؟ أهما امرأتان، يا كوكي؟ أم أنهما رجلان؟ لا يمكن لهما أن يكونا ماركيزيين. فأنا لم أرَ قط، في هذه الجزر، امرأة أو رجلاً يضع مثل هذه القلنسوات على رأسه.

أحس برغبة في مداعبتها، ولكنه لم يحاول ذلك. ستمد ذراعيكَ وتلمس الفراغ، لأنها ستتفاداكَ بسهولة. وعندئذ، سيجتاحكَ إحساس بأنك مضحك. غير أن اشتهاءكَ لها، ولو للحظة عابرة، منحك شعوراً بالسعادة، لأن فقدان الشهوة، هو أحد نتائج تقدم الداء الذي لا يُسمى، في جسدك. أنت لم تمت تماماً بعد، يا كوكي. وبقليل من الصبر والعناد، يمكن لكَ أن تنهي هذه اللوحة اللعينة.

ربما كان صحيحاً، في نهاية المطاف، ذاك الذي كان يحب الأسقف دوبنلوب ترديده، في دروس الديانة، هناك في مدرسة شابيل سان ميسما الدينية، في طفولتك في أورليان، عندما يطري على أبطال المسيحية: وكان يهوي مترديا، بينما روحه الآثمة تدفع به، للارتقاء عالياً، مثل روبرت الشيطان، الشرير المطلق الذي انتهى قديساً. لقد جرى لكَ ذلك، بعد شتاء ١٨٨٥-١٨٨٦ الفظيع في باريس، عندما أحسستَ بأنك تغرق في الوحل. ومن هناك بدأت الصعود إلى السطح، إلى الهواء النقي، شيئاً فشيئاً. وقد كان للمعجزة اسمها: بون آفين. كثيرون من الفنانين وهواة الفن كانوا يتحدثون عن بريتاني، عن جمال مناظرها الجامحة، عن عزلتها وعواصفها الرومانسية. وكانت جاذبية بريتاني، بالنسبة إليكَ، تتركب من سببين، أحدهما مثالي والآخر عملي. في بون آفين، القرية الصغيرة الضائعة في منطقة فينستير البريتانية، ستجد ثقافة لا تزال فوضوية، وأناساً بدل أن يتخلوا عن ديانتهم، وعن تقاليدهم وعاداتهم المتوارثة، يتمسكون بها، مزدرين بكبرياء الجهود التي تبذلها الدولة وباريس، لدمجهم بالحداثة. ويمكن لكَ، من جهة أخرى، أن تعيش هناك بقليل من النقود. حتى لو لم تجرِ الأمور بصورة مواتية، مثلما كنت تنتظر، فإن سفرك إلى بون آفين - ثلاث عشرة ساعة في القطار، عن طريق كمبرليه - في شهر تموز القائظ ذاك، من سنة ١٨٨٦، كان أكثر القرارات صواباً في حياتك حتى ذلك الحين.

لأنك في بون آفين بدأت تصبح فناناً. أجل، بدأت تصير فناناً عظيماً يا كوكي. حتى لو تناسى أولئك السنوب والمبتذلون، في

باريس، ذلك. إنه يتذكر جيداً وصوله، مستنفداً من الرحلة الطويلة، إلى الساحة المثلثة الصغيرة، في تلك القرية الحالمة، مثل قرى البطاقات البريدية، وسط واد خصيب محصور بين هضاب مشجرة، ومكلل بغابة مكرسة للحب، تصل إليها، في هواء المساء المالح، أخبار البحر. هناك كان يأوي المنعمون، من الأمريكيين والإنكليز الذين يأتون بحثاً عن اللون المحلي، في **فندق المسافرين وفندق الأسد الذهبي**. لم يكن هذان الفندقان هما ما تبحث عنه، وإنما عن النزل المتواضع الذي تملكه مدام غلونيك، وتؤوي فيه، إما لأنها حمقاء أو لأنها قديسة، الفنانين المعوزين، وتقبل منهم - امرأة عظيمة -، إذا كانوا لا يملكون نقوداً، أن يدفعوا أجرة الغرفة وثمن الطعام، من اللوحات التي يرسمونها. إنه أفضل قرار اتخذته في حياتك يا كوكي! بعد أسبوع من إقامتكَ في نزل مدام غلونيك، صرت تلبس مثل صياد سمك بريتاني - قبقاباً، قبعة، صدرية مطرزة، وسترة زرقاء - وتحولتَ إلى زعيم نصف دزينة من الفنانين الشباب المقيمين هناك، بفضل بلاهة أو روعة الأرملة غلونيك. لم تتحول إلى الزعيم بسبب رسمك فقط، ولا بسبب موهبتك الباهرة، وحديثك المتدفق، وإيمانك السيكلوبي بنفسك، وإنما كذلك، دون شك، بسبب سنكَّ. لقد خرجتَ من الهاوية يا بول. وصار عليك الآن أن ترسم أعمالاً بارعة.

بعد يومين أو ثلاثة أيام، عادت توهوتاما إلى مقاطعة عمل كوكي، مطلقة بلغة الماووري الماركيزية، صرخة لم يفهم هو منها سوى كلمة **ماهو**، مختلطة بكلمات أخرى. وفي عالم الظلال وتباين الضوء الذي صار عالمه الآن، لمح هابواني يغادر المكان الذي كان يقف فيه، يلسعه الفضول، كي يقترب من اللوحة، ويرى ما سبب استثارة توهوتاما. وكان السبب هو أن الساحر، بدل أن يظهر في اللوحة، بوزرة تاهيتية حول خصره، أو عارياً؛ ظهر مرتدياً، تحت العباءة الحمراء، لباساً ملتصقاً بجسمه المشوق، كالقفاز. وكان اللباس قصيراً جداً، يكشف

عري ساقيه المسكوبتين، كساقي امرأة. تأمل هابواني اللوحة مطولاً، دون أن يقول شيئاً. ورجع بعد ذلك، ليقف بالوضع الذي طلبه منه كوكي.

- لم تقل لي شيئاً عن صورتك - علق بول، بعد أن عاد إلى عمله الدقيق، المستحيل - كيف بدت لكَ؟

فتجنب الساحر الإجابة قائلاً:

- أنت ترى **ماهو** في كل مكان. حيث هو موجود، وحيث لا وجود له. لا ترى **الماهو** كشيء طبيعي، وإنما تراه كشيطان. وأنت تبدو في هذا، مثل المبشرين، يا كوكي.

هل هذا صحيح؟ حسن، لقد حدث لك شيء مماثل، قبل حوالي شهرين، عندما رسمت ***راهبة الإحسان***، تلك اللوحة كانت توهوتاما بالذات، هي الموديل فيها. وفي النهاية، لم تكن لوحة عن الراهبة، وإنما عن الرجل-المرأة الذي يقف قبالتها، وهو أمر لم تكد تدركه، وأنت ترسم. لماذا هذا التسلط **للماهو** على عقلك؟

وألح كوكي:

- لماذا لم تقل لي ما هو رأيك بصورتك؟

فردّ الماووري:

- الشيء الوحيد الذي أنا واثق منه، هو أن هذا الذي في اللوحة، ليس أنا.

- هذا هو هابواني الذي تحمله في داخلكَ - ردّ عليه كوكي - إنه هابواني الذي اضطررتَ إلى إخفائه في داخلك، كي لا يكتشفه القسس والدركيون. أؤكد لك، حتى لو لم تصدقني، بأن هذا الذي في اللوحة، هو أنت. وليس أنت وحدك. بل الماركيزي الحقيقي، الآخذ بالاختفاء، ولن يبقى له أثر عما قريب. وفي المستقبل، عندما يريد الناس أن يعرفوا، كيف كان أبناء الماووري، سيستعينون برسومي.

ضحكت توهوتاما، ضحكة صريحة، سعيدة، وغير مبالية، أغنت الصباح. وضحك هابواني أيضاً، ولكن دون رغبة. كان الوقت غروباً،

بعد أن انصرف الزوجان، وجاء جاره تيوكا لتبادل الحديث معه - وكان يمر على **بيت المتعة** مرتين في اليوم، ليرى إذا ما كان كوكي بحاجة لأي شيء -. وقف تيوكا يتأمل اللوحة مطولاً. ولكي يراها بصورة أفضل، قرّب أحد مشاعل القار التي عند المدخل. لم يوجه إليه بول أية أسئلة. وبعد بعض الوقت، أعرب له جاره، قليل الكلام عادة، عن رأيه:

- في لوحات كثيرة، رسمتَ نساء هذه الجزر بعضلات الرجال وأجسادهم - أكد باستغراب - ولكنك فعلت العكس، في هذه اللوحة. رسمتَ هابواني، كأنه امرأة.

إذا كان ما يقوله تيوكا دقيقاً، فإن لوحة ***ساحر هيفا وا*** قد خرجت مثلما تصورتها، بالرغم من أنك رسمتها وأنت شبه أعمى، مع فواصل إشراق ضئيلة في النهار، تنزاح الغشاوة خلالها عن عينيك، بقوة الإرادة أو بقدرة الإله الصغير المشفق، فتبصر، وتتمكن خلال لحظات، من إصلاح تفاصيل، وتكثيف ألوان أو تخفيفها. لم يخنكَ البصر وحده، وإنما النبض كذلك. فقد كان ارتجاف يدك، في بعض الأحيان، قوياً، مما يضطرك إلى الاستلقاء قليلاً، في السرير، إلى أن يهدأ جسمك، وتتوقف حركات عضلاتك غير الإرادية تلك. أعمالك البارعة وحدها، هي التي رسمتها بمثل هذا الاحتدام، يا كوكي. أتكون ***ساحر هيفا وا*** عملاً بارعاً؟ لو أن عينيك تستطيعان رؤية اللوحة، بصورة إجمالية، ولو لبضع ثوانٍ، فإنك ستعرف ذلك. ولكنك ستظل بلا يقين إلى الأبد.

في الجلسة التالية، حدثته توهوتاما عن اللوحة. لماذا أنتَ مهتم على الدوام بـ **الماهو**، الرجال-النساء، يا كوكي؟ فقدم لها تفسيراً أحمق -«إنهم جديرون بالتصوير، لافتون للنظر، إكزوتكيون، يا توهوتاما»-، ولكن السؤال ظل يتردد في ذاكرته بقية اليوم. وأبقاه متأملاً تلك الليلة، في فراشه، بعد أن أكل قليلاً من الفواكه، وبدّل أضمدة ساقيه، وتناول بضع قطرات من صبغة الأفيون، مذابة في

الماء، لتخفيف الألم. لماذا يا كوكي؟ ربما لأنه في **الماهو** المتهرب، شبه السري، المطارَد، والذي يُنظر إليه بكراهية، باعتباره شاذاً، وخطيئة في نظر الخوارنة والقسس، يعيش الملمح الجامح الأخير، لهذا الماووري المتوحش الذي لن تُبقي منه أوروبا، عما قريب، أي أثر. فالثقافة المسيحية والغربية، ستبتلع الماركيزي البدائي وتهضمه. هذه الثقافة التي دافعتَ عنها، باندفاع شديد، وثرثرة متشدقة، ومبالغة وافتراءات كبيرة، هناك في تاهيتي، في مجلتي **«الزنابير»** و**«الابتسامة»** يا كوكي. ستبتلعه وتهضمه، مثلما جرى ابتلاع التاهيتي وهضمه. فرض النظام عليه، في شؤون الدين، واللغة، والأخلاق، وكذلك الجنس بالطبع. في مستقبل قريب جداً، ستصبح الأمور شديدة الوضوح للماركيزيين، مثلما هي بالنسبة إلى أي أوروبي، مؤمن أو برجوازي. هناك جنسان وكفى، لماذا المزيد. جنسان محددان، ومنفصلان بهوة لا يمكن اجتيازها: رجل وامرأة، ذكر وأنثى، قضيب وفرج. الالتباس في مجال الحب والشهوة، مثلما هو في مجال الدين، مظهر من مظاهر البربرية ورذيلة، يحطّ من قيمة الحضارة، مثل أكل اللحم البشري. الرجل-المرأة، والمرأة-الرجل، حالات شاذة وغير طبيعية، يجب التطهر منها، مثلما فعل الرب أبونا بسدوم وعمورة. يا للماهو القليلين الذين بقوا في هذه الجزر، من بائسين! فالمستوطنون والإداريون الاستعماريون المنافقون، سيبحثون عنهم، للتعاقد معهم كخدم منزليين، لسمعتهم الجيدة كطهاة، أو غسالين، أو مربي أطفال، أو حراس بيوت. ولكن، كي لا يختلفوا مع المتدينين، سيمنعونهم من التزين، ومن ارتداء الملابس الأنثوية. عندما يُقدِم **الماهو**، بكثير من التوجس والخوف من انكشاف أمرهم، على شبك زهور برؤوسهم، ووضع أساور في معاصمهم، وخلاخل في كواحلهم، والتزيين كالصبايا، ويتجرؤون على الظهور هكذا، بصورة سريعة وعابرة، لا يدركون، بأي حال، أنهم حشرجات ثقافة تحتضر. لقد صارت معدودة أيام طريقة البدائيين الصحية هذه، والعفوية،

والحرة في تقبل أنفسهم، بكل ما في أعماقهم، من رغبات وتخيلات. *ساحرهيفا وا* هي لوحة قبر يا كوكي.

على الرغم مما قالته لك تلك العجوز الماوري العمياء، وهي تلمس عضوك ذا القلنسوة، فأنت أقرب إليهم، من قريبك إلى أناس من نوع المونسنيور مارتين، أو الدركي جان بول كلافييه. أو من أولئك المستوطنين المتخمين بالجهل والجشع، الذين عملتَ في خدمتهم، في بابيتي. لأنكَ تفهم المتوحشين، تحترمهم، تحسدهم. أما مواطنوكَ المزعومون، فلا تشعر نحوهم إلا بالازدراء.

هذا أمر أنتَ متأكد منه، على الأقل، يا كوكي. رسمكَ لم يكن رسم أوروبي حديث ومتحضر. ولا يمكن لأحد أن يخدع نفسه في هذا الشأن. ومع أنكَ كنت تحدس ذلك بطريقة غير مؤكدة، من قبل، إلا أنك لم تفهمه بصورة يقينية، مطلقة، إلا في بريتاني، في بون آفين أولاً، ثم في لبولدو بعد ذلك. على الفن أن يكسر هذا القالب الضيق، هذا الأفق الصغير الذي حبسه فيه الفنانون والنقاد، الأكاديميون والمقتنون في باريس: يجب الانفتاح على العالم، الاختلاط بالثقافات الأخرى، والتهوية برياح أخرى، بمناظر أخرى، بقيم أخرى، بأجناس أخرى، بمعتقدات أخرى، بأشكال حياة وأخلاق أخرى. بهذه الطريقة فقط، يستعيد الفن اندفاعه الذي سلبته إياه حياة الباريسيين اللينة، السهلة، المبتذلة، التجارية. أنتَ فعلت ذلك، بخروجك للقاء العالم، بذهابك للبحث، للتعلم، للتضمخ بذاك الذي تجهله أوروبا أو تتكره. لقد كلفكَ ذلك غالياً. ولكن، أليس صحيحاً أنك لن تندم، يا كوكي؟

لن تندم، إنك فخور بوصولك إلى هنا، حتى وأنت في هذه الحال. الرسم له ثمن، وقد دفعت أنت الثمن. عندما رجعتَ إلى باريس، بعد قضاء شهور الصيف والخريف، في بون آفين، كي تواجه الشتاء في العاصمة، كنت قد تحولتَ إلى شخص آخر. لقد بدّلت جلدكَ وروحك؛ كنتَ منتشياً، واثقاً من نفسك، مجنوناً بالسعادة، لأنك اكتشفت طريقك أخيراً، وشرهاً إلى الفظاعات والفضائح. فأحد أول

الأعمال التي أقدمت عليها، في باريس، الانقضاض على الجميلة لويز، زوجة شوف الطيب، ولم تكن قد سمحتَ لنفسك قبل ذلك، بأكثر من مغازلتها. أما الآن، منقاداً لهذا المزاج الجديد المندفع، الجريء، محطم الأيقونات، الفوضوي، انتهزتَ أول فرصة، كنتما فيها وحدكما - كان شوف الطيب يعطي دروس رسم في الأكاديمية - كي تنقض على لويز. أيمكن القول إنك قد أسأت معاملتها يا بول؟ سيكون من المبالغة قول ذلك. لقد أغويتها وأفسدتها، في أبعد الحدود. لأن لويز لم تقاوم، إلا في البداية، وفعلت ذلك حفاظاً على الشكليات، أكثر مما هو عن قناعة. ولم يبدُ عليها الندم بعد تلك الزلة، قط.

- أنتَ متوحش، يا بول. كيف تجرأت على مدّ يدكَ إليّ؟

- السبب هو ما قلته، يا جميلتي: لأنني متوحش. أخلاقي ليست أخلاق البرجوازيين. غرائزي هي التي تتحكم الآن بأفعالي. وبفضل هذه الفلسفة الجديدة، سأصير فناناً عظيماً.

إنه إعلان مبادئ، وكان فعالاً يا كوكي. هل علم شوف الطيب بتلك الخيانة؟ إذا كان قد علم بأمرها، فإنه قادر على غفرانها. إنه كائن متفوق، ذلك الألزاسي. وهو أفضل منكَ بكثير، دون شك، في نظر الأخلاق المتحضرة. ولهذا السبب، دون شك أيضاً، كان شوف الطيب يرسم بصورة سيئة، على الدوام.

في اليوم التالي، بعد بضع لمسات أخيرة، دفع كوكي ما هو متفق عليه إلى هابواني. لقد انتهت اللوحة. هل هي منتهية؟ أنت تأمل ذلك. على أي حالش، لم تعد لديك قوة، في جسدك وفي روحك، لمواصلة العمل فيها.

XXI. المعركة الأخيرة

بوردو، تشرين الثاني ١٨٤٤

عندما وافقت فلورا تريستان، في ذلك الرابع والعشرين المشؤوم من أيلول، وكانت قد وصلت لتوها إلى بوردو، على الدعوة لحضور كونشيرتو البيانو للعازف فرانز ليست، من إحدى مقصورات بلكون المسرح الكبير، لم يكن يخامرها أي شك، في أن ذلك الحدث الاجتماعي، حيث تذهب سيدات بوردو لاستعراض حليّهنّ وأناقتهن، سيكون آخر نشاط علني لها. فالأسابيع المتبقية لها ستمضيها في سرير، في بيت اثنين من السان-سيمونيين، الزوجين إلزا وشارل ليمونييه، وكانت قبل سنة من ذلك قد رفضت التعرف عليهما، لأنها اعتبرتهما برجوازيين مغاليين. تناقضات يا فلوريتا، تناقضات حتى اليوم الأخير من حياتك.

لم تكن تشعر بالمرض لدى وصولها إلى بوردو، وإنما فقط بالإنهاك، والسخط، وخيبة الأمل، لأنها منذ خروجها من كركسون، سواء في تولوز كما في آجن، جعل العمد ومفوضو الشرطة حياتها صعبة، بمداهمتهم اجتماعاتها مع العمال، وحظرها، بل وتفريقها بالهراوى. لم يكن لتشاؤمها علاقة بحالتها الصحية، وإنما بالسلطات المصممة على منعها، بكل السبل، من إكمال جولتها.

من أين كان لكِ أن تتصوري، قبل خمس سنوات، لدى عودتكِ من لندن، عندما كنتِ مفعمة بفكرة صياغة التحالف العظيم، بين النساء والعمال، من أجل تحويل الإنسانية، وبدأت نشاطاً محموماً لتتصلي بالشغيلة، أنك ستنتهين محاصرةً من قبل سلطة، تعتبرك هدامة؛ أنت، المسالمة عن قناعة وإيمان. لم ترجعي إلى باريس، وأنتِ مفعمة بالأوهام والأحلام وحسب، وإنما بالصحة أيضاً. كنت تواظبين على

قراءة المجلتين العماليتين الرئيسيتين: «*الورشة*» و«*الخلية الشعبية*» (المطبوعتان الوحيدتان اللتان امتدحتا كتابك **جولات في لندن**)، زرتِ وقرأتِ كل المخَلِّصين، والفلاسفة، والمذهبيين، والمنظرين، من دعاة التغيير الاجتماعي، فكان ذلك تشويشاً وفوضى، أكثر منه تعلماً. فقد كان هناك، بين الاشتراكيين والإصلاحيين الفوضيين، الكثير من المهووسين والشاذين، أصحاب دعوات هذيانات ذهنية محضة. مثل النحات الكاريزمي غانو، بمظهره الذي يشبه مظهر حفار قبور - مجرد تذكره يثير فيك القهقهة -، مؤسس *الحوادمية*، مذهب يقوم على فكرة المساواة بين الجنسين، ويدعو إلى تحرر المرأة. وكنتِ، بسذاجة بالغة، قد تعاملتِ معه بجدية، طوال عدة أسابيع. وقد انهارَ الاحترام الذي كنتِ تشعرين به نحوه، يوم شرح لكِ ذلك الشخص المكفهر، ذو العينينِ المتعصبتين واليدين الطويلتين، أنَ اسم حركته، ***حوادمية***، مستمد من اسميّ الزوجين الأولين - حواء وآدم -، وأنه يطلب من أتباعه أن ينادوه «**مابا**»، الكلمة المؤلفة من الحرفين الأولين من كلمتي ماما وبابا. لقد كان مجنوناً، أو أنه أشد غباء من عنزة.

المضايقة الشرطية، أحبطت ما كان يمكن له أن يكون زيارة مفيدة لفلورا، إلى تولوز، ما بين الثامن والتاسع عشر من أيلول. ففي اليوم التالي لوصولها، كانت تجتمع مع حوالي عشرين عاملاً، في فندق دي بوست، شارع دولابوم، عندما اقتحم القاعة المفوض بوازنو: رجل ذو كرش، وشارب كثيف، ونظرة قليلة الأصدقاء. توجه إليها محذراً، دون أن يخلع قبعته أو يحييها:

- أنت غير مصرح لك بالمجيء إلى تولوز للدعوة إلى الثورة.

- لستُ آتية لصنع الثورة، وإنما لتأخيرها، أيها السيد المفوض. اقرأ كتبي، قبل أن تحكم عليّ - أجابته فلورا -. منذ متى يمكن لامرأة وحيدة، هنا، أن تخيف المفوضين والمحافظين في أقوى ملكية في أوروبا؟

انصرف الموظف دون كلمة وداع، وبعبارة فظة: «لقد حذرتك».

لم تُجدِ مساعيها للتحدث إلى عمدة تولوز. وقد أفقد الحظر عناصر اتصالها في المدينة، حماسهم. ولم تكد تتمكن إلا من عقد لقاء سري في حي سان ميشال، مع ثمانية حرفيين في صناعة الجلود. كانوا يستمعون إليها ممتلئين بالتوجس من فكرة اكتشاف الشرطة لهم، ويوجهون نظراتهم، طوال الوقت، إلى الباب الخارجي. وزيارتها إلى «*الانعتاق*»، الجريدة التي تشيع أنها ديمقراطية وجمهورية، كانت إخفاقاً آخر: نظر إليها الصحفيون كما لو أنها تبيع عقاراً مضاداً للكوابيس وسوء الطالع، ولم يولوا أدنى اهتمام إلى عرضها التفصيلي لأهداف **الاتحاد العمالي**. سألها أحدهم إذا ما كانت غجرية. ووصلت الإهانة ذروتها عندما بدأ أشد أولئك **الفرسان** نحولاً، وهو محرر يدعى ريبرول (نحيف مثل عصا مكنسة، وذو نظرة شبقة) يغمز بعينه، ويهمس لها بكلمات مزدوجة المعنى.

- أأنت تحاول إغوائي أيها الأبله التعس؟ - أوقفته **مدام غضب** عند حده، بصوت عالٍ - ألم تنظر إلى وجهك في المرآة قط، أيها البائس؟

نهضت وانصرفت، صافقة الباب بقوة. إن غضبكِ يتبدد وأنت تتذكرين - والذكرى هي أفضل تعويض يا فلوريتا - كيف توقد بالخجل وجهُ ريبرول المجعد الذي أخرسه ردّ فعلك العنيف، وخلّفه فاغر الفم، أمام ضحكات زملائه.

وفي آجن، حيث أمضت أربعة أيام، لم تكن الأمور أفضل من تولوز، بسبب الشرطة أيضاً. كان هناك في المدينة عدد كبير من جمعيات التعاضد العمالي، نبهها إلى وجودها مسبقاً، في باريس، أغريكول بيرديغيي اللطيف الذي يلقبونه، بحق، «الأفنيوني الفاضل»: إنه روح عظيمة. فعلى الرغم من اختلافه مع أفكار فلورا، إلا أنه ساعدها، كما لم يساعدها أحد. كان أصدقاء بيرديغيي قد هيؤوا لها لقاءات مع نقابات متعددة. ولكن اللقاء الأول منها، هو الذي عُقد

فقط. وقد ضم الاجتماع حوالي خمسة عشر نجاراً وعامل طباعة. اثنان منهم متفتحان جداً، أعربا عن تصميمهما على تأسيس لجنة. وقد رافقاها لزيارة الشخصية المحلية المجيدة، الشاعر-الحلاق جاسمان، وكانت فلورا تعقد عليه آمالاً عريضة. ولكن تدليل البرجوازية، كان قد حول هذا الشاعر الشعبي القديم أيضاً، إلى مغتر بنفسه وأبله. يبدو أن لا أحد يفلت من هذا المصير. فهو لم يعد راغباً في تذكر أصوله البروليتارية، وتبنى بدلاً منها أصولاً أولمبية. كان مدوراً، طرياً، متغنجاً، ومتكلفاً. أضجر فلورا، وهو يروي لها، كيف استقبله أشخاص لامعون، في باريس، مثل بوديه، وشاتوبريان، ويانت-بيف، والتأثر الذي أحدثه، وهو يلقي «قصائده الغسكونية» أمام الملك لويس فيليب نفسه؛ فقد تأثر جلالته وهو يستمع إليه، وسفح الدموع. وعندما أوضحت له فلورا سبب زيارتها، وطلبت منه مساعدة **الاتحاد العمالي**، كشر الشاعر-الحلاق تكشيرة رعب: أبداً.

- لا يمكن لي أن أساعد أفكارك الثورية أبداً، يا سيدتي. لقد سال ما يكفي من الدماء في فرنسا. من تظنينني، حضرتك؟

- عاملاً واعياً ومخلصاً لأخوته العمال يا مسيو جاسمان. ولكنني أرى أنني أخطأتُ. فأنت لست سوى قرد نطاط، مهرج آخر من مهرجي البرجوازية.

- اخرجي، اخرجي من بيتي - أشار لها الشاعر المترهل إلى الباب
- امرأة خبيثة!

في ذلك المساء بالذات، جاء مفوض الشرطة، إلى الفندق، ليخبرها بأنه من غير المسموح لها عقد أي اجتماع في المدينة. قررت فلورا عدم الانصياع للمنع. ذهبت إلى نزل في شارع دوتمبل، حيث كان ينتظرها أربعون عاملاً متنوعو المهن، وبخاصة حذائين ونحاتي أحجار. ولم تكد تمضي عشر دقائق، حتى حوصر النزل بنحو عشرين رقيباً وخمسين جندياً. راح المفوض، وهو أربعيني مربوع، مسلح بمكبر صوت مضحك، يطلق صرخات مدوية، آمراً

الحضور بالخروج، واحداً واحداً، لتسجيل أسمائهم وعناوينهم. طلبت فلورا من الجميع، ألا يتحركوا. «أيها الأخوة، فلنجبر قوة الأمن أن تأتي لتُخرجنا؛ ولتحدث فضيحة، ويعلم الرأي العام بهذا الانتهاك.» غير أن معظم الحاضرين، انصاعوا لأوامر المفوض، خيشة أن يفقدوا أعمالهم. خرجوا في صف، يحملون قبعاتهم بأيديهم، ومطأطئين رؤوسهم. ولم يبق سوى سبعة منهم، يحيطون بها. عندئذ دخل الرقباء، وراحوا يضربونهم بالهراوى، ويشتمونهم. وأخرجوهم بالقوة. أما هي فلم يلمسوها، ولم يردوا على احتجاجاتها المحتدة: «اضربوني أنا أيضا، أيها الجبناء!».

– إذا ما عصيتِ قرار المنع مرة أخرى، فستذهبين إلى السجن، مع سارقات آجن وعاهراتها – هددها صوت المفوض؛ وكان يحرك مكبر الصوت كبهلوان – ها أنت تعرفين ما ينتظرك، أيتها السيدة.

ما حدث كان درساً لأعضاء جمعيات التعاضد والنقابات في آجن، فألغوا كل اللقاءات المقررة. ولم يوافق أحد منهم على عقد اجتماعات سرية، بأعداد قليلة. وهكذا كانت أيام فلورا الأخيرة، في آجن، أيام عزلة، وضجر، وإحباط. وأكثر من سخطها من المفوض ورؤسائه، كانت ساخطة من جبن العمال. فلدى أول تعنتر من السلطة، يهربون كالأرانب!

عشية سفرها إلى بوردو، حدث لها أمر غريب. فقد وجدت على منضدة الكتابة الصغيرة، في حجرتها، في فندق فرانس، ساعة ذهبية ثمينة، نسيها أحد الزبائن. وعندما همّت بأخذها إلى الإدارة، داهمتها رغبة مغوية: «وماذا لو احتفظتُ بها؟». ليس بدافع الجشع، وهو ما كانت قد تخلصت منه تماماً عند هذا المستوى من حياتها، وإنما رغبة في المعرفة: كيف يشعر اللصوص بعد أن يقترفوا سرقاتهم؟ أيشعرون بالخوف، بالسعادة، بالندم؟ ما أحست به في الساعات التالية، كان الضيق، والاستياء، وخزات رعب، وإحساساً بأنها مضحكة. قررت تسليمها في لحظة المغادرة. ولكنها لم تستطع

الانتظار. ففي الساعة السابعة، كان غمها شديداً، حتى إنها نزلت، لتضع الساعة بين يدي إدارة الفندق، وكذبت بالقول إنها عثرت عليها للتو. ما كان بإمكانك أن تكوني لصة جيدة، يا أندلسية.

إذا ما فكرتِ جيداً يا فلورا، فإن الجولة لم تكن دون طائل. فهذه التعبئة للمفوضين والعمد خلال الأسابيع الأخيرة، لمنعكِ من اللقاء مع العمال، ألا تشير إلى أن دعوتكِ بدأت تثمر؟ ربما كَسبتِ من الأتباع، أكثر مما تعتقدين. فالتوترات التي خلفتها وراءك، ستمتدّ إلى أن تصب، عاجلاً أو آجلاً، في حركة كبرى. حركة فرنسية، أوروبية، عالمية. لم يكد يمضي عليك أكثر من سنة ونصف السنة، في هذه المهمة، وها قد تحولتِ إلى عدوة للسلطة، وتهديد للمملكة. إنه نجاح باهر، يا فلوريتا! يجبُ عليك ألا تشعري بالإحباط، بل العكس. كم من التقدم أحرزت، منذ ذلك الاجتماع الذي نظمه، في باريس، يوم الرابع من شباط ١٨٤٣، جوزيه العظيم. «أبو الحدادين»، كي تتحدثي، أول مرة، إلى جماعة من العمال الباريسيين عن **الاتحاد العمالي**. سنة ونصف السنة، ليس بالوقت الطويل، ولكنه يبدو لك قرناً، بهذا الإنهاك في عظامك كلها.

لقد نسيتِ أشياء كثيرة من هذه الشهور الثماني عشرة، الغنية بالأحداث، والحماسة، وبالإخفاقات أيضاً. ولكنك لن تنسي أبداً مداخلتك العلنية الأولى، لشرح أفكارك في جمعية التعاضد العمالي، تلك التي يرعاها جوزيه. وكان يرأسها أشيل فرانسوا، هذا اللقية بين صباغي الجلود الباريسيين. لقد كان توتر أعصابكِ شديداً، في ذلك اليوم، حتى إنك بللتِ سروالك الداخلي، وهو ما لم يلحظه أحد، لحسن الحظ. استمعوا إليك، استجوبوك، وثار جدال، ثم تشكلت أخيراً، لجنة من سبعة أشخاص، كنواة تنظيمية للحركة. كم بدا لك كل شيء سهلاً آنذاك، يا فلوريتا! سراب. في الاجتماعات التالية، مع تلك اللجنة الأولى، راح العمل يتسمم، بسبب الانتقادات التي يوجهونها إلى نصكِ ***الاتحاد العمالي***، ولم يكن قد طبع بعد. الانتقاد

الأول هو أنك تحدثتِ عن «الحالة المادية والأخلاقية المزرية» لعمال فرنسا. بدا لهم ذلكَ انهزامياً، مثبطاً للعزائم، وإن كان صحيحاً. وعندما سمعكِ جوزيه، «أبو الحدادين»، تطلقين على أولئك المنتقدين صفة «الأغبياءِ الجهلة الذين لا يريدون الخلاص»، قدم لكِ درساً عاد إلى ذاكرتك، مرات كثيرة:

- لا تدعي نفاد الصبر يتغلب عليكِ يا فلورا تريستان. إنك لا تزالين في بداية هذه الصراعات. تعلمي من أشيل فرانسوا. إنه يعمل من السادسة صباحاً حتى الثامنة ليلاً، كي يؤمن الطعام لأسرته، ثم يعمل بعد ذلك، من الثامنة حتى الثانية فجراً، من أجل أخوته العمال. هل من العدل تسميته «غبياً وجاهلاً»، لأنه تجرأ على الاختلاف معك في الرأي؟

«أبو الحدادين» لم يكن غبياً ولا جاهلاً. بل كان ينبوع حكمة، وحواريّك الناصح، في تلك الأسابيع الأولى، في باريس، حيث دعمك أكثر من أَي شخص آخر. وقد بلغ بكِ الأمر، حد اعتباره معلماً، وأباً روحياً. غير أن مدام جوزيه، لم تفهم تلك العلاقة الرفاقية السامية. فاقتحمت، في إحدى الليالي، بيت أشيل فرانسوا، حيث كان يُعقد اجتماع، وهي تضع يديها على خاصرتيها، وتوجهت إليك بغضب يوناني، لتغمركِ بالشتائم والسباب. وبينما هي تنثر اللعاب، وتُبعد شعر الساحرة عن وجهها، هددتكِ بتقديم شكوى ضدكِ إلى العدالة، إذا ما واصلتِ مكيدتك الخبيثة، لاختطاف زوجها منها! كانت العجوز جوزيه تظن أنكِ مغرمة بالقائد العمالي العجوز. آه يا فلوريتا، كم هو أمر مضحك. أجل، إنه مضحك. ولكن ذلك المشهد البروليتاري التهريجي، علمكِ أنه ليس هناك ما هو سهل، وخاصة النضال من أجل العدالة والإنسانية. وتعلمتِ كذلك أنه يمكن للعمال، بالرغم من أنهم فقراء ومستغَلون، أن يشبهوا البرجوازيين كثيراً، من بعض الوجوه.

حفلة لِيست الموسيقية تلك، في بوردو، في أواخر شهر أيلول

١٨٤٤، وكان ذهابكِ إليها بدافع الفضول أكثر مما كان شغفاً بالموسيقى (كيف هو عازف البيانو هذا الذي تتقاطع طريقه وتفترق مع طريقكِ، منذ ستة شهور، في دروب فرنسا؟)، انتهت أيضاً، كمشهد تهريجي آخر: إغماء مفاجئ دحرجك على الأرض، وشدّ نظرات الحضور كلهم - ومنها نظرات عازف البيانو الغاضبة لمقاطعتك إياه - إلى مقصورتكِ في الغران تياتر. وأنهت تقرير ذلك الصحفي الذاهل الذي استغل الإغماء الذي أصابك، ليُقدمك كحورية مجتمع دنيوي: «جميلة جمالاً يثير الإعجاب، قامة أنيقة هيفاء، مزاج متكبر ومندفع، عينان مفعمتان بنار الشرق، شعر طويل أسود يمكن له أن يكون عباءة لها، وجه بيضوي جميل، أسنان بيضاء ودقيقة. إنها مدام تريستان، الكاتبة والمصلحة الاجتماعية، ابنة البروق والظلال التي تعرضت الليلة الفائتة لدوار، ربما بسبب الغيبوبة التي أدخلتها فيها ألحان المعلم ليست». لقد اصطبغتِ بالاحمرار حتى جذور شعرك، وأنت تقرئين هذه الرعونة البلهاء، عندما استيقظتِ في فراش وثير. أين أنت يا فلوريتا؟ هذا السرير الأنيق المعطر بأزهار نضرة، ذو الستائر الأنيقة الشفافة التي يتسرب من خلالها الضوء، لا تشبه في شيء غرفتكِ المتواضعة في الفندق. إنه منزل شارل وإلزا ليمونييه اللذين أصرا، في العشية، عندما أُصبتِ بذلك الدوار في الغران تياتر، أن يحملاك إلى بيتهما. هناك ستلقين عناية أفضل من الفندق أو المستشفى. وهذا ما حصل. كان شارل محامياً وأستاذ فلسفة، وزوجته إلزا منشطة مدارس مهنية للأطفال والشباب. إنهما سان-سيمونيان مخلصان، وصديقان للأب بروسبير إنفانتان، مثاليان، مثقفان، كريمان، يكرسان حياتيهما للعمل من أجل الأخوة العالمية و«المسيحية الجديدة»، مبشرين بسان-سيمون. لم يكونا يشعران نحوكِ بأدنى قدر من الحقد، بسبب الإساءة التي ألحقتِها بهما، في السنة الفائتة، برفضكِ التعرف إليهما. كانا قد قرآ كتبكِ وأعجبا بكِ.

ما كان يمكن لسلوك الزوجين أن يكون أكثر رعاية، خلال الأسابيع التالية. قدما إليها أفضل مخدع في البيت، واستدعيا طبيباً مشهوراً في بوردو، الدكتور مابيت الابن، وتعاقدا مع ممرضة، المدموزيل آلفين، لترافق المريضة ليلاً ونهاراً. تحملا نفقات الاستشارات الطبية والأدوية، ولم يسمحا لفلورا، بمجرد الحديث عن إعادة ما أنفقاه.

أشار الدكتور مابيت الابن، إلى أنها يمكن أن تكون مصابة بالكوليرا. وفي اليوم التالي، بعد فحص آخر، صحح ما قاله، بأن الإصابة قد تكون، احتمالاً، بالحمى التيفية. وقد أبدى تفاؤله، بالرغم من إعياء المريضة التام. وصف لها حميةً غذائيةً صحية، والراحة التامة، والتدليك والمساجات، وشراباً منشطاً ومُرَمماً، عليها أن تتناوله في النهار والليل، كل نصف ساعة. في اليومين الأولين، استجابت فلورا جيداً للحمية. ولكنها أصيبت في اليوم الثالث، باحتقان دماغي، وارتفاع شديد في الحرارة. ظلت طوال ساعة في حالة من شبه الغيبوبة، والهذيان. استدعى آل ليمونييه لجنة طبية، يرأسها علامة محلي، الدكتور جنتراك. وبعد أن فحصها أطباء الطاقم، وتناقشوا على انفراد، اعترفوا بأنهم يشعرون بشيء من الحيرة. ولكنهم يعتقدون بأن إنقاذها ممكن، على الرغم من وضعها الذي لا شك في خطورته. يجب عدم فقدان الأمل، ولا السماح للمريضة بأن تعرف حقيقة حالتها. وصفوا لها فصد الدم والمحاجم، إضافة إلى مشروبات أخرى، يجب أن تتناولها، الآن، كل خمس عشرة دقيقة. ومن أجل مساعدة مدموزيل آلفين التي كانت تعنى بفلورا، بإخلاص ديني، تعاقد الزوجان ليمونييه مع ممرضة أخرى، ليلية. وعندما سألها مضيفاها، في إحدى لحظات صحوها، إذا ما كانت ترغب في أن يأتي لمرافقتها أحد ذويها - ربما، ابنتها ألين؟ -، لم تتردد هي: «إلينور بلان، من ليون. إنها ابنتي أيضاً». مجيء إلينور بلان إلى بوردو - ذلك الوجه المحبب، الشاحب. المرتعشة، وهي

تتحني ممتلئة بالحب على سريرها - أعاد إلى فلورا الثقة، وإرادة النضال، وحب الحياة.

في بدايات حملتها من أجل **الاتحاد العمالي**، قبل سنة ونصف السنة، تصرفت جريدة ***الخلية الشعبية*** جيداً معها، على عكس الصحيفة العمالية الأخرى، ***الورشة***، التي تجاهلتها أولاً، ثم سخرت منها بعد ذلك، مسمية إياها «المتطلعة لأن تكون أوكونيلاً بتنورة». أما ***الخلية***، بالمقابل، فنظمت مناظرتين، صوّت في نهايتهما أربعة عشر مشاركاً، من أصل خمسة عشر، مؤيدين إصدار نداء إلى عمال وعاملات فرنسا، كتبته فلورا، يدعوهم إلى الانضمام إلى **الاتحاد العمالي** المستقبلي. ومع أنها تجاوزت بسرعة خوفها الأول من التحدث أمام الجمهور - كانت تفعل ذلك بطلاقة، وتصير ممتازة عند فتح باب النقاش -، فقد كان يتغلب عليها دوماً إحساس بالإحباط، لأنه لم يكن هناك نساء يشاركن تقريباً، على الرغم من تشجيعها لهن على الحضور. وعندما تتمكن من جعل بعضهن يحضرن، تلحظ أنهن خائفات ومستكينات إلى حد تشعر بالشفقة عليهن (والغضب منهن). نادراً ما كن يتجرأن على فتح أفواههن؛ وعندما تفعل إحداهن ذلك، تنظر إلى الذكور الحاضرين، كما لو أنها تطلب الإذن منهم.

طباعة ***الاتحاد العمالي***، سنة ١٨٤٣، كانت مأثرة حقيقية، ما زلتِ تشعرين بالاعتزاز بها حتى الآن، في هذه الأوقات التي تخرجين فيها من حالة المعاناة، وتنفصلين تماماً عن الوسط الذي يغرقكِ في المرض. طباعة هذا الكتاب الذي صدرت منه الآن ثلاث طبعات، وتتداوله مئات الأيدي العمالية، كان انتصاراً على المصاعب، أليس كذلك، يا أندلسية؟ لقد رفض كل الناشرين الذين تعرفينهم في باريس نشره، متذرعين بحجج عقيمة تافهة. الحقيقة أنهم كانوا يخشون من تعرضهم لمشاكل مع السلطات.

عندئذ، في صباح أحد الأيام، بينما أنت ترين من نافذة بيتك، في شارع دوباك، أبراج كنيسة سان سولبيس - وكان أحدها لا يزال قيد البناء -، تذكرتِ قصة (أم أنها أسطورة، يا فلوريتا؟) الراهب جان بابتيست لانغيه دي غيري، من فكر في أحد الأيام، بأن يبني أجمل كنيسة في باريس، مستعيناً بالصدقات وحدها. ودون أي تردد، انطلق في التسول، من باب إلى باب. لماذا لا تفعلين الشيء نفسه، من أجل طباعة كتابك الذي يمكن له أن يتحول إلى إنجيل المستقبل، لنساء وعمال العالم قاطبة؟ ما إن تصورتِ تلك الفكرة، حتى انهمكتِ في تحرير «نداء إلى كل الأشخاص ذوي الذكاء والإخلاص». وذيلته باسمكِ وتوقيعك، يليه اسم ابنتك ألين، وصديقك الرسام جول لور، وخادمتك ماري مادلين، وسقائك نويل تافانيل. ودون إضاعة للوقت، بدأت حملة تجول على بيوت كل الأصدقاء والمعارف، كي يساهموا في تمويل الكتاب. كم كنتِ معافاة وقوية آنذاك، يا فلوريتا! كان بإمكانك التجول طوال اثنتي عشرة، خمس عشرة ساعة، في أنحاء باريس، تحملين وتستعيدين ذلك النداء - أخذته إلى أكثر من مئتي شخص - الذي دعمه، في النهاية، أناس معروفون، مثل برنيه، وفيكتور كونسيدران، وجورج صاند، وأوجين سو، بولين رولان، وفريدريك ليماتيه، وبول دي كوك، ولويس بلان، ولويز كوله. ولكن شخصيات مهمة أخرى كثيرة، صفقت الباب في وجهك، مثل ديلاكروا، دافيد دانغر، مدموزيل مارس، وكذلك إتيين كابيه بالطبع، الشيوعي الإيكاري الذي يريد احتكار النضال من أجل العدالة الاجتماعية في العالم.

في سنة ١٨٤٣ تلك، تبدلت التركيبة الاجتماعية للأشخاص الذين يأتون لزيارتها، في شقتها الصغيرة، في شارع دوباك، تبدلاً جذرياً. وكانت فلورا تستقبلهم أيام الخميس مساء. كان الزائرون في السابق، مهنيين لديهم اهتمامات ثقافية، وصحفيين، وفنانين؛ ولكن معظم زوارها، منذ أوائل ١٨٤٣، صاروا من قادة لجان التعاضد

والجمعيات العمالية، وبعض أتباع فورييه وسان-سيمون الذين يبدون انتقادهم لما يعتبرونه تشدداً في راديكالية فلورا. ولم يكن من يؤمون الشقة الضيقة في شارع دوباك، من الفرنسيين وحدهم، حيث يتناولون فناجين شوكولاته ساخنة، تقدمها لزوارها، كاذبة عليهم بالقول إنها من كوسكو. فقد كان يأتي، في بعض الأحيان، أحد الشارتيين أو شخص من أتباع أوين الإنكليز، أثناء مرورهم من باريس. وفي أحد الأيام، جاءها اشتراكي ألماني لاجئ في فرنسا، يدعى أرنولد روجه. كان رجلاً رزيناً وذكياً، استمع إليها باهتمام، مسجلاً ملاحظات. وقد أُعجب كثيراً بأطروحة فلورا، حول وجوب بناء حركة دولية كبرى، توحد العمال والنساء في العالم بأسره، من أجل القضاء على الظلم والاستغلال. وجه إليها أسئلة كثيرة. وكان يتكلم فرنسية متقنة، واستأذن من فلورا أن يعود في الأسبوع التالي، ويأتي معه بصديق ألماني، فيلسوف شاب، ولاجئ أيضاً، يدعى كارل ماركس، مؤكداً لها أنها ستتفاهم معه جيداً، دون شك، لأن لديه أفكاراً مماثلة لأفكارها حول الطبقة العاملة التي يعزو لها كذلك، مهمة افتدائية في سبيل المجتمع بمجمله.

وقد رجع أرنولد روجه، بالفعل، في الأسبوع التالي، مع سبعة رفاق ألمان، جميعهم منفيون، بينهم الاشتراكي موسى هيس المعروف جيداً في باريس. غير أن كارل ماركس لم يكن معهم، فقد أخره عن المجيء، انهماكه في تحضير العدد الأخير من مجلة يُصدرها مع روجه، وتنطق باسم الجماعة: ***الحوليات الفرنسية-الألمانية***. ومع ذلك فقد تعرفتِ عليه بعد قليل من ذلك، في ظروف طريفة، في مطبعة صغيرة، على الضفة اليسرى للسين، وهي المطبعة الوحيدة التي وافقت على طباعة ***الاتحاد العمالي***. كنتِ تتابعين طباعة تلك الصفحات، على آلة الطباعة القديمة ذات الدواسات في المحل، عندما بدأ شاب عصبي، ذو لحية نامية، متعرق، ومحتقن بالاستياء، يحتج بفرنسية حلقية مريعة، مرفقة بتناثر اللعاب. لماذا لا تنفذ

المطبعة التزامها معه، وتؤخر طباعة مجلته، لتقدم عليها «الترهات الأدبية لهذا السيدة إلتي وصلت لتوها»؟

نهضت **مدام غضب** عن كرسيها بالطبع، وتوجهت إليه:

- أقلت حضرتك، ترهات أدبية؟ - هتفت، رافعة صوتها عالياً مثل ذلك الشاب النزق - اعلم أيها السيد، أن عنوان كتابي هو ***الاتحاد العمالي***، ويمكن له أن يغيّر تاريخ الإنسانية. فبأي حق تأتي أنت، لتصرخ مثل ديك مخصي؟

دمدم الرجل الصارخ شيئاً بالألمانية، ثم اعترف بعد ذلك، بأنه لم يفهم ذلك التعبير. ما الذي يعنيه «ديك مخصي»؟

- اذهب وابحث في معجم، وحسّن لغتك الفرنسية - نصحته **مدام غضب**، ضاحكة -. وعليكَ أن تنتهز الفرصة أيضاً، لتحلق لحية النيص هذه التي تمنحكَ مظهراً قذراً.

قال الرجل، وقد احمَرَّ من عجزه اللغوي، إنه لا يفهم ما يعنيه «النيص»، وإن مواصلة الجدال، في مثل هذه الظروف، لا مغزى له، يا مدام. وودّع بانحناءة استياء. وقد عرفت فلورا، بعد ذلك، من صاحب المطبعة، أن الأجنبي النزق هو كارل ماركس، صديق أرنولد روجه. وابتهجت وهي تتخيل مفاجأته، إذا ما جاء، في أحد أيام الخميس، إلى منتداها في شارع دوباك، وبادرت فلورا، قبل تبادل التحية، إلى مد يدها والقول: «أنا والسيد صديقان قديمان». غير أن ارنولد روجه لم يأتِ به قط.

الأسبوعان اللذان أمضتهما إلينور بلان في بوردو، دون أن تبتعد في الليل أو النهار عن فلورا، جعلا الأطباء يعتقدون بأن المريضة بدأت تتحسن تحسناً بطيئاً، ولكنه فعال. فقد صارت تبدو متحمسة، بالرغم من نحولها الشديد ومعاناتها الجسدية. لقد كانت تعاني آلاماً في البطن والرحم، وأحياناً في الرأس والظهر. وصف لها الأطباء، جرعات ضئيلة من الأفيون، فكانت تهدئها، وتبقيها في سبات، لعدة ساعات متواصلة. وفي فواصل اليقظة، تتبادل الحديث بطلاقة،

وتبدو ذاكرتها في حالة حسنة. («هل تعملين بنصيحتي يا إلينور، بالسؤال على الدوام عن سبب كل شيء؟». «أجل يا سيدتي، إنني أفعل ذلك باستمرار، وأتعلم كثيراً بذلك.») في إحدى فترات الصحو تلك، أملت رسالة بالغة الرقة إلى ابنتها التي كتبت إليها، من أمستردام، عدة صفحات حزينة، حين علمت بخبر مرضها من الزوجين ليمونييه. ومن جهة أخرى، كانت فلورا تطلب، من إلينور، معلومات تفصيلية حول لجنة **الاتحاد العمالي** في ليون، وتصر على أنه يتوجب على تلك اللجنة، أن تقود جميع اللجان الأخرى التي أُسست حتى ذلك الحين.

- ما هي إمكانيات نجاتها؟ - سأل شارل ليمونييه، في أحد الأيام، الدكتور جنتراك، بحضور إلينور.

- لو أنك سألتني قبل أيام، لقلت لك إن الاحتمالات ضئيلة جداً - دمدم الطبيب وهو يمسح عدسة نظارة المونكل -. أما الآن فأنا أشعر بتفاؤل أكبر. يمكن القول، خمسين بالمئة. لكن ما يقلقني هو تلك الرصاصة في صدرها. وبسبب ضعفها، يمكن لهذا الجسم الغريب أن ينزلق. وسيكون ذلك قاتلاً.

بعد أسبوعين، اضطرت إلينور إلى العودة، مكرهة، إلى ليون. فقد طلبتها أسرتها، وعملها، ورفاقها في لجنة **الاتحاد العمالي**، حيث تمثل - تقول ذلك دون تفاخر - قاطرة تلك اللجنة، باتباعها تعليمات فلورا. وقد حافظت على اتزانها عند وداع المريضة، ووعدتها بالعودة، بعد بضعة أسابيع. ولكنها ما إن غادرت الغرفة، حتى انفجرت ببكاء لم تتمكن مسوغات إلزا ليمونييه ومحبتها من تهدئته. فكانت تردد، وشفتاها تنزفان من كثرة العض عليهما: «أعرف أنني لن أرى السيدة مرة أخرى».

وبالفعل، فبعد سفر إلينور إلى ليون مباشرة، ساءت حالة فلورا. وصارت تباغتها نوبات تقيؤ إفرازات الغدة الصفراوية التي تخلّف، في الحجرة، نتانة متواصلة، لا يتحملها سوى صبر مدموزيل آلفين

غير المحدود؛ فكانت هي من تنظف ذلك القيء، وتتولى نظافة المريضة، ليلاً ونهاراً كذلك. وبين حين وآخر، كانت تهز فلورا اختلاجات مفاجئة، تُخرجها من الفراش، وتتملكها قوة لا تتناسب مع هشاشة جسدها الذي يزداد نحولاً، كل يوم، إلى أن تحولت إلى هيكل عظمي، بعينين غائرتين، وذراعين مثل شوكتين. ولم يكن بمقدور الممرضتين والزوجين ليمونييه، تثبيتها إلا بصعوبة، خلال نوبات التشنج.

ومع ذلك، فقد كانت تظل مستغرقة، معظم الوقت، بفعل الأفيون، في شبه غيبوبة، بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وبريق رعب في حدقتيها، كما لو أنها ترى رؤى. وكانت تصدر منها في بعض الأحيان، مونولوجات غير متماسكة، تتحدث فيها عن طفولتها، وعن البيرو، وعن لندن، وعن أريكيبا، وعن أبيها، وعن لجان الاتحاد العمالي، أو تدخل في مجادلات حامية، مع خصوم غامضين. «لا تبكوا عليّ، بل اقتدوا بي» سمعها الزوجان إلزا وشارل تقول ذلك، في أحد الأيام، وكانا يرافقانها، جالسين على طرف السرير.

منذ ظهور كتابها: *الاتحاد العمالي*، في حزيران ١٨٤٣، صارت تعقد اجتماعات يومية مع الجمعيات العمالية، في أحياء وسط باريس أو ضواحيها. لم تعد تطلب عقد تلك الاجتماعات؛ فقد صارت معروفة في الأوساط العمالية، تدعوها منظمات نقابية، وجمعيات تعاضد كثيرة، وبعض الجماعات الاشتراكية والفورييهية والسان-سيمونية أحياناً. بل إن أحد أندية الشيوعية الإيكارية، أوقف حملة جمع الأموال لشراء أرض في تكساس، حيث كان ينوي إقامة «إيكاريا»، الفردوس الذي صممه إتيين كابيه، من أجل الاستماع إلى نظرياتها. وقد انتهى الاجتماع مع الإيكاريين، بصرخات صاخبة.

أكثر ما كان يقلق فلورا، في تلك الاجتماعات التي قد تستمر حتى وقت متأخر من الليل، هو أنها بدلاً من مناقشة الموضوعات الكبرى في مشروعها - القصور العمالية للمسنين والمرضى وضحايا حوادث

العمل، التعليم العام والمجاني، الحق في العمل، وشخصية المدافع عن الشعب -، كانت تجري إضاعة الوقت، في أمور جزئية وتافهة، كي لا نقول سخيفة. فبصورة يكاد يكون تفاديها غير ممكن، يخرج أحد العمال، ليؤنب فلورا على انتقادها العمال في كتيبها، بأنهم «يذهبون إلى البارات ليشربوا، بدل أن يشتروا الخبز لأبنائهم، بالنقود التي ينفقونها على الكحول». وفي أحد الاجتماعات، في عليّة في درب جان أوبيه المسدود، بالقرب من شارع سان مارتين، انتقدها عامل نجارة يدعى رولي: «لقد اقترفت خيانة حقيقية بكشفك عيوب العمال أمام البرجوازية». فردت عليه فلورا بأن الحقيقة يجب أن تكون سلاح البروليتاريا الرئيسي، مثلما هو النفاق والكذب سلاح البرجوازيين. وهي ستواصل، وليغضب من يغضب، تسمية المعيب معيباً، والفظ فظاً. لم يقتنع العشرون عاملاً الذين كانوا يستمعون إليها تماماً، ولكن أياً منهم لم يحاول تفنيد أقوالها، خوفاً من نوبات غضبها تلك التي كانت تدور عنها الأساطير في باريس، بل إنهم كافؤوها بتصفيق حاد.

أتتذكرين يا فلوريتا، وأنت في هذا الضباب الغازي، مثل ضباب لندن، الذي تسبحين فيه الآن، فكرتك الغريبة، بوضع نشيد للاتحاد العمالي، يرافق حريك الصليبية، مثلما رافق *المارسييز* ثورة ٨٩ الكبرى؟ أجل، أنت تتذكرين، بصورة غائمة، وتتذكرين كذلك الطريقة الفظة، القاسية، التي انتهت بها تلك الفكرة. أول شخص لجأت إليه، طالبة منه أن يضع كلمات نشيد **الاتحاد العمالي**، هو برانجيه. استقبلك الرجل المشهور في بيته، في باسي، حيث كان يتناول الغداء مع ثلاثة مدعوين. وقد أبدوا استغرابهم وسخريتهم، واستمع إليك الأربعة، وأنت تقولين إنه لا بد، من أجل بدء الثورة الاجتماعية السلمية، من امتلاك ذلك النشيد الذي سيستثير همم العمال، ويحثهم على التضامن والإقدام. رفض برانجيه تأليف النشيد، موضحاً أنه لا يستطيع الكتابة بتكليف، ودون إلهام. ورفض ذلك

أيضاً لامارتين العظيم، قائلاً إنك تدعين إلى ما كان قد دعا إليه من قبل، في قصيدته الرؤيوية: *مارسييز السلام*.

عندئذ، وفي ساعة نحس يا فلوريتا، خطرت لك فكرة الدعوة إلى مسابقة، من أجل وضع «نشيد يحتفي بالأخوة الإنسانية». وستكون الجائزة ميدالية يقدمها أوجين سو، الكريم دائماً. يا للخطأ الخطير، يا أندلسية! حوالي مئة من الشعراء والملحنين البروليتاريين شاركوا، مصممين على كسب المسابقة والحصول على الميدالية والشهرة، باستخدام مواهبهم أو نقائصهم، بأي طريقة كانت. ولم يخطر لك قط، أنه يمكن للغرور، وكنت تظنينه، أنت الساذجة، رذيلة برجوازية، أن يوحي بكل تلك المكائد، والدسائس، والخدع، والافتراءات، والضرب تحت الحزام، بين المتسابقين الشعبيين، للحطّ من قيمة بعضهم لبعض، والحصول على الجائزة. مرات قليلة وصلت إلى مثل ذلك الغضب، وصرخت إلى أن بُحّ صوتك، مثلما فعلت بسبب أولئك الشويعرين والموسيقيين التافهين. ويوم قررت لجنة التحكيم المتضايقة، منح الجائزة إلى م. آ. ثيس، تم اكتشاف أن أحد المتسابقين الساخطين، الشاعر المدعو فراند، وهو ناقد لطيف يقدم نفسه، بكل جدية، على أنه «المعلم الكبير لمذهب فرسان الهيكل الشعري»، قد سرق الميدالية وأوراق اعتماد الجائزة، فور علمه بأن الرابح، هو شخص آخر. أتضحكين يا فلوريتا؟ لست في حالة سيئة إذن، طالما بقيت لديك قوة للابتسام، حتى وإن كان ذلك في الحلم، وبتنشيط جرعات الأفيون الصغيرة.

إنك تسمعين الأصوات بصورة غامضة، ولكنك لا تمتلكين ما يكفي من الإدراك والصحو، لفهم ما يقولون. ولهذا، عندما حضر إلى بيت شارل وإلزا ليمونييه، في الحادي عشر من تشرين الثاني ١٨٤٤، ذلك المنافق الجريء من الرعية الكاثوليكية، ومعه كاهن، مدعياً أن كنيته ستوفينيل، ليقدم لك خدمة ما بعد الموت الدينية، مؤكداً أنك مؤمنة ورعة، وأن هذا هو ما طلبته منه في الماضي، لم تتمكني من

الدفاع عن نفسك - فمدام غضب صارت بلا صوت، بلا قوة، بلا وعي - ولم تستطيعي طرد ذلك المخادع والكاهن الذي يرافقه من غرفتك. فوجئ الزوجان شارل وإلزا ليمونييه، المتسامحان دوماً مع كل المعتقدات، وخُدعا، ابتلعا الخدعة، وسمحا لهما بالدخول وممارسة طقوسهما على جسدك الخامد. وفي ما بعد، عندما علمت إلينور بلان بالأمر، أخبرتهما، وهي ساخطة، بأن السيدة ما كانت لتسمح قط، بمثل تلك الطقوس الظلامية، لو أنها كانت بحواسها الخمس. تأسف الزوجان ليمونييه وغضبا. لكن ستوفينيل المزيف والغراب ذا المسوح الكهنوتي، كانا قد حققا هدفهما، وأشاعا في شوارع بوردو وساحاتها، أكذوبة أن فلورا تريستان، رسولة النساء والعمال، قد طلبت، وهي على فراش الموت، مساعدة الكنيسة المقدسة، كي تدخل الحياة الأبدية متصالحة مع الرب. يا لكِ من مسكينة، يا فلوريتا!

ما إن وصلت إلى يدي فلورا أول نسخ ***الاتحاد العمالي***، حتى أرسلت نسخاً منه إلى جميع الجمعيات النقابية والتعاضدية التي حصلت على عناوينها. ووزعت بياناً عن الكتاب، في ثلاثة آلاف ورشة ومصنع، في كل أنحاء فرنسا. أتذكرين كم رسالة تلقيت من قراء كتابك-البيان؟ ثلاثاً وأربعين رسالة. وكلها تحمل عبارات التشجيع والأمل، وإن كان بعضها يتساءل، بخوف، إذا ما كان وضعك كامرأة، لا يشكل عائقاً كبيراً. هل كان كذلك يا فلوريتا؟ في الحقيقة، ليس كثيراً. ومهما كان الوضع سيئاً، فقد استطعت، خلال هذه الشهور الثمانية الأخيرة، من القيام بدعاية واسعة لمصلحة تحالف الشغيلة والنساء، وأنشئت عدداً لا بأس به من اللجان. وما كان لكِ أن تحققي أكثر من هذا، لو أنك كنتِ ترتدين البنطال بدل التنورة. إحدى الرسائل التي تلقيتها جاءت من عامل إيكاري، من جنيف، يطلب فيها خمساً وعشرين نسخة لرفاقه في الورشة. ورسالة أخرى من صانع الأقفال بيير مورو، من أوكزير، منظم

جمعيات تعاضد عمالي، وأول من حثك على الخروج من باريس، والبدء بجولة واسعة عبر فرنسا بأسرها، وكل أنحاء أوروبا، لنشر أفكارك، وإطلاق مسيرة **الاتحاد العمالي**.

لقد أقنعك. وبدأت على الفور، الإعداد للجولة. إنها فكرة عظيمة، وستنفذينها. هذا ما قلته لمورو الطيب، ولكل من استمعوا إليك، ولنفسك بالذات، خلال شهور الإعداد المحمومة تلك: «لقد جرى الحديث كثيراً في البرلمانات، والمنابر، والجمعيات العامة، عن العمال. ولكن أحداً لم يحاول التحدث إليهم مباشرة. وهذا ما سأفعله أنا. سأذهب للبحث عنهم في ورشهم، في بيوتهم، وفي الحانات إذا ما تطلب الأمر. وهناك، أمام بؤسهم، سأطلعهم على قَدَرِهم؛ وسأجبرهم، رغم أنفهم، على الخروج من البؤس المرعب الذي يحطّ من قيمتهم، ويقتلهم. وأجعلهم ينضمون إلينا، نحن النساء، وينخرطون في النضال».

وقد فعلت ذلك يا فلوريتا. لقد فعلته خلال هذه الشهور الثمانية الأخيرة، بالرغم من الرصاصة التي بجوار قلبك، وبالرغم من أمراضك، وإنهاكك، وبالرغم من هذا الداء البغيض، المجهول، الذي يستنزف قواك. وإذا لم يحدث ذلك بصورة أفضل، فليس السبب هو انعدام الجهد، والقناعة، والإقدام، والمثالية. إذا لم يحدث بصورة أفضل، فلأن الأمور في هذه الحياة، لا تجري أبداً، كما هي في الأحلام. وهذا مؤسف، يا فلوريتا.

نظراً لأن الآلام كانت تسبب لها الأنين والتلوي، بالرغم من جرعات الأفيون، فقد أمر الأطباء، في الثاني عشر من تشرين الثاني ١٨٤٤، بوضع كمادات على بطنها، ومحاجم على ظهرها. ولكنها لم تخفف عنها أي ألم. وفي يوم الرابع عشر، أعلنوا أنها تحتضر. وبعد أنين وعويل استمر نصف ساعة، في حالة هياج محموم - إنها المعركة الأخيرة يا **مدام غضب** - هوت في غيبوبة. وفي الساعة العاشرة ليلاً، كانت جثة هامدة. كان عمرها إحدى

وأربعين سنة، وبدت عجوزاً هرمة جداً. قص الزوجان ليمونييه خصلتين من شعرها، واحدة لإلينور بلان، والأخرى لألين.

نشأ خلاف قصير بين الزوجين ليمونييه وإلينور، حول وصية فلورا بشأن رفاتها، وهي وصية يعرفها الثلاثة. كانت إلينور تؤيد، وفقاً لمشيئة السيدة، أن يُسلم الرأس إلى رئيس جمعية علم فراسة الجمجمة في باريس، وتسلم جثتها إلى الدكتور ليسفرانك، كي يشرحها في مستشفى الرحمة، أمام تلاميذه. وأن يُلقى ما تبقى من رفاتها في قبر جماعي، دون أية طقوس.

غير أن شارل وإلزا ليمونييه، تذرعا بأنه يجب عدم احترام هذه الوصية، من أجل القضية التي خاضت فلورا غمارها بكل شجاعة وسخاء. وأنه لا بد من تمكين النساء والعمال، الحاليين والمستقبليين، من الذهاب للانحناء أمام قبرها، تكريماً لها. وأخيراً، تنازلت إلينور وتقبلت مسوغاتهما. أما ألين، فلم تُستشر في هذا الشأن.

أوكل الزوجان ليمونييه إلى فنان من بوردو، مهمة إعداد قناع موت لوجه المتوفاة، واشتريا قبراً لمواراة رفاتها، في مقبرة الرهبان الكرتوزيين. وقد جرى السهر على جثمانها طوال يومين اثنين، غير أنه لم تُقم لها طقوس دينية، ولم يسمح بدخول أي كاهن إلى حيث الجثمان.

جرى دفنها يوم السادس عشر من تشرين الثاني، قبيل الظهر. وقد خرج الموكب من بيت آل ليمونييه في شارع سان بيير، واجتاز سيراً على الأقدام، بخطوات بطيئة، تحت سماء رمادية وماطرة، شوارع مركز مدينة بوردو، حتى مقبرة الرهبان الكرتوزيين. وكان الموكب يضم بعض الكتّاب، والصحفيين، والمحامين، وعدداً لا بأس به من نساء عامة الشعب، وحوالي مئة عامل. وقد تبادل هؤلاء، بين وقت وآخر، حمل النعش الذي كان خفيفاً جداً. وكان يحمل حبال النعش نجار، ونحات أحجار، وحداد، وصانع أقفال.

وخلال الدفن في المقبرة، لمح الزوجان ليمونييه، في مكان منفصل

عن موكب المشيعين، وجود ستوفينيل المزعوم الذي أدخل الخوري إلى بيتهما. كان رجلاً نحيلاً، يرتدي ملابس سوداء صارمة. ولم يكن قادراً على كبح دموعه، بالرغم من جهوده الواضحة. كان يبدو متوعكاً، ويعاني حزناً شديداً. وعندما تفرق الحضور، اقترب الزوجان ليمونييه منه لمحاسبته على فعلته. وقد فاجأهما مدى ما يبدو عليه من نحول وانهيار.

- لقد كذبتَ علينا يا سيد ستوفينيل - قال له شارل بصرامة.

- لا تدعُني بهذا الاسم - أجابه بصوت مرتعش، وهو يجهش بالبكاء - لقد كذبتُ عليكما كي أُحسن إليها. إنها أكثر شخص أحببته في هذا العالم.

- من أنت؟ سألته إلزا ليمونييه.

فقال الرجل بصوت مضمخ بالمعاناة والمرارة:

- اسمي ليس مهماً. فقد كانت تعرفني بلقب قبيح، يسخر به مني أناس هذه المدينة: **الخصي الإلهي**. يمكن لكما أن تضحكا مني، عندما أدير لكما ظهري.

XXII. خيول وردية

أتونا، هيفا وا، *أيار ١٩٠٣*

عرف أن حياته تمضي في مسارها الأخير، في أوائل عام ١٩٠٣، عندما لم يعد، أخيراً، بحاجة إلى استخدام الحيل والملاطفات، كي يجتذب إلى **بيت المتعة** بنات مدرسة سانتا آنا التي تديرها ست راهبات، من طائفة أخوات كلوني، يرسمن إشارة الصليب بقلق، إذا ما صادفنه في الشارع في أتونا. ذلك أن البنات، بتواتر أكثر، وأعداد أكبر في كل مرة، صرن يهربن من المدرسة، ليزرنه سراً. ما كن يأتين لرؤيتكَ أنتَ، بكل تأكيد، بالرغم من معرفتهن بأنهن إذا ما دخلن البيت، وصرن في متناول يديكَ، فإنك لن تتورع، ليس للمتعة، بعد أن صرت الآن رجلاً شبه أعمى وعاجزاً، وإنما لمجرد استكمال طقس تقليدي، عن مداعبة صدورهن، ومؤخراتهن، وفروجهن، وحثهن على التعري. كل ذلك كان يدفع الفتيات إلى التراكض، وإطلاق الصرخات، والشعور بإثارة مرحة، كما لو أنهن يمارسن معك رياضة أكثر مجازفة من قطع الماء في قارب ماووري، في خليج الخونة. الحقيقة أنهن كن يجئن لرؤية الصور البورنوغرافية. لا بد أن تلك الصور قد تحولت إلى شيء أسطوري، إلى رمز مجسد للخطيئة، في نظر أساتذة وتلاميذ مدارس البعثة الكاثوليكية، والمدرسة البروتستانتية الصغيرة، وفي نظر بقية أهالي أتونا. ويأتين أيضاً ليضحكن مقهقهات، بالطبع، من كركوزيّ الحديقة اللذين يسخران من الأسقف جوزيف مارتين - **الأب مجون** - وخادمته وعشيقته المزعومة **تيريسا**.

لماذا تأتي الصغيرات، لولا ذلك، إلى **بيت المتعة** إذاً، بالحرية التي

يأتين بها الآن، لو أنهن ما زلن يعتبرنكَ خطراً، مثلما كنتَ في الشهور الأولى، وفي السنة الأولى، من وجودك في هيفا وا، يا كوكي؟ في الحالة المحزنة التي صرتَ إليها، لم تعد تشكل أي خطر: لن تفض بكارة هؤلاء الصغيرات الماركيزيات أو تحبّلهن. ليس بإمكانك ممارسة الحب معهن، حتى لو سمحن لك بذلك؛ لأنك منذ بعض الوقت، لم تعد تشعر بانتصاب عضوك أو بأدنى رغبة جنسية. فأنت لم تعد تشعر إلا بحكة تبعث على الجنون في ساقيك، ووخزات فقط في الجسد، وبنوبات الخفقان هذه التي تقطع أنفاسك.

نصحه الراعي البروتستانتي فرنر بأن يوقف، لبعض الوقت على الأقل، حقن المورفين التي اعتاد عليها جسد كوكي، لأنها لم تعد تفيد في تخفيف الآلام. فانصاع له، وأودع الحقن عند صاحب المتجر بن فارني، كي لا يكون الإغواء في متناول يده. لكن الكمادات والتدليك بمرهم الخردل الذي أوصى عليه من بابيتي، لم يكن يخفف من لسعات ألم كلتا ساقيه، فضلاً عن أن نتانتها، تجتذب الذباب. قطرات صبغة الأفيون وحدها، هي التي تهدئه، وتُغرقه في خدر نباتي، يكاد لا يخرج معه من البيت، إلا عندما يأتي لزيارته أحد الأصدقاء - جاره تيوكا الذي أنهى بناء بيته، والأنامي كي دونغ، والقس فرنر، وفريول وبن فارني - أو عندما تقتحم البيت، مثل سرب طيور، بنات مدرسة راهبات كلوني، كي يتفرجن، بعيون متوقدة، وبدمدمات وكر بعوض، وضعيات بطاقات بور سعيد الإيروتيكية.

حضور أولئك الصغيرات المفعمات بالمكر والخبث، إلى **بيت المتعة** كان نفحة شباب فيما حولكَ، شيء ينسيكَ آلامكَ، لبعض الوقت، ويجعلكَ تشعر بأنك على ما يرام. كنتَ تترك الصغيرات يجبن غرف البيت، ويبعثرن كل شيء، وتأمر الخادمين بأن يقدما لهن ما يشربنه ويأكلنه. لقد ربتهن راهبات كلوني كما يجب؛ فإلى الحد الذي تصل إليه تقديراتكَ، لم تأخذ أي واحدة من الفتيات شيئاً، أو رسماً،

كتذكار من بيت المتعة.

وذات يوم، متحمساً بالطقس الجيد، وتقلص حرقة ساقيه، صعد بمساعدة الخادمين، إلى العربة التي يجرها الحصان، وخرج للقيام بنزهة، نازلاً حتى الشاطئ. رؤية الشمس المتألقة على جزيرة هاناكي المجاورة - حوت عنبر جامد وأبدي -، قبل غروبها، ملأه بالتأثر إلى حد البكاء. واشتاق بحنين أكبر من أي وقت مضى، إلى صحته الضائعة. كم سيروقكَ لو أنك تستطيع، يا كوكي، تسلق هذين الجبلين، تيميتيو وفياني، بسفوحهما الغابية والمخددة، واكتشاف أوديتهما العميقة، بحثاً عن قرى نائية، ترى فيها معلمي الوشم السري وهم يعملون، ويدعوك أهلوها إلى وليمة لحم بشري، يعيد الشباب. لأنكَ تعرف أن شيئاً من ذلك لم يختفِ، في أعماق الغابات الخفية النائية، حيث لا تصل سلطة المونسنيور مارتين، ولا الراعي فرنر، ولا سلطة الدركي كلافييه. وفي طريق عودته، مجتازاً الشارع الذي يشكل عمود أتونا الفقري، رصدت عيناه الكليلتان، في الأرض الخلاء المجاورة لأبنية البعثة الكاثوليكية - مدرسة الذكور، ومدرسة الإناث، والكنيسة، ومسكن الأسقف جوزيف مارتين -، رصدتا شيئاً دفعه إلى كبح الحصان، والاقتراب. كانت جماعة من أصغر التلميذات، يقفن في دائرة، ويلعبن تحت حراسة إحدى الراهبات، وسط ثرثرات مرحة. لم تكن انعكاسات الشمس هي التي تحلل تلك الهيئات والظلال المحشورة في ملابس تلميذات البعثة التبشيرية، اللواتي ينتهزن اقتراب البنت «مغمضة العينين»، في منتصف الدائرة، لتسأل إحدى زميلاتها شيئاً، فيبدلن أماكنهن في الدائرة بسرعة؛ إن نظره هو الذي يغيم رؤية هذه اللعبة الطفولية. ما الذي تسأله الطفلة «مغمضة العينين» لزميلاتها في الدائرة، حين تقترب منهن، وما الذي يجبن به حين يصرفنها؟ من الواضح أنها عبارات محددة ثابتة، ترددها البنت وزميلاتها، بصورة ميكانيكية. إنهن لا يلعبن بالفرنسية، وإنما بلغة الماووري الماركيزية التي لا يفهمها كوكي

جيداً، وخاصة على ألسنة الصغار. ولكنه تكهن فوراً ما هي اللعبة التي يلعبنها، وما الذي تسأل عنه الطفلة مغمضة العينين، متنقلة من إحدى رفيقاتها، في الدائرة إلى أخرى، وكيف تلقى الصد دوماً بالعبارة نفسها:

- هل الفردوس هنا؟

- لا يا آنسة، ليس هنا. اذهبي واسألي عنه في الناصية الأخرى.

داهمته موجة حنين دافئة. وللمرة الثانية، في اليوم نفسه، امتلأت عيناه بالدموع.

- إنهن يلعبن لعبة الفردوس، أليس كذلك يا أختاه؟ - سأل الراهبة، وهي امرأة صغيرة وضئيلة، شبه ضائعة في ثوب الرهبة ذي الطيات الكبيرة.

- مكان لن تدخله أنتَ أبداً - ردّت عليه الراهبة، وهي تشير بحركة تعزيم بقبضتها - انصرف من هنا، ولا تقترب من هؤلاء الصغيرات، أرجوك.

أنا أيضاً كنتُ ألعب هذه اللعبة في صغري، يا أختاه.

نخس كوكي حصانه، ووجهه نحو نهر ماكي-ماكي الذي يقوم بيت المتعة على ضفته. لماذا يؤثر فيكَ اكتشاف أن هؤلاء الصغيرات الماركيزيات، يلعبن لعبة الفردوس أيضاً؟ لأن الذاكرة أعادت إليك، عند رؤيتهن، بذلك الوضوح الذي لم تعد عيناك تريان به العالم، صورتك وأنت ببنطال قصير، وبمريلة وشعر ملتف في حلقات، معصوب العينين، وسط دائرة من بنات وأبناء العمومة وأطفال الجوار، في حي سان مارثيلو، تتنقل من جانب إلى آخر، سائلاً بإسبانيتك التي تحمل لَكنة مدينة ليما، «هل الفردوس هنا؟»، «لا، إنه في الناصية الأخرى، يا سيدي، اسأل هناك»، بينما الصغار والصغيرات، وراء ظهرك، يبدلون أماكنهم في الدائرة. كان بيت آل إتشينيكي وآل تريستان، أحد البيوت الكولونيالية في مركز ليما، يغص بالخدم الهنود والزنوج والخلاسيين. وفي الفناء الثالث، الذي

كانت أمك تمنعك، أنت وأختك ماريا فرناندا، من الاقتراب منه، كانوا يحتجزون مجنوناً من الأسرة، تخيف صرخاته المفاجئة أطفال البيت. أما أنت، ففضلاً عن الخوف، كانت تلك الصرخات تفتنك. لعبة الفردوس! أنت لم تعثر بعد، على ذلك المكان المتهرب، يا كوكي. أهو موجود؟ أم أنه نار كاذبة، سراب؟ ولن تجده في الحياة الأخرى كذلك. فمن المؤكد أنهم قد حجزوا لكَ هناك، حسب ما تنبأت لكَ هذه الراهبة للتو، مكاناً في الجحيم. عندما كنتَ تنتهي، أنت وماريا فرناندا، من لعب الفردوس، منهوكين ومحمرين، تدخلان إلى صالون البيت المترع بالمرايا البيضوية واللوحات الزيتية، بالسجاجيد والمقاعد الوثيرة. ويكون جالساً هناك، على الدوام، إلى جوار النافذة الضخمة، ذات الستارة الخشبية التي يرى من خلالها الشارع، دون أن يُرى، عم الجدة دون بيو تريستان، يتناول فنجان الشوكولاته المؤكد الذي يتصاعد منه البخار، ويغمس فيه قطع البسكويت، تلك المشهورة في ليما باسم «بيسكوتيلا». كان يقدم لك واحدة منها دوماً، قائلاً لك بابتسامة طيبة: «تعال هنا، يا بابلو الصغير المحتال».

ليس الداء الذي لا يُسمى وحده هو الذي راح يتفاقم بسرعة، منذ بداية العام ١٩٠٣. وإنما صراع بابلو كذلك ضد السلطة، ممثلة بالدركي جان-بول كلافييه، راح يتسمم ويتعقد في متاهة قضائية. إلى أن أدركتَ في أحد الأيام، أن بن فارني وكي دونغ لم يكونا يبالغان؛ فوفق الطريقة التي تسير بها الأمور، سينتهي بكَ المطاف إلى السجن، مع مصادرة ممتلكاتك القليلة كلها.

في كانون الثاني ١٩٠٣، وصل إلى أتونا أحد أولئك القضاة المتجولين، ممن ترسلهم السلطات الاستعمارية إلى الجزر، بين حين وآخر، لحل القضايا القانونية المعلقة. وقد بدأ الأستاذ أورفيل، الحقوقي الممل الذي يعمل بنصائح كلافييه، الاهتمام أولاً، وقبل أي شيء آخر، بقضية تسعة وعشرين وطنياً، من إحدى قرى الساحل الصغيرة، في وادي هانايابا، على الساحل الشمالي للجزيرة، يتهمهم

كلافـييه والأسـقف مـارتين، مسـتعينين بوشـاية، بأنـهم يسـكرون، ويصنعون الخمر سـراً، خـارقين بذلـك قانونـاً، يحـرم علـى الوطنيـين تناول المشروبات الكحولية. تولى كوكي الدفاع عن المتهمين، وأعلن أنه سيمثلهم أمام المحكمة. ولكنه لم يتمكن من ممارسة عمله كمدافع. ففـي يوم المحاكمة، حضر بلباس وطني ماركيزي، لا يرتـدي سـوى «الباريو» التاهيتي، وصدره عار وموشوم، وحافـي القدمـين. جلس بتحـد علـى الأرض، بـين المتـهمين، مقاطعـاً سـاقيه علـى الطريقـة الوطنية. وبعد صمت طويل، نظر خلاله القاضي أورفيل إليه نظرات نارية، قام بطرده من القاعة، متهماً إياه بإهانة المحكمة. وطلب منه أن يذهـب، ويلبـس علـى الطريقـة الأوروبيـة، إذا أراد الدفـاع عـن المتهمين. ولكن، عندما رجع بول، بعد ثلاثة أرباع الساعة، مرتديـاً بنطالاً وقميصاً، وربطة عنق وسترة، وحذاء وقبعة، كان القاضي قد أصدر حكمه، بسجن التسعة والعشرين ماووريـاً، خمسة أيام، ودفع مئة فرنك غرامة. وقد بلغ استياء كوكي حداً جعله يتقيأ دماً، عند باب القاعة التـي عقـدت فـيها المحكمـة - مكتـب البـريد -، وفقـد الوعي عدة دقائق.

بعد أيام من ذلك، جاء صديقه كي دونغ إلى **بيت المتعة**، فـي وقت متأخر من الليل، بينما أتونـا نائمـة، حـاملاً إليه أخبـاراً مخيفـة. ولـم يكن قد حصل على تلك الأخبار مباشرة، وإنما من خلال صديق مشترك، التاجر إميل فريول الذي تربطه، في الوقت نفسه، صداقة مع الدركي كلافـييه، إذ إنـه يشـاطره ولعـه فـي ولائـم **التامار**، تلـك الأطعمة المطهوة على أحجار ساخنة، تحت الأرض. ففـي آخـر مـرة خرجـا فـيها معـاً، لصيد السمك، عرض الدركي المجنون بالسـعادة، علـى فريـول، بلاغـاً مـن السـلطات فـي تـاهيتي، تخولـه «التصـرف بأسرع ما يمكن، ضد المدعو غوغان، حتى تحطيمه أو تصفيته، لأن تحريضه ضد المدرسة الإجبارية، وضد دفع الضرائب، يقوض عمل البعثة الكاثوليكية، ويوقع الاضطراب بين السكان الأصليين الذين

التزمت فرنسا بحمايتهم». وكان كي دونغ قد دون هذه العبارات التي قرأها، بصوت هادئ، على ضوء قنديل. كل شيء في الأمير الأنامي كان هادئاً وهريّاً؛ مما دفع كوكي إلى التفكير بالقطط، والنمور، والفهود. هل كان إرهابياً هذا الصديق الطيب؟ يبدو من الصعب تصديق أن يعمد رجل بهذه الرقة، وهذه الطريقة المهذبة في الكلام، إلى وضع القنابل.

وأخيراً، قال كوكي وهو يهز كتفيه:

- وماذا بإمكانهم أن يفعلوا بي؟

- أشياء كثيرة، وجميعها خطر جداً - ردّ كي دونغ ببطء، وبصوت خافت جعل بول يقرّب رأسه ليسمعه وهو يضيف:- كلافييه يكرهك من أعماق روحه. وهو سعيد لأنه تلقى هذا الأمر الذي لا بد أنه سعى إليه بنفسه. وهذا هو ما يفكر فيه فربول أيضاً. عليك توخي الحذر يا كوكي.

وكيف يمكن لكَ توخي الحذر، وأنت مريض، بلا نفوذ ولا موارد؟ راح ينتظر تطور الأحداث، في غيبوبة البلاهة التي تُغرقه فيها، كل يوم، صبغة الأفيون والمرض، كما لو أن الشخص الذي ستتكالب عليه تلك المكيدة، ليس هو نفسه، وإنما بديله. لقد كان يشعر منذ بعض الوقت، بأنه يزداد نحولاً، ويزداد تراخياً وشبحية. بعد يومين جاءه استدعاء. فقد رفع جان-بول كلافييه ضده قضية إهانة للسلطة، إي إهانة الدركي نفسه، في الرسالة التي بعث بها إليه، ليخبره بأنه يمتنع عن دفع ضريبة الطرق، كي يعطي مثلاً للسكان الأصليين. وبسرعة لا سابق لها في تاريخ القضاء الفرنسي، استدعاه القاضي أورفيل إلى محاكمة، في الحادي والثلاثين من آذار، في مكتب البريد، حيث سيُفصل في الدعوى. أملى كوكي على القس بول فرنر التماساً مستعجلاً، يطلب فيه تأجيل الموعد، كي يتمكن من إعداد دفاعه. فرفضه الأستاذ أورفيل. كانت محاكمة ١٩٠٣ مغلقة، واستمرت أقل من ساعة. وكان على بول أن يعترف بصحة تلك

الرسالة، والعبارات القاسية التي تشير إلى الدركي فيها. أما مرافعته المضطربة، المشوشة، غير المستندة إلى أساس قانوني متين، فانتهت بصورة مفاجئة، عندما اضطره تشنج في البطن، إلى الانحناء متلوياً، والصمت. وفي عصر ذلك اليوم بالذات، قرأ عليه القاضي أورفيل الحكم: خمسمئة فرنك غرامة، والسجن الفعلي ثلاثة أشهر. وعندما أعرب عن تصميمه على استئناف الحكم، أكد له أورفيل بازدراء وتوعد، بأنه سيتولى هو نفسه، جعل محكمة بابيتي تنظر في الاستئناف، بسرعة قياسية، وتُضاعف الغرامة وفترة السجن.

- لقد صارت أيامك معدودة أيها الحشرة القذرة - سمع بول الدركي كلافييه يهمس بذلك وراءه، بينما هو يصعد، بمشقة، إلى عربته، متعثراً بركِابها، كي يعود إلى **بيت المتعة**.

وفكر: «أسوأ ما في الأمر أن كلافييه على صواب». وأحس بقشعريرة وهو يتخيل ما سيأتي. بما أنه في وضع لا يتيح له دفع الغرامة، فسوف تضع السلطة، أي الدركي نفسه، يدها على كل ممتلكاته. وستصادر السلطات الاستعمارية اللوحات والمنحوتات التي لا تزال في **بيت المتعة**، وتعرضها، دون ريب، في مزاد علني، في بابيتي، لتباع بسنتات قليلة، إلى أناس مريعين. عندئذ، وبما تبقى له من قوة ضئيلة، انهمك كوكي في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. لكن قواه لم تتح له تغليف اللوحا وتعليبها، فطلب المساعدة، عبر تيوكا، من القس فرنر. فكان رئيس البعثة البروتستانتية، كعادته، مثالاً في التفهم والصداقة. أحضر حبالاً، وكرتوناً، وأوراق تغليف، وساعد في تعليب أربع عشرة لوحة، وأحد عشر رسماً، لإرسالها إلى باريس، إلى دانييل دو مونفريد، في السفينة القادمة، المتوقع لها أن تغادر هيفا وا بعد أسابيع، في الأول من أيار ١٩٠٣. وقد تولى القس بول فرنر، بمساعدة تيوكا واثنين من أبناء أخوته، نقل الصناديق ليلاً، حيث لا يمكن لأحد رؤيتهم، إلى مقر البعثة البروتستانتية. وتعهد القس لبول،

بأن يتولى بنفسه نقلها إلى المرفأ، وأن يقوم بإجراءات الشحن، والتأكد من أنها ستوضع بصورة جيدة في عنبر السفينة. ولم يكن لديكَ أي شك في أن هذا الرجل الطيب سينفذ وعده.

لماذا لم تُرسل، إلى دانييل دو مونفريد، **كل** اللوحات والرسوم والمنحوتات التي في بيت **المتعة**، يا كوكي؟ هذا ما سأل نفسه عنه مرات ومرات، في الأيام التالية. ربما كي لا تبقى وحيداً أكثر مما أنتَ عليه، في هذا المقطع الأخير من حياتكَ. ولكن، من الحماقة أن تعتقد أن تلك الصور المكومة في مرسمك، ستكون رفيقة لكَ، بينما عيناك لا تقويان على تمييز الألوان والخطوط، ولا تريان فيها إلا كتلاً وبقعاً غائمة. يا لعبثية فقدان الرسام للبصر، الوسيلة الأساسية لميله وعمله. ويا لهذه الطريقة في التنكيل بمتوحش بائس يحتضر، أيها الرب القاسي. أتراكَ كنتَ شريراً إلى هذا الحد، في سنوات عمرك الخمس والخمسين، كي تُعاقب هكذا؟ حسن، ربما نعم، يا بول. مت تعتقد ذلك، وهذا ما قالته لكَ في آخر رسالة كتبتها إليك، أكان ذلك منذ سنة، سنتين؟ شرير معها، شرير مع أبنائكَ، شرير مع أصدقائك. أكنتَ كذلك يا كوكي؟ معظم هذه اللوحات رسمتها قبل شهور، عندما لم تكن عيناكَ، بالرغم من ترديهما، غير نافعتين، مثلما هما الآن. ومازلت تحتفظ في ذاكرتكَ، بما تتضمنه من أشكال، وظلال، وألوان. أيها المفضلة لديكَ يا كوكي؟ إنها لوحة ***راهبة الإحسان*** دون شك. راهبة من البعثة الكاثوليكية، تتعارض صورتها الملتفة بعمرة، ومسوح، وخمار، رمز إرهاب الجسد، والحرية، والعري، والحالة الطبيعية، مع ذلك **الماهو**، شبه العاري الذي يعرض أمام الملأ، بطلاقة وقناعة تامتين، شرطه ككائن حر ومركب من رجل-امرأة، عضوه الجنسي المبتدع، ومخيلته غير المقيدة. إنها لوحة تعرض تنافر ثقافتين وتعارضهما، في عاداتهما وديانتيهما، التفوق الجمالي والأخلاقي للشعب الضعيف والمستعبَد، والدونية المنحدرة والقمعية للشعب القوي والمستعبِد. لو أنك عاشرت **ماهو**، بدلاً من

محظيتك فايوهو، لظل هنا إلى جانبك، في الغالب، يرعاكَ ويعنى بك؛ فمن المعروف أن أكثر النساء وفاء وإخلاصاً لأزواجهن، هن الماهو. لم تكن متوحشاً كاملاً، يا كوكي. فهذا هو ما كان ينقصك: التزاوج مع ماهو. وتذكَّر جوتيفا، حطاب ماتايّا. ولكنه كان يحن كذلك، إلى اللوحات والرسوم المكرسة للخيول البرية التي تتكاثر في جزيرة هيفا وا، وتقترب فجأة، في بعض الأحيان، من أتونا، وتجتاز البلدة قطعاناً، في عدو سريع، مذعورة وجميلة، عيونها مفتوحة على اتساعها، وتجتاح كل ما يعترض سبيلها. إنك تتذكر بصورة خاصة، واحدة من تلك اللوحات، رسمت فيها خيولاً وردية اللون، كتورد سماء الشفق، تدور متقافزة على شاطئ الخونة، وسط ماركيزيين عراة، أحدهم فوق ظهر حصان، يمتطيه دون سرج، عند حافة البحر. ما الذي سيقوله متأنقو باريس؟ فرسم حصان وردي، يعتبر شذوذاً جنونياً. لا يمكن أن يخطر لهم أن كرة نار الشمس، قبل أن تغرق في البحر، تصبغ بالحمرة الكائنات المتحركة والساكنة، ملونة وجه الأرض كله، لبضع لحظات إعجازية.

منذ الأول من أيار، لم يعد لديه من القوة ما يكفي للنهوض من الفراش تقريباً. فكان يبقى في مرسمه في الطابق العلوي، غارقاً في سكون بلا زمن، ملاحظاً أن الذباب لم يعد يألف أضمدة ساقيه فقط، وإنما يجوب كذلك، بقية أنحاء جسمه، ووجهه، دون أن يتكلف هو مشقة هشه. ولأن الحرقة والآلام قد اشتدت، فقد طلب من بن فارني أن يعيد إليه الحقن التي أودعها عنده. وطلب من القس فرنر أن يزوده بالمورفين، بحجة لم يستطع الأخير أن يدحضها:

- ما معنى أن أتألم، يا صديقي الطيب، مثل كلب، مثل مسلوخ حي، إذا كنت سأموت خلال أيام، أو أسابيع على أبعد تقدير.

كان يأخذ حقن المورفين بنفسه، بالتلمس، دون أن يكلف نفسه تعقيم إبرها. وكان السبات يخدر عضلاته، ويهدئ الألم والحرقة، ولكنه لا يؤثر على مخيلته. بل على العكس، يؤججها، ويجعلها تفرقع.

يستعيد، في التخيل، ما كتبه في مذكراته المبهرجة والتخيلية غير المنتهية، عن الحياة المثالية للفنان، المتوحش في غابته، وما يحيط به من وحوش رقيقة وقاسية، مثل النمر الملكي في غابات ماليزيا، وأفعى الكوبرا في الهند. الفنان وأنثاه، وهما وحشان حسيان أيضاً، محاطان بجائحة حيوانات هريّة لذيذة وعابقة، يعيشان منصرفين إلى الإبداع والمتعة، معزولين ومتكبرين، بعيدين عن حشود المدن السخيفة والجبانة، وغير عابئين بها. من المؤسف أن غابات بولينيزيا تخلو من الضواري، ومن الحيات الخبيثة، ولا يتكاثر فيها سوى البعوض. كان يرى، أحياناً، أنه موجود في اليابان، وليس في جزر الماركيزات. كان عليكَ أن تذهب للبحث عن الفردوس هناك يا كوكي، بدل المجيء إلى بولينيزيا الوسطية. ففي بلاد الشمس المشرقة تلك، جميع الأسر هي فلاحة طوال تسعة شهور في السنة، وجميعها فنانة خلال الشهور الثلاثة المتبقية. إنه لشعب متميز ذلك الشعب الياباني. لم يعرف الفصل المأساوي بين الفنان والآخرين، الفصل الذي سرّع في انحدار الفن الغربي. فالجميع في اليابان هم فلاحون وفنانون، في الوقت نفسه. والفن لا يتمثل في محاكاة الطبيعة، وإنما في التحكم بتقنية وإبداع عوالم مختلفة عن العالم الواقعي: لم يفعل أحد ذلك خيراً من فناني الحفر اليابانيين.

- أيها الأصدقاء الغوالي: اجمعوا نقوداً واشتروا لي كيمونو، وأرسلوني إلى اليابان - صرخ بكل قوته، متوجهاً إلى الفراغ الذي يحاصره - وليرقد رمادي هناك، بين أبناء العرق الأصفر. هذه هي مشيئتي الأخيرة، أيها السادة! فتلك البلاد تنتظرني منذ الأزل. إن قلبي ياباني!

إنكَ تضحك، ولكنك تؤمن حرفياً بكل ما تصرخ به. في واحدة من اللحظات القليلة التي يخرج فيها من شبه غيبوبة المورفين، تعرّف عند حافة سريره، على القس فرنر، وعلى تيوكا، أخيه في الاسم. وبصوت ملحّ، أصر على رئيس البعثة البروتستانتية أن يتقبل، كذكرى

منه، نسخة الطبعة الأولى من *L'après-midi d'un faune* التي أهداها إليه، شخصياً، الشاعر مالارميه. شكره بول فرنر على ذلك، بالرغم من أن ما كان يقلق القس الآن، هو أمر آخر:

- القطط البرية، يا كوكي. إنها تدخل بيتك وتأكل كل شيء. وما يقلقنا هو أنها قد تعضكَ، وأنت في الغيبوبة التي يسببها لكَ المورفين. تيوكا يعرض عليكَ الانتقال إلى بيته. وهناك سيعتني بكَ هو وأسرته.

رفض ذلك. فقطط هيفا وا البرية هي صديقته، منذ زمن بعيد، مثلها في ذلك مثل الديوك البرية، والخيول البرية في الجزيرة. فهي لا تأتي فقط للبحث عن مؤن تقاوم بها الجوع؛ وإنما لترافقه كذلك، وتطمئن على صحته. ثم إن تلك القطط المتوحشة، أذكى من أن تأكل كائناً متعفناً، يمكن للجمه أن يسممها. وأسعدكَ أن كلماتك هذه أضحكت القس فرنر وتيوكا.

ولكن، بعد ساعات، أو أيام من ذلك (أم قبل ذلك؟)، رأى بن فارني (متى جاء صاحب المتجر إلى بيت المتعة؟)، جالساً على حافة السرير. وكان ينظر إليه بحزن، بشفقة، وهو يخبر الأصدقاء الآخرين:

- لم يتعرف عليّ. إنه يخلط بيني وبين شخص آخر، ويسميني مِت غاد.

وسمع كي دونغ يخرخر:

- إنها امرأته، زوجته التي تعيش في بلد إسكندنافي، ربما في السويد.

إنه مخطئ بالطبع، لأن مِت غاد، امرأته فعلاً، ليست سويدية وإنما دانماركية، وإذا كانتَ لا تزال حية، فإنها لا تعيش في استوكهولم، وإنما في كوبنهاجن، تقوم ببعض الترجمات، وتُعطي دروساً باللغة الفرنسية. أراد أن يوضح ذلك لصياد الحيتان السابق، ولكن صوته لم يخرج، كما يبدو، أو أنه كان ضعيفاً إلى حد أنهم لم

يسمعوه. فقد واصلوا التحدث في ما بينهم عنكَ، كما لو أنكَ غير واعٍ أو ميت. لم تكن أياً من الأمرين، فأنت تسمعهم وتراهم، وإن يكن بصورة غريبة، كما لو أن ستارة من ماء تفصلك عن أصدقائك في أتونا. لماذا تراكَ تذكر مت غاد؟ منذ زمن طويل، لم تتلق أخباراً منها، وأنت أيضاً لم تكتب إليها. ها هي هناك، بظلها الطويل، ببروفيلها الذكوري، بخوفها وإحباطها وهي تكتشف أن الشاب الذي تزوجت منه، لن يكون أبداً، غوستاف أروزا جديداً، لن يكون ظافراً في غابة الأعمال المالية، ولا برجوازياً مترفاً، بل فناناً غائم المصير، وأنه بعد أن أنزل مستواها، لتعيش كبروليتارية، سيصرفها مع أبنائها إلى كوبنهاجن، كي تعيلها أسرتها، بينما ينطلق هو في حياة بوهيمية. أما زالت على حالها؟ أتراها صارت عجوزاً، بدينة، فظة؟ أراد أن يسأل أصدقاءه، إذا ما كانت لمت غاد الآن، علاقة بتلك التي كانت قبل عشر، أو خمسة عشر سنة. ولكنه اكتشف أنه صار وحيداً. لقد غادر أصدقاؤك، يا كوكي. وعما قريب ستسمع مواء القطط، وستلتقط الخفقان الثقيل لأجنحة الديوك، وسيهز صياحها طبلتي أذنيك، مثل صهيل الخيول الماركيزية. كل هذه الحيوانات ترجع دائماً إلى بيت **المتعة**، فور إحساسها بأنكَ بقيت وحيداً. سترى تجوال أشباحها الرمادية في ما حولكَ، وستراها تتلمس، بشواربها الطويلة، حواف سريركَ. ولكن، خلافاً لما يخشاه صديقك الطبيب فرنر، لن تنقض هذه القطط عليكَ، ربما لعدم مبالاتها بذلك، أو شفقة عليكَ، أو مشمئزة من نتانة ساقيك.

كانت صورة مت تختلط، للحظات، بصورة تيهامانا، امرأتكَ الماووري الأولى. وما يلح على ذاكرتك منها، يا للغرابة، أكثر من شعرها الطويل المائل إلى الزرقة، ومن نهديها الصلبين البديعين، ومن فخذيها اللامعين بالعرق، هي قدمها ذات السبع أصابع، القدم اليسرى - خمس أصابع عادية وإصبعان صغيرتان جداً، نتوءان لحميان صغيران -، وقد رسمتها بورع في لوحة ***تي نافي نافي فينوا***

(الأرض الجميلة)، تلك اللوحة الـ... عند من هي الآن؟ لقد كانت لوحة جيدة وحسب، ولكنها ليست عملاً بارعاً. يا للأسف. إنكَ لا تزال حياً يا كوكي، مهما ارتاب أصدقاؤك في ذلك، وهم يقتربون من سريرك. إن ذهنكَ مثل كور حداد، مثل عاصفة، غير قادر على الاحتفاظ بفكرة، بصورة، بذكرى، لوقت كاف لفهمها والتمتع بها. لا، فكل ما يطل من ذهنك، يختفي فوراً، ويحل محله شلال من الوجوه، والأفكار، والصور، تختفي بدورها دون أن تتيح لوعيك الفرصة للتعرف عليها. إنكَ لا تشعر بالجوع ولا العطش، ولا تشعر بالحرقة في ساقيك، ولا بالصخب في صدرك. يطغى عليك إحساس غريب بأن جسدك قد تلاشى، متآكلاً، متعفناً بالداء الذي لا يُسمى، مثل قطعة خشب، يلتهمها نمل الكوميخون البنمي الذي كان يقضي على غابات كاملة آنذاك. إنك الآن روح خالصة. كائن غير مادي، يا كوكي. لا يتأثر بالألم، ولا بالفساد، طاهر بلا دنس، مثل ملاك.

انقطعت هذه السكينة فجأة (متى يا كوكي؟ قبل؟، بعد؟)، لأنكَ حاولتَ أن تتذكر، إذا ما كنتَ قد بدأتَ في بون آفين، أم في لبولدو، أم في آرل، أم في المارتينيك، عادة كيٍّ لوحاتك لتصير أكثر نعومة واستواء، وغسلها لتخفيف زيت الألوان، وتقليص بريقها. لقد كانت تلك التقنية تُضحك أصدقاءك وتلاميذك (من منهم يا كوكي؟ شارل لافال؟ إميل برنار؟) وكان عليكَ، في آخر الأمر، أن تعترف بأنهم على حق: لا نفع في تلك التقنية. لقد أغرقكَ ذلك الإخفاق في إحباط عميق. هل أخرجكَ المورفين من هذه الذكرى الكئيبة؟ أتراك تمكنت من إمساك الحقنة، وإدخال الإبرة في الزجاجة، وسحبتَ بضع قطرات من السائل، وغرست الإبرة في ساقك، في ذراعك، في بطنك، أو في أي مكان آخر، وحقنتها؟ أنت لا تعرف ذلك. ولكن، لديك إحساس بأنك نمت طويلاً، نمتَ ليلاً بلا نجوم وبلا صخب، بسلام مطلق. والآن، يبدو الوقت نهاراً. إنك تشعر بالراحة والطمأنينة. «الإيمان فيكَ لا يُهزم يا كوكي» صرخ، منفعلاً. ولكن

أحداً لم يعلم بذلك. لأنه لم يكن لكلماتكَ أي صدى. وصرخ: «أنا ذئب في الغابة، ذئب بلا طوق». ولكنكَ لم تسمع صوتك أيضاً، لأن حنجرتك لم تعد تُصدر أصواتاً، أو لأنك صرت أصم.

بعد بعض الوقت، راوده إحساس مؤكد بأن أحد أصدقائه، إنه المخلص، الوفي تيوكا تيموتي، أخوه في الأسم، موجود هناك، يجلس بجانبه. أراد أن يخبره بأشياء كثيرة. أراد أن يقول له إنه، قبل قرون، بعد أن هرب من آرل، ومن الهولندي المجنون، شهد في يوم وصوله بالذات، إلى باريس، الإعدام العلني للقاتل برادو، وإن صورة ذلك الرأس الذي قطعته المقصلة، على ضوء الفجر الباهت، وسط قهقهات الحشود، يظهر له في الكوابيس أحياناً. أراد أن يخبره بأنه، قبل اثنتي عشرة سنة، في حزيران ١٨٩١، عند وصوله أول مرة إلى تاهيتي، رأى موت آخر ملوك الماووري، الملك بوماري الخامس، ذلك العاهل الضخم، الفيلي، الذي انفجر كبده أخيراً، بعد أن أمضى شهوراً وسنوات، وهو يشرب في الليل والنهار، كوكتيلاً قاتلاً اخترعه بنفسه، مركّباً من الروم، والبراندي، والويسكي، يمكن له أن يقضي على أي إنسان خلال ساعات قليلة. وأن موكب جنازته الذي شارك وبكى فيه آلاف التاهيتيين المتوافدين إلى بابيتي، من كل أنحاء الجزيرة، ومن الجزر المجاورة، كان موكباً بالغ الأبهة والكاريكاتيرية في الوقت نفسه. ولكنه أحس أن محاوره الذي يتوجه إليه لا يستطيع سماعه، أو فهمه، لأنه كان ينحني عليه، مقترباً منه كثيراً، حتى كاد يلامسه، وكأنه يريد التقاط شيء مما يقوله، أو التأكد من أنه مازال يتنفس. ليس هناك ما يستحق مواصلة الكلام، وتبديد كل ذلك الجهد في الكلمات، مادام أحد لا يفهمك يا بول. ولا بد أن تيوكا تيموتي، وهو بروتستانتي، ولا يشرب، سيُدين بشدة عادات الملك بوماري الخامس. وهل سيدين عاداتكَ أيضاً، بصمت، يا كوكي؟

أحس بعد ذلك، أن زمناً لا نهائياً ينقضي، دون أن يدري من يكون، ولا ما هو هذا المكان. ولكن ما عذبه أكثر، هو عدم معرفته إذا ما

كان الوقت نهاراً أو ليلاً. وعندئذ سمع، بكل وضوح، صوت تيوكا:

- كوكي! كوكي! هل تسمعني؟ هل أنت هنا؟ سأذهب لاستدعاء القس فرنر، الآن فوراً.

كان صديقه، قليل الكلام عادة، يتكلم بصوت غير مألوف.

- أظن أنه قد أغمي عليّ، يا تيوكا - قال ذلك، وخرج الصوت هذه المرة من حلقه، وسمعه جاره.

بعد قليل، سمع توكيا وفرنر يصعدان السلّم بخطوات واسعة، ورآهما يدخلان المرسم بوجوه متطاولة.

- كيف تشعر يا بول؟ - سأله القس، وهو يجلس إلى جانبه ويربت على كتفه.

- أظن أنه أغمي علي، مرة أو مرتين - قال وهو يتحرك. ورأى صديقيه يهزان رأسيهما. كانا يبتسمان له ابتسامة مغتصبة. ساعداه على الجلوس، في السرير، وعلى شرب بضع رشفات من الماء. هل الوقت ليل أم نهار يا أصدقائي؟ إنه بعد الظهر. لكن الشمس لا تلمع. كانت السماء قد تلبدت بغيوم قاتمة، ويمكن للمطر أن ينهمر في أي لحظة. وكانت أشجار وشجيرات وأزهار هيفا وا تطلق عبيراً عابقاً، وعما قريب ستزداد خضرة أوراقها وأغصانها زخماً وعصارة، وستشتعل حمرة أزهار الجهنمية. إنك تشعر براحة هائلة، لأن أصدقاءك صاروا يسمعون ما تقوله لهم، ويمكنك أن تسمعهم. وبعد زمن أبديّ، صار بإمكانك تبادل الحديث، والإحساس بجمال العالم، يا كوكي.

طلب منهما، بالإشارة، أن يقربا إليه اللوحة الصغيرة التي ترافقه منذ زمن بعيد: منظر لبريتاني مغطاة بالثلج. أحس بهما يتحركان في المرسم؛ يجران حمالة لوحات، يجعلانها تصرّ. لا شك في أنهما يضبطان فتح مفصلاتها، ليكون منظر الثلج ذاك قبالة سريره، بحيث يمكنه أن يراه. لم يره. وإنما ميز فقط بعض الكتل غير الواضحة. لا بد أن إحدى تلك الكتل هو منظر بريتاني، وقد فاجأتها عاصفة من

الثلج الأبيض. ولكن معرفته أن ذلك المنظر هناك، وإن كان لا يراه، أشعره بالراحة. أحس بقشعريرة، كما لو أن الثلج يهطل داخل بيت **المتعة**.

سأل:

- هل قرأت **سالامبو**، رواية فلوبير تلك، ايها القس؟

قال فرنر نعم، وإن كان، كما أضاف، لا يتذكرها جيداً. إنها رواية وثنية، عن قرطاجيين وبرابرة مرتزقة، أليس كذلك؟ فأكد له كوكي أنها رائعة. فقد وصف فيها فلوبير، بألوان برّاقة، كل ما لدى شعب بربري من العزم، والقوة الحيوية، والطاقة الخلاقة. وردد الجملة الأولى التي تفتته موسيقاها: « *C'était à Mégara faubourg de Carthage, dans les jardins d'Hamilcar*»[1]. وأضاف: «الغرابة الإكزوتيكية هي حياة، أليس كذلك أيها القس؟»

سمع فرنر يقول له، بعذوبة:

- يسعدني جداً أن أراك وقد تحسنت، يا بول. عليّ أن أعطي درساً لتلاميذ المدرسة. لن تتضايق لو ذهبتُ لساعتين؟ سأعود في المساء، على أي حال.

- اذهب، اذهب أيها القس، ولا تقلق. إنني في حالة جيدة الآن.

أراد أن يداعبه بعبارة مازحة («سوف أهزم كلافييه بموتي، لأنني لن أدفع الغرامة، ولن يتمكن من إدخالي إلى السجن») ولكنه كان قد ظل وحيداً. بعد قليل من ذلك، رجعت القطط الوحشية، وراحت تتجول في المرسم. ولكن الديوك البرية كانت هناك أيضاً. لماذا لا تأكل القططُ الديوكَ؟ أتراها عادت حقاً أم أنها تخيلات، يا كوكي؟ لأن تلك الحدود التي تفصل بصرامة، بين الحلم والحياة، كانت قد تلاشت منذ بعض الوقت. هذا الذي تراه الآن، هو ما كنت ترغب

---

[1] العبارة بالفرنسية في الأصل: «كان ذلك في ميغارا، من ضواحي قرطاج، في حدائق هاميلكار».

دوماً في رسمه، يا بول.

وفي هذا الزمن الذي بلا زمن، كان يردد، كما في واحد من تلك المقاطع التي يرتلها البوذيون المحببون إلى شوف الطيب:

لقد خوزقتك
يا كلافييه
لقد متُ
وخوزقتك

أجل، لقد خوزقته: لن تدفع الغرامة، ولن تذهب إلى السجن. لقد كسبت، يا كوكي. بدا له، بصورة غامضة، أن أحد هذين الخادمين اللذين لم يعودا يظهران في بيت **المتعة**، ربما هو كاهوي، يقترب ليشمه ويلمسه. وسمعه يصيح: «لقد مات *البوبا*»، قبل أن يختفي. ولكن، لا بد أنكَ لم تمت بعد، لأنك مازلتَ تفكر. وكنتَ مطمئناً، وإن أحسست بالحزن، لأنك لا تعرف إذا ما كان الوقت نهاراً أم ليلاً.

وأخيراً، سمعَ أصواتاً في الخارج: «كوكي! كوكي! هل أنت بخير؟». إنه تيوكا، دون أدنى شك. لم يحاول بذل أي جهد، للرد عليه، فقد كان واثقاً من أن حنجرته لن تُصدر أي صوت. أحس بصعود تيوكا على سلّم المرسم، وبوقع قدميه الحافيتين على خشب الأرضية. وقريباً جداً من وجهه، رأى وجه جاره، مغموماً، مشوشاً، وأحس بشفقة شديدة عليه، لما يسببه له من حزن. حاول أن يقول له: «لا تحزن، فأنا لم أمت، يا تيوكا». ولكن، لم يخرج من فمكَ، بالطبع، أي حرف. حاولَ أن يحرك رأسه، إحدى يديه، إحدى قدميه، ولم تتمكن بالطبع، من عمل ذلك. وبصورة غائمة جداً، من خلال عينيه نصف المغمضتين، لمح أخاه في الاسم، وقد بدأ يضربه على رأسه. «شكراً لك يا صديقي.» أتراه يحاول أن يُخرج الموت منكَ، حسب طقس ماركيزي غامض؟ «لا جدوى من ذلك يا تيوكا.» كنتَ ترغب في أن تبكي من التأثر، ولكن لم تخرج دمعة واحدة، بالطبع، من عينيكَ

الجافتين. وبتلك الصورة الغائمة نفسها، البطيئة، الشبحية التي مازال يرى بها العالم، رأى تيوكا، بعد أن ضربه على رأسه، وشدّه من شعرهِ ليجره إلى الحياة، يتخلى عن مسعاه. لقد بدأ الآن يغنيِ، يولول، بعذوبة مريرة، إلى جانب السرير، ويتأرجح في الوقت نفسه، على ساقيه، دون أن يتحرك من مكانه، مؤدياً بذلك، وهو يغني، الرقصة التي يودع بها ماووريو جزر الماركيزات موتاهم. ألست بروتستانتياً يا تيوكا؟ أحسستَ بالسعادة وأنت ترى أنه تحت المسيحية التي يجهر بها جارك في العلن، مازالت تعشش ديانة الأسلاف. يجب ألا تكون قد مت بعد، لأنك ترى تيوكا يرافقك ويودعك، أليس كذلك يا كوكي؟

في هذا الزمن الذي بلا زمن، والذي صار زمنه الآن، دخل إلى المرسم، أسقف هيفا وا، المنسنيور جوزيف مارتين، يقوده الخادم كاهوي، ويرافقه حارساه، اثنان من متديني تلك الطائفة البريتانية، المدعوة رهبان بلورميل، التي تشرف على إدارة مدرسة الذكور في البعثة الكاثوليكية. راوده إحساس بأن الراهبين قد رسما إشارة الصليب لدى رؤيته، أما الأسقف فلم يفعل. انحنى المونسنيور مارتين وتفحصه، مطولاً، دون أن تتأثر ملامح وجهه، أدنى تأثر، بما يراه. وسمعه يقول:

- أي زريبة خنازير هي هذه. يا للنتانة. لا بد أنه ميت منذ ساعات. فالجثة تتعفن. يجب دفنه بأسرع ما يمكن، لأنه يمكن للتفسخ أن يجلب التلوث والعدوى.

لم يكن قد مات بعد. ولكنه لم يعد يرى، لأن أحد الحاضرين أطبق له جفنيه، أو لأن الموت قد بدأ بعينيه، كرسام. ولكنه كان يسمع، أجل، وبوضوح كاف، ما يقال في ما حوله. سمع تيوكا يوضح للأسقف، بأن هذه النتانة ليست آتية من الموت، وإنما من ساقي كوكي الملتهبتين، وأن موته حدث للتو، لأنه تحدث إليه وإلى القس بول فرنر، قبل أقل من ساعتين. وبعد وقت قصير أو طويل، دخل رئيس

البعثة البروتستانتية كذلك، إلى المرسم. كنتَ واعياً (أم أنه التخيل الأخير، يا كوكي؟) الفتور الذي تبادل به التحية، العدوان اللذان يخوضان صراعاً ضارياً، في تنازعهما أرواح أهالي أتونا. ومع أنه لم يشعر بشيء، إلا أنه عرف أن القس البروتستانتي، يحاول إجراء تنفس اصطناعي له. وقد أنبه الأسقف مارتين بسخرية:

- ولكن، ما هذا الذي تفعله يا رجل الرب. ألا ترى أنه ميت؟ أتظن أنك ستبعثه؟

فردّ فرنر:

- واجبي أن أحاول كل شيء، من أجل الإبقاء على حياته.

بعد ذلك مباشرة تقريباً، انفجر العداء المكبوت بين الأسقف والقس، في حرب كلامية مفتوحة. ومع أنه كان يبتعد أكثر فأكثر، ويضعف أكثر فأكثر (فقد بدأ وعيك يموت أيضاً، يا كوكي) إلا أنه استطاع سماعهما، إلا أنه لم يكن يهتم بما يقولانه. ولكنه كان جدلاً سيُمتعك، لو أنك في ظروف أخرى. كان الأسقف قد طلب، باستياء، من الراهبين المرافقين، أن ينتزعا عن الجدار، تلك الصور الفاحشة البذيئة، وإحراقها. وكان القس فرنر، يتذرع بأن تلك الصور البورنوغرافية، بالرغم مما تشكله من خدش للأخلاق، هي جزء من ممتلكات المتوفى، والقانون هو القانون: لا يمكن لأحد، بمن في ذلك السلطات الدينية، التخلص منها دون حكم قضائي مسبق. وبصورة غير منتظرة، جاء صوت الدركي جان بول كلافييه الكريه - متى دخل هذا الكائن البغيض إلى بيت المتعة - ليؤيد القس:

- أخشى أن الأمر كذلك يا صاحب النيافة. فواجبي هو جرد كل ممتلكات المتوفى، بما في ذلك هذه القذارات التي على الجدار. لا يمكنني السَّماح لحضرتك بحرقها أو أخذها. متأسف يا صاحب النيافة.

لم يقل الأسقف شيئاً، غير أن هذه الأصوات لا بد أن تكون همهمة، دمدمة، اعتراضاً من أحشائه المستاءة، حيال هذا العائق غير

المتوقع. ودون فاصل زمني تقريباً، اندلع نزاع آخر. فعندما بدأ الأسقف بإملاء تعليمات، بشأن الدفن، اعترض القس فرنر، باندفاع غير معهود في طبعه المتكتم والمُصَالِح، على دفن المتوفى في مقبرة هيفا وا الكاثوليكية. وتذرع بأن علاقة بول غوغان بالكنيسة الكاثوليكية كانت مقطوعة، لا وجود لها، بل عدائية، منذ زمن طويل. ورفع الأسقف صوته إلى حدّ الصراخ، ليردّ بأنه إذا كان صحيحاً، أن المتوفى كان خاطئ بارز، ومتعسف اجتماعياً، إلا أنه كاثوليكي في الأصل. وسيدفن، بالتالي، في تربة مقدسة، رغم أنف كل من يعترض، وليس في مقبرة وثنية. تواصل تبادل الصراخ، إلى أن تدخل الدركي كلافييه، قائلاً إنه سيتولى بنفسه حسم هذا الأمر، باعتباره السلطة السياسية والمدنية في الجزيرة. ولن يفعل ذلك فوراً. لأنه يفضل أن تهدأ الخواطر، وأن يتم بهدوء، موازنة وجهتي النظر في هذا الوضع. ولسوف يقرر ذلك خلال الليل.

ومنذ هذه اللحظة، لم يعد يرى، ولم يسمع، ولم يعرف شيئاً، لأنكَ كنتَ قد مت تماماً، للتو، يا كوكي. لم يعرف ولم يرَ أن الأسقف جوزيف مارتين قد حقق ما أراده، في المسألتين اللتين واجه فيهما القس فرنر، إلى جوار جثة بول غوغان الدافئة، وإن تكن السبل التي لجأ إليها هي الأكثر ملاءمة للقانون والعرف الأخلاقي السائد. ففي تلك الليلة، عندما لم يبق في **بيت المتعة** سوى جثة كوكي، وربما بعض الديوك والقطط البرية الدخيلة، أرسل الأسقف من سرق الخمس وأربعين صورة بورنوغرافية التي تزيّن المرسم، كي يحرقها في محرقة تفتيش، أو ربما ليحتفظ بها مخبأة، كي يختبر، بين حين وآخر، صلابة معنوياته، وقدرته على مقاومة الغواية.

لم يرَ كذلك، ولم يسمع، ولم يعرف أن الأسقف مارتين، وقبل أن يقرر الدركي جان بول كلافييه مكان الدفن، أرسل في فجر يوم التاسع من أيار ١٩٠٣، أربعة حمالين وطنيين، تحت إمرة راهب من البعثة الكاثوليكية، ليضعوا جثة المتوفى في نعش من أخشاب غير

مصقولة، وفرته البيئة نفسها، وحمله بسرعة، في الوقت الذي بدأ فيه أهالي أتونا التمطي في أكواخهم وتوديع النعاس بالتثاؤب، إلى رابية ماكي-ماكي، ودفنه بأسرع ما يمكن في أحد قبور المقبرة الكاثوليكية، ليكسب بذلك نقطة - جثة أو روحاً - في معركته مع الخصم البروتستانتي. وهكذا، عندما وصل القس فرنر، يرافقه كي دونغ، وبن فارنر، وتيوكا تيموتي، في الساعة السابعة صباحاً، إلى بيت المتعة، من أجل دفن كوكي، في المقبرة العلمانية، وجد المرسم خاوياً، وخبر أن كوكي صار يرقد تحت التراب، في المكان الذي قرره المونسنيور مارتين.

لم ير، ولم يسمع، ولم يعرف أن الكتابة الوحيدة عن موته، كانت رسالة من أسقف هيفا وا إلى رؤسائه. وهي رسالة صار يوردها، مع مرور السنوات (بعد أن أصبح كوكي مشهوراً، ومحط إطراء ودراسة، يتنازع لوحاته المقتنون والمتاحف في العالم بأسره)، ويأتي على ذكرها كل من كتبوا سيرة حياته، باعتبارها رمز لمدى جور الحظ أحياناً، مع الفنانين الذين يحلمون بالعثور على الفردوس في وادي الدموع الأرضي هذا: «والشيء الوحيد الجدير بالذكر، أنه مات مؤخراً، في هذه الجزيرة، موتاً مفاجئاً، شخص يدعى بول غوغان، وهو فنان معروف، ولكنه عدو للرب، ولكل ما هو محتشم على هذه الأرض».

ماريو بارغاس يوسا

Mario Vargas Llosa

- ولد ماريو بارغاس يوسا في مدينة اريكيبا (البيرو) في الثامن والعشرين من آذار (مارس) ١٩٣٦.
- درس الآداب والفلسفة في جامعة سان ماركوس في ليما، وبدأ بنشر قصصه القصيرة الأولى. وقد حصلت إحدى تلك القصص على جائزة أتاحت له السفر إلى أوروبا والحصول على منحة في فرنسا.
- حصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة مدريد.
- عمل في التدريس كأستاذ دائم أو زائر في عدد كبير من الجامعات الإنكليزية والإسبانية والأمريكية والفرنسية والأمريكية اللاتينية.
- خاض انتخابات الرئاسة في البيرو عام ١٩٩٢، ولكنه خسرها في مواجهة منافسه الرئيس السابق فوجيموري، فغادر البيرو، وحصل على الجنسية الإسبانية (مع احتفاظه بجنسيته البيروية).
- تمكن بارغاس يوسا (الأسلوبي على طريقة فلوبير) من تجديد الرواية الواقعية، متجاوزاً الأشكال القديمة من الواقعية الوثائقية.
- نال عدداً كبيراً من الجوائز الأدبية، مثل جائزة بيبليوتيكا بريفي (١٩٦٢)، جائزة النقد (١٩٦٣ و١٩٦٦) جائزة روميلو غييغو الدولية للأدب (١٩٦٧) جائزة ثيرفانتس (١٩٩٢) وجائزة بلانيتا (١٩٩٤)، وهو «مرشح دائم لجائزة نوبل».
- يتناول في رواياته موضوعات العنف، والنفاق الاجتماعي، والفساد الأخلاقي (خصوصاً في المؤسسة العسكرية) ويعريها بقسوة.

● من أبرز أعماله:

في القصة القصيرة:

«القادة» (١٩٥٩). «الجراء/ قصة طويلة» (١٩٦٧).

في الرواية:

«المدينة والكلاب» (١٩٦٢)، «البيت الأخضر» (١٩٦٦)، «محادثة في الكاتدرائية» (١٩٩٦)، «العمة خوليا والمخربش» (١٩٧٧)، «حرب نهاية العالم» (١٩٨٠)، «قصة مايتا» (١٩٨٤)، «من قتل بالومينو موليرو؟» (١٩٨٦)، «امتداح الخالة» (١٩٨٨)، «ليتوما في جبال الأنديز» (١٩٩٥)، «دفاتر دون ريغوبيرتو» (١٩٩٧)، «حفلة التيس» (٢٠٠٠)، «الفردوس على الناصية الأخرى» (٢٠٠٣).

الدراسات:

«غابرييل غارسيا ماركيز، قصة محطم آلهة» (١٩٧١)، «الرواية ومسألة التعبير الأدبي في البيرو» (١٩٧٢)، «المجون الأبدي، فلوبير ومدام بوفاري» (١٩٧٥)، «خوسيه ماريا أرغويديس، بين الضفادع والنسور» (١٩٧٨)، «ضد الريح والموج» (١٩٨٣)، «رسائل إلى روائي شاب» (١٩٩٧).

المسرح:

«آنسة تاكنا» (١٩٨١)، «كاثي وفرس النهر» (١٩٨٣)، «لاتشونغا» (١٩٨٦).

أين هو الفردوس الأرضي؟

أهو في بناء مجتمع المساواة، أم في العودة إلى العالم البدائي؟

من خلال حياتين: حياة فلورا تريستان التي كرست وجودها للنضال في سبيل حقوق المرأة والعمال. وحياة بول غوغان، الرجل الذي اكتشف ولعه بالرسم، وتخلى عن حياته البرجوازية ليسافر إلى تاهيتي، بحثاً عن عالم غير ملوث بالأحكام المسبقة.

ومن خلال نظرتين إلى الجنس: نظرة فلورا التي لا ترى في الجنس إلا أداة لهيمنة الذكور على النساء، ونظرة غوغان الذي يعتبر الجنس قوة حيوية، لا غنى عنها في عمله الإبداعي.

يكشف ماريو بارغاس يوسا عالم اليوتوبيات التي انتشرت في القرن التاسع عشر، رابطاً بين حياتين متعارضتين (حياة فلورا وحفيدها غوغان)، تسعيان إلى هدف مشترك: بلوغ فردوس تكون فيه السعادة ممكنة لجميع بني البشر.

تصميم الغلاف: ناظم حمدان



دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - اللاذقية - ص. ب 1018 هاتف 422339